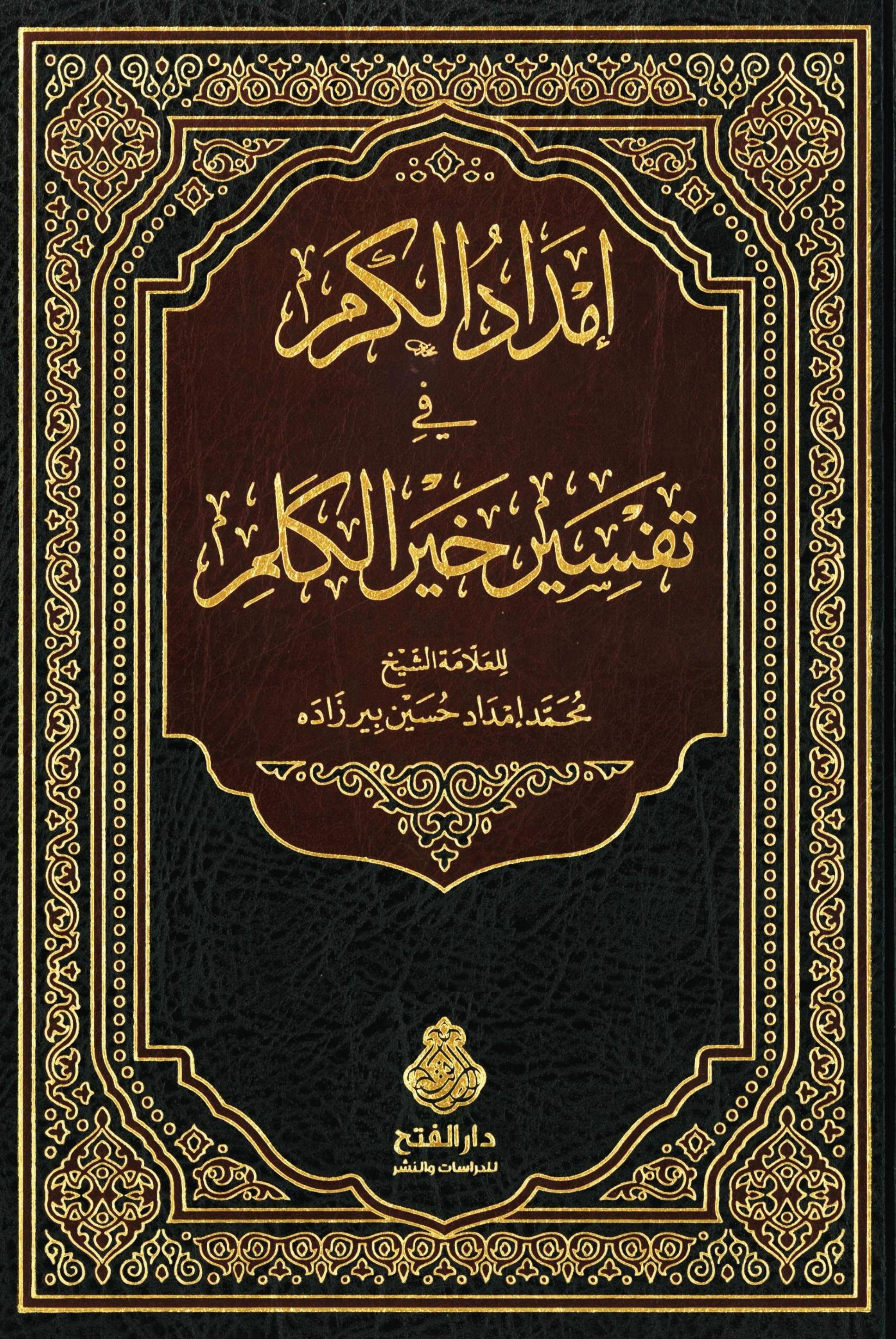

إمداد الكرم
في
تفسير خير الكلم
للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده
دار الفتح
للدراسات والنشر

إمداد الكرم

في

تفسير خير الكلم

للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بيرزاده

إمداد الكرم في تفسير خير الكَلِم
للعلامة الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده
نقله عن الأردية أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد
الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قياس القطع: 17 × 24
الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٤٢١-٨ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٧٥٧/٤/٢٠١٧)



دار الفتح للدراسات والنشر
هاتف: 4646199 6 (00962)
جوال: 777925467 (00962)
ص.ب: 183479 عمّان 11118 الأردن
البريد الإلكتروني: info@daralfath.com
الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

الناشر بالمملكة المتحدة:



Al-Karam Publications
Eaton Hall
Retford
Nottinghamshire
DN22 0PR
England, United Kingdom
Tel: +44 (0) 1777 702555
Email: info@alkarampublications.com
Website: www.alkarampublications.com







للعلامة الشيخ

محمد إمداد حسين بير زاده

نقله عن الأردية

أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد

الجزء الثاني




بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس مضامين

المجلد الثاني

❋ ❋ ❋

فهرس مطالب
المجلد الثاني

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٦) سُورَةُ الأَنْعَامِ

هذه السُّورةُ مكِّيّةٌ، لأنّها نَزَلت قبْلَ الهجرةِ النَّبويَّة، فقد حرَّم مشركو مكّةَ بعضَ المواشي على أنفُسِهم وحَلَّلوا البعضَ الآخَرَ بسببِ عاداتِهم وتقاليدِهِم الجاهليَّة، وفي هذه السُّورة أبطَلَ اللهُ تعالى تلك الأفكارَ الفاسدةَ التي حَرَّم المشركون ـ على أساسِها ـ بعضَ المواشي وحَلَّلوا بعضَها، ولهذا سُمِّيتِ السُّورةُ باسم (الأنعام: المواشي).

لم تكنْ هناك حكومةٌ إسلاميَّةٌ في مكّةَ قبْلَ الهجرة، ولم يكن اليهودُ والنَّصارى يعيشونَ هناك، وإنّما كان كلُّ سُكّانِ مكّةَ تقريبًا من عَبَدةِ الأصنام والمشركين، ولهذا جاء بيانُ العقائدِ الأساسيَّةِ للإسلام مِثلَ: التّوحيد والنُّبوَّةِ والآخِرةِ في هذه السُّورة بأسلوبٍ سَهْل وبسيطٍ يفهَمُه الجميعُ.

وقد بَدَأتْ هذه السُّورةُ بالحديثِ عن ذاتِ اللهِ تعالى وصفاتِه، بمعنى: أنّ اللهَ هو ذلك الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وجَعَل الظُّلماتِ والنُّورَ، وخَلَق الناسَ من طين، لكنّ مشركي مكَّةَ كانوا يعتقدونَ في عبادةِ الأصنام بطريقةٍ متعصِّبة، جَعَلتْهم غيرَ مستعِدِّينَ لسَماع أيِّ حديثٍ عن التَّوحيد، وإنّما كانوا يَسخَرونَ من العقائد الإسلاميَّة، ويُجادلونَ بحُجَج وبراهينَ واهيةٍ، يعني: لماذا لم يُنزِل اللهُ تعالى كتابًا مكتوبًا أمامَهم من السَّماء، فيَلمَسوهُ بأيديهم ويَرَوْه بأعيُنِهم، ومعَ ذلك

ينكرونَه قائلينَ: إنه من عَمَل السِّحر، مثلَما جاء في الآية رقم ٧ من هذه السُّورة.

في هذه السُّورةِ طَمْأَن اللهُ تعالى سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ بأنّ الأُممَ السَّابقةَ سَلَكوا معَ أنبيائهم طريقَ العِناد، ولهذا لا تَحزَنْ ممّا تراهُ من تعصُّبِهم وعِنادِهم، واستمِرَّ بثباتٍ في الدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنّ صَلاتَك وتضحياتِك وحياتَك وموتَك لرضى الله تعالى فقطْ، وهذا هو السرُّ الحقيقيُّ للنَّجاح، والعبدُ المؤمنُ الذي يَعرِفُ سرَّ الحياة هذا، ويَجعَلُ عبادتَه وحياتَه وموتَه لله تعالى فقطْ، فقد وَصَل إلى مِعراج الصِّدقِ من الخَلْق. يا ربَّ العالمين، هذا العبدُ الضَّعيفُ المُذنبُ قد وَقَف حياتَه وموتَه وكلَّ طاقاتِه بحسَبِ زَعْمِه من أَجْل دينِك الحقِّ، فاطرَحْ فيه البركةَ وامنَحْه الصِّدقَ والاستقامةَ، آمين.

الفقيرُ إلى الله:

محمَّد إمداد حُسين بيرْزاده:

جامعة الكَرَم، بريطانيا.

❋ ❋ ❋

سورة الأنعام (٦)،

مكية (٥٥)، آياتها (١٦٥)، ركوعاتها (٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

١ ـ المستحِقُّ الحقيقيُّ للثَّناءِ هو اللهُ تعالى، الذي خَلَق كائناتٍ لا حدَّ لها في صُورة السَّماءِ والأرض، سواءٌ كانت النُّجومَ في السَّماء، أو الأحجارَ في الأرض،

أو الإنسانَ، كلُّها نماذجُ لخَلْق اللهِ تعالى، ثم جَعَلَ سلسلةً رائعةً من النُّورِ والظَّلام في شكلِ اللَّيل والنَّهار، بحيثُ يستفيدُ الإنسانُ من نِعَم السَّماءِ والأرضِ في ضوءِ النَّهار، ويَخلُدُ إلى النَّوم في ظلام اللَّيل فيستريحُ ويَسكُن. وباختصار: فإنّ الخالقَ الحقيقيَّ لكلِّ شيءٍ في هذه الكائناتِ هو اللهُ تعالى، ولا يمكنُ أن يكونَ أيُّ شيءٍ في هذه الكائناتِ مساويًا لله تعالى أو مِثلَه.

والكفَّارُ أيضًا يَعلَمونَ هذه الحقيقةَ بأنّ السَّماواتِ والأرضَ ليست من صُنع أيِّ بشَر، ولكنْ ما أعجَبَ الكفَّارَ! إذ إنه بالرَّغمْ من كلِّ هذه البراهينِ الواضحةِ يَجْحَدونَ بنِعَم الله تعالى، ويَنحرِفونَ عن طريقِ المتفضِّل الحقيقيِّ عليهم، ويَعتبِرونَ ما خَلَقَه اللهُ ـ مِثلَ الإنسان والقمرِ والنُّجوم أو الأحجارِ وغيرِها ـ مساويةً للهِ تعالى، فهم إمّا يرفَعونَ درجةَ المخلوقِ فيجعلونَها مساويةً لله تعالى، أو أنَّهم يُقلِّلونَ من شأنِ الله تعالى فيجعلونَه مُساويًا لِما خَلَق، والحالتانِ مخالفتانِ للعَقْل، مثلَما أنّ الكُرسيَّ لا يمكنُ أبدًا أن يكونَ مِثلَ صانِعه، كما لا يُمكنُ أن يكونَ صانعُ الكُرسيِّ مثل الكُرسيِّ الذي صُنِع؛ (لأنّ الكُرسيِّ مَظْهَرٌ لعملِ الصّانع، الذي يستطيعُ أن يصنَعَ مئاتِ الكراسيِّ مثلَه، بينَما لوِ اجتمعَتْ آلافُ الكراسيِّ لكي تَخلُقَ صانعَها فلن تستطيعَ)، وهكذا لا يمكنُ أن يكونَ المخلوقُ مِثلَ الخالقِ سبحانَه وتعالى، ولا يمكنُ أن يكونَ الخالقُ سبحانَه وتعالى مِثلَ المخلوق، فاللهُ هو اللهُ في كلِّ حال، هو الخالقُ الذي ليس كمِثلهِ شيء، ولا يمكنُ أن يكونَ أيُّ شيءٍ في الكائنات مِثلَه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾

٢ ـ اللهُ تعالى خَلَقَكم، أي: بني الإنسانِ، من طينٍ، وهذا يعني: أنّ اللهَ تعالى خَلَقَ الإنسانَ الأوّلَ، أي سيِّدَنا آدمَ عليه السَّلام، من طينٍ، وأنتم أولادُ آدمَ هذا، ولهذا فإنّ أصلَكم أنتم أيضًا من الطِّين، وهناك مفهومٌ آخرٌ، وهو: أنّ ما تأكلونَه غذاءً في شكلِ الفاكهةِ والخُضْرواتِ خُلِقت من الأرض، والحيَواناتُ التي تأكلونَ لحومَها

تعيشُ هي الأخرى على ما تُنتجُه الأرضُ، والنُّطْفةُ تتكوَّنُ من هذه الأغذِية، وهي التي تستقرُّ في رَحِم الأُمِّ فتكونُ سببًا لخَلْقِ الإنسان، ولهذا أيضًا فإنّ أصلَكم من الطِّين.

على أيّة حالٍ، خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ الأوّلَ من الطِّين مباشرةً، وخَلَقَ أبناءَ آدمَ من الطِّين بشكلٍ غيرِ مباشر، وفي الحالتَيْنِ فإنّ أصلَ كلِّ إنسان هو الطِّينُ، وبالتالي على كلّ إنسانٍ أن يتذكَّرَ الأصلَ الذي خُلِق منه ويَرجِعَ عن تكبُّرِه، وأبو بني البشَرِ جميعًا واحدٌ، لهذا ينبغي له ألّا يَحتقِرَ الآخَرين، بل يجبُ على بني الإنسانِ جميعًا أن يتعايَشوا معًا في أمنٍ وحبٍّ وسَلام بناءً على صلةِ الأبِ الواحد والأصل الواحد، وأن يُحبَّ كلٌّ واحدٍ للآخَر ما يحبُّه لنفسِه، مثلَما وَرَد في الحديثِ الشريف، **عن معاذٍ رضيَ اللهُ عنه، أنّه سأل رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم عن أفضَل الإيمان، قال: «أفضَلُ الإيمانِ أن تُحبَّ لله وتُبغِضَ في الله وتُعمِل لسانَك في ذِكرِ الله، قال: وماذا يا رسولَ الله؟ قال: «وأن تُحبَّ للنّاسِ ما تحبُّ لنفسِك وتكرَهُ لهم ما تكرَهُ لنفسِك، وأن تقولَ خيرًا أو تصمُتَ»**[١].

وهناك سؤالٌ يمكنُ أن يثُورَ في بعضِ الأذهان، وهو: أنه إذا كان أبونا وأصلُنا واحدًا، فلماذا تختلفُ ألوانُنا وأطوارُنا؟ إنّنا جميعًا نَعلَمُ أنّ ألوانَ الطِّين مختلفة، وهناك فرقٌ بيْنَ الطِّين بعضِه البعض من حيثُ لِينُه وشِدَّتُه، ولأنّ اللهَ تعالى قد جَمَع كلَّ أنواع الطِّين وخَلَق منه آدمَ، لهذا كان هناك فرْقٌ بيْنَ البشَرِ بعضِهم البعض بما يتناسبُ ألوانَ وحالاتِ الطِّين المختلفة، وقد قال النبيُّ ﷺ فيما رَواهُ أبو موسى الأشعَريُّ: **«إنّ اللهَ تعالى خَلَق آدمَ من قَبْضةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدمَ على قَدْرِ الأرض، فجاء منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسوَدُ وبيْنَ ذلك، والسَّهلُ والحَزْن والخبيثُ والطّيِّب»**[٢].

---

(١) مسند أحمد، ٥: ٢٤٧ برقم ٢٢٤٨٣.

(٢) الترمذي، تفسير القرآن، سورة البقرة (٢): حديث رقم ١.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾

٣ ـ بعدَ أنْ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ حدَّد وقتَ موتِه، والمرادُ منه: أنّ عُمُرَ الإنسانِ منذُ ولادتِه وحتى وفاتِه، ووقتَ القيامة، محدَّدٌ عندَ الله تعالى، والمرادُ منه عُمُرُ الدُّنيا كلِّها منذُ موتِ الإنسان وحتى قيام الساعة، حيث تفنَى الدُّنيا بعدَها، وتبدأُ دنيا أُخرى، هي بدايةُ الحياةِ الآخِرة.

في بعضِ الأحيان يَعرِفُ الإنسانُ وقتَ موتِه بسببِ علامةٍ خاصَّة أو بسببِ مرضٍ ما، لكنّ العِلمَ اليقينيَّ بقيام السَّاعةِ عندَ الله تعالى فقطْ، ولا يمكنُ لآخَرَ أن يُدركَه بمَحْضِ اجتهادِه أو عَقْلِه وفراستِه، ودونَ أن يُخبرَه اللهُ تعالى به.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

٤ ـ كان الكفَّارُ والمشركونَ ينظُرونَ إلى موضوع القيامة، يعني: البعثِ بعدَ الموت، نظرةَ الشكِّ والرِّيبةِ، وكانوا يقولون: إذا كنّا سنموتُ ونتحلَّلُ في الطِّين فكيف يستطيعُ اللهُ تعالى أن يُحيِيَنا من جديد؟ وفي هذه الآيةِ دليلٌ بسيطٌ مفهومٌ لإزالةِ شكِّهم هذا، بمعنى: أنه إذا كان اللهُ تعالى قد خَلَقَ الخَلْقَ للمرَّةِ الأُولى من الطِّين ومن النُّطْفة، فهل يُعجِزُه أن يَخلُقَ ثانيةً من الطِّين؟ لقد خلَقَكم أنتم على كلِّ حالٍ من مادة، أي: من الطِّين، ، لكنّ اللهَ تعالى قُدرتُه عظيمةٌ بحيثُ خَلَق كائناتٍ ضخمةً وعظيمةً مثلَ: السَّماءِ والأرض، من غيرِ مادة، وإنّما بأمرِه فقطْ، وهو أمرٌ أعظمُ في كلِّ حالٍ من خَلْق الإنسان، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، أي: لا يَعلَمونَ هذه الحقيقةَ.

إذا كان اللهُ تعالى يستطيعُ أن يَخلُقَ السَّماءَ والأرضَ بغيرِ مادة، فهل يَصعُبُ عليه جَمْعُ ذَرّاتٍ متَناثرةٍ للإنسان؟ ولمزيدٍ من التوضيح إليكَ هذا الحديثَ الشَّريف:

عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «قال رجُلٌ لم يَعمَلْ خيرًا قطُّ: فإذا مات فحرِّقوه واذْرُوا نصفَه في البرِّ ونصفَه في البحر، فواللهِ لئن قَدَّر اللهُ عليه لَيُعذِّبَنَّه عذابًا لا يُعذِّبُه أحدًا من العالَمين، فأمَرَ اللهُ البحرَ ليجمعَ ما فيه، وأمرَ البرَّ فجَمَع ما فيه، ثمّ قال: لمَ فعلتَ؟ قال: من خشيتِك وأنت أعلمُ، فغَفَر له»[1].

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

٥ ـ يعني: أنّ حُكمَ الله تعالى ومَلَكوتَه في السَّماواتِ والأرض، ولا شريكَ له في هذا، ونظامُ الكائناتِ كلِّها يسيرُ مُجِدًّا في سَيْرِه بإذْنِ الله تعالى وحِكمتِه، ولهذا فهو وحدَه المستحِقُّ للعبادة، كما أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ أحوالَ البشَرِ كلَّها ظاهرَها وباطنَها، وكلَّ خيالٍ كامنٍ في أعماقِ القلب، وكلَّ كلمةٍ تَخرُجُ من اللِّسان، وكلَّ فعلٍ يصدُرُ عن أعضاءِ الإنسان معروفٌ له واضحٌ أمامَه، ولهذا ينبغي لكلِّ إنسانٍ أن يتجنَّبَ عِصيانَ الله تعالى في عقيدتِه وعَمَلِه، حتى لا يندمَ يومَ القيامة؛ لأنه ـ في ذلك اليوم ـ لن يستطيعَ إنسانٌ أن يُخفيَ أخطاءه، كما أنّه لن يُفلِتَ أحدٌ من الحساب.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

٦ ـ لقد بَلَغ الحالُ بتعصُّبِ وعِنادِ كفَّارِ مكّةَ ضدَّ المسلمينَ أنه كلَّما جاءتْهم علامةٌ من الله تعالى أو آيةٌ من آياتِ القرآنِ الكريم، أو معجزةٌ من معجِزاتِ النبيِّ ﷺ لهدايتِهم، فإنّهم كانوا بدَلًا من تأمُّلِها وتدبُّرِها، يُعرِضونَ عنها ويُكذِّبونَها دونَ أن يتمعَّنوا فيها، وفوقَ ذلك كانوا يَسْخَرونَ منها، في حينَ أنّهم لو تفكَّروا في آياتِ

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٥، برقم ٧٥٠٦.

القرآنِ المَجيد، وفي معجِزاتِ النبيِّ ﷺ لَبدَتْ لهم وَحْدانيَّةُ الله تعالى ونُبوَّةُ النبيِّ ﷺ واضحةً تمامًا.

وقد حذَّرهم اللهُ تعالى في هذه الآيةِ من أنّهم إذا كانوا اليومَ يسخَرونَ من القرآنِ الكريم ومنَ النبيِّ ﷺ، فإنهم سوف يَرَوْنَ صِدقَه قريبًا بعدَ موتِهم، وسيَلقَوْنَ عذابَ تكذيبِهم له، وسوف يندَمونَ على عِنادِهم وصَلَفِهم، ولكنّ ندَمَهم في ذلك الوقت لن يُفيدَ شيئًا، ولهذا ينبغي لهم أن يَستعمِلوا عقولَهم من اليوم، ويَقبَلوا الحقَّ، فينالوا فلاحَ الدارَيْنِ، ولا يُضْطَرُّونَ إلى النَّدم فيما بعدُ.

﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾

٧ ـ في هذه الآيةِ يُنبِّهُ اللهُ تعالى كفَّارَ مكّةَ، بمعنى: أنّكم تَعلَمونَ جيِّدًا أنّ اللهَ تعالى قد مَنَح بعضَ الأُمم السَّابقةِ عليكم (مثلَ: قوم عادٍ وثمودَ وقوم فِرعَوْنَ وقوم لوطٍ) السُّلطةَ على الأرض، وسقَى الأرض بالأمطارِ والأنهارِ حتى اخضَرَّت وأَيْنَعَت لهم، بحيثُ كانوا في رَغَدٍ من العيش أكثرَ منكم، ولكنْ حين جَحَدوا بنِعَم الله تعالى، وكذَّبوا أنبياءَ الله تعالى عليهمُ السَّلامُ، دمَّرهم اللهُ تعالى عقابًا لهم على ذنوبِهم، ومَنَح السُّلطةَ لأقوام غيرِهم بدَلًا منهم.

وهكذا يا كفَّارَ مكّةَ، إنْ لم تَعتبِروا بهذه الحقائقِ التَّاريخيَّة، وظَلَلتُم قائمينَ على معصيةِ الله تعالى، فستُحرَمونَ أنتم أيضًا من سُلطةِ الحُكم في مكَّةَ، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، إذْ بعدَ فترة وَجيزةٍ واجَهَ الكفَّارُ هزيمةً نكراءَ، وفي نهايةِ المطافِ انتقَلت السُّلطةُ إلى أيدي المسلمين، وفي هذا عِبرةٌ لنا نحن أيضًا، فلو قَصَّرنا في العمَلِ بأحكام اللهِ تعالى فسوف نُواجِهُ نحن أيضًا نفسَ الفَشَل الذي واجَهوه.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

٨ ـ الكتُبُ التي نَزَلت مكتوبةً لم تَنزِلْ أمامَ أَعيُنِ النّاس، على سَبيل المثال: التَّوراةُ المكتوبةُ التي أعطاها اللهُ تعالى لسيِّدِنا موسى عليه السَّلام، لم يرَها أحدٌ وهي تنزِلُ من السَّماء، فقد كان سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ على جَبَل الطُّور وحدَهُ حينَ نزَلَتِ التَّوراة، والذين آمَنوا بالتَّوراة وَثِقوا فيما قالهُ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ بلسانِه، لكنّ المُجادِلينَ طالَبوا بشيءٍ جديدٍ قائلين: يا موسى، سنؤمنُ بك عندما نرى اللهَ أمامَنا.

ولهذا، أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تَحزَنْ ولا تنزعِجْ من عِنادِ كفَّارِ مكّةَ وتعصُّبِهم، فهؤلاءِ لا يطالبونَك بكتابٍ مكتوب؛ لأنّهم لا شكَّ لديهِم في أنّك نبيٌّ وأنك صادقٌ، والحقيقةُ أنّهم يَثِقونَ تمامًا فيما تقولُ، لأنَّهم لم يَسمَعوا منك كذبًا أبدًا، ولكنَّهم يضَعُونَ حِجابًا سميكًا على عقولِهم وضمائرِهم، والحقيقةُ أنّ الإنسانَ الذي يُعميه التعصُّبُ لا يؤثِّرُ فيه أيُّ دليل أو نصيحة، ولهذا أيُّها النبيُّ الحَبيب ﷺ، لو أُنزِل القرآنُ المَجيدُ أمامَ أعيُنِهم مكتوبًا على وَرَق فإنّهم سوف يتحسَّسونَه بأيديهم ليطمئنُّوا على وجودِه، ولكنّهم ـ معَ ذلك ـ لن يؤمنوا به، ولن يصدِّقوهُ، وإنّما سيُنكرونَه قائلينَ: إنّ هذا سِحرٌ مُبين؛ لأنّهم قرَّروا مُسبَقًا أنْ لا يؤمنوا بك، وإنّما يسألونَ أسئلةً عجيبةً على سَبيل المجادلة.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾

٩ ـ كان الكفَّارُ يطالِبونَ أن يَنزِلَ الملاكُ على سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ في صُورتِه الأَصْليَّة، وذلك لكي يَشهَدَ بصِدقِه ﷺ، ويَظهَرَ الملاكُ للكفَّارِ أيضًا، في حينَ أنّ الملائكةَ يكونونَ مَع كلِّ إنسان، وكانتِ الملائكةُ موجودةً معَ النبيِّ ﷺ أيضًا، وكان من بَيْنِهم الملاكُ المُكلَّفُ بالنُّزولِ بالوَحْي (سيِّدُنا جِبريلُ الأمين)، لكنّ العيْنَ البشَريّةَ لا تستطيعُ أن تَرى الملائكةَ والجنَّ في صورتِهم الأَصْليَّة، بل إنّ الأنبياءَ

الكرامَ عليهمُ السَّلام، والسيِّدةُ مرْيَمُ رضيَ اللهُ عنها، والصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ لم يرَوا الملائكةَ في صُورةِ البشَر، ولم يحْظَ بهذا الشَّرفِ سوى سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ الذي رأى سيِّدَنا جِبريلَ عليه السَّلام في صورتِه الأَصْليّة مرَّتَيْنِ.

وفي هذه الآيةِ جاء الردُّ على مُطالبةِ الكفَّارِ فيما يتَعلَّقُ بنزولِ الملائكةِ: بأنه إذا أظهَرَ لهم الملاكَ في صورتِه الأصليَّة، فإنّهم لن يستطيعوا تحمُّلَ رؤيةِ هَيْبتِه وسطوتِه، وسوف يُصعَقُونَ على الفَوْر[1]، ولن تكونَ لديهم فُرصةٌ لأنْ يستمعوا إلى كلام الملاكِ وأن يتدبَّروه.

لكنّ هناك موضعَيْنِ يظهَرُ فيهما الملائكةُ في صُورتِهم الأَصْليَّة، الموضعُ الأول: وقتَ الموت، والموضعُ الثاني: يومَ القيامة[2]، ولكنْ لن تكونَ هناك مُهلةٌ ولا إذْنٌ لأحدٍ في هذَيْنِ الموضعَيْن، بمعنى: أنّ وقتَ الموتِ لن يؤخَّر، ولن يُخفَّفَ العذابُ عن الكفَّارِ يومَ القيامة، وسوف يصابُ الكفَّارُ في هذَيْنِ الموضعَيْنِ بالخوفِ والاضطرابِ مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[3].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾

١٠ ـ أي: إنّنا لو جَعَلْنا الملائكةَ رسُلًا لَكان لذلك صورتانِ، الأُولى: أن يأتيَ الملاكُ في صورتِه الأَصْليّة، وفي هذه الحالةِ لن يتمكَّنَ النّاسُ من الاستفادةِ منه بسببِ هَيْبتِه وجَلالِه، وإنّما سيَفْنَوْنَ بمجرَّدِ رؤيتِه، أمّا الصُّورةُ الثانية فهي: أن يأتيَ الملاكُ في صُورة رجُل، مثلَما كان سيِّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ يأتي إلى سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ في صُورة بشَر، ورَآه الصَّحابةُ الكرامُ في هذا الشَّكل الإنسانيِّ، وفي هذه الحالة سيَعترضُ

---

(١) «لو رأوا الملك على صورته لماتوا، إذ لا يطيقون رؤيته». تفسير القرطبي.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الفرقان (٢٥): الآية ٢٢.

(٣) القرآن الكريم، سورة الفرقان (٢٥): الآية ٢٢.

الكفّارُ نفَس الاعتراضاتِ التي يَعترِضونَها عليكَ يا رسولَ الله ﷺ، بمعنى: أنه إنسانٌ مِثلُنا، ولن نُطيعَ ما يقولُ ما لم يَنزِلُ ملاكٌ من السَّماءِ ويؤكِّدْ على ذلك أمامَنا.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

١١ ـ كان النبيُّ ﷺ يُبلِّغُ رسالةَ الإسلام في الأمنِ والرحمة، لكنّ الكفّارَ كانوا يَسْخَرونَ منه، وفي هذه الآية تَسْريةٌ عن النبيِّ ﷺ بأنْ لا تحزَنْ يا رسولَ الله، فقد وَقَعت هذه السُّخْرِيَةُ من أنبياءَ كثيرينَ قبْلَك، وعاقَبَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الكفّارَ السَّاخرينَ عقابًا مُرعِبًا.

وبنفسِ الطريقة، فإنّ الذين يَسْخَرونَ منك لن يُفلتِوا من العقاب، وقد ذَكَر ابنُ جرير الطَّبريُّ الكثيرَ من أسماء كفّارِ مكّةَ كانوا يَسْخَرونَ من النبيِّ ﷺ، وكان مصيرُهم في غايةِ السُّوء[1].

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ

---

(١) تفسير ابن جرير، سورة الحجر (١٥): الآية ٩٥.

ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

١٢ ـ في هذه الآيةِ أمرٌ للكفَّارِ أنْ سيروا في الأرض، وانظُروا كيف كانت نهايةُ الذين كذَّبوا الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلام، وكيف تحوَّلتْ مُدُنُهم العامرةُ إلى أطلال، فانظُروا إلى آثارِ الأُمم المدمَّرة، واقرَأُوا الحقائقَ التاريخيَّةَ وخُذوا العِبرةَ منها، وارجِعوا عن تكذيبِ النبيِّ ﷺ، وإلّا فإنّكم لن تُفلِتوا من عقابِ هذا التكذيب، ويقولُ أهلُ العِلم في ضِمنِ هذه الآية: إنّ السَّفَرَ بغَرَضِ أَخْذِ العِبرةِ أمرٌ مُستحَبٌّ ويوجبُ الثواب.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

١٣ ـ أيُّها النبيُّ الحَبيب ﷺ، أَخْبِر الكفَّارَ أنّ كلَّ ما في السماواتِ والأرضِ قد خَلَقَه اللهُ تعالى، وهو مالكُ كلِّ شيءٍ وحاكِمُه، ومِن فَضْلِه وكرَمِه أنه تعالى قد ألزَمَ نفسَه بأنْ يَرحَمَ مخلوقاتِه، ومن مظاهرِ رحمةِ الله تعالى أيضًا: أنه أرسَلَ الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلامُ لهداية البشَر، ولو لم يُرسِل الأنبياءَ عليهم السَّلامُ لَعاش الإنسانُ مِثلَ الحيَوان، وكلُّ المبادئ الطيِّبة في العالَم اليومَ إنّما هي منَ اللهِ تعالى أرسَلَها إلى بني الإنسانِ عن طريقِ نبيٍّ من الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، ولهذا قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيِّدُنا أبو هُريرةَ رضي اللهُ عنه: «**الكلمةُ الحِكمةُ ضالّةُ المؤمن، فحيث وَجَدَها فهو أحقُّ بها**»[1]؛ لأنّ كلَّ كلام في الحِكمةِ والمعرفةِ أرسَلَه الله تعالى إلى أهلِ الإيمان عن طريقِ نبيٍّ من الأنبياءِ عليهم السَّلام، حتّى وإنْ أضاعوا هذه الحِكمةَ وهذه

---

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٧.

المعرفةَ فيما بعدُ، فإنّ مالكَها ـ في الأصل ـ هم أهلُ الإيمان، كما أنّ إمهالَ الكفَّارِ وعَدَمَ مؤاخَذتِهم بشكلٍ فَوْريٍّ على ما ارتكبوه، إنّما هو مَظهَرٌ من مظاهرِ رحمةِ الله تعالى أيضًا، وذلك حتّى يَمنَحَ الكفَّارَ فُرصةً للتفكيرِ والتَّوبةِ ممّا هم فيه.

وباختصار: فإنه طالما بَقِيتِ السَّماواتُ والأرضُ ستبقَى رحمةُ الله تعالى تُظِلُّ كلَّ المخلوقاتِ التي تعيشُ فيها، ورحمتُه تعالى تَعُمُّ الجميعَ بلا استثناءٍ في صُورةِ الشَّمسِ والمطرِ والهواءِ وغيرِها، والجميعُ يستفيدونَ منها سواءٌ مَن آمَنَ منهم أم من لم يؤْمنْ، ولكنْ حينَ تَفْنَى هذه السَّماواتُ والأرضُ، ويأتي يومُ القيامة ويُجمَعُ النّاسُ في يوم الحَشْر، سيكونُ هذا يومَ العقابِ والثَّواب، عندَها سيكونُ الذين شَعَروا برحمةِ الله تعالى وآمَنوا بها هم فقطْ المستحِقُّونَ لها، أمّا أولئك الذين لم يُقدِّروا رحمةَ الله عامدينَ متعمِّدين، فأولئك هم الذين أَلْحَقوا بأنفُسِهم الضَّرَر الجسيمَ بكُفرِهم بالله تعالى، ولهذا سوف يُخلَّدونَ في عذابِ جهنَّم بتكبُّرِهم وصَلَفِهم وإنكارِهم للحقَ.

هذا، وقد وَرَد عن النبيِّ ﷺ فيما يَتعلَّقُ برحمةِ الله تعالى ما يلي:

١ـ عن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «لمَّا قضَى اللهُ الخَلْقَ كتَبَ في كتابِه فهو عندَه فوقَ العَرْش: إنّ رحمتي غَلَبتْ غَضَبي»[1].

٢ـ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «إنّ لله مائةَ رحمةٍ، أنزَلَ منها رحمةً واحدةً بيْنَ الجنِّ والإنْسِ والبهائم والهوامّ، فبها يتعاطفُونَ وبها يتَراحمَونَ وبها تَعطِفُ الوَحْشُ على وَلَدِها، وأخَّر اللهُ تسعًا وتسعينَ رحمةً يَرحَمُ بها عبادَه يومَ القيامة»[2].

---

(١) البخاري، بدء الخلق، باب ١ برقم ٣١٩٤.

(٢) مسلم، كتاب التوبة، باب ٤ برقم ٦٩٧٤.

٣ـ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «بَيْنا رجُلٌ يمشي فاشتَدَّ عليه العَطَشُ، فَنزَل بئرًا فشربَ منها، ثمّ خَرَج فإذا هو بكلبٍ يلهَثُ، يأكلُ الثَّرى من العَطَش، فقال: لقد بَلَغ هذا مثلَ الّذي بَلَغ بي، فمَلأَ خُفَّه ثمّ أمسكَه بفِيه، ثمّ رَقِيَ فسقَى الكلبَ، فشَكَر اللهُ له فغَفَر له»، قالوا: يا رسولَ الله! وإنّ لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «في كلِّ كَبِدٍ رَطْبةٍ أجْرٌ»[1].

٤ـ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «إنّ امرأةً بَغِيًّا (من بَغايا بني إسرائيلَ) رأتْ كلبًا في يومٍ حارٍّ يُطيفُ ببئرٍ، قد أَدْلعَ لسانَه من العَطَش، فنَزَعت له بمُوقِها، فغُفِر لها»[2].

٥ـ عن عبدِ الله بن مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: كنّا معَ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في سَفَرٍ، فانطَلقَ لحاجتِه، فرأَينا حُمَّرَةً معَها فَرْخانِ فأخَذْنا فَرْخَيْها، فجاءتِ الحُمَّرَةُ فجَعَلت تفرُشُ، فجاء النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فقال: «مَن فَجَّع هذه بوَلَدِها؟ رُدّوا وَلَدَها إليها»[3].

٦ـ حين خالَفَ أهلُ مكّةَ صُلحَ الحُدَيْبِيَةِ في العام الثامن للهجرة، توجَّه النبيُّ ﷺ معَ جيشٍ قِوامُه عشَرةُ آلافِ جُنديٍّ من المدينةِ إلى مكّةَ، وفي الطريق رأى النبيُّ ﷺ كلبةً وَلَدتْ لتوِّها بعض الجِراء، وكانت هذه الجِراءُ تَرضَعُ لبنَ أُمِّها، فكَلَّف النبيُّ ﷺ صحابيًّا جليلًا هو سيِّدُنا جَميلُ بنُ سُراقةَ، أن يقفَ بجِوارِ هذه الكلبةِ وأطفالِها، حِفاظًا عليها من أن يؤْذيَها جُنديٌّ من جنودِ الجيش أو يؤْذيَ أطفالَها[4].

---

(١) البخاري، كتاب المساقاة، باب ٩ برقم ٢٣٦٣.

(٢) مسلم، كتاب السلام، باب ٤١ برقم ٥٨٦٠.

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد، باب ١٢٢ برقم ٢٦٧٥.

(٤) نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى كلبةٍ تهرّ عن أولادها، وهنّ حولها يرضعنها، =

ولكَ أن تتخيَّلَ الدِّينَ الذي لا يتحمَّلُ إيذاءَ كلبة، كيف له أن يتحمَّلَ العنفَ والإرهابَ ضدَّ بني الإنسان؟

وكان من أَثرِ تربيةِ النبيِّ ﷺ وتعليمِه للمسلمينَ أنه حينَ قرَّر سيِّدُنا عَمْرُو بن العاص التحرُّكَ بالجيش من القاهرةِ إلى الإسكندريَّةِ أمَرَ الجيشَ باقتلاع خَيْمتِه، ولكنْ حينَ رأى حمامةً وَضَعت بَيْضَها في الجزءِ العُلْويِّ من الخَيْمةِ قال لهم: «**لقد تحرَّمت بجوارِنا، أقِرّوا الفُسطاطَ حتى تَطيرَ فراخُها، فأقَرُّوا الفُسطاطَ، ووكَّل به أن لا تُهاجَ حتى تشتدَّ فِراخُها، فبذلك سُمِّيت الفُسطاطُ فُسطاطًا**»[١].

٧ـ عن عبدِ الله بن عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «عُذِّبتِ امرأةٌ في هرّةٍ، حبَسَتْها حتّى ماتت جُوعًا، فدَخَلت فيها النّارَ»[٢].

إنّ الدِّينَ الذي لا يتحمَّلُ قتْلَ قطّة، كيف يتحمَّلُ قتلَ إنسان؟

إنّ اللهَ تعالى رحيمٌ للغاية، وفي بعضِ الأحيان يتكرَّمُ اللهُ تعالى على أهل الإيمانِ بكَرمٍ لا حدَّ له، بحيث يَغفِرُ لهم كلَّ ما ارتكبوا من ذنوب، لمجرَّدِ أنّهم عَمِلوا عملًا صالحًا بسيطًا، ولكنْ حينَ يُعصَى اللهُ تعالى فإنّ قهرَه وغَضَبَه يَحُلاّنِ بالعاصي لكي يتحقَّقَ العدلُ كاملًا، ولهذا أدرَجْتُ ـ في نهايةِ أحاديثِ الرَّحمة ـ حديثًا عن الغضَب، وذلك حتّى لا يُقبِلَ أحدٌ على ارتكابِ الذُّنوبِ معْتمِدًا على رحمةِ الله تعالى فقطْ، ولكي نَفْهَم معنى غَضَبِ الله تعالى ورحمتِه يمكنُ الرجوعُ إلى الآية رقم ٣ من سُورة الفاتحة، وكذلك الحاشيةُ رقم ٦ أيضًا.

= فأمر جميل بن سراقة رضي الله عنه أن يقوم حذاءها؛ لا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها. سبل الهدى والرشاد، ٥: ٣٢٢.

(١) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم لابن الجوزي، ٣: ١٩٤.

(٢) البخاري، كتاب المساقاة، باب ٩ برقم ٢٣٦٥.

﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ ﴾

١٤ ـ لقدِ استَخدمَ الكفَّارُ كلَّ الطُّرقِ الممكنةِ لكي يَثْنوا النبيَّ ﷺ عن الإسلام، سواءٌ كان الترغيبَ في الدُّنيا أم المقاطعةَ الاجتماعيَّةَ، وتآمَروا كثيرًا لقَتْله ﷺ، لكنه ﷺ أعلَن ـ بوضوح تامٍّ ـ أنّ من المستحيل أن أترُكَ عبادةَ الله تعالى وأعبُدَ غيرَه؛ لأنّ اللهَ تعالى هو خالقُ السَّماءِ والأرض، وهو الذي يَرزُقُ العالَمَ كلَّه، بينَما هو منزَّهٌ عن الطَّعام ولا حاجةَ له به، ومَن كان هذا شأنَه فهو فقطْ الذي يَليقُ بالعبادة، فلا أحدَ غيرَه يستحِقُّ العبادةَ، وأنا لن أعبُدَ غير الله تعالى أبدًا.

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَ ﴾

١٥ ـ أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ عليكَ أن تؤمنَ أنت أولًا، ولهذا فإنّ النبيَّ ﷺ هو أولُ مسلم، وتفسيرُ هذا هو أنّك أولُ مسلم في أُمَّتِك، وهذا ليس بالأمرِ الجديد؛ لأنّ كلَّ نبيٍّ يكونُ أولَ مسلم في أُمَّتِه، بينَما يُسلِمُ الآخَرونَ بعدَ ذلك عن طريق النبيِّ نفسِه. وهناك تفسيرٌ آخَرُ، وهو أنّ النبيَّ ﷺ أولُ مُسلم في خَلْقِ الله تعالى[١]. وتأمَّلِ الأحاديثَ التاليةَ التي تؤيِّدُ هذا التفسير، حيث قال النبيُّ ﷺ:

١ـ «كنتُ أوّلَ النّبيِّينَ في الخَلْق وآخِرَهم في البَعْث»[٢].

٢ـ عن ابن عَبّاس رضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «كنتُ نبيًّا وآدمُ بيْنَ الرُّوح والجَسَد»[٣].

٣ـ «أوّلُ ما خَلَقَ اللهُ تعالى: نُوري»[٤].

---

(١) «أول من أسلم يوم الميثاق فيكون سابقًا على الخلق كلهم». تفسير البحر المحيط.

(٢) كنز العمال، الجزء ١١، برقم ٣٢١٢٦.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١ برقم ٣١٩١٧، كنز العمال، الجزء ١١.

(٤) تفسير روح المعاني، سورة الأنعام (٦): الآية ١٦٣.

ويُعلَمُ من هذه الأحاديثِ أنّ نُورَ النبيِّ ﷺ هو أولُ ما خَلَقه اللهُ تعالى، وهو أولُ مَن آمَن بالله تعالى، ولم يكنْ جِبريلُ أو مِيكائيلُ عليهما السَّلامُ قد خُلِقا بعدُ حين سَجَدتْ رُوحُ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ أمامَ الله تعالى.

وقد عبَّر العلَّامةُ الآلوسيُّ عن هذا الأمرِ بأسلوبٍ جميل، فقال: «**فأولُ روحٍ رَكَضتْ في مَيْدانِ الخضُوع والانقيادِ والمحبَّةِ: رُوحُ نبيِّنا صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، وقد أَسْلم نفسَه لمَوْلاهُ بلا واسطة، وكلُّ إخوانِه الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ إنّما أَسْلَموا نفوسَهم بواسطتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام، فهو المرسَلُ إلى الأنبياءِ والمرسَلينَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام في عالَم الأرواح وكلُّهم أُمَّتُه**»[١].

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾

١٦ - النبيُّ ﷺ معصومٌ من الخطأ، ولهذا يستحيلُ أن يَصدُرَ عنه ﷺ عِصيانٌ لله تعالى، كما أنّه ﷺ لن يُعذَّبَ يومَ القيامة، بل على العكس سيَنْجو خَلْقٌ لا حَصْرَ لهم من العذابِ بفَضْل شفاعتِه ﷺ، ولكنّ هذه الآيةَ ذَكَرتِ النبيَّ ﷺ قاصدةً المسلمينَ، بمعنى: أنَّني وإن كنتُ سيِّدَ الأنبياءِ والمرسَلين عليهمُ السَّلام، لكنِّي إنْ عَصيْتُ، أي: حُكمَ الله تعالى، فإنِّي أخشَى عذابَ الله تعالى! فما بالُكَ بحالِ عامّةِ المسلمين؟ لهذا ينبغي لكلِّ مسلم أن يَحرِصَ على عَدَم عِصيانِ الله تعالى، وإلّا فإنّه سيُواجهُ عذابًا عظيمًا.

﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

١٧ - إنّ عذابَ يوم القيامة شديدٌ ومُخيفٌ للغاية، فمَن نَجا من هذا العذابِ فهذا - على وَجْهِ اليقين - كرَمٌ عظيمٌ من اللهِ تعالى عليه، وهو فَلاحٌ عظيمٌ أيضًا،

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الأنعام (٦): ٣٥.

ولهذا ينبغي لنا أن نَبذُلَ قُصارى جُهدِنا في أن نعمَلَ من الأعمالِ ما يكونُ سببًا في كرَم الله تعالى ورحمتِه يومَ القيامة، وتُنْجينا من غَضَبِه، وتُدخِلُنا جنَّتَه.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

١٨ ـ لو أنّ اللهَ تعالى أَلْحقَ الضَّررَ بشخصٍ ما، بمعنى: أن يَبتليَ أحدًا بذُلِّ الفقر، أو بآلامِ المرضِ لحِكمةٍ ما، فليس في استطاعةِ أحدٍ أن يُبعِدَ عنه هذه الابتلاءاتِ أو المصائبَ بغيرِ إذْنِ الله تعالى، وإذا نَفَع اللهُ أحدًا، بمعنى: أن يَمُنَّ عليه بنعمةِ الصَّحةِ والكرامة والثَّروة ورَغَدِ العيش، فليس في استطاعةِ أحدٍ أن يَسلُبَه هذه النِّعَمَ؛ لأنّ اللهَ هو القادرُ المطلَق، إنْ أراد مَنَحَ الشِّفاءَ بغيرِ دواء، وإنْ شاء امتنَعَ الشِّفاءُ معَ وجودِ الدَّواء.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّه لا أحدَ يَرفَعُ البلاءَ غيرُ الله تعالى، في حينَ أنّ الإنسانَ كثيرًا ما يتغلَّبُ على المصائبِ والابتلاءاتِ بمساعدةِ الأصدقاء، ويشفَى بدواءِ الطَّبيب، وتتيسَّرُ مشاكلُه وتُحَلُّ بدُعاءِ أولياءِ الله؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يَرُدُّ دعاءَ عبادِه المقرَّبينَ مثلَما وَرَد في الحديثِ القُدُسي، **عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ اللهَ تعالى قال: وما زال عَبْدي يتقرَّبُ إليّ بالنّوافل حتّى أُحِبَّه ... وإنْ سألَني لَأُعِطَينَّه»**[١].

وبنفسِ الطريقةِ وَضَع النبيُّ ﷺ قطعتَيْنِ من غُصْنٍ على قبرِ مُذْنبَيْنِ، حتّى يخفِّفَ اللهُ تعالى عنهما عذابَ البَرْزَخ[٢]، وشفَى اللهُ تعالى عينَيْ سيِّدِنا عليٍّ رضي اللهُ

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣٨ برقم ٦٥٠٢.

(٢) عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، قال مرّ النّبيّ ﷺ بحائطٍ من حيطان المدينة أو مكّة، فسمع صوت إنسانين يعذّبان في قبورهما، فقال النّبيّ ﷺ «يعذّبان، وما يعذّبان في كبيرٍ»، ثمّ قال: «بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنّميمة». ثمّ دعا بجريدةٍ فكسرها كسرتين، فوضع على كلّ قبرٍ منهما كسرةً. فقيل له: يا رسول الله لمَ فعلت هذا؟ قال: «لعلّه أن يخفّف عنهما ما لم تيبسا أو إلى أن ييبسا». البخاري، كتاب الوضوء، باب ٥٥ برقم ٢١٦.

تعالى عنه[١]. وبالتالي، فإنه يبدو أنّ هناك تناقُضًا بيْنَ حُكم هذه الآيةِ وبيْنَ الواقع الذي نشاهدُه، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ الله تعالى يُيسِّرُ مشكلاتِ عبادِه بقدرتِه هو، وحينَ يساعدُ عبدٌ عبدًا في حلِّ مشاكلِه فإنّه يفعَلُ هذا بالاستطاعةِ التي مَنَحَها اللهُ إياه، ولو لم يَخلُق اللهُ تعالى بداخلِه هذه الاستطاعةَ لَما استطاع أن يُقدِّمَ المساعدةَ، ولهذا فإنّ الذي يَحُلُّ المشاكلَ - في الأصلِ والحقيقة - هو اللهُ تعالى، والأسبابُ مظاهرُ لقُدرتِه، والاستعانةُ بها والمساعدةُ من خلالِها ما هي إلّا استعانةٌ بالله تعالى في الأصل.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾

١٩- اللهُ تعالى غالبٌ على كلِّ شيء، وأعظمُ المتجبِّرينَ من النّاس يَعجِزُ أمامَه، وأمامَنا أمثُلٌ من التاريخ، مثلَ: النَّمرُودِ والفِرْعونَ، حيث كان كلٌّ منهما يدَّعي الأُلوهيَّةَ لنفسِه، ولكنْ حينَ أخَذَهما اللهُ وابتلاهما أعجَزتْهما البَعُوضةُ والماء، وفَقَدا حياتَهما بسببِهما.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

٢٠ - سألَ كفّارُ مكّةَ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ أن يُقدِّمَ شاهدًا على نُبوَّتِه، فأَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ.

أي: يا رسولَ الله ﷺ، أخبِرْ هؤلاء الكفّارَ أنّ اللهَ تعالى هو الشاهدُ على نُبُوتي، وهو الشاهدُ الأصدَقُ والحقُّ، ودليلُ شهادتِه هذه: أنه أُنزِلَ علَيَّ القرآنُ المَجِيدُ المعجِزةُ الخالدة، ولو لم أكنْ نبيًّا لَما أُنزِلَ القرآنُ علَيّ، كما أنّه أُنزِلَ القرآنُ علَيّ لكي

(١) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أين عليّ ابن أبي طالبٍ؟»، فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله! قال: «فأرسلوا إليه فأتوني به» - فلمّا جاء بصق في عينيه فدعا له، فبرأ حتّى كأن لم يكن به وجع. البخاري، كتاب فضائل الأصحاب، باب ٩ برقم ٣٧٠١.

أُبلِّغَكم أنتم وكلَّ مَن يأتي بعدَكم إلى يوم القيامة رسالةَ التَّوحيد، وأُنذرَكم من عذابِه، وبالرَّغم من كلِّ هذا، إذا لم تعترِفوا بدَعوتي، وأشركتُم معَ الله تعالى آلهةً أخرى، فاسمَعوا ما أقولُه لكم من أنّ اللهَ تعالى واحدٌ، واحدٌ فقطْ، وليس هناك من يستحِقُّ العبادةَ غيرُه، ولهذا فإنِّي لن أعترفَ أبدًا بهذه الأصنام التي تشركونَ بها معَ الله.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾

٢١ ـ جاء ذِكرُ نُبوَّةِ النبيِّ ﷺ وذِكرُ صفاتِه في التَّوراةِ والإنْجِيل بشكل واضح وبارز، ولهذا كان علماءُ اليهودِ والنَّصارى يَعرِفونَ النبيَّ ﷺ في مِرآةِ صفاتِه باعتبارِه نبيًّا، بالضَّبطِ مثلَما كانوا يَعرِفونَ أبناءهم، وفي هذا الإطارِ قدَّمْنا شهادةَ ثلاثةٍ من علماءِ اليهود في تفسير الآيات ٨٩ و١٤٦ من سُورةِ البقرة، ونحن هنا نُدرجُ شهادةَ علماءِ النَّصارى ورُهبانِهم:

١ ـ وَرَقةُ بن نَوْفَل: بعدَ الوَحْي الأولِ اصْطَحَبتِ السيِّدةُ خديجةُ رضيَ الله عنها النبيَّ ﷺ إلى ابنِ عمِّها وَرَقةَ بن نَوْفَل: **فانطلَقتْ به خديجةُ حتّى أتتْ به وَرَقةَ بنَ نَوْفَل ابنَ عمِّ خديجةَ ـ وكان أمرَأً تنصَّر في الجاهليّة، وكان يَكتُبُ الكتابَ العِبْرانيَّ، فيكتُب من الإنْجِيل بالعِبْرانيَّة ما شاء الله أن يكتُبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِي ـ فقالت له خديجةُ: يا ابنَ عمّ، اسمَعْ منَ ابنِ أخيك. فقال له وَرَقةُ: يا ابنَ أخي، ماذا ترى؟ فأخبَرَه رسولُ الله ﷺ خبَرَ ما رأى. فقال له وَرَقةُ: هذا النّاموسُ الّذي نَزَّل اللهُ على موسى ﷺ، يا ليتَني فيها جَذِعًا، ليتَني أكونُ حيًّا إذْ يُخرِجُك قومُك. فقال رسولُ الله ﷺ «أوَمُخرِجيَّ هم؟». قال: نعم، لم يأْتِ رجلٌ قطُّ بمِثل ما جئتَ به إلّا عُودِيَ، وإنْ يُدرِكْني يومُك أَنصُرْك نصرًا مؤزَّرًا. ثمّ لم يَنشَبْ وَرَقةُ أنْ تُوفِّي وفتَر الوَحْيُ**[1].

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي برقم ٣.

٢ـ بَحِيرى الرَّاهب: حينَ اقتَربَ عُمْرُ النبيِّ ﷺ من الثانيةَ عشْرةَ صاحَبَ عمَّه أبا طالبٍ في سَفَرٍ إلى الشّام، وحين دَخَلت القافلةُ في بُصْرى، رأى راهبٌ نَصْرانيٌّ معروف هناك ـ هو: بَحِيرى ـ من الخانْقاه (الزَّاوية) التي يتعبَّدُ فيها: طفلًا في هذه القافلةِ العربيَّة وقطعةٌ من السحاب تُظلِّلُه، وحيثُما سار الطِّفلُ سارت معَه السَّحابةُ، وكان بَحِيرَى أكبرَ علماءِ النَّصارى في ذلك الوقت، وحينَ رأى هذا المنظرَ من نافذةِ الخانْقاهِ قال لنفسِه: أليس من الممكنِ أن يكونَ هذا الطِّفلُ هو ذلك النبيَّ الصَّادقَ الأمينَ الذي ننتظِرُه، والذي وَرَدتْ علاماتُه في كُتُبِنا؟ لا بدَّ من رؤيتِه عن قُربٍ حتى يمكنَ التّوثُّقُ من علاماتِه. وهكذا، خَرَج بَحِيرى من الخانْقاهِ متَّجِهًا إلى القافلة وقال لأصحابِها: إنّي أدعو أفرادَ القافلة جميعًا أن يتناوَلوا الطَّعامَ عندي اليومَ، وحين فَرَغ أفرادُ القافلة من تناولِ الطَّعام وَدَّعهم، لكنَّه طَلَب من أبي طالبٍ ومن النبيِّ ﷺ الانتظارَ قليلًا، وسأَلَ النبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن يَقَظَتِه وعن نومِه، وكان النبيُّ ﷺ يُخبِرُه، وهو يستوثقُ من هذه الصِّفاتِ الموجودة لدَيْهِ عن نبيِّ آخِرِ الزَّمان ﷺ، وفي النِّهاية رَفَع القميصَ عن ظهرِ النبيِّ ﷺ الطاهر، ورأى بعينَيْه خاتَمَ النُّبوة بنفسِ الصُّورة التي وَرَدت عندَه، فانحنَى تلقائيًّا وقَبَّل خاتَمَ النُّبوَّة.

وبعد ذلك سأَلَ بَحِيرى الراهبُ أبا طالبٍ قائلًا: من يكونُ هذا الطِّفلُ بالنِّسبة لك؟ فقال: ابنَ أخي. فقال بَحِيرى: خُذِ ابنَ أخيك وعُدْ إلى وطنِك، واحذَرْ منَ اليهودِ دائمًا، فلو رأَوْا ما رأيتُه وعَلِموا ما عَلِمتُه فسوف يؤْذونَه، وسيكونُ لابن أخيك شأنٌ، فهو سيِّدُ العالَمين، وهو رسولُ ربِّ العالَمين، وسيَبعَثُه اللهُ تعالى رحمةً للنّاسِ كافّةً. وهكذا، ذَهَب أبو طالبٍ معَ القافلة إلى الشّام، وأنهَى سريعًا الأعمالَ التي جاء من أَجْلِها، واصْطَحبَ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ وعاد إلى مكّةَ.

وهذه الواقعةُ موجودةٌ ـ باختلافٍ قليل في الألفاظِ ـ في الكتُبِ التالية: (السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام، الجزء الأول، ص ١٦٦ ـ تاريخ الإسلام: شمس الدين

الذَّهبي: الجزء الأول: ص ٥٥ ـ البداية والنِّهاية لابن كثير: الجزء الأول: ص ٢٨٣ ـ سُبُل الهُدى والرَّشاد، للإمام محمدٍ الشَّامي: الجزء الثاني: ص ١٨٩ ـ ضياءُ النبيِّ: بيْر محمَّد كَرَم شاهِ الأزهَري: الجزء الثاني: ص ١٠٧).

٣ـ لمَّا سَمِع النَّجاشيُّ مَلِكُ الحبَشةِ القرآنَ الكريمَ من سيِّدِنا جعفرِ ابن أبي طالب، قال: إنه لا فَرْقَ مطلَقًا بيْنَ تعاليم سيِّدِنا عيسى وتعاليم سيِّدِنا محمَّدٍ عليهما السَّلامُ، إنّهما أشِعّةٌ لشمسٍ واحدة. وحين هاجَرَ النبيُّ ﷺ من مكّةَ إلى المدينةِ أرسَلَ النَّجاشيُّ وفدًا من سبعينَ من علماءِ النَّصارى ورُهبانِهم إلى المدينة، حتى يلتقُوا بالنبيِّ ﷺ، ويَعرِفوا المزيدَ من المعلومات، ولمَّا سَمِع الوفدُ من النبيِّ ﷺ تلاوةَ سورةِ يس، جَرَت الدُّموعُ من أعيُن هؤلاءِ السَّبعينَ عالمًا، وعَرَفوا الحقَّ وأَسْلَموا، وقد كتَبْنا هذه الواقعةَ في تفسيرِنا للآية رقم ٨٣ من سُورة المائدة فارجِعْ إليها.

وباختصار: فإنّ علماءَ اليهودِ والنَّصارى كانوا على يقينٍ من مجيءِ النبيِّ ﷺ، وكان يَدْعُونَ اللهَ في حلِّ مشاكلهم بوسيلةِ النبيِّ ﷺ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وحينَ جاء النبيُّ ﷺ إلى هذه الدُّنيا آمَن به كثيرٌ من علماءِ اليهودِ والنَّصارى، لكنّ كثيرينَ منهم لم يؤْمنوا به رَغْمَ تعرُّفِهم عليه ﷺ، بل والأكثرُ من ذلك أنّهم أخفَوْا صفاتِ النبيِّ ﷺ المذكورةَ في كتُبِهم عن عامَّةِ النّاس، وهكذا ألْحَقوا الضَّررَ والخسارةَ بأنفُسِهم بسببِ إنكارِهم لنبوَّته ﷺ، وبالتالي فإنّهم لن يؤْمنوا بسببِ تعصُّبِهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم

مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾

٢٢ ـ الافتراءُ على اللهِ تعالى يعني: أن تُنسَبَ الأشياءُ التي لم يَأمُر اللهُ تعالى بها إلى الله تعالى، وهذا ظُلمٌ عظيم، مثلَما كان كفَّارُ مكّةَ يقولون: إنّ هذه الأصنامَ شُرَكاءُ لله تعالى، واللهُ أمَرهم أن يَعبدُوها ويتقرَّبوا بها إليه، في حينَ أنّ اللهَ تعالى حرَّم الجنَّةَ على المشركين، وأكّد على أنّ مصيرَهم جهنَّم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، فكيف يَأمُرُ هو بالشِّركِ إذًا؟ كما أنّ القرآنَ الكريمَ قد قال عن الشِّرك: إنه ظُلمٌ عظيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وتكذيبُ آياتِ الله تعالى يعني إنكارَ ما أَمَر اللهُ تعالى به، وهذا أيضًا ظُلمٌ عظيم، مثلَما كان كفَّارُ مكّةَ ينكرونَ صِدقَ القرآنِ المَجيد، ونُبوَّتَه ﷺ، بسببِ تعصُّبهم.

على أيّةِ حال، من يفتري على اللهِ الكذبَ أو يُنكِرُ آياتِه ظالمٌ في الحالتَيْن، ومن المؤكَّد أنّ الظالمَ في الآخِرة من الخاسرين، ومعَ ذلك فإنّ مصيرَ الظُّلم في الدنيا أيضًا وَخِيم، ولذا ينبغي لكلِّ فردٍ أن يُفكِّرَ كثيرًا وبقلبٍ هادئ قبْلَ أن يُقدِمَ على ارتكابِ ظُلم، وكما أنّ الكذبَ على اللهِ تعالى ظُلمٌ عظيم، فإنّ الكذبَ على النبيِّ ﷺ خُسرانٌ

للآخِرة وطريقٌ لجهنَّم، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيِّدُنا أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: «**من تعمَّد عليَّ كذبًا فلْيتبوَّأْ مَقْعدَه من النّار**»[1].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

٢٣ ـ سيجمَعُ اللهُ تعالى المشركينَ يومَ القيامة ويَسألُهم: أين أصنامُكم التي كنتُم تشركونَها معَ الله تعالى في العبادة؟ اطلُبوهمُ اليومَ حتّى يُنْجوكم من عذابِ جهنَّم، لكنّ هذه الأصنامَ عاجزةٌ في ذاتِها، وفي ذلك اليوم ستُعلِنُ تبرُّؤَها من المشركين: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وحينَئذٍ يُصيبُ المشركينَ ذلٌّ وعارٌ لا حدَّ له؛ لأنّ الأصنامَ التي كانوا يعتبرونَها سندًا لهم تَخلَّتْ عنهم، واختفَى معَها كلُّ أملٍ عَقَدوه عليها وأصبح باطلًا، وحينَئذٍ سيَضْطَرِبونَ ويَلجَأُونَ للكذب، يعني: يتبرَّأونَ من الأصنام التي كانوا يعبُدونَها، ويُعلنونَ أنّهم لا علاقةَ لهم بها، وسيُقسِمونَ ـ كذبًا ـ أنّهم لم يكونوا يشركون.

وعقابًا لهم على هذه المغالَطاتِ الصَّريحة تنعقدُ ألسنتُهم، أي: يَسلُبُ اللهُ تعالى من ألسنتِهم القُدرةَ على الكلام، وتُعطَى لأيديهم وأرجُلِهم، فتقومُ هذه ببيانِ الحقيقة بشكلٍ واضح[2]، بمعنى: أنّ ألسنتَهم قالت كذبًا، وأنّهم كانوا يشركونَ في الدُّنيا فعلًا، ومثالُ ذلك كمَثَلِ اللصِّ الذي كان يقومُ بالسَّرقة، وكانت الكاميراتُ تصوِّرُ تحرُّكاتِه وتُسجِّلُها، وحينَ أنكَرَ اللصُّ أنه سَرقَ في المحكمة، فَضَح فيلمُ كاميرا المراقبةِ كذبَهُ وأظهَرَ سرِقتَه، وبنفسِ الطريقة، في ميدانِ الحَشْر، كلُّ من يحاولُ الكذبَ ستَفضَحُه يداهُ ورِجلاه وتكشِفُ كذِبَه.

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب ٣٨ برقم ١٠٨.

(٢) «فقالوا: تعالوا فلنجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثًا». تفسير ابن كثير.

في هذه الآياتِ درسُ عِبرةٍ للمشركينَ حتّى يتوبوا اليومَ من شِركِهم، ويُقرُّوا بوَحْدانيَّةِ الله تعالى، وإلّا فسينَدمونَ يومَ القيامة، ولن ينفعَهم ندَمُهم عندَئذٍ.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

٢٤ ـ كان بعضُ الكفَّار يستمعونَ إلى كلام النبيِّ ﷺ بتمعُّنٍ شديد، ولكنْ، لأنَّهم لم يكونوا يريدونَ الحصُولَ على الهدايةِ أصلًا، وإنّما كان هدفَهم هو انتقادُ الإسلام والبحثُ عن عيوبٍ فيه، لهذا فقد عاقَبَهم اللهُ تعالى على سُوءِ نيَّتِهم هذا، بأنْ جَعَل على قلوبِهم غشاوة وحجابًا، بحيثُ أنّهم رأَوْا معجِزاتِ النبيِّ ﷺ ولم يؤمنوا، وحينَ كانوا يتجادلونَ حولَ القرآنِ الكريم، فإنّهم كانوا يقولونَ صراحةً: إنه ليس كتابَ الله تعالى، وإنّما هو قصصٌ كاذبةٌ قالها البشَر.

والحقيقةُ أنّ هذا كلامُ أولئك الكفَّارِ الذين كانوا يعتقدونَ بصدقِ النبيِّ ﷺ، ولكنّهم أنكَروا نُبوَّتَه لتعصُّبِهم، ولم يكنْ هذا النَّوعُ من الكفَّار لِيؤمنَ حتّى وإن رأى المعجِزات، وفي هذا الخصُوص فإنّ ما قاله ألدُّ أعداءِ الإسلام أبو جَهْل فيما يلي كلامٌ يستحِقُّ التمعُّن:

ذاتَ يوم التقَى أحدُ الكفَّارِ، وهو الأخنَسُ، بأبي جَهْل، وسأله: «**أترى محمَّدًا يكذبُ؟ فقال أبو جهل: كيف يكذبُ على الله وقد كنّا نُسمِّيه الأمينَ لأنه ما كَذَب قطُّ! ولكنْ إذا كانت في عبدِ منافٍ السِّقايةُ والرِّفادةُ والمَشُورة، ثم تكونُ فيهم النُّبوَّة، فأيُّ شيءٍ بقيَ لنا؟**»[1].

وهناك سؤالٌ يَبرُزُ بخصوص هذه الآية، وهو: إذا كان اللهُ تعالى قد جَعَل على قلوبِ الكفَّار غِشاوة وحجابًا، فثَقُلَ سمْعُهم، فكيف كان من الممكنِ أن يؤمنوا بعدَها إذًا؟

---

(١) إمتاع الأسماع، تقي الدين المقريزي، ١ : ٩١.

والحقيقةُ أنّ الكفَّارَ أنفسَهم كانوا يقولونَ للنبيِّ ﷺ: إنّ الدِّين الذي تَدعونا إليه على قلوبنا غشاوةٌ تُجاهَه، وأسماعُنا ثقيلةٌ له، وبينَنا وبينَك حجاب: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥]. فيُعلَمُ من هذا أنّ اللهَ تعالى لم يضَعْ على قلوبِهم غشاوةً عَنْوةً وقَسْرًا، وإنّما كان هذا قرارًا للكفَّار أنفُسِهم أخَذوه عن عَمْد، حيث كانوا يعمَدونَ إلى التهرُّبِ من الحقيقة التي يسمَعونَها، ولا يتفكَّرونَ فيما يسمَعونَ بسببِ تعصُّبِهم وصَلَفِهم، ولهذا فإنّهم هم المسئولونَ عن هذا العقاب، ولم يفعَلِ اللهُ سوى الإعلان عن مَرضِهم هذا. ونَسَبه إلى ذاتِه لأنّ الخالقَ الحقيقيَّ لكلِّ شيءٍ هو اللهُ تعالى، ولمزيدٍ من التفصيل حولَ هذا الموضوع راجِعْ تفسيرَ الآية ٧ من سورة البقرة، والآيةَ ٤١ من سُورة المائدة.

﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾

٢٥ ـ كان بعضُ الكفَّارِ يتَّسِمونَ بالتعصُّبِ، إلى درجةٍ جَعَلتْهم يبتعدونَ عن النبيِّ ﷺ، ويمنَعونَ النّاسَ كذلك من الاقترابِ منه، ويتَّهمونَه أنه (والعياذُ بالله) ساحرٌ، وأنه اختَرعَ دينًا من عندِ نفسِه، ومَن يقتربُ منه سيتَخلَّى عن دين أجدادِه ويُصبحُ مُغرَمًا به، لكنّ المُعرِضينَ عن الحقِّ واجَهوا الفَشَلَ في نهايةِ الأمر، ولم يستطيعوا إيقافَ تقدُّم الحقِّ وانتشارَه.

وتأمَّلْ في هذا الخصوصِ قصَّةَ طُفَيْل بن عَمْرٍو الدَّوْسي: «**كان الطُّفَيلُ بنُ عَمْرٍو الدَّوْسيُّ يحدِّثُ: أنه قَدِم مكّةَ ورسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم بها، فمشَى إليه رجالٌ من قُريش، وكان الطُّفَيْلُ رجلًا شريفًا شاعرًا لبيبًا، فقالوا: يا طُفَيْل! إنّك قَدِمت بلادَنا، وهذا الرجُلُ الذي بيْنَ أظهُرِنا قد أَعضَلَ (اشتدَّ أمرُه) بنا، وقد فَرَّق جماعَتنا، وشتَّتَ أمرَنا، وإنّما قولُه كالسِّحرِ يُفرِّقُ بيْنَ الرجُل وبينَ أبيه، وبينَ الرجُل وبينَ أخيه، وبينَ الرجُلِ وبيْنَ زوجتِه، وإنّا نخشَي عليكَ وعلى قومِك ما قد**

دَخَل علينا، فلا تُكلِّمَنَّه ولا تَسْمَعنَّ منه شيئًا»[١]. وهكذا، كان الطُّفَيْلُ حينَ يذهبُ إلى المسجدِ الحرام يضَعُ القُطنَ في أذُنيْهِ حتّى لا يصلَ إليهما صوتُ النبيِّ ﷺ. يقولُ الطُفَيْلُ نفسُه: **«فواللهِ، ما زالوا بي حتّى أجمَعتُ أنْ لا أسمَعَ منه شيئًا ولا أُكلِّمَه، حتّى حَشوْتُ في أُذنيَّ حينَ غَدوتُ إلى المسجد كُرسُفًا (قُطنًا) فَرَقًا من أن يَبلُغَني شيءٌ من قولِه، وأنا لا أريدُ أن أسمَعه، قال: فغَدَوْتُ إلى المسجد، فإذا رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يُصلِّي عند الكعبة. قال: فقمتُ منه قريبًا، فأبَى اللهُ إلّا أن يُسمِعَني بعضَ قولِهِ - قال: فسمعتُ كلامًا حسَنًا - قال: فقلتُ في نفسي: وأثْكَل أُمِّي! واللهِ إنِّي لرَجلٌ لبيبٌ شاعرٌ ما يخفَى عليَّ الحسَنُ من القبيح، فما يمنَعُني أن أسمعَ من هذا الرجُلِ ما يقول! فإنْ كان الذي يأتي به حسَنًا قبِلتُه، وإن كان قبيحًا تركتُه. قال: فمكثْتُ حتى انْصرَفَ رسول الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم إلى بيتِهِ فاتَّبعتُه، حتّى إذا دَخَل بيتَه دخلتُ عليه، فقلتُ: يا محمَّد! إنّ قومَك قد قالوا لي كذا وكذا، الذي قال: فواللهِ ما بَرِحوا يُخوِّفُوني أمْرَك حتّى سدَدْتُ أُذنيَّ بكُرسُفٍ لئلا أسمعَ قولَك، ثم أبى اللهُ إلّا أن يُسمِعَني قولَك، فسمِعتُ قولا حسَنًا، فاعرِضْ علَيَّ أمْرَك - قال: فعَرَض علَيَّ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم الإسلامَ، وتلا علَيَّ القرآنَ، فلا - واللهِ - ما سمِعتُ قولًا قطُّ أحسَنَ منه، ولا أمرًا أعدَلَ منه، قال: فأسلمتُ وشَهِدتُ شهادةَ الحقِّ»**[٢].

﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

٢٦ - قال اللهُ تعالى للنبيِّ ﷺ: أنْ أيُّها النبيُّ الحَبيب، انتبهْ قليلًا إلى هذا المنظرَ المُخِيف، وذلك حينَ يَتِمُّ إيقافُ الكفَّارِ على حافَةِ جهنَّمَ لكي يَتِمَّ إلقاؤهم في نيرانِها

---

(١) سيرة ابن هشام، ٢: ٢٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢: ٢٢.

المشتعِلة، فإنّهم سينتابُهم الخوفُ الشَّديدُ حينَ يرَوْنَ هذه النِّيرانَ، ويتمنَّونَ ـ بحسرةٍ شديدةٍ ـ لو أنّهم أُعيدوا إلى الحياةِ الدُّنيا مرةً ثانية، فإنّهم ـ في هذه الحالة ـ لن يُكذِّبوا آياتِ اللهِ تعالى أبدًا، وسيؤْمنونَ بصدقٍ من قلوبِهم، وينضَمُّونَ إلى أهل الإسلام، لكنّ الحقيقةَ هي أنّهم يُكذِّبون، وعلى فَرْضِ المستحيل لو أنّهم أُعيدوا إلى الحياةِ الدنيا ثانيةً فإنّهم لن يؤْمنوا، وسيَختارونَ طريقَ الكُفْر، وهم هنا يُكذِّبونَ بشكلٍ عارض؛ لأنّ الحقائقَ التي كانوا يُخفونَها في الدُّنيا تكشَّفتْ أمامَهمُ الآنَ، وعقابُهم، أي: نارُ جهنَّم، يتراءى لهم ويَبدو أمامَهم، ولهذا فإنّهم يَلجَأونَ إلى الكذب بغَرَضِ النَّجاة من هذه النّار، ولكنْ لا رغبةَ حقيقيّةٌ لديهِم في الإيمان.

وهنا يَبرُزُ سؤالٌ فَحْواهُ: إذا كان الكفَّارُ قد شاهَدوا في مَيْدانِ الحَشْرِ نارَ جهنَّم، ورأَوْا عقابَهم أمامَهم، فكيف يمكنُ أن يعودوا إلى الحياةِ الدنيا ويُنكِروا أحكامَ الله تعالى، ويجعَلوا من أنفُسِهم مستحِقِّينَ لعذابِ جهنَّم؟

ولهذا السؤال إجابةٌ هي: أنّ إنكارَ حقيقةٍ ما لا يعني ـ بالضَّرورة ـ أنّ السَّببَ في الإنكارِ هو الجَهْلُ بها وعَدَمُ معرفتِها، بل ـ في بعضِ الأحيان ـ يَعرِفُ الإنسانُ حقيقةً ما معرفةً جيِّدة، لكنّه يُنكِرُها بسببِ تعصُّبِه وتكبُّرِه وبُغضِه وعِنادِه وطَمَعِه وحبِّ ذاتِه؛ لأنّ هذه كلَّها أمراضٌ مُهلِكةٌ تجعَلُ الإنسانَ غافلًا عن مصيرِه، وعلى سبيل المثال:

١ ـ كان أهلُ الكتابِ يعرِفونَ النبيَّ ﷺ مثلَما يَعرفونَ أبناءهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠]، لكنهم أنكروه تعصبًا.

٢ ـ تأكَّدتْ قلوبُ الفراعنةِ بعدَ رؤية معجِزاتِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ من صِدقِه، ولكنَّهم أنكَروا الحقَّ بسببِ تكبُّرِهم وظُلمِهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النحل: ١٤].

وهناك إجابةٌ أخرى لهذا السُّؤالِ أيضًا، وهي: أن الكُفرَ يصيرُ بمثابةِ فِطرةٍ ثانيةٍ للكفَّارِ بسببِ عصيانِهم المتواصِلِ والمستمرِّ، حتّى لو أرادوا التخَلِّيَ عنه فلن يستطيعوا، فهؤلاءِ مِثلُ أولئك المجرِمينَ الذين أَدْمَنوا الإجرامَ، فلا يعودونَ عن ارتكابِ الجرائم رَغْم أنَّهم عوقِبوا مرَّاتٍ عديدةً، وحين يواجِهونَ العقابَ يقولون: لن نعودَ إلى ذلك أبدًا في المستقبَلِ، ولكنْ ما أن ينتهيَ عقابُهم ويُخرَجونَ من السُّجون فإنّهم يَميلونَ ثانيةً إلى ارتكابِ الجُرم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾

٢٧ ـ الكفَّارُ يعتبِرونَ هذه الدُّنيا هي كلَّ شيء، ولا يؤمنونَ بالبَعْثِ بعدَ الموت، أي: بالآخرة، ولذلك حينَ يُحييهمُ اللهُ تعالى ثانيةً في مَيْدانِ الحشرِ ويسألُهم: أليست الآخِرةُ حقًّا؟ فإنّهم سيَحلفونَ قائلين: ليس في ذلك شكٌّ، وأنَّى لهم أن يُنكِروا حقيقةً يرَوْنَها بأعيُنِهم وتنطبقُ عليهم؟ لكنّ الاعترافَ في ذلك اليوم لا يفيدُ بشيءٍ، لأنّ وقتَ التَّوبة يكونُ قدِ انتهى، ولهذا سيُلقَوْنَ في نارِ جهنَّم جزاءَ كُفرِهم.

مشهد المثول في المحكمة الإلهيّة يوم القيامة

ذاتَ مرَّة جاء سُليمانُ بنُ عبدِ الملكِ إلى المدينةِ المنوَّرة، وسَأل سيِّدَنا أبا حازم رحمةُ الله عليه: كيف سيكونُ مشهَدُ المثُولِ في المحكمةِ الإلهيَّةِ يومَ القيامة؟ فأجابَه أبو حازمٍ قائلًا: سيكونُ حالُ الرَّجُل الصَّالح كرَجُل خَرَج في سَفَرٍ طويلٍ بغَرَض التِّجارة، وبعدَ فترةٍ عاد إلى بيتِهِ بعدَ أنْ حقَّق ربحًا وَفِيرًا، فسَعدِ به أهلُ بيتِهِ كثيرًا، وسَعِد هو بأهل بيتِهِ أيضًا، يعني: أنّ كلَيْهِما سعيدٌ بلقاءِ كلٍّ منهما الآخَرَ وبالتِّجارةِ الرابحة، وهكذا يومُ القيامة يَفرَحُ العبدُ عندما يرَى رحمةَ الله تعالى، ويَفرَحُ الله تعالى بحسَناتِ عبدِه. مِثلُ هذا الرَّجل سعيدِ الطَّالع سيتمتَّعُ بنعِمَ الجنّة، أمّا الرَّجُلُ الطّالحُ فسيكونُ حالُه كغُلام سَرَقَ مالَ سيِّدِه وهَرَب، وأرسَلَ سيِّدُه من يقبِضونَ عليه، وبالفعل

يَقبِضونَ على الغلام اللِّصِّ ويعودونَ به، وعندَئذٍ يَندَمُ الغلام على حماقتِه، ويغضَبُ سيِّدُه على خيانتِه، وهكذا يومَ القيامةِ يكونُ حالُ الرَّجُل الطَّالح، نادمًا على حماقاتِه، ويكونُ اللهُ تعالى غاضبًا من جحودِه، وسيُلقي بهذا الأحمقِ في عذابِ جهنَّم.

وبينَما كان أبو حازمٍ رحمةُ الله عليه يواصلُ حديثَه إذْ بسُليمانَ بن عبدِ الملكِ ينفجرُ باكيًا ويقولُ: ما أحسَنَ أن أعرِفَ حالي في أيِّ صُورةٍ من هاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ سأمثُلُ أمامَ الله تعالى؟ فقال أبو حازم: ما أيسَرَ أن تَعرِفَ هذا! فقد قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، فيُمكنُكَ أن تُحلِّل أعمالَك بنفسِك لتَعرِفَ إن كنتَ من الصَّالحينَ أم من الطَّالحين فقال سُليمانُ: لو أنّ المصيرَ متوقِّفٌ على الأعمالِ فلماذا رحمةُ الله إذًا؟ فردَّ عليه أبو حازم قائلًا: اطلُبْ إجابةَ هذا السُّؤال أيضًا من القرآنِ الكريم، إذ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، يعني: لكي تَجعَلَ من نفسِك مستحِقًّا لرحمةِ الله تعالى فإنّك في حاجةٍ إلى الأعمالِ الصَّالحة وصُحبةِ الصَّالحين[١].

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا

---

(١) حلية الأولياء، ٣: ٢٧١، وانظر أيضًا مجلة «ضياء الحرم» الشهرية.

يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾

٢٨ ـ الإيمانُ بيوم القيامةِ عقيدةٌ أساسيَّةٌ من عقائدِ الإسلام، ومعناهُ: أنه سيأتي يومٌ على سَبيل اليقين تفنَى فيه هذه الكائناتُ كلُّها، ثم يُبعَثُ النّاسُ جميعًا بعدَ موتِهم، ويمَثُلونَ في حضرةِ العدالةِ الإلهيَّة، وسيكونُ الحسابُ على الأعمال وتقريرِ المصيرِ من الثَّوابِ والعقابِ في ذلك اليوم.

وهذه العقيدةُ تُنبِّهُ الإنسانَ بشكلٍ مستمرٍّ إلى أنّ كلَّ ما يَفعَلُ يَتِمُّ تسجيلُه، وأنه سيُسألُ عن كلِّ هذا يومَ القيامة، وبالتالي يمنَعُه إحساسُه بأنه مسئولٌ من ارتكابِ الأعمال السيِّئة. وقد عبَّرت هذه الآيةُ عن هذه العقيدةِ بلقاءِ الله تعالى؛ لأنه في ذلك اليوم سيُواجِهُ كلُّ إنسانٍ قانونَ العَدْلِ والإنصافِ لله تعالى، لكنّ الذين يُنكرونَ لقاءَ الله تعالى، أي: ينكرونَ يومَ القيامة وما فيه من حسابٍ وثوابٍ وعقاب، فإنّهم ـ على وَجْه اليقين ـ في خُسرانٍ مُبين؛ لأنّ يومَ القيامة سيأتي يقينًا، وحينَ تقومُ السَّاعةُ فجأةً فيضربونَ أكُفَّ النَّدم قائلينَ: ليتَنا لم نَكفُرْ بيوم القيامة، لكنْ ماذا يفيدُ النَّدْم إذْ ذاك بعدَ أن «خَرِبَتْ مالطا» كما يقولُ المثَل[1]؟

(١) التعبير الذي استخدمه الشيخ الجليل المفسر هو مثل باللغة الأردية معناه: «ماذا يفيد الندم بعد أن أكلت العصافير المحصول في الحقل؟»، وقد ترجمته بما هو أقرب إليه في تعبيراتنا المعروفة.

كما أنه حينَ تَظهَرُ ذنوبُ المنكِرينَ يومَ القيامة فإنّ حالَهم ـ مِن فَرْطِ ندَمِهم ـ سيكونُ كأنّ على أكتافِهم حِمْلًا ثقيلًا للغاية، وهم لا يَقْوُونَ على حَمْلِهِ لثِقْلِه. وفي النِّهاية حذّر اللهُ تعالى بني الإنسان جميعًا من أنّ حِمْلَ الذُّنوبِ سيكونُ ثقيلًا للغايةِ يومَ القيامة، ولهذا فإنّ اعترافَكم اليومَ بالحقِّ واجتنابَكم الذُّنوبَ هو عَيْنُ العقل، لأنّ النَّدمَ لن يفيدَ مستقبَلًا.

ويروي ابنُ جَريرٍ الطَّبري، عن عَمْرِو بن قَيْس، أنه قال: «**إنّ المؤمنَ إذا خَرَج من قبرِه استقبَلَه عمَلُه في أحسنِ صُورة، وأطيبِه ريحًا، فيقولُ له: هل تعرِفُني؟ فيقول: لا، إلّا أنّ اللهَ قد طيَّبَ ريحَك، وحسَّنَ صورتَك، فيقول: كذلك كنتُ في الدُّنيا، أنا عمَلُك الصَّالح، طالَما ركِبتُك في الدُّنيا، فاركَبْني أنت اليومَ. وإنّ الكافرَ يستقبِلُه أقبحَ شيءٍ صورةً، وأنتَنَه ريحًا، فيقولُ: هل تَعرِفُني؟ فيقول: لا، إلّا أنّ اللهَ قد قبَّح صورتَك، وأنتَنَ ريحَك، فيقول: كذلك كنتُ في الدُّنيا، أنا عمَلُك السيِّئُ طالما رَكِبْتَني في الدُّنيا، فأنا اليومَ أركَبُك**»[١].

وهكذا، فإنّ الإنسانَ الصَّالحَ يَركَبُ أعمالَه الصَّالحة، ويَدخُلُ بها الجنَّةَ معزَّزًا مكرَّمًا، بينَما الإنسانُ الطالحُ تركَبُه أعمالُه السيِّئة، وتُدخِلُه جهنَّمَ ذليلًا مجلَّلًا بالعار.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾

٢٩ ـ المرادُ بالحياةِ الدُّنيا في هذه الآية: هي حياةُ الكافر؛ لأنّ الكافرَ يَعتبِرُ هذه الحياةَ الفانيةَ هي كلَّ شيء، ولا يؤمنُ بالآخِرة ولا بالحسابِ على الأعمال، وتتمحورُ حياتُه حولَ اللَّهوِ واللَّعب ورغَباتِه النَّفسانيَّة، وقد قال سيِّدُنا ابنُ عَبّاس رضي اللهُ عنه موضِّحًا هذا الأمرَ: «**هذه حياةُ الكافر؛ لأنّه يُزَجِّيها (يُدافِعُها) في غرورٍ**

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

وباطل، فأمّا حياةُ المؤمن فتَنطِوي على أعمالٍ صالحة، فلا تكونُ لهوًا ولعبًا»[١].

وحيثُما وَرَد ذمُّ هذه الحياة الدُّنيا ومتاعِها في القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريف، فإنّ المقصودَ منه حياةُ أولئك الذين قَضَوْا حياتَهم في تحقيقِ رغَباتِهم النَّفسانيَّة ونَزَواتِهم ليس إلّا، وفي نهايةِ المطاف يكونونَ مستحِقِّينَ لنارِ جهنَّم، لكنّ الذين في قلوبِهم خَوْفُ الله تعالى وتَقْواه، فإنّهم يَقْضُونَ هذه الحياةَ الدُّنيا في رضا الله تعالى، وفي النّهاية يكونونَ مستحِقِّينَ للجنَّة، فهذه الدُّنيا بالنِّسبةِ لهم نعمة، ولهذا كثيرًا ما كان النبيُّ ﷺ يدعو بالدُّعاءِ التالي: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ويُعلَمُ من هذا أنّ الدُّنيا ليست سيِّئةً في كلِّ الأحوال، ولو حاوَلْنا أن نفهمَ الحقيقةَ جيِّدًا، وأن نَقضيَ هذه الحياةَ طِبقًا لحُكم الله تعالى فإنَّنا يمكنُ أن نَجْنيَ منها خيرًا كثيرًا.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

٣٠ ـ حينَ كان الكفَّارُ يُكذِّبونَ رسالةَ الله تعالى، ويرفُضونَ الدُّخولَ في الإسلام، كان النبيُّ ﷺ يحزَنُ كثيرًا.

وفي هذه الآية يُسَرّي اللهُ تعالى عن نبيِّه ﷺ بأنْ لا تحزَنْ يا رسولَ الله ولا تَغتمَّ؛

١ـ لأنهم لا يُكذِّبونَك، بل هم يَعرِفونَ حتّى الآنَ أنك الصَّادقُ الأمين، ويحتفظونَ بأماناتِهم القيِّمةِ عندَك، لكنَّهم يُكذِّبونَ رسالتَك فقطْ، مثلَما كان أبو جهلٍ يقولُ: **«ما نُكذِّبُك يا محمَّد، وإنّك عندَنا لَمُصدَّقٌ، وإنّما نُكذِّبُ ما جئتَنا به»**[٢].

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير الكشاف، وصفوة التفاسير.

٢ ـ لأنك لا تقولُ شيئًا من عندِ نفسِك، وإنّما تُبلِّغُ رسالتي فقطْ، ولهذا فهم لا يُكذِّبونَك، وإنّما يُكذِّبونَ رسالتي.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا﴾

٣١ ـ في هذه الآية يُسرِّي اللهُ تعالى ثانيةً عن النبيِّ ﷺ بأنّ إنكارَ الكفّارِ ليس أمرًا جديدًا، فقد كَذَّبوا رسُلًا كثيرينَ من قَبْلِك، وقد عَلِمتَ بأخبارِ كلِّ ذلك، فكما صَبَر أولئك الأنبياءُ والرُّسُلُ على تكذيبِ الكفّار لهم وإيذائهم إيّاهم، عليكَ أن تصبِرَ أنت أيضًا، وكما أمدَدْناهم بعَوْنٍ من عندِنا، سنُمِدُّك أنت أيضًا بعَوْنٍ من عندِنا، وكلامُ الله حقٌّ، ولا يمكنُ أن يُبدِّلَه أو يغيِّرَه أحدٌ.

وفي هذه الآية دَرْسٌ لنا بأنّ هناك مشكلاتٍ كثيرةً تُواجِهُ منَ يقومُ بأمرِ تبليغ الحقِّ والدَّعوة إليه، مثلَما حَدَث معَ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، لكنّ الذين يصبِرونَ على هذه المشكلات، ويُواصلونَ دعوتَهم بثباتٍ واستقلاليَّة، سيَجدونَ عَوْنًا من الله ونُصرةً منه في يومٍ من الأيام يقينًا.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾

٣٢ ـ كان النبيُّ ﷺ يَرغَبُ كثيرًا في أن يُسلِمَ النّاسُ جميعًا، ولهذا حينَ كان الكفّارُ يطالبونَ بمُعجِزاتٍ لا معنى لها، ويُعرِضونَ عن الحقِّ، كان إعراضُهم هذا يَثقُلُ على النبيِّ ﷺ كثيرًا، وعليه قال اللهُ تعالى: أنْ يا أيُّها النبيُّ الحَبيب، لو أنّك حَفَرتَ نفَقًا في باطنِ الأرض، أو جئَت بسُلَّم إلى السَّماءِ لكي تُلبِّيَ ما يَطلُبونَ من معجِزاتٍ فإنّهم لن يؤمنوا؛ لأنّهم قد رأَوْا من قبلُ معجِزاتٍ عديدةً (مثلَ: معجزةِ شقِّ القمرِ وشهادةِ الأحجارِ والأشجار وغيرِها)، وإنّما كُفرُهم بسببِ

تعصُّبِهم وصَلَفِهم، والتعصُّبُ والتكبُّرُ والعِنادُ أمراضٌ لا علاجَ لها، فمن تصيبُه هذه الأمراضُ لن يقتنعَ بدليلٍ عَقْليٍّ أو عِلميٍّ، كما أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، إذا شاء جَمَع الكلَّ على الهدى فلا يبقَى هناك كافرٌ، لكنّ حِكمتَه تقتضي أنْ لا يُجبَرَ أحدٌ حتى يمكنَ اختبارُ النّاس؛ من يَقبَلُ الحقَّ برضاه ومَن يُعرِضُ عنه عامدًا، لكنْ لا تَحزَنْ على مَن لا يَقبَلُ الهدايةَ، فسوف يَلْقَى جزاءَ حُمقِه، ولهذا على كلِّ إنسان أن يستخدمَ عقلَه، وأن يتجنَّبَ الجُهلاءَ والحَمْقى.

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

٣٣ - أيُّها النبيُّ الحَبيب، إنّ الذين يسمَعونَ ما تقولُه بتمعُّنٍ إنّما يقبَلونَ الهدايةَ، لكنّ الذين يُعرِضونَ عمّا تقولُ فلا تحزَنْ عليهم ولا تغتمَّ لهم؛ لأنّهم في الأصل كالموتَى، قَضَوْا على مَلَكةِ التفكُّر والتمعُّنِ لديهم بأيديهم، وسيَشعرونَ بتقصيرِهم حين يُنشَرون من قبورِهم ويمثُلونَ أمامَ العدالة الرَّبانيَّة، لكنّ إحساسَهم هذا عندَئذٍ لا قيمةَ له. ليتَنا نحن أيضًا اليومَ نتمعَّنُ ونتدبَّرُ فيما قاله نبيُّنا الحَبيبُ ﷺ.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٣٤ - كان كفَّارُ مكّةَ يقولونَ: إنه لم تَنزِلْ على النبيِّ ﷺ معجِزةٌ تدفَعُهم دفعًا إلى الإسلام، وعليه قال النبيُّ ﷺ: إنّ اللهَ تعالى يستطيعُ أن يفعلَ ذلك يقينًا، لكنّه لا يُجبِرُ أحدًا على شيء، وإنّما يريدُ أن يَقبَلَ النّاسُ الهدايةَ برضاهم، وهذه هي الحِكمةُ التي لا يفهَمُها أكثرُ الكفَّار.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾

٣٥ - الحيَوانات التي تسيرُ على الأرض، والطُّيورُ التي تطيرُ في السَّماء، مخلوقاتٌ مِثلُنا، مقسَّمةٌ إلى أقسام وجماعات، وقد خَلَق اللهُ تعالى فيها الشُّعورَ

والوعيَ بالعبادة، فهي أيضًا تُسبِّحُ بحمدِ الله بطريقتِها الخاصَّة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، والقرآنُ المَجيدُ كتابٌ جامع، ولم يتَغاضَ اللهُ تعالى فيه عن أيِّ مبدأٍ يؤدِّي إلى فلاح الإنسان، كما جاء فيه بيانٌ لأمثلةٍ عديدةٍ تَخلُقُ الإحساسَ بالمسئوليَّة وحَتْميَّةِ المحاسبةِ لدى الإنسان، مثلَما وَرَد ذِكرُ الحيواناتِ والطُّيورِ في هذه الآية؛ لأنّ هذه أيضًا يجمَعُها اللهُ تعالى يومَ القيامة، وسوف تمثُلُ أمامَ العدالةِ الرَّبّانيَّة، وفيه: تحذيرٌ للإنسانِ أنه إذا كان الحيَوانُ سيُؤاخَذُ إذا اعتدَى على حيَوانٍ آخَر، فكيف يُفلِتُ الإنسانُ من العقاب؟

وقد نَقَل العلّامةُ الشَّوْكانيُّ، في إطار تفسيرِ هذه الآية، روايةً لسيِّدِنا أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال فيها: «**ما من دابّةٍ ولا طائرٍ إلا سيُحشَرُ يومَ القيامة، ثم يُقتَصُّ لبعضِها من بعضٍ، حتى يُقتَصَّ للجَلْحاءِ من ذاتِ القَرْن، ثم يقالَ لها: كوني ترابًا، فعندَ ذلك يقولُ الكافر: يا ليتَني كنتُ ترابًا**»[1]، أي: ليتَه كان ترابًا على أنْ ينجُوَ من عذابِ النّارِ الخالد، لكنّ النَّدمَ في ذلك اليوم لا ينفَعُ بشيء.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾

٣٦ ـ كلامُ الله تعالى كاملٌ وحقٌّ، وليس فيه أدنَى شكٍّ، وبالرَّغْم من هذا فإنّ الذين يُكذِّبونَ كلامَ الله تعالى إنّما هم يَسْبَحونَ في ظُلُماتِ الجَهالةِ والتعصُّب، وأُذُنُهم ليست على استعدادٍ لسَماع قولِ الحقِّ، ولهذا فهم صُمٌّ، وألسنتُهم ليس لديها الشَّجاعةُ لقولِ الحقِّ، ولهذا فهُم بُكْمٌ، وبالتالي فإنّ الشَّخصَ الذي يَتِيهُ في ظُلُماتِ الجهالة، ويتعمَّدُ أن يصبحَ كالأصمِّ وكالأبكم عندَما يحينُ وقتُ قولِ الحقِّ وسماعِه، كيف بمثلِه أن يهتديَ إذًا؟

---

(١) تفسير فتح القدير.

لا شكَّ أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، والهدايةُ والضَّلالُ في قبضةِ اختيارِه وقُدرتِه، لكنّه يُضِلُّ من يُعرِضُ عن الهدايةِ عامدًا، بينَما من يجتهدُ في البحثِ عن الحقِّ فإن اللهَ تعالى يُنيرُ له طريقَ الهداية. وبكلماتٍ بسيطة، يمكنُكَ القولُ: إنّ الخالقَ الأصليَّ للأفعال هو اللهُ تعالى، لكنّ فاعلَ الخيرِ والشرِّ هو العبدُ نفسُه، فهو يرتكبُ برضاهُ ما كتبَه اللهُ تعالى في اللَّوح المحفوظ، وهذا هو ما نُسمّيهِ المقدَّرَ أو القَدَر.

مفهوم القدر

كتَبَ اللهُ تعالى بعِلمِه الأزَليِّ كلَّ خيرٍ وكلَّ شرٍّ قبلَ خَلْقِ الكائناتِ مثلَما سيَقعُ، وكلُّ ما سيفعَلُه الإنسانُ برضاهُ ومَحْضِ إرادتِه كتبَه اللهُ بعِلمِه الأزَليِّ عندَه في اللَّوح المحفوظ، وهذا هو ما نُطلقُ عليه القَدَرَ أو القضاءَ، وليس معناه أبدًا أنّ ما كتبَه اللهُ تعالى نُضْطَرُّ للقيام به، وبالتالي نحن مجبورونَ على أفعالِنا، وإنّما كلُّ فعل سنفعَلُه نحن بمَحْضِ إرادتِنا هو الذي كتبَه اللهُ عندَه، وهذا هو القَدَر، ويُمكنُكَ الرُّجوعُ إلى تفسيرِ الآية رقم سَبعةٍ من سُورة البقرة وما وَرَد فيها من ذِكرٍ لواقعةِ سيِّدِنا محمودٍ الغَزْنَويِّ رحمَه الله، وذلك لكي تفهَمَ هذه المسألةَ بأسلوبٍ سهلٍ وبسيط.

الإفراط والتفريط فيما يتعلّق بالقدر

إنّ مسألةَ القَدَر هذه مسألةٌ معقَّدةٌ بقَدْرِ ما هي مسألةٌ هامَّةٌ أيضًا، ولهذا مَنَع النبيُّ ﷺ من الجِدالِ في موضوع القَدَرِ هذا، وبالرَّغم من ذلك فإنّ بعضَ النّاس قد حاوَلَ الوصُولَ إلى عُمْقِه، ووَقَع منه إفراطٌ وتفريطٌ في هذا الخصوصِ فضَلَّ، وهناك مذهبانِ مشهورانِ في هذا الأمرِ هما: الجَبْرِيَّةُ والقَدَرِيَّة.

١ ـ الجَبْرِيَّة:

وعقيدةُ هؤلاءِ أنّ الإنسانَ مجبورٌ محضٌ مَثَلُه كمَثَل الحَجَر، لا يستطيعُ أن يفعَلَ شيئًا بإرادتِه، وإنّما هو مجبورٌ على فعل الحَسنةِ أو السيِّئةِ التي كتَبَها اللهُ عندَه

في قَدَرِه، وهذه العقيدةُ تُنافي الإسلامَ؛ لأنّ اللهَ تعالى أعطَى الإنسانَ الاختيارَ في فعلِ الخير والشرِّ، ولو لم يكنْ لدى الإنسانِ الاختيارُ لفِعل الخير، فما الدَّاعي إذًا لإرسالِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ لدعوةِ النّاس إلى فعلِ الخير؟ ولهذا فإنّ اللهَ تعالى لا يَجبُرُ أحدًا على فعلِ الخيرِ أو الشرِّ.

وقد أبطَلَ مولانا جَلالُ الدِّين الرُّوميُّ هذه العقيدةَ بالمثالِ التالي:

«المُعتقِدُ بعقيدةِ الجَبْريَّة كالمسافرِ الذي كان يَمُرُّ من أمام بستان، فأصابَه الجُوع، وحينَئذٍ دَخَل البستانَ وأخَذ في تناولِ العِنَب منه، ولكنّ مالكَ البستانِ أمسَكَ به وسأله: لماذا تجرَّأتَ على فعلِ هذا دونَ إذْنٍ منِّي؟ فقال: لا تستطيعُ ورقةٌ أن تتحرَّكَ من مكانِها إلّا بإذْنِ الله، والبستانُ بستانُ الله، وعبدُ الله يأكلُ منه بإذْنٍ من الله، فأنا لا اختيارَ لي في ذلك، وإن أردتَ فاسألِ اللهَ: لماذا يُطعمُني؟ وعندَئذٍ رَبَطَه مالكُ البستانِ من يدَيْه ورِجلَيْه وأشبَعَه ضربًا بالعصا، فصَرخَ الرَّجلُ واستغاث قائلًا: لماذا تظلِمُني؟ فقال مالكُ البستان: إنَّني مِثلُك مجبورٌ مَحْض، والعصا عصَا الله، وأنا أضربُك بها بإذْنٍ من الله، وبعدَ ذلك تابَ هذا الرجُلُ ورجَعَ عن عقيدتِه هذه».

وبعدَ أنْ كتَبَ مَولانا جَلالُ الدِّين الرُّوميُّ هذه الواقعةَ قال: أيُّها الإنسان، لو أنك ضربتَ كلبًا بحَجَرٍ فإنّ الكلبَ لا يَعضُّ الحَجَر، وإنّما يَعضُّك أنت؛ لأنه يَعرِفُ أنّ الحَجَرَ مجبورٌ مَحْض، وأنت مخيَّرٌ في ذلك، فيا قليلَ العقل، الكلبُ يميِّزُ بينَك وبينَ الحَجَر، فإذا لم تفهمْ أنت هذا الفَرْقَ، فأنت أكثرُ حمقًا من الكلبِ إذًا.

٢ ـ القَدَريَّة:

هذه عقيدةُ أولئك الذين يقولونَ: إنّ الإنسانَ مخيَّرٌ تمامًا، يفعَلُ ما يشاء، وهذه العقيدةُ أيضًا مخالفةٌ للإسلام؛ لأنّ المختارَ المطلَقَ هو اللهُ تعالى فقط، وقد ردَّ الإمامُ أبو حنيفةَ بالمثالِ التالي على أتباع هذهِ العقيدة:

«ذاتَ مرَّة جاء رجُلٌ إلى سيِّدِنا عليٍّ ابن أبي طالبٍ وقال له: إنّ الإنسانَ مختارٌ مطلَق، فقال له سيِّدُنا عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: ارفَعْ إحدى رجلَيْكَ إلى أعلى، فرَفَعَها، فقال له: والآنَ احتفِظْ بها مرفوعةً إلى أعلى وارفَعْ رجلَك الثانيةَ أيضًا. فقال الرجُل: إني بهذه الطريقة سأسقُطُ على الأرض. فقال سيِّدُنا عليٌّ: هكذا هو الاختيارُ الذي لدى الإنسان، لا يستطيعُ أن يَرفَعَ سوى رِجْلٍ واحدة، ولو كان مختارًا مطلَقًا لاستطاعَ أن يرفَعَ رجلَه الثانيةً»[1].

الموقفُ الصَّحيحُ من القضاءِ والقَدَر

النَّظريَّتانِ المذكورتانِ أعلاه في نَظَرِ أهل السُّنّةِ والجماعةِ مخالفتانِ للإسلام، والحقيقةُ أنّ الإنسانَ ليس مجبورًا مطلَقًا كالحَجَر، ولا مختارًا مطلَقًا كالله، وإنّما أعطاه اللهُ الاختيارَ ليفعَلَ الخيرَ والشرَّ، وأعطاه ـ مَع ذلك ـ العقلَ والتمييزَ أيضًا، ولهذا أرسَلَ اللهُ تعالى الأنبياءَ عليهم السَّلام، حتى يُمكنَ له أن يَمِيزَ بيْنَ الطيِّب والخبيث، فالإنسانُ يستطيعُ باختيارِه أن يعمَلَ عملًا صالحًا يثابُ عليه، وباختيارِه أيضًا يستطيعُ أن يعمَلَ عملًا سيِّئًا يُعاقَبُ عليه، لكنّ هناك بعضَ الأشياء لا اختيارَ للإنسانِ فيها، مثَلًا: الحياةُ والموتُ، وأين سيولَدُ وأين سيموت، وكيف سيكونُ شكلُه وغيرُ ذلك، لكنّ الإنسانَ لن يُسألَ عن هذه الأشياءِ أيضًا.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾

٣٧ ـ كان أمرُ مشركي العربِ عجيبًا، فمِن ناحيةٍ كانوا يشركونَ الأصنامَ معَ اللهِ تعالى، ومن ناحيةٍ أخرى حين تكادُ سفينتُهم تغرَقُ في طُوفانٍ بَحْري، وتتقطَّعُ بهم

---

(١) العقائد الإسلامية، محمد إمداد حسين بيرزاده.

كلُّ السُّبُلِ الماديَّةُ للنَّجاة، ويتراءَى الموتُ أمامَ أعيُنِهم، يَنْسَوْنَ أصنامَهم، وينادونَ خالقَهم الحقيقيَّ ويستغيثونَ به!

وفي هذه الآياتِ تنبيهٌ للمشركينَ بأنّ اللهَ تعالى الحقيقيَّ هو ذلك الذي تستغيثونَ به مُضْطرِّينَ وقتَ المصائبِ الدُّنيويَّة، أو الذي تتوجَّهونَ إليه يومَ القيامة حين تَرَوْنَ عَجْزَ أصنامِكم وقلّةَ حيلتِهم، ولذا فإنّ إشراكَ الأصنام معَه في العبادة أمرٌ يتنافَى حتّى مع العقلِ والحِكمة، ولمزيدٍ من التوضيح لمفهوم هذه الآية راجع الحاشيةَ رقم **٢٣** من سورة يونُس (١٠).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

٣٨ ـ كان النبيُّ ﷺ يحزَنُ كثيرًا بسببِ عَدَم إسلام كفَّارِ مكّةَ، ولهذا ذَكَر اللهُ تعالى الأُممَ السَّابقةَ تسريةً عنه ﷺ، بأنّهم حينَ كنّا نَبْتليهم ونُضيِّقُ عليهم، كان ذلك

حتّى يخافوا من المشاكلِ ويَعُودوا عن عِصيانِهم وتمرُّدِهم، لكنَّهم برَغْم هذا كلِّه، لم يتُوبوا عمّا هم فيه، وإنّما صارتْ قلوبُهم أكثرَ قسوةً؛ لأنّ الشَّيطانَ زَيَّن لهم أعمالَهم السيِّئةَ في صُورةٍ جميلة حتّى بَدَت لهم سيِّئاتُهم حسَناتٍ، وطبيعيٌّ أنّ الأُمَّة التي تَعتبرُ حَسناتِها سيِّئاتٍ كيف يمكنُ أن تهتديَ؟ وهكذا رسَّخ الشّيطانُ في قلوبِ أهل مكّةَ أنّ آباءهم وأجدادَهم يعبُدونَ الأصنامَ منذُ قرون مَضَتْ، فكيف يكونُ كلُّ هذا خطأً؟ والبعضُ منّا اليومَ يستعينُ بتأويلاتٍ وتبريراتٍ مُعوَجَّةٍ لكي يُثبِتَ صحّةَ سلوكِه الخاطئ، وهذا ـ في الحقيقة ـ وساوسُ شَيْطانيَّة، فالخطأُ في كلِّ حالٍ خطأٌ، سواءٌ فعلتَه أنت أم فعَلَه غيرُك، ومن الضَّروريِّ العَملُ على التخلُّص منه بقَدْر الإمكان وفي أسرع وقتٍ ممكن؛ لأنّ الموتَ يمكنُ أن يأتيَ في أيِّ لحظة، ولن ينَفَع النَّدمُ حينَذاك.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾

٣٩ ـ في بعضِ الأحيان يبتلي اللهُ تعالى الإنسانَ بالمصائبِ والشَّدائدِ حتّى يَلِينَ قلبُه، ويترُكَ التمرُّدَ والعِصيان ويصبحَ مُطيعًا لله تعالى، ولكنّ الأُمّةَ التي لا تَعتبرُ من كلِّ هذا فإنّ اللهَ تعالى يفتَحُ عليها أبوابَ الرِّزق في الدُّنيا، حتّى ترى الرَّفاهيَاتِ المختلفةَ، فتشعرَ بنعمةِ الله عليها وتعودَ إلى رُشدِها، وتمتنعَ عن عصيانِها، ولكنْ إذا أَصرَّت مِثلَ هذه الأُمّة بالرَّغْم من كلِّ هذا على أن تبقى مُنغمِسةً في مَلَذّاتِ الدُّنيا وشَهواتِها، ولم تَعُدْ عن ظُلمِها، فإنّ اللهَ تعالى يأخُذُها فجأةً، ويحيطُ بها اليأسُ من كلِّ جانب.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنه إذا عصَى قومٌ اللهَ تعالى، وفي نفسِ الوقتِ يستمتعون في الحياةِ الدُّنيا بالرِّفعةِ والعَظَمة ووَفْرةِ الأرزاق، فإنّ هذا لا يعني أبدًا أنّ اللهَ تعالى راضٍ عن هؤلاء القوم، وإنّما هذا كلُّه ابتلاءٌ له وإمهالٌ ليس إلّا، وعلى سَبيل المثال: كانت لدى قارونَ ثروةٌ عظيمةٌ يصعُبُ من كثرتِها إحصاؤها، ولكنْ حينَ جاءت

المؤاخَذةُ فجْأةً من الله تعالى دُفِن قارونُ وثروتُه تحتَ الأرض، وبنفسِ الطريقة ظَلَّ حُكمُ مِصرَ في يدِ الفراعنةِ لآلافِ السِّنين، وكان الفِرعَوْنُ يَعتبِرُ نفسَه الربَّ الأعلى، وذَبَح آلافَ الأطفال المعصومينَ، ولكنْ حين جاءت المؤاخَذةُ من الله تعالى غَرِقَ فِرعَوْنُ في البحرِ هو وجيشُه، ولم تستطعْ حكومتُه ولا جيشُه أن يُنقذَه من عذابِ الله، واليومَ أيضًا، واقعُ الدُّنيا قريبٌ من هذا، بمعنى: أنّ الثَّروةَ والسُّلطةَ في يدِ أولئك الظالمين، لكنّ مِثلَ هذا الواقع لا يمكنُ أن يستمرَّ للأبد، وسيفشَلُ الظالمونَ في نهايةِ الأمر، وسيُستَأصلُ ظُلمُهم من جذورِه.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِ﴾

٤٠ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيب، قُلْ لمشركي مكّةَ: لو أنّ الله تعالى سَلَبَهم قوّةَ أبصارِهم وأسماعِهم وخَتَم على قلوبِهم، بمعنى: أن يَسلُبَ قوّةَ فهمِهم وتفكيرِهم، فهل لدى أصنامِهم القُدرةُ على أن يُعيدوا إليهم كلَّ هذا؟ والمشركونَ يَعرِفونَ هذه الحقيقةَ جيِّدًا، بأنّ من يُعميهِ اللهُ تعالى لا يستطيعُ أحدٌ أن يُعيدَ إليه بصرَه، ولكنْ، ما أعجَبَ هؤلاءِ النّاسَ! إذ إنه بالرَّغم من هذه الدَّلائل البسيطةِ الواضحةِ لا يؤمنونَ بتوحيدِ الله تعالى ولا بقُدرتِه.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

٤١ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيب، قلْ لمشركي مكَّةَ: لو أنّ عذابَ الله تعالى حَلَّ بهم فجْأةً في ظُلُماتِ اللّيل أو في وَضَح النَّهار، فإنّ هؤلاءِ الظَّالمينَ سيَفْنَوْنَ عن آخِرهم، أولئك الذين لا يؤمنونَ باللهِ تعالى ولا باليوم الآخِر؛ لأنّهم يَعتبرونَ هذه الدنيا هي كلَّ شيء، فإذا ما ذَهَبت هذه الحياةُ الدُّنيا فإنّ معناه أنّهم هَلَكوا في الحقيقة، وليس لهم في الآخِرة سوى العذابِ الدائم غيرِ المُنقطع، رَغْمَ أنّ أهلَ الإيمانِ أيضًا يَفقِدونَ حياتَهم في مِثلِ هذا العذابِ العامِّ، ولكنّ الله يَغفِرُ لهم خطاياهم في الحياةِ الدنيا

نظيرَ هذا الابتلاء، ولهم في الحياةِ الأبَديَّةِ في الآخِرة ثوابٌ عظيم، ودرجاتٌ رفيعةٌ يستمتعونَ بها[١].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾

٤٢ ـ بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الهدفَ من بَعْثةِ الأنبياء، بمعنى: أنّ الرسُولَ يبشِّر بالثوابِ على الأعمالِ الصّالحة، حتى يُرغِّبَ النّاسَ إليها، ويُنذِرَ من عذابِ الأعمالِ السيِّئة، حتى يُرغِّبَ النّاسَ عنها، ولهذا فإنّ الذين يؤمنونَ ويعمَلون الصّالحاتِ سيمتَلئِونَ أملًا في رحمة الله تعالى بهم يومَ القيامة، بحيث لا يُصيبُهم غمٌّ ولا خوفٌ أبدًا، لكنّ الذين كذَّبوا بآياتِ القرآنِ سوف يلقَوْنَ عذابًا أليمًا جزاءَ عصيانِهم.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾

٤٣ ـ كلُّ مرحلةٍ من مراحلِ حياةِ النبيِّ ﷺ، وكلُّ آيةٍ من آياتِ القرآنِ الكريم، مُعجِزةٌ في حدِّ ذاتِها، وبالإضافةِ إلى هذا شُقَّ القمرُ نصفَيْنِ تلبيةً لمطالبِ كفّارِ مكّةَ، لكنّهم بالرَّغْم من هذا كلِّه ظَلُّوا مُصِرِّينَ على عِنادِهم وتعصُّبِهم وكُفْرِهم، وفي نفسِ الوقت ظَلُّوا يُطالبونَ بمزيدٍ من المعجِزات، على سَبيل المثال: كان لهم مطلبانِ، وهما إذا كنتَ يا محمَّدُ رسولَ الله حقًّا، فاجمَعْ لنا خزائنَ الدُّنيا كلَّها، وأخبِرنا بكلِّ ما يَضُرُّنا وما ينفَعُنا في المستقبلَ قبلَ أن يقَعَ، وذلك حتى نستعدَّ لمواجَهةِ كلِّ هذا بما يستوجِبُه.

---

(١) «إن الهلاك وإن عم الأبرار والأشرار في الظاهر، إلا أن الهلاك في الحقيقة مختصّ بالظالمين الشريرين؛ لأن الأخيار يستوجبون بسبب نزول تلك المضار بهم أنواعًا عظيمة من الثواب والدرجات الرفيعة عند الله تعالى». التفسير الكبير.

وجاء الردُّ على هذَيْنِ المطلبَيْنِ في هذه الآيةِ الكريمة، بمعنى: أنّ ثرواتِ الأرض وكنوزَها التي تطلُبونَها منِّي، وكذلك إخباري إيّاكم بما سيَحدُثُ في المستقبَلِ قبْلَ أن يقَعَ، كلاهما غيرُ مناسب؛ لأنّني ـ أصلًا ـ لا أدَّعي أنّي أملِكُ خزائنَ الله تعالى ولا أنِّي أعلَمُ الغيبَ من نَفْسي، ولكنّ عقيدتي هي أنّ المالكَ الحقيقيَّ لكلِّ خزائنِ الدنيا هو اللهُ تعالى، وأصلُ عِلم الغيبِ عندَ اللهِ تعالى فقطْ، وما أعطاني اللهُ من الخزائن ومن عِلم الغَيْبِ أقومُ بتقسيمِه وتعليمِه طِبقًا لوَحْي اللهِ تعالى إليَّ.

لقد قَدَّم النبيُّ ﷺ العديدَ من المعجِزات، وأخبَر بخبَرِ الغَيْبِ أيضًا، وشَقَّ القمرَ إلى نصفَيْنِ، وشهِدَت الأشجارُ والأحجارُ على رسالتِه ونُبوَّتِه ﷺ، ولو أراد اللهُ تعالى لَحقَّق مطالبَ الكفَّار هذه هي الأخرى، ولكنّ ردَّه عليهم بالنَّفي يقصِدُ به «**أن يُظهِرَ الرَّسولُ من نفسِه التواضُعَ لله، والخُضوعَ له والاعترافَ بعُبوديَّته، حتّى لا يُعتَقدَ فيه مِثلُ اعتقادِ النَّصارى في المسيح عليه السَّلام**»(١).

والاستدلالُ بهذه الآيةِ على عَدَم معرفةِ النبيِّ ﷺ للغَيْب استدلالٌ ليس صحيحًا؛ لأنّ عِلمَ الغيبِ الذاتيَّ وغيرَ المحدودِ لا يكونُ إلّا لله تعالى فقطْ، لكنّ اللهَ تعالى يُعطي عِلمَ الغَيْبِ لمنَ يشاءُ من الأنبياءِ مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، كما أنّ معنى كلمةِ نبيّ: الذي يُنبِئُ بعِلم الغَيْبِ وخبَرِ المستقبَل، مثلَما قال سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

كما أنّ الاستدلالَ بهذه الآيةِ على أنّ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ ليس بمالكٍ ومختارٍ هو استدلالٌ غيرُ صحيح أيضًا، صحيحٌ أنّ اللهَ تعالى فقطْ ولا أحدَ غيرُه هو المالكُ

---

(١) التفسير الكبير.

الحقيقيُّ للخزائنِ التي لا حَصْرَ لها، ولكنْ إذا أعطَى اللهُ تعالى عبدًا ضعيفًا مِثلي ما أستطيعُ به مساعدةَ بعضِ الفقراء، ومَنَحني الاختيارَ في ذلك، فكم يا تُرى من الاختيارِ مَنَحه لنبيِّه المصطفى ﷺ؟ إنّ مقاييسَ حساباتِنا لا تستطيعُ أن تُحيطَ بذلك، وهذا الاختيارُ وإن كان محدودًا مقارَنةً باختيارِ الله تعالى، لكنّه غيرُ محدودٍ مقارنةً بنا نحن، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**إنّي - والله - لَأنظُرُ إلى حَوْضيَ الآنَ، وإنّي أُعطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض**»[1]، فالذاتُ التي تعيشُ في هذه الدُّنيا وفي نفس الوقتِ تَرى حَوْضَ الكوثَر، والتي أعطاها اللهُ تعالى مفاتيحَ كنوزِ الأرض، لا يستطيعُ إنسانٌ أن يُحيطَ بمدى عِلمِه للغَيْب، ولا بهذه الكنوزِ التي أُعطِي مفاتيحَها، فلا يَعلَمُ سوى الله تعالى ونبيِّه الكريم ﷺ كم من عِلم الغَيْب وكم من الخزائِن أنعَمَ اللهُ تعالى بها على نبيِّه الحَبيب ﷺ، وتأمَّلْ قولَ النبيِّ ﷺ: «**واللهُ المعطي وأنا القاسم**»[2].

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾

٤٤ - كان الكفَّارُ يطالبونَ - كذلك - بأنه يجبُ أن يكونَ الرسولُ ملاكًا، قائلينَ: أيُّ رسولٍ هذا الذي يأكلُ كما نأكلُ، ويمشي في الأسواق! لو أنّه ملاكٌ لَصدَّقْنا أنه نبيٌّ، فقال النبيُّ ﷺ ما معناه: أنّ الأنبياءَ بشَرٌ، وأنا أيضًا بشَرٌ ولستُ ملكًا.

ويجبُ أن لا نتوهَّمَ من هذه الآيةِ أنّ المَلَكَ أفضَلُ من النبيِّ، فالمَلَكُ رَغْم أنه لا يَظهَرُ لأحد، ومنزَّهٌ عن الطَّعام والشراب، ويتَّخذُ الشكلَ الذي يريدُ، ولا يَحتاجُ إلى ما يمتطيهِ في سَفَرِه، لكنّه معَ ذلك ليس أفضَلَ من النبيِّ، بل إنّ الملائكةَ عَجَزت أمامَ عِلم سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، واضْطُرَّتْ إلى السُّجودِ تعظيمًا له، وبنفسِ الطريقة فإنّ الأسدَ والحصانَ والثُّعبانَ والطُّيورَ تقومُ بأعمالٍ لا يستطيعُ الإنسانُ الإتيانُ بها،

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٧٣.

(٢) البخاري، الخمس، باب ٧.

لكنْ لا يَلزَمُ من هذا أفضَليَّةُ الطُّيور على الإنسان، فالحقيقةُ التي لا شكَّ فيها هي أنّ الإنسانَ أشرَفُ المخلوقات، وهو يَحكُمُ الحيَواناتِ كلَّها.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾

٤٥ ـ مثلَما أنّ الأعمى والمبصِرَ لا يستويانِ، كذلك لا يستوي المؤمنونَ بالتَّوحيدِ والرِّسالة عن تمعُّنٍ في الحقائِق وتأمُّلٍ فيها، معَ أولئك الغارقينَ في الضَّلال، الذين أغلَقوا أعيُنَهم عن الحقائق، ولذا ينبغي أن نتفكَّر في الحقائقِ ونتأمَّلَها في سبيل البحثِ عن الحقِّ.

وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾

٤٦ ـ في هذه الآية أرشَدَ اللهُ تعالى نبيَّنا الحَبيبَ ﷺ بأنّ الذين لا يعودونَ عن كُفرِهم وعِنادِهم برَغْم الدَّلائل الواضحة، عليكَ أن لا تُضيِّعَ وقتَك في مُجادلتِهم، وبدلًا من ذلك عليكَ أن تهتمَّ بأولئك الذين يؤمنونَ بيوم القيامة بصُورةٍ من الصُّورَ، ويخشَوْنَ الحسابَ كذلك، ورَغْمَ أنّ دعوةَ النبيِّ ﷺ تتَّسعُ لتشمَلَ المؤمنينَ بيوم القيامة والمُنكرينَ لها على السَّواء، لكنّ توقُّعَ الهدايةِ من المؤمنينَ بيوم القيامة

يكونُ بنسبةٍ أعلى، ولهذا جاء الإرشادُ في هذه الآية بصفةٍ خاصَّةٍ إلى بَذْل مزيدٍ من الاهتمام بهؤلاء.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾

٤٧ ـ لن يكونَ للكفَّارِ شفيعٌ يومَ القيامة، ولن يَجِدوا من يتوسَّطُ لهم عندَ الله تعالى، ولكنّ محبَّةَ أولياءِ اللهِ ستظلُّ قائمةً حتّى في يوم القيامة أيضًا: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وسيشفَعُونَ عندَ الله بإذْنِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، يعني: أنّ أهلَ الإيمان سيَحظَوْنَ بشفاعةِ الأنبياءِ والعلماءِ والحُفَّاظِ والأطفال الصِّغار وغيرِهم ببركةِ إيمانِهم، ولأنّ هذه الشَّفاعةَ ستكونُ بإذْنِ الله تعالى، لهذا فإنّ الشَّفيعَ الحقيقيَّ لأهل الإيمانِ هو اللهُ تعالى نفسُه.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾

٤٨ ـ مرَّتْ جماعةٌ من مشركي قُرَيشٍ بالنبيِّ ﷺ، وكان يجلسُ عندَه ﷺ في ذلك الوقتِ سيِّدُنا بلالٌ وسيِّدُنا صُهَيْبٌ وسيِّدُنا عَمّارٌ وغيرُهم من فقراءِ ومساكينِ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا، فقال المشركونَ: «**يا محمَّد! أَرضِيتَ بهؤلاءِ من قومِك، هؤلاءِ الذين مَنَّ اللهُ عليهم من بَيْنِنا، أنحن نكونُ تِبْعًا لهؤلاء؟ اطرُدْهم عنك، فلعلَّك إنْ طردتَهم أن نتَّبعَك، فنزَلتْ هذه الآيةُ**»[1].

والمَقصِدُ أنْ لا تَطرُدْ ـ يا محمَّدُ ﷺ ـ أهلَ الإيمانِ من مجلسِك على أَمَلِ أن يؤمنَ بك هؤلاءِ الكفَّارُ؛ لأنّ هؤلاءِ الكفَّارَ إنْ لم يؤمنوا فلن يكونَ حسابُهم عليك

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

يومَ القيامة، ولن تُسألَ: لماذا لم يؤمنوا؟ كما أنّ حسابَك أنت أيضًا لن يكونَ عليهم، بمعنى: أنّ الكفَّارَ لن يُسألوا عن دعوتِك وتبليغِك، ولهذا فإنّك إنْ طَرَدتَ أهلَ الإيمانِ الضُّعفاءَ هؤلاءِ فسوف تؤذي قلوبَهم وتَجرَحُ مشاعرَهم، وهو أمرٌ لا يَليقُ بكَ أن تفعَلَه.

وفي هذه الآية عَلَّم الله تعالى أهلَ الإيمانِ درسًا عن طريقِ النبيِّ ﷺ بأنْ لا تحتقِروا فقراءَ أهلِ الإيمان؛ لأنّ الأفضَليَّةَ عندَ الله تعالى لمن هو أكثرُ إيمانًا وأكثرُ تقوى، وليس للعِرْقِ أو المالِ والثَّروة.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا أنّ الصَّحابةَ الكرامَ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا كانوا يعبُدونَ اللهَ تعالى بإخلاص، وقد شَهِد اللهُ تعالى بإخلاصِهم هذا، والأمرُ الثاني هو: أنّ من يريدُ القُربَ من رسولِ الله ﷺ عليه أن يَعبُدَ اللهَ بإخلاص، وهنا فقطْ يمُنُّ اللهُ تعالى عليه بالقُربِ من رسولِ الله ﷺ.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾

٤٩ ـ في البدايةِ كان أكثرُ مَن يدخُلونَ في الإسلام من الفقراء، وأصبحَ هذا الأمرُ بمثابةِ اختبارٍ وابتلاءٍ لسادةِ قُريشٍ وكُبَرائها، فكانوا يَسخَرونَ من هؤلاءِ الفقراءِ ويقولون: «أهؤلاءِ همُ الذين أحسَنَ اللهُ عليهم؟ بمعنى: أنه لو أنّ الإسلامَ إحسانٌ من اللهِ تعالى حقًّا لَكان ينبغي أن يُكتَبَ لنا نحن الأثرياءَ أولًا، لأنّنا أفضَلُ من هؤلاءِ الفقراءِ على أيِّ حال»، لكنْ كيف يَعلَمُ هؤلاءِ الكفَّارُ أنّ اللهَ تعالى لا ينظُرُ إلى المَظهَرِ الخارجيِّ ولا إلى المالِ والثَّروة، وإنّما يحبُّ فقطْ الشاكرينَ، أمّا الذين يختارونَ الكُفرَ والتكبُّرَ والجُحودَ فإنّهم لا يستحِقُّونَ إحسانًا من اللهِ تعالى.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾

٥٠ ـ أولئك المسلمونَ الفقراءُ الذين استَقاموا على عبادةِ الله تعالى برَغْم

ظُلْم الكفَّارِ لهم وتشنيعِهم عليهم، قال اللهُ تعالى لنبيِّه تكريمًا لهم: حين يأتيكَ أهلُ الإيمان فابدَأْهم أنت بالسَّلام، وأخبِرْهم كذلك ببُشْرى: أنّ اللهَ تعالى قد جَعَل رحمَته أوسعَ من أَجْلِهم، ولو أنّ واحدًا منهم أخطَأَ ونَدِم وتابَ وأصلَحَ من نفسِه، فإنّ اللهَ تعالى يرحَمُه ويغفرُ له ذَنْبَه.

ورَغْمَ أنّ نزولَ هذه الآيةِ كان لأَجْل تكريم المسلمينَ الفقراءِ في الفترةِ الأولى للإسلام ورَفْع معنويَّاتِهم، لكنّ حُكمَها عامٌّ، واليومَ أيضًا إذا أخطَأَ أحدٌ من المسلمينَ عَمْدًا أو بغيرِ عَمْد، ثم تابَ بنيّةٍ صادقةٍ وأصلَحَ من نفسِه، فإنّ اللهَ تعالى يَعْفو عنه، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**التّائبُ من الذَّنبِ كمَن لا ذَنْبَ له**»[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

٥١ - لقد بيَّنَ اللهُ تعالى هذه الآياتِ بشكلٍ واضحٍ تمامًا، حتى يتَّضحَ طريقُ الصَّالحينَ من طريقِ المُجرمين، بمعنى: أنّ الذين يتفكَّرونَ في هذه الآياتِ ويتدبَّرونَها ويؤمنونَ من خلالِها هم الصَّالحونَ، وطريقُهم صحيحٌ، ولهذا يكونُ العملُ طبقًا له، والسَّيرُ على نَهجِه، أمّا الذين يتعمَّدونَ عدَمَ الإيمانِ برَغْم وضوح الآياتِ فهم المجرمونَ، وطريقُهم خاطئٌ، ولذا يكونُ تجنُّبُه والابتعادُ عنه.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠.

يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾

٥٢ ـ كان كفَّارُ مكّةَ يعبُدونَ الأصنامَ، وكانت رَغَباتُهم ومحاولاتُهم تتركَّزُ في البحثِ عن طريقٍ تجعَلُ النبيَّ ﷺ أيضًا مستعِدًّا لعبادةِ أصنامِهم، وعليه نَزَلتْ هذه الآيةُ: أنْ يا أيُّها النبيُّ الحَبيب، قلْ لهؤلاءِ الكفَّارِ بوضوحٍ تامٍّ: إنَّني غيرُ مسموحٍ لي بعبادةِ الأصنام، ولو اتَّبعتُ أهواءكم وعَبدَتُ أصنامَكم فإنِّي سأكونُ من الضالِّين، ولهذا فأنا مُتمسِّكٌ بهذا البرهانِ الواضح، أي: الوحيِ المقدَّسِ الذي أَنْزلَه اللهُ علَيّ.

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ﴾

٥٣ ـ كان الكفَّارُ يطالبونَ بأنْ يُمطِرَهم اللهُ تعالى بحجارةٍ من السَّماءِ لإنكارِهم القرآنَ الكريمَ إن كان كتابًا صادقًا، أو أن يَبتلِيَهم بعذابٍ أليم: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وعليه أمَرَ اللهُ تعالى سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ أنْ قُلْ للكفَّارِ هؤلاء: إنَّ العذابَ الذي تطالبونَ به ليس عندي سلطةٌ بإنزالِه، وهو متوقِّفٌ على أمرِ اللهِ تعالى الذي إنْ شاء عَجَّل في عقابِ الظالم، وإن شاء أَخَّر عقابَه كلَّه إلى يوم القيامة، ولو أنّ هذا الاختيارَ في يدي لَأريتُكم ـ بناءً على مطالبتِكم ـ معجزةً في الوقتِ نفسِه، ولَفصَلْتُ في الأمرِ فورًا، ولكنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامًا متى يعاقبُ الظالمَ، وأمرُ اللهِ الآنَ هو أن يُبيِّنَ الحقَّ أمامَكم ولا يُنزِلَ عليكم العذابَ.

ويمكنُ أن يكونَ لهذهِ الآيةِ توجيهٌ آخرُ هو: أنه لو كان عندي ذلك الجَلالُ الذي كان عندَ سيِّدِنا موسى وسيِّدِنا نوحٍ عليهما السَّلام، لَكان العذابُ قد نَزَلَ

عليكم من فترة، ولكنّ اللهَ تعالى أرسَلَني رحمةً للعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ولهذا فإنِّي لن أقومَ بالدُّعاءِ عليكم بنزولِ العذاب. ويؤيِّدُ هذا التوجيهَ الأحاديثُ التالية:

١ ـ ذاتَ مرَّةٍ أرسَلَ اللهُ تعالى ملَكَ الجبالِ إلى النبيِّ ﷺ فقال له: **إن شئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ، فقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم من يَعبُدُ اللهَ وحدَه لا يُشرِكُ به شيئًا»**[1].

٢ ـ **عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قيل: يا رسولَ الله، ادعُ على المشركين، قال: «إنّي لم أبعَثْ لَعّانًا، وإنّما بُعِثتُ رحمةً»**[2].

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

٥٤ ـ الاختيارُ الحقيقيُّ في الحُكم على أيِّ شيءٍ هو لله تعالى فقطْ، ولكنّ هذا لا يعني أنْ لا نُطيعَ حُكمَ أحدٍ آخَرَ، وإنّما تجبُ علينا إطاعةُ أولئك الذين أعطاهمُ اللهُ تعالى الاختيارَ في الحُكم وتنفيذَ أحكامِهم، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، كما أنّ حُكمَهم بمثابةِ الحُكم الإلهيِّ، وطاعتَهم بمثابةِ طاعةِ الله تعالى، مثلَما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾

٥٥ ـ مفاتيحُ خزائنِ الغَيْب، يعني: عِلمُ الغَيْبِ عندَ الله تعالى فقطْ، ولا يَعلَمُ الغيبَ أحدٌ غيرُه، وقد قال اللهُ تعالى موضِّحًا عِلمَ الغيبِ هذا بصورةٍ أكبرَ في

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٧ برقم **٣٢٣١**.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب **٢٤** برقم **٦٦١٣**.

نفس الآية: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، ولذا فإنّ كلَّ شيءٍ في الكائناتِ مهما صغرُ أو كَبُر، ومهما كان ظاهرًا أم خفيًّا، فإنّ عِلمَه الكاملَ التفصيليَّ عندَ الله تعالى فقطْ، ولا يَعلَمُه أحدٌ من نفسِه سواه.

لكنّ هذا لا يعني أنّ اللهَ تعالى لا يُعطي عِلمَ الغيبِ لأحدٍ آخَرَ، بل إنه القادرُ المطلَق، يعطي عِلمَ الغيبِ لمن يشاءُ وبقَدْرِ ما يشاء، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فلماذا لا يُعطي عِلمَ الغيبِ لعامَّةِ النّاس بالإضافةِ إلى الأنبياء؟ للإجابةِ عن هذا السُّؤالِ راجعِ الآيةَ رقم **١٧٩** من سُورة آلِ عِمران، وكذلك الحاشيةُ رقم **١٢٦** من نفسِ السُّورة.

عن أبي هريرةَ، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «هل ترَوْنَ قِبْلتي ها هنا؟ واللهِ ما يخفَى عليَّ ركوعُكم ولا خشوعُكم، وإنّي لَأراكُم وراءَ ظَهْري»[1]، والركوعُ يقالُ للشَّكل الظاهريِّ للصَّلاة، بينَما يقالُ الخشوعُ للكيفيَّةِ الداخليَّةِ لها، ولهذا يُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ النبيَّ ﷺ يَعلَمُ ظاهرَ كلِّ شيءٍ وباطنَه، كما يَعلَمُ كذلك كلَّ ما غاب عن الأبصار؛ لأنّ وجْهَ النبيِّ ﷺ في الصَّلاةِ يكونُ إلى الكعبة، وكان الصَّحابةُ الكرامُ رضوانُ الله عليهم جميعًا يقفُونَ خلفَه في صفوفٍ، ومعَ ذلك كان النبيُّ ﷺ يَعلَمُ ظاهرَهم وباطنَهم، ولكنّ الحقيقةَ التي لا تَلْحَقُها الشُّكوكُ ولا الشُّبهاتُ هي أنّ عِلمَ أيِّ ملاكٍ من الملائكة أو نبيٍّ من الأنبياءِ بمَن فيهم سيِّدُ الأنبياءِ والمرسَلين سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ لا يمكنُ أن يَعدِلَ عِلمَ الله تعالى؛ لأنّ عِلمَ اللهِ تعالى ذاتيٌّ وقديمٌ وغيرُ محدود.

---

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب ٨٨.

ومثلُ هذا العِلم لا يَليقُ إلّا باللهِ تعالى، وإثباتُ ذلك لأحدٍ معَه شِركٌ، وعلى العكس من ذلك عِلمُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ عطائيٌّ وحادثٌ ومحدودٌ، وهذا العِلمُ فَضْلٌ من الله تعالى وإحسانٌ على الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، ونسبةُ مثلِ هذا العِلم إلى اللهِ تعالى كُفْر، يعني: قولَنا: إنّ عِلمَ الله تعالى عطائيٌّ وحادثٌ أو محدود.

ويَكتُبُ العلّامةُ القُرطُبيُّ خُلاصةَ هذا التفصيل بقوله: «**فاللهُ تعالى عندَه عِلمُ الغيب، وبيدِه الطُّرُقُ الموصِّلةُ إليه، لا يَملِكُها إلّا هو، فمَن شاء إطلاعَه عليها أطلَعَه، ومن شاء حَجْبَه عنها حَجَبَه، ولا يكونُ ذلك من إفاضتِه إلّا على رُسُلِه**»[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾

٥٦ ـ ينامُ الإنسانُ ليلًا ليستريحَ، وفي النَّوم يتعطَّلُ عقلُه ووعيُه، وهذا بمثابةِ الموتِ العارِض أو المؤقَّت، وينهَضُ بالنَّهار ليعمَلَ، ويعودُ إليه عقلُه ووعيُه في يَقَظتِه، وهذا بمثابةِ البَعْثِ بعدَ الموت، وتظَلُّ سلسلةُ تعاقُبِ اللَّيل والنّهارِ هذه متواصلةً، إلى أنْ تنتهيَ فترةُ عمُرِ الإنسان، فيذهبَ إلى أحضانِ الموت، ثم يُحييه اللهُ تعالى ثانيةً يومَ القيامة، ويَعرِضُ أمامَه فيلمَ حياتِه، فيرى فيه كلَّ أعمالِه، ثم يتقرَّرُ بعدَ ذلك ثوابُه وعقابُه على هذه الأعمال، فيُثابُ بالسُّرورِ والجنَّةِ على الأعمالِ الصَّالحة، وعلى الأعمالِ السيِّئة بالإذلالِ وجهنَّم.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ الإنسانَ لا بدَّ سيَمثُلُ يومًا في الحَضْرةِ الإلهيَّة، حيث ستَظهرُ كلُّ أعمالِه في الدنيا، ولهذا على كلٍّ منّا أن يُفكِّرَ مئاتِ المرّاتِ قبْلَ أن يُقْدِمَ على ارتكابِ خطأٍ ما، حتّى لا يعترَيه الخَجَلُ والنَّدمُ مستقبَلًا في ميدانِ الحَشْر أمامَ الله تعالى.

---

(١) تفسير القرطبي.

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

٥٧ ـ اللهُ تعالى غالبٌ على عبادِه، ولا يوجَدُ شيءٌ خارج قُدرتِه، كما أنّه أرسَلَ ملائكَةَ لتراقَب عبادَه، تقومُ بتسجيل حسَناتِهم وسيِّئاتِهم، وهم الذين يُطلَقُ عليهم الكرامُ الكاتبون: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، وقد رُويَ عن سيِّدِنا ابن عَبّاس رضيَ اللهُ عنه «**أنّ معَ كلِّ إنسانٍ مَلَكيْنِ: أحدُهما عن يمينِه يَكتُبُ حسَناتِه، والآخرُ عن يسارِه يَكتُبُ سيِّئاتِه**»(١)، والحِكمةُ في ذلك أنه حين يَعلَمُ الإنسانُ أنّ أعمالَه تُسجَّلُ عليه في صحيفةٍ، وأنّ هذه الصَّحيفةَ ستُعرَضُ

---

(١) التفسير الكبير.

على الملأِ يومَ القيامة، يتولَّدُ بداخلِه الخوفُ، ويتجنَّبُ ارتكابَ السيِّئاتِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

٥٨ - حين تكتملُ فترةُ حياةِ الإنسانِ الفانيةِ هذه، تَقبِضُ ملائكةُ الله رُوحَه، ولا يَنقُصُونَ أو يزيدونَ في وقتِ قَبْض الرُّوح، ويبدو - من هذه الآية - ظاهرًا أنّ الملائكةَ التي تَقبِضُ الرُّوحَ كثيرو العدَد، لكنّ الحقيقةَ أنّ الملاكَ الذي يَقبِضُ الرُّوحَ واحدٌ فقطْ، وهو الذي أطلَقَ عليه القرآنُ الكريمُ «مَلَكَ الموت»: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وقد وَرَد اسمُه في بعضِ الأثَر «عِزْرائيلَ»[1]، إلّا أنّ معَ عِزْرائيلَ كثيرًا من المُعاوِنينَ له، ولهذا فقد وَرَد ذِكرُ ملائكةِ الموتِ في صيغةِ الجَمْع في هذه الآية بمناسبةِ هؤلاءِ المُعاوِنينَ من الملائكة.

وهنا يَبرُزُ سؤالٌ وهو: كيف تُقبَضُ أرواحُ الكثيرينَ من البشَر في أنحاءِ الأرض في وقتٍ واحد، وكيف يَقبِضُ عِزْرائيلُ هذه الأرواحَ كلَّها من أماكنَ متفرِّقة؟ وقد ذَكَر العلّامةُ السُّيوطيُّ رحمةُ الله عليه إجابةً عن هذا السُّؤال في كتابِه «الدُّرُّ المنثور» عدّةَ رواياتٍ في تفسيرِ الآية رقم ١١ من سورة السَّجدة نَذكُرُ منها ما يلي:

١ - «قيل: يا رسولَ الله! مَلَكُ الموتِ واحد، والزَّحفانِ يلتَقيانِ من المشرقِ والمغربِ وما بينَهما من السَّقْطِ والهلاك! فقال: «إنّ اللهَ حَوى الدُّنيا لمَلَكِ الموت حتى جَعَلَها كالطَّستِ بين يدَيْ أحدِكم، فهل يفوتُه منها شيءٌ؟»

٢ - «سأل ابراهيمُ عليه السَّلامُ ملَكَ الموتِ - واسمُه عِزْرائيل -: يا مَلَكَ

(١) «وقد سمّي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور». ابن كثير، سورةُ ألم السجدة: تفسير الآية ١١.

الموت! ما تصنَعُ إذا كانت نفسٌ بالمشرقِ ونفسٌ بالمغرب، ووُضِع الوباءُ بأرض، والتقَى الزَّحفانِ كيف تصنَع؟ قال: أدعو الأرواحَ بإذْنِ الله فتكونُ بيْنَ أصبعيَّ هاتَيْنِ.

٣ ـ عن ابن عَبّاس رضيَ اللهُ عنهما، أنه سُئل عن نفسَيْنِ اتَّفق موتُهما في طَرْفةِ عَيْن ـ واحدٍ في المشرق وواحدٍ في المغرب ـ كيف قُدرةُ مَلَكِ الموتِ عليهما؟ قال: ما قُدرةُ مَلَكِ الموتِ على أهل المشارقِ والمغاربِ والظُّلُماتِ والهواءِ والبحورِ إلّا كرَجُل بيْنَ يدَيْه مائدةٌ يتناولُ من أيِّها شاء.

٤ ـ «حُوِيَت له الأرضُ، فجُعلِت له مِثلَ طَسْتٍ يتناولُ منها حيث يشاءُ».

ويُعلَمُ من هذه الرِّواياتِ أنه لا فَرْقَ ـ بالنِّسبةِ لمَلَكِ الموتِ ـ بينَ الظاهرِ والباطن، ولا بيْنَ القريبِ والبعيد، فقد طُويت الأرضُ كلُّها له، وصارت كمائدة، وبصيرةُ مَلَكِ الموتِ متَّسعةٌ حقيقةً، لكنّ الوُسعةَ التي أعطاها اللهُ تعالى لبصيرةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ أكبرُ بكثير مما أُعطي للملائكة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواهُ ثَوْبانُ رضيَ الله عنه: **«إنّ اللهَ زَوى ليَ الارضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها»**[١]، ولم يُعطِ اللهُ تعالى للنبيِّ ﷺ عِلمَ الأرض فقطْ، بل وأعطاه عِلمَ السَّماواتِ أيضًا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: **«إنّ اللهَ وَضَع يدَه بيْنَ كَتفِيَّ حتّى وَجدتُ بَرْدَها بيْنَ ثَدْييَّ، فعَلِمتُ ما في السّماواتِ وما في الارض»**[٢].

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾

٥٩ ـ حينَ يَبعَثُ اللهُ تعالى النّاسَ يومَ القيامة يُقدِّمُهم الملائكةُ في الحضرةِ الإلهيَّةِ إلى اللهِ مالكِهم الحقيقيِّ، فقد عاش في هذه الدُّنيا ظالمونَ مثلَ النَّمرودِ وفِرعَوْنَ جَعَلوا من أنفُسِهم مالكينَ بغيرِ حقٍّ وحَكَموا النّاسَ، ولم يَعترِفوا بالمالكِ الحقيقيِّ،

---

(١) مسلم، برقم ٢٨٨٩.

(٢) الترمذي، تفسير القرآن، برقم ٣٢٣٣.

ولكنْ يومَ القيامة سيَرى الناسُ جميعًا؛ عامَّتُهم، وخاصَّتُهم ومؤمنُهم وكافرُهم، أنّ المالكَ الحقيقيَّ هو اللهُ تعالى فقطْ وليس سواه، وسيتقرَّرُ مصيرُ الجميع في ذلك اليوم طِبقًا لحُكمِه هو، ولن يكونَ حُكمٌ من أحكامِه مخالفًا للعدلِ والإنصاف.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾

٦٠ ـ اللهُ تعالى سريعُ الحسابِ يومَ القيامة، وهنا يمكنُ أن يتصوَّرَ أحدٌ أنّ أمرَ حسابِ النّاس جميعًا منذُ آدمَ عليه السَّلامُ وحتى قيام الساعة، وفَحْصَ كتابِ كلِّ فردٍ على حِدَةٍ، سيستغرقُ فترةً طويلة، لكنّ قياسَ أعمالِ الله تعالى على أعمالِنا قياسٌ خاطئ، فاللهُ تعالى قادرٌ مُطلَق، وعندَ حسابِه لأحدٍ لا يكونُ غافلًا عن الآخَرين، ومثلَما تُنيرُ الشَّمسُ كلَّ شيءٍ في الدنيا في وقتٍ واحد، فإنَّ اللهَ تعالى أيضًا يُفيضُ على البشَرِ جميعًا بعنايتِه في وقتٍ واحد، وإذا كان مَلَكُ الموتِ لا يستغرقُ وقتًا في قَبْضِ أرواح النّاس من مختلَفِ أرجاءِ الدنيا دَفْعةً واحدة، فإنّ اللهَ تعالى ـ وهو خالقُ مَلَكِ الموتِ هذا ـ لا يَحتاجُ إلى وقتٍ لمحاسبةِ العالَم أجمَعَ، فوُسعةُ الزَّمانِ والمكان تُطوى أمامَ قُدرتِه، وحين يريدُ شيئًا فإنّه يقولُ له «كنْ» فيكونُ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، وقد جاء في الحديثِ، أنّ اللهَ تعالى «**يحاسِبُ الخلائقَ كلَّهم في مقدارِ نصفِ يوم من أيام الدُّنيا**»[١]، وجاء في حديث آخر «**أنه تعالى يحاسِبُ الكل في مقدار حلب شاة**»[٢]، وفي هذه الأحاديثِ إظهارٌ لمشيئةِ الله تعالى وإرادتِه، وإلّا فإنه ليس في حاجةٍ إلى أيِّ وقت، مثلَما سُئل سيِّدُنا عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: «**كيف يُحاسِبُ ربُّنا النّاسَ جميعًا في وقتٍ واحد؟ قال الإمامُ عليٌّ كرَّم اللهُ وجَهه: كما يَرزُقُهم في وقتٍ واحد يُحاسبُهم في وقتٍ واحد**»[٣].

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) روح المعاني.

(٣) تفسير الشعراوي.

أكبرُ اجتماع لتوزيعِ الجوائز

إنّ مرحلةَ خمسينَ ألفَ سنةٍ هي مقدارُ يوم القيامة، وتقريرُ ما فيها من حسابٍ وثوابٍ وعقابٍ سيُطوى في وقتٍ مختصَرٍ للغاية، فماذا بالنِّسبةِ لباقي اليوم يا ترى؟ هيّا بنا نبحَثْ عن إجابةٍ لهذا السُّؤال في ضوءِ القرآنِ والحديثِ الشَّريف:

*** عن أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إذا كان يومُ القيامة ماجَ النّاسُ بعضُهم إلى بعضٍ، فيأتونَ آدمَ عليه السَّلامُ فيقولونَ له: اشفَعْ لذُرّيَّتِك، فيقول: لستُ لها ... فيؤتَي عيسى عليه السَّلامُ فيقول: لستُ لها ولكنْ عليكم بمحمّدٍ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فأُوتَى فأقولُ: أنا لها، أنطلقُ فاستأذِنُ على ربّي، فيؤذَنُ لي ... ثمّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيقالُ لي: يا محمَّد! ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَهْ، واشفَعْ تُشفَّعْ»**[1]، وتأمَّلْ هذا التفصيلَ مختصرًا في البيتِ التالي:

*** الخليلُ والنّجيّ، والمسيحُ والصَّفيّ، لم يستطعْ أحدُهم أن ينفَعَ الخَلْق.**

*** ولم يكنْ هؤلاءِ الخَلْقُ يَعلَمونَ أنهم سيأتونَ في نهايةِ الأمر إليكَ أنت.**

وبعدَ ذلك يبدأُ الحسابُ، ويكتملُ سريعًا، ويقفُ الكفّارُ في قَفَص المجرمين، ويُعلَنُ أنّهم سيَدخُلونَ جهنَّم، ولكنْ أنَّى للكفّارِ أن يَعلَموا أنّ أهلَ الإيمانِ الذين كانوا يَظلِمونَهم في الحياةِ الدُّنيا ماذا سيلقَوْنَ في الجنَّة؛ لأنّ الكفّارَ لن يَدخُلوا الجنَّةَ، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى يُنعِمُ على أهل الإيمانِ بالجوائزِ الكبرى أمامَ الكفّارِ في ميدانِ الحَشْر، حتى يَرى الكفّارُ بأعيُنِهم عَظَمة أهلِ الإيمان.

وأنا أعتقدُ أنّ هذا سيكونُ أكبرَ اجتماع لتوزيع الجوائزِ الرَّبّانيَّة، والذي سيحضُرُه كلُّ البشَرِ منذُ خُلِق آدمُ عليه السَّلام وحتى قيام الساعة، مؤمنُهم وكافرُهم

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، برقم ٣٢٦.

على السَّواء، ولن يحدُثَ مِثلُ هذا الاجتماع لبني الإنسانِ قبلَ قيام الساعةِ ولا بعدَها، وسوف يُنعِمُ اللهُ تعالى في هذا الاجتماع العظيم على أهل الإيمانِ من الرِّجالِ والنِّساء والأطفالِ ذكورًا وإناثًا كلٌّ طِبقًا لمرتبتِه ومقامِه، بالكراسيِّ النُّورانيَّة في ظلِّ العرشِ وحقِّ الشَّفاعة والأَرْدِيةِ النُّورانيَّة والتِّيجانِ النُّورانيَّة كذلك، ولكنّ أرفعَ الجوائزِ ستُمنَحُ للأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ الذين سيجلسونَ على منابرَ من نُور، وسيكونُ شأنُ نبيِّنا المحبوبِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ في هذا الاجتماع كلِّه عظيمًا، إذ إنّ اللهَ تعالى سيُنعِمُ عليه بالجائزةِ الكبرى وهي المقامُ المحمود، وسيُجلسُه معَه على العَرْش[1]، وتبدأُ سلسلةُ العَفْو عن المُذنِبينَ من أهل الإيمانِ بشفاعتِه ﷺ، كم هو منظرٌ رائعٌ وجميل، وهو المنظرُ الذي أشار إليه مَوْلانا حَسن رِضا خان البريلويُّ في البيتِ التالي:

*** هناك سببٌ واحدٌ فقطْ لانعقادِ محفِل يوم الحَشْر.**

*** وهو أن تَظهَرَ عظَمةُ شأنِ محبوبيَّتِه ﷺ.**

ومن الطبيعيِّ أن يحترقَ حُسَّادُ الحاصلينَ على الجوائزِ حسَدًا، وأن يَضرِبوا أكُفَّ النَّدم، ولهذا فإنّ الكافرَ في ذلك اليوم سيَعَضُّ على يدَيْه قائلًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]، وهذه الآيةُ بمثابةِ اللُّمحةِ الفِكْريَّة للإنسانيّةِ كلِّها، حتى يختارَ أهلُ الدنيا اليومَ طريقَ نبيِّ آخِرِ الزَّمان سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، وإلّا فلن يُفيدَهم النَّدمُ شيئًا في الآخرة، وما أحسَنَ ما قاله مَوْلانا أحمدُ رضا خان البريلويّ:

*** عليكم اليومَ أن تَلُوذوا بهِ، وتطلُبوا منه العَوْنَ والمدَدَ اليومَ**

*** فلن يرضاهُ منكم يومَ القيامة إنْ لم تفعَلوا اليومَ.**

---

(١) «المقام المحمود الذي وعد الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم» أن يبعثه إياه، هو: أن يقاعده معه على عرشه. ابن جرير الطبري، سورة الاسراء (١٧): الآية ٧٩.

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾

٦١ ـ ما كان أعجَبَ أمرَ مشركي العرب! فمن ناحيةٍ كانوا يشركونَ الأصنامَ معَ الله تعالى ويعبُدونَها، ومن ناحيةٍ أخرى حينَ كانت المصائبُ تُحاصرُهم في ظُلُماتِ البَرِّ والبحر، وتتقطَّعُ بهم كلُّ سُبُل النَّجاة، ويتراءى الموتُ لهم أمامَ أعيُنِهِم، فإنّهم كانوا يَنْسَوْنَ الأصنام، ويستغيثونَ بالله تعالى الخالقِ الحقيقيِّ بكلِّ عَجْزٍ ومسكَنة طالبينَ منه العَوْنَ والمَدَد، بأنه إنْ أنْجاهم من مصيبتِهم هذه فإنّهم لن يعصُوه بعدَها، وسيكونونَ له عبادًا شاكرينَ ما دامتِ الحياة.

وفي هاتَيْنِ الآيتَيْنِ قال اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ أنْ ذَكِّرْ هؤلاءِ الجاحدينَ بما وَعَدوا به، واسألْهم: إنّكم حين تحيطُ بكم المخاطرُ تستغيثونَ بالله تعالى، وحينَ يُنْجيكم اللهُ تعالى منها فإنّكم تعودونَ ثانيةً إلى شِركِكم، فأيُّ إنسانيّةٍ هذه، وأيُّ بشَرٍ أنتم؟!

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ بعضَ الكفَّارِ في وقتِ المصيبة يَلْجَأونَ إلى الله تعالى في قلوبِهم متضرِّعينَ إليه بألسنتِهم، ولكنْ على المسلمين أن يتذكَّروا اللهَ تعالى في كلِّ حال، سواءٌ في الفَرَح والسُّرور أو في الحُزنِ والغَمِّ، وأن يُوفوا بوعودِهم معه، وتَذكَّروا أنّ أولَ وعدٍ قَطَعه كلُّ مسلم على نفسِه هو أنه سيعبُدُ اللهَ تعالى فقطْ، وأنه سيقضي حياتَه طِبقًا لأحكامِه وأوامرِه.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾

٦٢ ـ المرادُ من العذابِ من فوقِكم هو: العذابُ السَّماويُّ، مثلَما ألقَتْ طُيورُ الأبابيل الحصَى من أعلى على جيشِ أبرَهةَ فسَحَقتْه هو وأفيالَه، وأمّا المرادُ بالعذابِ من أسفلَ منكم فهو: العذابُ الأرضيُّ، مثلَما ابتَلَعت الأرضُ قارونَ وخزائنَه، وابتَلَعت أمواجُ المياه فِرعَوْنَ وجيشَه.

وكان ابنُ عبّاس رضيَ اللهُ عنه يقول: «**أمّا العذابُ من فوقِكم: أئمّةُ السُّوء، وأمّا العذابُ من تحتِ أرجُلِكم: خَدَمُ السُّوء**»[١]. يعني: لو أنّ الحاكمَ الذي يَسُنُّ القوانينَ، وموظَّفي الحكومةِ الذين يقومونَ بتنفيذِها، كلُّهم من الفاسدين، فإنّ من الطبيعيِّ أن يُبتلَى الشَّعبُ بعذاب، ولكنّ هناك سؤالًا في هذا الخصوص وهو: من أين يأتي حُكّامُ السُّوءِ هؤلاء؟ هؤلاءِ الحُكّامُ إمّا ينتخبُهم الشَّعب، وإما يُسلِّطُهم اللهُ على الشَّعبِ عقابًا لهم على ذنوبِهم، وتأمَّلْ في هذا الخصوص الأحاديثَ التاليةَ للنبيِّ ﷺ:

١ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «كما تكونوا كذلك يؤمَّرْ عليكم»[٢].

٢ ـ عن أبي الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ اللهَ تعالى يقول: أنا اللهُ لا إله إلّا أنا مالكُ الملوك، ومَلِكُ الملوك، قلوبُ الملوكِ في يدي، وإنّ العبادَ إذا أطاعوني، حَوّلتُ قلوبَ ملوكِهم عليهم بالرّحمةِ والرّأفة، وإنّ العبادَ إذا عصَوْني، حوَّلتُ قلوبَهم بالسُّخطةِ والنِّقمة، فساموهم سُوءَ العذاب، فلا تشغَلوا أنفُسَكم بالدُّعاءِ على الملوك، ولكنِ اشغَلوا أنفُسَكم بالذِّكرِ والتّضرُّع كي أكفِيَكم ملوكَكم»[٣].

﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾

٦٣ ـ يقولُ العلّامةُ ابنُ جريرٍ الطَّبري: حينَ نَزَلت هذه الآيةُ «**قام رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فتوضَّأَ، فسألَ ربَّه أنْ لا يُرسِلَ عليهم عذابًا من فوقِهم، أو من تحتِ أرجُلِهم، ولا يُلبِسَ أُمَّتَه شِيَعًا، ويُذيقَ بعضَهم بأسَ بعض، كما أذاقَ**

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) شعب الإيمان، البيهقي، ٦: ٢٣.

(٣) المشكاة، كتاب الإمارة، باب ٣.

بني إسرائيلَ، فهَبَطَ إليه جِبريلُ عليه السَّلامُ فقال: يا محمَّد! إنّك سألتَ ربَّك أربعًا، فأعطاك اثنتَيْنِ، ومَنَعَك اثنتَيْنِ: لن يأتيَهم عذابٌ من فوقِهم ولا من تحتِ أرجُلِهم يَستأصِلُهم فإنّهما عذابانِ لكلِّ أُمّةٍ اجتَمَعت على تكذيبِ نبيِّها، ورَدِّ كتابِ ربِّها؛ ولكنَّهم يُلبِسُهم شِيَعًا، ويُذيقُ بعضَهم بأسَ بعض، وهذان عذابانِ لأهلِ الإقرارِ بالكتاب، والتّصديقِ بالأنبياء، ولكنْ يُعذَّبونَ بذنوبِهم»[١].

ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنه بفَضْل دعاءِ النبيِّ ﷺ لن يَنزِلَ على أُمَّتِه عذابٌ من السَّماءِ والأرض يَستأصِلُ شَأْفتَهم ويمحو أثَرَهم، مثلَما كان يَنزِلُ على الأُمم السَّابقة، فإذا حَدَث مِثلُ هذا بشكلٍ جُزْئيٍّ وخاصٍّ فإنه لا ينفي ما قُلناه، أمّا تقسيمُ المسلمينَ إلى جماعاتٍ وشِيَع، وصراعاتُهم فيما بينَهم، فهما صورتانِ من العذابِ سَلَّطَهما اللهُ علينا بذنوبِنا، وطالما لم نتُبْ من هذه الذُّنوبِ بصِدقٍ، فسوف يزدادُ مستقبَلُنا ظلامًا أكثرَ ممّا هو عليه الآنَ:

*** لم يُغيِّر اللهُ حتى يومِنا هذا حالةَ قومٍ**

*** لم يُفكِّروا هم في تغييرِ أحوالِ أنفسِهم.**

اختلافُ المذاهبِ الفِقْهيَّة:

بعضُ النّاسِ يَعتبرُ المذاهبَ الفِقْهيَّةَ المختلفةَ ضمنَ التفرُّقِ شِيَعًا وجماعاتٍ وأحزابًا، وهو أمرٌ غيرُ صحيح؛ لأنّ هذا الاختلافَ ليس بسببِ الرَّغَباتِ النَّفْسانيَّة، ولا هو اختلافٌ في العقائدِ والأُصولِ ممَّا يستحِقُّ الذمَّ، وإنّما هو اختلافٌ في المسائل الفَرْعيَّة وطِبقًا لمبادئِ الاجتهادِ التي جاء بها القرآنُ والسُّنةُ النَّبويَّة، ومِثلُ هذا الاختلافِ كان موجودًا بينَ الصَّحابةِ الكرام أيضًا، وعلى سَبيل المثال:

---

(١) تفسير الطبري.

كان سيِّدُنا عبدُ الله بُن عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما يَجهَرُ بالبسمَلة[١]، ولهذا كان الإمامُ الشافعيُّ يقولُ بقراءةِ البسمَلةِ جَهْرًا وبصوتٍ عالٍ في الصَّلاةِ الجَهْريَّة، في حينَ أن سيِّدَنا عبدَ الله بنَ مسعودٍ رضي اللهُ عنهما كان يُسِرُّ بقراءةِ البسمَلة في الصَّلاةِ الجَهْريَّة[٢]، ولهذا كان الإمامُ أبو حنيفةَ رحمَه الله من القائلينَ بقراءةِ البسمَلةِ سرًّا في الصَّلاةِ الجَهْريَّة، ولهذا ـ في الغالب ـ أخبرَ النبيُّ ﷺ أُمَّتَه مسبَقًا فيما رَواه سيِّدُنا عُمرُ بنُ الخَطاب رضيَ اللهُ عنه: «**أصحابي كالنُّجوم، فبِأَيِّهمُ اقتَديتُم اهتَديتُم**»[٣].

«**وعن رَبيعةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: إنّ اللهَ تبارك وتعالى أنزَلَ القرآنَ وترَكَ فيه موضعًا للسُّنة، وسَنَّ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم السُّنةَ وتَرَك فيها موضعًا للرَّأي**»[٤].

وكما أنّه كان هناك اختلافٌ في شرائع الأنبياءِ السَّابقينَ عليهم السَّلام، وكانت كلُّها تحتَ وَحْي الله تعالى، لهذا كانت كلُّها أحكامَ الله تعالى، وبنفسِ الطريقة فإنّ الاختلافَ بيْنَ مجتهدي الأُمَّة في المسائل الفَرْعيَّة للمذاهب، ولكن لأنّها كلَّها تحتَ القرآنِ والسُّنّة وفي إطارِهما، لهذا فإنّها أحكامُ القرآنِ والسُّنّة أيضًا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ:

١ ـ «**إنّ العلماءَ وَرَثةُ الأنبياء**»[٥].

٢ ـ «**اختلافُ أُمّتي رحمةٌ**»[٦].

---

(١) القرطبي، تفسير بسم الله.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المشكاة، كتاب المناقب.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم، ٥: ١٤٢٤.

(٥) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩.

(٦) كنز العمال، ١٠: ١٣٦.

فلو حَدَثَ اختلافٌ في العقائدِ الأساسيَّةِ للإسلام فإنّ الأمرَ حينَئذٍ يكونُ بينَ الكُفرِ والإسلام، ومن هنا يكونُ من الضَّروريِّ للغاية الاحتياطُ الشّديدُ في فَهْم الاختلافِ الفَرْعيِّ والاختلافِ الأساسيِّ؛ لأنّه إنْ حَكَم أحدٌ على أحدٍ بالكُفرِ بسببِ العقائدِ الأساسيَّة فسيكونُ أحدُهما كافرًا على وَجْهِ اليقين، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ «**أيُّما امرئٍ قال لأخيه: [يا] كافر! فقد باءَ بها أحدُهما، إنْ كان كما قال، وإلّا رجَعَتْ عليه**»[1].

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

٦٤ ـ حينَ رَفَض كفَّارُ مكّةَ الاعترافَ بالقرآنِ المَجيد معَ أنه كتابٌ صادق، وكلُّ ما وَرَد فيه من أخبارٍ صادقٌ أيضًا، قال النبيُّ ﷺ عندَئذٍ: إنَّني لستُ مسئولًا عن اهتدائكم، فإنّ عَملي هو دعوتُكم وتبليغُكم، وإنذارُكم من عذابِ الآخِرة، والآنَ إذا لم تؤمنوا بالقرآنِ المَجيد فإنّ المصيرَ السَّيِّئَ الذي حذَّركم منه القرآنُ الكريمُ ستلقَوْنَه في وقتِه المحدَّد.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾

٦٥ ـ في هذه الآيةِ يُنبِّهُ اللهُ تعالى الأُمَّةَ المسلمةَ ـ عن طريقِ النبيِّ ﷺ ـ بأنْ يتجنَّبوا المجالسَ التي يُعابُ فيها القرآنُ والإسلام، وإن جلستُم في هذه المجالسِ ذاتَ مرّةٍ على سبيل الخطأِ والنِّسيان فعليكُم مغادرتُها فَوْرَ تذكُّرِكم؛ لأنّ الإنسانَ يتأثَّرُ بالضَّرورةِ من عاداتِ وأخلاقِ وعقائدِ جليسِه، ولهذا قال النبيُّ ﷺ فيما رَواهُ سيِّدُنا أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه: «**الوحدةُ خيرٌ من جليسِ السُّوءِ، والجليسُ الصّالحُ خيرٌ**

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٢٦ برقم ١١١.

من الوحدةِ، وإملاءُ الخيرِ خيرٌ من السُّكوت، والسّكوتُ خيرٌ من إملاءِ الشّرّ»[1]، ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح لهذه الآية راجِع الحاشيةَ رقم **١٤٩** من سورة النِّساء.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ﴾

٦٦ ـ لوِ اضْطُرَّ أهلُ الإيمانِ لسببٍ من الأسباب إلى الجلوسِ في مجالسِ الكفَّارِ التي تترصَّدُ للقرآنِ والإسلام وتعِيبُهما، فإنّ عذابَ هذا الذَّنبِ من الكفَّارِ لن يقعَ على أهلِ الإيمان؛ لأنّهم جَلَسوا هناك مضْطَرِّينَ، لكنْ ـ وبالرَّغْم من ذلك ـ يجبُ الاجتهادُ وبقَدْرِ المستطاع في نُصح هؤلاءِ الكفَّارِ باعتبارِه مسئوليَّةً تقعُ على عاتقِنا، لأنّ من الممكنِ أن يتولَّدَ خوفُ الله في قلوبِهم بسببِ هذا النُّصح، ويعودوا عن سُخْريتِهم من القرآنِ والإسلام.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾

٦٧ ـ جَعَل مشركو مكّةَ من دينِهم لُعبةً، فِمن جانبٍ كانوا يصنَعونَ أصنامَهم بأيديهم، ويعبُدونَها، ومن جانبٍ آخَرَ يَسْخَرونَ من الدِّين الصَّحيح وهو الإسلام، والسببُ الرئيسُ في ذلك أنّ الحياةَ الدُّنيا غَرَّتْهم وخَدَعتْهم، فاعتبَروا هذه الحياةَ هي كلَّ شيء، ولم يؤْمنوا بالآخِرة، ولهذا ينبغي للمسلمينَ الابتعادُ عن هؤلاءِ الكفَّار، ويتجنَّبوا تجمُّعاتِهم، ولكنّ هذا لا يعني أنْ لا ندعوَهم إلى الله، بل علينا أن ننصحَهم بالقرآنِ حتى تقومَ عليهم الحُجَّةُ، ولا يعتذِروا يومَ القيامة بعدَم العِلم، كما أنّ الداعيَ ينالُ ثوابَ دعوتِه على كلِّ حال، سواءٌ عَمِل بذلك مَن يسمَعُه أم لا، مثلَما يأخُذُ

(١) شعب الإيمان، البيهقي، برقم ٤٩٩٣.

المؤذِّنُ ثوابَ رَفْعِه الأذانَ، سواءٌ جاء إلى الصَّلاةِ من سَمِع الأذانَ أم لا، فإذا أصَرُّوا على كُفرِهم برَغْم الدَّعوةِ والتبليغ فإنّ أحدًا لن يَشفَعَ لهم يومَ القيامة، ولن يَمُدَّ لهم أحدٌ يدَ العَوْنِ عندَها، ولن تُقبَلَ منهم أيّةُ فِديةٍ أو عِوَض، وإنّما سيُلقَوْنَ في نارِ جهنَّم جزاءَ أعمالِهم الكُفْريَّة، وسيُخلَّدونَ في العذابِ الأليم.

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾

٦٨ ـ لقد حاوَلَ المشركونَ أن يترُكَ المسلمونَ إسلامَهم ويرجِعوا إلى عبادةِ الأصنام، وعليه قال النبيُّ ﷺ: إنّ اللهَ تعالى هدى المسلمينَ إلى الصِّراطِ المستقيم، فكيف يمكنُ أن يترُكوا عبادةَ الله تعالى ويعبُدوا الأصنامَ التي لا تنفعُ ولا تَضُرُّ، ولهذا فإنّ مَن يترُكُ الإسلامَ ويتَّجِهُ إلى عبادةِ الأصنام، فإنّ مَثَلَه كشخصٍ يسيرُ معَ رفاقِه في غابةٍ على الطَّريق الصحيح، ثم يُغويه الشَّيطانُ فيترُكُ رفاقَه ويسيرُ على الطَّريقِ الخاطئ، ويدعوه رفاقُه لكي يعودَ إلى الطِّريقِ الصَّحيح مرةً أخرى، لكنَّه لايُعيرُ نصيحةَ أصدقائه المخلصينَ اهتمامًا، ويَهيمُ على وجهِه في الغابة حيرانَ قلقًا، فمَثَلُ هذا الشَّخصِ الأحمقِ لا يمكنُ أن يَصِلَ إلى منزلِه المقصود، ولكنْ يا أيُّها المشركونَ، اسمَعوا جيِّدًا، نحن لن نترُكَ هذا الطَّريقَ الواضحَ القويمَ الذي هدانا اللهُ إليه، وقد أَمَرنا أن نتقيَ الله ونخشاه، ونعبُدَه هو؛ لأنَّنا في نهايةِ الأمر راجعونَ إليه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾

٦٩ ـ خَلَقَ اللهُ تعالى الأرضَ بالحقِّ ولمقصِدٍ معيَّن، حتى يقضيَ بنو الإنسانِ حياتَهم الدُّنيويَّةَ بيْنَ (السَّماءِ والأرض)، ويستعِدُّوا للآخِرة، وفي اليوم الذي تَصلُ فيه دارُ العَمل هذه إلى نهايتِها يُنفَخُ في الصُّورِ بإذْنِ الله، وتفنَى الكائناتُ جميعًا، ثم حينَ يُنفَخُ في الصُّورِ ثانيةً يُبعَثُ بنو البشَرِ كلُّهم ويُجمعونَ في ميدانِ الحَشْر، وهذا هو أولُ يوم في دارِ الجزاء، حيث يتقرَّرُ مصيرُ الجميع بالعَدْلِ والإنصاف، ويكونُ المُلكُ يومَئذٍ لله، والحقيقةُ أنّ المُلكَ اليومَ لله أيضًا، لكنّ الكفَّارَ اليومَ لا يعترفونَ بهذا، أمّا يومَ القيامة سيَرى الكفَّارُ الحقيقةَ بأعيُنِهم من أنّ المُلكَ حقيقةً لله تعالى وحدَه، العالِمُ بالظاهرِ والباطن، ولا يَخْلو أيُّ فعلٍ من أفعالِه من الحِكمة.

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾

٧٠ ـ تأمَّلْ معي أجوبةً لبعضِ الأسئلةِ التي تثيرُها هذه الآيةُ:

١ ـ هل كان آزَرُ والدَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ أم عمَّه؟ في هذا اختلافٌ، إلّا أنّ أكثرَ كُتبِ اللُّغةِ والتفسير والتاريخ تَذكُرُ أنّ اسمَ والدِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ هو: تارِخُ، واسمُ عمِّه هو: آزرُ.

٢ ـ لو أنّ آزَرَ كان عمَّ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، فلمَ قيلَ له: أبو إبراهيمَ في القرآنِ الكريم؟ ومعنى «أبٍ» و«والدٍ» في اللُّغة العربيَّة هو «الأبُ»، ولكنّ لفظَ «أبٍ» أكثرُ رَواجًا وشيوعًا، ويُطلَقُ على الوالدِ وزَوْج الأُمِّ، كما يُطلَقُ على الجَدِّ والخالِ والعمِّ والأُستاذِ أيضًا، ولدينا أمثلةٌ عديدةٌ على هذا من القرآنِ والسُّنة، فعلى سَبيل المثال: يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

في هذه الآية جاء ذِكرُ سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلامُ على أنه من آباءِ سيِّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام، معَ أن سيِّدَنا إسماعيلَ ليس والدَ سيِّدِنا يعقوبَ عليهما السَّلام، وإنّما عمُّه، وبنفسِ الطريقة ذَكَر سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ ذاتَ مرَّةٍ سيِّدَنا العبّاسَ رضيَ الله عنه بقولِه: «أبي»[1]، لكن الوالدَ يقالُ للأبِ الحقيقيِّ فقطْ، ولهذا حيثُما ذَكَر القرآنُ الكريمُ آزَرَ ذَكَره بأنه أبو أبراهيمَ، ولم يقُلْ عنه: والدُ إبراهيم.

يقولُ القاضي ثناءُ الله باني بتي: إنّ قولَنا: «أبٌ» للعمِّ هو مُجاورةٌ وكنايةٌ بشكل

(١) «وهنا نفهم أن أبوة إسماعيل ليعقوب إنما هي أبوة عمومة، لأن يعقوب بن إسحاق، وإسحاق أخو إسماعيل ـ إذًا فقد أطلق الأب وأريد به العم، ويدلنا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك حينما أخذ عمه العباس أسيرًا فقال: «ردُّوا عليَّ أبي»؛ وأراد عمّه العباس». تفسير الشعراوي.

عامّ، وخصوصًا في حالةِ ما لو أنّ هذا العمَّ هو الذي رَبَّى، ومن الممكنِ أن يكونَ سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قد تيتَّم في طفولتِه، ورَبّاه عمُّه آزَرُ[1].

٣ ـ هل كان آزَرُ مسلمًا أم كافرًا؟ كان آزَرُ كافرًا؛ لأنه ظلَّ يعبُدُ الأصنامَ طيلةَ حياتِه.

٤ ـ لو كان آزَرُ كافرًا فلماذا دعا له سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام؟ إذ إنّ الدُّعاءَ بالنَّجاةِ للكفَّار بعدَ موتِهم لا يجوز: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، لكنّ الدُّعاءَ لهم بالهداية في حياتِهم جائزٌ، مثلَما دَعا النبيُّ ﷺ لعمِّه أبي جهلٍ وسيِّدِنا عُمرَ بن الخطابِ رضيَ اللهُ عنه بالهداية: **عن ابن عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «اللّٰهُمَّ أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذَيْنِ الرَّجُليْنِ إليك: بأبي جهلٍ أو بعُمَر بن الخطّاب»، قال: وكان أحبَّهما إليه عُمر**[2]؛ لأنّ هذَيْنِ كانا من أصحابِ النُّفوذِ في مكّةَ، وسيَقوَى الإسلامُ بإيمانِ أحدِهما، وهكذا دَعا سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لعمِّه آزَرَ بالهدايةِ لأنه كان في ذلك الوقتِ وزيرًا للنَّمرودِ حاكم عصرِه، وسيِّدًا لقبيلتِه، وسيَقوَى أهلُ الإيمان بإيمانِه، كما أنّ آزَرَ كان قد وَعَد سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ بأنْ يؤمِنَ، ولكنْ حينَ جاء أَجَلُه، وأُغلِق بابُ التَّوبةِ أمامَه، تَرَكَ سيِّدُنا إبراهيمُ الدُّعاءَ له[3].

٥ ـ متى مات آزَرُ؟ مات آزَرُ حينَ أُلقيَ بسيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في النّار، حيث صارتْ بَرْدًا عليه وسَلامًا، وعندَئذٍ قال آزَرُ: «**إنّ النارَ لم تَحرِقْه من أَجْل**

---

(١) التفسير المظهري، سورة الأنعام (٦): الآية ٧٦.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٨.

(٣) «استغفر لأبيه ماكان حيًّا، فلما مات أمسك عن الاستغفار له». تفسير ابن جرير الطبري، سورة التوبة: الآية ١١٤.

قرابتِهِ منِّي، فأرسَلَ اللهُ تعالى عَنَقًا من النّارِ فأحرَقَه»[1]، وبعدَ أن مات آزَرُ على كُفرِه أعلَنَ سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ عَدَم رضاه عنه، وتَركَ الدُّعاءَ له مثلَما وَرَد في الآيةِ رقم ١١٤ من سورة التوبة.

٦ ـ هل كان سيِّدُنا تارخُ والدُ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ مسلمًا؟ عندَ أهل السُّنّة كان سيِّدُنا تارخُ مسلمًا، والدَّليلُ على ذلك: أنّ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ظلَّ إلى آخِرِ عُمُرِه يدعو بالمغفِرة لسيِّدِنا تارخَ بعد انتقالِه إلى جوارِ ربِّه، وعلى سبيل المثال: حينَ بنَى سيِّدُنا إبراهيمُ وابنُه سيِّدُنا إسماعيلُ الكعبةَ ظلَّ يدعو طيلةَ ما يزيدُ على مائةِ عام، هي الجزءُ الأخيرُ من حياتِه، للمرحوم والدِه بهذا الدُّعاء: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقد اشتُهر هذا الدُّعاءُ لسيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ، حتّى أنّ المسلمينَ في يومِنا هذا يدعُونَ في صلاتِهم بهذا الدُّعاءِ لآبائهم وأُمَّهاتِهم.

وبيْنَ إلقاءِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام في النارِ وتعميرِه الكعبةَ نحوُ خمسينَ عامًا، وواضحٌ أنه لا يمكنُ أن يكونَ آزَرُ هو المقصودَ بهذا الدُّعاء، أو هو المستحِقَّ له؛ لأنه كان قد مضَى على وفاتِه خمسونَ عامًا، وقد أعلَنَ سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام تبرُّؤَه منه بعدَ أنْ مات على كُفرِه قبلَ خمسينَ عامًا، ولهذا فإنّ المقصودَ بهذا الدُّعاءِ هو سيِّدُنا تارخُ والدُ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام الحقيقيُّ، ولو كان كافرًا لَما دَعا له سيِّدُنا إبراهيمُ.

٧ ـ هل يمكنُ أن يكونَ والدُ نبيٍّ كافرًا؟ في هذا الأمر اختلافٌ، لكنّ عقيدةَ أهل السُّنّةِ والجماعة على أنه لم يكنْ من بَيْنِ آباءِ الأنبياءِ عليهم السَّلام مُشرِكٌ ولا كافر، وإنّما كانوا جميعًا موحِّدينَ، وتأمَّلْ في هذا الخصُوصِ حديثَيْن للنبيِّ ﷺ:

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الأنبياء: الآية ٦٩.

أ - «لم أزَلْ أُنقَلُ من أصلابِ الطّاهرينَ إلى أرحامِ الطّاهراتِ والمشركون نَجَسٌ»(١).

ب - عن عليٍّ كرَّم اللهُ وجهَه، أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «خَرَجتُ من نكاحٍ، ولم أَخرُجْ من سِفاحٍ من لدُنْ آدمَ إلى أنْ وَلَدني أبي وأُمّي - ولم يُصِبْني من سِفاح الجاهليَّةِ شيءٌ»(٢)، بمعنى: أنه من سيِّدِنا آدمَ والسيِّدةِ حَوّاءَ عليهما السَّلام وحتّى سيِّدِنا عبدِ الله والسيِّدةِ آمنةَ، كلُّ آباءِ النبيِّ ﷺ وأُمَّهاتِه كانوا جميعًا موحِّدين، ولم يكنْ من بَيْنِهم نَجِسٌ واحد، أي: مشرِكٌ واحد، وبالتالي فإنّ آزَرَ الذي كان مشركًا لو سلَّمنا بأنه كان والدَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، لكان سيِّدُنا إبراهيمُ، بل وسيِّدُنا محمَّدٌ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام، ينحدرانِ من نَسْلٍ غيرِ مسلم، وهو أمرٌ ليس صحيحًا؛ لأنّ كلَّ آباءِ النبيِّ ﷺ وأجدادِه كانوا طاهرينَ عن الشِّرك.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾

٧١ - أرى اللهُ تعالى سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ الآياتِ الموجودةَ في مَلَكوتِ السَّماواتِ والأرض العظيمِ وكذا المخلوقاتُ، مثلَ: الشَّمس والقمرِ والنُّجوم والحيَوانات والجبالِ والبحارِ، وحقائقُها الظاهرةُ والباطنة، كما أراه أيضًا العرشَ والجنَّةَ، حتى يكونَ من أولئك السُّعَداءِ الذين يَعلَمونَ عِلمَ اليقين وليس مجرَّدَ علمٍ سماعيٍّ فقطْ(٣)، وعليك أن تتأمَّلَ الآنَ عِلمَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ومشاهداتِه ولو قليلًا، وكم من المقاماتِ العظيمةِ يمنَحُها اللهُ تعالى لعبادِه المقرَّبين.

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) تفسير الشعراوي، والحديث في المعجم الأوسط للطبراني، ٥: ٣٦٦ برقم ٤٧٢٥.

(٣) «أنه أراه ملك السموات والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدوابّ، وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما، وجلّى له بواطن الأمور وظواهرها، ليكون ممن يوقن علم كلّ شيء حسًّا لا خبرًا». تفسير ابن جرير الطبري.

وينقُلُ الإمامُ ابنُ جريرٍ الطَّبريّ في سياقِ تفسيرِ هذه الآية الحديثَ التاليَ الذي يوجَدُ في كتُبِ الحديثِ الأخرى كذلك. يقولُ النبيُّ ﷺ:

«قد أتاني ربِّي في أحسنِ صورةٍ، فقال: ففيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى يا محمَّد؟ قلت: أنت أعلمُ، فوَضَع يدَه بين كتِفيَّ، فعَلِمتُ ما في السّماواتِ وما في الأرض، ثمّ تلا هذه الآيةَ»(١).

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

٧٢ـ الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلام معصومونَ وموحِّدونَ ومنزَّهونَ عن الكُفرِ والشِّرك، سواءٌ قبْلَ بَعْثتِهم وبعدَها؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يَجعَلُ من ظالمٍ نبيًّا، فقد قال سبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وكان سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ موحِّدًا، لكنّ قومَه كانوا يعبُدونَ الشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ والأصنامَ، وقد قَدَّم سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ أمثلةً بسيطةً ومفهومةً، وبأسلوبٍ غايةً في الحِكمة، لقومِه، حتّى يُنفِّرَهم من الشِّركِ ويزرَعَ فيهم عقيدةَ التوحيد؛ فقال: يا قوم، إنكم تعتبرونَ الشّمسَ والقمرَ والنُّجومَ آلهةً، وتظُنُّون أنّ هؤلاءِ هم ربِّي أيضًا، فتعالَوْا بنا نُحلِّلِ الأمرَ في ضوءِ الحقائق؛ هل يمكنُ أن تكونَ هذه الأشياءُ ربِّي حقًّا؟ بالطَّبع لا، إذ إنها عندَما تَغرُبُ مَن ستعبُدونَ؟ كما أنّ هذه الأشياءَ مُسيَّرةٌ في ذاتِها، تَطلُعُ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

في وقتٍ محدَّد وكذلك تَغرُبُ، ولا تستطيعُ مخالفةَ هذه القاعدة؛ وبالتالي مَن كان متغيِّرًا بنفسِه وتابِعًا في وجودِه وحرَكاتِه لقُوّةٍ أخرى كيف يكونُ ربًّا لنا ومعبودًا؟ ولهذا فإنِّي بريءٌ عن شركِكم دائمًا، وأُعرِضُ عن آلهتِكم الباطلة، وأُوجِّهُ وجهي فقطْ إلى خالقِ الشَّمسِ والقمرِ والنُّجوم والسَّمواتِ والأرض ومالكِها جميعًا، ومن فَضْل الله تعالى علَيّ أنه أنقَذَني من ضلالِكم هذا.

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾

٧٣ـ لقد كانتِ الأدِلّةُ التي قَدَّمها سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لقومِه - ترغيبًا لهم في التوحيدِ وإبطالًا للشِّركِ - بسيطةً ومفهومةً؛ بحيث أنّها أَفْحَمتْ قومَه وأعجَزتْهم عن الجواب، وجَعَلتْهم يلجَأونَ إلي الصِّراع والشِّجارِ قائلينَ له: عليك أن تَرجِعَ عن إهانةِ آلهتِنا، وإلّا حَلَّتْ عليك المصائبُ بسببِ غضَبِها منك، وهنا قال سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: إنِّي لا أخافُ من آلهتِكم التي أشركتُموها معَ الله؛ لأنّها عاجزةٌ لا حيلةَ لها، ولا تستطيعُ أن تَضُرَّني شيئًا، ولو أراد ربِّي أن يَبتلِيَني فهو القادرُ المطلَق، يفعَلُ ما يشاء، وعِلمُه بكلِّ شيءٍ محيط.

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾

٧٤ـ قال سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: لماذا أخافُ آلهتَكمُ الكاذبةَ بعدَ أن هداني الله، بينَما أنتم لا تخشَوْنَ المعبودَ الحقيقيَّ بظُلمِكم وضلالِكم، وتشركونَ معَ الله ما ليس لدَيْكم دليلٌ عقليٌّ أو نَقْليٌّ على كونِه معبودًا؛ ولذا يجبُ عليكم أن تعودوا عن شِركِكم؛ لأنّ الذين سيكونونَ أكثرَ استحقاقًا للأمن يومَ القيامة هم أولئك الذين طَهَّروا إيمانَهم من الشِّرك، وهؤلاءِ في عهدِنا هذا هم جماعتي، لأنّ اللهَ تعالى هداني.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾

٧٥ـ لقد قدَّم سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ أدِلّةً واضحةً ومفهومةً على التَّوحيد، بحيث أعجَز قومَه وأفْحَمهم كما سَبَق أنْ ذَكرْنا، وهذه الأدِلّةُ وضَعَها اللهُ في قلبِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وكانت فَضْلًا منه وكرَمًا خاصًّا عليه، واللهُ يرفَعُ درجاتٍ من يشاء.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

٧٦ـ ذكَرَتْ هذه الآياتُ أسماءَ ثمانيةَ عشَرَ من الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، من بينهِم: سيِّدُنا نوحُ عليه السَّلام جَدُّ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وقالت عن باقي الأنبياء: إنّهم أولادُ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، ومن بينِ هؤلاءِ آباءُ وأجدادُ البعض،

وأولادُ البعض، وإخوةُ البعض، وأبناءُ إخوتِهم، كما أنّ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلام قد نالَ خصوصيّةً هي أنّ كلَّ الأنبياءِ والرُّسُلِ عليهم السَّلامُ الذين جاءوا من بعدِه إنّما كانوا جميعًا من ذُرِّيَّتِهِ؛ بمعنى: أنّ الآلافَ من أنبياءِ بني إسرائيلَ كانوا من أولادِ سيِّدِنا إسحاقَ ابنِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، بينَما خَرَج النبيُّ الخاتَمُ سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ من أولادِ سيِّدِنا إسماعيلَ، الابنِ الثاني لسيِّدِنا إبراهيمَ عليهما السَّلام.

وكلُّ الأنبياءِ مَهْدِيُّونَ ومختارونَ من الله تعالى، وسائرونَ على الطَّريقِ الصَّحيح المستقيم، ولم يكنْ مِن بينهِم مشركٌ واحد؛ لأنّ الشِّركَ يُضيّعُ الأعمالَ الصَّالحةَ، كما أنّ الأنبياءَ الكرامَ جميعًا عليهم السَّلامُ هم أفضَلُ النَّاس كلٌّ في زمانِه.

ويُعلَمُ من هذه الآياتِ أيضًا أنه رَغْم أنّ العزَّ والذُّلَّ والنَّجاةَ والعذابَ يتوقَّفُ - في الأصل - على الأعمالِ التي يقومُ بها الإنسانُ بنفسِه، لكنْ أن يكونَ من بينِ الآباءِ والأجدادِ نبيٌّ أو وَليٌّ، وأن يكونَ من بينِ الأولادِ علماءُ وصالحونَ، فهو أمرٌ يبعَثُ على الشَّرفِ والبركة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

٧٧- يُسرِّي اللهُ تعالى عن سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ قائلًا: مثلَما أعطَيْتُ الأنبياءَ السَّابقينَ الكتابَ والحِكمةَ والنُّبوَّةَ، كذلك أنعَمْتُ عليكَ أيضًا بها، فإذا أنكَرَ مشركو مكّةَ نبوَّتَك وهدايتَك فلا تغتمَّ، لقد أعدَدْنا جماعةً من أهل الإيمان لم يُنكروا نبوَّتَك وهدايَتك؛ مثلَ المهاجرينَ والأنصار وباقي الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا، وهم الذين أدَّوْا حقَّ الإيمانِ بنبوَّةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم وبكتابِ الله تعالى.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾

٧٨- قال اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ: أيُّها النبيُّ الحَبيب، الأنبياءُ الكرامُ جميعُهم

مَهْديُّون، وأنت أيضًا على هُدًى عظيم؛ ولهذا عليكَ أيضًا أن تختارَ طريقَهم، وواحدٌ من طُرُقِ الأنبياءِ السَّابقينَ عليهم السَّلام هو أنَّهم كانوا لا يَطلبُونَ أجرًا على دعوتِهم، وأنت أيضًا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ، أبلغْ قومَكَ أنك حينَ تُبلِّغُهم بالقرآنِ وتدعوهم بدعوتِه، فذلك ليس مهنةً تمتَهِنُها، وتطلُبُ عليها أجرًا، وإنّما هو مقصِدُ حياتِك ومنتهاها؛ ولهذا فأنت لا تَطلُبُ منهم أجرًا على ذلك، لأنّ هذا القرآنَ رسالةُ خيرٍ ونصيحةٍ للنّاس جميعًا، ويجبُ على كلِّ شخصٍ أن يعمَلَ على تبليغِها إلى الآخَرين.

ويُعلَمُ من هذا أنّ عدمَ أَخذِ الأَجْرِ على الدَّعوةِ والتبليغُ سُنّةٌ مشتركةٌ بيْنَ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ جميعًا، ولهذه السُّنة دخلٌ كبيرٌ في جَعْل الدعوة أكثرَ تأثيرًا.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾

٧٩ـ من أسبابِ نزولِ هذه الآية: أنه «**جاء رجُلٌ من اليهودِ يقالُ له: مالكُ بنُ الصَّيف يُخاصمُ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فقال له النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه**

وسلَّم: أَنْشُدُكَ اللهَ تعالى الّذي أَنْزلَ التَّوراةَ على موسى عليه السَّلام، هل تَجِدُ فيها أنّ اللهَ تعالى يُبغِضُ الحَبْرَ السَّمين؟ فأنت الحبرُ السّمينُ، قد سَمِنتَ من مالِكَ الّذي يُطعِمُك اليهودُ، فغَضِبَ وقال: واللهِ ما أَنْزلَ اللهُ على بشَرٍ من شيءٍ، لمّا سَمِعت اليهودُ منه تلك المقالةَ عَتَبوا عليه وقالوا: أليس اللهُ أَنْزلَ التّوراةَ على موسى عليه السَّلام، فلمَ قلتَ: ما أَنْزلَ اللهُ على بشَرٍ من شيءٍ؟ فقال مالكُ بنُ الصَّيف: أغضَبَني محمّدٌ، فقلتُ ذلك، فقالوا له: وأنت إذاً غَضِبتَ تقولُ على اللهِ غيرَ الحقّ؟ فنَزَعوه عن الحَبْريَّة، وجَعَلوا مكانَه كعبًا الأشرفَ»[1].

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾

٨٠ ـ كانتِ التَّوراةُ عندَ رجالِ الدِّين فقطْ، وهم الذين كَتبوا آياتِها على أوراقٍ منفصِلة، ولم يكنْ عامّةُ الناسِ يحفَظونَ التَّوراة، ولم تكنْ لدَيْهم نُسخةٌ منها كما هو الحالُ معَ القرآنِ الكريم، ولهذا كلَّما كانت تَعِنُّ للنّاس مسألةٌ من المسائل، فإنَّهم كانوا يذهبونَ إلى رجالِ الدِّين هؤلاء، وحينَها كان رجالُ الدِّين يُقدِّمونَ لهم الأوراقَ التي تحتوي على الإجاباتِ التي يريدونَها هم، أمّا الآياتُ التي لم تكنْ على هواهم، فإنّهم كانوا يحتفظونَ بها بعيدًا عن حافظةِ أوراقِ التَّوراة، وهكذا كانوا يُخْفُونَ عن عامّةِ الناسِ كثيرًا من أوراقِ التَّوراة، مثلَ آياتِ حدِّ الرَّجْم، وبِشاراتِ سيِّدنا عيسى عليه السَّلام ببَعْثةِ سيِّدِنا محمَّدِ ﷺ، لكنْ ما أعظَمَ شأنَ حفظِ القرآنِ الكريم! إذْ لا يحفَظُه العلماءُ فقط، وإنّما هو محفوظٌ في صُدورِ النّاسِ جميعًا وبيوتِهم؛ ولذا فقد يؤُوِّلُ عالِمٌ من العلماءِ آيةً من الآياتِ تأويلًا خاطئًا، لكنّه لا يستطيعُ أن يُخفيَها.

---

(١) تفسير الخازن وروح المعاني.

إنّ إخفاءَ الأحكام الدِّينيَّة وتأويلَها تأويلًا خاطئًا ممّا يفعَلُه بائعو الأديانِ بدافع من رَغَباتِهم الذَّاتية، ليس قاصرًا على أهل الكتابِ فقطْ، وإنّما يوجَدُ هذا الأمرُ في كلِّ أديانِ العالَم، ولهذا فقد توعَّدَ النبيُّ ﷺ أمثالَ هؤلاءِ بالعذابِ الشَّديد، فقد قال ﷺ «من سُئل عن عِلمٍ عَلِمَه ثمّ كتَمَه أُلجِمَ يومَ القيامة بلِجامٍ من نار»[1].

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

٨١ ـ لقد تهيَّأَتْ معلوماتٌ كثيرةٌ لليهودِ عن بني إسرائيلَ والأنبياءِ السَّابقينَ عليهم السَّلام، عن طريقِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، حيث لم يكونوا يَعرِفونَ هذه المعلوماتِ، بل ولم يكنْ يَعرِفُها آباؤهم ولا أجدادُهم، كما أنّ النبيَّ ﷺ في هذه الآيةِ سألَ الحَبْرَ أولًا: من الذي أَنْزلَ الكتابَ على سيِّدِنا موسى عليه السَّلام؟ ثم أجابَ هو نفسُه في نهايةِ الأمر قائلًا: إنّ الذي أَنْزلَ التَّوراةَ على سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ هو اللهُ سبحانه وتعالى، وبنفسِ الطريقة فإنّ اللهَ سبحانَه وتعالى هو الذي أَنْزلَ القرآنَ الكريمَ على النبيِّ ﷺ، فإنْ أنكَروا برَغْم هذه الدَّلائلِ الواضحةِ فلا تَحزَنْ أيُّها الحَبيب، ودَعْهم يَتيهُونَ في مناقشاتِهم التّافهةِ هذه.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

٨٢ ـ المرادُ بمَن حولَ مكةَ هو: العالَمُ كلُّه من حَوْلِ أطرافِها الأربعة؛ لأنّ النبيَّ ﷺ بُعِث لكي يُنذِرَ النّاسَ جميعًا، ويخوِّفَهم من عذابِ الله تعالى، مثلَما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ

---

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ٣.

أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾

٨٣ ـ الشَّخصُ الذي يَفتري على اللهِ تعالى كذبًا، أو يَدَّعي النُّبوةَ كذبًا، أو يدَّعي الإتيانَ بكلامٍ مثْلِ القرآنِ الكريم؛ فهو ظالمٌ لا حدَّ لظُلمِه، وبرَغْم أنّ أمثالَ هؤلاءِ لا يشعرونَ بهذا الظُّلم كثيرًا في الحياةِ الدُّنيا، إلّا أنه عندما تأتي الملائكة، وتمُدُّ أيديَها لتقبِضَ أرواحَهم، وتقولُ لهم في صوتٍ مُخِيفٍ أنْ سَلِّموا إلينا أرواحَكم، فإنّ حالَ أولئك الظالمينَ من خوفِ الموت ووَحْشةِ القبر، لو رآه أهلُ الدنيا، لَما تكبَّر منهم أحدٌ على آياتِ الله تعالى.

﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ ﴾

٨٤ ـ سيكونُ ثوابُ الصَّلاةِ والصِّيام والصَّدَقاتِ والزَّكاة وغيرِها يومَ القيامةِ لأهلِ الإيمان، أمّا أهلُ الشِّركِ فسيكونونَ خالي الوِفاضِ وحيدينَ بغيرِ ثوابٍ أو ما شابَهَ، ولهذا سيقولُ اللهُ تعالى لهم على سَبيل العِتاب: لقد جئتُمونا وحدَكم، وتركتُم وراءَكم في الدُّنيا ما أعطَيْناكم من مالٍ ومتاع، ولم تُرسِلوا شيئًا في سبيل الآخرة، ومن كنتُم تعتقدونَ أنّهم شركاءُ لي، وأنّهم سيَشْفَعون لكم تركُوكم وغابوا عنكم، فمن يُجيرُكم منّي اليوم؟

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ

فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

٨٥ ـ جاء في هذه الآياتِ بيانٌ لبعضِ آياتِ الله تعالى التي لا مثيلَ لها، حتى يتفكَّرَ فيها الإنسانُ ويَعرِفَ اللهَ تعالى، يعني: شَقَّ الحبَّةِ الجافَّة الجامدةِ، وكذا النَّوى القاسي، وإنباتَ الزُّروع والأشجارِ السَّامقة منها، وخَلْقَ الكتكوتِ ذي الرُّوح من البَيْضةِ التي لا رُوحَ لها، وكذا الإنسانُ الحَيُّ من قَطَراتِ الماء التي لا حياةَ فيها، وبنفسِ الطريقة إخراجُ البَيْضةِ التي لا حياةَ فيها من الدَّجاجةِ الحيَّة، هذا كلُّه من أفعالِ الله تعالى وحدَه، ومعَ ذلك تركتُم اللهَ تعالى الخالقَ الحقيقيَّ وضَلَلتُم الطريقَ، فهل يمكنُكم أن تَجِدوا ذاتًا يمكنُها أن تفعَلَ هذه الأمورَ؟ كما يُعلَمُ منه أيضًا أنّ اللهَ الذي خَلَقَنا أولَ مرّةٍ من قَطْرةِ الماء التي لا حياةَ فيها، يمكنُه أن يُحييَ ذرَّاتِ جسَدِنا التي لا حياةَ فيها من جديدٍ.

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾

٨٦ ـ يعني: أنّ الشُّهورَ الشَّمسيَّةَ تكونُ من الشّمس، والشُّهورَ القمريَّة تكونُ من القمر، وعن طريقِ الشَّمس نتعرَّفُ على أوقاتِ الصلاة، وعن طريقِ القمرِ

نحسُبُ أيامَ الصِّيام والحجِّ، كما أنّ الشَّمسَ والقمرَ في ذاتِهما تابعانِ لطريقةِ عملٍ معيَّنة حدَّدها اللهُ تعالى لهما.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾

٨٧ ـ جاء في هذه الآيةِ بيانُ فائدةٍ من فوائدِ خَلْق النُّجوم، يعني: أنه في الأزمنةِ السَّابقةِ قبلَ اختراع السَّاعة والبوصَلةِ، كان المسافرونَ ليلًا يتعرَّفونَ على الوقتِ والجِهة التي يتَّجهونَ إليها عن طريقِ النُّجوم.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾

٨٨ ـ خَلَقَ اللهُ تعالى بني الإنسانِ جميعًا من نفسٍ واحدة، أي: من سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، ثم أوْدَعَ كلَّ واحدٍ منهم أمانةً في صُلبِ أبيه أولًا، ثم بعدَ ذلك أقرَّه في بطنِ أُمِّه لفترةٍ محدَّدة، ويمكنُ أن يكونَ معناه أيضًا: أنه سيبقَى لفترةٍ مؤقَّتة أمانةً في هذه الدنيا، وفي الآخِرة سيكونُ خالدًا، مثلَما أنّ الأجسادَ والنِّعَمَ في هذه الدُّنيا عارضةٌ مؤقَّتة، أمّا الأجسادُ والنِّعَمُ في الآخِرة فهي دائمةٌ خالدة.

وهنا أمرٌ يستحِقُّ التمعُّنَ والتأمُّلَ، وهو أنّ الناسَ جميعًا ـ باعتبارِ كونِهم أولادَ أبٍ واحد ـ تجمَعُهم معًا رابطةُ القَرابة، وبالتالي عليهم الاجتهادُ في أن يَجعَلوا هذه الدُّنيا آمنةً رَغِدةً باعتبارِهم شُركاءَ بعضِهم لبعضٍ في الحُزنِ والفَرَح، ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح راجعْ حاشيةَ الآيةِ الأولى من سُورة النِّساء.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾

٨٩ ـ أَنْزلَ اللهُ الماءَ من السَّماءِ مطرًا، وأَنْبتَ بوسيلتِه الزُّروعَ، بمعنى: أنّ باطنَ

الأرض ينشَقُّ أولًا، فتنمو منه الأغصانُ الرَّقيقةُ اللَّيِّنةُ، ثم يصبحُ بعضُها طبقًا لبِذرتِه نَبْتةً ينتُجُ منها الحبوبُ والغِلال، والبعضُ الآخَرُ يصبحُ شجرًا يُنتِجُ الرَّطبَ والزَّيتونَ والرُّمّان، والبعضُ منها تتشابَهُ أغصانُها وأوراقُها، لكنّ ثمارَها مختلفةٌ، كما أنّ بعضَ الثمارِ تتشابَهُ في الشَّكل والصُّورة، لكنّ طعَمها وأُكُلَها مختلِفٌ، وتأمَّلْ على سبيل المثال: أنواعَ البرتقال، والتي تتشابَهُ في ظاهرِها، ولكنّها من الداخل مختلفةٌ في اللَّونِ والطَّعم، وكذلك نَجِدُ في البعضِ منها بذورًا، ولا نَجِدُ مثلَ هذه البذورِ في البعضِ الآخَر، وباختصار: فإنّنا إذا تأمَّلْنا المراحلَ التي تمُرُّ بها النباتاتُ كلُّها من خروجِها من الأرض وحتّى تصبحَ زرعًا أو أشجارًا، ومن ظهورِ ثمارِها وحتّى قِطافِها لَوجَدْنا فيها دلائلَ لا حصْرَ لها تجعَلُنا نؤمنُ بتوحيدِ الله تعالى وقُدرتِه.

في الآياتِ القليلةِ السَّابقة جاء الترغيبُ في التأمُّل والتفكُّر في كلِّ شيءٍ في الكائناتِ ومراحلِ حياتِه المختلفة، بدايةً من الإنسانِ والحيَوانِ مذْ كانا نُطفةً، ثم حَمْلُهما وحتى مَوْلدِهما، ومن النَّباتاتِ منذُ غَرْسِها بذورًا وحتى تُصبحَ أشجارًا وتعطيَ ثمارًا، وكذلك الأرضُ والسَّماءُ واللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ والبرُّ والبحر، وكذا جاء فيها الترغيبُ في دراسةِ العلوم المتعلِّقة بها، إذ إنّه ـ بهذا التدبُّرِ والتأمُّل ـ تزدادُ الحياةُ الإنسانيَّةُ سهولةً ويُسرًا بالاختراعاتِ الحديثةِ من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ يرسَخُ الإيمانُ بالله تعالى بمشاهدةِ آثارِ قُدرتِه العظيمة.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾

٩٠ ـ جَعَلَ مشركو العربِ من الجنِّ شركاءَ لله تعالى، ومن الملائكةِ بناتٍ له، معَ أنه تعالى هو الذي خَلَق الجنَّ والملائكةَ، ولا حاجةَ له بالجنِّ ولا بالأولاد، كما أنّ من الضروريِّ ـ لوجودِ أولادٍ ـ أن تكونَ له زوجةٌ، في حينَ أنّ اللهَ تعالى لا زوجةَ له، فيكف يكونُ له أولادٌ؟

لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

٩١ ـ ذاتُ اللهِ تعالى وصفاتُه غيرُ محدودة، ولهذا لا يمكنُ أن تُحيطَ بها عيونُ المخلوقات؛ لا في الدُّنيا ولا في الآخِرة، ولكنّ من الممكنِ رؤيتَها إلى حدٍّ ما، مثلما قال اللهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، وفي هذه الدُّنيا أيضًا إذا أراد اللهُ تعالى أن يَمنح شرَفَ رؤيتِهِ لأحدٍ فإنّه يُنعمُ عليه بعَيْن خاصَّةٍ من نورِه يستطيعُ بها أن يراهُ عزَّ وجلَّ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**اتَّقوا فِراسةَ المؤمن فإنّه يَنظُرُ بنورِ الله**»[1]، وهذه هي العينُ الخاصَّةُ التي شَرُف النبيُّ ﷺ برؤيةِ الله تعالى في ليلةِ المعراج من خلالِها، ولو كانت رؤيةُ الله تعالى في هذه الدُّنيا مُحالةً لَما طَلَب سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ رؤيةَ الله تعالى؛ لأنه ممَّا لا يليقُ أبدًا بشأنِ نبيٍّ أن يسألَ سُؤالًا مُحالا[2]. ولمزيدٍ من التعرُّفِ على رؤيةِ الله تعالى راجِعْ «تفسيرَ القُرطُبيِّ» في الموضِع المشارِ إليه.

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، سورة الحجر.

(٢) «المعنى: لا تدركه الأبصار المخلوقة في الدنيا، لكنه يخلق لمن يريد كرامته بصرًا وإدراكًا يراه به كمحمد عليه السلام؛ إذ رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلًا، إذ لو لم تكن جائزةً لكان سؤال موسى عليه السلام مستحيلًا، ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز، بل لم يسأل إلا جائزًا غير مستحيل». تفسير القرطبي.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾

٩٢ ـ لا شكَّ أنّ البراهينَ السَّاطعةَ قد جاءَتْك في القرآنِ الكريم منَ الله تعالى، فمَن فَتَح عينَيْه ليراها نَعُمَ بالإيمان، ومَن ظلَّ متعاميًا عنها عامدًا حُرِم ثروةَ الإيمان. على أيّة حالٍ بلَّغ النبيُّ ﷺ هذه الدَّلائلَ البيِّنةَ لله تعالى إلى النّاس بأحسنِ ما يكون، وبالتالي فإنّ إقرارَهم بها والإيمانَ بموجبِها ليس مسئوليَّةَ النبيِّ ﷺ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

٩٣ ـ يعني أنَّنا نُبيِّنُ هذه الدَّلائلَ بمختلَفِ الطُّرق، ونَجعَلُ النبيَّ ﷺ يُسمِعُكم إياها بلسانِه الطاهرِ مرّاتٍ ومرَّات، حتى يتَّضحَ لأهلِ العِلم صِدقُ القرآنِ الكريم، فيقولوا من فَوْرِهم: إنك يا رسولَ الله ﷺ قدِ اقتَلَعتَ الشكوكَ والشُّبُهاتِ من جذورِها.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

٩٤ ـ أي: استقِمْ أَيُّها النبيُّ ﷺ على هذا الصِّراطِ المستقيم الذي أوحَى اللهُ تعالى إليكَ به، بمعنى: أنك تُبلِّغُ العالَمَ كلَّه بأنه لا معبودَ يستحِقُّ العبادةَ إلّا اللهُ تعالى، ولا تحزَنْ من قلبِك على أولئك المشركينَ الذين لم يؤمنوا؛ لأنّ اللهَ تعالى لو شاء لَما أشركوا، ولكنّ هذا موضوعٌ ابتلاءً لهم، ولن تُسألَ أَيُّها النبيُّ الكريمُ عنهم لماذا لم يؤمنوا، ويمكنُ مراجعةُ حاشيةِ الآية رقم ٣٥ في هذا الخصُوص.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

٩٥ ـ الإسلامُ يُلزِمُ المؤمنينَ به بأنْ لا يَسُبُّوا الآلهةَ التي يعبُدُها الآخَرونَ، ولا يتعرَّضوا لها بسُوءٍ أو بسلوكٍ مُهين، ومعَ هذا الحُكم مباشرةً، وطِبقًا لطبيعةِ الإسلام، جاء بيانُ الحِكمة من هذا، وهو أنه يمكنُ لهؤلاءِ أن يَسُبُّوا اللهَ تعالى ردًّا

على إهانتِكم لمعبوداتِهم، وبهذه الطَّريقةِ تتولَّدُ الفوضى والعُنْفُ والانفلاتُ الأمنيُّ في المجتمع، وهو ما لا يتحمَّلُه الإسلامُ في أي صورةٍ من الصُّور، ولهذا قال اللهُ تعالى [تمامَ هذه الآية]: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وبتدُّبرِ هذه الآيةِ تَظهَرُ لنا النَّتائجُ التالية:

١ ـ مَنَع اللهُ تعالى في هذه الآيةِ من سبِّ آلهةِ غيرِ المسلمين. يقولُ العلّامةُ القُرطُبيُّ[1]: «**قال العلماء: حُكمُها باقٍ في هذه الأُمّةِ على كلِّ حال؛ فمتى كان الكافرُ في مَنَعةٍ، وخيفَ أن يَسُبَّ الإسلامَ أو النبيَّ عليه السَّلامُ أو اللهَ عزَّ وجلَّ، فلا يحِلُّ لمسلم أن يَسُبَّ صُلبانَهم ولا دينَهم ولا كنائسَهم، ولا يتعرَّضَ إلى ما يؤدّي إلى ذلك؛ لأنه بمنزِلة البَعْثِ على المعصية**»[2].

٢ ـ أخَذَ أهلُ العِلم قاعدةَ سَدِّ الذَّرائع من هذه الآية، والتي تعني: أنّ أيَّ عملٍ يؤدِّي إلى المعصية أو الذَّنب يجبُ تجنُّبُه والتوقُّفُ عنه[3]، ولأنّ سبَّ آلهةِ الآخَرين يكونُ سببًا في المعصية والذَّنب، لهذا يجبُ الابتعادُ عنه.

٣ ـ في هذه الآية تربيةٌ للدُّعاةِ المسلمينَ وتدريبٌ لهم بأنْ يلتزِموا بالأخلاقِ الطيِّبة عندَ مناقشتِهم غيرَ المسلمين، وأن يكونَ نقاشُهم نقاشًا عِلميًّا، وأنْ لا يتَعدَّوْا حدودَهم؛ لأنَّنا إذا تعامَلْنا معَهم بأخلاقٍ سيِّئة، ووَصَل الأمرُ إلى السبِّ والشَّتم، فإنّ الكراهَيةَ تجدُ لها طريقًا في قلوبِ غيرِ المسلمين، وبالتالي يُسبُّونَ اللهَ تعالى.

---

(١) في تفسيره.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) المرجع السابق.

سؤالٌ وجوابُه

وهنا يتبادرُ إلى الذِّهن سؤالٌ هو: أنّ العديدَ من آياتِ القرآنِ الكريم تنتقدُ الأصنامَ نقدًا قاسيًا، بل وقالت عنها: إنها حَطَبُ جهنَّم، فهل هذا يخالفُ الحُكمَ بعَدَم السبِّ في القرآن؟

وجوابُه هو: أنّ القرآنَ الكريَم قد بيَّنَ حقيقةَ الأصنام على سَبيل المناظرة وباعتبار التعاطُفِ الإنسانيِّ، بأنّها لا تستحِقُّ العبادةَ، وليس المقصودَ بذلك تحقيرُ الأصنام وإهانةُ المشركين، وإنّما مَثَلُ ذلك أنه عندَما يُطعَنُ في أحدِ الشُّهود، لا يكونُ المقصودُ منه إذلالَ الشاهدِ وتحقيرَه، والمقصودُ هو فَهْمُ حقيقةِ القضيَّةِ وكشفُ الصِّدقِ من الكذب، وبنفسِ الطريقةِ عندَما يقومُ أعضاءُ البرلمان (مجلسِ الشَّعب) ببيانِ معايبِ مشروع قانونٍ يُعرَضُ عليهم، إذْ لا يكونُ المقصودَ من هذا إهانةُ مقدِّمي مشروع القانونِ هذا، وإنّما يكونُ المقصودَ التَّوعيةُ بأضرارِ هذا المشروع فيما لو أصبحَ قانونًا، والهدفُ هو إنقاذُ الشَّعبِ والمجتمع من آثارِه الضارَّة، ولهذا صَرَّح أهلُ العِلم بأنّ الآياتِ القرآنيَّةَ التي انتَقَدتِ الأصنامَ لا يجوزُ تلاوتُها بقَصْدِ إثارةِ غضَبِ المشركينَ والإساءةِ إليهم وإهانتِهم[١].

الحديثُ التالي تفسيرٌ للآيةِ الكريمة

*** عن عبدِ الله بن عَمْرٍو رضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ مِن أكبرِ الكبائرِ أن يَلعَنَ الرّجُلُ والدَيْه»، قيل: يا رسولَ الله! وكيف يَلعَنُ الرّجُلُ والدَيْه؟ قال: «يَسُبُّ الرّجلُ أبا الرّجُل فيَسُبُّ أباه ويَسُبُّ أُمَّه»[٢].**

---

(١) «إذا قصدوا بالتلاوة سبهم وغيظهم يستقيم النهي عنها». روح المعاني.
(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٤ برقم ٥٩٧٣.

يعني: لو أنّ الشَّخصَ الأولَ لم يبدَأْ بالسَّبِّ لَما سَبَّ الآخَرُ والدَي الأول، ولهذا فإنه بالضَّبط كأنّ الشَّخصَ الأولَ سبَّ والدَيْهِ هو بنفسِه، لأنّه كان سببًا في ذلك، وبنفسِ الطريقة إذا سَبَّ المسلمُ آلهةَ آخَرَ، وسَبَّ هذا الآخَرُ اللهَ تعالى انتقامًا، فهذا يكونُ كأنّ المسلمَ هو الذي سَبَّ اللهَ تعالى بنفسِه (والعياذُ بالله).

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

٩٦ ـ أقْسَم المشركونَ بشدّةٍ قائلينَ: يا محمَّد، لو أنّك أَريْتَنا اليومَ معجزةً لآمَنّا بكَ يقينًا، وجوابًا عن ذلك وبحُكم الله تعالى قال النبيُّ ﷺ: إنّ القوّةَ الحقيقيّةَ للمعجِزاتِ عندَ الله تعالى وحدَه، وبإذْنِه وعطائه تعالى تَجري المعجِزاتُ على أيدي الأنبياءِ عليهم السَّلامُ جميعًا، في ذلك الوقتِ تَصوَّر بعضُ المسلمينَ أنه كان من الأفضَل لو أنّ النبيَّ ﷺ أراهم معجِزةً اليوم، فلربَّما آمَنوا، وعليه أخبَرَ اللهُ تعالى المسلمينَ بأنْ لا تهتمُّوا كثيرًا بقَسَمِهم، فلقد طالَبوا من قبلُ بشَقِّ القمر، وحين أراهمُ اللهُ تعالى معجِزةَ شقِّ القمرِ على يدِ نبيِّه ﷺ لم يؤمنوا وأنكَروا المعجزةَ، ولهذا فإنّ إنكارَهم لم يكنْ عن سوءِ فَهْم، وإنّما بسببِ تعصُّبهم وعِنادِهم، والآنّ أيضًا إنْ أَرَيْناهم مزيدًا من المعجِزاتِ فإنّهم لن يؤمنوا، مثلَما سيرِدُ صراحةً في الآية رقم ١١١ من السُّورة.

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

٩٧ ـ في هذه الآيةِ نَسبُ إبعادِ قلوبِ كفّارِ مكّةَ عن الحقِّ إلى اللهِ تعالى، وهكذا في عدّةِ مواضعَ نَسبُ إبطالِ مَلَكاتِ قلوبهم وأنظارِهم ومَقدرتِها إلى اللهِ تعالى أيضًا، وهنا قد يتساءلُ بعضُ النّاسِ قائلين: إذا كان اللهُ تعالى هو الذي أفشَلَ قلوبَهم وعقولَهم ووَضَعَ على أسماعِهم وأبصارِهم غِشاوةً، فما ذَنْبُهم في عَدَم الإيمان، ولماذا يعاقبُهم اللهُ تعالى؟ وقد جاء الجوابُ عن هذا السُّؤالِ مفصَّلًا في

تفسيرِ الآية رقم ٧ من سُورة البقَرة، ونقولُ هنا باختصار: إنه كما أنّ اللهَ تعالى يقولُ عن الكفَّارِ: إنَّني ختَمتُ على قلوبِهم، ووَضَعتُ غِشاوةً على أبصارِهم، فهو الذي يقولُ عن أهل الإيمان أيضًا: إنَّني فتحتُ لهم طُرُقَ الهداية، ونوَّرتُ قلوبَهم وعقولَهم بنُور الإيمان، وهنا يمكنُ أن يقولَ قائلٌ: إذا كان اللهُ تعالى قد أنْعَم على أهلِ الإيمان بالهداية، ومَنَّ عليهم بنُورِ الإيمان، فلماذا يُدخِلُهم الجنَّةَ، ولماذا يَجعَلُهم مستحِقّينَ للإنعام والتكريم؟ وبهذه الطريقةِ ينتهي تصوُّرُ الثوابِ والعقابِ من الأساس.

والحقيقةُ أنّ أهلَ الإيمان قدِ اختاروا طريقَ الإيمانِ بإرادتِهم، كما أنّ أهلَ الكفرِ أيضًا قدِ اختاروا طريقَ الكُفرِ بمَحْضِ إرادتِهم، وكلاهما يستحِقُّ الثوابَ والعقابَ بناءً على إرادتِه هذه، ولكنْ لأنّ الفاعلَ الحقيقيَّ هو اللهُ تعالى، وكلُّ هذا تابعٌ لمشيئتِه، لهذا نَسبَها كلَّها إليه تعالى.

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

٩٨ ـ كان مشركو مكّةَ يطالبونَ بمعجِزاتٍ جديدة، وعليه قال اللهُ تعالى: لو أنّنا أرَيْناهم ما يَطلُبونَ من المعجزاتِ، بل وأَنْزلْنا الملائكةَ من السَّماءِ لِيَقفِوا أمامَهم، وأحيَيْنا الموتى وأخْرَجْناهم من قبورِهم ليُكلِّموهم، وجمَعْنا أمامَهم كلَّ شيءٍ في الدنيا، فإنّهم معَ ذلك لن يؤمنوا؛ لأنّ الدَّلائلَ تُرشدُ إلى الحقيقة، والمعجزاتُ تكونُ للتأييد، أمّا الذين يُغمِضُون أعيُنَهم عن الدَّلائل، فأيُّ فائدةٍ سيَجْنُونَ من المعجِزات؟ لكنْ لو أراد اللهُ تعالى لَأجْبَرَهم على الإيمانِ على غيرِ رضاهم، ولكنّ هذا يتنافَى معَ حِكمتِه تعالى، لأنه لا يُجبِرُ أحدًا على شيء.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

٩٩ ـ كان كفّارُ مكّةَ أشباهُ الشَّياطين، والمشركونَ المتمرِّدونَ، يُحرِّضُ بعضُهم البعضَ على مخالفةِ النبيِّ ﷺ، ويخدَعونَ الناسَ بكلامٍ معسولٍ كاذب.

وفي هذه الآية يُسرِّي اللهُ تعالى عن النبيِّ ﷺ بأنّ هذا ليس بالأمرِ الجديد، فأشباهُ الشّياطين من البشَر خالَفوا الأنبياءَ كلَّهم، ولهذا لا تهتَمَّ بمخالفتِهم ولا بافتراءاتِهم، واستمرَّ في بَذْلِ كلِّ جُهدٍ في تبليغ دعوةِ الإسلام بصبرٍ واستقامة.

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾

١٠٠ ـ أشباهُ الشّياطين من البشَر عادةً يقدِّمونَ مؤامراتِهم وعبادتَهم للباطل

بأسلوبٍ جَذّاب، حتّى تميلَ قلوبُ الذين يؤمنونَ بالآخِرة والثوابِ والعقابِ إلى الباطل، ويختاروا السَّيرَ على الطَّريقِ الخاطئ من إنكارِ الآخِرة، والذي اختاروه هم لأنفسِهم، فيسيرونَ عليه، ولا يَدخُلونَ الإسلام.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾

١٠١ ـ رَفَض مشركو مكة الإيمانَ بالنبيِّ ﷺ وبالقرآنِ المَجيد وقالوا: نأتي بعالِمٍ من اليهود أو النَّصارى ليُفصِّلَ لنا في أمرِ صِدقِك يا محمَّد ﷺ، ورَدًّا على هذا قال النبيُّ ﷺ: إنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ القرآنَ المَجيدَ فيه تفصيلٌ للدَّلائل على التَّوحيدِ والنُّبوة، فتدبَّروها أنتم وقرِّروا، أمّا أنا فلستُ مستعدًّا مطلَقًا لأنْ أُطيعَ حُكمًا غيرَ حُكم الله تعالى، كما أنّ أهلَ الكتابِ يعلَمونَ أيضًا أنّ نزولَ القرآنِ الكريم حقٌّ، وأنّ نُبوَّتي حقٌّ؛ لأنّ كتُبَهم تضُمُّ نُبوءاتٍ عني، وهم يَعرِفونَني كما يعرِفونَ أبناءهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٠].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾

١٠٢ ـ جاء في هذه الآيةِ ذِكرٌ لأربع صفاتٍ من صِفاتِ القرآنِ الكريم، يعني: أنّ القرآنَ الكريمَ كتابٌ كامل، ليس فيه جانبٌ غيرُ مُكتمِل، وكلُّ أخبارِه صادقةٌ، وكلُّ أحكامِه مبنيَّةٌ على العدلِ والإنصاف، ولا يمكنُ التبديلُ أو التعديلُ فيها؛ لأنه كلامُ تلك الذاتِ التي تَسمَعُ كلَّ شيءٍ تمامًا، وتَعلَمُ كلَّ شيءٍ تمامًا.

وفي أيامِنا هذه تقومُ الحكوماتُ والبرلماناتُ في عالَمِنا هذا بسَنِّ القوانينِ لبلادِهم، ولكنْ بعدَ فترةٍ وَجيزة، وحينَ تَظهَرُ عيوبُ هذه القوانين، تُضْطَرُّ إلى تغييرِها

وتعديلِها، أو تقومُ بوَضْع قوانينَ جديدةٍ تناسبُ المستجِدّاتِ في الواقع، لكنّ دستورَ الحياةِ الذي أعلَنَه القرآنُ المَجِيدُ قبلَ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمان، يُلبِّي متطلباتِ كلِّ زمانٍ وكلَّ حالٍ وكلَّ بلدٍ وكلَّ شعبٍ وحتّى قيام الساعة وبأحسنِ ما يكون، ولا حاجةَ لأيِّ تبديلٍ أو تعديل فيه، وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ القرآنَ الكريمَ ليس من كلام البشَر، وإنّما هو كلامُ اللهِ تعالى خالقِ الكائناتِ ومالكِها، والعالِمِ تمامَ العِلم بحقائقِها.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

١٠٣ ـ أكثرُ النّاسِ في هذه الدُّنيا يتَّبِعونَ أهواءَهم وظنونَهم، وكلُّ عقائدِهم ومبادئِ حياتِهم مبنيَّةٌ على الظنِّ والتَّخمين، فيا أيُّها الناسُ، انتبِهوا، لو أنّكم أطعْتُمُوهم واتَّبعتُمُوهم فإنّهم سيُضِلُّونكم، ولهذا عليكم أن تَرجِعوا إلى اللهِ تعالى، لأنه هو العالِمُ بكلِّ شيء، يَعلَمُ منِ الضالُّ ومنِ المهتدي؟

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾

١٠٤ ـ في هذه الآيةِ سَمَح اللهُ تعالى لأهل الإيمانِ أن يأكلوا لحمَ الحيَوانِ الذي ذُكِرَ اسمُ الله عليه عندَ ذَبْحِه، بشَرْطِ أن يكونَ من الحيَواناتِ المحَلَّل أكلُها.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾

١٠٥ ـ جاء ذِكرُ المحرَّماتِ تفصيلًا في الآيةِ رقم **١٧٣** من سُورة البقرة، والآيةِ رقم **٣** من سُورةِ المائدة، والآيةِ رقم **١١٥** من سُورةِ النَّحل، وكذلك في الآيةِ رقم **١٤٥** من هذه السُّورة، لكنّ الكثيرينَ في هذا العالَم يُحرِّمونَ بعضَ ما أحَلَّ اللهُ تعالى (من لحوم الحيَواناتِ) إرضاءً لرَغَباتِهم ضاربينَ عُرضَ الحائطِ بأحكامِ الله

تعالى، ويمنَعونَ الآخَرينَ من تناوُلِها، وتَبلُغُ الحَيْرةُ منتهاها، فمن أعطَى هؤلاءِ الحقَّ لكي يُحرِّموا من الحيَواناتِ ما أحَلَّ الله، وذُبِح باسمِه تعالى؟ الحقيقةُ أنّ أمثالَ هؤلاء قد تَجاوَزوا كلَّ الحدود، وسوف يُسألونَ في مْيدانِ الحَشْر عن ظُلمِهم هذا.

وينبغي التدبُّرُ في هذه الآيةِ على أولئك الذين يُحرِّمونَ الحيَوانَ الذي ذُبِح بغَرَض إيصالِ الثواب، وكان منسوبًا إلى اسم أحدٍ من الناس، ولكنْ عندَ ذَبْحِه لم يُذكَرْ سوى اسم اللهِ عليه، بينَما يَعتبِرونَ ذلك الحيَوانَ الذي اشتُهِر بالبَحِيرةِ أو السائبةِ بسببِ الأصنام حَلالًا، ولكنْ عندَ ذَبْحِه ذُكِر اسمُ الله فقطْ عليه، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الآيةَ رقم ١٠٣ من سُورة المائدة.

لو أُكرِه شَخْصٌ على يدِ الأعداء، أو أصبحت حياتُه في خَطَرٍ بسببِ الجُوع، فإنه يستطيعُ أن يأكلَ من الأشياءِ المحرَّمةِ بقَدْرِ الضَّرورة حتى يُنقِذَ حياتَه، وسوف يعفو اللهُ عنه بسببِ حالةِ الاضطرارِ التي كان فيها.

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴾

١٠٦ ـ الذَّنبُ ذنبٌ على أيةِ حال، سواءٌ كان ظاهرًا أم خَفِيًّا، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بتَرْكِ الذُّنوب، وفي بعض المجتمعاتِ لا يُعتبَرُ ارتكابُ الذَّنبِ في الخفاءِ عيبًا، فإذا ما انكشَف على الملأ أصبح فضيحةً، ولكنّ الإسلامَ اختصَّ بأنه حرَّم كلَّ أنواع الذُّنوبِ ما ظَهَر منها وما بَطَن، ومن يرتكبْ من هذه الذُّنوبِ شيئًا فسوف يَلقَى جزاءه.

﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾

١٠٧ ـ في هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى المسلمينَ بأنّ الحيَوانَ الذي لا يُذكَرُ عليه اسمُ الله عندَ ذَبْحِه عَمْدًا فهو حرامٌ، وتناولُ لحومِه ذنبٌ، والشياطينُ تَزرَعُ الوساوسَ والشُّكوكَ في قلوبِ أصدقائهم بغَرَض نَشْرِ الفَهْم الخاطئ المتعلِّق بالذَّبيحةِ

الإسلاميَّة، حتى يختلفوا معَك، ولكنْ ينبغي لك أن لا تُعيرَ هذه الوساوسَ اهتمامًا، وأن تثبُتَ على الإسلام؛ لأنك إن خالفْتَ حُكمَ الله تعالى واتَّبعتَ الشَّيطان، وحلَّلتَ ما حرَّم اللهُ تعالى فإنَّك بذلك تكونُ مشركًا.

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾

١٠٨ ـ المرادُ بالموتِ هنا: الموتُ الرُّوحانيُّ، والمرادُ بالحياةِ هنا: الحياةُ الرُّوحانيَّة، وهذانِ مرتبطانِ بالإيمانِ والعلِم والعمَلِ الصالح، يعني: من يُحرَمُ منها يكونُ مَيْتًا يمشي على الأرض، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النحل: ٨٠]، ومَن يُنعِمُ اللهُ عليه بهذه الأشياءِ يحيَا

بها جسَدُه الميِّت، وتَدِبُّ فيه حياةٌ لا يستطيعُ القضاءَ عليها حتّى الموتُ الظاهريُّ، وعلى سبيل المثال: يمكنُ في هذا الخصوص تقديمُ الآياتِ التي ذَكَر اللهُ تعالى فيها حياةَ الشُّهداءِ والصَّالحينَ الرُّوحيةَ، وقد قال النبيُّ ﷺ مشيرًا إلى هذه الحياة: «**طالبُ العِلم بيْنَ الجُهّال كالحيِّ بيْنَ الأموات**»[1].

ولنفهَمِ الآنَ هذه الآيةَ، إذْ يقولُ اللهُ تعالى: ذلك الشَّخصُ الذي كان يَهيمُ في ظُلُماتِ الجَهالة، ولا يستطيعُ التمييزَ بيْنَ الحقِّ والباطل، كالموتى، ثم أعطَيْناه حياةً جديدةً عن طريقِ الإيمانِ والعِلم والعمَلِ الصَّالح، والآنَ أصبح يسيرُ بنفسِه على طريقِ الهداية، ويُرشِدُ الآخرِينَ أيضًا إلى السَّيرِ عليه، هل يمكنُ أن يكونَ هذا الشَّخصُ متساويًا معَ ذلك المستغرِقِ في ظُلُماتِ الجَهالة بحيثُ لا يمكنُه الخروجُ منها؟ يقولُ تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

ولهذا ينبغي للوالدَيْن أن يهتَمُّوا جِدِّيًا بتعليم أطفالِهم، حتّى لا يَضِلُّوا في ظُلُماتِ الجهل، وإنّما يرفعونَ أسماءَ بلادِهم وأقوامِهم عاليًا خَفّاقًا بنُورِ العلم:

*** تنهَضُ الشُّعوبُ بتنظيم نظامِ العقل، فالعقلُ يُنِيْرُ بمِصباح العِلم.**

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

١٠٩ ـ مثلَما أنّ الشَّخصَ الذي ليس لدَيْهِ عِلمٌ ولا عمَلٌ يظَلُّ حائرًا في ظُلُماتِ جهلِه، ولا يَشعُرُ بأنه قد ضَلَّ، وإنّما يفتخِرُ بزَعْمِه الباطلِ بهذه الأعمال، كذلك فإنّ الكفَّارَ أيضًا يرَوْنَ أعمالَهم السيِّئةَ حسنةً، ويَظلُّونَ مُصرِّينَ على ارتكابِها.

---

(١) الجامع الصغير، الإمام السيوطي، ٣٢٤، حرف الطاء برقم ٥٢٥٠.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

١١٠ ـ كان سادةُ مكّةَ في مقدِّمةِ المخالِفينَ للنبيِّ ﷺ، وفي هذه الآيةِ يُسرِّي اللهُ تعالى عن النبيِّ ﷺ أنْ لا تحزَنَ يا رسولَ الله من مُخالفتِهم، فقد خالَفَ الأغنياءُ والحُكّامُ ـ يعني النَّمرودَ وفِرعَوْنَ ـ دائمًا الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلام؛ لأنّهم كانوا يَرَوْنَ أنّ سُلطتَهم مُهدَّدةٌ ويُحِيقُ بها الخَطَر، ولهذا كانوا يُحرِّضونَ العامّةَ أيضًا على مخالفةِ الأنبياءِ عليهم السَّلام، معَ أنّهم ـ في الحقيقة ـ لا يَخدَعونَ إلّا أنفُسَهم، لكنّهم لا يَعرِفونَ أنهم يُفسِدونَ آخِرتَهم بأيديهم.

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

١١١ ـ عندَما كانتْ آيةٌ من الآياتِ الدالةِ على صِدقِ النبيِّ ﷺ تَظهَرُ لسادةِ مكّةَ، فإنّهم ـ من أَجْل إخفاءِ عنادِهم وصَلَفِهم ـ كانوا يَختلِقُونَ الأعذارَ قائلين: إنّهم سيؤمنونَ في حالةِ ما لو جاءهم الوَحْيُ كما يأتي الرُّسُلَ والأنبياءَ، وأن يُصبحوا هم أيضًا أنبياءَ، أو على الأقلِّ تنزِلُ إليهم الملائكةُ لتُصدِّقَ رسُولَ الله ﷺ، فنزَلت هذه الآيةُ ردًّا عليهم بأنّ إعطاءَ النبوَّةِ لأحدٍ، وإنزالَ الملائكةِ عليه فَضْلٌ من الله تعالى، وهو فقطْ الذي يَعلَمُ جيِّدًا من يستحِقُّ هذا الفَضْل. أمّا سادةُ مكّةَ الذين أنكَروا نبوةَ المصطفى ﷺ، وآذَوْه بصورةٍ مباشرة، فقدِ انتَهت نفوذُهم في غضونِ سنواتٍ قليلة، وماتوا ذليلينَ محتَقَرين.

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾

١١٢ ـ من يريدُ أن يَفهَمَ الإسلامَ يُيسِّرُ اللهُ له فَهْمَه، ومن يَكرَهُ الإسلامَ

يُسلِّطُ الله عليه الشَّيطان، فيَجعَلُ صَدْرَه ضيِّقًا وقاسيًا للإسلام، بحيث تَضيقُ أنفاسُه حينَ يَسمَعُ اسمَ الإسلام، ويبدو له وكأنه يَصَّعَّدُ إلى السَّماءِ مُضْطَرًّا، أي: يُجبَرُ على فعلِ ما لا يمكنُ فعلُه.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾

١١٣ ـ بيَّنَ اللهُ تعالى الدَّلائلَ تفصيلًا بأنَّ الإسلامَ فقطْ هو الطَّريقُ المستقيم، فمَن قَبِلَ هذه النَّصيحةَ آمَن وعَمِل صالحًا، وأحبَّه اللهُ وأعانَه جزاءَ إيمانِه وعَمَلِه الصَّالح، وأدخَلَه دارَ السَّلام، أي: الجنَّةَ.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾

١١٤ ـ سيَجمَعُ اللهُ الخَلْقَ جميعًا يومَ القيامة، ويقولُ للجنِّ والشَّياطين: لقد أضْلَلتُم كثيرًا من النّاس، وسيَعترِفُ الضالُّونَ من بني الإنسانِ بأنّهم عصَوا اللهَ تعالى، وظَلُّوا يستغِلُّونَ بعضَهم حتّى انتَهت فترةُ حياتِهم، وعندَئذٍ سيقولُ اللهُ تعالى: الآنَ مصيرُكمُ النّارُ أنتم فيها خالدون، وسيَنْجو من النارِ فقطْ أولئك الذين يريدُ اللهُ أن يُنجِيَهم منها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

١١٥ ـ يُسلِّطُ اللهُ تعالى على الظّالمينَ من النّاس حُكّامًا ظالمينَ أيضًا، حتى يلاقوا جزاءَ أعمالِهم السيِّئة، ولذلك قال النبيُّ ﷺ «**كما تكونوا كذلك يؤمَّرُ عليكم**»[1].

---

(١) شعب الإيمان، الجزء ٦ برقم ٧٣٩١.

يقولُ سيِّدُنا الحَسَنُ رضي اللهُ عنه: «**إنّ بني إسرائيلَ سألوا موسى عليه السَّلامُ قالوا: سَلْ لنا ربَّك يبيِّنْ لنا عِلمَ رِضاه عنّا وعِلم سَخَطِه، فسأله فقال: يا موسى! أبلِغْهم أنّ رضايَ عنهم أنْ أستعمِلَ عليهم خيارَهم، وأنّ سَخَطي عليهم أن أستعمِلَ عليهم شِرارَهم**»(١).

يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ

---

(١) شعب الإيمان، الجزء ٦ برقم ٧٣٨٨.

سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

١١٦ ـ سيقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامة للمتمرِّدينَ من الإنسِ والجنِّ: ألم يَأْتِكم رسولٌ يَتْلو عليكم آياتي من التَّوراةِ والزَّبُورِ والإنْجيلِ والقرآن، ويُنذِرُكم بحسابٍ قادم لا مَحالةَ في هذا اليوم؟ أمّا المشركونَ من البشَر فسوف يُنكِرونَ أولًا: أنّهم أشركوا، وذلك حينَ يرَوْنَ مصيرَهم السيِّئَ، وسيُقسِمونَ بالله كذبًا إنهم لم يُشركوا ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فتَخرَسُ ألسنتُهم بسببِ كذبِهم هذا مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥]، بمعنى: أنّ أيديَهم وأرجُلَهم ستنطِقُ بالحقيقةِ واضحةً بيِّنةً، وعندَها لن يكونَ لدى المشركينَ مجالٌ للإنكار، وسيقولونَ شاهدينَ على أنفُسِهم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: ٩]، والحقيقةُ أنّ الحياةَ الدُّنيا خَدَعتْهم، فلم يُبالوا برُسُلِ الله، لكنَّهُم الآنَ مضْطَرُّونَ للاعترافِ بأنّهم أنكَروا رُسُلَ الله، وهو ما يجعَلُهم مستحِقِّينَ لجهنَّمَ وبئس المصير.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾

١١٧ ـ اللهُ تعالى لا يَظلِمُ أُمّةً من الأُمم، ولا يُنزِلُ عذابَه فورًا على أُمّةٍ بسببِ عصيانِها وظُلمِها، وإنّما يُرسلُ إليها رسولًا أولًا، لكي يُنذِرَهم من سُوءِ العاقبة، وحتّى لا يبقُوا في غَفْلة، فإذا لم يَرجِعوا برَغْم هذا كلِّه عن ظُلمِهم، فعليهم أن

يستعِدُّوا للعذابِ في الدُّنيا والآخِرة، ولكنّ هذا متوقِّفٌ على حِكمةِ الله تعالى بأنْ متى وأين يُنزلُ عذابَه على هؤلاء؟

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾

١١٨ ـ يا أهلَ مكّةَ، مثلَما لم يَعُدْ لأسلافِكم ـ أي: آبائكم وأجدادِكم ـ ذكر ولا أَثرٌ، وحَلَلتُم أنتم مكانَهم، فإنّ اللهَ تعالى يُمكنُه ـ بنفسِ الطريقة ـ أن يُفنيَكم، ويأتيَ بمن يشاءُ يَخلُفُكم، لكنّه رحيمٌ، يُمهِلُكم حتى تُصلِحوا من أنفسِكم، لكنّ التاريخَ شاهدٌ أنه بعدَ سنواتٍ قلائلَ لم يَعُدْ للكفّارِ ولا للأصنام في مكّةَ ذِكرٌ أو أَثرٌ، وسادَها المسلمون.

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

١١٩ ـ يا كفّارَ مكّةَ، لقد وَعَدَ اللهُ بيوم القيامة، ولكلِّ واحدٍ يومَها درجتُه التي تحدِّدُها أعمالُه، فإذا لم يمكنْ عقابُ الظّالم في الدُّنيا، فإنّه لن يستطيعَ الإفلاتَ من العقابِ على ظُلمِه في ذلك اليوم، وهذا اليومُ قادمٌ لا مَحالةَ، ولا يمكنُ لأيِّ قُوّةٍ في الدُّنيا أن تَمنعَه من المجيء.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾

١٢٠ ـ قلْ يا محمَّدُ ﷺ: يا كفَّارَ مكّةَ، إنْ لم تَقبَلوا الإسلامَ، ولم تَرجِعوا عن كُفرِكم وشِركِكم، فافعَلوا ما شئتُم، أمّا أنا فلن أفعَلَ إلّا ما يُرضي ربِّي فقطْ في كلِّ حال، لكنْ تَذكّروا أنّ مصيرَكم سيكونُ في غايةِ السُّوء بسببِ اتِّباعِكم هواكم، وستَعلَمونَ قريبًا بعدَ موتِكم مَن ستكونُ عاقبتُه طيِّبةً في الآخِرة.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾

١٢١ ـ من بيْنِ عقائدِ مُشركي العربِ التي جاءوا بها من عندِ أنفُسِهم أنّ كلَّ ما يريدونَ التصَدُّقَ به من محصُولِ الأرض وما تَلِدُه المواشي، يخصَّصُ منه جزءٌ لله تعالى، والجزءُ الآخَرُ يكون لآلهتِهم التي يَعبُدونَ، فيُنفِقونَ الجزءَ المخصَّصَ للهِ تعالى على الضُّيوفِ والفقراء، ويُنفِقونَ الجزءَ المخصَّصَ للأصنام لبناءِ المعابِد وخِدمةِ الأصنام وتجميلِها، فإذا كان من بيْنِ الجزءِ المخصَّص للهِ تعالى حيَوانٌ سَمينٌ ذو صحةٍ جيِّدة نَقَلوه إلى الجزءِ المخصَّص للأصنام، وهكذا إذا انتَقلَ جزءٌ من المخصَّص للهِ تعالى من الحبوبِ والغِلال مصادفةً إلى الأصنام فإنّهم لا يعيدونَه، ولكنْ إذا انتَقلَ جزءٌ من المخصَّص للأصنام إلى اللهِ تعالى فإنّهم يُعيدونَه معتذِرينَ بأنّ اللهَ غنيٌّ ولا يحتاجُ إلى هذه الأشياء.

وقد كذَّب القرآنُ المَجيدُ عقيدةَ المشركينَ هذه في أنّ اتّخاذَ الأصنام شُركاءَ لله تعالى خطأٌ من الأصل، ثم أيُّ ظُلم عظيم هذا حينَ تُخصَّصُ الأشياءُ الناقصةُ العاديَّةُ لله تعالى، وتُخصَّصُ الأشياءُ الممتازةُ والكثيرةُ للأصنام، معَ أنّ اللهَ تعالى خالقُ كلِّ شيء؟

وهذه الآيةُ بمثابة اللُّمحةِ الفِكْريّةِ لأولئك المسلمينَ الذين يَحتفِظونَ لأنفُسِهم ولأحبابِهم بالأشياءِ الممتازة، بينَما يبحَثونَ عن الأشياءِ العاديّةِ المَعِيبةِ لإنفاقِها في سَبيل الله تعالى، على سَبيل المثال: يختارونَ الولَدَ الذَّكيَّ حسَنَ الصُّورةِ من أبنائهم لكي يُصبحَ طبيبًا، أمّا مكفوفُ البصرِ أو قليلُ الذَّكاءِ فيختارونَه لحفظِ القرآنِ وتعلُّمِه، وفي هذا الخصُوص تستحِقُّ الواقعةُ التاليةُ للشّيخ أعظمَ شاه من بَهيره الشَّريفةِ التدبُّرَ والتمعُّن:

كان فضيلتُه يجلسُ ذاتَ مرّةٍ بيْنَ أحبابِه، فجاء سائلٌ بملابسَ ممزَّقةٍ قديمة، وطلَبَ منهم ملابسَ لنفسِه، فأرسَلَ الشّيخُ أعظمُ شاه خادمًا إلى البيتِ بأنْ أحضِرْ لهذا السائل ملابسَ من بيتي، فلمّا مضَى وقتٌ طويل ولم يَعُدِ الخادمُ، ذهبَ الشَّيخُ بنفسِه إلى البيت وسأل زوجتَه: السائلُ المسكينُ ينتظر، لماذا لم تُرسلي الملابسَ إليه؟ قالت الزوجة: ليس في البيتِ ملابسُ عاديَّةٌ يمكنُ إعطاؤها للسائل. فقال الشّيخ: أحضِري كلَّ الملابس، وأنا أختارُ من بينِها للسائل. وهكذا وَضَعت الملابسَ كلَّها في فِناءِ البيت، فاختار الشّيخُ من بينِها أفضَلَها، ثم أحرَقَ الباقيَ، وقال: أيَّتُها الزَّوجةُ، الملابسُ التي لا تليقُ بأنْ تنفَقَ في سبيل الله لا يمكنُ أن تبقَى في بيتِ أعظمَ شاه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ ﴾

١٢٢ ـ كان أهلُ مكّةَ: مِن نَسْل سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام، وكانوا موحِّدينَ صادقين، ولكنْ بعدَ عدّةِ أجيالٍ جَعَل أشباهُ الشَّياطينِ من البشَر أهلَ مكّةَ يَسِيرونَ على طريق الشِّرك، مما نَتَج عنه أن أَشرَكَ أهلُ مكّةَ الأصنامَ مع الله تعالى.

وفي هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى لهؤلاءِ الشَّياطين: إنّهم شُركاءُ الله؛ لأنّ أهلَ مكّةَ كانوا يَعتبِرونَ أحكامَ هؤلاءِ الشَّياطين مقدَّسةً، وتنفيذَها عبادةً مثلَما هو الحالُ معَ الله تعالى، ومثالُ ذلك: قَتْلُ الأولاد، بمعنى: أنّ الشياطينَ زَيَّنوا لأهلِ مكَةَ قَتْلَ أولادِهم إرضاءً للأصنام وخوفًا من الفقر، وجَعَلوه مقدَّسًا بحيثُ أنهم كانوا يَعتبِرونَ قَتْلَهم لأولادِهم ـ بأيديهم ـ عمَلًا طيِّبًا، وهكذا استطاعَ الشّياطينُ أن يجعَلوا من أهل مكّةَ مشركين، وأن يَلبِسوا عليهم دينَ إسماعيلَ عليه السَّلام، ومن جانبٍ آخَرَ جَعَلوا منهم قَتَلةً لأولادِهم، وقَضَوْا على عاطفةِ الإنسانيَّة من قلوبِهم، معَ أنّ الحيَوانَ نفسَه لا يتحمَّلُ أن يَقتُلَ أولادَه بنفسِه، لكنْ إذا أراد اللهُ تعالى لَما فَعَلوا ذلك، ولَبقَوْا جميعًا

موحِّدين صادقين، إلّا أنّ اللهَ تعالى يريدُ أن يَبتليَهم، ولهذا لا يُجبِرُهم على شيء، ومن هنا فلا يَحزُنْك أيُّها النبيُّ الحَبيبُ قسوةُ قلوبِهم ولا افتراءاتُهم.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾

١٢٣ ـ جاء في هذهِ الآيةِ بيانٌ لثلاثِ عقائدَ اخترعَها مشركو مكّةَ من عندِ أنفسِهم:

١ـ كان يُحرِّمونَ استعمالَ الجزءِ المخصَّص للأصنام من مواشيهم ومحاصيلِهم استعمالًا عامًّا، وإنّما كان مجاورو هذه الأصنام وخُدّامُهم فقطْ هم الذين يُمكِنُهم استعمالُه.

٢ ـ المواشي التي كانت توقَفُ على الأصنام (مثلَ: البَحِيرةِ والسائبةِ وغيرِهما مما وَرَد تفصيلُه في الآية رقم ١٠٣ من سورة المائدة) كانوا يُحرِّمونَ ركوبَها وحَمْلَ الأثقالِ عليها.

٣ ـ الحيَواناتُ التي كانوا يَذبَحُونَها باسم الأصنام يُحرِّمونَ ذكْرَ اسم الله عليها.

وكانوا يدَّعونَ فيما يَتعلَّقُ بعقائدِهم وأفعالِهم المختَرَعةِ هذه أنّ حُكمَ الله أيضًا هكذا، معَ أنّ اللهَ تعالى لم يأمُرْ بمِثْلِ هذا، فهو افتراءٌ على الله سيَلقَوْنَ جزاءه في القريبِ العاجل.

﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾

١٢٤ ـ ومن بَيْنِ عقائدِ مشركي مكّةَ المختَرَعةِ أيضًا: أنّهم كانوا يُحلِّلونَ ما تُحلَبُه بعضُ الحيَواناتِ التي كانوا يوقفونَها على الأصنام، وما تَلِدُه حيًّا للرِّجال فقطْ، ويحرِّمونَه على النِّساء، فإذا ما وُلِد من بطنِ هذه الحيَواناتِ مولودٌ ميِّتٌ فيمكنُ للرِّجالِ

والنِّساء - معًا - الاشتراكُ في تناولِ لحومِه، وفي القريبِ العاجل سيعاقِبُهم اللهُ تعالى على عقائدِهم المختَرَعةِ هذه.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ﴾

١٢٥ - الذين قَتَلوا أولادَهم في زمنِ الجاهليَّة هم الذين لَحِقَهم الضَّرَر؛ لأنهم - بفعلِهم هذا - قَضَوْا على أجيالِهم القادمة، وهذا جهلٌ وحُمقٌ لا حدَّ له، كما أنّ الله أعطاهم رزقًا حَلالًا في صورةِ المالِ والمواشي، لكنَّهم أوقَفُوه على الأصنام، وحَرَّموا على أنفُسِهم استعمالَه، وفي نفسِ الوقت يكذِّبونَ قائلينَ: إنّ هذا حُكمُ الله تعالى، معَ أنّ الله تعالى لم يأمُرْ بمِثلِ هذا، ولهذا فهُم ضالُّون، ويفتَرونَ على الله تعالى.

وقد نَقَل العلّامةُ القُرطُبيُّ في خصُوص هذه الآية روايةً أنقُلُها هنا أنا أيضًا حتّى يَعرِفَ القُرّاءُ الأعزّاءُ المقامَ العظيمَ الذي أعطاه الإسلامُ للمرأة، بعدَ أن كانت سببًا للعارِ في زمنِ الجاهليَّة، وكانت تُدفَنُ حيّةً، أمّا الإسلامُ فقد جَعَلَها مَلِكةَ البيت، وجَعَل الجنَّةَ تحتَ أقدامِها:

«رُويَ أنّ رجُلًا من أصحابِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم كان لا يزالُ مغْتَمًّا بيْنَ يدَيْ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فقال له رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ما لكَ تكونُ محزونًا؟ فقال: يا رسولَ الله، إنّي أَذْنَبْتُ ذنبًا في الجاهليَّة فأخافُ ألّا يَغفِرَه اللهُ [لي] وإن أَسْلَمت! فقال له: أخبِرْني عن ذَنْبك، فقال: يا رسولَ الله! إنّي كنتُ من الذين يَقتُلونَ بناتِهم، فوُلِدت لي بنتٌ فتَشفَّعتْ إليَّ امرأتي أن أترُكَها، فتركتُها حتّى كبِرَت وأدرَكَتْ وصارت من أجملِ النِّساء، فخَطَبوها؛ فدخَلَتْني الحَمِيَّةُ ولم يَحتمِلْ قلبي أن أُزوِّجَها أو أترُكَها في البيتِ بغيرِ زَوْج، فقلتُ للمرأة: إنّي أريدُ أن أذهبَ إلى قبيلةِ كذا وكذا في زيارةِ أقربائي فابعَثيها معي، فسُرَّت

بذلك وزَيَّنتْها بالثِّيابِ والحُلِيِّ، وأخَذَتْ عليَّ المواثيقَ بألّا أخونَها، فذهبتُ بها إلى رأس بئرٍ فنظَرتُ في البئرِ ففَطِنَتِ الجاريةُ أنّي أريدُ أن أُلقيَها في البئر، فالتزمَتْني وجَعَلتْ تبكي وتقولُ: يا أبتِ! أيشٍ تريدُ أن تفعَلَ بي! فرَحِمتُها، ثم نظَرتُ في البئر فدَخَلت عليَّ الحَمِيَّة، ثم التزمَتْني وجَعَلتْ تقولُ: يا أبتِ، لا تُضيِّعْ أمانةَ أُمّي؛ فجَعَلتُ مرّةً أنظُرُ في البئرِ ومرّةً أنظُرُ إليها فأرحَمُها، حتّى غَلَبني الشّيطانُ فأخَذتُها وألقَيْتُها في البئرِ منكوسةً، وهي تنادي في البئرِ: يا أبتِ، قتلتَني فمَكَثْتُ هناك حتّى انقَطَع صوتُها فرجَعْت. فبكَى رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وأصحابُه وقال: لو أُمِرتُ أن أُعاقبَ أحدًا بما فَعَل في الجاهليَّةِ لَعاقَبْتُك»[1].

۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾

١٢٦ ـ في هذه الآيةِ جاء ذِكرُ بعضِ الأشجارِ والنَّباتاتِ المتسلِّقة وغيرِ المتسلِّقة

---

(١) تفسير القرطبي.

والمحاصيل، والمرادُ: أنّ اللهَ تعالى هو الذي خَلَقَ كلَّ أنواع النَّباتات، وحُكمُه هو أنه عندَما تنضِجُ ثمارُ هذه النَّباتاتِ كلوا منها وأَخْرِجوا منها حقَّ الله تعالى كذلك، أي: وَزِّعوا جزءًا منها على الفقراءِ والمساكين، وعليكم ألّا تُسرِفوا في الإنفاقِ حتى لا تضيِّعوها، ولا تُنفِقوها في أعمالٍ تُغضِبُ اللهَ تعالى.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾

١٢٧ ـ في هذه الآيةِ جاء ذِكْرُ المواشي صغيرِها وكبيرِها، بمعنى: أنّ اللهَ تعالى قد خَلَق كلَّ أنواع الحيَواناتِ لخدِمة بني الإنسان، ولهذا فما كان منها حلالًا فاذبَحُوه وكُلوا لحومَه، ولا تخصِّصوها للأصنامِ فتضيِّعوها بلا داعٍ ولا فائدةٍ، ولا تتَّبِعوا الشَّيطانَ؛ لأنه عدوُّكم، ويُحاولُ دائمًا إضلالَكم.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

١٢٨ ـ جاء في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ ذِكرُ ثماني مواشي، أربعةٌ ذكورٌ هي: الكبْشُ والجَدْيُ والجَمَلُ والثَّور، وأربعةُ إناثٍ هي: النَّعجةُ والماعزُ والناقةُ والبقرة، وتناوُلُ لحوم هذه المواشي الثَّمانيةِ ذكورًا وإناثًا حلالٌ، وكان مشركو العربِ يخصِّصونَ بعضًا من هذه الأقسام الأربعةِ من المواشي باسم الأصنام، بعضُها ذكورٌ وبعضُها إناث، وبذلك يَحرُمُ ركوبُها وحَمْلُ الأثقالِ عليها وتناوُلُ لحومِها وشربُ لبَنِها على عامّةِ الناس، فيقولُ اللهُ تعالى: أيُّها النبيُّ الحَبيب، سَلْ هؤلاء: لو أنّ اللهَ تعالى حَرَّم ذكورَ هذه المواشي، فعليكم أن تأكلوا لحومَ إناثِها فقطْ، ولو أنه حَرَّم إناثَها فيجبُ

أن تتناولوا لحومَ ذكورِها فقطْ، ولو حَرَّم ما يولَدُ لها من الصِّغار فإنّ الذَّكَرَ والأُنثى يولَدانِ جميعًا من بطنِ الأُنثى، وبهذا يكونُ عليكم ألّا تأكلوا الذكورَ ولا الإناثَ، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى لم يُحرِّمْ شيئًا من هذه المواشي، وليس لديكُم دليلٌ عِلميٌّ واحدٌ على تحريمِها، ولم تكونوا حاضرينَ عندَ الله تعالى حينَ أصدَرَ حُكمَه ـ كما تَدَّعون ـ بتحريم هذه المواشي، وبالتالي فإنّ افتراءَكم على اللهِ تعالى بالبُهتانِ الكاذب هو في الحقيقةِ ظُلمٌ عظيم.

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ﴾

١٢٩ ـ جاء في هذه الآيةِ ذكْرُ أربعةِ أشياءَ محرَّمةٍ، لأنّ هذه الآيةَ نَزلتْ في الفترةِ الأولى للإسلام، أي: في مكّةَ، وحتى ذلك الوقتِ كانت هناك أربعةُ أشياءِ قد حُرِّمت، ثم بعدَ ذلك حُرِّمت أشياءُ أخرى في الأوقاتِ المناسبةِ لها، ويُمكِنُك الرجوعُ إلى الآيات رقم ٣، ٩٠ من سورة المائدةِ لمزيدٍ من التفصيل.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾

١٣٠ ـ اليهودُ الذين قَتَلوا الأنبياءَ بغير حقٍّ، وأكَلوا أموالَ النّاسِ بالباطل عاقَبَهم اللهُ تعالى بأنْ حَرَّم عليهم الحيَواناتِ ذاتَ الأظافرِ وشحومَ البقرِ والماعز، لكنّه أحَلَّ لهم تناوُلَ الشُّحوم الملاصِقةِ للظَّهرِ والأمعاءِ والعظام، وكان هذا في حقيقةِ الأمر عقابًا مؤقَّتًا لهم[1]، حتى يَعتبِرَ منهم الآخرون، ولا يتَجاسروا على ارتكابِ مِثلِ هذا التمرُّدِ والعِصْيانِ مستقبَلًا.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

١٣١ ـ أيُّها النبيُّ الحَبيب، لو أنّ مُخالفيكَ، يعني: غيرَ المسلمينَ، كذَّبوكَ، فقُلْ لهم: لا يزالُ الوقتُ أمامَكم، فارجِعوا عن تكذيبي، وربُّكم سيعفُو عنكم، لكنْ إن أصَرُّوا على عِنادِهم فلن يستطيعَ أحدٌ أن يُنقذَهم من غضَبِ الله تعالى.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

١٣٢ ـ كان المشرِكونَ يَدَّعونَ أنّهم يُشركونَ في بيتِ الله تعالى منذُ قرون، ولو أنّ اللهَ تعالى أرادَ لَما أشركوا، ولَما حَرَّموا حَيواناتٍ حلالًا مثلَ: البَحِيرة أو السَّائبة، ويُعلَمُ من هذا أنّ اللهَ تعالى قد أحبَّ شِركَنا هذا، وعليه قال اللهُ تعالى: إنّ بعضَ الأُمم ممَّن سبَقوهم كانوا مُبتَلَوْنَ بمِثلِ هذا الشِّرك، وأُنْزِلَ عليهم عذابٌ قضَى على كلِّ ذِكْرٍ وكلِّ أثَرٍ لهم، ولهذا فإنّه لو كان اللهُ تعالى يحبُّ الشِّركَ لَما أَنْزلَ عليهم العذابَ. يا أيُّها

---

(١) تفسير نعيمي.

النبيُّ الحَبيب ﷺ، سَلْهم: هل عندَهم من دليلٍ علميٍّ يؤيِّدُ شِركَهم هذا؟ فلْيقدِّموا هذا الدّليلَ إذًا، إذْ إنّ شِركَ الآباءِ والأجدادِ ليس دليلًا على جوازِ الشِّرك، لكنْ أنَّى لهم أن يأتُوا بدليل؛ لأنّهم مجرَّدُ حَيارَى في أوهامِهم وظنونِهم وتخميناتِهم لا أكثر.

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

١٣٣ ـ قل يا أيُّها النبيُّ الحَبيب: الدُّليلُ الكاملُ هو كلامُ الله تعالى، الذي ميَّزَ الحقَّ عن الباطل تمامًا، ولو شاء لَهدى الجميعَ قَسْرًا، لكنّ هذا يتنافَى معَ حِكمتِه؛ لأنه أعطَى الإنسانَ حرِّيةَ الاختيارِ بقَصْدِ ابتلائه واختبارِه.

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾

١٣٤ ـ أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، قلْ للمشركينَ: لو أنّ لدَيْكم شاهدًا على تحريم ما أحَلَّ الله، أي: آيةً من أيِّ كتابٍ سماويٍّ مثلًا، أو قولًا لأيِّ نبيٍّ من أنبياءِ الله تعالى، فقدِّموه؛ لأنّ سُلطةَ تحريم الأشياءِ وتحليلِها لله تعالى فقطْ، والحقيقةُ أنه ليس لديْهم أيُّ دليلٍ عقليٍّ أو نَقْليّ، ولا مجرَّدُ شاهدٍ على هذا الأمر، ولكنْ إنْ حاوَلوا تقديمَ شهادةٍ كاذبة في هذا الخصُوص، فلا يجوزُ لمَن يَسمَعُ شهادتَهم الكاذبةَ هذه أن يُصدِّقَها، أو أن يتَّبعَ أهواءَهم؛ لأنّهم مُنكِرونَ لآياتِ الله تعالى وللآخِرة، ويجعَلونَ المخلوقَ مساويًا للخالقِ تعالى جلَّ شأنُه.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ

ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

١٣٥ ـ في الآياتِ السّابقةِ جاء بيانٌ للأشياءِ التي حَرَّمها المشركونَ على أنفُسِهم بظنِّهم وقياسِهم الفاسد، معَ أنّ اللهَ تعالى لم يُحرِّمْها، وهنا قال اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ أنْ يا أيُّها النبيُّ الحبيب، قلْ للمشركينَ: تعالَوْا أقرأْ عليكم وأُسمِعْكم ما الذي حرَّمه اللهُ تعالى عليكم في الحقيقة. وفي هاتَيْنِ الآيتَيْنِ حرَّم اللهُ تعالى تسعةَ أشياءَ نَذكُرُها فيما يلي:

١ ـ الشِّرك.

٢ ـ معاملةَ الأبَوَيْن معاملةً سيِّئة.

٣ ـ قَتْلَ الأولاد خشيةَ الفقرِ والإملاق.

٤ ـ ارتكابَ الفواحش.

٥ ـ قَتْلَ النفسِ بغيرِ حق.

٦ ـ التصرُّفَ في مالِ اليتيم بغيرِ حقّ.

٧ ـ البَخْسَ في الميزان.

٨ ـ الكلامَ بالباطل.

٩ ـ عَدَم الوفاءِ بعهدِ الله تعالى.

يقولُ سيِّدُنا ابنُ عبّاس رضيَ اللهُ عنهما: «**هذه الآياتُ هي المُحكَمات أجمَعَتْ عليها شرائعُ الخَلْق ولم تُنسَخْ قطُّ في ملَّةٍ**»[١]، ومِثلُ هذه الأحكام لا تزالُ موجودةً حتّى اليومِ في البابِ رقم ٢٠ من كتابِ الخروج من الكتابِ المقدَّس.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

١٣٦ ـ الدِّينُ الذي مَنَحه اللهُ تعالى لأهلِ الدُّنيا عن طريقِ النبيِّ ﷺ هو الصِّراطُ المستقيم، ويَلزَمُ أهلَ الإيمان اتِّباعُه والسَّيرُ عليه، فإذا اتَّبع أحدٌ طُرُقًا غيرَه، فسوف يبتعدُ تلقائيًّا عن طريقِ الله تعالى.

﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾

١٣٧ ـ الأحكامُ التي وَرَد بيانُها في الآياتِ السّابقة ظَلَّتْ تنزلُ على الأُمم السَّابقةِ جميعًا، ثم حينَ أُنزلت التَّوراةُ على سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، جاء فيها بيانُ هذه الأحكام أيضًا، حتى تتمَّ نعمةُ الله تعالى على الصَّالحينَ من أهل ذلك الزَّمان؛ لأنَّ الصَّالحينَ بشكلٍ عامٍّ هم الذين يستفيدونَ من الهدايةِ السَّماويَّة، ولقد كانت التَّوراةُ كتابًا جامعًا في زمانِها، وجاء فيها بيانٌ مفصَّلٌ لكلِّ الضَّروراتِ الدِّينيَّة لبني إسرائيلَ إذ ذاك، فكانت بذلك وسيلةً للرحمةِ والهداية لهم، حتى يقرأوها، ويؤمنوا بلقاءِ الله تعالى، أي: بالآخِرة.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ

---

(١) تفسير البحر المحيط.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾

١٣٨ ـ في هذه الآياتِ خطابٌ مُوجَّهٌ لمشركي مكّةَ، حتّى لا يكونَ لهم عُذرٌ يومَ القيامة عندَما يُسألونَ عن شِركِهم، بأنْ يقولوا: إنّ التوراةَ والإنْجيلَ قد نَزَلا على جماعتَيْنِ من قَبْلِنا، أي: اليهودِ والنَّصارى، ولأنّنا كنّا أُميِّينَ لا نَقرأُ ولا نكتُب، لهذا عَجزْنا عن الاطِّلاع على ما فيهما، ولو كنّا أُنزِل علينا نحن أيضًا كتابٌ لَما أشرَكْنا، ولكنّا أكثرُ اهتداءً من اليهودِ والنَّصارى، ورَغْمَ أنّ القرآنَ المَجِيدَ نَزَل لهدايةِ الناس جميعًا حتى

قيام الساعة، لكنْ قامت فيه الحُجَّةُ على المشركينَ أيضًا بأنّ اللهَ أنْزلَ فيكم كتابَه الأخيرَ بلُغتِكم العربيَّة، فعليكم اتباعُه، وهل هناك أظلمُ ممن يُكذِّبُ هذا الكتابَ المُبينَ؟!

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

١٣٩ ـ الذين لا يؤمنونَ بالإسلام رَغْم الدَّلائل الواضحة البيِّنة على حقّانيَّتِه، هل ينتظرونَ أن يأتيَ إليهم مَلَكُ الموتِ فيَقبِضَ أرواحَهم، أو أن تقومَ السّاعةُ ويتَجلَّى اللهُ تعالى على مِنصّةِ العدالة، أو أن تأتيَ آيةٌ كبرى من آياتِ الله تعالى، مثلَ: طلوع الشّمسِ من مغرِبها، وعندَ ذلك يؤمنون؟ في حينَ أنه عندما يأتي مَلَكُ الموت، أو آيةٌ من آياتِ الله التي يأتي الموتُ بعدَها، فإنّه لا فائدةَ عندَئذٍ من توبةِ أحدٍ أو إيمانِه، وإنما يستفيدُ فقطْ أولئك الذين يؤمنونَ قبْلَ ظهورِ هذه العلاماتِ والآياتِ ويتوبون. على أيّةِ حال، إنْ لم يؤمنوا بعدَ كلِّ هذا التوضيح فلْينتظروا هم ونحن أيضًا ننتظرُ، وما أن تقومَ السّاعةُ حتى يتبيَّنَ الحقُّ من الباطل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

١٤٠ ـ قال اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحبيب، الذين تَركوا طريقَك، واختاروا لأنفُسِهم طُرُقًا أخرى، وتفرَّقوا أحزابًا وشِيَعًا، لن تُسأل أنت عنهم، فهم مسئولونَ عن ضلالِهم، وأمرُهم إلى الله تعالى، هو الذي سيَجْزِيهم ويُعاقبُهم على ما كانوا يفعَلون. راجع الحاشيةَ رقم ٦٢ للآية رقم ٦٥ من هذه السُّورة للتعرُّفِ على المذاهبِ الفقهيَّةِ المختلفة.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

١٤١ ـ من يأتي يومَ القيامة بحسَنةٍ يُعطيه اللهُ تعالى أَجْرَ عشْرِ حسَناتٍ مِثلِها،

وهذا هو أقلُّ أجرٍ، ولو شاء اللهُ تعالى لَرفَع هذا الأَجْرَ إلى سبعينَ ضِعفًا، أو إلى سبعِمائةِ ضعف، أو إلى ما لا نهايةَ، مِثلَما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، وهذا فَضْلٌ منه تعالى، وعلى العكس من ذلك، من يأتي يومَ القيامةِ بذنبٍ واحدٍ فإنّ اللهَ تعالى يعاقبُه على ذَنْبِه هذا فقطْ، وهذا عدْلٌ منه تعالى، وهو سبحانَه لا يَظلِمُ أحدًا، بمعنى: أنه لا يَنقُصُ من ثوابِ أحدٍ، ولا يزيدُ في عذابِ أحدٍ.

ونجدُ في ألفاظِ هذه الآية إشارةً إلى أنّ الثوابَ والعقابَ لا يكونانِ لمجرَّدِ فعلِ الحسَنة وارتكابِ السيِّئة، وإنّما الشَّرطُ أن تبقَى هذه الحسَنةُ وهذه السيِّئةُ حتى قيامِ الساعة، على سبيل المثال: ارتكبَ شخصٌ سيِّئةً ثم تابَ منها، أو فَعَل شخصٌ حسنةً كانت كفَّارةً لسيِّئة ارتكبَها، مثلمَا قال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]، ففي هذه الحالةِ لن يعاقَبَ ذلك الشَّخصُ على السيِّئة التي تابَ عنها، وسيَغفِرُ اللهُ له سيِّئتَه في الدُّنيا بسببِ حسَناتِه، وسيكونُ حالُه كحالِ مَن لم يرتكبِ السيِّئة أصلًا، وبنفسِ الطريقة لو أنّ شخصًا فَعَل حسَنةً، ثم ارتكبَ بعدَها سيِّئةً أضاعت حسَنتَه هذه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ففي هذه الحالةِ لن يُثابَ هذا الشخصُ على حسَنتِه؛ لأنه أضاعَها، ومن هنا ينبغي الحِفاظُ على الحسَنةِ بعدَ فعلِها.

لا ينبغي أن نُحقِّرَ الذَّنبَ مهما كان صغيرًا؛ لأنّ معظمَ النّار من مُستصغَرِ الشَّرَر، كما يقول المَثَل، كما أنه لا ينبغي أن نَحقِرَ الحسَنةَ مهما كانت بسيطةً؛ لأنه يمكنُ لجَرْعةِ ماءٍ صغيرةٍ أن تُنقذَ حياةَ إنسان، ولهذا قال النبيُّ ﷺ **«اتَّقوا النّارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فإنْ لم يكنْ فبكلمةٍ طيِّبةٍ»**[1]، ولأنّ **«الكلمةَ الطَّيِّبة صَدَقةٌ»**[2]، و**«إنّ الصّدقة**

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٤.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٤.

لَتُطفِئُ غضَبَ الرّبّ وتَدفَعُ مِيتةَ السُّوء»[١]، و«**الصَّدَقةُ تُطْفئُ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النّارَ»**[٢]، وقال ﷺ «**لا تَحقِرَنّ من المعروفِ شيئًا ولو أنْ تلقَى أخاك بوَجْهٍ طَلْقٍ**»[٣]، لأنّ «**تبسُّمَك في وَجْهِ أخيك لكَ صَدَقةٌ**»[٤].

ذاتَ مرَّةٍ قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**إنّكم في زمانٍ مَن تَرَك منكم عُشْرَ ما أُمِر به هَلَك، ثمّ يأتي زمانٌ مَن عَمِل منهم بعُشْرِ ما أُمِر به نَجَا**»[٥].

هذا الحديثُ بمثابةِ شُعاع أمل لأولئك الذين وفَّقهم اللهُ تعالى للقيام بعمل من أَجْل الدِّين في أيِّ درجةٍ من الدَّرَجات، إذْ ينبغي لهم ألّا يترُكوا هذا العمَلَ معتقدينَ أنه قليل، فهذا خِداعٌ عظيمٌ من الشَّيطان؛ لأنه لا يدري أحدٌ أيَّ عملٍ من أعمالِنا يُحبُّه اللهُ تعالى، وبه نلقَى الفلاحَ والنجاح؟ وخاصّةً في أيّامِنا هذه حيثُ التواكلُ على أشُدِّه، فإنّ أَجْرَ الحسَنةِ سيكونُ مضاعَفًا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ «**مَن تمسَّك بسُنّتي عندَ فسادِ أُمّتي، فله أَجْرُ مائةِ شهيدٍ**»[٦].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

١٤٢ ـ أيُّها المشركونَ العربُ، لقد أراني اللهُ تعالى طريقَ دينِ الإسلام، وهو الطريقُ المستقيمُ الصَّحيح، وهو ليسَ طريقًا جديدًا، وإنّما هو طريقُ أبيكم سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وكان سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام موحِّدًا خالصًا ومنزَّهًا عن كلِّ أنواع الشِّرك.

---

(١) الترمذي، أبواب الزكاة، باب ٢٨.
(٢) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ٨.
(٣) مسلم، كتاب البر، باب ٤٣.
(٤) الترمذي، أبواب البر، باب ٣٦.
(٥) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٧٩ برقم ٢٢٦٧.
(٦) مشكاة المصابيح، باب الاعتصام بالكتاب والسنة، الفصل الثاني برقم ١٧٦.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

١٤٣ ـ في هذه الآيةِ بيانٌ لمقصِدِ حياةِ المسلم، فمقصِدُه من صَلاتِه ونُسُكِه ومحياهُ ومماتِهِ هو الحصولُ على رضا الله تعالى.

ويُعلَمُ من هذا أيضًا أنه في بعضِ الأحيان يكونُ من الضَّروريِّ إظهارُ التَّقوى والإخلاصِ للنّاس بهدفِ ترغيبِهم إلى الحقِّ، بَشْرِط أن لا يكونَ بنيَّةِ الرِّياء.

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

١٤٤ ـ في هذه الآية يُعلِنُ النبيُّ ﷺ بأمرِ الله تعالى أنّ اللهَ تعالى واحدٌ لا شريكَ له، وأنا أولُ المسلمينَ، ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الحاشيةَ رقم ١٥ للآية رقم ١٤ من هذه السُّورة.

لقد كانتِ التعاليمُ والمبادئُ الأساسيَّةُ لكلِّ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ واحدةً في كلِّ زمان، وكلُّ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مطيعونَ لله تعالى، أي: مسلمونَ، مثلَما قال سيِّدُنا نوحٌ عليه السَّلام: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢]، وقد وَصَّى سيِّدُنا إبراهيمُ وسيِّدُنا يعقوبُ عليهما السَّلامُ أولادَهما قائلَيْن: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، كما دعا سيِّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ اللهَ تعالى بقولِه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ لقومِه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال الحَواريُّونَ لسيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١]، وهكذا كان باقي الأنبياءِ عليهم السَّلامُ ومتَّبِعوهم المخلِصونَ مسلمينَ جميعًا، وكانت عقيدتُهم الأساسيَّةُ هي أنّ اللهَ تعالى واحدٌ، وليس له شريكٌ، ولا يستحِقُّ العبادَةَ سواه، لكنْ كان هناك

بعضُ الاختلافِ في بعضِ الأحكام بما يتوافَقُ معَ الواقع الذي كان يعيشُه هؤلاءِ الأنبياءُ عليهم السَّلام.

﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾

١٤٥ ـ قال كفَّارُ مكّةَ لأهل الإيمانِ أنِ اتَّبعوا طريقَنا (وإن كان فيه ذنبٌ) فنحن نحمِلُ أوزارَكم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢]، وفي هذه الآيةِ نفسِها جاء الردُّ على هذا العَرْضِ بأنه في يوم القيامةِ لا يَحمِلُ أحدٌ وِزْرَ الآخَر، وكلُّ شخصٍ مسئولٌ عن أعمالِه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾

١٤٦ ـ لقد جَعَلَكم اللهُ تعالى خُلفاءَ للأُمم السَّابقة؛ لأنّكم آخِرُ أُمّةٍ، وفَضَّل بعضَكم على بعضٍ حتى يَبتليَكم، بمعنى: أنه أعطَى للبعضِ الثروةَ، وأعطى البعضَ الآخَرَ الفقرَ، وأعطَى البعضَ الصِّحةَ والبعضَ الآخَرَ المرضَ، وباختصار: فقدِ ابتَلَى اللهُ تعالى كلَّ واحدٍ بما أعطاهُ إيّاه ليرَى هل يَصبِرُ ويَشكُرُ أم يَجحَدُ ويَكفُر؟ ولو أراد اللهُ تعالى لابْتَلَى العُصاةَ بعذابٍ على وجهِ السُّرعة، ولكنّه يُمهِلُهم حتى يتوبوا إلى الله فيعفوَ عنهم.

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين

يوم الاثنين الثالثَ عشَرَ من رمضانَ المبارك عام ١٤٢٦هـ

الموافقَ السابعَ عشَرَ من أكتوبر عام ٢٠٠٥م

جامعة الكَرَم، إيتن هال، بريطانيا.

محمَّد إمداد حُسَين بِيرزَادَه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٧) سُورَةُ الأَعْرَافِ

هذه السُّورةُ مكِّية؛ لأنّها نَزَلتْ قبل الهجرة.

والأعرافُ: يقالُ للجُزءِ العُلْويِّ من الجِدارِ الفاصل بينَ الجنَّةِ والنار، والذي يستطيعُ أولئك الذين يَقِفونَ عليه رؤيةَ الجنَّةِ والنارِ معًا، وهؤلاءِ ـ عندَ أكثرِ المفسِّرين ـ هم أولئك الذين تتساوَى حسَناتُهم معَ سيِّئاتِهم، فتقفُ حسَناتُهم حائلًا في سَبيل دخولِهمُ النارَ، وتقفُ سيِّئاتُهم حائلًا في سَبيل دخولِهمُ الجنَّةَ، ولهذا يبقَوْنَ على الأعـرافِ إلى أن يَـحكُمَ اللهُ فـي أمرِهم، وقد سمِّيت هذا السُّورةُ بالأعرافِ لذِكرِ الأعرافِ بها.

وسُورةُ الأعرافِ مِثلُها مِثلُ السُّورِ السَّابقة، تركّزُ هي الأخرى على إصلاح عقائدِ مشركي العربِ وأعمالِهم، وتحثُّهم على اتِّباع النبيِّ ﷺ، كما أنّها تتحدَّثُ عن الأنبياءِ الكرام السّابقينَ عليهم السَّلام وعن أُمَمِهم، حتّى تَعتبِرَ الأُمَّةُ المسلمةُ من أحوالِهم، وحتى يطمئنَّ قلبُ النبيِّ ﷺ بأنّ مسألةَ الاستهانةِ وعَدَم التقديرِ من قِبَل المشركينَ والكفَّار هذه ظلَّت تَحدُثُ معَ الرُّسُلِ السّابقينَ أيضًا، فقد أرسَل اللهُ تعالى قبلَ النبيِّ ﷺ رسُلًا لكلِّ قومٍ على حِدَة، وفي نهايةِ الأمر أرسَلَ نبيَّنا الحبيبَ محمَّدًا ﷺ إلى بني الإنسان جميعًا، مثلَما أمَرَ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ

في الآيـةِ رقـم ١٥٨ مـن هـذه السُّورة بقـولِه: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

في يوم الثلاثاء الثامنَ عشَرَ من اكتوبر عام ٢٠٠٥م
الموافقِ السادسَ عشَرَ من رمضانَ المبارك عام ١٤٢٦هـ

محمَّد إمداد حُسَين بِيرْزَاده:
جامعة الكَرَم، بريطانيا

* * *

سُورَةُ الأَعْرَافِ (٧)،

مكّيّة (٣٩)، آياتها (٢٠٦)، ركوعاتها (٢٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿الٓمٓصٓ﴾

١ـ هذه حروفٌ مقطَّعة، وهي سرٌّ بينَ اللهِ تعالى وحبيبِه المصطفى ﷺ، ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح يمكنُك الرجوعُ إلى الحاشية رقم ١ من سُورة البقرة.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾

٢ـ كان عدَمُ دخولِ المشركينَ في الإسلام رَغْم سَماعِهم لرسالةِ الحقِّ

والصِّدق يُحزِنُ النبيَّ ﷺ، ولهذا قال اللهُ تعالى أنْ يا رسولَ الله، لا يَضِيقُ صدرُك بضلالِهم، واستمرَّ في تبليغ دعوةِ الحقِّ، سواءٌ آمَنوا أم لم يؤمنوا، وأَنْذِرِ المشركينَ بالعاقبةِ الوخيمةِ عن طريقِ تعاليمِ القرآنِ المَجِيد، واستمرَّ أيضًا في نُصْح أهل الإيمانِ بأنْ يعمَلوا بأحكام الإسلام.

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾

٣ـ في هذه الآيةِ الكريمة نَصَح اللهُ تعالى الناسَ قائلًا: أنِ اتَّبعوا الأحكامَ التي تأتيكم من الله تعالى، ولا تتَّبعوا أصدقاءَ السُّوءِ أشباهَ الشّياطين؛ لأنّهم سيُضلُّونكم، والذين يَقبَلونَ النَّصيحةَ قليلونَ في الغالب.

﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴾

٤ـ الذين كذَّبوا الرسُلَ من الأُمم السابقة، وعاثُوا في أرضِ الله هذه ظُلمًا وعُدوانًا، لَمّا جاءهم العذابُ من الله تعالى بَغْتةً، سواءٌ بالليل أو بالنهار، صَرَخوا معترفينَ بظُلمِهم، وبأنّهم ـ بالفعل ـ قد تعَدَّوْا كلَّ حدٍّ في ارتكابِ الذنوب، لكنّ اعترافَهم هذا لم يُنْجِهم من العذابِ الإلهيِّ، ولهذا فإنّ العقلَ يقتضي أن يُبادرَ الإنسانُ إلى التَّوبة اليومَ قبلَ الغد، وإلّا فإنّ التوبةَ في النَّزع الأخيرِ لا تُقبَل.

﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

٥ـ ستُسألُ الأُممُ يومَ القيامة: هل بَلَّغَهم الرسُلُ دعوةَ الحقِّ أم لا؟ وإلى أيِّ مدًى قَبِلوا دعوةَ الرُّسُلِ هذه؟ وسيُسألُ الرسُلُ أيضًا: ماذا فَعَلوا في تبليغ رسالةِ الله تعالى إلى بني الإنسان؟ وما الذي وَجَدوه من أُممِهم ردًّا على ذلك؟

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾

٦ـ اللهُ تعالى موجودٌ وحاضرٌ في كلِّ مكان، ولا يخفَى على عِلمِه شيءٌ في

الأرضِ ولا في السماء، وسوف يكشِفُ اللهُ تعالى يومَ القيامة على الأُمم أحوالَهم بأنّهم إلى أيٍّ مدًى قَبلوا تعاليمَ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام وعَمِلوا بها.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

٧- سيكونُ الفلاحُ يومَ القيامة من نصيبِ أولئك الذين تزيدُ حسَناتُهم، أمّا من تقِلُّ حسَناتُهم فسيكونونَ في خُسْرانٍ بسببِ ظُلمِهم، بمعنى: أنّ الكفّارَ سيُخلَّدونَ في نارِ جهنَّم، بينَما سيبقَى العُصاةُ الظالمونَ من المسلمين في جهنَّمَ بقَدْرِ ما ارتكبوا من الذنوب.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

٨ - أسْكَن اللهُ تعالى الإنسانَ في الأرض، وخَلَق له من الأسبابِ ما يُعِينُه على حياتِه، حتّى يؤدِّيَ الشُّكرَ لله تعالى على فَضْلِه، ومعَ ذلك فقليلٌ من النّاس هم الذين يشكُرونَ الله.

وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾

٩ـ يعني: لقد خلَقْنا أباكم آدمَ عليه السَّلامُ، وصوَّرناهُ، ثم أمَرْنا الملائكةَ أن يسجُدوا له تعظيمًا لشأنِه، فسَجَدوا جميعًا إلا إبليسَ لم يكن من بينِ السّاجِدين.

كيفيّة سجدة التعظيم

السُّجودُ قسمانِ، واحدٌ: للعبادة، والثاني: للتعظيم، والشَّريعةُ الإسلاميَّةُ تَرى أنّ سجودَ العبادةِ لا يكونُ إلّا لله فقطْ، وهو خاصٌّ به تعالى، ومِثلُ هذا السّجودِ لم يكنْ جائزًا لغيرِ الله تعالى في الشَّرائع السّابقةِ أيضًا، لكنّ السُّجودَ تعظيمًا لشخصيَّةٍ عظيمة كان جائزًا في الشّرائع السّابقة، فقد سَجَد إخوةُ يوسُفَ عليه السَّلامُ له، وسَجَدتِ الملائكةُ لسيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وكان أولَ من سَجَد من الملائكة لسيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام هو: سيِّدُنا جِبريلُ، ثم سيِّدُنا مِيكائيلُ، ثم سيِّدُنا إسرافيلُ، ثم سيِّدُنا عَزْرائيلُ، ثم تَبِعهم الملائكةُ جميعًا[1].

ويتَّفقُ الجميعُ على أنّ سجودَ الملائكةِ لسيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ لم يكنْ سجودَ عبادةٍ، لكنّ هناك اختلافًا: هل المرادُ من هذا السُّجودِ هو السُّجودَ اللُّغويَّ، بمعنى: التعظيمِ في القلبِ وباللسان، أم السُّجودَ الاصطلاحيَّ، بمعنى: وَضْعِ الجبهةِ على

---

(١) تفسير الحسنات.

الأرض، وعندَ جمهورِ العلماءِ أنّ المرادَ به هو: السُّجودُ الاصطلاحيُّ، بمعنى: أنّ اللهَ تعالى أمَرَ الملائكةَ أن يَضعوا جِباهَهم على الأرضِ أمامَ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام[1].

فلو قيل: إنّ هذا السّجودَ أيضًا كان لله تعالى، ولم يكنْ سيِّدُنا آدمُ عليه السّلامُ سوى قِبْلةً في هذا الأمر، فإنّ هذا التوجيهَ ليس صحيحًا؛ لأنه لو كان هذا السّجودُ لله تعالى لَما رَفَضَه إبليسُ[2]، كما أنّ هذا السُّجودَ كان لإظهارِ تفوُّقِ سيِّدِنا آدمَ عليه السّلامُ في العِلم على الملائكة، ولو كان سيِّدُنا آدمُ في هذا الأمرِ مجرَّدَ قِبْلةٍ فإنه لا يَثبُتُ تفوُّقُ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ على الملائكة، مثلَما سَجَد النبيُّ ﷺ إلى الكعبة، ولكنّ الكعبةَ ليست أفضَلَ من النبيِّ ﷺ[3].

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾

١٠ـ خَلَقَ اللهُ تعالى سيِّدَنا آدمَ من الطِّين، والملائكةَ من النُّور، وإبليسَ والجانَّ من نارٍ، وكان أمرُ السُّجودِ يَسْري على إبليسَ لمُلازمتِه للملائكة، وحينَ لم يَسجُدْ سألَهُ الله تعالى عن سببِ عَدَم سجودِه، فأجابَ بقوله: إنه أفضَلُ من آدم؛ لأنّ آدمَ خُلِق من التراب، بينَما خُلقَ إبليسُ من النار، في حينَ أنّ الأفضَليَّةَ لا تكونُ بسببِ الشيءِ الذي خُلِق منه، أو بسببِ انتمائه إلى عِرقٍ بعَيْنِه، وإنّما الأفضَليَّةُ تكونُ باتِّباع أوامرِ الله تعالى.

---

(١) «قال الجمهور: كان هذا أمرًا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة؛ كان ذلك السجود تكريمًا لآدم وإظهارًا لفضله». تفسير القرطبي، سورة البقرة (٢): الآية ٣٤.

(٢) «إذ لو كان لله تعالى لما امتنع عنه إبليس» تفسير النسفي، سورة البقرة(٢): الآية ٣٤.

(٣) «لو كان قبلة لما حصلت هذه الدرجة، بدليل أن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي إلى الكعبة ولم يلزم أن تكون الكعبة أفضل من محمد صلى الله عليه وآله وسلم». التفسير الكبير، سورة البقرة (٢): الآية ٣٤.

إبليس: من الجنّ أم من الملائكة؟

هناك اختلافٌ فيما إذا كان إبليسُ من الملائكةِ أم من الجنِّ، لكنّ الحقيقةَ هي أنه ليس من الملائكة، وإنّما كان من الجنِّ؛ لأنّ هذا النصَّ قَطْعيُّ الدَّلالةِ بأنّ إبليسَ كان من الجنِّ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]، كما أنّ الملائكةَ معصومونَ، في حينَ أنّ إبليسَ عصَى اللهَ تعالى، والملائكةُ مخلوقاتٌ نُورانيَّة، بينَما إبليسُ مخلوقٌ من النار، ولا أولادَ للملائكة، وللجنِّ قبيلةٌ وأولاد.

لقد أسْكَن اللهُ تعالى الجنَّ على الأرضِ قبلَ الإنسان، وحينَ أشاعوا الفسادَ والقتلَ بسببِ الحِقدِ والكراهيَةِ والعِنادِ فيما بينَهم، عندَئذٍ أمَرَ اللهُ تعالى الملائكةَ بطَرْدِهم إلى الغاباتِ والجبال، وكان إبليسُ من بينِ أولئك الجنِّ، وكان لا يزالُ صغيرًا في ذلك الوقت، وأخَذه الملائكةُ معَهم، وهكذا كان يعبُدُ اللهَ معَ الملائكة، ومن هنا شمِلَه الأمرُ بالسُّجودِ أيضًا معَ الملائكة[١].

أقام إبليسُ مع الملائكة ثمانينَ ألفَ (٨٠,٠٠٠) عام، وظلَّ يَعِظُ الملائكةَ عشرينَ ألفَ (٢٠,٠٠٠) عامًا[٢]، وكان سيد السماء الدنيا[٣]، كما أنه كان مرشدًا للملائكة، ويَفُوقُ عِلمُه عِلمَهم، وكان يعبُدُ اللهَ تعالى على الأرضِ أحيانًا، وفي

---

(١) «إنه من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة، فسبوه صغيرًا، وتعبد مع الملائكة وخوطب معهم». تفسير البحر المحيط، سورة البقرة (٢): الآية ٣٤.

(٢) «إنّ إبليس اللعين كان مع الملائكة ثمانين ألف سنة، ووعظ الملائكة عشرين ألف سنة». حاشية الصاوي على الجلالين، سورة البقرة (٢): الآية ٣٤.

(٣) «كان ابليس رئيس ملائكة سماء الدنيا». تفسير الدر المنثور، سورة البقرة (٢): الآية ٣٤.

السّماءِ أحيانًا، وفي الجنَّةِ أحيانًا أخرى، ولهذا أصابه الغُرورُ معتقِدًا أنه أفضَلُ من الملائكة[(١)].

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، أي: أنّ الشَّيطانَ لا يَظهَرُ لكم، لكنّه يَراكُم في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكان، ويَعلَمُ ما يثُورُ في أعماقِ قلوبِكم من أفكارٍ وتصوُّرات، حتّى إنه كان يَعلَمُ بمنام نبيِّ الله الجَليل سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، والذي جاءت فيه الإشارةُ إلى ذَبْح سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام. هذا، وبعضُ الجنِّ مسلمونَ، لكنّ الشَّياطينَ قبيلةٌ من الجنِّ لم تُسلِمْ، وكلُّ الشّياطين أولادُ إبليسَ وهو أبوهم[(٢)].

عناد الشّيطان وصلفه

ذاتَ مرّةٍ لقيَ الشّيطانُ سيِّدَنا موسى عليه السَّلام، فقال له: **«يا موسى، أنت الذي اصطفاك اللهُ برسالاتِه وكلَّمك تكليمًا، إذا تُبتُ ـ وأنا أريدُ أن أتوبَ ـ فاشفَعْ لي إلى ربِّي أن يتوبَ علَيَّ، قال موسى عليه السَّلام: نعَمْ، فدعا موسى عليه السّلامُ ربَّه، فقيل: يا موسى، قد قُضِيَتْ حاجتُك، فلقيَ موسى عليه السَّلامُ إبليسَ وقال: قد أُمِرْتَ أن تَسجُدَ لقبرِ آدمَ عليه السَّلامُ ويُتابُ عليك، فاستكبَرَ وغَضِب وقال: لم أسجُدْ له حيًّا، أأسجُدُ له مَيْتًا؟»**[(٣)].

---

(١) «وكان رئيسهم ومرشدهم وأكثرهم علمًا، فكان يعبد الله تارة في الأرض وتارة في السماء وتارة في الجنة، فدخله العجب وقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا الملك إلا لأني أكرم الملائكة». تفسير الخازن، سورة البقرة (٢): الآية ٣٤.

(٢) «هو أبوالشياطين: فرقة من الجن لم يؤمن منهم أحد». حاشية الصاوي على الجلالين، سورة البقرة (٢): الآية ٣٤.

(٣) تفسير الدر المنثور، سورة البقرة (٢): الآية ٣٨.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾

١١ـ طُرِد الشّيطانُ من الجنَّة بسببِ تكبُّرِه، ولهذا فإنّ الإنسانَ الذي يتكبَّرُ اليومَ سيلقى الذُّلَّ والهوانَ يومَ القيامة، ولن يَدخُلَ الجنّةَ، وقد قال النبيُّ ﷺ: **«مَن تواضَعَ للهِ درجةً رَفَعَه اللهُ درجةً حتّى يَجعَلَه في عِلِّيِّينَ، ومن تكبَّر على الله درجةً وَضَعه اللهُ درجةً حتّى يَجعَلَه في أسفلِ السّافلين»**[1].

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾

١٢ـ حيث يُحشَرُ الناسُ من قبورِهم يومَ القيامة، ولن يُصيبَهمُ الموتُ بعدَ ذلك أبدًا، وقد طَلَب الشّيطانُ أن يبقَى حيًّا حتّى ذلك اليوم حتى لا يأتيَه الموتُ، وقد أمهَلَه اللهُ تعالى بهذه الحياةِ الطويلة، لكنّه سيُصيبُه الموتُ أيضًا، ولهذا فإنّه عندما يهلِكُ كلُّ شيءٍ قُربَ يوم القيامة، سيَهلِكُ إبليسُ معَها هو الآخَرُ، وحين يُحيي اللهُ تعالى الناسَ جميعًا سيُحيي الشَّيطانَ كذلك.

ويمكنُ أن تكونَ الحِكمةُ من إمهالِ الشَّيطانِ هذه الحياةَ الطّويلةَ حتى يَختبرَ اللهُ تعالى عبادَه: مَن منهم سيكونُ عبدًا لله، ومن سيكونُ عبدًا للشَّيطان؟

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

١٣ـ كان للشيطانِ مكانةٌ مهمَّةٌ بيْنَ الملائكة، بل إنه كان واعظَ الملائكةِ ومُرشِدَهم، لكنّ حقدَه على سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ وحسَدَه إياه أَوصْلَه إلى التكبُّرِ والتمرُّد، بحيث أنه تحدَّى اللهَ تعالى بأنّني سأبذُلُ قُصارى جُهدي لإضلالِ بني

---

(١) مسند أحمد، ٣: ٧٦.

الإنسانِ ـ الذين لعنَتني بسببِ عدَم سجودي لهم ـ عن الطَّريقِ المستقيم، وسوف أوسوسُ لهم في قلوبِهم بحيث يكونُ أكثرُهم من الجاحدينَ لك، وعليه قال اللهُ تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وعلى أيّةِ حال، سأملأُ جهنّم بكَ وبالحَمْقى الذين اتَّبعوك.

يومَ القيامة سيَلومُ أهلُ جهنَّم الشّيطانَ بأنه هو الذي أضَلَّهم، وسيقولُ الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ ﴾

١٤ـ أمَرَ اللهُ تعالى سيِّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ والسيِّدةَ حوّاءَ عليها السَّلام بأنْ يَسكُنا الجنّةَ، وأن يأكُلا من حيثُ يرغَبانِ، لكنْ على أن لا يقتربا من تلك الشجرةِ المخصوصة، فوَسْوسَ الشيطانُ لهما ـ وكان حاقدًا على سيِّدِنا آدمَ عليه السّلام ـ أنّ الشّجرةَ التي مُنِعتُما من تناولِ ثمارِها لها خاصيَّةٌ هي أنّ من يأكُل من ثمارِها هذه تتولَّدُ لدَيْه صفاتُ الملائكة، أو يَخلُدُ في الحياة لا يُصيبُه الموتُ والفَناء، فإنْ أكلتُما من ثمارِها فسوف تَخلُدانِ في الجنَّة، وهي مكانٌ يسكُنُه عبادُ الله المقبولونَ المقرَّبون، وبالتالي ستعيشانِ أنتما أيضًا بالقُربِ من الله تعالى، كما أنّ الشّيطانَ أقْسَم أمامَهما أنه من مُحبِّي الخيرِ لهما، وكان سيِّدُنا آدمُ

والسيِّدةُ حوّاءُ عليهما السَّلام يظُنّانِ أنه لا يمكنُ لأحدٍ أن يُقسِمَ بالله كذبًا؛ لأنه لم يُقسِمْ أحدٌ باللهِ كذبًا قبلَ ذلك، لكنّ الشَّيطانَ هو أولُ تَعِسٍ يُقسِمُ بالله تعالى كذبًا، وهكذا خُدِع كلٌّ من سيِّدِنا آدمَ والسيدِّةِ حوّاءَ عليهما السَّلامُ بما قال، وأملًا في القربِ من الله تعالى نَسِيا حُكمَ الله تعالى، فأكَلا من ثمارِ تلك الشّجرة، معَ أنّهما لم يكونا يريدانِ الأكلَ منها مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، أي: عَهِدنا إلى آدمَ ألّا يقتربَ من تلك الشَّجرة، لكنَّه نَسِيَ عهدَنا، ولم نجِدْ له قَصْدًا لعصيانِنا.

وكان من نتيجةِ تناوُلِ ثمارِ تلك الشّجرةِ أنِ اختفَى عنهما اللِّباسُ النُّورانيُّ من الجنَّة، وانكشَفت عوراتُهما، ولم يكنْ أحدٌ منهما قد رأى عورتَه قبلَ ذلك، فاعتراهُما الخَجَلُ، وأخَذا يستُرانِ عوراتِهما بأوراقِ أشجارِ الجنَّة مثلَ أشجارِ التِّين وغيرِها، ويُعلَمُ من هذا أنّ سَتْرَ العورةِ من فِطرةِ البشَر، وسُنّةِ سيِّدِنا آدمَ والسيِّدةِ حواءَ عليهما السَّلام، وكشْفَهما من أعمالِ الشيطان.

لقد كان تناوُلُ ثمارِ تلك الشَّجرة خطأً في الاجتهاد من سيِّدِنا آدمَ والسيِّدةِ حوّاءَ عليهما السَّلامُ ونسيانًا منهما، ولم يكنْ ذنبًا؛ لأنّ الذَّنبَ هو: ما يرتكبُه الإنسانُ قاصدًا عصيانَ الله تعالى، بينَما ـ في حالةِ سيِّدِنا آدمَ والسيِّدةِ حَوّاءَ عليهما السَّلام ـ لم تكنْ هناك إرادةُ العصيان، وإنّما كان الأمرُ نسيانًا، وهذا لا يُنافي عصمةَ الأنبياء، ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح راجعْ حاشيةَ الآية رقم ٣٦ من سورة البقرة.

وهنا يبرُزُ سؤالٌ فَحْواهُ: أنه إذا لم يكنْ هذا ذنبًا من سيِّدِنا آدمَ والسيّدةِ حَوّاءَ عليهما السّلام، فلماذا عوقبا إذًا؟ أي: لماذا كُشِفت عوراتُهما وأُخْرِجا من الجنّة؟ والجوابُ عن هذا: أنّ هذا كان نتيجةَ تناولِ ثمارِ تلكم الشَّجرةِ وأثرًا من آثارِه، ومثالُ ذلك: أنه إذا تناوَلَ أحدٌ السُّمَّ ناسيًا، فإنّ فعلَه هذا ليس ذنبًا، لكنّ

موتَه بعدَ تناوُلِ السُّمِّ نتيجةٌ حَتْميَّةٌ له، وبنفس الطريقة فإنّ اللهَ تعالى قد جَعَل في تناوُلِ ثمارِ تلك الشجرةِ أثرًا هو أنّ مَن يأكلُ منها يَعْرَى، سواءٌ أكلَ منها ناسيًا أم عامدًا، وهكذا ظَهَر أَثَرُها. أمّا مسألةُ إخراجِهما من الجنَّةِ إلى الأرض فإنّهما كانا سيُنزَلانِ إلى الأرضِ على أيّةِ حال؛ لأنّ اللهَ تعالى خَلَقَهما أصلًا لذلك، أي: لكي يكونَ سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ خليفةً لله في الأرض، مثلَما قال اللهُ تعالى لملائكتِه قبلَ أن يَخلُقَ سيِّدَنا آدمَ عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم **٣٥** للآية رقم **٣٧** من سورة البقرة.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

١٥ـ دعا سيِّدُنا آدمُ والسيّدةُ حوّاءُ عليهما السَّلامُ اللهَ أن يَغفِرَ لهما هذه الهَفْوةَ، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم **٣٣، ٣٤** من سورة البقرة.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾

١٦ـ لقد أبقَيْناكَ في الجنّةِ على سبيل الابتلاءِ والتّجربةِ المؤقّتة، وإلّا فإنّك قد خُلِقتَ لتكونَ خليفةَ الله في الأرض، ولهذا اذهَبْ إلى الأرض، وستعيشُ أنت وذرِّيتُك عليها لمدةٍ محدَّدة، ثم تموتونَ، وستُبعَثونَ يومَ القيامة من هذه الأرض.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا

جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾

١٧ـ لقد زال لِباسُ الجنَّةِ عن سيِّدِنا آدمَ والسيِّدة حَوّاءَ عليهما السَّلامُ بسببِ أكلِهما من ثمارِ الشَّجرةِ الممنوعة، وقد نَدِما على هذا وأخَذا يَستُرانِ عوراتِهما بأوراقِ الأشجار، وهكذا أحسَنَ اللهُ تعالى إلى أولادِ آدمَ، وأنْزَلَ المطَرَ من السَّماء، فأَخْرجَ من الأرضِ أشياءَ تُصنَعُ منها الملابسُ، ولهذه الملابسِ ثلاثُ فوائدَ، الأُولى: أنه يَستُرُ بها العوراتِ، وهذا تميُّزٌ للإنسانِ وتكريمٌ له، إذ إنّ عوراتِ الحيَواناتِ تكونُ مكشوفةً في الغالب، وليس لدى أيٍّ منها الوعيُ بأنّ العَوراتِ تُستَر، والثانية: أنّها وسيلةٌ للتزيُّن والتَّجمُّل، إذْ إنّ الإنسانَ يبدو مهذَّبًا وجميلًا بالملابس، والثالثة: أنّها تَحمي الإنسانَ من مخاطرِ البرودةِ والحرارة، مثلَما يَحمي الرِّيشُ الطُّيورَ من الحرِّ والبرد، وهكذا تَحمي الملابسُ الإنسانَ من الآثارِ السَّلبيَّة للطَّقس.

وهناك لباسٌ رُوحانيٌّ ومعنَويٌّ أيضًا بالإضافةِ إلى اللِّباس الجِسْمانيِّ الظَّاهريِّ، وهو لباسُ التقوى، أي: لباسُ الأعمالِ الصّالحة، وهو لباسٌ أفضَلُ من اللِّباس الظاهريِّ؛ لأنه إذا كان لباسُ أحدٍ الظاهريُّ جميلًا وثمينًا، لكنّ أعمالَه شيطانيّةٌ وظالمة، فهو ـ في الحقيقة ـ حيَوانٌ مفترِسٌ مُخْتفٍ وراءَ ملابسِ بشَر. على أيّة حال،

فإنّ تدبيرَ أمرِ اللِّباس، ومَنْح الإنسانِ الشعورَ باستعمالِه، بمثابةِ علامةٍ على فَضْلِ الله وكَرمِه، حتى يعتبرَ الإنسانُ، بمعنى: أن يتجنَّبَ الفُحشَ عن طريق الملابسِ الظاهريَّة، وأن يَنْجوَ بنفسِه من سُوءِ السلوكِ عن طريقِ الملابسِ المعنَويَّة الرُّوحانية.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ ﴾

١٨- حَذَّر اللهُ تعالى بني البشَرِ جميعًا بأنّ الشّيطانَ عدوٌّ لكم، وفي نفسِ الوقتِ لا يَظهَرُ لكم، ولا ترَوْنَه، ولكنّه يَراكُم في كلِّ وقت، وفي كلِّ مكان، ويَعرِفُ ما تعزِمونَه في قلوبِكم أيضًا، وهو لا يأتيكم في صورةِ الشَّيطانِ والعدوِّ، وإنّما يأتيكم في صُورةِ الصَّدِيق والمُحِبِّ، فيَخدَعُكم بهذا، ولذا عليكم أن تبذُلوا قصارى جُهدِكم في اجتنابِ وَسْوستِه وفتنتِه.

لقد أعطى اللهُ تعالى الشّيطانَ قوةً تُمكِّنُه من معرفةِ حتى تلك الأفكارِ التي تَثُورُ في أعماقِ قلبِ الإنسان، لدرجةِ أنه كان مطَّلعًا على منام النبيِّ الجليلِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام الذي جاءت فيه الإشارةُ إلى ذَبْح سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام، فإذا كان عِلمُ الشَّيطانِ الذي يُضِلُّ الناسَ بهذه الوُسْعة، فكيف بوُسعةِ عِلم الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ الذين هم أفضَلُ من الجنِّ والملائكةِ وبني الإنسانِ جميعًا، ويُخرِجونَ الناسَ من ضلالِ الشّياطينِ إلى نُورِ الهداية؟

قال سيِّدُنا ذو النُّون المِصريُّ رحمةُ الله عليه: «**إنْ كان هو يراكَ من حيثُ لا تراه فاستعِنْ بمَن يَراهُ من حيث لا يَراه، وهو اللهُ القهَّارُ السَّتّار**»[1]. أعوذُ بالله من الشّيطانِ الرَّجيم، يا إلهي، أعِذْني من الشّيطانِ الرَّجيم، آمين.

(١) التفسير المظهري، سورة الأعراف (٧): الآية ٢٧.

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

١٩ـ كان رجالُ المشركينَ ونساؤهم يطُوفونَ بالبيتِ العتيقِ عَرايا، وكانوا يقدِّمونَ الأدِلّةَ التاليةَ على صحةِ هذا الفُحش الذي يفعَلون:

١ـ من الأدِلّةِ التي كانوا يقدِّمونَها أنّ آباءهم وأجدادَهم كانوا يفعَلونَ هذا، مع أنّ عملَ الآباءِ والأجدادِ ليس دليلًا على صحةِ فعْلٍ يقومونَ به، فيقتنعُ به من كان لديه عقلٌ من الناس، وقد مَنَع اللهُ تعالى من تقليدِ الجاهلينَ والحَمْقى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فهل ـ معَ ذلك ـ يُصِرُّونَ على تقليدِ آبائهم وأجدادِهم؟

٢ـ وكان دليلُهم الثاني هو: أنّ اللهَ تعالى أمَرَهم بفعلِ هذا، وهو كذبٌ مَحْض، فاللهُ تعالى لا يَأمُرُ بفُحشٍ، كما أنّ مشركي مكّةَ لم يكونوا يؤمنونَ بأيِّ نبيٍّ ولا بأيِّ كتابٍ سَماويٍّ، فكيف وَصَل إليهم هذا الحُكمُ من اللهِ تعالى؟

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

٢٠ـ أمَرَ اللهُ تعالى بالعدلِ والإنصاف، وأن يتوجَّهَ الناسُ إلى الكعبةِ في صلاتِهم، وأن يعبُدوا اللهَ تعالى للحصولِ على رضاهُ فقطْ، وأيضًا أن يكونوا على يقينٍ من أنّ اللهَ تعالى كما خَلَقَكم في هذه الدُّنيا، سيَبعَثُكم من جديدٍ يومَ القيامة، وسوف يحاسبُكم طِبقًا لأعمالِكم.

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

٢١ـ الذين اتَّبَعوا أحكامَ اللهِ تعالى فقدِ اهتَدَوا، والذين تَرَكوا اللهَ تعالى وأطاعوا

الشياطين فقد ضَلُّوا على وجهِ اليقين، واعتقادُهم بأنّهم على صوابٍ ومهتَدُونَ خاطئٌ تمامًا.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾

٢٢- زَيِّنوا أجسادَكم عندَ كلِّ صلاةٍ بالملابسِ النَّظيفةِ الجميلةِ الطاهرة، ولا تُضايِقوا المصَلِّينَ الآخَرينَ بملابسِكم المنفِّرة ذاتِ الرائحةِ الكريهة، بمعنى: أنّ سَتْرَ العورةِ واجبٌ في كلِّ وقت وليس عندَ الصلاةِ فقط، أمّا ذِكرُ الصَّلاةِ هنا فلأنّ المشركينَ كانوا يخلَعونَ ملابسَهم عندَ الطَّوافِ بالكعبة.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾

٢٣- يقولُ العلّامةُ الألُوسيُّ: «**قال طبيبٌ نَصْرانيٌّ لعليِّ بن الحُسَين بن واقِد: ليس في كتابِكم من عِلم الطبِّ شيءٌ والعِلمُ عِلمان: عِلمُ الأبدان وعِلمُ الأديان، فقال له: قد جَمَع اللهُ تعالى الطبَّ كلَّه في نصفِ آيةٍ من كتابه، قال: وما هي؟ قال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾، فقال النَّصرانيُّ: ولا يُؤْثَرُ من رسولِكم شيءٌ في الطبِّ؟ فقال: قد جَمَع رسولُنا صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم الطبَّ في ألفاظٍ يسيرة، قال: وما هي؟ قال: قولُه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «المَعِدةُ بيتُ الدّاء والحِمْيةُ رأسُ كلِّ دواء، وأعطِ كلَّ بدَنٍ ما عوَّدْتَه»، فقال: ما تَرَك كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوسَ طبًّا**»[١].

بمعنى: أنه جَمَع في هاتَيْنِ الجُملتَيْنِ مبادئَ الطبِّ بطريقةٍ وَعَتْ معَها طبَّ جالينوسَ أيضًا، وخُلاصةُ هذا: أنّ على الإنسانِ أن يحتاطَ في طعامِه وشرابِه حتى تبقَى مَعِدتُه في حالةٍ جيِّدة، ويتَجنَّبَ بذلك الأمراض.

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الأعراف (٧): الآية ٣١.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

٢٤ـ كان المشركونَ يخلَعون ملابسَهم عندَ الطَّوافِ حولَ الكعبة، ويُحرِّمونَ على أنفسِهم تناوُلَ اللُّحوم والسَّمنِ أيامَ الحجِّ، وعليه قال اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ: إنّ اللهَ تعالى لم يُحرِّم اللِّباسَ الجميلَ ولا الطَّعامَ الطاهرَ، إذْ إنّ اللهَ تعالى قد خَلَق هذه الأشياءَ لعبادِه، ويمكنُ للمسلم ولغيرِ المسلم في هذه الدُّنيا أن يستفيدَ منها كلٌّ حسَبَ استطاعتِه، بل إنّ الأغلبَ هو أنّ غيرَ المسلمينَ يحصُلونَ على أكثرِها؛ لأنّ هدفَهم في الحياة محدودٌ على هذه الدُّنيا فقطْ، بينَما أهلُ الإيمانِ يستعِدُّونَ للآخِرة أيضًا وهم يعيشونَ في هذه الدُّنيا، لهذا فإنّهم لا يَحصُلونَ على الكثيرِ من هذه الأشياء، وفي الآخِرة ستكونُ هذه الأشياءُ قاصرةً على أهلِ الإيمانِ فقط، وسيكونُ هذا أَجْرَ

إيمانِهم، ولن يُشاركَهم فيه المشركونَ؛ لأنّ هذه النِّعَمَ تكونُ في الجنّة وهم لا يَدخُلونَ الجنَّةَ، كما أنّهم لا يستطيعونَ العودةَ إلى الدُّنيا ثانيةً.

حكم الإسلام فيما يتعلّق باللّباس

يجبُ أن يَرتديَ الرجلُ المسلمُ والمرأةُ المسلمةُ الملابسَ النَّظيفةَ الطاهرةَ كلٌّ حسَبَ استطاعتِه، بحيث تَجعَلُه هذه الملابسُ جميلًا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ تستُرُ عورتَه سترًا كاملًا، وبطريقةٍ مهذَّبة، والإسلامُ دينُ الفِطرة، ويحبُ الاعتدالَ في كلِّ الأمور، ولهذا جاء في الأحاديثِ النَّبويّةِ الشَّريفة ترغيبٌ للأثرياءِ في استعمالِ الملابسِ التي لا تكونُ باهظةَ الثمن، حتى يكونَ ذلك إظهارًا للتواضُع في حضرةِ الله تعالى، وفي نفسِ الوقتِ حَثَّـهم على التصَدُّقِ بالملابسِ الغالية، وزيادةِ كفالةِ الفقراءِ والمحتاجين، ومن جانبٍ آخَرَ سَمَح للأَثْرياءِ بارتداءِ الملابس الغاليةِ أيضًا ليكونَ هذا إظهارًا لنِعَم اللهِ عليهم، معَ ضرورةِ تجنُّبِ الرِّياءِ والتكبُّرِ في كلِّ حال، وإليكَ - في هذا الخصوص - بعضَ الأحاديثِ الشّريفةِ فتدبَّرْها:

١- قال رسولُ الله ﷺ: **«لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قلبِه مثقالُ ذرّةٍ من كِبْرٍ»، قال رجُل: إنّه يُعجِبُني أن يكونَ ثوبي حسَنًا ونَعْلي حسنةً، قال: «إنّ اللهَ يحبُّ الجمال، ولكنّ الكِبْرَ مَن بَطَر الحقَّ وغَمَضَ النّاسَ»**[1].

٢- **عن أبي الأحوَص، عن أبيه، قال: أَتيْتُ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في ثوبٍ دُونٍ، فقال: «ألكَ مالٌ؟»، قال: نعم، قال: «من أيِّ المال؟»، قال: قد آتانيَ اللهُ من الإبِل والغَنَم والخَيْل والرَّقيق، قال: «فإذا آتاك اللهُ مالًا فلْيَرَ أَثَرَ نعمةِ الله عليكَ وكرامتَه»**[2].

---

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ٦١.

(٢) أبوداود، برقم ٤٠٦٣.

٣ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ اللهَ يُحِبُّ أن يرى أثَرَ نعمتِه على عبدِه»[١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

٢٥ـ الأُمّةُ التي لا تتعلَّمُ من أخطائها، وتبقَى دائمًا في تراجُع وتخلُّف، سيأتي عليها ـ في نهاية المطاف ـ ساعةُ عذابٍ لا يمكنُ التقديمُ أو التأخيرُ فيها ولو للمحةٍ:

- **إنّ فَتْوى قاضي الأقدارِ منذُ الأزل، أنّ عقابَ الضُّعفِ هو موتُ الفُجاءة.**

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

٢٦ـ مِثلُ هذا المفهوم وَرَد قبْلَ ذلك في الآيتَيْنِ رقم ٣٨ و٣٩ من سورة البقرة، بمعنى: أنه حينَ هَبَط سيِّدُنا آدمُ والسيِّدةُ حوّاءُ عليهما السَّلامُ إلى الأرض فإنّ اللهَ تعالى قد أرشَدَ بني آدمَ جميعًا ـ عن طريقِهما ـ بأنه حين يأتي إليكم رُسُلي يُبيِّنونَ لكم آياتي، فإنّ من يعمَلُ طبقًا لهذه الآياتِ، فلا خوفٌ عليهم في الآخِرة ولا هم يحزَنون، ومن يُكذِّبُ بآياتي فإنه سيُخلَّدُ في نار جهنَّم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾

٢٧ـ الذين يُكذِّبونَ بآياتِ الله تعالى ويفترُونَ عليه الكذبَ هم الأكثرُ ظُلمًا، وحينَ يقضي هؤلاءِ الوقتَ المقرَّرَ لهم في الحياة ويأتيهمُ الموتُ، فإنّ الملائكةَ ستعنِّفُهم قائلينَ لهم: أين آلهتُكم الذين كنتُم تعبُدونَ من دونِ الله؟ ادعُوهُم ليُنقِذوكم من عذابِ القبرِ والحَشْر، ولكنَّهم لن يَجِدوهم أبدًا، ولن يَجِدوا سوى الظلام والعذابِ يحيطُ

(١) الترمذي، أبواب الأدب، باب ٥٤.

بهم من كلٍّ جانب، وعندئذٍ سيُصيبُهمُ اليأسُ، وسيَشهَدونَ على أنفسِهم، وسيُضْطَرُّونَ إلى الاعترافِ بأنّهم بالفعل اختاروا الكُفرَ لأنفسِهم، فقَضَوْا بذلك على آخِرتِهم.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾

٢٨- الأُممُ التي كذَّبت بآياتِ ربِّها حين يَأمُرُ اللهُ تعالى يومَ القيامة بإدخالِها في نارِ جهنَّم، تستغيثُ بالأُمم التي سبَقَتْها، متَّهمةً إيّاها مثلَما يتَّهِمُ المتَّبِعونَ منِ اتَّبَعوهم قائلينَ: ربَّنا، هؤلاءِ الكُبَراءُ والسَّادةُ هم الذين أضَلُّونا، فضاعِفْ لهمُ العذابَ اليومَ: عذابًا لضلالِهم، وعذابًا لإضلالِهم لنا. وهنا يقولُ اللهُ تعالى: اليومَ عذابُ كلٍّ منكم مضاعَفٌ؛ لأنّهم إنْ كانوا أرشَدوكم إلى الطَّريقِ الخاطئ، فهل كنتُم أنتم عُمْيانًا حتى تتَّبِعوهم وتُطيعوهم؟ ولهذا فإنّ جُرمَكم مضاعَفٌ أيضًا: جُرمٌ لضلالِكم، وجُرمٌ لتقليدِكم الأعمى لمَن أضَلُّوكم.

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾

٢٩- حينَ يَستغيثُ المتَّبِعونَ مطالِبينَ بعذابٍ مضاعَفٍ لمنِ اتَّبعُوهم، فإنّ هؤلاءِ الذين اتُّبِعوا أيضًا سيقولونَ لمنِ اتَّبَعوهم: إنّ جُرمَنا نحن وأنتم واحدٌ؛ لأنّنا إذا كنا أجرَمْنا بدعوتِكم إلى الضَّلال، فأنتم أيضًا أَجْرمتُم بقَبولِكم الضَّلالَ، وبالتالي لستُم أفضَلَ منّا في شيءٍ، ونحن جميعًا نستحقُّ العقاب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

٣٠ـ الذين كذَّبوا بآياتِ ربِّهم ورَفَضوا الإيمانَ بها، لن تستطيعَ أرواحُهم بعدَ الموتِ الصُّعودَ فوقَ السماء؛ (لأنّ أرواحَ الصّالحينَ فقطْ هي التي يُمكنُها ذلك)، ولن تستطيعَ أن تَدخُلَ الجنّةَ يومَ القيامةِ أيضًا، بل إنّ دخولَها الجنّةَ سيصبحُ منَ المستحيل مثلَما يكونُ منَ المستحيلِ أن يَمُرَّ الجمَلُ من ثُقْبِ الإبرةِ الدَّقيق، ولهذا فإنّها ستبقى في نارِ جهنَّم، وستكونُ النِّيرانُ هي فراشَها وغطاءَها، بمعنى: أنّ النارَ ستحيطُ بها من كلِّ جانب.

بعض الأحاديث المتعلّقة بعدم فتح أبواب السّماء للكفّار

• عنِ البراءِ بن عازبٍ رضي اللهُ عنه، قال: خَرَجْنا معَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في جَنازةِ رجُلٍ من الأنصار، فانتهَيْنا إلى القبرِ ولمّا يُلحَدْ، فجلَسَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وجَلسْنا حولَه، فقال: «استعيذوا باللهِ من عذابِ القبر»،

مرَّتَيْنِ أو ثلاثًا، ثم قال: «إنّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا نَزَل إليه ملائكةٌ من السّماءِ بيضُ الوجوه، ثمّ يجيءُ مَلَكُ الموتِ عليه السّلامُ حتّى يجلسَ عند رأسِه، فيقول: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبة، اخرُجي إلى مغفرةٍ من اللهِ ورضوانٍ، فيَصعَدونَ بها إلى السّماءِ الدُّنيا ويَستفتحونَ له، فيُفتَحُ لهم فيُشيِّعُه مِن كلِّ سماءٍ مقرَّبوها إلى السَّماءِ الّتي تَليها حتّى ينتهيَ به إلى السّماءِ السّابعة، فيقولُ اللهُ تعالى: اكتُبوا كتابَ عبدي في عِلِّيِّينَ وأعيدوهُ إلى الأرض، فإنّي منها خلقتُهم وفيها أُعيدُهم ومنها أُخْرِجُهم تارَةً أخرى، قال: فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِها، فيأتيه مَلَكانِ فيُجلِسانِه فيقولانِ له: من ربُّك؟ فيقول: ربّيَ الله، فيقولانِ له: ما دِينُك؟ فيقول: دينيَ الإسلام، فيقولانِ له: ما هذا الرّجُلُ الّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلّم، فيقولانِ له: وما عَمَلُك؟ فيقول: قرَأْتُ كتابَ الله فآمَنْتُ به وصَدَّقتُ، فيُنادي مُنادٍ من السَّماءِ أنْ صَدَقَ عبدي فافرِشوا له من الجنّةِ وألبِسوه من الجنّةِ وافتَحوا له بابًا إلى الجنّة. وإنّ العبدَ الكافرَ إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا نَزَل إليه من السّماءِ ملائكةٌ سُودُ الوجوه، ثمّ يجيءُ مَلَكُ الموتِ عليه السّلامُ حتّى يجلسَ عندَ رأسِه فيقول: أيَّتُها النّفْسُ الخبيثةُ اخْرُجي إلى سَخَطٍ من الله وغَضَب، فيَصعَدونَ بها إلى السّماءِ الدّنيا فيُستفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ويقولُ اللهُ تعالى: اكتُبوا كتابَه في سِجّينٍ في الأرضِ السُّفلَى، فتُطرَحُ رُوحُه طرحًا، فتُعادُ روحُه في جَسَدِه ويأتيه مَلَكانِ فيُجلسانِه فيقولانِ له: مَن ربُّك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولانِ له: ما دينُك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولانِ له: ما هذا الرّجُلُ الّذي بُعِث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيُنادي مُنادٍ من السّماءِ أنْ كَذَب فافرِشوا له من النّارِ وافتَحُوا له بابًا إلى النّار، فيأتيه مِن حرِّها وسَمُومِها ويُضيَّقُ عليه قبرُه»[1].

---

(١) مسند أحمد، ٤: ٢٨٧، وكتب أخرى للحديث والتفسير.

• **قال رسولُ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ أحدَكم إذا مات عُرِض عليه مَقْعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ، إن كان من أهلِ الجنّة فمِن أهل الجنّة، وإن كان من أهلِ النّارِ فمِن أهلِ النّار، فيقال: هذا مَقْعَدُكَ حتّى يَبْعثَكَ اللهُ إلى يومِ القيامة»**[١].

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾

٣١ـ الذين يؤمنونَ بآياتِ اللهِ تعالى، ويعمَلونَ الصَّالحات، سيَدخُلونَ الجنّةَ، وإن كانت لديهِم في الدُّنيا بعضُ أحاسيسِ البُغْض والعَداوةِ بعضِهم لبعضٍ لسببٍ من الأسباب، فإنّ الخلافَ الذي بينَهم تتِمُّ إزالتُه قبلَ دخولِهمُ الجنَّة، ويصبحونَ جميعًا أصدقاءَ مُحِبِّينَ مُخلِصينَ بعضهُم لبعضٍ، ثم يَدخُلونَ الجنة. ولمّا قرأَ سيِّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه هذه الآيةَ قال: «**إنّي أرجو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطلحةُ والزُّبَيْرُ من الذين قال اللهُ تعالى فيهم**»[٢]، بمعنى: أن يُزيلَ اللّٰه تعالى يومَ القيامة من قلوبنا كلَّ سُوءِ فَهْم أو عتابٍ، وهو ما كان قد تولَّد بسببِ استشهادِ سيِّدِنا عثمانَ رضيَ اللهُ عنه، حتى وَصَل الأمرُ إلى الحرب.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

٣٢ـ عندَما يدخُلُ الصّالحونَ الجنَّةَ سيؤدُّونَ الشُّكرَ لله تعالى الذي جَعَلَهم مستحِقِّينَ لها برحمتِه وهدايتِـه، وسيُنادَى عليهم من الحضرةِ الإلهيَّةِ بأنّ هذا من بَركةِ أعمالِكُم الصّالحةِ التي جَعَلَتْكم تَرِثونَ الجنّةَ، ورَغْمَ أنّ السَّببَ الظاهرَ لدخولِ الجنّة هو الأعمالُ الصّالحة، لكنّ السَّببَ الحقيقيَّ هو فَضْلُ الله تعالى وكرَمُه؛ لأنّ التوفيقَ إلى الأعمالِ الصّالحة لا يتأتّى إلّا بفَضْلِ الله وكرَمِه:

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٩ برقم ١٣٧٩.

(٢) تفسير ابن كثير.

• إنّ الشَّوقَ بداخلي (إي: إلى فعلِ الخير) من فَضْلِه وكَرمِه أيضًا، فهذه القَدَمُ لا تنهَضُ بذاتِها، وإنما تنهَضُ بفضلِه هو.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٣٣- بعضُ الذين يدخُلونَ الجنَّةَ سيأتونَ إلى حافَتِها وينظُرونَ إلى جهنَّم، فيَعرِفونَ بعضَ مَن فيها من الظالمينَ الذين كانوا يؤْذُونَهم في الحياةِ الدُّنيا، ويَسخَرونَ من الإسلام، فيُنادُونَهم قائلينَ: إنّ اللهَ تعالى قد أعطانا في الجنّةِ النِّعمَ التي كان قد وَعدنا بها، وقد وَعَدَكم اللهُ بالعذاب، فهل وَجَدتُم هذا العذابَ؟ وعندَئذٍ يعتريهمُ الخَجَلُ الشَّديد ولا يَملِكونَ إلّا أن يقولوا: نعَمْ؛ لأنّهم في ذلك الوقتِ يكونونَ في عذابٍ شديدٍ فعلًا، ثم يُنادي مُنادٍ بيْنَ أهل الجنّةِ وأهل جهنَّم مُعلِنًا: أنّ لعنةَ الله تعالى قد حَلَّت بأهل جهنَّمَ لأنّهم كانوا ظالمين، ويَمنَعونَ الآخَرينَ من صراطِ الله تعالى، وكانوا يحاولونَ بشتَّى الطُّرقِ البحثَ عن نقائصَ في الصِّراطِ المستقيم، كما كانوا يُنكِرونَ الآخِرةَ أيضًا.

بيْنَ الجنّةِ والنارِ مسافةٌ كبيرة، فكيف يمكنُ أن يتخاطبَ أهلُ الجنّةِ وأهلُ النارِ من هذه المسافةِ الكبيرة؟ ويُعلَمُ من مطالعةِ القرآنِ الكريم والأحاديثِ الشّريفةِ أنه سيَحدُثُ تغييرٌ في خصائصِ الإنسانِ وصفاتِه في الآخِرة، فعلى سبيل المثالِ: سيكونُ أهلُ الجنَّةِ جميعًا شبابًا، وسيبقَوْنَ شبابًا إلى الأبد، ولن تطرَأَ الشَّيخوخةُ على أحدِهم، ولن يَحتاجَ أحدٌ منهم إلى قضاءِ الحاجة، وهكذا أيضًا تزدادُ قوّةُ أسماعِهم وأبصارِهم بحيث يَرى أهلُ النارِ من هذه المسافةِ الكبيرةِ نِعَمَ الجنّةِ فيَشعُرونَ بالنَّدمِ الشّديد، ويَرى أهلُ الجنّةِ عذابَ النارِ من هذه المسافةِ الكبيرة فيشكُرونَ اللهَ تعالى على نِعَمِه.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾

٣٤- بيْنَ الجنّةِ والنّارِ حجابٌ، يقالُ للجُزءِ العُلويِّ منه: الأعرافُ، حيث

سيقفُ عليه بعضُ الناس، وجمهورُ المفسِّرينَ على أنّ هؤلاءِ هم الذين تتساوى حسَناتُهم مَع سيِّئاتِهم، فلم يدخُلوا الجنَّةَ بعدُ، لكنَّهم يأمُلونَ في دخولِها، وسيَعرِفُ أهلُ الأعرافِ أهلَ الجنّةِ وأهلَ النارِ من علاماتِهم، ومن هذه العلامات: أنّ أهلَ الجنّةِ سيكونونَ في الجنَّة، وأهلُ النارِ سيكونونَ في النار، ومنها أيضًا: أنّ وجوهَ أهلِ الجنّة تكونُ بِيضًا، بينَما تكونُ وجوهُ أهلِ النار سُودًا. على أيّة حال، عندما ينظُرُ أهلُ الأعرافِ إلى أهلِ الجنّة سيَدعُونَ لهم بالسَّلامة، وحين ينظُرونَ إلى أهل النارِ يَستعيذونَ من العذابِ الذي هم فيه.

وفي نهايةِ الأمر يَسمَحُ اللهُ تعالى ـ برحمتِه ـ لأهلِ الأعرافِ بدخولِ الجنَّة[1]، كما أنّ أهلَ الإيمانِ الذين تكونُ سيِّئاتُهم كثيرةً سيَدخُلونَ الجنّةَ أيضًا، ولكنْ بعدَ استكمالِ عقابِهم في جهنَّم، وبالتالي فإنَّ أهلَ الأعرافِ الذين تتساوى حسَناتُهم وسيِّئاتُهم لا بدَّ أنهم سيَدخُلونَ الجنّةَ قبلَهم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ

---

(١) «إنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمن استوت حسناتهم وسيئاتهم فقال: أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون، إنّهم عرفوا أهل الجنّة وأهل النّار، فإذا نظروا إلى أهل الجنّة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النّار وتعوّذوا بالله من منازلهم، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربّهم وقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنّة فإنّي قد غفرت لكم». تفسير ابن كثير.

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

٣٥ـ عندَما ينظُرُ أهلُ الأعرافِ إلى جهنَّمَ سيَعرِفونَ أبا جَهْلٍ وأبا لَهبٍ وأمثالَهما من الكفَّارِ المتكبِّرين، وذلك من خلالِ علاماتِهم وسِيماهُم الكُفْريَّة، فينادونَهم: أولئك الذين كنتُم تغتَرُّونَ بهم في الحياةِ الدُّنيا من البشَر ومنَ المالِ والثَّروة، فتَسخَرونَ من الإسلام معتمِدينَ عليهم، لن يُفيدَكم هؤلاءِ الناسُ بشيءٍ اليومَ، كما لن تفيدَكم أموالُكم وثرَواتُكم؛ لأنَّ الذي يُفيدُ في الآخِرة ليس التكبُّرَ بالمال والاغترارَ به، وإنما تَقْوى اللهِ تعالى.

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾

٣٦ـ كان أهلُ الدُّنيا والمتكبِّرونَ عندَما يرَوْنَ مساكينَ ومحتاجينَ، من أمثالِ: سيِّدِنا بلالٍ الحَبشيِّ وسيِّدِنا سَلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهما، يَكرهونَهم، ويقسمونَ قائلينَ: لو أنَّ اللهَ راضٍ عن هؤلاءِ الفقراءِ لَما كان هذا حالَهم من الفقرِ اليومَ، والحقيقةُ أنَّ اللهَ راضٍ عنَّا نحن، ولهذا فإنَّنا نعيشُ مُرفَّهِينَ مُستمتِعِينَ بحياتِنا اليوم، وفي الغدِ سنَدخُلُ الجنةَ أيضًا؛ وهكذا يُذكِّرُ أهلُ الأعرافِ المتكبِّرينَ من أهل النارِ بتُرَّهاتِهم وكذِبهم في الحياة الدُّنيا بأنَّ كلَّ ما كنتُم تَدَّعونَه قد جاء عكسَ ما ادَّعيْتُم، فقد أدخَلَ اللهُ تعالى هؤلاءِ المساكينَ الجنّةَ، بينَما أنتم تحترقونَ بنارِ جهنَّم.

ويُعلَمُ من هذا أنه لو أنَّ أهلَ الإيمانِ كانوا يعيشونَ في ضِيقٍ وعُسرٍ في الحياة الدُّنيا، والكفَّارُ في رَغَدٍ من العيش، فإنَّ هذا لا يعني ـ أبدًا ـ أنَّ اللهَ راضٍ

عن هؤلاء الكفّار؛ لأنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ تعالى يرضَى عن أولئك الذين يُطيعونَه فقط، سواءٌ كانوا موسِرينَ أم مُعسِرين.

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا ﴾

٣٧ـ نعَمْ، الجنّةُ في الآخِرة ستكونُ من نصيبِ أولئك السُّعَداءِ الذين عاشوا حياتَهم الدُّنيا طِبقًا لأحكام الله تعالى، أما الذين جَعَلوا من دينِهم لعبةً في أيديهم، أي: يَسخَرونَ منه، ويَستغرِقونَ في هذه الحياةِ الدُّنيا متناسِينَ حسابَ الآخِرة، فإنّ اللهَ تعالى سيتجاهلُهم يومَ القيامة ولا ينظُرُ إليهم عقابًا لهم، يعني: مثلَما فعلتُم في هذه الدُّنيا يُفعَلُ معَكم في تلكُم الدُّنيا (أي: الآخِرة).

﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾

٣٨ـ لقد أوضَحَ اللهُ تعالى في القرآنِ المَجِيد الحقَّ والباطلَ تمامًا، وبالرَّغْم من ذلك فإنّ أولئك الذين يتجاهلونَ القرآنَ ويُعرِضونَ عنه ينتظرونَ يومًا تقومُ فيه الساعة، ويَروْنَ بأعيُنِهم عقابَ جرائمِهم التي ارتكبوها، وعندَئذٍ سيؤمنونَ، معَ أنّهم حين يرَوْنَ مصيرَهم في ذلك اليوم يُضطَرُّونَ إلى الاعترافِ بصِدقِ رسالةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، وبالافتراءاتِ التي افترَوْها عليهم، ويتوسَّلونَ لو أنّ هناك أحدًا يشفَعُ لهم في هذا اليوم، أو أن يُعطَوْا فرصةً ثانيةً يعودونَ فيها إلى الدُّنيا فلا يَعصُونَ اللهَ تعالى فيها، ولكنّ وقتَ التَّوبة حينَئذٍ يكونُ قدِ انتهى، ولن يحصُلوا على شيءٍ سوى النَّدم، ومن هنا فإنّ مساندةَ الحقِّ اليومَ مفيدةٌ للغاية؛ لأنّ النَّدمَ في الغدِ لن يكونَ سوى هباءً منثورًا.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

٣٩ـ هنا يبرُزُ سؤالٌ فَحْواه: لماذا استغرقَ اللهُ تعالى ستةَ أيام في خَلْق السَّمواتِ والأرضِ في حينَ أنه القادرُ المطلَق، ويستطيعُ أن يَخلُقَ الكائناتِ كلَّها بمجرَّدِ قوله: «كُنْ» وفي لمحةٍ واحدة؟ ثم ما المرادُ باليوم هنا؛ لأنّ الشّمسَ لم تكنْ قد خُلِقتْ بعدُ، وهي التي يتعيَّنُ اليومُ بطلوعِها وغروبِها؟ وما المرادُ بتجلِّي اللهِ على العرشِ في حينَ أنه منزَّهٌ عن المكان؟

في الحقيقة، اللهُ وحدَه هو الذي يَعلَمُ الحِكمةَ في كلِّ هذه الأمور، إذْ إنه لا يَخْلو فعلٌ من أفعالِه من الحِكمة، فإذا لم تستطعْ عقولُنا استيعابَ حِكمةٍ من حِكَمِه في أفعالِه، فإنّ من الفَرْض علينا أن نؤمنَ به دونَ أدنى تردُّد.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾

٤٠ـ اللهُ تعالى ليس خالقَ الكائناتِ فقطْ، وإنّما هو أيضًا مالكُها وحاكمُها،

وقد خَلَق اللَّيلَ والنَّهارَ وجَعَلَهما متعاقبَيْنِ، فإذا ما حَلَّ ظلامُ اللَّيل غابَ الضِّياء، وإذا ما أشرقَ ضوءُ النَّهارِ انقشَع ظلامُ اللَّيل، والشمسُ والقمرُ والنُّجومُ أيضًا كلُّها تابعةٌ لحُكمِه، ولا تعصيه أبدًا، ولكنّ اللهَ أعطَى الإنسانَ الحرِّيةَ ليختبرَه ويبتليَه، ولهذا ينبغي للإنسان أن يعمَلَ على أنْ يحيا حياتَه طِبقًا لأحكام الله تعالى.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾

٤١ـ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بيانٌ لآدابِ الدُّعاء:

١ـ التضرُّعُ إلى الله والدُّعاءُ بهدوءٍ وصوتٍ خافت، ولكنْ لا يعني هذا أنّ الدُّعاءَ بصوتٍ مرتفع وعلى الإعلانِ أمرٌ غيرُ صحيح، وإنّما العباداتُ كلُّها ـ على وَجْه الإجمالِ ـ تكونُ أحيانًا أفضَلَ في حالةِ الإخفاء، وأحيانًا يكونُ الأفضَلُ إعلانَها، ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الآيةَ رقم ٢٧١ من سُورة البقرة، وكذلك الحاشيةُ رقم ٢٣٢.

٢ـ لا نَسألُ اللهَ في دعائنا أمرًا حرامًا أو غيرَ جائزٍ، ولا نَصرُخُ في دعائنا بما يتجاوَزُ الحدَّ؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يحبُّ من يتعدَّى حدودَه.

٣ـ ينبغي لمن يَدعو اللهَ تعالى أن يحاولَ جاهدًا العمَلَ بسُنّةِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام؛ لأنّ من يخالفُهم يكونُ بمثابةِ من يُشيعُ الفسادَ في الأرض، وهو ما مَنَع اللهُ تعالى منَ ارتكابِه.

٤ـ ينبغي لمن يدعو اللهَ تعالى أن يَستشعرَ ـ في قلبِه ـ الخوفَ من غضَبِ اللهِ تعالى، والأملَ في رحمته؛ لأنّ الحالةَ ما بيْنَ الخوفِ والرَّجاءِ علامةٌ على الإيمان، ولمزيد من التفصيل راجع الآيةَ رقم ٣ من سورة الفاتحة، وكذا الحاشيةُ رقم ٦.

٥- الدُّعاءُ عندَ عبادِ الله الصَّالحينَ ومعَهم؛ لأنّ رحمةَ الله تعالى تكونُ قريبةً من عبادِه الصَّالحين، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الآيةَ رقم ٣٨ من سورة آل عِمران، وكذا الحاشية رقم ٢٠.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرًۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾

٤٢- في هذه الآيةِ الكريمةِ بيَّنَ اللهُ تعالى مثالًا لإحياءِ الموتى، يعني: الأرضُ اليابسةُ الميِّتةُ التي لا أَثَر لخُضرةٍ عليها، والغبارُ يتطايرُ حولَها من كلِّ مكان، فإذا ما أمطَرتْها رحمةُ الله بالغَيْث، نَبَتَت فيها الخُضرةُ وأَيْنَعتْ، وتراءَت الخُضرةُ في كلِّ مكان، وبنفسِ الطَّريقة فإنّ المخلوقاتِ جميعًا سيطرأُ عليها الموتُ قُربَ يوم القيامة، وستَختلطُ أجسادُها بالتُّراب، بحيث لا يبقَى أثرٌ لأيِّ حياةٍ في أيِّ مكان، وحين يَنفُخُ سيِّدُنا إسرافيلُ في الصُّورِ بأمرِ الله تعالى، فإنّ الموتَى جميعًا ستَدِبُّ فيهم الحياةُ من جديد، ويَخرُجونَ من الأرضِ كما تَخرُجُ النَّبتةُ من التُّربة، وهكذا تمتلئُ الأرضُ بالبشَر.

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾

٤٣- حينَ تنزِلُ أمطارُ الرَّحمةِ فإنّ الأرضَ الطيِّبةَ هي التي تَقبَلُها، وتُنبتُ كثيرًا بفَضْلِها، وهو ما يفيدُ الناسَ أيضًا، في حينَ أنّ الأرضَ الخَرِبةَ لا تَقبَلُ ماءَ الأمطار هذه، ولا يَنبُتُ منها شيءٌ بسببِها، فإذا ما نَبَت منها شيءٌ فإنّه يَفسُدُ هو الآخَر، ولهذا لا يستفيدُ البشَرُ من مِثلِ هذه الأرض، وبنفسِ الطريقة، فإنّ أنبياءَ الله عليهم السَّلامُ حينَ يبلِّغونَ رسالاتِ الله، فإنّ الذي يَقبَلُها هم عبادُ الله الشاكرون، فيعمَلونَ بها، ويفيدونَ الناسَ بفَضْلِها، أمّا الجاحدونَ فإنّهم يُنكرونَ هذه الرسالاتِ ويَعيشونَ في الأرضِ فسادًا.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

٤٤ـ بيَّنَ اللهُ تعالى حديثَ سيِّدِنا نوح عليه السَّلامُ وقومِه في الآياتِ من ٥٩ إلى ٦٤، ونحن هنا نُدرجُ خُلاصةَ هذا الحوار:

كان قومُ سيِّدِنا نوح عليه السَّلامُ يسكُنونَ العراقَ، وكانوا مُبتَلَيْنَ بالشِّرك، فقال سيِّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ لقومِه: اعبُدوا اللهَ تعالى وحدَه، لأنه هو الوحيدُ الذي يستحقُّ العبادةَ، وقد جئتُكم رسُولًا من عندِ الله تعالى، وأنا أُخبِرُكم بما لا تَعرِفونَ عن ذاتِ الله تعالى وصفاتِه، وحسابِ القبرِ والحَشْر، وثوابِ الجنّةِ وعذابِ النار.

قال كُبَراءُ قوم سيِّدِنا نُوح متعجِّبينَ مما يقول: لماذا لم يُرسلِ اللهُ تعالى مَلَكًا نبيًّا؟ وإذا كان سيُرسلُ بشَرًا نبيًّا فلماذا لم يُرسلْه من بينِ سادتِنا؟ ولماذا يَجعَلُ من مسكينٍ ضعيفٍ مِثلِك نبيًّا؟ إننا نعتقدُ أنك قد ضَلَلتَ. وعليه، قال لهم سيِّدُنا نوحٌ عليه السَّلام: إنّني لم أضِلَّ، وإنّما أنا مُحِبٌّ لكم، إنَّني أُبلِّغُكم أحكامَ الله تعالى حتى تصبحوا من المتَّقين، فإذا لم تَخضَعوا لأحكام الله تعالى وظَلَلتُم على شِركِكم السّابق، فإنّني أخشَى أن يُصيبَكم عذابٌ عظيم. وبرَغْمِ هذا الحبِّ وهذا التحذير من سيِّدِنا نُوح لقومِه، فإنّ عَمِي القلوبِ هؤلاءِ قد كذّبوه، فعاقَبَهم اللهُ تعالى بأنْ أغْرَقَهم في مياهِ الطُّوفان، ولم يَنْجُ منهم في سفينةِ سيِّدِنا نُوح سوى الذين آمنوا وتابوا من شِركِهم.

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

٤٥- بيَّنَ اللهُ تعالى - في الآياتِ من ٦٥ إلى ٧٢ - حديثَ نبيِّه سيِّدنا هودٍ عليه السَّلامُ معَ قومِه عادٍ الأولى، وكان قومُ سيِّدِنا هودٍ عليه السَّلامُ يسكُنونَ منطقةَ الأحقافِ من اليمَن، وقدِ اتَّخذوا لأنفُسِهم آلهةً عِدّةً، فقال لهم سيِّدُنا هودٌ عليه السَّلام: اعبُدوا اللهَ وحدَه، فهو الوحيدُ المستحِقُّ للعبادة، فقال سادةُ القوم له: إنّنا نظُنُّك سَفيهًا ومن الحَمْقى، وإنك تكذبُ. فقال لهم سيِّدُنا هودٌ عليه السَّلام: لستُ سَفيهًا، وإنّما أنا رسولُ الله تعالى، وقد أرسَلَني اللهُ من بَيْنِكم إليكم، وجَعَلَكم أقوى من قوم سيِّدِنا نُوح عليه السَّلام، فتذكَّروا نِعَمَ الله عليكم، واتَّبِعوا أحكامَه حتى تكونوا من المُفلِحين.

وكان لقبيلةِ إرَمَ فَخِذانِ، الفَخِذُ الأولى هم: عادٌ الأُولى، وهم الذين أُرسِلَ إليهم سيِّدُنا هودٌ نبيًّا، أمّا الفَخِذُ الثانيةُ فهم: ثمودُ أو عادٌ الثانيةُ، وهم الذين أُرسِلَ إليهم سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلام، ويُستعمَلُ لفظُ «إرَم» لعادٍ الأُولى وثمودَ معًا؛ لأنّ أصلَ هذَيْنِ الفَرْعَيْنِ هو إرَمُ.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

٤٦ـ قال سيِّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ لقومِه: إنّكم تُجادلونَني في هؤلاءِ الآلهةِ التي تعبُدونَها أنتم وآباؤكم من دونِ الله، في حينَ أنّ اللهَ تعالى لم يُنزِلْ أيَّ دليلٍ فيما يتَعلَّقُ بهم، فاترُكوا عبادتَهم، واعبُدوا اللهَ وحدَه، وإلّا سيَحُلُّ عليكم عذابٌ من غَضَبِ الله، ولم يُعجِبْ هذا الكلامُ سادةَ القوم وكُبَراءهم فقالوا: إنّنا لسنا على استعدادٍ للتخلِّي عن عبادةِ الآلهةِ التي كان يعبُدُها آباؤنا وأجدادُنا، والعذابُ الذي تهدِّدُنا بنزولِه علينا، عليك أن تأتيَ به إن كنتَ صادقًا، وعليه قال لهم سيِّدُنا نوحٌ عليه السَّلام: إنّ نزولَ عذابِ الله تعالى عليكم قد أصبح أمرًا محتومًا، والآنَ عليكم أنتم أيضًا الانتظار، كما أنَّني أيضًا أنتظِرُ متى يَنزِلُ العذابُ عليكم. وهكذا اجتاحَتْهم ريحٌ عاتيةٌ، استمرَّتْ لثمانيةِ أيام، دمَّرت خلالَها كلَّ شيء، حتى أصبحت جُثَثُ هؤلاءِ القوم الأقوياءِ كأنّها جذوعُ نَخْلٍ تقَطَّعت وتناثَرتْ، ولم يَنجُ من هذه الرِّيح معَ سيِّدِنا هودٍ عليه السَّلامُ سوى أولئك الذين آمَنوا به وتابُوا من شِركِهم.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ

يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

٤٧ـ في الآيات من ٧٣ إلى ٧٦ بيَّنَ اللهُ تعالى حديثَ سيِّدِنا صالح عليه السَّلامُ معَ قومِه (ثمودَ)، وكان هؤلاءِ مشركين، وكانوا يسكُنونَ في المنطقةِ ما بيْنَ الحجازِ والشام، وقد دعاهم سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ إلى التوحيد، فطالَبوهُ بأن يُخرِجَ لهم من الصَّخرةِ الصَّمّاءِ ناقةً حيَّةً، وهكذا دَعَا سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ اللهَ تعالى، واستجابَ اللهُ تعالى لدعائه، وأَخرجَ الناقةَ من الصَّخرةِ الصمَّاءِ، فقال سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلام: هذه الناقةُ دليلُ نُبوَّتي، وآيةٌ على قُدرةِ الله تعالى، فاترُكوها حرّةً، تأكُلْ من حيثُ تشاء، ولا يُضايِقْها أحدٌ منكم، وإلّا أَنْزلَ اللهُ عليكم عذابًا عظيمًا.

ولمّا شاهَدَ الناسُ هذه المعجزةَ آمَن بعضُهم، وقَبِلوا نبوَّةَ سيِّدِنا صالح عليه السَّلامُ من قلوبِهم، لكنّ سادتَهم رَفَضوا الاعترافَ به تكبُّرًا وغرورًا، فقال سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ لقومِه: إنّ اللهَ تعالى قد جَعَلَكم خُلفاءَ لقوم عاد، ووفَّقكم لبناءِ القصورِ والبيوتِ في الأرضِ والجبالِ، فتذكَّروا نِعَمَ الله عليكم، ولا تَعصُوه، ولا تَعْثَوا في الأرضِ فسادًا.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

٤٨ـ تآمَرَ سادةُ قوم ثمودَ وذَبَحوا ناقَة سيِّدِنا صالحٍ عليه السَّلامُ، وقالوا له: لقد أهلَكْنا الناقَة، والآنَ إنْ كنتَ صادقًا فعليكَ أن تأتيَ بالعذابِ الذي تهدِّدُنا به فيما لو آذَيْنا الناقَة، وهكذا، بعدَ ثلاثةِ أيام فقطْ، جاء زِلزالٌ عظيمٌ له صوتٌ شديد، نَتَج عنه أنْ أصبحَ كلُّ الناسِ في بيوتِـهم موتَى ومُلقَوْنَ على وجوهِهم، وحَفِظَ اللهُ تعالى سيِّدَنا صالحًا عليه السَّلامُ والذين آمَنوا معَه، ولمّا رأى سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلام هذا العذابَ الذي حَلَّ بقومِه توجَّه إليهم مُخاطِبًا إياهم وهم موتى قائلًا: ألم أُبلِغْكم رسالةَ ربِّي؟ ألم أُخبِرْكم من قبلُ وأنا مُحِبٌّ لكم أنْ لا تَعصُوا اللهَ تعالى، وإلّا حَلَّ عليكم ـ فجأةً ـ عذابٌ عظيم، لكنّ القومَ الذين لا يُطيعونَ من يحبُّونَهم يكونُ هذا مصيرَهم.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الموتَى أيضًا يسمَعونَ؛ لأنّ الرُّوحَ بعدَ موتِ جسَدِها الإنسانيِّ تبقى على علاقةٍ من نوعٍ ما معَ هذا الجسَد والقبرِ الذي يَضُمُّه، ولهذا فإنّ من سُنّةِ النبيِّ ﷺ أنّنا إذا مرَرْنا بالمقابرِ أن نُخاطبَ أهلَ الإيمانِ قائلين: (السَّلامُ عليكم)، وندعو بالمغفرةِ لهم، «**كان رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يُعلِّمُهم اذا خَرَجوا إلى المقابر، كان قائلُهم يقول: السّلامُ عليكم أهلَ الدِّيارِ من المؤمنينَ والمسلمين، وإنّا إن شاء اللهُ بكم لاحِقون، نسألُ اللهَ لنا ولكمُ العافيةَ**»[1]، كما أنّ رسولَ الله ﷺ قد توجَّه بعدَ غزوةِ بدرٍ إلى تلك الحُفْرةِ التي كانت جُثَثُ الكفَّارِ مُلقاةً فيها، وخاطَبَهم قائلًا: «**يا أبا جهلٍ بنَ هشام! يا أُميَّةُ بنَ**

(١) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ٣٦.

خَلَف! يا عُتْبةُ بنَ رَبيعةَ! يا شَيْبةُ بنَ رَبيعةَ! أليس قد وَجدتُم ما وَعَد ربُّكم حقًّا؟ فإنّي قد وَجدتُ ما وَعَدني ربِّي حقًّا؟»، فسمعَ عُمرُ قولَ النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فقال: يا رسولَ الله! كيف يسمعونَ وأنّى يُجيبونَ وقد جَيَّفوا؟ قال: «والّذي نفسي بيدِه! ما أنتم بأسمعَ لِما أقولُ منهم، ولكنّهم لا يَقدِرونَ أن يُجِيبوا»، ثمّ أمَرَ بهم فسُحِبوا فأُلقُوا في قَلِيبِ بدر[1].

فإذا كان الكافرُ يسمَعُ في قبرِه، فكيف لا يسمَعُ المؤمن؟ وسيأتي مزيدٌ من التفصيل عندَ تفسير الآيةِ رقم ٨٠ من سُورة النَّمل إن شاء اللهُ تعالى.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

٤٩- بيَّن اللهُ تعالى حديثَ سيِّدِنا لوطٍ معَ قومِه في الآياتِ من ٨٠ إلى ٨٤، وكان هؤلاءِ يسكُنونَ جنوبَ الشّام، وتعَدَّوْا كلَّ الحدودِ في أفعالِ الفُحش، بمعنى: أنّهم كانوا يَقْضُونَ وَطَرَهم من الرِّجالِ وليس من النساء، وقد أَفْهَمَهم سيِّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ كثيرًا بأنّكم ترتكبونَ من الفاحشةِ ما لم يَرتكِبْه أحدٌ قبلَكم في هذا العالَمِ، ولم يكنْ لدى قومِه جوابٌ على قولِه هذا، لكنَّهم تشاوَروا فيما بينَهم متَّفقينَ على أنّ لوطًا يقدِّمُ نفسَه على أنه في غايةِ العفَّة، وفي نفسِ الوقت يَنظُرُ إلينا على أننا فاقدو الحياء، ولهذا ينبغي أن نَطرُدَه من بلادِنا.

وبدلًا من أن يَحصُلوا على الهداية استمرُّوا على ما يرتكبونَ من الفاحشة، وعندَئذٍ أمطَرَهمُ اللهُ تعالى بحجارةٍ من السَّماءِ أهلكَتْهم جميعًا، وكان سيِّدُنا لوطٌ وأهلُ بيتِه قد هاجَروا من المنطقةِ بحُكم الله تعالى قبلَ أن يَنزِلَ العذابُ على قومِه، إلّا أنّ زوجةَ سيِّدِنا لوطٍ رَفَضت أن تُهاجِرَ معه، فهَلَكت هيَ الأخرى معَ قومِها؛ لأنّها لم تؤمنْ بسيِّدِنا لوطٍ عليه السَّلام.

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب ٨، مسلم، كتاب الجنة، باب ١٧.

عقاب فعل قوم لوط

يقولُ سيِّدُنا ابنُ عَبّاس رضيَ اللهُ عنه: إنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «**مَن وجدتُّموه يعمَلُ عملَ قوم لوطٍ فاقتُلوا الفاعلَ والمفعولَ به**»[١].

وقال الإمامُ مالكٌ، والإمامُ الشافعيُّ، والإمامُ أحمدُ عليهم جميعًا رحمةُ الله: «**إنّ اللِّواطَ يوجبُ الحَدَّ؛ لأنّ اللهَ سبحانه غَلَّظَ عقوبةَ فاعلِه في كتابِه المَجِيد، فيجبُ فيه حدُّ الزِّنا لوجودِ معنى الزِّنا فيه**»[٢]، وقال الإمامُ أبويوسُفَ رحمةُ الله عليه: «**من عَمِل عمَلَ قوم لوطٍ فهو كالزِّنا عندَ أبي يوسُفَ ومحمدٍ رحمَهما اللهُ تعالى، وعليه الحَدُّ، والشهادةُ على ذلك الفعلِ لا بدَّ فيها من أربعة، وقال أبوحنيفةَ رحمه اللهُ تعالى: يُعزَّرُ، وإنّما لم يأخُذْ بالحديثِ لأنه ممّا أُنكِر على راويه (عَمْرِو بن أبي عَمْرٍو، وهو عَمْرُو بن شَمِر)**»[٣]، وقد كتَبَ أصحابُ الجَرْح والتعديل عن عَمْرِو بن أبي عَمْرو، وهو عَمْرُو بن شَمِر: «**زائغٌ كذّاب، رافضيٌّ، يشتُمُ الصَّحابةَ، ويَروي الموضوعاتِ عن الثِّقات، ومتروكُ الحديث**»[٤].

كما أنّ الإمامَ أبا حنيفةَ قال أيضًا: «**يعزَّرُ اللُّوطيُّ فقط، إذْ ليس في اللِّواطِ اختلاطُ أنساب، ولا يترتَّبُ عليه غالبًا حدوثُ منازَعاتٍ تؤدِّي إلى قتلِ اللّائط، وليس هو زنًا**»[٥]، وقال كذلك: «**لا يُجاوَزُ بالتعزيرِ أقلُّ الحدود، وهو أربعونَ جَلْدةً: (حدُّ العبد) بل يُنقَصُ منه سَوْطٌ واحد**»[٦].

---

(١) الترمذي، أبواب الحدود، باب ٢٤ برقم ١٤٥٦.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٦: ٦٦.

(٣) الفقه الحنفي وأدلته، وهبة الزحيلي، الشيخ الصاغرجي، ٢: ٢٩٧.

(٤) لسان الميزان، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ٦: ٢١٠ - ٢٢٠ برقم ٥٨٠٩.

(٥) الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٦: ٦٦.

(٦) المرجع السابق، ٦: ١٩.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾

٥٠ـ في الآيات من ٨٥ إلى ٩٣ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حديثَ سيِّدِنا شُعَيْبٍ عليه السَّلامُ معَ قومِه (أهل مَدْيَنَ)، والمرادُ بمَدْيَنَ: المنطقةُ التي تَقعُ في الجنوبِ الشَّرقيِّ لجبل الطُّور على ساحل البحرِ الأحمر، وكان هؤلاءِ مشركين، ويُطفِّفونَ في الميزان، فقال لهم سيِّدُنا شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ: لقد جئتُ إليكم برسالةِ من ربِّي، وهي دليلُ نبوَّتي البيِّن، كما أنَّني محبٌّ لكم، وأنصَحُكم أن تعبُدوا اللهَ وحدَه، ولا تُطفِّفوا في الميزان، ولا تَخدَعوا الناسَ وتَبْخَسُوهم أشياءَهم وحقوقَهم، وقد جَعَلَ الأنبياءُ الكرامُ هذه الأرضَ مهدًا للأمنِ بعمَلِهم بأحكام الله تعالى، فلا تُثيروا أنتم الفسادَ والفتنةَ فيها بمخالفتِكم لأوامرِ الله تعالى وأحكامِه، فهذا خيرٌ لكم إن كنتُم تصدِّقونَني.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

٥١ـ آمَنَتْ جماعةٌ بسيِّدِنا شُعَيْبٍ عليه السَّلامُ لمَّا دعاهُم إلى الحقِّ، وكانوا كلَّما ذَهَبوا إلى شُعَيْبٍ عليه السَّلامُ تعرَّض المُنكِرونَ لهم في الطَّريق وقالوا لهم: إلى أين تذهَبونَ تاركينَ دينَ آبائكم وأجدادِكم؟ إنَّ شُعَيبًا كاذبٌ، ودينُه كاذبٌ، ولذا عليكم أن تَرجِعوا عن هذا الدِّين وإلَّا قتَلْناكُم، وعليه قال سيِّدُنا شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ لهؤلاءِ المُنكِرين: لا تُضايِقوا أهلَ الإيمان، وإنَّما عليكم أن تَذكُروا فَضْلَ الله عليكم حينَ كنتُم فقراءَ قليلين، ثم أَنْعَم اللهُ عليكم بالأولادِ والثَّروة، فإذا عصَيتُم اللهَ تعالى الآنَ، ولم تعودوا عن عصيانِكم، فإنكم قد رأيتُم من قبلُ مصيرَ المفسِدينَ في الأرض، فانتظِروا متى تحينُ ساعةُ الفَصْل، ويُهلِكُكمُ اللهُ تعالى كما أهلَكَ الأُمَم المنكِرةَ من قبلِكم؟

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

٥٢- قال المتكبِّرونَ من كُبَراءِ قوم شُعَيْبٍ لسيِّدِنا شُعَيْبٍ عليه السَّلام: منَ الأفضلِ لكَ أن تعودَ إلى دينِنا، وإلّا طرَدْناكَ أنت ورفاقَك من هذا البلد، فأجابَهم سيِّدُنا شُعَيْبٌ بقولِه: كيف نَقبَلُ دينَكم ونحن نَكرَهُه؟ وعلى فَرْض المستحيل لو أنّنا قَبِلنا دَينكم الشِّركيَّ الذي نَجّانا اللهُ تعالى منه، فهذا يعني أنّنا كنا قَبْلًا على خطأٍ، والآنَ أصبَحْنا على صواب، في حينَ أنّ هذَيْنِ الأمرَيْنِ على خلافِ الحقيقة، وبُهتانٌ عظيمٌ على الله تعالى؛ لأنّ اللهَ تعالى لم يُرشِدْنا إلى الشِّرك، ولهذا فإنّ جوابَنا القاطعَ على كلامِكم هو أنّ اللهَ تعالى واحدٌ، ونحن لا نستطيعُ أن نترُكَ التوحيدَ الخالصَ لنَقبَلَ دينَكم، ولكنْ إن أرادَ اللهُ تعالى شيئًا آخَرَ فهو القادرُ المطلَق، وهو ربُّنا، وعِلمُه بكلِّ شيءٍ محيطٌ، ونحن نتوكَّلُ عليه، ونلتمسُ في حضرتِه قائلين: يا ربَّنا، ثبِّتْنا على التوحيد، واحكُمْ بيْنَنا بما يبيِّنُ حقَّنا من باطِلهم ويُظهِرُه كوَضَح النَّهار.

ولا يوجَدُ نبيٌّ يرتكبُ الشِّركَ أو الذَّنب، سواءٌ قبلَ إعلانِ نبوَّتِه أو بعدَه، ولهذا فإنّ الدَّعوةَ إلى العودةِ إلى الشِّرك هنا موجَّهةٌ إلى أولئك الذين كانوا مشركينَ من قبلُ، ثم آمَنوا بسيِّدِنا شُعَيْب عليه السلام، وتشمَلُ هذه الدعَّوةُ سيِّدَنا شُعَيبًا على وَجْهِ التغليبِ لا على وَجْهِ الحقيقة، أو أنّ المشركينَ كانوا قد فَهِموا على سبيل الخطأِ من سكوتِ سيِّدِنا شُعَيْب في الفترةِ الأُولى أنه مُشرِكٌ هو الآخَر! مَع أنّ كلَّ نبيٍّ يكونُ دائمًا مؤمنًا صادقًا.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾

٥٣ـ لمَّا سمِعَ الكفَّارُ هذا الجوابَ القاطعَ من سيِّدِنا شُعَيْبٍ عليه السَّلامُ هَدَّدوا قومَهم قائلينَ: لو أنّكم لم تَرجِعوا عنِ اتِّباع شُعَيْبٍ فإنّ ذلك سيكونُ خُسرانًا لكم، إذْ سوف نَستولي على كلِّ أملاكِكم، ونَطرُدُكم من البلادِ خالي الوِفاض، وهكذا، وبسببِ عصيانِ الكفَّارِ وتمرُّدِهم، أصابَ البلادَ زِلزالٌ عنيفٌ مفاجِئٌ أهلَكَهم جميعًا، وأصبحوا وكأنَّهم لم يكنْ لهم وجودٌ من الأساس، أمّا سيِّدُنا شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ والذين آمَنوا به من قومِه فقد حَفِظَهم اللهُ تعالى، وبعدَ هذا الدَّمارِ خاطَبَ سيِّدُنا شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ أولئك الموتَى قائلًا: لقد أبلغْتُكم رسالاتِ ربِّي، وأردتُ لكمُ الخيرَ بكلِّ ما أُوتيتُ من قوّةٍ، لكنَّكم لم تُعيروا ذلك اهتمامًا، والآنَ لم تَعودوا تستحِقُّونَ أن يَحزَنَ عليكم أحدٌ أو يأسَفَ لكم؛ لأنّ ما أصابكم كان بسبب عِصيانِكم وتمرُّدِكم المتعمَّد.

والهدفُ من بيانِ وقائع قوم نوح وعادٍ وثمودَ ولوطٍ وشُعَيْبٍ عليهمُ السَّلامُ في الآياتِ السابقة هو أن يَعتبرَ كفّارُ مكّةَ من المصيرِ الذي آلَتْ إليه الأُمَمُ السَّابقة، ويَدخُلوا في الإسلام، وأن تطمئنَّ قلوبُ المسلمينَ بما عَرَفوا منَ استقامةِ أصحابِ الأنبياءِ السَّابقينَ عليهم السَّلامُ وثباتِهم، فيَثبُتوا هم أيضًا على الإسلام.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

٥٤- كلَّما أرسَلَ اللهُ تعالى نبيًّا في بلدٍ ما فإنه كان أحيانًا يعاقِبُ من لم يؤمنوا به من قومِه بأنْ يَبتليَهم بالشَّدائدِ والمصاعب، حتى يَروْا بأعيُنِهم عَجْزَ وسائلِهم الماديَّة، فيرجِعوا إلى الله تعالى، وأحيانًا أخرى كان يُنْجيهم من مصاعب الحياة ويفتَحُ عليهم أبوابَ الرِّزق، حتى يَرجِعوا إلى المتفضِّلِ الحقيقيِّ ويشكروهُ على نِعَمِه.

ولكنْ كان هناك بعضُ المعاندينَ الذين لا يَعتبِرونَ بأيِّ صُورةٍ من الصُّورتَيْنِ السَّابقتَيْن، بل على العكسِ من ذلك كانوا يقولونَ: إنّ الشَّدائدَ والرفاهيَةَ ما هما إلا أمرٌ فِطْريٌّ وتَسلسُلٌ تاريخيٌّ يَحدُثُ منذُ بَدْءِ الخَليقة، ولا دَخْلَ في ذلك لغضبِ الله أو لفَضْلِه، وباختصار: كانوا يتمادَوْنَ في عصيانِهم لله تعالى، حتى حَلَّ عليهم عذابٌ من الله بَغْتةً، فأهلَكَهم اللهُ تعالى بسببِ عصيانِهم وتمرُّدِهم، ولهذا يجبُ على كلِّ إنسانٍ أن يتَّقيَ اللهَ تعالى ويخشَى عذابَه، فهذا العذابُ قد يَنزِلُ فجأةً في أيِّ وقت؛ ليلًا أو نهارًا، والذين لا يخافونَ من عذابِ الله تعالى سيكونونَ من الخاسرينَ في الآخِرة.

يقولُ أهلُ العِلم: إنّ النِّعمةَ التي يوفِّقُ اللهُ فيها العبدَ إلى الشُّكر، والمصيبةَ التي يوفِّقُ اللهُ العبدَ فيها إلى الصَّبر، إنّما هما - النِّعمةَ والمصيبةَ - فَضْلٌ من الله تعالى، أمّا النِّعمةُ التي يتكبَّرُ الإنسانُ بسببِها، أو المصيبةُ التي يشكو الإنسانُ وقوعَها، فإنّ كلَيْهما - النِّعمةَ والمصيبةَ - عذابٌ من الله تعالى.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

٥٥ـ كفّارُ مكّةَ الذين يعيشونَ اليومَ في بلادِ أسلافِهم وعلى أرضِهم، ويكذِّبونَك يا رسولَ الله ﷺ، ألم يَعتبِروا من تاريخ مَن سَبقُوهم من الأمم بأنّ اللهَ تعالى يُمكنُه أن يُهلِكَهم بسببِ طُغْيانهم وذنوبِهم، ويَطبَعَ كذلك على قلوبِهم، مثلَما أهلَكَ الأُممَ السّابقةَ وطَبَع على قلوبِهم بسببِ ذنوبِهم؟ ومن هنا ينبغي لهم ألّا يُكرِّروا تلك الأخطاءَ التي وَقَع فيها أسلافُهم، والتي كانت سببًا في نزولِ العذابِ عليهم.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

٥٦ـ في الآياتِ السَّابقة بيَّنَ اللهُ تعالى أحوالَ دمارِ تلك الأُمم الذين كذَّبوا رسُلَهم، وبَقُوا على كُفرِهم وإنكارِهم إلى آخِرِ لحظة، وهو ما كانت نتيجتَه أنْ طَبَع اللهُ على قلوبِهم، كما أنّ تلك الأُممَ كانت قد وَعَدت رسُلَهم عليهم السَّلامُ بأنّهم سيؤمنونَ بهم لو جاءوا لهم بمعجِزة، لكنّ أكثَرهم لم يؤمنوا برَغْم رؤيتِهم للمعجِزات، ولهذا أيُّها النبيُّ الحَبيب، لا تحزَنْ بسببِ عِنادِ أهل مكّةَ؛ لأنّ الأُممَ الجاهلةَ قد فَعَلتْ نفسَ الشّيءِ من قبلُ معَ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

٥٧ـ من هنا يبدَأْ بيانٌ مفصَّلٌ لأحوالِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، والذي استَغرقَ آياتٍ كثيرةً.

الموطِنُ الأصليُّ لبني إسرائيلَ هو فِلَسطين، وقد هاجَرَ هؤلاءِ إلى مِصرَ واستقَرُّوا فيها أيامَ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، وكان الأقباطُ هم سُكّانَ مِصرَ الأصليِّين، وبعدَ فترةٍ استَعبَدَ الفراعنةُ والأقباطُ بني إسرائيلَ، وأنزَلوا بهم من العذابِ أنواعًا، حتى وَصَل بهمُ الحالُ إلى أنّهم كانوا يَذبَحُونَ أبناءَ بني إسرائيلَ ويَسْتحيُونَ نساءَهم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]. وحينَ أرسَلَ اللهُ تعالى سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ وزَبانيَتِه قال لهم سيِّدُنا موسى عليه السَّلام: إنِّي رسولُ الله إليكم، وأنا صادقٌ تمامًا فيما أُخبِرُكم به، لهذا عليكم أن تُرسِلوا معي بني إسرائيل، حتى أَصْطَحِبَهم معي إلى وطَنِنا فِلَسطين، حيث نستطيعُ الحياةَ هناك بحُرّيّة. فقال فِرْعَوْنُ: لو أنّك صادقٌ في دعواكَ فأَرِنا معجزةً. وهكذا ألقَى سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ بعصاهُ على الأرض، فتحوَّلتْ إلى حيَّةٍ تسعَى، وهَرْوَلتِ الحيّةُ ناحيةَ فِرعَونَ فاغِرةً فاها، وحينَئذٍ خافَ فِرعونُ وطلَبَ من سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ أن يُمسكَ بالحيَّة، فأمسَكَ بها سيِّدُنا موسى عليه السَّلام، فتحوَّلتْ إلى عصًا من جديد، كما ظَهَرت معجزةٌ أُخرى هي أن سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ وَضَع يدَه في جَيْبِه ثم أَخْرَجَها فكانت بيضاءَ تتلألأُ.

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

٥٨ـ لمَّا رأى سادةُ الفراعنةِ المعجِزتَيْنِ، أي: تحوُّلَ العصا إلى حيَّة، وتَلألُؤَ اليدِ نَصاعةً وبياضًا قالوا فيما بينَهم: إنّ هذا الرجُلَ ساحرٌ ماهرٌ وخبير! وسوف يُغوي الناسَ ويَجذِبُهم إليه بسِحرِه، ويَستولي على حُكم مِصرَ ويُخرِجُكم منها، وسيَحكُمُ بنو إسرائيلَ هنا، ولهذا عليكم أن تُدبِّروا أمرَ القضاءِ على هذا الموضوع من بدايته. وتشاوَروا فيما بينَهم، وقالوا لِفرعَون: عليكَ أن تترُكَ موسى وأخاه في حالِهم بشكلٍ مؤقَّت، وأرسِل البوليسَ في كلِّ أرجاءِ البلاد يأتوك بكلِّ ماهرٍ خبيرٍ من السَّحَرة. وهكذا اجتَمعَ لدى فِرعونَ المَهَرةُ من السَّحَرةِ وقالوا له: هل تكافِئُنا إنْ تغَلَّبْنا على موسى؟ فأجابَهم فِرعَونُ بقوله: لو تَغلَّبتُم على موسى فإنَّني لن أكافئَكم فقطْ، وإنما سأُقرِّبُكم منِّي أيضًا.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾

٥٩ـ وهكذا وَقَف جَمْعٌ غفيرٌ قِوامُه مئاتُ الألوفِ من المتَّبِعينَ لِفرعَوْنَ، في مَيْدانٍ فسيح من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ وَقَف اثنانِ فقطْ من الإخوةِ باعتبارِهما ممثِّلَيْنِ لشعبٍ مظلوم مستعبَدٍ وهما: سيِّدُنا موسى وسيِّدُنا هارونُ عليهما السَّلام.

قال السَّحَرةُ لسيِّدِنا موسى عليه السَّلام: هل تبدَأُ أنت في مقابلةِ اليوم أم نبدَأُ نحن؟ قال سيِّدُنا موسى عليه السَّلام: ابدَأُوا أنتم. فألقَى السَّحَرةُ أعدادًا كبيرةً من عِصِيِّهم وحبالِهم، وسَحَروا أعيُنَ الناس، فتراءتِ العِصِيُّ والحِبالُ للناس ثعابينَ، وخاف الناظرونَ جميعًا، وكان هذا شعوذةً من السِّحرِ كبيرةً.

ثم ألقَى سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ عصَاهُ بأمرِ الله تعالى، فابتَلَعتْ كلَّ حِبالِهم وعِصِيِّهم، ولم تُبقِ من سِحرِهم شيئًا ولم تَذَرْ، وعاد الفَراعنةُ من حيثُ جاءوا أذِلّاءَ صاغرينَ، ولكنْ في نفسِ الوقت تأكَّد السَّحَرةُ أنّ سيِّدَنا موسى عليه السّلامُ ليس ساحرًا، وبالتالي خَرُّوا ساجدينَ بغيرِ اختيار، وكأنّ إظهارَ الحقِّ أجبرَهم على السجود، وأعلَنوا إيمانَهم بربِّ العالمين.

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

٦٠ـ قال فِرعونُ للسَّحَرةِ: إنِّني ربُّكمُ الأعلى، فكيف تؤمنونَ بربِّ موسى دونَ أن آذَنَ لكم؟ لا بدَّ أنكم تحالَفْتُم معَ موسى وتآمَرْتُم ضدِّي، حتى تُخرِجوا سكانَ مِصرَ الأصليِّينَ ـ الأقباطَ ـ من هنا، فلْتستعِدُّوا للعقابِ على مؤامرتِكم هذه، سوف أُقطِّعُ أيديَكم وأرجُلَكم من خِلاف، وسوف أُصلِّبُكم في جُذوع النَّخل. فقالوا لفِرعون: إنّك تريدُ أن تنتقمَ منّا لأنّنا آمَنّا بالله تعالى، فعاقِبْنا بما تشاء من عقابٍ، فلقد عرَفْنا آياتِ الله تعالى، وهو الذي سنعودُ إليه ثانيةً يومًا ما، ولهذا فإنّنا لسنا خائفينَ من الموت، بل إنّنا ندعو اللهَ تعالى أن يمنَحَنا الصَّبرَ، وأن يجعَلَنا مسلمينَ إلى آخِرِ العُمُر.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الإنسانَ الذي يَعرِفُ حقيقةَ الإسلام، ويؤمنُ به من أعماقِ قلبه، فإنه يَقبَلُ الموتَ، ولكن لا يتحمَّلُ الخروجَ من الإسلام.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ

ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

٦١ـ كان الفِرعَوْنُ يَدَّعي لنفسِه أنه الربُّ الأعلى، وكان يجعَلُ الناسَ في مِصرَ يعبُدونَه بشكلٍ مباشر، وفي المناطقِ الأخرى وَضَع لنفسِه تماثيلَ تُعبَدُ، بينَما أخبَرَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلام الناسَ أنِ اعبُدوا اللهَ تعالى وحدَه؛ لأنْ لا أحدَ سواه يستحِقُّ العبادةَ، وكان رَفْضُ عبادةَ فِرعَوْنَ في نظرِ قوم فرعونَ بمثابةِ إشاعةِ الفسادِ في البلاد، ولهذا حَرَّضوا الفِرعَونَ ضدَّ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ بأنّ عليه أن يتَحكَّم في موسى عليه السَّلام وقومِه، وإلّا فإنّهم لا يَعتبِرونَك ربًّا، وكذلك لا يقدِّسونَ تماثيلَك، بل ويُحرِّضونَ الناسَ ضدَّك، وبالتالي فإنّ أمثالَ هؤلاءِ قد يكونونَ في الغدِ القريبِ خَطَرًا على سُلطتِك ومُلكِك، لكنّ الفِرعَونَ ازدادَ خوفًا لمَّا رأى معجزةَ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، فقد كان يخشَى أنه إنِ اصْطدمَ مباشرةً معَ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، فقد تتحوَّلُ عصا موسى عليه السَّلامُ إلى حيّةٍ وتأكلُه، إلا أنّه ـ لكي يحوزُ على ثقةِ سادةِ قومِه ـ أجابَهم قائلًا: لا تنزَعِجوا، فقد أعدَدْنا خُطّةً كاملةً للقضاءِ على بني إسرائيل، وسوف نُقتِّلُ أبناءهم قريبًا، ونَستبقي نساءَهم أحياءً، وهكذا ينتهي نَسْلُهم تلقائيًّا.

قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

٦٢ ـ لمَّا عَلِم بنو إسرائيلَ أنّ فِرعَونَ يَنوي قَتْلَ أبنائهم من جديد، اعتَراهمُ الخوفُ الشَّديد، فقالوا لسيِّدِنا موسى عليه السَّلام: لقد أُوذينا بقَتْل أبنائنا قبلَ أن تأتيَنا، والآنَ تُرسَمُ الخُططُ من أَجْل قَتْل أبنائنا من جديدٍ بعدَ مجيئكَ إلينا، فماذا نحن فاعلون؟ متى تنتهي مصائبُنا هذه؟ فقال سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ لقومِه

مطَمْئنًا إيّاهم: لا تخافوا، فاللهُ تعالى هو مالكُ الأرض، ولن يبقَى هؤلاءِ الفراعنةُ حُكّامًا للأبد، فاصبِروا، واطلُبوا العونَ من الله تعالى، وهو الذي سيُهلِكُ فِرعَونَ وجيوَشه قريبًا، وسيَجعَلُكم الوارثينَ لهذا البلد، ولكنْ تَذكَّروا أنه سيكونُ زمنَ ابتلائكم، الآنَ اللهُ تعالى يَبْتليكم بالفقرِ والاستعباد، ثم سيبتليكُم بمَنْحِكم الحرِّيةَ وحُكمَ البلاد، والمفلِحونَ عندَ الله تعالى هم أولئك الذين يَصبِرونَ على البلاء، ويشكرونَه في الرَّخاء. وقد حقَّق اللهُ ما وَعَدَ به، أي: أَغْرقَ فِرعَونَ، وجَعَل بني إسرائيلَ مالكينَ لأرض الأقباط.

وهذه السُّورة مكِّيةٌ، وكانت أحوالُ المسلمينَ في مكّةَ هكذا؛ المشركونَ يُذيقونَهمُ العذابَ من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ وَعَد بالفتح والنُّصرة، وفي نهايةِ الأمر تحقَّق ذلك في شكل فَتْح مكّةَ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾

٦٣ـ لقدِ ابتَلى اللهُ تعالى متَّبعي فِرعَونَ بالقَحْطِ ونَقْص الثِّمار، حتى تلينَ قلوبُهم، ويَرجِعوا عن ظُلمِهم وجَوْرِهم وكُفرِهم وشِركِهم، لكنْ ما كان أعجبَ هؤلاء الجُهلاءَ! إذا ما جاءهم عهدٌ من الرَّفاهيَةِ لا تسَعُ الأرضَ فرحتُهم وسعادتُهم، ويقولون: إنّ هذا كلَّه نتيجةَ سَعْيِهم واجتهادِهم، وهم يستحِقُّونَه، ولكنْ إذا كان عهدُ ابتلائهم يقولون: إنّ كلَّ هذه المصائبِ تَحُلُّ بنا بسببِ نَحْس موسى ورفاقِه، ولو لم يكونوا معَنا لَما حَلَّت بنا المصائب، في أنّ هذه المصائبَ لا تمُتُّ إلى سيِّدنا موسى عليه السَّلامُ ولا إلى رفاقِه من قريبٍ أو بعيد، وإنّما هو شؤمُ أعمالِ متَّبِعي فِرعَون، نَزَل عليهم من اللهِ تعالى عقابًا لهم، ولكنّ أكثرَ هؤلاءِ لا يَعرِفونَ شيئًا عن هذا.

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾

٦٤ـ كان العربُ في الجاهليَّةِ كثيرًا ما يتشاءَمونَ من الطُّيورِ والحيَواناتِ والأصواتِ وأشياءَ مختلفةٍ أخرى، على سَبيل المثال: عندما كانوا يَخرُجونَ لعمَلٍ هامّ، ويرَوْنَ طيرًا يطيرُ إلى جهةِ اليسار، اعتَبروا ذلك شؤمًا، بمعنى: أنهم لن ينجَحوا في العملِ الذي يَوَدُّونَ الخروجَ من أَجْلِه، وبالتالي يعودونَ إلى بيوتِهم، وهذا نوعٌ من الشِّرك؛ لأنّهم يعتقِدونَ في شيءٍ آخَرَ بأنه مؤثِّرٌ مطلَقٌ في نَفْعِهم وخسارتِهم، بينَما الفاعلُ الحقيقيُّ في كلٍّ هذا هو اللهُ تعالى، وسواءٌ كان الفَأْلُ مُوافقًا لِما نرغبُ أم مخالفًا له، فإنّ علينا أن نتوكَّلَ على الله في كلٍّ حال، ونُواصلَ القيامَ بأعمالِنا، أمّا مسألةُ اتِّجاه الطَّير إلى اليمينِ أو إلى الشِّمالِ فإنه أمرٌ لا يمكنُ أن يكونَ عقَبةً في سبيل أيٍّ عمل، كما أنّ التشاؤمَ يزرعُ اليأسَ وسوءَ

الظنِّ بالله تعالى داخلَ الإنسان، وعلى العكسِ من ذلك التفاؤلُ، فهو أمرٌ طيِّب، وبه ترتفعُ معنَويّاتُ الإنسانِ وهمَّتُه، وتضيفُ إليه الأملَ في رحمةِ الله تعالى، وإليك بعضَ الإرشاداتِ النَّبويَّةِ في هذا الخصوص:

١ـ ذُكِرَت الطِّيَرَةُ عندَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فقال: «أحسَنُها الفَأْلُ ولا ترُدُّ مسلمًا، فاذا رأى أحدُكم ما يَكرَهُ فلْيقُل: اللّهمَّ لا يأتي بالحسَناتِ إلّا أنت، ولا يدفَعُ السّيِّئاتِ إلّا أنت، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا بك»[١].

٢ ـ قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «لا عَدْوى ولا طِيرَةَ، ويُعجِبُني الفَأْلُ الصّالح، والفَأْلُ الصّالحُ: الكلمةُ الحسَنة»[٢].

٣ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «مَن رَدَّتْه الطِّيرَةُ من حاجةٍ فقد أشرَكَ»[٣].

٤ـ كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم لا يتطيَّرُ من شيءٍ، وكان إذا بَعَث عاملًا سألَ عنِ اسمِه، فإذا أعجَبَه اسمُه فَرِح به ورُئي بِشْرُ ذلك في وجهِه، وإنْ كَرِه اسمَه رُئِيَ كراهيَةُ ذلك في وجهِه، فإذا دَخَل قريةً سألَ عن اسمِها، فإذا أعجَبَه اسمُها فَرِح بها ورُئيَ بِشْرُ ذلك في وجهِه، وإنْ كَرِه اسمَها رُئِيَ كراهيَةُ ذلك في وجهِه[٤].

ويجبُ على المسلمينَ أن يُحسِنوا اختيارَ أسماءِ الأبناء أو الأماكن وغيرِها؛ لأنّ النبيَّ ﷺ يتأذّى من الأسماءِ السيِّئة.

---

(١) أبوداود، كتاب الطب، باب الطيرة برقم **٣٩١٩**.

(٢) أبوداود، كتاب الطب، باب الطيرة برقم **٣٩١٥**.

(٣) مسند أحمد، ٢: ٢٢٠.

(٤) أبوداود، كتاب الطب، باب الطيرة برقم **٣٩٢٠**.

﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾

٦٥ـ آمَنَ السَّحَرةُ بعدَ هزيمتِهم، ولكنّ قومَ فِرعَونَ ظَلُّوا مُصِرِّينَ على كُفرِهم وعِنادِهم هم وفِرعَونُ نفسُه، وقالوا لسيِّدِنا موسى عليه السَّلام بوضوح: إنّهم لن يؤمنوا به مهما أراهم من أعمالٍ سِحْريّةٍ خارِقة. وحين أعلَنوا الفِرعَوْنيُّونَ قرارَهمُ النهائيَّ بعَدَم الإيمان، دَعا سيِّدُنا موسى عليه السّلامُ عليهم، وأخَذ اللهُ تعالى يُنزِلُ عليهم من حينٍ لآخَرَ سلسلةً من العذابِ المتنوِّع، وعلى سبيل المثال: نَزَل عليهم المطرُ بكثرةٍ بحيثُ أَغْرقَ كلَّ شيءٍ لهم، ووَصَلَ ارتفاعُ مياهِ الأمطار حتى أعناقِهم، ثم دَمَّر الجَرادُ محاصيلَهم وأتْلَفَها، ثم أقَضَّ مضاجعَهم القُمَّلُ بكثرتِه في ملابسِهم وشعورِهم وأجسادِهم، وبعدَ ذلك هاجَمَت الضَّفادعُ منازلَهم ومَخادعَهم وأطعِمَتَهم بكثرةٍ بحيث حَرَّمت عليهمُ الأكلَ والشربَ والنَّوم، وتَبدَّلت مياهُ الشُّربِ في بيوتِهم وآبارِهم إلى دماءٍ، وحاق الخَطَرُ بأرواحِهم لشدّةِ العطش، والمهمُّ في هذا الأمرِ أنّ بيوتَ بني إسرائيلَ ظَلَّتْ محفوظةً من كلِّ هذا العذابِ[1]، ورَغْم كلِّ هذه الآياتِ الواضحة، إلّا أنّ أصحابَ فِرعَونَ ظَلُّوا قائمينَ على تكبُّرِهم كالمجرِمين.

في الآياتِ السّابقة جاء ذِكرُ معجزاتِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، فذَكَرتِ الآيتانِ ١٠٧، ١٠٨ معجِزتَيْنِ هما: العصا واليدُ البيضاء، ثم جاء ذِكرُ معجِزتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ في الآية رقم ١٣٠، أي: القحطِ ونَقْصِ الثمار، بينَما ذَكَرتْ هذه الآيةُ خمسَ معجزاتٍ هي: الأمطارُ الجارفة، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادعُ، وتحوُّلُ الماءِ إلى دم، ونجدُ ذِكرَ هذه المعجِزاتِ كذلك في الأبوابِ من ٧ إلى ١٠ من كتابِ الخروج في التَّوراة.

---

(١) «سال النيل دمًا، فكان الإسرائيلي يستسقي ماءً طيبًا، ويستسقي الفرعوني دمًا». تفسير ابن أبي حاتم، سورة الأعراف (٧): الآية ١٣٣ برقم ٨٨٨١.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

٦٦ـ كلَّما كان عذابٌ من أنواع العذابِ السَّابقة يَنزِلُ عليهم فإنّهم كانوا يُضْطَرُّونَ إلى الذهابِ إلى سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، ويَبكُونَ قائلين: يا موسى، لقد وَعَدَكَ ربُّك بقَبولِ الدُّعاءِ منك، ونحن نَطلُبُ منك أن تدعوَ اللهَ لنا بوسيلةِ هذا الوعد، أو بوسيلةِ نُبوَّتِك، بأنْ يرفَعَ عنّا هذا العذابَ، وحينَئذٍ سنؤمنُ بك، وسنُطلِقُ سراحَ بني إسرائيلَ ونُرسِلُهم معَك. لكنّهم كانوا قد تَعدَّوْا كلَّ حدٍّ في التكبُّر والتعصُّب، ولهذا حينَ أخَّر اللهُ تعالى العذابَ عنهم إلى فترةٍ محدَّدة، حَنِثوا في وَعْدِهم بالإيمانِ وإطلاقِ سراح بني إسرائيل.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾

٦٧ـ حينَ لم يؤمنْ أصحابُ فِرعَونَ، ولم يَصْدُقوا في وَعدِهم، برَغْم رؤيتِهم هذه المعجزاتِ الكبيرةَ، ونزولِ العذابِ عليهم مرارًا، أَغْرَقَهمُ اللهُ تعالى في بحرِ القُلْزَم (البحرِ الأحمر)، ويمكنُك الرجوعُ إلى الآية رقم ٥٠ من سُورة البقرة، وكذا الحاشيةُ رقم ٤٣ لمزيدٍ من المعرفة عن هذه الواقعة: «﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ **بالأنهارِ والأشجارِ والثِّمار والخِصْبِ وسَعةِ العيش، يعني: أرضَ مِصرَ والشام، مَلَكها بنو إسرائيلَ بعدَ**

الفراعنةِ والعمالقةِ وتمكَّنوا في نواحيها»(١)، وكان قبرُ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام في مِصرَ، وأَضْرِحةُ عددٍ كبيرٍ من الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ في الشام وسيلةً للبركةِ أيضًا، وفي نهايةِ الأمرِ تحقَّق الوعدُ بالفتح والنُّصرةِ الذي وَعَدَه اللهُ تعالى لبني إسرائيلَ بفَضْل صبرِهم، ودَمَّر اللهُ تعالى قصورَ أصحابِ فِرعونَ ومصانعَهم جميعًا.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

٦٨ـ بعدَ عبورِهم بحرَ القُلزَم مَرَّ بنو إسرائيلَ بقومٍ مستغرِقينَ في عبادةِ الأصنام، فقال بنو إسرائيلَ لسيِّدِنا موسى عليه السَّلام: اجعَلْ لنا إلهًا مِثلَ هذا الذي يعبُدونَه، واندَهشَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ ممّا طَلَبوا وقال لهم: إنكم تتكلَّمونَ بحديثِ الجهل العظيم، إذ إنّ عقائدَهم وأعمالَهم باطلةٌ تمامًا، هل أترُكُ اللهَ تعالى وأبحَثُ لكم عن معبودٍ آخَر؟ هذا من المستحيل بالنِّسبةِ لي من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ فإنه لا يليقُ بكم أن تَطلُبوا مِثلَ هذا الطلب؛ لأنّ اللهَ تعالى فضَّلَكم على كلِّ الناس في زمانِكم، وأَنْجاكُم من ظُلم فِرعَوْنَ الذي كان يُقتِّلُ أبناءكم ويستحيي بناتِكم يَستعبِدُهنَّ.

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ

---

(١) التفسير المظهري، سورة الأعراف (٧): الآية ١٣٧.

فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَاۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

٦٩- حينَ تحرَّر بنو إسرائيلَ من رِبْقةِ استعبادِ فرعَوْنَ لهم، استَدعَى اللهُ تعالى سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ إليه على جَبَل الطُّور، حتى يمُنَّ عليه بالتَّوراة لهداية بني إسرائيلَ وإرشادِهم، وهكذا جاء الأمرُ إلى سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ بأنْ يعتزلَ مشاغلَ الدُّنيا تمامًا، ويقضيَ ثلاثينَ يومًا وليلةً في ذِكرِ الله تعالى على جَبَل الطُّور، وبعدَ ذلك أُضيفت عشَرةُ أيام أخرى فأصبح المجموعُ أربعينَ كاملةً، وكان الهدفُ من ذلك هو أن يكتسبَ قلبُ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ ورُوحُه من القوَّةِ بعدَ أربعينَ يومًا من الذِّكر والتأمُّل بحيث يستطيعُ تحمُّلَ نزولِ كلام الله تعالى عليه، وبعدَ ذلك أَنْزلَ اللهُ عليه التَّوراةَ.

وأصلُ الأربعينَ يومًا من الخَلوةِ التي يقومُ بها أهلُ التصوُّفِ الكرام بأنفُسِهم، ويجعلونَ غيرَهم يقومُ بها بغَرَضِ الذِّكر والتأمُّل هو هذه الآيةُ الكريمةُ، ولهذا يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقِّي رحمَةُ اللهِ عليه: «**فيه أنّ للأربعينَ خصوصيّةً في استحقاقِ**

استماع الكلام للأنبياء، كما أن لها اختصاصًا في ظهورِ ينابيع الحِكمةِ من قلوبِ الأولياء، كقولِه عليه السَّلام: مَن أَخْلَص لله أربعينَ صباحًا ظَهَرت ينابيعُ الحِكمة من قلبِه على لسانِه»[١].

ويُعلَمُ من هذا أنّ هناك حكمةً خاصّةً في العددِ أربعين:

- **«بُعِث رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم لأربعينَ سنةً»[٢].**

- **قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «مَن صَلَّى في مسجدي أربعينَ صلاةً لا يفوتُه صلاةٌ كُتِبت له براءةٌ من النّار ونَجاةٌ من العذاب وبَرِئ من النِّفاق»[٣].**

- **قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ أَحدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمّ يكونُ عَلَقةً مثلَ ذلك، ثمّ يكونُ مُضغةً مثلَ ذلك،ثمّ يُنفَخُ فيه الرُّوح»[٤].**

- **قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «مَن حَفِظ على أُمّتي أربعينَ حديثًا من أمرِ دينِها بَعَثَه اللهُ فقيهًا وكنتُ له يومَ القيامة شافعًا وشهيدًا»[٥].**

- **قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «ما مِن أربعينَ من مؤمنٍ يشفَعونَ لمؤمنٍ إلّا شَفَّعَهُم اللهُ»[٦].**

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الزهد، باب ما ذكر عن نبينا ﷺ عن الزاهد، المجلد الثامن، ١٣١، وروح البيان، سورة الأعراف (٧): الآية ١٤٢.

(٢) البخاري، كتاب الأنصار، باب ٤٥ برقم ٣٩٠٢.

(٣) مسند أحمد، ٣: ١٥٥.

(٤) البخاري، بدء الخلق، باب ٦ برقم ٣٢٠٨.

(٥) شعب الإيمان، ٢: ٢٧٠: برقم ١٧٢٥.

(٦) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ١٩ برقم ١٤٨٩.

وهذا هو السَّببُ ـ في الغالب ـ أنه حينَ يمـوتُ مسلمٌ يظَلُّ أهلُه وأقاربُه وأصدقاؤه وأحبابُه يقرأونَ القرآنَ والأذكارَ الأُخرى لأربعينَ يومًا، ثم يوصِلونَ الثوابَ إلى ميِّتهم في مجلسٍ خاصٍّ ليغفرَ اللهُ له، وهو ما يُعرَفُ باسم «الأربعين».

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

٧٠ـ كان سيِّدُنا هارونُ عليه السَّلامُ نبيًّا، لكنّه كان تابِعًا لسيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ في منصِبِ النبوَّة؛ لأنَّ سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ هو الذي طَلَب من اللهِ تعالى أن يجعَلَ سيِّدَنا هارونَ عليه السَّلامُ وزيرًا له: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩-٣٠]، كما أنّ منصِبَ الحُكم والسِّيادة في بني إسرائيلَ كان لسيِّدِنا موسى عليه السّلام، وهكذا، وعندَ ذهابِه إلى جَبَل الطُّور جَعَل سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ من سيِّدِنا هارونَ عليه السَّلامُ خليفةً له ونائبًا في أمورِ الحُكم، وأصدَر إليه التعليماتِ اللازمةَ لتسييرِ الأمورِ الإداريَّة، حتى يواصلَ إصلاحَ أحوالِ قومِه، ويَحذَرَ من المفسدين، ورَغْمَ أنّ إصلاحَ الأُمّةِ كان من بيْنِ مهامِّ سيِّدِنا هارونَ عليه السَّلام باعتبارِه نبيًّا، لكنّ سيّدَنا موسى عليه السّلامُ أكّد عليه بغَرَض التذكير، لأنّ بني إسرائيلَ كانوا قد تحرَّروا من عبوديَّتِهم لفِرعَونَ قبلَ وقتٍ قصير، ومن الممكنِ أن يتصرَّفوا تصرُّفًا خاطئًا، ولهذا كان المزيدُ من الاحتياطِ ضروريًّا.

على أيّةِ حالٍ لم تكنْ هذه خلافَةَ النُّبوّة؛ لأنّ هارونَ عليه السَّلامُ كان هو الآخَرُ نبيًّا، وإنّما كانت نيابةً في الحُكم، مثلَما كان النبيُّ ﷺ يفعَلُ حينَ يذهبُ خارجَ المدينة، حيث كان يُوَلّي سيّدنا عليًّا رضي اللهُ عنه أو أيَّ صحابيٍّ آخَرَ على الأمورِ الإداريّة، ولم تكنْ هذه خلافةً في النُّبوةِ بالطَّبع، وإنّما نيابةٌ مؤقَّتةٌ في الأمورِ الإداريّةِ ليس إلّا.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾

٧١ـ حينَ كلَّم سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ اللهَ تعالى على جَبَل الطُّور تولَّد في قلبِه الشَّوقُ للرُّؤيةِ الإلهيَّة، فقال: يا ربِّ، أريدُ أن أراك. فقال اللهُ تعالى: يا موسى، إنك لن تستطيعَ رؤيتي في هذه الدُّنيا[١]، ثُم جَعَله يرى تجربةً عمَليّةً لكي يَطمئنَّ قلبُه، فقال له: انظُرْ إلى ذلك الجَبَل الذي هو ـ من الناحيةِ الظاهريَّةِ والماديَّةِ ـ أقوى وأصلَدُ من الإنسانِ كثيرًا، وسوف أتجَلَّى عليه للَمْحةٍ، فإنْ بقيَ هذا الجبلُ في مكانِه واستقرَّ فسوف تستطيعُ رؤيتي، بمعنى: أنّ رؤيةَ الله تعالى أمرٌ عظيمٌ للغاية، بحيث لا يتحمَّلُ تجلِّيَهُ الجبلُ القويُّ الصَّلْد، وبالتالي لا ينبغي لك أن تَقْلقَ. ثم تَجَلَّى اللهُ تعالى للجبل، فتفتَّت إلى ذَرّاتٍ، وسَقَط سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ مَغْشِيًّا عليه، ولمَّا أفاق قال: يا ربِّ «**تُبْتُ إليكَ من الإقدام على السُّؤالِ بغيرِ إذنٍ منك**»[٢]، بمعنى: أنّني سألتُ سؤالًا لم أومَرْ به[٣]. وباختصار: الأُمةُ مُجمِعةٌ ومتَّفقةٌ على أنّ توبةَ سيّدِنا موسى عليه السّلامُ لم تكنْ من ذنبٍ ارتكَبَه؛ لأنّ الأنبياءَ عليهم السّلامُ معصومونَ منَ ارتكابِ الذُّنوب[٤].

والثابتُ من الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنّ أهلَ الإيمانِ سيكونُ من نصيبِهم رؤيةُ الله تعالى يومَ القيامة وفي الجنَّة[٥]، لكن يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ رؤيةَ الله تعالى ممكنةٌ

---

(١) «اشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ أي: في الدنيا». تفسير القرطبي، سورة الأعراف (٧): الآية ١٤٣.

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) «من سؤال ما لم أؤمر به» ـ تفسير جلالين.

(٤) وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية؛ فإنّ الأنبياء معصومون. تفسير القرطبي.

(٥) خزائن العرفان.

في الدُّنيا أيضًا «**وعندَ أهل السُّنّة والجماعةِ الرُّؤيةُ جائزةٌ**»(١)؛ لأنه لو كانت رؤيتُه من المُحالِ لَما قال اللهُ تعالى: يا موسى، إنّك ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وإنما قال: «أنا لا يمكنُ أن أُرى»(٢)، وعلى سبيل المثال: لو كان في يدِ إنسانٍ حَجَر، وقال له إنسانٌ آخَرُ أنْ أعطِني هذا الحجرَ لكي آكلَه، فسيجيبُه الأولُ قائلًا: إنّ الحَجَرَ ليس للطعام، ولكنه لن يقولَ له: إنك لن تستطيعَ أكلَه، على العكس من ذلك، لو كانت في يدِ الأولِ تفاحةٌ بدلًا من الحَجَر، فسيقولُ للثاني: لا تستطيعُ أكلَها، بمعنى: إنها للأكل، ولكن ليس مسموحًا لك الآنَ أن تأكلَها. وبنفسِ الطريقة، حينَ قال اللهُ تعالى: إنك لن تستطيعَ رُؤيتي، ولم يقُلْ: إنّني لا يمكنُ أن أُرى.

فيُعلَمُ منه أنّ رؤيةَ الله تعالى في ذاتِها ممكنةٌ(٣)، لكنّ هذا أمرٌ خاصٌّ بنبيِّ آخِرِ الزّمان سيّدِنا محمَّدٍ ﷺ، فلا يمكنُ لأحدٍ سواه أن يَحظَى بالرُّؤية الإلهيَّة في هذه الدُّنيا بعيونٍ مفتوحة متيقِّظة، بينَما الرُّؤيةُ القَلْبيَّةُ أو في المنام ممكنةٌ للأنبياءِ الآخَرينَ عليهم السَّلامُ وللصَّالحين. ولمزيدٍ من التفصيل يمكنُك الرجوعُ إلى الحاشية رقم **٩١** للآية رقم **١٠٣** من سُورة الأنعام، وسيأتي مزيدٌ من التفصيل في هذا الموضوع في سُورة النَّجم إن شاء اللهُ تعالى.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

٧٢- يعني: يا موسى، لقدِ اختَرتُكَ لرسالاتي ولتكليمي بلا واسطة، مفضِّلًا

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) «لو كان مستحيل الرؤية لقال: لا أرى» - التفسيرالكبير.

(٣) «ألا ترى أنه لو كان في يد رجلٍ حجر فقال له إنسان: ناولني هذا لآكله، فإنه يقول له: هذا لا يؤكل، ولا يقول له: لا تأكل - ولو كان في يده بدل الحجر تفاحة لقال له: لا تأكلها، أي: هذا مما يؤكل، ولكنك لا تأكله - فلما قال تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل: لا أرى، علمنا أن هذا يدل على أنه تعالى في ذاته جائز الرؤية» - التفسيرالكبير.

إياك على كلِّ أهلِ زمانِك، ولهذا عليكَ أن تشكُرَني على هذه النِّعمة التي أنعَمتُ بها عليك.

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

٧٣ـ أنزلَ اللهُ تعالى التَّوراةَ مكتوبةً على ألواح، وقال لسيِّدِنا موسى عليه السَّلام: كلُّ شيءٍ من شريعتِك مكتوبٌ في هذه الألواح، ولهذا عليكَ أن تتمسَّكَ بها بقوّة، وأن تأمُرَ قومَك أيضًا أن يتمسَّكوا بها، ويَعمَلوا بالمُحكَم من آياتها، ويؤمنوا بالمتشابِه منها[١]، فإنْ أعرَضوا عن أحكام التَّوراةِ فسوف يكونُ مصيرُهم في الآخِرة هو جهنَّم، مثلَما هو مصيرُ العُصاة، و«**سأُدخِلُكم الشامَ وأُريكم منازلَ عادٍ وثمودَ والقرونِ (الفاسقينَ) الذين أهلَكَهم اللهُ تعالى**»[٢].

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

٧٤ـ الذين كذَّبوا بآياتِ الله تعالى وبالآخِرة، وتكبَّروا، سيكونُ عقابُهم في الدُّنيا هو أنَّني «**سأمنَعُهم فَهمَ كتابي**»[٣]، ولهذا فإنّهم كلَّما رأَوْا آيةً من آياتِ الله تعالى لا يؤمنونَ بها، وحينَ يَعرِفونَ طريقَ الهداية لا يتَّبِعونَه، وإنما يبحثونَ عن طريقِ الغِواية دائمًا، وسيكونُ عقابُهم في الآخِرة هو ضياعَ أعمالِهم الطيِّبةِ التي قاموا بها في الدُّنيا أيضًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى لن يَقبَلَ في ذلك اليوم عملًا ممَّن يأتي يومَ القيامة ليس مؤمنًا.

---

(١) «﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ يعملوا بمحكمها ويؤمنوا بمتشابهها». تنوير المقباس.

(٢) التفسير الكبير.

(٣) تفسير القرطبي.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾

٧٥ـ عندما صَعِد سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ إلى جبل الطُّور لتلقِّي التَّوراة، مال بنو إسرائيلَ إلى الشِّرك، وقام أحدُ الحِرَفيِّينَ ـ ويُدعى السَّامريَّ ـ بجَمْع الحُليِّ من بني إسرائيل، ثم صَهَرَها وصنَع منها تمثالًا لعِجْل يَخرُجُ منه صوتٌ يُشبهُ صوتَ العِجْل، وليس يَصعُبُ هذا الأمرُ على الحِرَفيِّ أو الصانع الماهر، وهناك في أيامِنا هذه آلافُ اللُّعَب تُخرِجُ أصواتَ حيَواناتٍ وطيورٍ مختلفة، ولكنْ، ما أعجَبَ أولئك الذين اتَّخَذوا من العِجْلِ إلهًا من بني إسرائيل! فلم يُفكِّروا أنّهم بهذا يعبُدونَ تمثالًا لا رُوحَ فيه، ولا يستطيعُ أن يُكلِّمَهم، أو يُرشِدَهم في أيِّ أمرٍ من الأمور، إنّ هؤلاء كانوا ـ حقيقةً ـ ظالمينَ؛ لأنّ الشِّركَ ظُلمٌ عظيم.

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

٧٦ـ حينَ شَعَر مشركو بني إسرائيلَ أنّهم قد ضَلُّوا بعبادتِهمُ العِجْلَ، نَدِموا على فعلتِهم وقالوا: لئن لم يرحَمْنا اللهُ تعالى لَنكونَنَّ من الخاسِرين.

وهذه الآيةُ من حيث الترتيبُ يجبُ أن تكونَ بعدَ الآية رقم ١٥٠؛ لأنّ واقعةَ النَّدم والاستغفارِ هذه حَدَثتْ بعدَ عودةِ سيّدِنا موسى عليه السّلام، «**وإنّما قُدِّم هنا على رجوعِه لقَصْدِ حكايةِ ما صَدَر عنهم من القولِ والفعلِ في موضعٍ واحد**»[١].

---

(١) فتح القدير، للشوكاني.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

٧٧ـ أخبرَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ فوقَ جَبَلِ الطُّور أنّ السَّامريَّ قد أضَلَّ قومَك من بعدِك، فغَضِبَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ أشدَّ الغَضَب، وعاد إلى قومِه، وفي ذلك الوقتِ كان بنو إسرائيلَ منهمِكينَ في عبادةِ العِجْل[١]، فلمّا رأى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ عِصيانَ الله يُرتكَبُ أمامَ عينَيْه ازداد غضَبُه، فتوجَّه أولًا إلى قومِه قائلًا: لقد أسأتُم التصرُّفَ من بعدي، ولم تَنتظروا عَوْدتي بالتَّوراة، ثم مَدَّ يدَه إلى أخيه سيِّدِنا هارونَ عليه السَّلام، ورَغْم أنه قد أُخبِر من قبلُ أنّ المسئولَ عن كلِّ هذا هو السَّامريُّ لا هارونُ عليه السَّلام، ولكنّه معَ ذلك ـ من أَجْل توضيح قُبح هذا الظُّلم العظيم (الشِّركِ) الذي ارتكَبه قومُه ـ أمسَكَ بشَعَرِ رأس هارونَ عليه السَّلام وجَذَبَه منه إليه قائلًا: لماذا لم تَمنَعْهم من الإشراكِ بالله؟ فأجابه سيِّدُنا هارونُ عليه السَّلامُ قائلًا: يا أخي، لقد بَذَلْتُ جُهدي ناصحًا لهم ألّا يفعَلوا، لكنَّهم لم يستمِعوا لنصيحتي، بل على العكس حاولوا قتلي، فلا تشمَلْني معَ هؤلاء القوم الظالمين، ولا تَسلُكْ معي سلوكًا يُشمِتُ بيَ الأعداء؛ لأنّني لم أُشارِكْهم في شِركِهم. وعليه هَدأَ رَوْعُ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، ودعا اللهَ تعالى قائلًا: يا إلهي، ارحَمْني أنا وأخي واعفُ عنّا، وكان الهدفَ من هذا الدُّعاءِ أنْ يتَدارَكَ السُّلوكَ الخَشِنَ الذي سَلَكَه معَ أخيه، وألّا يجدَ الأعداءُ فرصةً للشَّماتةِ بأنّ الأخوَيْنِ قد تشاجَرا، كما أنّ المقصودَ أيضًا هو تعليمُ الأُمّة بأنّني وأخي رَغْم كونِنا غيرَ مشترِكَيْنِ

---

(١) «وهم عاكفون على عبادة العجل» ـ فتح القدير.

معَكم في شِركِكم، وأنّنا نبيّانِ معصومانِ من الذُّنوب، لكنَّنا بالرَّغْم من ذلك نَطلُبُ من الله الرَّحمةَ والمغفرةَ، أمّا أنتم فقدِ ارتكبتُم ذنبَ الشِّركِ بالفعل، ولهذا فأنتُم أكثرُ حاجةً إلى الدُّعاءِ بالرَّحمةِ والمغفرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

٧٨- المرادُ بغَضَبِ الله تعالى في الدُّنيا: أنه طالما لم يَقتُلْ بعضُهم بعضًا لم تُقبَلْ توبتُهم[١]، ويقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما في تفسيرِ الآية رقم ٥٤:

(١) «أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضًا» - تفسير ابن كثير.

«فلْيقتُل الذي لم يَعبُدِ العِجْلَ الذي عَبَدَه»[١]، وهكذا، وبعدَ الشُّروع في تطبيقِ هذا الأمرِ عَفَا اللهُ عنهم، بمعنى: أنّ الذين تَمَّ قتلُهم حتى نزولِ هذا العَفْو هم من الشُّهداء، وأمّا الذين لم يكونوا قد قُتِلوا بعدُ فقد عَفَا اللهُ عنهم، لكنّ السَّامريَّ بالرَّغم من ذلك بقيَ على شِركِه، فنَزَلَ عليه عذابٌ من اللهِ في الدُّنيا، بأنْ أصابتْ جسَدَه أمراضٌ بحيث كان يصابُ بالحُمَّى مَن يلمَسُ بدَنَ السَّامريِّ أو يلمَسُ السَّامريُّ بدنَه، ولهذا ظلَّ السَّامريُّ طيلةَ عمُرِه يقول: ابتعِدوا عنِّي وإلّا أصابتكم الحُمَّى، فتَرَكَ الناسُ الاختلاطَ به والتعامُلَ معه، وخَرَج السَّامريُّ إلى الغاباتِ ليقضيَ بقيَّةَ عمُرِه معَ الحيَوانات، وسوف يأتي ذِكرُ السَّامريِّ في ثنايا تفسيرِ الآية رقم **٩٧** من سُورة طه إن شاء اللهُ تعالى.

﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾

٧٩ـ عاد سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ من فوقِ الجَبل، ووَبَّخ بني إسرائيلَ لِما فَعَلوا، فتابوا من عبادةِ العِجْل، فقال اللهُ تعالى لسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ: خُذْ سبعينَ رجلًا من بني إسرائيلَ ممَّن لم يشتركوا في عبادةِ العِجْل، واصعَدْ بهم إلى جَبل الطُّور، وهناك بَشَّرهم سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ببُشرى قَبولِ الله تعالى لتوبتِهم، فقال السبعونَ رجلًا: إنَّنا لن نُصدِّقَك حتى تؤكِّدَ لنا ما تقولُ، بأنْ تُرِيَنا اللهَ تعالى! وعندَئذٍ، عقابًا لهم على سُوءِ الأدب هذا، تزَلزَلتِ الأرضُ من تحتِهم، وصَعَقتِ السَّماءُ من فوقِهم، وأهلَكَهم اللهُ بهذا، وعليه قال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ: يا إلهي، لو كانت مشيئتُك هي إهلاكَهم جميعًا، فليْتَكَ أهلَكْتَ الذين عَبَدوا العِجْلَ من بني إسرائيلَ قبلَ أن أصطحِبَ هؤلاء إلى هنا، ولو شئتَ لأهلكتَني أنا أيضًا، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمَنَعك من هذا، فإذا لم تشَأْ هذا من البداية، وإنّما استدعَيْتَنا جميعًا

---

(١) تنوير المقباس.

إلى جَبَل الطُّور، فكيف تُهلِكُنا جميعًا بسببِ بعضِ الحمقَى الذين عَبَدوا العِجْلَ، أو الذين طالَبوا برؤيـتِك؟ من المؤكَّدِ أنّ هذا الأمرَ ابتلاءٌ منك لنا، ولا يُفلحُ في ابتلاءاتِك دائمًا سوى الذين تتفضَّلُ عليهم بكرَمِك، يا إلهي، لو أنّي عُدتُ بدونِ هؤلاءِ السَّبعينَ سيتَّهمُني بنو إسرائيلَ بأنّي قتلتُهم، وأنت الخالقُ المدبِّر، فارحَمْنا واعْفُ عنا، وهكذا أحيَاهم اللهُ تعالى ثانيةً بفَضْل دعاءِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ﴾

٨٠ ـ ذَكَرت هذه الآيةُ تسعةَ أوصافٍ لسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ:

(١) رسولٌ (٢) نبيٌّ (٣) أُمِّيٌّ (٤) مذكورٌ في الإنْجِيل (٥) الآمرُ بالمعروفِ (٦) الناهي عن المنكر (٧) محَلِّلُ الأشياءِ الطيِّبة، على سَبيل المثال: كانت شحومُ البقرِ والماعزِ ولحومُ الإبلِ حرامًا على بني إسرائيل، فأحَلَّها سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ. (٨) محرِّمُ الأشياءِ الخبيثة، على سبيل المثال: كان شربُ الخمرِ حلالًا للنَّصارى فحرَّمه النبيُّ ﷺ. (٩) طِبقًا للشرائع السابقة كان إذا تَنجَّس بعضُ الملابس قَطَعوا هذا الجُزءَ من الملابسِ ورَمَوْه، لكنّ النبيَّ ﷺ قال: إنَّ الملابسَ تَطهُرُ بغَسْلِها، ولا ضرورةَ لتمزيقِها والرَّمي بالجزءِ الذي أصابته النَّجاسةُ.

﴿ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾

٨١ ـ جاء وَصْفُ النبيِّ ﷺ في هذه الآيةِ بالأُمِّيِّ، فما المرادُ بالأُمِّيِّ؟ إليك بيانَه:

١ـ من أسماءِ مكّةَ المكرَّمةِ: «أُمُّ القُرى»، وبهذا الاعتبار يمكنُ أن يكونَ معنى أُمِّيٍّ هو: أنه من أهلِ مكّة، مثلَما أنّ من أسماءِ النبيِّ ﷺ أيضًا: «مكِّيًا».

٢ـ مثلَما نَبْني من «مكّةَ»: «مكّيًّا»، فإنّنا بنفسِ الطريقة نَبْني من «أُمّةٍ»: «أُمِّيًّا»، يعني: مَن له أُمّةٌ، مثلَما كان للأنبياءِ الكرام السَّابقينَ عليهم السَّلامُ أُمَمُهم، كذلك فإنّ للنبيِّ ﷺ أُمَّتَه، **عن أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ لكلِّ نبيٍّ يومَ القيامة مِنبَرًا من نُور، وإنّي لَعلَى أطوَلِـها وأنوَرِها، فيجيءُ مُنادٍ فينادي: أين النّبيُّ الأُمِّيُّ؟ قال: فيقولُ الأنبياءُ: كلُّنا نبيٌّ أُمِّيٌّ، فإلى أيِّنا أُرسِل؟ فيَرجِعُ الثانيةَ فيقولُ: أين النَّبيُّ الأُمِّيُّ العربيُّ؟ قال: فينزِلُ محمّدٌ حتى يأتيَ بابَ الجنَّة فيقرَعُه، فيقول: مَن؟ فيقول: محمّدٌ أو أحمدُ، فيقال: أوَ قد أُرسِلَ إليه؟ فيقولُ: نعم، فيُفتَحُ له فيَدخُل، فيتَجلَّى له الربُّ، ولا يتَجلَّى لنبيٍّ قبلَه، فيَخِرُّ لله ساجدًا ويَحمَدُه»**[١].

٣ـ يمكنُ أن يكونَ من بيْنِ أسبابِ إطلاقِ لقَبِ «أُمِّيٍّ» على النبيِّ ﷺ، يعني: الذي بُعِث إلى قوم من الأُميِّينَ الذين لا يقرأونَ ولا يكتُبون، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: **«إنّا أمّةٌ أُمِّيّةٌ لا نكتُبُ ولا نحسُب»**[٢]؛ لأنّ التعليمَ لم يكنْ رائجًا بصفةٍ عامّةٍ بيْنَ العربِ في ذلك الوقت، لكنّ هذا لا يعني أبدًا أنه لم يكنْ بينَهم مَن يقرأُ أو يكتُبُ؛ لأنّ كُتّابَ الوَحي كانوا يقرأونَ ويكتُبونَ قبلَ الإسلام أيضًا، وبعدَ غزوةِ بدرٍ فإنّ الأسرى من الكفَّار الذين عَلَّموا أطفالَ المسلمينَ فِديةً لأنفسِهم، كانوا يقرأونَ ويكتُبونَ أيضًا، لكنّ الأكثريّةَ كانت من الأُميِّينَ الذين لا يقرأونَ ولا يكتُبون، ولهذا أُطلِقَ عليهم «الأُمِّيوّنَ».

٤ـ يقالُ للوالدةِ في اللُّغة العربيَّة: «أُمٌّ»، وبهذا الاعتبارِ يمكنُ أن يكونَ معنى «أُمِّيٍّ» يعني: من لهُ «أُمٌّ»، يعني: الطِّفْلَ الذي يبقَى على حالِه بعدَ أن يولَدَ من بطنِ أُمِّه، فلا يُعلِّمُه أحدٌ القراءةَ ولا الكتابةَ، فيُطلَقُ عليه «أُمِّيٌّ»، (بقي مثلَما وَلَدتْه أُمُّه)، ولم

---

(١) ابن حبان، باب الحوض والشفاعة، ٦ برقم ٦٤٨٩.

(٢) البخاري، كتاب الصوم، باب ١٣ برقم ١٩١٣.

يتعلَّم النبيُّ ﷺ من أحدٍ القراءةَ ولا الكتابةَ بعدَ ولادتِه من بطنِ أُمِّه، وبهذا الاعتبارِ فإنه ﷺ كان «أُمِّيًا»، فلم يقرأِ النبيُّ ﷺ طيلةَ الأربعينَ عامًا التي سَبَقَت بَعْثَتَه كتابًا، ولم يَكتُبْ شيئًا بيدِه، ولو كان الأمرُ هكذا لَشكَّ المُنكِرون: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] في أنّ هذا القرآنَ ليس نتيجةَ قراءةِ كتُبٍ سابقة، ولا هو من إملاءِ أحدٍ، لكنّ الإسلامَ انتشَر بعدَ النُّبوَّة، ولم يَعُدْ هناك خَطَرٌ من شكوكِ الناس، وعندئذٍ عَلَّم اللهُ تعالى سيّدَنا محمّدًا ﷺ بطريقةٍ معجِزة مثلَما قال القرآنُ الكريم: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، ثم جَعَله اللهُ تعالى مُعلِّمًا للأُمَّة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[آل عمران: ١٦٤]، والآياتُ الخمسُ الأُولى نَزَلت بخصوصِ القراءةِ والكتابة، وتستحِقُّ التمعُّنَ والتأمُّلَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

في هذه الآياتِ حثَّ اللهُ تعالى الإنسانَ على طلَبِ العِلم والقراءةِ والكتابة، وكما أنّ العِلمَ نعمةٌ من اللهِ تعالى، فإنّ القراءةَ والكتابةَ أيضًا نعمةٌ من الله تعالى، وكان بعضُ الصَّحابةِ الكرام ماهِرينَ في القراءةِ والكتابة، فكيف يمكنُ أن يَحرِمَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ من هذا الكمال؟ كما أنّ سيِّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ قَرأَ أولَ ما قَرَأَ بعدَ مولدِه ما كان مكتوبًا على أعمِدةِ العَرْش: «لا إلَه إلّا الله محمَّدٌ رسولُ الله»[1]،

---

(١) «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لمّا اقترف آدم الخطيئة قال: يا ربّ! أسألك بحقّ محمّدٍ أن غفرت لي، فقال الله: فكيف عرفت محمّدًا ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا ربّ! لأنّك لمّا خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا «لا إله إلا الله محمّد رسول الله»، فعلمت أنّك لم تضف إلى اسمك إلا أحبّ الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم! إنه لأحبّ الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقّه فقد غفرت لك، ولولا محمّد ما خلقتك».

وقد قَرأَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ ألواحَ التَّوراةِ المكتوبةَ، فكيف يكونُ إمامُ كلِّ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ وسيِّدُهم سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ لا يقرأُ ولا يكتُب؟ إنّ إطلاقَ لفظِ «أُمِّيٍّ» على أيِّ عالِم أو معلِّم في أيامِنا هذه بمثابةِ الإهانةِ الشَّديدةِ له، فما بالُكَ بسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ الذي هو أكثرُ المخلوقاتِ علمًا، ومُعلِّمُ أعظم الكتُبِ هو القرآن الكريم، ـ فإطلاقُ لقَبِ «أُمِّيٍّ» بمعنى: لا يقرأُ ولا يكتُبُ، أمرٌ يستحِقُّ التوقُّفَ عندَه، في حينَ أنّ هناك معانيَ تحملُ العَظَمةَ لهذه الكلمة، فكيف نترُكُها ونلجَأُ للمعاني التي تحملُ النَّقْصَ بيْنَ طَيَّاتِها؟ هذا أمرٌ لا يستقيم، وتأَمَّلْ واقعةَ صُلح الحُدَيْبِيَةِ فيما يتَعلَّقُ بكونِ النبيِّ ﷺ يقرأُ ويكتُب:

فعن البراءِ رضي اللهُ عنه، قال: اعتَمَر النّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في ذي القَعْدة، فأبَى أهلُ مكّةَ أن يَدَعوهُ يدخُلُ مكّة، حتّى قاضاهم على أن يُقيمَ بها ثلاثةَ أيّامٍ، فلمّا كتَبوا الكتابَ كتَبوا: «هذا ما قاضَى [عليه] محمّدٌ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم»، فقالوا: لا نُقِرُّ بها، فلو نَعلَمُ أنّك رسولُ الله ما مَنَعْناك، لكن أنت محمَّدُ بنُ عبدِ الله، قال: «أنا رسولُ الله، وأنا محمّدُ بنُ عبدِ الله»، ثمّ قال لعليٍّ: «امْحُ: رسولُ الله»، قال: لا، واللهِ لا أمحُوكَ أبدًا، فأخَذ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم الكتابَ فكتَب: «هذا ما قاضَى عليه محمّدُ بنُ عبدِ الله»[1].

ذَكَر عُمرُ بن شَيْبةَ في كتابِ «الكتاب»، له، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم كتَبَ بيدِه يومَ الحُدَيْبِيَة وأنه لم يكنْ يَعلَمُ الكتابةَ قبلَ ذلك، وأنّ ذلك من معجِزاتِه أنْ عُلِّم الكتابَ من وقتِه. وقال أبوالوليد: كان من أوكَدِ معجِزاتِه أنه يكتُبُ من غيرِ تعلُّم[2].

---

(١) البخاري، كتاب الصلح، باب ٦ برقم ٢٦٩٩.

(٢) الخصائص الكبرى، ٢: ٢٣٦.

وينقُلُ العلّامةُ الأَلوسيُّ روايةً لسيِّدِنا عُتْبَةَ رضي اللهُ عنه، تصديقًا لكونِ النبيِّ ﷺ كان يَعرِفُ القراءةَ والكتابةَ: «**عن عبدِ الله بن عُتبةَ، قال: ما مات النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم حتى قَرأَ وكَتَب**»[١].

ويُعلَمُ من هذا أنه ﷺ لم يكنْ يَعرِفُ القراءةَ ولا الكتابةَ قبلَ إعلانِ النُّبوَّة، وأنّ اللهَ تعالى قد عَلَّمه القراءةَ والكتابةَ بعد النُّبوّةِ مثلَما أعطاه العِلمَ أيضًا، ولكنْ قليلًا ما كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يَحتاجُ إلى القراءةِ والكتابةِ أثناءَ فترةِ الدَّعوة؛ لأنّ أكثرية العرب كانوا أُميِّين، وإنّما كان في حاجةٍ أكثرَ إلى الدَّعوةِ بالقول، وقد ذَكَر شِهابُ الدِّين خَفَاجي حديثًا عن النبيِّ ﷺ بيَّن فيه سببَ عَدم كتابتِه: «**رُوي أنه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: لا أريدُ الخَطَّ لئلا يقَعَ ظلُّ القلم على اسم اللهِ تعالى - رواه الترمذيُّ - فجازاه اللهُ تعالى على ذلك أن يَرفَعَ ظلَّه عن الأرضِ فلا يُوطَأ**»[٢].

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾

٨٢ - كان التعريفُ بالنبيِّ ﷺ في التَّوراةِ والإنْجِيل واضحًا لدرجةِ أنّ أهلَ الكتابِ كانوا يَعرِفونَه مثلَما يَعرِفونَ أبناءهم. راجع (حاشيةَ رقم **٦٣** للآية رقم **٨٩** من سورة البقرة، والحاشيةَ رقم **١٠٤** للآية رقم **١٤٦** من نفس السُّورة، والحاشيةَ رقم **٢١** للآية رقم **٢٠** من سُورة الأنعام). وهناك بعضُ الآياتِ الموجودةِ في الكتابِ المقدَّس الحاليِّ تشيرُ إلى سيّدِنا محمَّدٍ ﷺ، وفي هذا الخصوص لاحِظِ الاقتباساتِ

(١) تفسير روح المعاني.
(٢) نسيم الرياض، النبي الأمي، **٢: ٣٩٨**.

التاليةَ من (الكتابِ المقدَّس الحيِّ، الطبعةِ البريطانية لعام ١٩٧٥م)، حيث قال سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ:

١ـ «حين يُرسلُ الأبُ مساعدًا يمثِّلني (أقصِدُ بالمساعد: الرُّوحَ المقدَّسةَ)، سوف يُعلِّمُكم أشياءَ كثيرةً، وسوف يُذكِّرُكم بكلِّ ما قلتُه لكم»[١].

٢ـ «في الحقيقة، الأفضَلُ لكم أن أرحَلَ؛ لأني إن لم أذهَبْ فلن يأتيَ ذلك المساعدُ، لكنْ إن رحلتُ فسيأتي، لأنّي سأُرسِلُه إليكم .... أريدُ أن أقولَ لكم كلامًا كثيرًا، لكنِ الآنَ لن تستطيعوا فَهْمَه، ولكنْ حين يأتي هو، أي: روحُ الصِّدق، فسوف يُرشِدُكم إلى طريقِ الصِّدق، لأنه لن يقولَ شيئًا من عندِ نفسِه، وإنما سيبلِّغُ ما يسمَعُه، وسوف يُنبِّئُكم بخبرِ المستقبَل، وسوف يُقدِّرُني ويُثْني علَيَّ، ويُريكم عظَمتي ويُجِلُّني»[٢].

إنّ صفاتِ الرُّوح المقدَّسة التي وَرَدت في آياتِ الإنْجِيل المذكورةِ تنطبقُ تمامًا على نبيِّنا سيِّدِنا محمّدٍ ﷺ، وكأنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ قال: إنّ الرُّوحَ المقدَّسة، يعني: النبيَّ الآخِرَ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ، سيأتي، وسوف يُبلِّغُكم شريعتي،

---

(١) When the father sends the Comforter to represent me, and by the Comforter I mean the Holy Spirit- he will teach you much, as well as remind you of everything I myself have told you. إنجيل يوحنا: باب ١٤: آية ٢٦

(٢) But the fact of the matter is that it is best for you that I go away, for if I don't, the Comforter won't come. If I do, he will – for I will send him to you …. Oh, there is so much more I want to tell you, but you can't understand it now. When the Holy Spirit, who is the truth, comes, he will guide you into all truth, for he will not presenting his own ideas, but will be passing on to you what he has heard. He will tell you about the future. He shall praise me and bring me great honor by showing you my glory. إنجيل يوحنا: باب ١٦: الآيات من ٧ إلى ١٤

ويُفهِمُكم كلَّ أحكام شريعتِه، ولأنّ وقتَ مجيئه بعدي، لهذا فإنّ رحيلي خيرٌ لكم، حتى يأتيَ ذلك النبيُّ، والأحكامُ التي لا تستطيعونَ فَهْمَها الآنَ سيقومُ هو بإرشادِكم إلى طريقِ الصِّدق كلِّه، كما أنه لن يقولَ شيئًا من عندِ نفسِه، وإنّما سيقولُ لكم ما يسمَعُه من الله تعالى، وسيُخبِرُكم بخبرِ المستقبل، وسوف يَذكُرُ معجزاتي ويُجِلُّني.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

٨٣ ـ في الجزءِ الأخيرِ من هذه الآيةِ أوضَحَ اللهُ تعالى أنّ فلاحَ الدّارَيْنِ سيكونُ من نصيبِ أولئك الذين آمَنوا بسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ، وعَظَّموه، ونَصَروا دينَه، واتَّبعوا القرآنَ المَجِيدَ الذي نَزَل معَه، والمرادُ بتعظيم النبيِّ ﷺ: تلك الأقوالُ والأفعالُ والأحوالُ التي تظهرُ من أهل الإيمانِ بفَضْل طاعتِهم الصَّادقة وحبِّهم الخالصِ للنبيِّ ﷺ، ولكنْ بشَرْطِ أن يكونَ هذا كلُّه منزَّهًا عن الشِّرك، فتعظيمُ النبيِّ ﷺ واجبٌ على أهل الإيمان، ولاحِظْ فيما يلي بعضَ جوانبِ هذا التعظيم:

١ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨-٩].

٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، ويُعلَمُ من هذا أنّ الذين يرتكبونَ جُرمَ عدَم التأدُّبِ معَ رسولِ الله ﷺ تَضيعُ حسَناتُهم هباءً منثورًا.

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

٤ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤].

تعظيمُ النبيِّ ﷺ في ضوءِ الأحاديثِ النَّبويَّة:

عن أبي سعيدٍ بن المُعَلَّى: أنّ النبيَّ ﷺ مَرَّ به وهو يُصلِّي فدَعاهُ، قال: فصَلَّيتُ ثم أتَيْتُه، قال: فقال: «ما مَنَعَك أن تُجيبَني؟» قال: كنتُ أُصلِّي، قال: «ألم يَقُل اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؟» [الأنفال: ٢٤]؟»[١]، واستُدلَّ بالآيةِ على وجوبِ إجابتِه ﷺ إذا نادى أحدًا وهو في الصَّلاة[٢]؛ لأنّ المُصلِّيَ يخاطبُه بقولِه: «السَّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه»، ولا يُخاطبُ سائرَ الناس، وأنه يجبُ عليه إجابتُه إذا دَعاهُ ولا تَبطُلُ صَلاتُه، كما أنّ السَّلامَ على النبيِّ ﷺ جزءٌ من الصَّلاة[٣].

سلوكُ أهل بيتِ النبيِّ ﷺ وصحابتِه فيما يتَعلَّقُ بتعظيمِه:

١ـ حين رَجَع عُروةُ بن مسعودٍ الثَّقفيُّ في صُلح الحُدَيْبِيَة إلى مكّةَ قال لقُريش: أيْ قوم، واللهِ لقد وَفَدتُ على الملوك، ووَفَدتُ على قَيْصرَ وكِسرى والنَّجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَلِكًا قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه مثلَما يُعظِّمُ أصحابُ محمّدٍ ﷺ محمَّدًا، والله إنْ يتَنخَّمْ نُخامةً إلّا وَقَعتْ في كفِّ رجُلٍ منهم فدَلَّك بها وجهَه وجِلدَه، وإذا أمَرَهم ابتَدروا أمْرَه، وإذا توضَّأ كادوا يقتَتِلونَ على وضوئه، وإذا تكلَّموا خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ النظرَ إليه تعظيمًا له[٤].

٢ـ عن عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ، قالت: وكانتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ إذا دَخلت

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ٣٥١ برقم ١٤٥٨.

(٢) تفسير روح المعاني، سورة الأنفال، الآية ٢٤.

(٣) الخصائص الكبرى، ٢: ٢٥٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب ١٥ برقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

على النبيِّ ﷺ قام إليها فقَبَّلَها وأَجْلَسَها في مجلسِه، وكان النبيُّ إذا دَخَل عليها قامت من مجلسِها فقَبّلَتْه وأجلسَتْه في مجلسِها[١].

٣ـ رُوِيَ عن وازعِ بن عامرٍ، قال: قَدِمنا فقيل: ذاك رسولُ الله ﷺ، فأَخَذْنا بيدَيْهِ ورِجْليه نُقبِّلُها[٢].

٤ـ كان الصَّحابةُ الكرامُ رضوانُ اللهِ عليهم يُقبِّلون يدَ النبيِّ ﷺ، وكان التابعونَ الذين لم يَشرُفوا برؤيةِ النبيِّ ﷺ يُقبِّلونَ أيديَ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم، تلك الأيديَ التي وَضَعوها في يدِ النبيِّ ﷺ يبايعونَه. قال ثابتٌ لأنس: أمسَسْتَ النبيَّ ﷺ بيدِك؟ قال: نعم، فقبَّلَها[٣].

٥ـ قال أبوهريرةَ وهو يُحدِّثُنا: كان رسولُ الله ﷺ يجلسُ معَنا في المسجد يُحدِّثُنا، فإذا قام قُمنا قيامًا حتى نراهُ قد دَخَل بعضَ بيوتِ أزواجِه[٤].

٦ـ كان عبدُ الله بنُ مسعود رضيَ اللهُ عنه صاحبَ سِواكِه ونعلِه ﷺ، إذا قام النبيُّ ﷺ ألبَسَه إياهما، فإذا جلسَ جعَلَهما في ذراعَيْه حتى يقومَ[٥].

تعظيمُ النبيِّ ﷺ بعدَ وفاتِه

* قال القاضي عِياضٌ: واعلَمْ أنّ حُرمةَ النبيِّ ﷺ بعدَ موتِه وتوقيرَه وتعظيمَه لازمٌ كما كان حالَ حياتِه، وذلك عندَ ذِكرِه ﷺ وذِكرِ حديثِه وسُنَّتِه وسَماعِ اسمِه. قال أبوإبراهيمَ التُّجِيبيُّ: واجبٌ على كلِّ مؤمن متى ذَكَره أو ذُكِر عندَه أن يَخضعَ ويَخشعَ ويتوقَّرَ ويُسكِّنَ من حركتِه ويأخُذَ في هَيْبتِه وإجلالِه بما

---

(١) جامع الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦٠ برقم ٣٨٧٢.

(٢) الأدب المفرد للإمام البخاري، ٢٨٨.

(٣) الأدب المفرد للإمام البخاري، ٢٨٨.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ١ برقم ٤٧٧٥.

(٥) السيرة الحلبية، ٣: ٤٥٥.

كان يأخُذُ به نفسَه لو كان بينَ يدَيْه، ويتأدَّبَ بما أدَّبَنا اللهُ به[١].

* حدَّثنا ابنُ حُمَيد، قال: ناظَرَ أبو جعفرٍ أميرُ المؤمنينَ مالكًا في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، فقال له: يا أميرَ المؤمنين! لا تَرفَعْ صوتك في هذا المسجد، فإنّ الله تعالى أدَّب قومًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، ومَدَح قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]، وذمّ قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، وإنّ حُرمتَه مَيْتًا كحُرمتِه حيًّا، فاستكانَ لها أبوجعفرٍ وقال: يا أبا عبد الله! أستقبِلُ القِبلةَ وأدعو أم أستقبِلُ رسولَ الله ﷺ؟ فقال: ولِمَ تصرِفُ وجهَك عنه؟ فهو وسيلتُك ووسيلةُ أبيك آدمَ إلى الله تعالى يومَ القيامة، بل استقبِلْهُ واستشفِعْ به فيُشفِّعْكَ الله. قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

«عن السَّائبِ ابن يزيدَ قال: كنتُ قائمًا في المسجد، فحَصَبَني رجلٌ، فنَظَرتُ فإذا عُمرُ بنُ الخطّاب رضي اللهُ عنه، فقال: اذهَبْ فأْتني بهذَيْن، فجئتُه بهما، فقال: من أنتما؟ أو: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطّائف، قال: لو كنتُما من أهل البلدِ لَأوجَعتُكما، ترفعانِ أصواتَكما في مسجدِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم؟»[٢].

تعظيمُ أحاديثِ النبيِّ ﷺ:

* قال مالكٌ: جاء رجُلٌ إلى ابنِ المسيَّب فسألهُ عن حديثٍ وهو مُضْطجِع،

---

(١) شرح الشفا للقاضي عيّاض، ٢: ٧٢.

(٢) البخاري، كتاب الصلاة، باب ٨٣ برقم ٤٧٠.

فجلسَ وحدَّثه، فقال له الرجُلُ: وَدِدتُ أنك لم تَتَعَنَّ، فقال: إنِّي كرهتُ أن أُحدِّثَ عن رسولِ الله ﷺ وأنا مُضْطجِع[1].

تعظيمُ آثارِ رسولِ الله ﷺ ومتروكاتِه:

* عن ابن سِيرينَ، قال: قلتُ لعُبيدةَ: عندَنا من شَعَرِ النبيِّ ﷺ أصَبْناهُ من قِبَلِ أنسٍ أو من قِبَلِ أهلِ أنس، فقال: لأنْ تكونَ عندي شعَرةٌ منه أحَبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها[2].

* قال ثابتٌ البُنانيُّ: قال لي أنسُ بن مالك: هذه شَعرةٌ من شَعَرِ رسولِ الله ﷺ فضَعْها تحتَ لساني. قال: فوضَعتُها تحتَ لسانِه، فدُفِن وهي تحتَ لسانِه[3].

* حدَّثنا عبدُ الحميد بنُ جعفر، عن أبيه، أنّ خالدَ بن الوليد فَقَد قَلَنْسُوةً له يومَ اليرموك فقال: اطلُبوها فلم يَجِدوها، ثم طَلَبوها فوجَدوها وإذا هي قَلَنْسوةٌ خَلِقة، فقال خالد: اعتَمرَ رسولُ الله ﷺ فحَلَقَ رأسَه وابتَدَر الناسُ جوانبَ شَعَرِه فسَبقْتُهم إلى ناصيتِه فجعلتُها في هذه القَلَنسُوة، فلم أشهدْ قتالًا وهي معي إلّا رُزِقتُ النَّصرَ[4].

* وكان معَ محمّدِ بن إسماعيلَ البخاريِّ شيءٌ من شَعَرِ النبيِّ ﷺ في ملبوسِه[5].

* عن نافع، أنّ ابنَ عُمرَ رضيَ اللهُ عنه كان يَتَّبعُ آثارَ رسولِ الله ﷺ في كلِّ مكانٍ صَلّى فيه، حتى أنّ النبيَّ ﷺ نَزَل تحتَ شجرةٍ فكان ابنُ عُمرَ يتعاهدُ

---

(١) شرح الشفا للقاضي عياض، ٢: ٧٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب ٣٣ برقم ١٧٠.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ١: ١١٢.

(٤) المستدرك على الصحيحين للإمام الحاكم، ٣: ٣٣٩ برقم ٥٢٩٩ و٨٩٧.

(٥) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، المقدمة، ٤٨١.

تلك الشجرةَ فيَصُبُّ في أصلِها الماءَ لكيلا تيبَسَ[1]. لمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٢٠٩ للآية رقم ٢٤٨ من سورة البقرة.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

٨٤ ـ قبلَ بَعْثةِ النبيِّ ﷺ كان الأنبياءُ عليهم السَّلامُ يُبعَثُونَ لأقوام وأُمم وبلادٍ كلٌّ على حِدَة، وعلى سبيل المثال: أُرسِل سيِّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ إلى قوم عاد: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وسيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ إلى قوم ثَمود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وسيِّدُنا شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ إلى أهل مَدْيَنَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وسيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ إلى بني إسرائيلَ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم

---

(١) كنز العمال، ١٣: ٤٧٨ برقم ٣٧٢٥٥.

مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وفي الختام أرسَلَ اللهُ تعالى نبيَّنا الحبيبَ سيّدَنا محمَّدًا ﷺ إلى العالَم كلِّه، وإلى البشَرِ كافّةً، ولهذا فإنّ نُبوَّتَه ﷺ ستبقَى لكلِّ الأجيالِ القادمة حتى قيام الساعة؛ لأنه ﷺ هو النبيُّ الخاتَمُ.

عالَميّةُ نُبوَّتِه ﷺ في ضوءِ القرآنِ الكريم:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأنفال: ١٥٨].

٢- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٣- ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

٤- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

عالَميّةُ نُبوَّتِه ﷺ في ضوءِ الأحاديثِ الشَّريفة:

١- عن جابرِ بن عبدِ الله رضي اللهُ عنهما، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «كان النّبيُّ يُبعَثُ إلى قومِه خاصّةً، وبُعِثتُ إلى النّاسِ عامّةً»[(١)].

٢- عن جابرِ بن عبدِ الله رضي اللهُ عنهما، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «كان كلُّ نبيٍّ يُبعَثُ إلى قومِه خاصّةً، وبُعِثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسوَدَ»[(٢)].

---

(١) البخاري، كتاب التيمم، باب ١.

(٢) مسلم، كتاب المساجد، برقم ٣.

٣ـ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «أُرسِلتُ إلى الخَلْقِ كافّةً، وخُتِم بيَ النَّبيُّونَ»(١).

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾

٨٥ ـ تبدأُ قصّةُ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ وقومِه بني إسرائيلَ ـ في هذه السُّورة ـ من الآيةِ رقم **١٠٣**، ولأنّ أوصافَ نبيِّنا الحبيبِ ﷺ قد وَرَد بيانُها في التَّوراة، لهذا فإنّه ـ بمناسبةِ سياقِ الكلام ـ يعودُ الموضوعُ مرّةً أخرى إلى الحديثِ عن بني إسرائيلَ، بعدَ ذِكْرِ عالميّةِ نبوَّةِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ في الآيتَيْنِ **١٥٧ و ١٥٨**، بمعنى: أنه كان هناك بعضُ الناسِ في حياةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ وبعدَه كذلك ممَّن ثَبَتوا على الحقِّ والعدل.

حينَ قرأَ سيّدُنا موسى عليه السّلامُ أحوالَ الأُمّةِ المحمَّديَّة في التَّوراة، قال، فيما رَواه سيدُنا ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنهما: **«يا ربِّ، أجِدُ أُمّةً يُعطُوْنَ صَدَقةَ أموالِهم ثم تَرجِعُ فيهم فيأكلونَها بعدُ، قال: تلك أُمّةٌ تكونُ بعدَك، أُمّةُ أحمدَ، قال: يا ربِّ، أجِدُ أُمّةً يصَلُّونَ الخمسَ تكونُ كفّاراتٍ لِما بينَهنَّ، قال: تلك أُمّةٌ تكونُ بعدَك، أُمّةُ أحمدَ، قال: يا ربِّ، اجعَلْني من أُمّةِ أحمدَ، قال: فأَنْزلَ اللهُ تعالى كهيئةِ المُراضاة لموسى»**(٢)، بمعنى: أنّ مِن قوم سيّدِنا موسى عليه السّلامُ بعضَ الناسِ الذين يُرشدونَ بالحقِّ، ويَعدِلونَ بالحقِّ، أي: يا موسى لا تَقْلقَ، فسيكونُ في أُمّتِك دائمًا أمثالُ هؤلاءِ الناس الثابتينَ على الحقِّ والعدل.

وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ

---

(١) مسلم، كتاب المساجد، برقم ٥.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم.

مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ
مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ
لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ
ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

٨٦ - راجع الآياتِ من ٥٧ حتى ٦٠ من سورة البقرةِ للتعرُّفِ على مضمونِ الآياتِ من ١٦٠ إلى ١٦٢ من هذه السُّورة، فمضمونُهما واحدٌ.

وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ
تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ
نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ
عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا
ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾
فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ
إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ
وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ
ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ
عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ
لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ
أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ
ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾

٨٧ ـ يومُ السبتِ معروفٌ، وكان هذا اليومُ مقدَّسًا لدى بني إسرائيلَ ومخصوصًا لعبادتِهم، وكانتِ الأعمالُ الدُّنيويّةُ ـ كالتِّجارةِ والزِّراعةِ والصَّيد ـ محظورةً عليهم في هذا اليوم، ومن يُخالفُ هذا الحَظرَ يُقتَلُ.

والمرادُ بالقريةِ في هذه الآية هي: «أَيْلةُ» التـي كانت تقَعُ على شاطئ بحرِ القُلزَم بينَ مَدْيَن والطُّور، وكان بنو إسرائيلَ يسكنونَ هذا المكانَ أيامَ سيّدِنا داودَ عليه السَّلام، وكانت حياتُهم تَعتمِدُ بشكلٍ كبير على صيدِ الأسماك، وعلى سَبيلِ الابتلاءِ من الله لهم كانتِ الأسماكُ تظهَرُ بكثرةٍ يومَ السَّبت، بينَما تظهَرُ بشكلٍ أقلَّ في باقي أيام الأسبوع، وهكذا قام هؤلاءِ بحَفْرِ حُفَرٍ كبيـرةٍ بالقربِ من البـحر، وأوصَلُوها به عن طريق قَنواتٍ حَفَروها أيضًا، وفي يوم السَّبت كانوا يفتَحونَ تلك القنوات، فتمرُّ منها الأسماكُ إلى الحُفَرِ الكبيرة، وعندَئذٍ يُغلِقونَ القَنَوات، وفي يوم الأحد يَصْطادونَ الأسماكَ التي تسلَّلتْ إلى الحُفَر وحَبَسوها فيها، وبهذا الخِداع والتحائُلِ كانوا يعصُونَ أوامرَ الله تعالى.

وكان علماءُ بني إسرائيلَ يَعرِفونَ هذه الواقعةَ تمامًا، وهذا هو السَّببُ في أنه حين أعلَنَها النبيُّ ﷺ عليهم، لم يَستطعْ أحدٌ منهم أن يعترضَ عليها أو يُنكرَها، كما أنّ بيانَ النبيِّ ﷺ لهذه الواقعةِ هو في حدِّ ذاتِه دليلٌ على نُبوَّتـِه؛ لأنّ اللهَ تعالى هو الذي أعلَمَه بهذه الواقعةِ عن طريقِ الوحي.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾

٨٨ ـ كان الصَّالحونَ من بني إسرائيلَ يَمنَعونَ الذين يقومونَ بالصَّيدِ منه يومَ السّبت؛ لأنّ ذلك عِصيانٌ لله تعالى، فقال لهمُ البعضُ: لماذا تنصَحونَ هؤلاءِ الناسَ

وهم مجرِمونَ محترفون، وأفعالُهم تدُلُّ على أنّ اللهَ تعالى مُهلِكُهم قريبًا، أو مُنزِلٌ عليهم عذابًا شديدًا؟ فقال الصّالحون: إنّ من أهدافِ دعوتِنا أن نستطيعَ القولَ يومَ القيامة أنْ يا ربِّ، لقد نَصَحْناهم من قلوبِنا مخلِصينَ، لكنَّهم لم يسمَعوا لنا، وهدفٌ آخَرُ هو أنه ربَّما يتأثَّرونَ بنصيحتِنا فيرجِعونَ عن عصيانِهم لله تعالى ويصبحونَ من المتَّقين. ولكنْ، حينَ أَعْرضَ هؤلاءِ الظالمونَ عامِدينَ متعمِّدينَ عن نصيحةِ الصّالحين، أنجَى اللهُ تعالى الصّالحين، وابتلَى الظالمينَ بالأمراض والإفلاس وغيرِهما بسببِ عصيانِهم[1]، وحينَ لم يرجِعْ هؤلاءِ عن عصيانِهم بالرَّغْم من ذلك، وظَلُّوا على تمرُّدِهم، مَسَخَهمُ اللهُ تعالى ـ في نهاية الأمر ـ إلى قِرَدةٍ، ثم أهلَكَهم بعدَ عدّةِ أيام.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾

٨٩ ـ لقد حَذَّر اللهُ تعالى بني إسرائيلَ مسبَقًا من أنّ الذي يُخالفُ أوامرَ الله تعالى، ويُصِرُّ على ذلك ولا يتوبُ، فسوف يُسلِّطُ اللهُ عليهم حُكّامًا ظالمينَ يُذيقونَهم مُرَّ العذابِ حتى يوم القيامة، مثلَما دَمَّر ملوكُ بابلَ مُدنَ بني إسرائيلَ عام **٥٩٨** قبلَ الميلاد، ودمَّرها كذلك بَخْتُ نَصَّرَ عام **٥٨٧** قبلَ الميلاد، وقُتِل خَلْقٌ كثيرٌ من بني إسرائيلَ، واستُعبِد من بقيَ منهم على قَيْدِ الحياة، ووُزِّع على الناسِ في بابل، وهناك ذِكرٌ لهذا الدَّمارِ والاستعبادِ الذي حَلَّ ببني إسرائيلَ في التَّوراةِ اليومَ أيضًا، وهذانِ اقتباسانِ من (الكتابِ المقدَّسِ الحيّ، الطبعة البريطانيّة عام **١٩٧٥**م) فتأمَّلْهما:

١ـ «لئن لم تُطيعوا ما أقولُ لكم، ورفضتُم أحكامي، فسوف أَرفضُكُم أنا الآخَر ..... وسيَحكُمُكم ألدُّ أعدائكم»[2].

---

(١) تفسير نعيمي.

(٢) الأحبار، ٣٢: ١٤-١٧.

٢ـ «سوف تُستعبَدُ بناتُكم وأبناؤكم أمامَ أعيُـنِكم، ويُقسَّمونَ على الناس، وعندَئذٍ سوف تتمزَّقُ نِياطُ قلوبِكم من محبَّتِكم لأولادِكم، ولكنَّكم لن تستطيعوا تقديمَ أيِّ عونٍ لهم»[1].

ويمكنُ أن يكونَ المرادَ بالاستعبادِ حتى يوم القيامة، أي: طيلةَ حياةِ أولئك العُصَاة، «**فالإنسانُ بمجرَّدِ أن يموتَ تنتهي الدُّنيا بالنِّسبة له، والرسولُ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقولُ: إذا مات أحدُكم فقد قامت قيامتُه**»[2].

﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗا ﴾

٩٠ـ فرّق اللهُ تعالى بني إسرائيلَ في مختلَفِ مناطقِ الأرض، كما جاء في الإنْجِيل أيضًا: «سوف أُفرِّقُكم بينَ الأُمم الأُخرى، وسوف أُدمِّرُكم وأُدمِّرُ مدُنَكم عن طريق الحرب»[3]، إلا أنه كان من بينِهم الصَّالحونَ أيضًا، والطالحونَ كذلك، وسوف نَبتليهم أحيانًا برَغَدِ العيش، وأحيانًا أخرى بضِيقِه، حتى يَرجِعوا عن عصيانِ الله تعالى، وأحوالُ المسلمينَ في أيامِنا هذه تُشبِهُ هذا، ففينا الصّالحُ والطالحُ كلاهما، ونحن مبتَلوْنَ برَغَدِ العيش وبضِيقِه أيضًا.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ ﴾

٩١ـ يعني: أنّه في البداية كان من اليهودِ الصَّالحون، لكنّ الذين جاءوا فيما بعدُ من أهل العِلم الذين وَرِثوا التَّوراةَ، كان أكثرُهم يقومُ بالتحريفِ في أحكام التَّوراة جَرْيًا وراءَ مصالحِه الشَّخصيَّة، وكان هؤلاءِ يعتقدونَ بجانبِ ذلك أنّهم عبادُ الله المقرَّبونَ المفَضَّلون، وأنّهم سيُغفَرُ لهم برَغْم ما يرتكبونَ من الذُّنوب، معَ أنّهم كانوا يعلَمونَ

---

(١) الاستثناء، ٢٨: ٣٢.

(٢) تفسير الشعراوي، والحديث رواه الديلمي.

(٣) الكتاب المقدس الحي، الأحبار، ٢٦: ٣٣.

جيِّدًا أنّ مِثلَ هذا الكلام غيرُ مذكورٍ في التَّوراةِ تمامًا، بمعنى: أنّهم سيُغفَرُ لهم، بل على العكس من ذلك أخَذَ اللهُ عليهم العهدَ في التَّوراةِ أنّهم لن يَفترُوا على الله كذبًا، ولن يقولوا إلّا الحقَّ، لكنَّهم لم يكونوا يخشَوْنَ اللهَ تعالى، وفي نفسِ الوقتِ على يقينٍ من أنّ اللهَ سيغفِرُ لهم، وبسببِ سوءِ الفَهْم هذا تجرَّأوا على ارتكابِ الذُّنوب، فكلَّما بَدَت لهم منفعةٌ ماديّةٌ لم يتردَّدوا في تحريفِ أحكام التَّوراة، واليومَ من بينِ أسبابِ تراجُع المسلمينَ أيضًا أنّهم نَسُوا الآخرةَ أمامَ مصالحِهم الدُّنيويَّة، وهو ما قاله النبيُّ ﷺ: «**يوشِكُ الأُممُ أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلةُ إلى قَصْعتِها**»، **فقال قائل: ومن قلّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «بل أنتم يومَئذٍ كثيرٌ، ولكنّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْل، ولَيَنزِعَنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المَهابةَ منكم، ولَيقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوَهْنَ»، فقال قائل: يا رسولَ الله! وما الوَهْن؟ قال: «حبُّ الدّنيا وكراهيَةُ الموت»**[1].

أمّا سوءُ الفَهْم لدى اليهودِ والذي وَرَد في هذه الآية فهو: أنّهم سيُغفَرُ لهم على أيّةِ حال، والمسلمونَ اليومَ بسببِ مِثل سُوءِ الفَهْم هذا تجَرَّأوا على ارتكابِ الذُّنوب، مثلَما يقولُ سيّدُنا معاذُ بن جَبَل رضي اللهُ عنه: «**سَيبْلَى القرآنُ في صدورِ أقوام كما يَبلَى الثّوبُ، فيتهافَتُ يقرأونَه لا يجدونَ له شهوةً ولا لَذّة، يلبَسونَ جلودَ الضَّأنِ على قلوبِ الذِّآب، أعمالُهم طَمَعٌ لا يخالطُه خوف، إنْ قَصَّروا قالوا: سنبلُغ، وإن أساءوا قالوا: سيُغفَرُ لنا، إنّا لا نُشرِكُ بالله شيئًا**»[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾

٩٢ـ الذين تمسَّكوا بالتَّوراةِ من اليهود، وأقاموا الصّلاةَ، لن يُضِيعَ اللهُ تعالى أَجْرَهم.

---

(١) أبوداود، كتاب الملاحم، باب ٥.

(٢) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب ٤.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾

٩٣ـ حينَ أسْمعَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ أحكامَ التَّوراةِ لبني إسرائيلَ، اعتَذَر هؤلاءِ عن عَدَم العملِ بها، وعليه رَفَعَ اللهُ تعالى الجَبلَ، وجَعلَه مثلَ ظُلّةٍ فوقَ رؤوسِهم، فظنُّوا أنّ الجبلَ لا بدَّ واقعٌ فوقَهم، وبالتالي خافوا ووَعَدوا بالعملِ طبقًا لأحكام التوراة.

وهنا يَبرُزُ إلى الذِّهن سؤالٌ فحواهُ: أنّ الدِّينَ لا إكراهَ فيه، فلماذا أُجبرَ بنو إسرائيلَ على العمَل بأحكام التَّوراةِ إذًا؟ وجوابُه: أنه لا يصحُّ أن يُجبرَ غيرُ المسلم على الدُّخول في الإسلام، لكنّ المسلمَ الذي يعيشُ في كنَفِ حكومةٍ مسلمة، إنْ خالَفَ الأحكامَ الإسلاميّةَ فإنّ مسئوليّةَ الحكومةِ الإسلاميّةِ أن تجعَلَه يلتزمُ بالقوانينِ الإسلاميَّة.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

٩٤ـ مثلَما جَمَع اللهُ تعالى الملائكةَ وجَعَلَهم يسجُدونَ للإنسانِ الأولِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وأعلنَ قيامَ خلافتِه على الأرض، بنفسِ الطريقة أَخْرج النَّسْلَ الإنسانيَّ كلَّه من البدايةِ وحتى قيام الساعةِ من سيّدِنا آدمَ ومن ذُرِّيتِه، وجَمَعَهم في وادي النُّعمانِ بجانبِ جبلِ عَرَفاتٍ، ومَنَحَهم الوجودَ والشُّعورَ والقُدرةَ على الكلام، وجَعَلَهم يشهَدونَ على رُبوبيّتِه، ويُطلَقُ على هذا «ميثاقُ ألستُ»، أي: أنه تعالى سألهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ فأجاب الجميع: «بلى، إنّنا نشهدُ أنك ربُّنا». فقال اللهُ تعالى «**إنّي أُشهِدُ عليكمُ السَّمواتِ السَّبعَ والأَرَضِينَ السَّبعَ، وأُشهدُ عليكم أباكم آدمَ عليه السَّلام أن تقولوا يومَ القيامة: لم نَعلَمْ بهذا، اعلَموا أنه لا إلهَ غيري، ولا ربَّ غيري، فلا تُشركوا بي شيئًا، إنّي سأُرسلُ اليكم رسُلي، يُذكِّرونكم عهدي وميثاقي**»[1].

وهنا سؤالٌ، وهو: أنّ الإنسانَ حين خُلِق في هذه الدُّنيا كان قد نَسِي هذا الميثاقَ، فكيف يصحُّ أن يُتَّخذَ منه حُجّةً يومَ القيامة، ويُعاقَبَ كلُّ من يخالفُه؟ وللإجابة عن هذا السؤالِ راجِعْ ما يلي:

١ـ صحيحٌ أنّ هذا الميثاقَ لا يكونُ حاضرًا في ذهنِ الإنسان وشعورِه بعدَ مولدِه في هذه الحياةِ الدُّنيا، ولكنّ آثارَه موجودةٌ في الفِطرةِ الإنسانيَّة وفي اللاشعورِ الإنسانيِّ، وكلَّما تأمَّلَ الإنسانُ في الهدفِ من خَلْقِه وفي نظام الكائنات، ظَهَرت فيه آثارُ هذا الميثاق، مثلَما يَدفِنُ الإنسانُ قالبًا من الذَّهبِ في غابةٍ من الغابات، ويَحفَظُ العلاماتِ على مكانِ دفْنِه في ذهنِه، وبعدَ فترةٍ لو أنه نَسِي المكانَ، فإنه يكونُ موجودًا بالضَّرورةِ في لاشعورِه، وبالتالي فإنه بتجوُّلِه في الغابةِ والضَّغط

(١) مسند أحمد، ٥: ١٣٥.

على الذاكرة يتذكَّرُ الإنسانُ ـ في نهايةِ الأمر ـ العلاماتِ التي حَفِظَها، ويصلُ إلى المكانِ الذي دَفَن فيه قالبَ الذَّهب.

٢ـ من أثَرِ هذا الميثاقِ أنّ اللهَ تعالى منذُ بَدْءِ الخَليقة وحتى يومِنا هذا يُعبَدُ ويُعتَرَفُ به على أنه اللهُ الخالق، ولو أنّ في التعريفِ به اختلافًا، حيث جَعَل منه البعضُ حَجرًا وعَبَدَه، والبعضُ الآخَر اعتبَره الشمسَ وعبَدَها، لكنّ التصوُّرَ الأساسَ له موجودٌ في كلِّ عصرٍ وكلِّ مكانٍ وكلِّ جيلٍ ونَسْل.

٣ـ حين أرسَلَ اللهُ تعالى الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام، قاموا بأداءِ حقِّ التذكيرِ بهذا الميثاق، وبالتالي فإنّ تبليغَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ للدَّعوة بمثابةِ الحُجّة التي لا يمكنُ إنكارُها، وبالرَّغم من هذا فإنّ الأحمقَ الذي لن يؤمنَ بالله تعالى يكونُ هو المسئولَ عن دخولِه جهنَّمَ وبئسَ المصيرُ، مثلَما يُصلِّي أحدٌ ثلاثَ رَكَعات بَدلًا من أربع ويَخرُجُ من الصَّلاة، وينسَى أداءَ الركعةِ الرابعة، فيقومُ بعضُ الثِّقات من الموجودينَ في المكانِ بتذكيرِه بأنه نَسِي الركعةَ الرابعةَ، فتذكيرُ هؤلاء الثِّقات لهذا المصلِّي حُجّةٌ عليه، فإنْ لم يُصلِّ الركَعاتِ الأربعةَ كاملةً فسوف يُعتبَرُ مجرمًا، رَغْم أنه نفسَه لم يكنْ يَذكُر أنه صَلّى ثلاثَ ركَعاتٍ فقطْ، ولكنْ بعدَ إخبارِ الثِّقاتِ له لم يَعُدْ مِن مجالٍ للإنكار، وهكذا فإنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلامُ قد ذَكَّروا الناسَ بهذا الميثاقِ المَنْسيِّ، وبالتالي لا مجالَ لأيِّ كافرٍ للإنكار بعدَ هذا التذكير.

٤ـ حين تُخبِرُ الأُمُّ ابنَها الشابَّ بأحداثِ طفولتِه، فإنّ هذا الشابَّ يُصدِّقُ ما تقولُه أُمُّه بلا أدنى تردُّد، رَغْمَ أنه هو نفسُه لا يتذكَّرُ هذه الأحداثَ، وذلك لأنه يثقُ في أُمِّه، وهكذا فإنّ الأنبياءَ الكرامَ قد ذَكَّروا الناسَ بهذا الميثاقِ المَنْسيِّ عن طريق الكتُبِ السَّماويّة، وبالتالي يجبُ على أبناءِ آدمَ أن يَشغَلَهم التفكيرُ في الآخِرةِ دون أدنى تردُّد.

٥ـ خَلَق اللهُ تعالى كلَّ إنسانٍ على فطرةِ الإسلام، بمعنى: أنّ اللهَ تعالى قد

أودَعَ في فطرةِ كلِّ إنسانٍ المقدرةَ والاستعدادَ الذي يستطيعُ من خلالِه الحصُولَ على معرفةِ الله تعالى، ولهذا يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال النبيُّ ﷺ في تفسيرِ هذه الآية:

أ ـ «ما من مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطرة، فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه»[١].

ب ـ «قال اللهُ تعالى: إنّي خَلقتُ عبادي حُنَفاءَ كلَّهم، وإنّهم أتَتْهم الشّياطينُ فاجْتالَتْهم عن دينهم»[٢].

وهذا هو السَّببُ في أنّ من يموتُ من أطفالِ بني آدمَ في طفولتِه وقبلَ البلوغ، حتى وإن كان من أطفالِ المشركينَ والكفّار، لن يُصيبَه العذابُ الإلهيُّ يومَ القيامة، وسوف يَدخُلُ الجنةَ طِبقًا عملًا بما أخبرَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في رؤياه: «وأمّا الرّجُلُ الطّويلُ الّذي في الرَّوضةِ فإنّه إبراهيمُ عليه السَّلام، وأمّا الوِلْدانُ الّذين حولَه فكلُّ مولودٍ مات على الفطرة»، قال: فقال بعضُ المسلمين: يا رسولَ الله، وأولادُ المشركين؟ فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «وأولادُ المشركين»[٣].

قال ابنُ حجرِ العسقلانيُّ: «اختَلَف العلماءُ قديمًا وحديثًا في أولادِ المشركين، وقال بعضُهم: إنّهم في الجنة، قال النَّوَويُّ: وهو المذهبُ الصَّحيحُ المختارُ الذي صار إليه المحقِّقون، لقولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، وإذا كان لا يُعذَّبُ العاقلُ لكونِه لم تَبلُغْه الدّعوةُ فلأنْ لا يُعذَّبَ غيرُ العاقل من بابِ الأَوْلى، عن سَمُرةَ بن جُنْدبٍ رضي اللهُ عنه، قال: سألنا رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم عن أطفالِ المشركينَ، فقال: هم خَدَمُ أهل الجنّة»[٤].

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٠.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٦.

(٣) البخاري، كتاب التعبير، باب ٤٨.

(٤) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ٣: ٢٤٧، برقم ١٣٨٣.

٦ـ في نسيانِ هذا الميثاقِ أيضًا حكمةٌ، وهي: أنه يمكنُ ابتلاءُ الإنسانِ في هذه الدُّنيا، ولو بقيَ هذا الميثاقُ حاضرًا في الوعيِ الإنسانيِّ، لَكان كلُّ الناس من أهل الإيمان، ولانتَهى الهدفُ منَ الابتلاءِ وما تحقَّق، ولهذا تمَّت تنحيةُ هذا الميثاقِ من الوعيِ الإنسانيِّ إلى اللّاوعيِ الإنسانيِّ وحِفْظُه فيه حتى يَبذُلَ الإنسانُ جُهدَه من أَجْل الحصُولِ عليه، ولا يمكنُ الحصُولُ على شيءٍ بالاجتهادِ والمحاولة إلّا إذا كانت المقدرةُ عليه موجودةً بالضَّرورةِ تحتَ الشعور؛ لأنّ الشيءَ الذي لا توجَدُ مقدرةٌ على الحصولِ عليه أصلًا، لا يمكنُ الحصولُ عليه ولو بالاجتهادِ والمحاولة، على سبيل المثال: أودَعَ اللهُ تعالى المقدرةَ على السِّباحةِ داخلَ الإنسان، وبالتالي يستطيعُ الإنسانُ أن يسبحَ بتعلُّم السِّباحة، لكنّ المقدرةَ على الطّيرانِ ليست بداخلِه، وبالتالي لا يستطيعُ الطيرانَ حتى وإنِ اجتَهدَ وحاوَل، واليومَ يوجَدُ في هذا العالَم أكثرُ من مليارِ مسلم، وهذا يعني أنه ببركةِ ميثاقِ ﴿أَلَسْتُ﴾ توجَدُ المقدرةُ على التوحيدِ بداخِل الإنسان، ويمكنُه ـ بالمحاولة والاجتهاد ـ تحقيقُه، ومن لا يحاولُ الحصولَ على الحقِّ، فإنه يكونُ مجرمًا بعبادتِه الباطلَ، ولن يُقبَلَ له عُذرٌ يومَ القيامة.

﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

٩٥ـ أَخَذَ اللهُ الميثاقَ على رُبوبيّتِه حتى لا يقولَ أحدٌ يومَ القيامة: إنّي لم أعرِفْ، أو يقولَ: إنّما بدأَ آباؤنا الشِّركَ، ونحن أولادُهم، فتأثَّرْنا بالبيئةِ المحيطةِ في البيت وأشركْنا مِثلَهم، فلماذا تعاقِبُنا بذنبِ آبائنا وأجدادِنا؟

والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى سيعيدُ ذِكرَ هذا الميثاقِ في وَعْي كلِّ إنسانٍ يومَ القيامة، فيتذكَّرُ جيِّدًا أنه ـ بالفعل ـ كان قد أقرَّ بربوبيّةِ الله تعالى، وسيتذكَّرُ أيضًا أنّ أثَرَ هذا الميثاقِ قد ظَهَر مراتٍ عديدةً في وَعْيه في الحياةِ الدنيا، وأنّ فطرتَه قد أقرَّتْ بأنّ اللهَ واحدٌ ووجَّهتْه إلى ذلك، لكنّه أخفَى كلَّ هذا بسببِ التعصُّبِ والخوفِ من البيئةِ

المحيطة، ولهذا سوف يُضطَرُّ الإنسانُ إلى الشهادةِ على نفسِه يومَ القيامة، ويُقرُّ أنه كان كافرًا بالفعل، وأنّ الحياةَ الدُّنيا غرَّته وخَدَعتْه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣].

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا أنه إذا كان الوالدانِ يحمِلانِ عقائدَ خاطئةً، فإنّ على الأولادِ أن يجتهدوا في البحثِ عن الحقِّ بأنفسِهم؛ لأنّ اتّباعَ الوالدَيْنِ الصَّالحَيْنِ طريقٌ إلى الجنّة، بينَما اتِّباعُ الوالدَيْنِ المشركَيْنِ العاصيَيْنِ طريقٌ إلى جهنَّم.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾

٩٦ـ هنا بيانٌ لقصّةِ شخصٍ أعطاهُ اللهُ تعالى عِلمَ الكتابِ السَّماويِّ، فأعرَضَ عن هذا العِلم، وكان نتيجةَ ذلك أنّ الشيطانَ تتبَّعَه وأضَلَّه، فمن يكونُ هذا العالِم؟ لم يَذكُرِ القرآنُ الكريمُ اسمَه؛ لأنّ هذا المثالَ دعوةٌ للتفكُّر، ويَصدُقُ على أيِّ شخصٍ يتخَلَّى عن نعمةِ الدِّين الحقِّ بعدَ أنْ أعطاه اللهُ إياها، وأمثالُ هؤلاءِ العلماءِ المتاجرينَ بالدِّين موجودونَ في كلِّ زمان، حيث يتجاهلونَ أحكامَ الله تعالى وأوامرَه طمعًا في الدُّنيا وملَذّاتِها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾

٩٧ـ لو أنّ العالِم عَمِلَ بأوامرِ الله تعالى وأحكامِه لارتفَعَ مقامُه وعَلَتْ مكانتُه، لكنّه سَقَط في الحضيض باتِّباعِه شهواتِه، ومَثَلُه في ذلك كمَثَل الكلب، فإذا هاجَمَ أحدٌ الكلبَ وضايقَه فإنه يُخرجُ لسانَه من فمِه ويلهَث، وإذا تُرِك حرًّا ولم يُضايقْهُ أحدٌ، فإنه أيضًا يُخرجُ لسانَه من فمِه ويلهَث، بمعنى: أنه في حالتَي الشِّدةِ واللِّينِ

يبدو منه عدَمُ الراحة، وبنفسِ الطريقة الشَّخصُ الذي يكذِّبُ بأحكام الله تعالى طمعًا في الدُّنيا ومُغرياتِها، رَغْم كونـِه عالِمًا، فإنه يظَلُّ يَتـِيهُ في الطمَع والهَوَس بالدُّنيا، سواءٌ كان موسِرًا في الأصل أم معسرًا، وكما أنّ إخراجَ اللِّسانِ من الفم واللَّهْثَ طبيعةٌ ملازمةٌ للكلب، فإنّ الحرصَ والطمعَ في المَلذّاتِ الدُّنيويَّةِ يكونُ عادةً متأصِّلةً في مِثل هذا الشَّخص، ومن هنا فإنّ تحذيرَه من سوءِ العاقبة أو عَدَمَ تحذيرِه سواءٌ؛ لأنه في كلِّ حال متكالِبٌ على مالِ الدنيا وثرواتِها، وقد جاء في الحديثِ أنّ الدنيا جِيفةٌ، وأنّ طُلّابَها كلاب: «رَوى الدَّيلَميُّ، عن عليٍّ رضي اللهُ عنه: **أَوْحَى اللهُ إلى داود: يا داود، مَثَلُ الدُّنيا كمَثَل جِيفةٍ اجتَمَعت عليها الكلابُ يَجُرُّونَها**»[1].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾

٩٨ـ أعطَى اللهُ تعالى الإنسانَ والجانَّ العَيْنَ والأُذُنَ والقلبَ والذِّهنَ، حتى يسمَعوا ويَرَوْا ويتفكَّروا، ويبحثوا عن طريقِ الجنَّة، لكنّ الواقعَ أنّ أكثرَهُم استعمَلوا هذه العطايا الإلهيّةَ استعمالًا خاطئًا، واختاروا طريقَ جهنَّم، وهؤلاء مِن بني الإنسانِ شكلًا، ولكنَّهم كالحَيواناتِ سيرةً وسلوكًا، إذْ لا عمَلَ لهم سوى الطعام والشرابِ والاستمتاع بالملَذّات، بل لو تأمَّلْنا الأمرَ جيدًا لَوجدْنا الحَيواناتِ تهتمُّ بما ينفَعُها ولا يضُرُّها، ولا تقتربُ من النارِ المشتعلة، لكنّ هؤلاء البشَرَ أصحابَ العقول المظلمة أسوأُ من الحَيوانات، إذْ يختارونَ طريقَ جهنَّم ويُهرولونَ إليه هرولةً، وأمامَ نهايتِهم الطبيعيَّةِ هذه قال اللهُ تعالى: إنّهم خُلِقوا لجهنَّم، معَ أنّ الحقيقةَ غيرُ ذلك، فلقد خَلَقَهم اللهُ لعبادتِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ونتيجةُ هذا تكونُ الجنَّةَ، لكنّهم اختاروا طريقَ جهنَّم بسببِ غفلتِهم، بمعنى: أنهم

(١) كنز العمال، ٣: ٢١٤ برقم ٦٢١٥.

يتفكَّرونَ جيِّدًا في أمورِ دُنياهم، لكنَّهم غافلونَ عن الآخِرة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

أودَعَ اللهُ تعالى في الملائكةِ العقلَ فقطْ، ولهذا لا يفعَلونَ سوى طاعةِ الله تعالى، وأودَعَ في الحَيواناتِ الغريزةَ فقطْ، ولهذا فهم يلهَوْنَ، لكنّه جَمَع في الإنسانِ العقلَ والغريزةَ، فإذا ما تغلَّب عقلُه على غريزتِه صار أفضَلَ من الملائكة، وإذا تغلَّبت غريزتُه على عقلِه صار أسوأَ من الحَيوانات:

- **أفضَلُ من الملائكةِ أن تكونَ إنسانًا، ولكنّ هذا يتطلَّبُ جُهدًا فائقًا.**

﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ﴾

٩٩ـ اللهُ تعالى واحد، واسمُه الذاتيُّ واحدٌ أيضًا وهو (الله)، وصفاتُه كثيرةٌ للغاية، ولهذا فإنّ أسماءَ صفاتِه أيضًا كثيرةٌ للغاية، على سبَيل المثال: الرَّحمن، الرَّحيم، الرَّازقُ، الخالقُ، وغيرُها، وقد وَرَد ذِكرُها في القرآنِ والسُّنّة، وصفاتُ الله تعالى هي الأكمَلُ والأعلى، والأسماءُ التي تعبِّرُ عن صفاتِه أيضًا هي الأكمَلُ والأعلى والأفضَل، ولهذا عندَما تَذكُرونَ اللهَ تعالى أو تدعونَه، فاختاروا من أسمائه الحُسنى ما يناسبُ الحالَ والسِّياق، ولا تختلقوا أسماءً من عندِ أنفسِكم مما لا يليقُ بعظَمتِه تعالى ولا بشأنِه، والذين يُسيئونَ في أسمائه عليكم اعتزالُهم، وسوف يلقَوْنَ جزاءَ ما يعملون.

﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾

١٠٠ـ في كلِّ عصرٍ من العصورِ الماضية كان هناك أناسٌ يثبُتُونَ على إيمانهم برسالةِ الحقِّ والعَدْلِ التي جاء بها إليهم نبيُّهم، واليومَ أيضًا وإن كان عددُ غيرِ المسلمينَ يفوقُ عددَ المسلمين، لكنّ أهلَ الإيمانِ ثابتونَ على دين الحقِّ الذي جاء

به سيّدُنا محمّدٌ ﷺ، وسيَظَلُّ هذا الأمرُ قائمًا حتى يوم القيامة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ «**لا تزال طائفةٌ من أُمّتي ظاهرينَ على الحقّ، لا يَضُرُّهم مَن خَذَلَهم** (أي: يبقَوْنَ ثابتينَ على الحق)، **حتّى يأتيَ أمرُ الله** (إعلانُ القيامة) **وهم كذلك** (على الحقِّ قائمون)»[١].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

١٠١ـ الذين يكذِّبونَ بآياتِ الله تعالى لا يلقَوْنَ عقابَهم بشكلٍ فَوْريٍّ في أغلبِ الأحيان، بل على العكس، قد يزيدُ اللهُ تعالى لهم في سَعةِ الدُّنيا ورَغَدِ العيش فيها، فيَفهَمونَ من هذا على سبيل الخطإ أنّ ما يفعَلونَه حقٌّ وصحيحٌ، لكنّ الحقيقةَ هي أنّهم يتَّجِهونَ تدريجيًّا إلى الدَّمارِ وهم غافلون، واللهُ تعالى يُمهِلُهم، حتى يهتَمُّوا بإصلاح أنفسِهم، لكنْ مَن لا يَتُوبُ إلى الله برَغْم كلِّ هذا فإنّ لله تدابيرَ لا يُدانيها تدابيرُ، وتتحقَّقُ في شكلِ عذابٍ شديد، فإنْ شاء اللهُ أَخَذَهم في هذه الدنيا وفي أيّةِ لحظة، وإن شاء أخَّرهم إلى الآخِرة، ولكنّ أَخْذَه في كلِّ حالٍ أَخْذُ عزيزٍ مقتدِر، لا يستطيعُ أحدٌ أن يُفلِتَ منه، ولذا إن فَتَح اللهُ أبوابَ الرِّزق

---

(١) مسلم، الإمارة، برقم ١٩٢٠.

واسعةً على أحدٍ في هذه الدُّنيا رَغْمَ عصيانِه، فلا يظُنَّنَّ أنّ هذا نعمةٌ من الله عليه، إذ إنه في حقيقةِ الأمر وسيلةٌ للاختبار، وذريعةٌ إلى الهلاكِ والدمار.

﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ ﴾

١٠٢- كان معيارَ النَّجاح في هذه الحياةِ والهدفَ منها عندَ أهل مكّةَ هو: أن يتيسَّرَ لهم أكبرُ قَدْرٍ ممكنٍ من تسهيلاتِ الحياة وتحقيقِ الرَّغَبات، لكنّهم حينَ رأَوْا أن النبيَّ ﷺ يُعرِضُ عن رَغَباتِ الدُّنيا، ويجتهدُ في ذِكرِ الله تعالى والتفكُّرِ في الآخِرة، قالوا عنه: إنه مجنونٌ! وعليه، حذَّر اللهُ تعالى المشركينَ بأنّ المجنونَ هو ذلك الذي لا يَعرِفُ ما ينفَعُ قومَه ولا ما يَضُرُّهم، بينَما طفولةُ النبيِّ ﷺ وشبابُه وزواجُه وغيرُها من الأحوالِ والمشاغِل أمامَ أعيُنِكم، فهل تستطيعونَ تقديمَ حَدَثٍ واحدٍ أظهَرَ فيه النبيُّ ﷺ جنونًا؟ ألستُم أنتُم الذين كانوا ينادُونَه بالصّادقِ الأمين لمَّا رأَوْا سلوكَه وتصرُّفاتِه؟ ثم إنّ الشَّخصَ الذي يحدِّثُكم بكلام فصيح بليغ، ممتلئًا من الله عِلمًا وحِكمةً، ويحذِّرُكم من المصيرِ السَّيِّئ قبلَ أن يقعَ بكم، هل يمكنُ أن يكونَ مِثلُ هذا الشَّخص مجنونًا؟ أفلا تتفكَّرون؟ بالطبع لا، فلقدِ اختار اللهُ تعالى سيّدَنا محمَّدًا ﷺ للنبوَّة، ولا يمكنُ أن يكونَ النبيُّ مجنونًا، بل على العكس من ذلك، هو أكثرُ الناسِ عقلًا وإحساسًا بالمسئوليَّة.

﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾

١٠٣- أفلا يتدبَّرُ هؤلاءِ المنكِرونَ في هذه المملكةِ العظيمةِ من السَّماءِ والأرض، وفي هذه المخلوقاتِ التي لا حَصْرَ لها؟ مَن خَلَقها؟ أفلا يُفكِّرونَ أنّ وقتَ رحيلِهم عن الدُّنيا قدِ اقترب؟ وأنّ فرصةَ الإيمانِ حينَئذٍ ستكونُ قدِ انتهت؟ أفلا يتدبَّرون في القرآنِ الكريم الذي لا يوجَدُ كتابٌ أكثرُ منه صِدقًا ولا وضوحًا؟

فإنْ لم يؤمنوا به، فبأيِّ شيءٍ يؤمنون إذًا؟ بمعنى: أنه لم يَعُدْ هناك احتمالٌ لإيمانِهم، وأنّ اللهَ تعالى قد أبعَدَهم من رحمتِه بسببِ عنادِهم وعصيانِهم المتواصِل، وأنهم سيَدخُلونَ جهنَّمَ داخِرينَ وهم في ضلالِهم يعمَهون.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

١٠٤ـ سأل أهلُ مكّةَ: متى تقومُ الساعةُ؟ فأجابَهم النبيُّ ﷺ: لم أُرسَلْ للبحثِ عن الوقتِ الذي تقومُ فيه الساعة، فعِلمُ ذلك عندَ ربِّي فقطْ، وهو الذي سيأتي بها في الموعدِ الذي حدَّده لها. وقد جاء في الإنْجِيل فيما يتَعلَّقُ بيوم القيامة: «لا يَعلَمُ أحدٌ متى أو في أيِّ تاريخ تنتهي الدُّنيا، حتى الملائكةُ والابنُ (عيسى) لا يعلَمونَ ذلك، وإنّما يعلَمُه الأبُ (الله) فقطْ»[1]، إلا أنّ النبيَّ ﷺ قد بيَّن علاماتِ الساعة، على سبيل المثالِ: خروجُ الدَّجّال ونُزولُ سيّدنا عيسى عليه السَّلام، وطلوعُ الشمسِ من مغربِها، لكنّ قيامَ الساعة سيكونُ ثقيلًا على السماواتِ والأرض؛ لأنّها ستقومُ فجأةً، وسيَهلِكُ بقيامِها كلُّ الكائنات، ولن تُعطَى لأحدٍ مُهلةٌ مهما كان، مثلَما قال النبيُّ ﷺ **«والّذي نفسُ محمّدٍ بيدِه، لَتقومَنَّ السّاعةُ وإنّ الرّجُلَ لَيرفَعُ اللُّقمةَ إلى فيه حتّى تحُولَ السّاعةُ بينَه وبينَ ذلك»**[2].

وقد نَقلَ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي في تفسيرِ هذه الآية قولَ المحقِّقينَ بأنّ **«السببَ في إخفاءِ الساعةِ عن العباد أنّهم إذا لم يَعلَموا متى تكونُ كانوا على حَذَرٍ منها، فيكونُ ذلك أدعَى إلى الطاعة، وأزجَرُ عن المعصية»**[3]، ولهذا السَّببِ أيضًا أخفَى اللهُ تعالى وقتَ الموتِ عن عامّةِ الناس؛ لأنه إذا أُخبِرَ أحدٌ أنه سيموتُ بعدَ

(١) الكتاب المقدس الحي، الإنجيل، إنجيل متى، ٢٤: ٣٦.

(٢) التفسير الكبير.

(٣) المرجع السابق.

عشْرِ سنواتٍ مثلًا، فمن الممكنِ أن يتغلَّبَ عليه الشّيطان، فيقرِّرَ أن يقضيَ تسعَ سنواتٍ من العشْرِ في اللَّهوِ واللعب، ثم يتوبَ بعد ذلك، أو أن يتملَّكَه الخوفُ من الموتِ بحيث يترُكُ كلَّ الأعمال ويتفرَّغُ للعبادة فقطْ، ويعيشُ أهلُ بيتِه في فقرٍ مُدقعٍ، والحالتانِ غيرُ محمودتَيْنِ له.

وباختصار: أخفَى اللهُ تعالى وقتَ قيام الساعة عن عامّةِ النّاسِ حتى يَعمَلوا على التخلُّص من الذُّنوبِ والآثام، أمّا الأنبياءُ عليهم السَّلامُ فقد طَهَّرهمُ اللهُ من الذُّنوبِ من الأصل، وهم يخشَوْنَ اللهَ تعالى في كلِّ حال، ولذا لم يكنْ هناك داعٍ لإخفاءِ وقتِ قيام الساعة عنهم، وفي هذا الخصُوص يقولُ الشَّيخُ أحمدُ الصّاوي: «**إنّها من الأمرِ المكتومِ الذي استأثَرَ اللهُ بعِلمِه فلم يُطلعْ عليه أحدًا إلّا منِ ارتضاهُ من الرُّسُل ... والذي يجبُ الايمانُ به أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لم ينتقلْ من الدُّنيا حتى أَعْلَمَه اللهُ بجميع المغيَّباتِ التي تحصُلُ في الدُّنيا والآخِرة، فهو يَعلَمُها كما هي عَيْنَ يقينٍ لِما وَرَد: «رُفِعت ليَ الدُّنيا فأنا أنظُرُ فيها كما أنظُرُ إلى كفِّي هذا»، ووَرَد أنه اطَّلع على الجنّةِ وما فيها والنارِ وما فيها، وغيرِ ذلك بما تواتَرتْ به الأخبار، ولكنْ أُمِر بكتمانِ البعض**»[1]، ولهذا أَخبَرَ النبيُّ ﷺ بعلاماتِ الساعة، ولكنّه أَخفَى وقتَها، كما أنّ إرادةَ الله تعالى هي أن تقومَ الساعةُ بَغْتةً، وألّا يَعلَمَ الناسُ بها قبلَ وقوعِها، مثلَما جاء في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وبنفسِ الطريقة أخفَى اللهُ تعالى وقتَ ليلةِ القَدْر، حتى يقضيَ الناسُ أكثرَ عددٍ من الليالي في عبادتِه تعالى، كما أخفَى وقتَ قَبولِ الدُّعاءِ يومَ الجمُعةِ أيضًا، حتى يقضيَ الناسُ مُعْظَمَ الوقتِ من يوم الجمُعة في ذِكرِه جلَّ وعلا.

---

(١) حاشية الصاوي.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾

١٠٥ـ قال النبيُّ ﷺ لأهل مكّةَ: إنّني لا أملِكُ أن أنفَعَ نفسي أو أن أَضُرَّها باختيارٍ من عندي، ولست أملِكُ أن أنفَعَ نفسي أو أحدًا آخَرَ، أو أضُرَّها أو أحدًا آخَرَ إلّا بقَدْرِ ما أعطاني اللهُ تعالى من الاختيارِ في هذا، فما هو مقدارُ هذا الاختيارِ إذًا؟ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]، يعني: أنّ اللهَ تعالى يُعلنُ أنّه سيُرضي النبيَّ ﷺ فيما يطلُبُه مهما كان مقدارُه، فماذا طلَبَ النبيُّ ﷺ، وكم أعطاه اللهُ تعالى؟ إنّ تصوُّرَ هذا يَفُوقُ قدرتَنا على التصوُّر.

ولتتأمَّلِ الآنَ، فلا يمكنُ أن يستحقَّ شخصٌ الجنّةَ ما لم يؤمنْ بأنّ «محمّدًا رسولُ الله»، سبحانَ الله! كم تكونُ ذاتُه نافعةً ذلك الذي اسمُه نافعٌ بهذا القَدْرِ؟! لقد أَنْعَم اللهُ تعالى على نبيِّه ﷺ بخزائنَ لا حَصْرَ لها، والنبيُّ ﷺ يقسِّمُها بينَ النّاسِ فينفَعُهم، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**واللهُ المعطي وأنا القاسم**»[1].

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾

١٠٦ـ أيُّها المنكِرونَ، لو أنّ عِلمَ الغيبِ منِّي أنا لَكانت قوَّتي كذلك منِّي أنا، ولو كان الأمرُ كذلك لَجمَعْتُ خيرًا كثيرًا، بمعنى: لجعَلتُكم جميعًا مسلمينَ، فلا أتأذَّى لرؤيتِكم في حالةِ الكُفر[2]، ولكنّ الحقيقةَ هي أنّ العِلمَ ليس منّي، ولا القوّةُ منِّي، وكلاهما عطاءٌ من اللهِ تعالى، وأنا أستعملُهما طِبقًا لرضاهُ جلَّ في عُلاه، وأنا للهِ شاكرٌ على كلِّ ما أعطاني من الخَيْر، وصابرٌ على كلِّ ما يصيبُني من إيذاء، ولو أنّني كنتُ طالبًا للراحةِ الدائمةِ عن طريقِ عِلم الغَيْب الذي أعطانيهُ اللهُ تعالى، وطالبًا كذلك للبُعدِ عن الابتلاءِ والمصائب، فكيف يمكنُ أن تكونَ حياتي نموذَجًا لعامّةِ

---

(١) البخاري، الخمس، باب ٧.

(٢) خزائن العرفان.

المسلمين، ومن أين يَستلهِمُونَ الهِمّةَ على مواجهةِ المصاعب؟ ولهذا تحمَّلْتُ شَجَّ جبهتي يومَ غزوةِ أُحدٍ بدايةً لأحصُلَ على عظَمةِ فتح مكّةَ فيما بعدُ، حتى تَعلَمَ الأجيالُ القادمةُ أنّ الصِّدامَ معَ الباطل واردٌ من أَجْل إعلاءِ كلمةِ الحق:

• **أنا أُخبِرُك ما هو تقديرُ الأُمم، السَّيفُ والرُّمحُ أولًا، والرَّقصُ والغناءُ بعدَ ذلك.**

في هذه الآية جاء نَفْيُ عِلم الغيبِ عن النبيِّ ﷺ، في حينَ أنّ النبيَّ ﷺ أَخْبرَ بالعديد من أخبارِ عِلم الغَيْب قبلَ أن تقَعَ، مثلَ: فتح الشّام والعراق، واستشهادِ سيّدِنا عثمانَ وسيّدِنا عليٍّ رضي اللهُ عنهما، وثَبَت صحةُ كلِّ هذه الأحداثِ فيما بعدُ، فكيف يمكنُ أن نوفِّقَ بينَ الأمرَيْن؟

يجيبُ العلّامةُ الخازنُ عن هذا قائلًا: «**يَحتمِلُ أن يكونَ قالَه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم على سَبيل التواضُع والأدب، والمعنى: لا أعلَمُ الغيبَ إلّا أن يُطلِعَني اللهُ عليه ويَقدُرَه لي، ويَحتمِلُ أن يكونَ قال ذلك قبلَ أن يُطلِعَه اللهُ عزَّ وجلَّ على الغيب، فلمَّا أطلَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ أَخْبَر به، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾**»[1].

ويقولُ العلّامةُ الصاوي: «**والذي يجبُ الإيمانُ به أنّ رسولَ الله لم ينتقلْ من الدُّنيا حتى أَعْلمَه اللهُ بجميع المغيَّباتِ التي تحصُلُ في الدُّنيا والآخِرة، فهو يَعلَمُها كما هي عَيْنَ يقين، لِما وَرَد: «رُفِعت ليَ الدُّنيا، فأنا أنظُر فيها كما أنظُر إلى كفِّي هذا»، ووَرَد أنه اطَّلع على الجنةِ وما فيها والنارِ وما فيها وغيرِ ذلك بما تواتَرتْ به الأخبار، ولكنْ أُمِرَ بكتمانِ البعض**»[2].

ويقولُ العلّامةُ الخَفَاجيُّ: «**فإنّ المَنْفيَّ عِلمُه من غيرِ واسطة، وأمّا اطّلاعُه**

(١) تفسير الخازن.

(٢) حاشية الصاوي.

عليه بإعلام الله له فأمرٌ متحقِّقٌ بقولـه تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]. قال ابنُ عطاءِ الله في «لطائـفِ المِنَن»: إطلاعُ العبدِ على غيبٍ من غيوبِ الله بنورٍ منه بدليلِ [قولـه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم]:اتّقوا فراسةَ المؤمن، فإنّه ينظُرُ بنورِ الله(١) ... لا تُستغرَبُ، وهو معنى قولـه: «وما زال عبدي يتقرَّبُ إليّ بالنّوافل حتّى أحببتُه فكنتُ سمْعَه الّذي يسمعُ به، وبصَرَه الّذي يُبصرُ به، ويدَه الّتي يبطِشُ بها، ورِجلَه الّتي يمشي بها، وإنْ سألَني لَأُعطِيَنّه، ولئن استعاذَني لَأُعيذَنَّه»(٢)، فمن كان الحقُّ بصَرَه فإطلاعُه على غيبه غيرُ مُستغرَب»(٣)، وإليك بعضَ الآياتِ الكريمة والأحاديثِ الشَّريفةِ فيما يتَعلَّقُ بعِلم النبيِّ ﷺ للغيب:

١ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، **(أي يجتبيه لعِلم الغَيْب).**

٢ـ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

٣ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

عِلمُ النبيِّ ﷺ للغيبِ في ضوءِ الأحاديثِ النَّبوية:

١ـ عن أبي زَيْدٍ رضي اللهُ عنه، قال: صَلّى بنا رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم الفجرَ، وصَعِد المِنبرَ فخَطَبَنا حتّى حَضَرتِ الظُّهر، فنَزلَ فصَلَّى، ثمّ صَعِد المِنبَر، فخَطَبَنا حتّى حضَرتِ العصرُ، ثمّ نَزل فصَلَّى ... ثمّ صَعِد المِنبَرَ، فخَطَبَنا حتّى غَرَبتِ الشّمسُ، فأخبَرَنا بما كان وبما هو كائنٌ، فأعلَمُنا أحفَظُنا(٤).

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ١٥، سورة الحجر (١٥) برقم ٣١٢٧.

(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣٨ برقم ٦٥٠٢.

(٣) نسيم الرياض، ٣: ١٥٠.

(٤) مسلم، كتاب الفتن، باب ٦.

٢ـ عن عبدِ الله بن عُمَر رضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ اللهَ تعالى قد رَفعَ ليَ الدُّنيا فأنا أنظُرُ إليها وإلى ما هو كائنٌ فيها إلى يوم القيامة كأنما أنظُرُ إلى كفِّي هذه»[1].

٣ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: **إنّ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم صَعِدَ أُحُدًا و أبوبكرٍ وعُمرُ وعثمانُ، فرَجَف بهم، فقال: «اثبُتْ أُحُد! فإنّما عليك نبيٌّ وصِدّيقٌ وشهيدانِ»**[2].

ولمزيدٍ من التفصيلِ والأحاديثِ النَّبويّة راجعْ تفسيرَ الآية رقم **١٧٩** من سُورةِ آل عِمران (٣)، والآيةَ **١١٣** من سُورة النساء (٤)، والآيتَيْن **٥٠، ٥٩** من سُورةِ الأنعام (٦).

۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى

---

(١) كنز العمال، ١١: ٤٢٠ برقم ١٩٧١.

(٢) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٧.

ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾

١٠٧ـ جاءتِ الإشارةُ في بدايةِ هذه الآيةِ الكريمة إلى سيِّدِنا آدمَ والسيّدةِ حوّاءَ عليهما السَّلامُ نوعًا من التمهيد؛ لأنّ سلسلةَ بني الإنسانِ بدأتْ بهما، لكنْ بعدَ ذلك جاء التمثيلُ بزوجَيْنِ عاديَّيْنِ، بقَصْدِ إلقاءِ الضَّوءِ من خلالِه على أحوالِ المشركينَ وعلى تفكيرِهم[1]، بمعنى: أنه عندَما يتوقَّعُ الأُمُّ والأبُ حدَثًا سعيدًا بمولدِ طفلٍ لهما، وتَحمِلُ الأُمُّ ويزدادُ حجمُ بطنِها، فإنّ تخوُّفًا ما يسيطرُ على الوالدَيْنِ جنبًا إلى جَنْبٍ معَ فرحتِهما بالمولودِ المتوقَّع، وهو أنه إذا وُلد هذا المولودُ مكفوفَ البصر، أو أصمَّ، أو به إعاقةٌ جسَديّةٌ أو ذِهنيَّة، فإنّ حياتَهما ستتحوَّلُ إلى عذاب، ولذا فإنّهما يدعُوانِ الله تعالى واعدَيْنِ إياه بأنه إذا وُلِد هذا الطِّفلُ سليمًا معافًى فإنّنا

---

(١) «أنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم» ـ التفسير الكبير.

سنظَلُّ نشكرُك، ولكنْ حينَ يمُنُّ اللهُ عليهم بالطِّفل صحيحًا معافًى بالفعل فإنّهما ينسَيانِ اللهَ تعالى، وينسُبانِ الطفلَ إلى الأصنام، معَ أنّ الأصنامَ في ذاتِها مخلوقة، وبالتالي لا تستيطعُ أن تَخلُقَ شيئًا، ولا تستطيعُ كذلك أن تُعينَ أحدًا، بل إنها عاجزةٌ عن أن تُعينَ نفسَها، فالذُّبابُ يجلسُ على وجوهِها، ولا تملِكُ هي أن تَهشَّه عن نفسِها، وأكثرُ من هذا: أنّكم لو دعوتُمُ الأصنامَ إلى الهداية فإنّها لا تستطيعُ أن تستجيبَ لكم وتتَّبِعَكم؛ لأنها لا رُوحَ فيها، ولذا تستوي دعوتُها من عَدَمِها.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

١٠٨ـ شَبَّه اللهُ تعالى ـ في هذه الآيةِ الكريمة ـ الأصنامَ بالبشَر معَ أنّها بلا رُوح، وقد قيلت ردودٌ عديدةٌ في هذا الأمر، منها على سَبيل المثال: أنّ الأصنامَ مخلوقةٌ مثلُ البشَر، وأنّها تُصنَعُ على هيئة الإنسان، ولهذا قيل لهم ﴿عِبَادٌ ﴾، ويقولُ العلّامةُ فَخْرُ الدِّين الرازي: «**إنّ المشركينَ لمَّا ادَّعَوْا أنّها تضُرُّ وتنفَع، وَجَب أن يعتقِدوا فيها كونَها عاقلةً فاهمةً، فلا جَرَمَ وَرَدتْ هذه الألفاظُ على وِفقِ معتقَداتِهم**»[1].

وقيل للمشركين: إنْ كانت عقيدتُكم هذه صحيحةً بأنّ الأصنامَ آلهتُكم، وأنّها تسمعُكم أيضًا، فجرِّبوا أن تنادُوها، وعليها أن تُجيبَكم، ولكنْ كيف وهي محرومةٌ من الأيدي والأعيُنِ والآذان؟ وبالتالي فإنّها لا تستطيعُ أن تسمعَ لكم شيئًا، ولا يُمكنُها تلبيةُ ندائكم. والحقيقةُ أنّ الأصنامَ أقلُّ منكم أنتم أيضًا، بمعنى: أنكم تستطيعونَ الرؤيةَ والسَّمعَ ولديْكُم العقلُ والشُّعور، في حينَ أنّ الأصنامَ

---

(١) التفسير الكبير.

محرومةٌ من كلِّ هذا، فإذا لم يكنْ ممكنًا أن تكونوا أنتم آلهةً معَ أنّكم بشَرٌ تسمَعونَ وتنطِقون، فكيف يمكنُ لأصنام لا رُوحَ فيها أن تكونَ آلهةً؟ كما أنّ الإنسانَ أفضَلُ من الأصنام، ولا يليقَ بالأفضَل أن يَعبُدَ مَن هو أقلُّ منه.

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

١٠٩ـ هدَّد مشركو مكّةَ النبيَّ ﷺ من أنه لو لم يَرجِعْ عن مخالفةِ الأصنام، وغَضِبتْ عليه، فلن يرى خيرًا، وعليه تَحدَّاهُم النبيُّ ﷺ بأمرِ الله تعالى بأنِ ادعُوا أصنامَكم إنْ كانوا يستطيعونَ إلحاقَ الضَّررِ بي فلْيفعَلوا على الفَوْرِ دونَ أن يُمهِلوني ولو للحظةٍ، ولكـنِ اعـلَموا أنّكم أنتم وأصنامُكم لا تستطيعونَ إيذائي بأيِّ حالٍ من الأحوال؛ لأنّ اللهَ مُعيني وناصري، وهو الذي يَحفَظُ الصَّالحين، وهكذا حاول مشركو مكّةَ بكلِّ ما يملِكونَ من قوّةٍ قَتْلَ النبيِّ ﷺ، وحاصَروا بيتَه ليلةَ الهجرةِ أيضًا، ومعَ ذلك حَفِظَه اللهُ تعالى من شرورِهم.

وفي هذا الخصوصِ يقولُ العلّامةُ فَخْرُ الدِّين الرازي في «التفسيرِ الكبير»: إنّ أميرَ المؤمنين سيّدَنا عُمرَ بنَ عبدِ العزيز رضيَ اللهُ عنه لم يكنْ يجمَعُ لأولادِه مالًا، فلمّا سُئل عن السّببِ قال: لو كان أولادي من الصَّالحين، وتلا الآية ١٩٦ من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴾، يعني: حينَئذٍ سيكونُ اللهُ حاميَهم وناصرَهم، ومَن كان اللهُ حاميَه وناصرَه فليس في حاجةٍ إلى مالي، أما إن كان أولادي ـ والعياذُ بالله ـ غيرَ ذلك، فإنّي لا أستطيعُ أن أُفيدَهم شيئًا بمالي، وتلا الآيةَ ١٧ من سُورة القَصَصِ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: يا إلهي، مثلَما أنعمتَ عليَّ فإنّي لن أكونَ أبدًا مُعِينًا لأيِّ مجرِمٍ مهما كانت علاقتُه بي.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

١١٠ـ يعني: لو أنكَ دعوْتَ الأصنامَ إلى الهدى فلن يسمَعوكَ أبدًا؛ لأنّ آذانَهم ليست حقيقيّةً، وإنّما اصطناعيّةٌ، وبالتالي لا يستطيعونَ السَّمعَ، وعيونُهم كذلك اصطناعيّةٌ، وقد يبدو للرائي أنها تَنظُرُ إليه، بينَما تعجِزُ عيونُهم عن النَّظَر، أمّا إن كان المرادُ المشركينَ فإنّهم كذلك لن يَقبَلوا الهدايةَ؛ لأنّهم وإن كانوا يرَوْنَك، لكنّهم ينظُرونَ إليك بحسَد، ولا يتدبَّرونَ ما تقول، ولهذا فإنّ رؤيتَهم وعَدَم رؤيتِهم سواءٌ.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

١١١ـ جاء في هذه الآيةِ الكريمةِ الإرشادُ إلى ثلاثةِ أشياءَ:

١ـ العفوُ عن المقصِّر إذا اعتَذَر.

٢ـ أمرُ الناسِ بفعلِ المعروف.

٣ـ الإعراضُ عن الجاهلين.

وقد قال الإمامُ جعفرٌ الصّادقُ: **«هذه الآيةُ من ثلاثِ كلمات، تضمَّنت قواعدَ الشريعةِ في المأموراتِ والمَنْهيّات ... العَفْوُ عن المُذنِبينَ والأمرُ بالمعروفِ والإعراضُ عن الجاهلين»**[1].

بعضُ الإرشاداتِ النَّبويَّة عن الأخلاقِ الحسَنة

١ـ عن أبي تميمةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أوْصِني، فقال: «لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئًا ولو أن تلقَى أخاك ووَجهُك مُنبسِطٌ ولو أن تُفرغَ من

---

(١) تفسير القرطبي.

دَلْوِكَ في إناءِ المستسقي، وإنِ امرُؤٌ شتَمَك بما يَعلَمُ فيك فلا تَشتُمْه بما تَعلَمُ فيه، فإنّه يكونُ لك أجرُه وعليهِ وِزْرُه، وإيّاك وإسبالَ الإزار فإنّ إسبالَ الإزارِ من المَخْيَلة، وإنّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يحبُّ المَخْيَلةَ، ولا تَسُبَّنَّ أحدًا»، فما سَبَبْتُ بعدَه أحدًا ولا شاةً ولا بعيرًا[١].

٢ـ قال النبيُّ ﷺ «**أمَرَني ربّي بتسعٍ:**

١ ـ الإخلاصِ في السّرِّ والعلانيَة،

٢ ـ والعدلِ في الرّضا والغَضَب،

٣ ـ والقَصْدِ في الغِنى والفقر،

٤ ـ وأن أعفُوَ عمّن ظَلَمني،

٥ ـ وأصِلَ مَن قطَعني،

٦ ـ وأُعطيَ مَن حَرَمَني،

٧ ـ وأن يكونَ نُطقي ذِكرًا،

٨ ـ وصَمْتي فِكرًا،

٩ ـ ونظَري عِبرةً»[٢]

ولقد كان مِعيارُ العفْوِ الذي أقامَه النبيُّ ﷺ يومَ فَتْح مكّةَ من الرِّفعةِ بمكانٍ بحيثُ لا تجدُ له مثيلًا في تاريخ البشَريّة، فقد عَفَا النبيُّ ﷺ في ذلك اليوم عن أعداءٍ أهالوا عليه من المظالم جبالًا، وأجبَروه على الهجرةِ من مكّةَ، وتآمَروا لقَتْلِه، ومضَغُوا كَبِدَ عمِّه سيّدِنا حمزةَ رضيَ اللهُ عنه، عَفَا عنهم ﷺ برَغْم كلِّ هذا.

---

(١) المسند، ٥: ٦٤.

(٢) تفسير القرطبي.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾

١١٢ـ حينَ يُوسوِسُ الشّيطانُ في عقل أحدٍ فإنّه يستعيذُ بالله تعالى من شرِّه قائلًا: «**أعوذُ بالله من الشّيطانِ الرجيم**»، وفي هذا الإطارِ تأمَّل الحديثَ النَّبويَّ التاليَ:

• **عن سُلَيمانَ بن صُرَد رضي اللهُ عنه، قال: استَبَّ رجُلانِ عندَ النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ونحن عندَه جلوسٌ، وأحدُهما يسُبُّ صاحبَه مُغضَبًا قدِ احمَرَّ وجهُه، فقال النّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «إنّي لَأعلَمُ كلمةً لو قالها لذَهبَ عنه ما يَجِد، لو قال: أعوذُ بالله من الشّيطانِ الرّجيم»[1].**

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

١١٣ـ مَن كان خوفُ الله في قلوبِهم فإنّهم يَذكُرونَ اللهَ تعالى إذا واتَتهُم فكرةٌ سيِّئةٌ أو تصوُّرٌ سيِّئ، وتستيقظُ قلوبُهم، وتتفتَّحُ أعيُنُهم، وتبدو لهم عاقبةُ السُّوءِ واضحةً بيِّنة، وحينَئذٍ يُلقُونَ بهذه الأفكارِ والتصوُّراتِ الشَّيطانيَّة بعيدًا بفَضْل خوفِهم من الله تعالى، أمّا الذين ليس في قلوبِهم خوفٌ من الله تـعالى، فكأنَّهم إخـوانُ الشّيـاطين، وهؤلاءِ الحَمْقى لا يَأْلُونَ جُهدًا في اتِّباعِ اولئك الشياطين، فيغُمِضُونَ أعيُنَهم ويرقُصونَ على إشاراتِهم، وتأمَّلْ فيما يلي مكانةَ الذين يخشَوْنَ اللهَ تعالى:

• **«عن يحيى بن أيوبَ الخُزاعيِّ، قال: سَمِعتُ مَن يَذكُرُ أنه كان زَمنَ عُمرَ بن الخطابِ شابٌّ متعبِّدٌ قد لَزِم المسجدَ، وكان عُمرُ به معجَبًا، وكان له أبٌ شيخٌ كبير، فكان إذا صَلّى العَتْمةَ انصَرفَ إلى أبيه، وكان طريقُه على بابِ امرأةٍ فافتَتَنتْ به، فكانت تَنصِبُ نفسَها له على طريقِه، فمرَّ بها ذاتَ ليلةٍ، فما زالتْ تُغويه حتى تَبِعها، فلمّا أَتَى البابَ دَخَلت وذهبَ يدخُل، فذَكَرَ اللهَ تعالى، وجَلَّى عنه، ومَثُلتْ هذه**

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٧٦.

الآيةُ على لسانِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾، فخَرّ الفتى مَغْشيًّا عليه، فدَعَت المرأةُ جاريةً لها فتعاونَتا عليه فحَمَلتاهُ إلى بابِه، واحتُبِس على أبيه، فخَرَج أبوه يَطلُبُه فإذا به على البابِ مَغْشيًّا عليه، فدَعا بعضَ أهلِه فحَمَلوه فأدخَلوه، فما أفاقَ حتى ذهبَ من اللَّيل ما شاء الله، فقال له أبوه: يا بُنيَّ، ما لك؟ قال: خيرٌ، قال: فإني أسألُك بالله، فأخبَرَه بالأمرِ، قال: أيْ بُنيَّ، وأيَّ آيةٍ قرأتَ؟ فقرأَ الآيةَ التي كان قَرأَ، فخَرَّ مَغْشيًّا عليه، فحرَّكوه فإذا هو ميِّت، فغَسَّلوه فأخْرَجوه ودَفَنوه ليلًا، فلمَّا أصبحوا رُفِع ذلك إلى عُمرَ رضيَ اللهُ عنه، فجاء عُمرُ إلى أبيه فعزّاهُ به وقال: هلّا آذَنْتني؟ قال: يا أميرَ المؤمنينَ، كان ليلًا، قال عُمرُ: فاذهَبوا بنا إلى قبرِه، فأتى عُمرُ ومن معَه القبرَ، فقال عُمرُ: يا فلان، ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فأجابه الفتى من داخِل القبرِ: يا عُمر، قد أعطانيهما ربِّي في الجنّةِ مرّتَيْنِ»[١].

ويُعلَمُ من هذا أنّ التخَلِّيَ عن ارتكابِ الذَّنبِ من خَشْيةِ الله تعالى يكونُ سببًا في الحصُول على جنَّتيْنِ، وأنّ الذهابَ إلى بيتِ متوفًّى وتعزيةَ أهلِه والذهابَ إلى قبرِه من سُنّةِ النبيِّ ﷺ، مثلَما ذهبَ النبيُّ ﷺ بنفسِه إلى قبرِ المرأةِ التي كانت تُنظِّفُ المسجدَ النَّبويَّ[٢].

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾

١١٤ـ عندما كان توقَّفَ نزولُ الآياتِ على النبيِّ ﷺ لبعضِ الوقت، فإنّ

---

(١) كنز العمال، ٢: ٥١٦: برقم ٤٦٣٤.

(٢) «عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ امرأةٍ سوداءَ كانت تقمّ المسجد ـ أو شابًّا ـ ففقدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل عنها ـ أو عنه ـ فقالوا: مات، قال: أفلا كنتم آذنتموني ـ قال: فكانّهم صغّروا أمرها ـ أو أمره ـ فقال: دلّوني على قبره، فدلّوه، فصلّى عليها» ـ مسلم، كتاب الجنائز، باب ٢٣ برقم ٢٢١٥.

المشركينَ كانوا يقولونَ ساخرين: ماذا حدَث لك، ألم تكنْ تنسُجُ الآياتِ من عندِك وتُسمعُنا إياها؟ لماذا لم تَعُدْ تنسُجُ الآيات؟ فكان النبيُّ ﷺ يقولُ لهم: إنّني فقطْ أتلو عليكم الآياتِ، واللهُ تعالى هو الذي يُنزلُها علَيّ، والأدِلّةُ الواضحةُ المبيِّنةُ في هذا القرآنِ دليلٌ أيضًا على أنّ هذا ليس بكلامي أنا، وإنّما هو كلامُ الله تعالى، لكنْ يستفيدُ منه هدايةً ورحمةً أولئك الذين يؤمنونَ باللهِ تعالى.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

١١٥ـ اللهُ تعالى هو خالقُ الكائناتِ كلِّها ومالكُها، وحينَ يُتلَى كلامُه يكونُ على بني الإنسانِ في العالَم كلِّه الاستماعُ إلى كلام خالقِهم الحقيقيِّ بتدبُّرٍ وتمعُّن، حتى تُفتَحَ لهم أبوابُ الرَّحمةِ والهداية، وإذا لم يُلقِ الكفّارُ بالًا إلى كلام الله تعالى، يصبحُ فَرْضَ عَيْنٍ على أهلِ الإيمان أن يَلُوذوا بالصَّمتِ التامِّ بمجرَّد الشروع في تلاوةِ كلام الله تعالى، وأن يسمَعوه بتدبُّرٍ كامل، أما الذين يكونونَ منشغِلينَ بعملٍ ما فإنّ الاستماعَ ليس فَرْضًا عليهم، على سبيل المثال: لو أنّ القرآنَ يُتلَى ويُسمَعُ من خلال الإذاعةِ والتلفزيون ومكبِّراتِ الصَّوت في كلِّ مكان، فإنّ المصَلِّينَ الذين يكونونَ في صلاتِهم حينَئذٍ، وكذا الأساتذةُ معَ طُلّابِهم، والتُّجارُ المنشغلونَ ببَيْعِهم وشرائهم، كلُّ هؤلاء ليس فَرْضًا عليهم الاستماعُ إلى التلاوة، بل إنّ تلاوةَ القرآنِ في الأماكنِ التي يَجِدُ الناسُ فيها صعوبةَ الاستماع أمرٌ ليس صحيحًا في الأصل.

يقولُ العلّامةُ الأَلُوسيُّ في بيانِ سببِ نزولِ هذه الآيةِ: «**قرأَ رجلٌ من الأنصارِ خلفَ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في الصَّلاة، فنزَلت هذه الآيةُ**»[1].

وقد سَمِع سيِّدُنا عبدُ الله بنُ مسعود رضيَ اللهُ عنه بعضَ الناس يَتْلُونَ الآياتِ معَ الإمام في الصَّلاة فقال: «**أمَا آنَ لكم أن تَفقُهوا؟ أمَا آنَ لكم أن تَعقِلوا؟ ﴿ وَإِذَا**

(١) تفسير روح المعاني.

قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ كما أمَرَكم الله»[١]، ويَثبُتُ من هذه الآيةِ مَنْعُ القراءةِ خلفَ الإمام، وليس هناك حديثٌ يمكنُ أن يكونَ حُجّةً في مقابلِ آيةٍ من آياتِ القرآن الكريم.

إنّ القائلينَ بجَوازِ التِّلاوةِ معَ الإمامِ في الصّلاة يعتمِدُ أكثرُهم على الحديثِ الشَّريف الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «**لا صلاةَ لمَن لم يقرَأْ بفاتحةِ الكتاب**»[٢]، معَ أنّ هناك حديثًا نَبويًّا آخَرَ يقولُ فيه النبيُّ ﷺ «**مَن كان له إمامٌ، فقراءةُ الإمام له قراءةٌ**»[٣].

ويمكنُ التوفيقُ بينَ الحديثَيْنِ الشَّريفَيْنِ بأنّ الذي يُصلِّي منفرِدًا عليه أن يقرأَ سُورةَ الفاتحة، أمّا الذي يُصلِّي خلفَ الإمام فعليه الاكتفاءُ بقراءةِ الإمام، وهو ما رواه سيِّدُنا نافعٌ رضيَ اللهُ عنه «**أنّ عبدَ الله بنَ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما كان إذا سُئل: هل يَقرَأُ أحدٌ خلفَ الإمام؟ قال: إذا صَلَّى أحدُكم خلفَ الإمام فحَسْبُه قراءةُ الإمام، وإذا صلّى وحدَه فلْيقَرأْ، قال: وكان عبدُ الله بنُ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما لا يقرأُ خلفَ الإمام**»[٤].

وبهذا، يكونُ عدَمُ القراءةِ وراءَ الإمام عملًا بالقرآن والحديثِ كلَيْهما، أمّا القراءةُ خلفَ الإمام فهي عمَلٌ بحديثٍ واحدٍ فقطْ، وليس عملًا بالحديثِ الثاني ولا بحُكم القرآنِ الكريم، ولهذا يرى الأحنافُ أنّ قراءةَ الفاتحةِ أو أيِّ آيةٍ خلفَ الإمام مكروهةٌ كراهةً تحريميَّةً، سواءٌ كانت الصّلاةُ جَهْريّةً كالفَجْر والمغربِ والعشاءِ والجمُعة والعيدَيْن، أم سِرِّيّةً مثلَ الظُّهر والعصر، وهو ما قاله النبيُّ ﷺ: «**إنّما جُعِل الإمامُ لِيُؤتمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا وإذا قَرأَ فأَنْصِتوا**»[٥].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) مسلم، كتاب الصلاة، باب ١١.

(٣) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ١٣.

(٤) موطأ الإمام مالك، كتاب الصلاة، باب ١٠.

(٥) مسند أحمد، ٢: ٤٢٠.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

١١٦ـ جاء في هذه الآيةِ آدابُ الذِّكرِ الإلهي، والذِّكرُ ـ بصفةٍ مَبْدئيّةٍ ـ قسمانِ؛ يعني: الذِّكرَ في القلبِ صامتًا، أو باللِّسانِ بصوتٍ معتدل، والذِّكرُ بهاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ صحيحٌ، وجاء فَضْلُهما في القرآنِ والحديثِ كليْهما، وتارَةً يكونُ الذِّكرُ في القلبِ طِبقًا للظُّروفِ حتى لا يكونَ فيه أثرٌ للرِّياء، ولا يَحدُثَ خللٌ في صلاةِ أحدٍ يصلِّي، أو نائم ينام، أو عابدٍ يتعبَّد، وتارَةً يكونُ الذِّكرُ برَفْع الصوتِ أفضَل، حتى يُرغِّبَ الآخرينَ فيه. على أيّة حال، يجبُ أن يكونَ في الذِّكر تواضعٌ وعجزٌ وانكسارٌ أمامَ الله تعالى وخوفٌ منه، سواءٌ كان الذِّكرُ بالقلبِ أم باللِّسان، حتى يكونَ محفوظًا من العُجْبِ والغرور، كما أنّنا نَذكُرُ اللهَ تعالى معَ بدايةِ اليوم في الصَّباح الباكرِ عن طريقِ صلاةِ الفجر، حتى يظَلَّ ذِكرُ الله متجدِّدًا فينا طيلةَ اليوم، ونظلَّ بعيدينَ عن التكبُّرِ والغرور، وأيضًا عليكم أن تَبْدَأُوا ليلَكم فَوْرَ بدايتِه بذِكرِ الله تعالى من خلال صلاةِ المغربِ والعشاء، حتى تحُلَّ علينا بركةُ الذِّكر، ولا نقَعَ في الغفلة. وراجعْ في هذا الخصوص الحاشيةَ رقم **١٠٩** للآية **١٥٢** من سُورة البقرة (٢).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾

١١٧ـ جاء في الآيةِ السّابقةِ حُكمُ الذِّكر الإلهيِّ وآدابُه، وفي هذه الآيةِ جاء مثالُ الملائكة لمزيدٍ من الترغيبِ في الذِّكر، من أنّ الملائكةَ لا يَغفُلونَ عن الذِّكرِ والعبادةِ رَغْم أنّهم منزَّهونَ عن المعصية ومقرَّبونَ من الحضرةِ الإلهيَّة، وهم دائمًا يسبِّحونَ اللهَ تعالى ويَسجُدونَ له، وبالتالي يصبحُ من الفرضِ على ابنِ آدمَ الذي هو مركَّبٌ من الخطأِ والنِّسيانِ أن يَعبُدَ اللهَ أكثرَ من غيرِه.

وفي القرآنِ الكريم أربعَ عشْرةَ آيةً كُتِب عند نهاياتِها لفظُ «سَجْدة» فوقَ العلامةِ المحدَّدة لنهايةِ كلِّ آية، ويجبُ السجودُ عندَ قراءةِ كلِّ آيةٍ من هذه الآياتِ

أو الاستماع إليها، وكان النبيُّ ﷺ كلَّما قرأ آيةً من هذه الآياتِ كبَّر وسَجَد، وهو ما يُسمَّى «سجودَ التِّلاوة».

سجود التِّلاوة

وطريقةُ سجودِ التِّلاوة: أن يُكبِّرَ الإنسانُ ثم يَسجُدَ، ويقولُ في سجودِه: «سبحانَ ربِّيَ الأعلى» ثلاثًا، أو يدعو بأيِّ دعاءٍ مسنون، ثم يكبِّرَ ويَرفَعَ رأسَه من السُّجود.

وليس من الضَّروريِّ رَفْعُ اليدَيْنِ حتى الأُذُنيْنِ ولا عَقْدُ اليدَيْنِ تحتَ السُّرّةِ في التكبيرِ الأول، وإنّما نُكبِّرُ ونَخِرُّ ساجدينَ مباشرةً، كما أنه ليس من الضَّروريِّ التسليمُ بعدَ الرَّفْع من السُّجودِ والتكبيرةِ الثانية، وإنّما يكونُ مجرَّدُ الرَّفْع من السجودِ بمثابةِ اكتمالِه.

ومَن قرأَ آيةَ سَجْدةِ التلاوةِ وهو جالسٌ يُستحَبُّ له أن يقفَ ثم يَسجُد.

وشروطُ سجودِ التِّلاوة هي نفسُ شروطِ الصَّلاة، يعني: الوضوءَ واستقبالَ القِبلة.

وقد قال النبيُّ ﷺ عن سجودِ التلاوة: «**إذا قرأَ ابنُ آدمَ السّجدةَ فسجَد، اعتزَلَ الشّيطانُ يبكي، يقول: يا وَيْلَه! أُمِر ابنُ آدمَ بالسّجودِ فسجَدَ فله الجنّة، وأُمِرتُ بالسُّجودِ فأبَيْتُ فليَ النّار**»[1].

بعدَ صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ٢٤ يناير ٢٠٠٦م
جامعة الكرم، إيتن هال، إنجلترا.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمداد حُسَين بِيرْزَاده

* * *

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٣٥ برقم ٢٤٤.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٨) سُورَةُ الأَنْفَالِ

هذه السُّورةُ مدَنيّة؛ لأنّها نَزَلت بعدَ الهجرة، وفي أكثرِها ذِكرٌ لغزوةِ بدرٍ وما يَتعلَّقُ بها من أمور، وغَزْوةُ بدرٍ هي أولُ حربٍ بينَ المسلمينَ والكفَّارِ بشكل منظَّم، وقد نَصَر اللهُ تعالى المسلمينَ فيها، واستَوْلى المسلمونَ على أموالٍ كثيرة، ويقال لها: الأنفال، أي: مالُ الغنائم، وقد بَدَأَ نزولُ هذه السُّورةِ الكريمة حين بدَأَ تقسيمُ الأنفال، ولهذا سُمِّيتِ «الأنفالَ».

وفي أولِ آيةٍ من هذه السُّورة تعليمٌ للمسلمينَ بأنه قد سَمَح لكم بالحربِ في سَبيل حمايةِ البلاد والأُمّة، وإعلاءِ كلمةِ الحقِّ، ولكنّ حقَّ تقسيم أموالِ الغنائم التي يَستولي عليها المسلمونَ أثناءَ الحربِ لله تعالى ولرسولِه الكريم ﷺ فقطْ، وذلك لكي لا يجاهدَ مسلمٌ طمعًا في مالِ الغنيمة، وإنّما يكونُ جهادُه طاعةً لله ولرسولِه ﷺ، والمسلمُ الذي يتَّقي اللهَ ويتوكَّلُ عليه هو المؤمنُ الصّادق، وله عندَ الله تعالى العفوُ والدَّرجاتُ الرَّفيعة.

ولأنّ أكثرَ ما جاء في هذه السُّورةِ عن غزوةِ بدر، لذا من المناسبِ أن نتحدَّثَ فيما يلي عن أحداثِ هذه الغزوة، ونبيِّنَ خَلْفيَّتَها.

خلفيّة غزوة بدر:

حينَ بدَأَ النبيُّ ﷺ الدعوةَ إلى الإسلام، لم يَرفُضْ كفّارُ مكةَ الإسلامَ فقطْ،

وإنما عَمِلوا أيضًا على إيذاءِ كلِّ مَن دَخَل الإسلامَ وضيَّقوا عليه حياتَه، فهاجَرَ بعضُ المسلمينَ إلى الحبَشة، لكنّ وفدًا من كفّارِ مكةَ توجَّه إلى الحبَشة، وحاولَ تحريضَ مَلِكِ الحبَشةِ ضدَّ هؤلاء المسلمينَ لكي يَطرُدَهم من بلادِه[١].

وحينَئذٍ طالَبَ هؤلاءِ المسلمونَ الذين آذاهم كفّارُ مكةَ من النبيِّ ﷺ مِرارًا أنِ ائْذَنْ لنا يا رسولَ الله ﷺ أن نَرُدَّ على الكفّارِ ظُلْمَهم، لكنّ النبيَّ ﷺ قال: اصبروا، فلم يُؤْذَنْ لي في الحربِ بعدُ[٢].

وحين هاجَرَ المسلمونَ إلى المدينةِ المنوَّرة، حاولَ كفّارُ مكّةَ أيضًا أنْ لا يعيشَ المسلمونَ في راحةٍ أبدًا، وحينَئذٍ أَذِن اللهُ تعالى للمسلمينَ بالجهاد، أي: أن يَرُدُّوا على القوةِ بمثلِها. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ثم عَقَد النبيُّ ﷺ معاهدَة صداقةٍ معَ اليهودِ الذين يقطُنونَ المدينةَ المنوَّرة، وتَنصُّ المعاهدةُ على أنّ لكلِّ فريقٍ الحرِّيةَ الدِّينيةَ الكاملةَ، فلليهودِ الحقُّ في البقاء على دينِهم ملتزِمينَ به، وللمسلمينَ كذلك نفسُ الحق، وإنْ هاجَمَ عدوٌّ أيَّ طرفٍ من الموقِّعينَ على المعاهدة يقومُ المسلمونَ والكفّارُ معًا بمواجهتِه، ويُعِينُ كلُّ فريقٍ من الفريقَيْنِ الآخر ويتعاونُ معَه[٣].

لقد كان تقدُّمُ المسلمينَ في المدينةِ المنوَّرة أمرًا لا يطاقُ بالنِّسبة لِكفّارِ مكة، ويمكنُ التعرُّفُ على هذا من الأحداثِ الأربعةِ التي نَذكُرُها فيما يلي:

---

(١) «فلمّا رأت قُريشٌ أنّا قد أصبنا دارًا وأمنًا، فاجتمعوا على أن يبعثوا إلى النجاشي فينا ليخرجونا من بلاده وليردنا عليهم، فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي». البداية والنهاية، ٢: ٧٢.

(٢) ضياء النبي، ٣: ٢٤٨.

(٣) ضياء النبي، ٣: ١٩٣.

١ـ عن عبدِ الرّحمن بن كَعْبِ بن مالكٍ، عن رجُلٍ من أصحابِ النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أنّ كفّارَ قُريشٍ كتَبوا إلى ابنِ أُبَيٍّ ومَن كان يَعبُدُ معَه الأوثانَ من الأَوْس والخَزْرج ورسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يومَئذٍ بالمدينةِ قَبْلَ وقعةِ بدرٍ: إنّكم آوَيْتُم صاحبَنا، وإنّا نُقسِمُ بالله لَتُقاتِلُنَّه أو لَتُخرِجُنَّه أو لَنسيرَنَّ إليكم بأجمَعِنا حتّى نَقتُلَ مُقاتلتَكم ونستبيحَ نساءكم[1].

٢ـ حينَ لم يؤثِّرْ خطابُ قُريشٍ إلى يهودِ المدينة ومنافقيها عليهم، كتَبوا إلى المسلمينَ بشكلٍ مباشرٍ خطابًا بأسلوبٍ تهديديٍّ أنْ أيُّها المسلمونَ، لا تَفرَحوا بأنكم أفلتُّم من قبضتِنا ووصَلتُم هناك (المدينةَ المنوَّرة)، حيث يُمكنُكم الحياةُ بحرِّية، فعليكم أن تتذكَّروا أنّنا سنَحمِلُ على بلادِكم، وسنُعمِلُ السَّيفَ فيكم، ولن نُبقيَ على أحدٍ منكم حيًّا[2].

٣ـ كان في ضواحي المدينةِ المنوَّرة مرعًى يقالُ له «الجَمّاءُ»، وكانت أغنامُ المسلمينَ وجِمالُهم ترعَى فيه، فاتَّخذ كفّارُ مكةَ أولَ خطوةٍ عمَليّةٍ نحوَ تنفيذِ تهديداتِهم وإدخالِ رُعبِ قوَّتِهم إلى قلوبِ المسلمين، بأنْ أرسَلوا بعضَ قُطّاع الطُّرق بقيادةِ أحدِ سادتِهم وهو: كُرْزُ بن جابر، فهاجَموا ذلك المرعَى في المدينةِ المنوَّرة، وقَتَلوا الراعيَ، واستَوْلَوا على أغنام المسلمين وجِمالِهم بالقّوة، وعادوا من حيثُ جاءوا[3].

٤ـ كان أُميَّةُ بن خَلَف أحدُ كفّارِ مكةَ وسَعْد بنُ معاذٍ رضي اللهُ عنه أحدُ المسلمينَ في المدينةِ المنوَّرة صديقَيْنِ قديمَيْن، وكان أُميّةُ بن خَلَف كلَّما خَرَج في سَفَر للتجارةِ مرَّ في طريقِه بالمدينةِ المنوَّرة، فيُعرِّجُ على صديقِه سيّدِنا سَعدِ بن مُعاذ رضيَ اللهُ عنه

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الخراج، باب ٢٣.

(٢) ضياء النبي، ٣: ٢٥٢.

(٣) ضياء النبي، ٣: ٢٧١.

وينزلُ عندَه، وهكذا كان سيّدُنا سعدٌ رضيَ اللهُ عنه كلّما ذهبَ إلى مكّةَ أقام عندَ أُميّةَ، وبعدَ هجرةِ النبيِّ ﷺ ذهبَ سيّدُنا سعدٌ رضيَ اللهُ عنه ذاتَ مرةٍ إلى مكةَ لأداءِ العُمرة، ونَزَل ضَيْفًا على أُميَّة كالعادة، وفي أحدِ الأيام كان سيّدُنا سعدٌ يطُوفُ ببيتِ اللهِ الحرام معَ أُميّةَ، فقال أبوجَهْل: «ما هذا الذي أرى؟ أتطوفُ أنت بمكةَ في أمان، في حينَ أنك آوَيْتَ عندَكَ مَن لا دينَ لهم، وتظُنُّ أنك يمكنُ أن تساعدَهم عندَ الضَّرورة؟ واللهِ لو لم تكنْ ضيفَ أُميّةَ لَما عدتَ إلى بيتِك حيًّا.

وحينَئذٍ ردَّ سيّدُنا سعدٌ رضيَ اللهُ عنه على أبي جهل بصوتٍ عالٍ قائلًا: واللهِ لو منعتَني من الطَّوافِ بالكعبةِ فسأمنَعُك بما لا قِبَلَ لك به، يعني: سأُغلقُ طريقَ تجارتِك الذي يمُرُّ بالقربِ من المدينةِ المنوَّرة[1].

كان أهلُ مكّةَ يعتمِدونَ في معيشتِهم وقوّتِهم على تجارتِهم معَ الشام، وكان طريقُ قوافِلِهم التِّجاريةِ يمُرُّ بالقربِ من المدينةِ المنوَّرة، وقد أنزَلَ كفّارُ مكةَ بالمسلمينَ المظالمَ الكثيرةَ منتَشِينَ بتجارتِهم الناجحةِ هذه، فأجبَروهم على الرَّحيل من مكةَ، واستَوْلَوا على مُمتلكاتِهم بها، بل وأخَذوا يتآمَرونَ عليهم في المدينةِ أيضًا، ولهذا كانتِ الطريقةُ الوحيدةُ للتخَلُّص من مؤامراتِهم هو أن يتَحاشَى المسلمونَ طُرُقَ التِّجارةِ الرئيسةَ، حتى لا يُهاجِمَهم الكفّارُ فجأةً متذرِّعينَ بالتِّجارة، أو تتحسَّنَ أحوالُهم الاقتصاديةُ بالتِّجارةِ هذه، فيَحمِلوا على المدينةِ المنوَّرة ويَقْضُوا على المسلمينَ فيها، ولهذا أخَذ النبيُّ ﷺ يُرسلُ مجموعاتٍ صغيرةً من الجنودِ لتخويفِ قوافِلِهم التِّجاريّة، بغَرَض تجنُّبِ هجوم هؤلاءِ عليهم فجأةً، وفي نفسِ الوقت تقليلُ قوّتِهم الماديَّة، وحتى يَعلَمَ هؤلاءِ أنّ المسلمينَ يعرِفونَ بتحرُّكاتِهم وتنقُّلاتِهم، وليس من السَّهل مُباغتتُهم بالهجوم، ولكنْ لم يُقتَلْ

---

(١) ضياء النبي، ٣: ٢٥٣.

أحدٌ في هذه الحَمَلاتِ، ولم تُنهَبْ قافلةٌ؛ لأنه ﷺ لم يكنْ يستهدفُ القتلَ والسَّلبَ والنَّهب، وإنّما كان يَقصِدُ مجرَّدَ إخافتِهم حتى يَرجِعوا عن عدائهم للإسلام، على العكس من ذلك فإنّ أهلَ مكّةَ كلَّما أُتيحَتْ لهم الفرصةُ آذَوا المسلمينَ، ولم يَألوا جُهدًا في نَهْبِ أموالِهم ومواشيهم، وحين رأَوْا أنه قد أصبح للمسلمينَ نفوذٌ وتأثيرٌ لدى مزيدٍ من القبائل العربيَّةِ الأخرى، أخَذوا يستعِدُّونَ بشكلٍ منظَّمٍ للهجوم على المدينةِ المنوَّرة، حتى يَقْضُوا على المسلمينَ قضاءً مُبرَمًا، وأرسَلوا قافلةً تجاريّةً ضخمةً إلى الشام بقيادةِ أبي سفيانَ، حتى يُنفِقوا من دَخْلِها على غزوِ المدينة[1].

وكان معَ هذه القافلة كتيبةٌ من أربعينَ رجُلًا لحمايتِها، وحين كانت هذه القافلةُ في طريقِ عودتِها من الشام، دَعا النبيُّ ﷺ المسلمينَ للخروج في تعقُّبِ هذه القافلة، وهكذا توجَّه النبيُّ ﷺ من المدينةِ المنوَّرة برُفقةِ ثلاثِمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ من صحابتِه الكرام.

وحينَ عَلِم أبوسُفيانَ أنّ المسلمينَ خَرَجوا بالفعل من المدينةِ في تعقُّبِ قافلتِه أرسَلَ إلى مكّةَ أنْ أغيثونا بمَدَدٍ سريع، وقد أقلقَ هذا الخبرُ كفّارَ مكةَ، واستعدَّ كلُّ فردٍ للحربِ ضدَّ المسلمين، وهكذا توجَّه من مكّةَ جيشٌ من الكفّارِ يضمُّ ألفَ شخص بقيادةِ أبي جَهْل، ومعَه مائةٌ من الخيول، وستُّمائةِ جَمَل، وإماءٌ راقصات، بالإضافة إلى كمِّيَّاتٍ كبيرةٍ من أدواتِ الحرب، وعلى الجانبِ الآخَر كانت قافلةُ أبي سُفيان قد مَرَّت قبلَ وصُولِ المسلمينَ، فأرسَلَ إلى مكةَ أنّ قافلتِي قد مرَّت بسَلام، وليس هناك داعٍ الآنَ للهجوم والتلاحُم العسكريِّ، لكنّ أبا جهل قال: إنّنا لن نعودَ أبدًا، وإنما سنواصلُ المسيرَ حتى بَدْر، وسوف نُلقِّنُ المسلمينَ درسًا.

وعلى الجانبِ الآخَر وَصَل الخبرُ إلى النبيِّ ﷺ وهو في طريقِه أنّ قافلةَ

(١) ضياء النبي، ٣: ٢٧٢.

أبي سُفيان قد أَفْلتت، ولكنّ قريشَ مكّةَ لا تزالُ تتقدَّمُ بجيشِها الجرّار، وهكذا، أمامَ هذا الوضع الجديد، طَلَب النبيُّ ﷺ المَشُورةَ من صحابتِه الكرام، فقال الصّحابةُ الكرام: يا رسولَ الله، اذهَبْ حيثُ تريدُ، ونحن معَك، ولئن أمَرْتَنا أن نَقفزَ في البحر، أو نُواجهَ العدوَّ، فإنّ أرواحَنا تشتاقُ إلى أن تكونَ فداءً لتنفيذِ ما تأمُرُنا به، وندعو اللهَ تعالى أن يُريَك على أيدينا ما تقَرُّ به عينُك، فسِرْ على بركةِ الله، والله لن نقولَ لك ما قالته بنو إسرائيلَ لموسى عليه السّلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، وإنّما نقولُ لك: «اذهَبْ أنت وربُّكَ ونحن معَكما مقاتِلون»[١].

ميدان الحرب:

حين التَقى الجيشانِ في مَيْدانِ بَدْر، وهَجَم كلٌّ منهما على الآخَر، دَخَل النبيُّ ﷺ إلى خيمتِه لبعضِ الوقت، وتضرَّع إلى الله تعالى بكلِّ خشوع وخضوع رافعًا يدَيْه إلى السماءِ قائلًا: اللهمَّ حقِّقْ وعدَكَ الذي وعدتَ، فلوِ انتصَرتْ هذه الفئةُ الكافرةُ على المسلمينَ فسيتغلَّبُ الشِّرك، ولن تقومَ لدينِك قائمةٌ، ولن تُعبَدَ بعدَ اليوم[٢]. وبعدَ أنْ دعا اللهَ تعالى خَرَج النبيُّ ﷺ إلى مَيْدانِ الحرب، وملأَ كفَّيه الشريفتَيْنِ بالحصَى، وألقَى به ناحيةَ الكفّار، ثم حَمَل سيفَه ودَخَل المعركةَ، فأنْزلَ اللهُ تعالى ملائكتَه لنُصرةِ المسلمين، وهُزِم المشركونَ وفَرُّوا من الميدان، و«**قُتل من المشركينَ يومَئذٍ سبعونَ رجُلًا وأُسِر منهم سبعونَ رجُلًا، واستُشهِد يومَئذٍ من المسلمينَ أربعةَ عشَرَ رجلًا**»[٣].

---

(١) ضياء النبي، ٣: ٣١١.

(٢) «اللّهمّ أنجز لي ما وعدتني، اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض».

(٣) طبقات ابن سعد، ٢: ١٦.

وقبلَ المعركةِ بيوم واحدٍ عايَنَ النبيُّ ﷺ مَيْدانَ الحرب، وحدَّد أماكنَ مختلفةً بأنّ جُثّةَ فلانٍ وجُثّةَ فلانٍ من المشركينَ ستكونُ ملقاةً في مكانِ كذا وكذا إن شاء اللهُ تعالى. يقولُ سيّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه فيما رَواه سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عنه: **إنّ رسولَ الله ﷺ كان يُرينا مصَارعَ أهلِ بدَرْ بالأمسِ يقول: «هذا مصرَعُ فلانٍ غدًا إن شاء الله». قال: فقال عُمر: فوالّذي بعَثَه بالحقّ ما أخطأوا الحدودَ الّتي حدَّ رسولُ الله ﷺ**[1].

أسرى معركة بدر:

وبعدَ انتهاءِ المعركةِ عَقَد النبيُّ ﷺ جلسةً للتشاوُر حولَ الأَسرى السبعينَ الذين تمَّ أَسْرُهم خلالَ المعركة، وقُدِّمتْ عدّةُ اقتراحاتٍ منها: أن يُقتَلَ هؤلاءِ الظالمونَ، وغيرُ ذلك، لكنّ الاقتراحَ الذي استراحَ له النبيُّ ﷺ كان إطلاقَ سراحِهم بأَخْذِ الفِديةِ منهم حسَبَ الاستطاعة، ومَن لم يستطعْ منهم أداءَ الفِدية يُعهَدُ إليه بتعليم أطفالِ المدينة القراءةَ والكتابةَ، ثم يُطلَقُ سراحُه[2]، «**فكان زيدُ بنُ ثابت رضيَ اللهُ عنه ممَّن عُلِّم**»[3]، وكان سيّدنا زيدٌ شابًّا أنصاريًّا، وحافظًا للقرآنِ الكريم، ومن كُتّابِ الوَحْي، وقد كُتِبت نُسخةٌ من القرآنِ الكريم في العهدِ الصِّدِّيقيِّ تحتَ إشرافِ سيّدِنا زيدٍ رضي الله عنه.

رُويَ عن سيّدِنا ابن عَبّاس رضيَ اللهُ عنه، **أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم جَعَل فِداءَ أهل الجاهليّةِ يومَ بدرٍ أربعَ مائة، وادَّعى العبّاسُ أنه لا مالَ عندَه، فقال**

---

(١) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٧.

(٢) «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة». مسند أحمد، ١: ٢٤٧.

(٣) طبقات ابن سعد، ٢: ٢٠.

له رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «فأين المالُ الذي دفنتَه أنت وأمُّ الفَضْل؟ وقلتَ لها: إن أُصِبتُ في سَفَري فهذا لبنيَّ: الفَضْل وعبدِ الله وقُثَم؟»، فقال: واللهِ إنّي لأعلَمُ أنّك رسولُ الله، إنّ هذا الشيءَ ما عَلِمَه إلّا أنا وأُمُّ الفَضْل[1].

* * *

(١) سبل الهدى والرشاد، ٤: ١٠٥، ومسند أحمد، ١: ٣٥٣.

سُورَةُ الأَنفَالِ (٨)،

مدنيّة (٨٨)، آياتها (٧٥)، ركوعاتها (١٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾

١ـ كانت معركةُ بدرٍ أولَ حربٍ منظَّمةٍ بينَ الكُفرِ والإسلام، وقد وَقَعتْ في يوم الجمُعة، السابعَ عشَرَ من شهرِ رمضانَ المبارك، من السنةِ الثانيةِ للهجرة، وكان

عددُ الكفّارِ فيها ألفًا على وَجْه التقريب، بينَما كان عددُ المسلمينَ ثلاثَمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ فقطْ، وقد نَصَر اللهُ تعالى المسلمينَ في هذه المعركة، وقُتِل من المشركين سبعونَ، وأُسِر منهم مِثلُهم، بينَما فَرَّ الباقونَ تاركينَ أموالَهم وأمتِعتَهم مِن خَلْفِهم.

والمالُ والمتاعُ الذي يستولي عليه المسلمونَ في الحروبِ يُسمَّى في الاصطلاح الإسلاميِّ «الأنفالَ»، أي: مالَ الغنائم، وقد نَزَلت هذه الآيةُ فيما يتَعلَّقُ بمالِ الغنائم من معركةِ بدر. يقول سيِّدُنا عُبادةُ رضيَ اللهُ عنه: «**خَرَجْنا معَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فشهدتُ معَه بدرًا، فالتقَى الناسُ فهَزَم اللهُ تبارك وتعالى العدوَّ، فانطَلَقتْ طائفةٌ في آثارِهم يهزِمونَ ويَقتُلون، فأَكبَّت طائفةٌ على العسكرِ يَحْوونَه ويجمَعونَه، وأَحْدقتْ طائفةٌ برسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم لا يُصيبُ العدوُّ منه غِرّةً، حتى إذا كان اللّيلُ وفاءَ الناسُ بعضُهم إلى بعض، قال الذين جَمَعوا الغنائمَ: نحن حَوَيْناها وجَمَعْناها فليس لأحدٍ فيها نصيبٌ، وقال الذين خَرَجوا في طلبِ العدوِّ: لستُم بأحقَّ بها منّا، نحن نفَيْنا عنها العدوَّ وهزَمْناهم، وقال الذين أَحْدَقوا برسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: لستُم بأحقَّ بها منا، نحنُ أَحْدَقْنا برسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وخِفْنا أن يُصيبَ العدوُّ منه غِرّةً واشتَغلْنا به، فنَزَلت هذه الآيةُ**»[1]، أي: أنّ مالَ الغنائم ليس مِلكًا لكم، وليس الهدفُ من جهادِكم جَمْعَ مالِ الغنائم، وإنّما المالكُ الأصليُّ لمالِ الغنيمة هو اللهُ تعالى ورسولُه الكريم ﷺ، وسوف يتِمُّ تقسيمُها طبقًا لأوامرِه هو. وسوف يأتي تفصيلُ ذلك في الآيةِ رقم ٤١ فترقَّبْه.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

٢ـ جاء في هذه الآية ذِكرٌ لبعضِ العلاماتِ الظاهريَّةِ والباطنيَّةِ للمؤمنِ الكامل الصادق، وهي:

---

(١) وذلك حين اشتد الاختلاف، ووصلت الأمور إلى التراشق بالكلام وإيلام القلوب. مسند أحمد، ٥: ٣٢٤.

١- حينَ يُذكَرُ اللهُ تعالى فإنّ قلبَه يرتعدُ من جلالِ الله تعالى.

٢- حين يُتلَى القرآنُ الكريم أمامَه يزدادُ إيمانُه قوةً.

٣- لا يتوكَّلُ إلّا على اللهِ فقطْ.

وهذه الصِّفاتُ الثلاثةُ تتعلَّقُ بقلبِ المؤمن وباطنِه، أمّا تصديقُ هذا في الظاهر فيكونُ حين يقيمُ الصَّلاةَ ويُنفقُ في سبيل الله ممّا رَزَقه اللهُ تعالى.

يقولُ العلّامةُ فَخْرُ الدِّين الرازي: «**رُوي أنّ الحَسَنَ سألَه رجلٌ وقال: أمؤمنٌ أنت؟ فقال: الإيمانُ إيمانان، فإن كنتَ تسألُني عن الإيمانِ بالله وملائكتِه وكتُبِه ورُسُلِه واليوم الآخِر، فأنا مؤمنٌ، وإن كنتَ تسألُني عن قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا؟**»[1]، ويمكنُكَ الرجوعُ كذلك إلى الحاشيةِ رقم ٦ للآية رقم ٣ من سورة الفاتحة(١).

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾

٣- حين توجَّه **٣١٣** مسلمًا لحربِ ألفٍ من الكفّارِ لم يَستحسِنْ بعضُ المسلمينَ هذه الخُطوةَ، معَ أنّ الحقَّ في ذلك الوقتِ كان قدِ اتَّضح، فلو لم يَخرُج المسلمونَ للقاءِ جيشِ الكفّار لَكان قد خَرَّب المدينةَ المنوَّرةَ تمامًا، ولَقُضيَ على المسلمينَ عن بَكْرةِ أبيهم، كما أنّ النبيَّ ﷺ كان قد أَخْبر المسلمينَ أنّ النَّصرَ سيكونُ - بإذْنِ الله تعالى - من نصيبِهم في هذه المعركة، ومعَ ذلك كان بعضُ المسلمينَ يُجادلُ بأنّ الخروجَ لمواجهةِ جيشٍ بهذا الحجم إنّما هو بمثابةِ إلقاءِ النَّفسِ في التهلُكة، ولكنْ بالرَّغْم منَ اختلافِ الرأي هذا توكَّل النبيُّ ﷺ على الله، ووَصَل للقاءِ الكفّار في

(١) التفسير الكبير.

سَبيل إعلاءِ رايةِ الحق، ولهذا أَنْعم اللهُ عليه بالنَّصر، وبنفسِ الطريقة إذا كان قد حَدَث اختلافٌ من بعضِ الصَّحابة رضيَ اللهُ عنهم في تقسيم مالِ الغنائم، فقد قال اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم: لا تحزَنْ ولا تغتمَّ، واستمرَّ في اتِّباع حُكْمِ الله تعالى، وستكونُ نتيجتُه يقينًا في صالح المسلمين.

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾

٤ـ بعدَ أنْ غادَرَ الثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ من المسلمينَ المدينةَ المنوَّرةَ، كانت أمامَهم قافلةٌ تجاريّةٌ غيرُ مسلَّحةٍ من جانب، والتي كانت المجموعةُ المكلَّفةُ بحراستها تتكوَّنُ من أربعينَ رجلًا، ومن جانبٍ آخَرَ كان هناك جيشٌ مسلَّحٌ من ألفِ فردٍ يتقدَّمُ نحوَ المدينة للقضاءِ على المسلمينَ قضاءً مُبرَمًا، وفي هذه الأثناءِ وَعَد اللهُ تعالى المسلمينَ أنّكم ستنتصِرونَ على واحدةٍ من هاتَيْنِ الطائفتَيْن، وبالتالي كان من الطبيعيِّ أن يَرى بعضُ الصَّحابة أنّ من الأَوْلى استهدافَ القافلةِ التِّجاريّةِ غيرِ المسلَّحة، حتى يتِمَّ لهم الحصُولُ على أكبرِ قدرٍ من المالِ والمتاع بغيرِ مقاومة، لكنّ اللهَ تعالى أراد أن يحقِّقَ النّصرَ الذي وَعَد به المسلمين، حتى يَثْبُتَ الحقُّ، وتنكسرَ شوكةُ الكفّار، ويمكنُ تحقيقُ هذا حينَ يتوكَّلُ المسلمون على الله تعالى، ويحاربونَ جيشًا يَفُوقُهم بثلاثةِ أضعاف، وينتصرونَ عليه، ويُثبِتُونَ للعالَم كلِّه صِدقَ الإسلام وحَقّانيَّتَه، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فقد هَزَم ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشَر رجلًا جيشًا من ألفِ رجُل هزيمةً منكَرةً قَصَمت ظَهرَ الكفّار، ودَفَنت غرورَهم في التُّراب.

والطائفتانِ اللَّتانِ جاء الوعدُ في هذه الآيةِ بالانتصارِ على إحداهُما كانتا طائفتَيْنِ خاصَّتَيْنِ متعلِّقتَيْنِ بغزوةِ بدرٍ في السنةِ الثانية للهجرة، يعني: قافلةَ أبي سُفيان التِّجارية، وجيشَ أبي لهبٍ الحَرْبِيِّ، وقد أَنْجزَ اللهُ تعالى وَعدَه، وتغلَّبَ المسلمونَ على جيشِ أبي سُفيانَ الحَرْبي.

وليس من الصّوابِ أن نفهَمَ من هذه الآيةِ أنّ المسلمينَ في أيامِنا هذه إذا واجَهوا طائفتَيْنِ من الكفّارِ فإنّهم سينتصرونَ على واحدةٍ تأكيدًا، فمن الممكنِ أن يَحدُثَ عكسُ هذا تمامًا اليومَ؛ لأنّ هذا الوعدَ كان مخصوصًا بتلك الطائفتَيْنِ فقطْ.

وهكذا استمرَّت غَزَواتُ النبيِّ ﷺ وحروبُه ضدَّ الكفّارِ لعَشْرِ سنوات من حياتِه في المدينة المنوّرة، وكانت أكثرُ الأحكام التي نَزَلتْ في تلك الفترة تتعلَّقُ بالكفّارِ المُهاجِمينَ وبحالةِ الحرب، ويجبُ أن نَنظُرَ إلى هذه الأحكام في ضَوْء تلك الظروف، وبالتالي فإنّ الاستدلالَ بحالةِ الحرب التي كانت قبلَ ألفٍ وأربعِمائةِ عام، وإسقاطَها على عالَمِنا اليومَ يُعَدُّ إساءةً للإسلام.

على سبيل المثال: الأحكامُ التي أصدَرها المسئولونَ الفرنسيُّونَ لجيوشِهم لمواجهةِ المهاجِمينَ الألمانِ في الحربَيْنِ العالميَّتَيْنِ: الأُولى والثانية، يجبُ أن يُنظَرَ إليها في ضَوْءِ ظروفِ ذلك العصر، ولا يجوزُ الاستشهادُ بتلك الأحكام فيما يتعلَّقُ بظروفِ السَّلام الذي تعيشُه فرنسا وألمانيا في أيامِنا هذه، فلو قال أحدٌ: إنّ نظَريّاتِ وأحكامَ فرنسا ضدَّ الألمانِ في تلك الحروبِ لا تزالُ كما هي في أيامِنا هذه، ولا يزالُ الفرنسيُّونَ في الوقتِ الراهن يَعتبِرونَ قتلَ الألمانِ واجبًا عليهم، فإنّ هذا يعني ـ بوضوح ـ أنه يتآمرُ لخَلْق المشاكل بينَ فرنسا وألمانيا. وبنفسِ الطريقة، لو ادَّعى أحدٌ أنّ أحكامَ الإسلام ضدَّ غيرِ المسلمينَ لا تزالُ كما هي حتّى اليوم مثلَما كانت في غزوةِ بدرٍ وأُحُد، أي: أنّ المسلمينَ يَعتبِرونَ قَتْلَ غيرِ المسلمينَ واجبًا عليهم، فإنّ هذا يعني بوضوح أيضًا أنه يتآمرُ لخَلْقِ المشاكل بينَ المسلمينَ وغيرِ المسلمينَ، وعلى العالَم أن يحاولَ فَهْمَ هذه الحقائق، وألّا يحاولَ بتْرَ التعاليم والأحكام الإسلاميّةِ عن سياقِها، فيُسيءَ إلى الإسلام.

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾

٥ـ حين رأى النبيُّ ﷺ في غزوةِ بدرٍ أنّ عددَ المسلمينَ ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ،

وأنّ عددَ الكفّارِ ألفٌ، رَفَع أكُفَّ الدُّعاءِ في حضرةِ الله تعالى، سائلًا المولى عزَّ وجلَّ النَّصرَ للإسلام، وكان الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم يؤَمِّنونَ على هذا الدُّعاء.

وقدِ استجابَ اللهُ تعالى لدعائه ﷺ مُعلِنًا أنه سيُرسلُ ألفًا من الملائكةِ لنُصرةِ المسلمين، ثم أضاف ألفَيْنِ آخرَيْنِ ليصبح المجموعُ ثلاثةَ آلاف، وإنْ هَجَم الكفّارُ فجأةً سيَزيدُهم ألفَيْنِ آخَرَيْنِ ليصبحَ المجموعُ خمسةَ آلاف[1]، وهو ما جاء ذِكرُه في الآيتَيْنِ ١٢٤، ١٢٥ من سورة آلِ عمران (٣)، **«وقد ظَهَر بعضُ الملائكةِ لبعض الرِّجال في صُورةِ الرِّجال، ورَوى البيهقيُّ وابنُ عساكرَ، عن سَهْل بن عَمْرٍو رضيَ اللهُ عنه، قال: لقد رأيتُ يومَ بدرٍ رجالًا بِيضًا على خَيْل بُلْق بينَ السَّماءِ والأرض معلَّمينَ يقتُلونَ ويأسِرون»**[2].

إنّ مَنْبعَ الفَتْح والنُّصرة هو اللهُ تعالى، وقد وَعَد من قبلُ بنَصْرِ المسلمينَ على واحدةٍ من الطائفتَيْنِ، وبالرَّغم من ذلك أَنْزلَ الملائكةَ حتى يزدادَ اطمئنانُ المسلمينَ وسرورُهم، ويواجِهوا العدوَّ بكلِّ جُرأةٍ وثبات.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ

---

(١) تفسير نعيمي.

(٢) التفسير المظهري.

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾

٦- وَصَل جيشُ الكفّارِ المحارِبُ إلى بدرٍ أولًا، فوَضَعوا أيديَهم على أرضٍ ذاتِ تربةٍ جيِّدة، وعلى آبارِ الماءِ الموجودة هناك، أمّا المسلمونَ فقد كان من نصيبِهم في أرضِ بدرٍ تلك المنطقةُ الرَّمليَّةُ التي تَغُوصُ الأقدامُ فيها حين تطؤُها، ولم يكنْ فيها ماءٌ أيضًا، ولهذا عانَوْا من شُحٍّ شديدٍ في الماء بغَرَض الشربِ والطهارة، وفوقَ هذا وَسْوسَ الشّيطانُ لبعض المسلمينَ أنه لو أنّ الإسلامَ دينُ حقٍّ لَما ابتُليتُم بهذا الظَّمأِ الشّديد، ورَغْمَ أنّ هذه الوَسْوسةَ كانت على غيرِ أساس، لكنّها كانت بالتأكيدِ وسيلةً لزيادةِ القلق، وقبلَ المعركة بيوم واحدٍ أَنْزلَ اللهُ من السّماءِ مطرًا شديدًا أغرقَ معَه وساوسَ الشَّيطانِ هذه وقضَى عليها، وحَصَل المسلمونَ على فوائدَ كثيرة، منها:

١- توفُّرُ الماءِ للمسلمينَ من أَجْلِ الوضوءِ والغُسْل، فكانوا يتـطَّهرونَ ويغتسلونَ، كما أنّهم أعدُّوا حَوْضًا جَمَعوا فيه من الماءِ ما يكفي حاجاتِهم الضَّروريّةَ.

٢- الوساوسُ التي وَضَعها الشّيطانُ في بعض الأذهانِ من أنه لو كان الإسلامُ دينًا صادقًا لَما بقِيتُم عطشَى هكذا، أزالَها المطرُ الذي أَنْزلَه اللهُ تعالى.

٣- زال عن المسلمينَ خوفُهم وقلقُهم لمّا نَزَل المطرُ عليهم، وتشجَّعت به قلوبُهم؛ لأنّهم لو ظَلُّوا منكسرِي القلوبِ هكذا لَكان هناك خطرٌ من أن يخافَ المسلمونَ ويَفِرُّوا من الحرب.

٤ـ كانت أقدامُ المسلمينَ تغُوصُ في الرِّمال، وكان من الصَّعبِ عليهم التحرُّكُ بسهولة، لكنْ مَع نزولِ المطرِ هَبَطتِ الرِّمالُ، وأصبح السَّيرُ عليها سهلًا، في حينَ تحوَّل معسكرُ الكفّارِ إلى أوحالٍ بنزولِ المطر، وصار التحرُّكُ بالنِّسبة لهم من الصُّعوبةِ بمكان.

وقدِ اعتَرى المسلمينَ حالةٌ من النَّوم في اللّيلةِ الأولى من اليوم الذي كان عليهم فيه محاربةُ جيشٍ يفُوقُهم بثلاثةِ أضعاف، معَ أنه كان من المتوقَّع أن يبقَوْا ليلَتَهم هذه في قلقٍ وتفكُّرٍ بسببِ قلةِ العددِ والعتاد، لكنّ اللهَ تعالى تفضَّل على المسلمين، وجَعَل حالةً من النَّوم تعتريهم طَمْأنةً لهم، وإزالةً للتعبِ عنهم، وبالتالي كانوا في غايةِ النشاط صباحَ يوم المعركة، ولو كانت ليلتُهم هذه قد مرَّت ـ لا قدَّر الله ـ في قلقٍ واضطرابٍ لَما كانوا نشيطينَ عندَ الصَّباح ولا مستعدِّينَ للقاءِ العدوِّ بشجاعةٍ وثبات.

وفي هذا المقام يقولُ العلّامةُ ابنُ كثيرٍ في «تفسيرِه»: كان النبيُّ ﷺ في تلك الليلة مشغولًا بالعبادة في عريشِهِ، فغَلَبه النُّعاسُ لبُرهةٍ استَيْقظَ بعدَها، ثم بشَّرهم مبتسِمًا وهو يقول: يا أبا بكر، هذا جِبريلُ يقفُ عندَ المرتفَع الجَبَلي، ثم خَرَج النبيُّ ﷺ من عريشِهِ وهو يقرأُ هذه الآيةَ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾

٧ـ هنا إخبارٌ لمجاهدي بدرٍ أنْ يتذكَّروا فَضْلَ الله تعالى حينَ قال للملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾، ويُرسِّخوا في قلوبِهم أنّ النصرَ سيكونُ لهم إن شاء الله، كما أنّ اللهَ تعالى قد شجَّع أهلَ الإيمانِ قائلًا: إنني سأُلقي الرُّعبَ منكم في قلوبِ الذين كَفَروا، ولهذا عليكم أن تَحمِلوا على العدوِّ بكلِّ قوة، ومزِّقوا أجسادَهم.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

٨ ـ المرادُ في هذه الآية من مخالفةِ الله تعالى هو: مخالفةُ أهل الإيمان[1]، بمعنى: أنّكم أُمِرتُم بتمزيقِ أجسادِ كفّارِ مكّةَ يومَ غزوةِ بدر؛ لأنّهم تعَدَّوْا كلَّ حدٍّ في مخالفةِ الله ورسولِه ﷺ، كما أنّ كفّارَ مكّةَ قد أحالوا حياةَ الذين آمَنوا بالله ورسولِه في مكّةَ جهنَّمَ، فآذَوْهم بدرجةٍ جَعَلتْهم يُهاجرونَ من مكّةَ إلى المدينة، ومعَ ذلك لم يترُكْهم هؤلاءِ الظالمونَ، وإنّما تَبعوهم إلى المدينةِ أيضًا، ولهذا فإنّ هؤلاءِ يستحِقُّونَ هذا العقابَ، وهكذا قُتِل في هذه المعركةِ سبعونَ من الكفّار، وأُسِر سبعونَ أيضًا، أمّا الباقونَ فقدِ انهَزَموا وفَرُّوا من المَيْدان، وقد نال هؤلاءِ عقابَ ظُلمِهم في هذه الدنيا، وفي الآخِرة سيُبتَلَوْنَ بعذابٍ أليم، أكثرَ قسوةً من العذابِ الذي لاقَوْهُ في الدنيا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

٩ـ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ أَمَر اللهُ تعالى أهلَ الإيمان بأنه عندَما تواجِهونَ جيشَ الكفّارِ الجرّارَ عليكم أن تَثبُتوا، ولا تُولُّوهمْ أدبارَكم، ومن يَجبُنْ في ذلك ويَفِرَّ من المَيْدانِ يستحِقَّ غضَبَ الله عليه في هذه الدنيا، وفي الآخِرة جزاؤه جهنَّمُ وبئس المصير.

إلّا أن هناك صورتَيْنِ يمكنُ فيهما أن يُولِّيَ المسلمُ دبُرَه، **الصُّورةُ الأولى:** أن يكونَ ذلك بسببِ خُدعةٍ حَرْبيّة، فينسحبَ من هذا المكانِ ليَحمِلَ عليهم فجأةً من مكانٍ آخر، **والصُّورةُ الثانية:** أن يتقدَّمَ وحدَه في قتالِه معَ الكفّارِ حتى يصبحَ في خطرِ أن يحاصرَه الجيشُ، ولهذا عليه أن ينسحبَ لكي يبقى معَ جيشِه، ويتمكنَ من

---

(١) «﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أولياءه» ـ القرطبي.

مهاجمةِ العدوِّ ثانيةً، فإذا كانت هناك خُطةٌ بهذا الشَّكل ليس المقصودُ منها الفِرارَ من المَيْدان، وإنّما أن يكونَ الهجومُ على العدوِّ في أحسنِ صورة، فذلك جائزٌ، بل هو المُستحسَن.

والإرشاداتُ التي وَرَدت في هذه الآياتِ لتثبيتِ أقدام الجنودِ في المعركة تعمَلُ الدنيا كلُّها اليومَ طِبقًا لها، بمعنى: أنّ رئيسَ كلِّ بلدٍ يأمُرُ جنودَه في مَيْدانِ المعركة أن يثبُتوا في الميدان، وألّا يَجبُنوا أبدًا، والجنديُّ الذي يَفِرُّ من الميدانِ تَعُدُّه كلُّ بلدٍ مجرمًا، وتتَّخذُ ضدَّه الإجراءاتِ القانونيَّة.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾

١٠ـ بعدَ الانتصارِ في غزوةِ بدرٍ أخَذ الصَّحابةُ الكرامُ يتفاخَرونَ فيما بينَهم «**حين قال هذا: قَتلتُ، يعني: فلانًا، وقال هذا: قَتلتُ، يعني: فلانًا**»[1]، عندَئذٍ نزَلت هذه الآيةُ، أي: لا تُفاخِروا بقَتْل الكفّار؛ لأنّه لو لم يُمدِدْكُم اللهُ تعالى بعَوْنٍ من عندِه، ولو لم يُعْلِ من همَّتِكم بإنزالِ المطرِ والملائكة، لَما استطعتُم أن تنتصِروا على جيشٍ يَفُوقُكم بثلاثةِ أضعاف، لهذا عليكم أن تَعلَموا أنّ هذا النَّصرَ فَضْلٌ من الله تعالى، فاشكُروه على ذلك.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنه يجبُ نسبةُ كلِّ عملٍ طيِّب وحَسَنٍ إلى اللهِ تعالى، وحين يقومُ الإنسانُ ـ بتوفيقِ اللهِ تعالى ـ بعملٍ طيِّب، يجبُ عليه أن يشكُرَ اللهَ تعالى، لا أن يُفاخِرَ بالقيام بهذا العمَل.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾

١١ـ حينَ تَواجَه المسلمونَ والكفَّارُ في معركةِ بدرٍ، أخَذ النبيُّ ﷺ بقَبْضةٍ من

---

(١) تفسير ابن ابي حاتم.

التّرابِ وألقَى بها على وجوهِ الكفّارِ قائلًا: «**شاهَتِ الوجوه!، فدَخلت في أعيُـنِهم كلِّهم، وأَقْبلَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ يقتُلونَهم ويأسِرونَهم، وكانت هزيمتُهم في رَمْيةِ رسولِ الله ﷺ، وأَنْزلَ الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الآيَة، إلى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**»[١]، ولم يكنْ هناك أحدٌ من المشركينَ لم يَصِلِ التُّرابُ الذي ألقاهُ النبيُّ ﷺ إلى عَيـنِه وأَنْفِه ووَجهه[٢]، **إنّها مُعجِزةٌ من الله لنبيِّه**»[٣].

جيشٌ من الكفّارِ قِوامُه ألفُ رجُل، ينتشرُ على مساحةٍ كبيرةٍ من الأرض، بعضُه على خيول، والبعضُ من المشاة، البعضُ كان في مَيْدانِ المعركة، والبعضُ كان يؤمِّنُ الحيَواناتِ والخيام، البعضُ كان وجهُه إلى النبيِّ ﷺ، والبعضُ كان إلى ظهرِه، وبالرَّغْم من ذلك فإنّ وصولَ قبضةٍ واحدةٍ فقطْ من التُّرابِ التي أَلقَى بها النبيُّ ﷺ إلى عَيْنِ كلِّ مشركٍ وأَنْفِه وفمِه: معجِزةٌ كبرى، ولهذا قال اللهُ تعالى: أنْ يا أَيُّها النبيُّ الحَبيب، رَغْمَ أنّ اليدَ التي رَمَتِ التُّرابَ كانت يدَك، لكنّ قُوَّتي وقُدرتي هي التي تجَلَّت فيها، وهي التي أفقَدتِ الكفّارَ حواسَّهم، فخافوا ولاذوا بالفِرار، وهكذا قَبِلَ الله تعالى دعاءَ أهل الإيمان، وأحسَنَ إليهم إحسانًا عظيمًا، وكان أحدَ الأهداف من هذا هو أن يُحسِنَ اللهُ تعالى كثيرًا إلى أهل الإيمان، والهدفُ الآخَرُ هو أن يُبطِلَ اللهُ تعالى مكْرَ الكفّارِ وخِداعَهم.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾

١٢ ـ حينَ شَرَع الكفّارُ في التوجُّهِ من مكّةَ تمسَّكوا بأستارِ الكعبة ودَعَوْا قائلينَ:

---

(١) ابن جرير الطبري.

(٢) «فما بقي من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولّوا مدبرين». تفسير ابن أبي حاتم.

(٣) تفسير الصاوي.

«اللهمّ انصُرْ أَقْرانا للضَّيف، وأَوْصلَنا للرَّحِم، وأفكَّنا للعاني، إن كان محمَّدٌ على حقٍّ فانصُرْه، وإن كنّا على حقٍّ فانصُرْنا»[1]، وفي هذه الآية يقولُ اُللهُ تعالى للكفّار: لقد جاءكم القرارُ طِبقًا لدُعائكم وطلَبِكم، والنبيُّ محمّدٌ ﷺ على حقٍّ، وقد نَصرتُه، والآنَ إن عُدتُم أنتم عن شرِكِكم وكُفرِكم فهو خيرٌ لكم، وإذا اعتَدَيْتُم على المسلمينَ ثانيةً، فسوف نُفشِلُكم، ومثلَما لم تُفِدْكم كثرتُكم يومَ بدرٍ، لن تُفيدَكم الكثرةُ مستقبَلًا أيضًا.

في مثل هذه الأحوال، حيث كان عددُ المسلمينَ لا يتجاوزُ عدّةَ مئاتٍ قليلة، فإنّ تحدِّيَ العربِ جميعًا بأنّكم لن تنفعكم كثرتُكم، لَهو دليلٌ عظيمٌ على صِدقِ نبوّةِ سيِّدِنا محمّدٍ ﷺ، وقد أَثْبتَ التاريخُ أنّ اللهَ تعالى قد نَصر سيِّدَنا محمّدًا ﷺ على العربِ جميعًا في السنواتِ القلائلِ التالية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٢١ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٥ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٢٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٢٨﴾

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾

١٣ـ في هذه الآيةِ إرشادٌ للمسلمينَ بأنْ يتجنَّبوا السَّيرَ على نَهج الكفّارِ

---

(١) تفسير الكشاف.

والمنافقين؛ لأنّهم وإن كانوا يسمَعونَ كلام الله تعالى، لكنّهم لا يتدبَّرونَه، ولذا فإنّ استماعَهم وعدَمَه سواءٌ، كما أنّهم يسمَعونَ القرآنَ لكي يبحَثوا فيه عن عيوبٍ أو نقائصَ، ولكن هَيْهاتِ!

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

١٤ـ لقد فضَّل اللهُ تعالى الإنسانَ على سائرِ المخلوقاتِ بالعقل، وجَعَله أشرفَ المخلوقات، وبالتالي فإنّ الإنسانَ الذي يتعمَّدُ عدمَ الاستفادةِ من هذا العقل، ويبقَى كالأبكَم والأصمِّ، فمنَ الواضح أنه أسوأُ من المخلوقاتِ الأخرى، ويمكنُك الرجوعُ في هذا الخصوصِ إلى الحاشية رقم ٩٨ للآية رقم ١٧٩ من سُورة الأعراف (٧).

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

١٥ـ كان المشركونَ لا يسمَعونَ كلامَ الله بتمعُّنٍ وتدبُّر، بسببِ تعصُّبِهم وعنادِهم، كما أنّهم قد أَتْلفوا مقدرَتهم الدّاخليَّةَ على التمعُّنِ والتفكُّر ومعرفةِ الحقّ بعصيانِهم المستمرِّ، والآنَ حتى لو أسمَعَهم اللهُ تعالى القولَ الحقَّ، فلا تتوقَّعْ منهم خيرًا؛ لأنّهم لا رغبةَ لديهم في طلبِ الحقِّ، كما أنّ قُدرتَهم المميَّزةَ لهم كبشَرٍ قد فَقَدت صلاحيتَها، وبالتالي سوف ينحرِفونَ عن الحقِّ دائمًا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾

١٦ـ في هذه الآيةِ أَمَر اللهُ تعالى الصَّحابةَ الكرامَ رضيَ اللهُ عنهم بطاعةِ النبيِّ ﷺ طاعةً خاصّةً وبتعظيمِه كذلك؛ لأنّ هؤلاءِ السُّعداءَ هم الذين نالوا شرفَ صُحبتِه ومعِيَّتِه، بمعنى: أنه كلَّما دعاكم النبيُّ ﷺ فعليكم أن تُلَبُّوا نداءه فورًا، أيًا كان الحالُ الذي أنتم فيه، وعليكم أن تَخضَعوا لكلِّ حُكم يأمُرُكم به.

عن أبي سعيدٍ بن المُعَلَّى: أنّ النبيَّ ﷺ مرَّ به وهو يصلِّي فدعاهُ، قال: فصَلَّيتُ

ثم أتَيْتُه، قال: فقال: «ما مَنَعَكَ أن تُجيبَني؟» قال: كنت أُصلِّي، قال: «ألم يقُلِ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١]»؟

واستُدِلَّ بالآيةِ والحديثِ على وجوبِ إجابتِه ﷺ إذا نادى أحدًا وهو في الصَّلاة[٢]؛ لأنّ المُصلِّيَ يخاطبُه بقولِه: «السَّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه»، ولا يُخاطبُ سائرَ الناس، وأنه يجبُ عليه إجابتُه إذا دَعاهُ ولا تَبطُلُ صلاتُه، كما أنّ السَّلامَ على النبيِّ ﷺ جزءٌ من الصَّلاة[٣].

عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «مَن أصابه قَيْءٌ أو رُعافٌ أو قَلَسٌ أو مَذْيٌ فلْينصرِفْ فلْيتوضَّأْ، ثمّ لِيَبْنِ على صلاتِه، وهو في ذلك لا يتكلَّم»[٤]. ويُعلَمُ من هذا أنه إذا انتقَضَ وضوءُ أحدٍ أثناءَ الصّلاة، فإنه يستطيعُ أن يتوضَّأَ ويُكملَ صلاتَه الأُولى، وليس في حاجةٍ إلى أن يبدأَ الصَّلاةَ من جديد، بشرطِ أن لا يكونَ قد تكلَّمَ معَ أحد، لكنْ إذا دعا النبيُّ ﷺ أحدًا، فعليه أن يترُكَ الصَّلاةَ ويُلبِّيَ نداءه ﷺ، ويأتيَه ويُكلِّمَه، ومعَ ذلك لا تنقطعُ صلاتُه؛ لأنّ السَّلامَ على النبيِّ ﷺ جزءٌ من الصلاة.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

١٧ـ إنّ الحِكمةَ من إطاعةِ النبيِّ ﷺ وتعظيمِه هي أنّ إطاعتَه تمنَحُ قلوبَكم وأرواحَكم وإيمانَكم الحياةَ والتجدُّد. يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله عُثماني: «إنّ إطاعةَ النبيِّ ﷺ في كلِّ أمرٍ تحيي القلوبَ، ويُميتُها عصيانُه»[٥]، ـ كما أنّ إطاعتَه ﷺ

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ٣٥١ برقم ١٤٥٨.
(٢) تفسير روح المعاني، سورة الأنفال (٨): الآية ٢٤.
(٣) الخصائص الكبرى، ٢: ٢٥٣.
(٤) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلوات، باب ١٣٧ برقم ١٢٢١.
(٥) التفسير المظهري.

غيرُ مشروطة، بمعنى: أن نَعتبِرَ كلَّ حُكم من أحكامِه هو حُكمَ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾

١٨ـ الذين لا يُطيعونَ اللهَ تعالى ورسولَه عليهم أن يتذكَّروا جيِّدًا أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، وهو أقربُ إلينا من قلوبِنا ومن حَبْلِ الوَرِيد، وهو يَعلَمُ ـ كذلك ـ عزائمَ قلوبِنا ونواياها، ويَملِكُ القدرةُ على تغييرِها، ولو حال حُكمُه بينَ الإنسانِ وعزائم قلبِه فإنّ الإنسانَ لا يستطيعُ أن يفعلَ حيالَ ذلك شيئًا، ولهذا علينا أن نعمَلَ على أن نجعَلَ قلوبَنا تابعةً لأوامرِ الله تعالى؛ لأنّنا سوف نجتمعُ في حضرتِـه جميعًا يومًا ما.

يقولُ شَهْرُ بن حَوْشَبٍ، قلتُ لأُمِّ سَلَمةَ: يا أُمَّ المؤمنين، ما كان أكثرَ دعاءِ رسولِ الله ﷺ إذا كان عندَكِ؟ قالت: كان أكثرَ دعائه: «يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِك». قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، ما لأكثرِ دعائك: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِك؟ قال: «يا أُمَّ سَلَمة، إنّه ليس آدميٌّ إلّا وقلبُه بينَ أُصبعَيْنِ من أصابع الله، فمَن شاء أقام ومن شاء أزاغ». فتلا معاذٌ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾.

وعلينا نحن أيضًا أن نُكثرَ من هذا الدُّعاء، وأن نحاولَ أن نتَّخذَ خُطُواتٍ عمليّةً طِبقًا لمقتَضَياتِه.

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾

١٩ـ أيُّ فتنةٍ تلك، وأيُّ عذابٍ ذلك الذي يَبتَلي المسالمينَ الذين لا ذنبَ لهم بالمصائبِ معَ الظالمين؟ الحقيقةُ أنّ الذين لا يمنَعونَ الظالمَ من ظُلمِه برَغْم قُدرتِهم على ذلك، ويهيِّئونَ للظُّلم الفرصةَ لكي ينموَ ويتمدَّدَ، فكأنّهم يُساندونَ

الظُّلمَ من وراءِ ستارٍ، ولهذا فإنّهم أيضًا ليسوا بريئينَ من الذَّنب، وإنّما يستحِقُّونَ العذابَ بقَدْرِ مشاركتِهم فيه، مثلَما قال النبيُّ ﷺ:

١ - «إنّ اللهَ لا يُعذِّبُ العامّةَ بعملِ الخاصّة، حتّى يرَوا المنكَر بيْنَ ظَهْرانِيهم، وهم قادرونَ على أن يُنكِروه فلا ينكروه، فإذا فَعَلوا ذلك، عذَّب اللهُ الخاصّةَ والعامّةَ»[1].

٢ - «مَثَلُ القائم على حدودِ الله والواقع فيها كمَثَل قومٍ اسْتَهَموا على سفينةٍ، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الّذين في أسفلِها إذا استقَوْا من الماءِ مَرُّوا على مَن فوقَهم فقالوا: لو أنّا خرَقْنا في نصيبِنا خَرْقًا، ولم نُؤْذِ مَن فوقَنا، فإنْ يتركوهم وما أرادوا هَلَكوا جميعًا، وإنْ أخَذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا»[2].

الظالمونَ والإرهابيُّونَ موجودونَ في كلِّ عصر، ولكنّ المسئوليَّةَ الاجتماعيَّةَ لكلِّ أُمّةٍ هي أن لا تتستَّرَ على هؤلاءِ، وإنّما تفضَحُهم، وعليها ألّا تحميَ المجرمينَ، وإنّما تُقدِّمُهم للعدالةِ والقانون، وتستخدمُ كلَّ الوسائل الممكنةِ لتثبيطِ همَمِهم، وبهذه الطريقةِ يتخلَّصُ المجتمعُ كلُّه من الظُّلم، أمّا حينَ تتستَّرُ أيةُ أُمّةٍ على المجرمين، فإنّ الأُمّةَ كلَّها تدريجيًّا تكْتوي بنارِ الجريمة، وتتحوَّلُ حياةُ كلِّ فردٍ فيها إلى عذاب.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

٢٠ـ الحالةُ التي كان عليها المسلمونَ من القِلّةِ والضَّعفِ قبلَ الهجرةِ تُذكِّرُهم بها هذه الآية، بمعنى: أنّ عددَكم بمكّةَ كان قليلًا للغاية، وكنتُم بسببِ ضعفِكم تخافونَ دائمًا أن يقضيَ عليكم أهلُ مكّةَ، ثم أحسَنَ اللهُ إليكم، وآواكم في المدينةِ

---

(١) مسند أحمد، ٤: ١٩٢.

(٢) البخاري، كتاب الشركة، باب ٦ برقم ٢٤٩٣.

المنوَّرة، وأَنْعم عليكم بالنَّصرِ والغنائم في غزوةِ بَدْر، ولهذا عليكم أن تتذكَّروا كلَّ هذه الأفضالِ من اللهِ تعالى عليكم وتشكروهُ عليها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

٢١- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضيَ اللهُ عنه في تفسيرِ هذه الآية: «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ ﴾، **يقول: بتَرْكِ فرائضِه**، ﴿وَٱلرَّسُولَ ﴾، **يقول: بتَرْكِ سُنَنِه**»(١)، وعليكُم أن تَحفَظوا أماناتِكم فيما بينَكم، سواءٌ كانت هذه الأماناتُ في شكل أموالٍ وثَروات، أم في شكلِ عهودٍ ومواثيق، أم في شكل منصِبٍ وسُلطة. وباختصار: فإنّ حقوقَ الله تعالى وحقوقَ العبادِ إنّما هي أماناتٌ عندَنا، وقد منَعَنا اللهُ تعالى ورسولُه الكريم ﷺ من الخيانة.

يقولُ سيّدُنا عُمرُ بن الخطاب رضي اللهُ عنه: «**لا تَغُرَّنَّك صلاةُ رجلٍ ولا صيامُه، مَن شاء صام ومَن شاء صَلّى، ولكنْ لا دينَ لمَن لا أمانةَ له**»(٢). كما قال أيضًا: «**لا تنظُروا إلى صلاةِ أحدٍ ولا إلى صيامِه، ولكنِ انظُروا إلى مَن إذا حدَّث صَدَقَ وإذا اؤتُمن أدَّى وإذا أشفَى وَرِع**»(٣). وقال رسولُ الله ﷺ فيما رَواهُ عنه سيّدُنا أبوهريرةَ رضي اللهُ عنه: «**إنّها ستأتي على النّاسِ سِنُونٌ خَدّاعة، يُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويُكذَّبُ فيها الصّادق، ويؤتَمَنُ فيها الخائن، ويُخَوَّنُ فيها الأمين**»(٤).

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

٢٢- في الآيةِ السّابقة مَنَع اللهُ تعالى من الخيانةِ في حقوقِ الله وحقوقِ العباد،

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) كنز العمال، ٤: برقم ٨٤٣٦.

(٣) كنز العمال، ٤: برقم ٨٤٣٥.

(٤) مسند أحمد، ٢: ٢٩١.

وفي هذه الآية يُشيرُ إلى أمرَيْنِ يكونانِ سببًا في الخيانةِ في الحقوق، أي: حبِّ المال والأولاد، فيقولُ: إنّ هذَيْنِ ابتلاءٌ لكم؛ لأنّ حبَّهما أمرٌ فِطري، والإسلامُ يُرغِّبُ فيه أيضًا، ولكنْ إذا صارت الأموالُ والأبناءُ عَقَبةٌ في طريقِ أداءِ حقوقِ الله وحقوقِ العباد، فإنّ العقلَ السَّليمَ يقتضي أن يُرجِّحَ الإنسانُ رضا الله تعالى على هذا الحبِّ، مثلَما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾

٢٣ـ يَخلُقُ اللهُ تعالى بداخل الإنسانِ الذي يداومُ على تَقْواه بصيرةً يُسهِّلُ بها عليه التمييزَ بيْنَ الحقِّ والباطل، ويقالُ لهذه البصيرةِ في الاصطلاح الصُّوفيِّ:

«كَشْفٌ»[١]، وقد قال النبيُّ ﷺ مشيرًا إلى هذه البصيرة: «**اتّقوا فِراسةَ المؤمن، فإنّه ينظُرُ بنُورِ الله**»[٢].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

٢٤ـ حينَ وَصَل نورُ الإسلام إلى المدينةِ المنوَّرة بعدَ فترةٍ من المعارضةِ الشَّديدةِ لهُ من قِبَل مشركي مكّةَ استمرَّت ثلاثةَ عَشَر عامًا، وهاجَر معظمُ المسلمينَ من مكّةَ إلى المدينة، شَعَر أهلُ مكّةَ بخَطَر، وهو: أنه إذا هاجَرَ النبيُّ ﷺ أيضًا، فمن الممكن جدًّا أن يُهاجمَ مكةَ بعدَ فترةٍ ويفعَلَ بنا الأفاعيلَ، ولذا علينا أن نأخُذَ قرارًا حاسمًا قبلَ أن تَخرُجَ الأمورُ عن سيطرتِنا، وهكذا عَقَد سادةُ مكّةَ اجتماعًا سرِّيًا في قاعةِ الاجتماعاتِ العامّة بمكّةَ (دارِ النَّدوة)، وتفصيلُه موجودٌ في كتُبِ التاريخ والتفاسير المختلفة.

وقد رَوى ابنُ أبي حاتم في «تفسيرِه»: عن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما «**أنّ نفَرًا من قُريشٍ ومن أشرافِ كلِّ قبيلةٍ، اجتَمَعوا ليَدخُلوا دارَ النَّدوة، واعتَرضَهم إبليسُ في صورةِ شيخٍ جليلٍ، فلمّا رأَوْه قالوا: من أنت؟ قال: شيخٌ من أهل نَجْدٍ، سمعتُ بما اجتَمعتُم لَه فأردتُ أن أحضُرَكم ولن يَعدِمَكم منّي رأيٍ ونُصح، قالوا: أَجَلْ، فادخُلْ، فدَخَل معَهم، قال: انظُروا في شأنِ هذا الرجُل، فوالله لَيوشِكَنَّ أن يُواثبَكم في أمرِكم بأمرِه، فقال قائلٌ: احبِسُوه في وِثاقٍ ثمّ تَربَّصُوا به المَنونَ حتّى يهلِكَ كما هَلَكَ مَن كان قبلَه من الشُّعراءِ زُهيرٌ ونابغةٌ، فإنّما هو كأحدِهم، فقال عدوُّ الله، الشّيخُ النَّجْديّ: لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لَيخرُجَنّ رأْيه من محبِسِه إلى أصحابِه فلَيوشِكَنَّ أن يَثِبوا عليه حتّى يأخُذوه من أيديكم، ثمّ يمنَعوه منكم، فما آمَنُ عليكم أن يُخرِجوكم من بلادِكم، فانظُروا في غيرِ هذا الرّأي، فقال قائلٌ: فأخرِجوه من**

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) الترمذي، تفسير القرآن، باب ١٥، سورة الحجر(١٥) برقم ٣١٢٧.

بينِ أظهُرِكم فاستريحوا منه فإنّه إذا خَرَج لم يَضُرَّكم ما صَنَع وأين وَقَع، وإذا غابَ عنكم أذاهُ استَرحتُم منه وكان أمرُه في غيرِكم، فقال الشّيخُ النَّجْديّ: والله ما هذا لكم برأيٍ، ألم تَرَوا حلاوةَ قولِه وطلاقَة لسانِه وأَخْذَه للقلوب بما يُستمَعُ من حديثِه؟ والله لئنْ فعلْتم ثمّ استَعرضَ العربَ لَيجتمعَنَّ عليه ثمّ لَيسيرَنَّ إليكم حتّى يُخرِجَكم من بلادِكم ويَقتُلَ أشرافَكم، قالوا: صَدَق والله، فانظُروا رأيًا غيرَ هذا، فقال أبوجهلٍ: والله لَأُشيرَنّ عليكم برأيٍ ما أرى أبصَرتُموهُ بعدَ ما أرى غيرَه، قالوا: وما هذا؟ قال: نأخُذُ من كلِّ قبيلةٍ غلامًا سِبْطًا شابًّا نِهْدًا، ثمّ نُعطي كلَّ غلامٍ منهم سيفًا صارمًا، ثمّ يضربونَه، يعني: ضربةَ رجُلٍ واحدٍ، فإذا قتلتُموه تفرَّقَ دمُه في القبائلِ كلِّها فلا أظنُّ هذا الحيَّ من بني هاشمٍ يَقْوونَ على حربِ قُريشٍ كلِّهم، وأنّهم إذا رأَوْا ذلك قَبلوا العقلَ واستَرَحْنا وقطَعْنا عنّا أذاه، فقال الشّيخُ النَّجْديّ: هذا واللهِ هو الرّأيُ، القولُ ما قال الفتى لا رأيَ غيرُه، فتفرَّعوا على ذلك وهم مُجمِعونَ له»[1].

وقد اجتَمعَ شبابٌ مختارونَ من قبائلِ قُريشٍ بسيوفِهم أمامَ بيتِ النبيِّ ﷺ ليلةَ الهجرة، فأَطْلع سيّدُنا جِبريلُ عليه السّلامُ سيّدَنا محمّدًا ﷺ على مؤامرةِ الكفّارِ ضدَّه قائلًا: لا تنَم اليومَ في فراشِك، فقد أَذِن اللهُ لك بالهجرة. وعندَئذٍ قال النبيُّ ﷺ لسيّدِنا عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: **«نَمْ على فراشي وتسَجَّ ببُردِي هذا الحَضْرميِّ الأخضَر، فنَمْ فيه فإنّه لن يَخلُصَ إليك شيءٌ تكرَهُه منهم»**[2].

وعَهِد النبيُّ ﷺ بأماناتِ أهل مكّةَ التي كانت عندَه إلى سيّدِنا عليٍّ رضي اللهُ عنه، وخَرَج من المنزل، وقَبَض قَبْضةً من التراب، وألقَى بها على أعدائه الشّبابِ وهو يقرأُ هذه الآيةَ من سُورة يسٓ: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ** ﴾ [يسٓ: ٩].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم.

(٢) سبل الهدى والرشاد، ٣: ٣٢٦.

وهكذا غَشِي النَّومُ الشَّبابَ جميعًا، وخَرَج النبيُّ ﷺ من بيْنِهم، وذهبَ إلى بيتِ سيِّدِنا أبي بكرٍ الصِّدّيق رضيَ اللهُ عنه، واصْطحَبَه إلى غارِ ثَوْر[1]. ولمزيدٍ من التفصيل عن أحوالِ غار ثورٍ راجع حاشيةَ الآية رقم ٤٠ من سورة التوبة (٩).

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

٢٥- يقولُ العلّامةُ القُرطبُيّ: «**نَزَلتْ في النَّضْرِ بن الحارث، كان خَرَج إلى الحِيرة في التّجارة فاشتَرى أحاديثَ كليلةَ ودِمْنة، وكسرى وقَيْصر، فلمّا قصَّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أخبارَ مَن مضَى قال النَّضْر: لو شئتُ لَـقُلتُ مثلَ هذا. وكان هذا وقاحةً وكذبًا. وقيل: إنّهم توهَّموا أنّهم يأتُونَ بمِثلِه، كما توهَّمت سَحَرةُ موسى، ثمّ رامُوا ذلك فعَجَزوا عنه**»[2]، ولكنْ بالرَّغْم من الإصرارِ المتكرِّر، فإنّهم لم يستطيعوا تقديمَ آيةٍ واحدة وليس سورةً بأكمَلِها.

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

٢٦- حين قيلَ لمشركي مكّةَ: إنّ القرآنَ الكريمَ ليس مجرَّدَ حكاياتٍ للأُمم السابقة، قالوا ساخِرينَ مستهزئين: إنّنا لا نعترفُ بهذا القرآن، ولو أنّ هذا القرآنَ حقٌّ فلماذا لا يُهلِكُنا اللهُ تعالى بإمطارِنا بالحجارةِ كما فَعَل معَ قوم لوط؟[3]، ورَدًّا على هذا نَزَلت هذه الآيةُ، بمعنى: أنّ أفعالَ الكفّارِ حقيقةً تستحِقُّ أن يُـنـزِلَ عليهم عذابٌ شديد، ولكنّ سُنّةَ الله تعالى أنه إذا أراد أن يَستأصلَ شَأفةَ قوم،

---

(١) ضياء النبي، ٣: ٥٨.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) «إن كان هذا القرآن حقًا منزلًا من عندك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أنزل علينا حاصبًا وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط». صفوة التفاسير.

أي: يُهلِكَهم تمامًا بعذابٍ جماعيٍّ من عندِه، فإنه يُخرجُ نبيَّه أولًا من هذه البلاد، ويوصلُه إلى منطقةٍ أخرى؛ لأنّ الأنبياءَ السّابقينَ عليهم السَّلامُ كانوا يُرسَلونَ إلى مناطقَ وشعوبٍ محدَّدة، مثلَما حَدَث معَ سيّدِنا لوطٍ عليه السلام، وسيّدِنا صالح عليه السَّلام، وسيّدنا هودٍ عليه السَّلام، حيثُ أبعَدَهم اللهُ تعالى أولًا عن بلادِهم وأقوامِهم، ثم أَنْزلَ العذابَ على تلك الأقوام، لكنّ دائرةَ نبوّةِ النبيِّ ﷺ ورحمتِه تشمَلُ كلَّ الأُمم وكلَّ البلادِ حتى قيام الساعة، وحيثُما كنتَ فلستَ بخارجٍ عن دائرةِ رسالتِه ﷺ، ولهذا لن يَنزِلَ على أيِّ أُمّةٍ في هذا العالَم عذابٌ جماعيٌّ باعتبارِ أنّ نُبوَّتَه ﷺ عالميّةٌ، كما أنه حيثُما وُجِد المتَّقونَ المستغفِرونَ فإنّ اللهَ لن يُنزِلَ عذابَه، ولكنْ حيثُما وُجِد أهلُ الإيمان وهم راضُونَ عن الظُّلم، أو لا يَحتجُّونَ ضدَّه رَغْمَ مقدرتِهم على ذلك، فإنّ العذابَ يَنزِلُ عليهم معَ الظّالمينَ أيضًا، ولكنّ المتَّقينَ المستغفرينَ موجودونَ في أُمّةِ النبيِّ ﷺ حتى قيام الساعة، وببركةِ هؤلاءِ فلن يَنزِلَ عذابٌ جماعيٌّ في أيِّ مكان مثلَما كان يَنزِلُ على الأُمم السَّابقة، ونزولُ عذابٍ بشكل جُزئيٍّ أو عذابٍ في منطقةٍ معيَّنةٍ لا يُنافي هذا الحُكمَ الخاصَّ، مثلَما حَدَث معَ المسلمينَ في غزوةِ أُحُد، حيثُ واجَهوا فشَلًا جُزْئيًّا يومَئذٍ، ولو أنّ العذابَ نَزَل في ذلك الوقتِ بناءً على مطالبةِ كفّارِ مكّةَ، ودمَّر أهلَ مكّةَ جميعًا، فكيف كان كفّارٌ منهم ـ مثلَ أبي سُفيانَ وصَفْوانَ وعِكرِمَة وغيرِهم ـ سيؤْمنونَ فيما بعدُ؟ وكيف كانت ستُتاحُ مِثلُ هذه الفرصةِ بأنْ يُخرجَ اللهُ من أصلابِ هؤلاءِ الكفّارِ الذين قَبِلوا الإسلامَ مَن يَدخُلُ الإسلامَ ويستغفِرُ اللهَ تعالى إلى يوم القيامة؟

«عن ابن عباس، أنّ المرادَ بهذا الاستغفارِ: استغفـارُ مـن يؤْمنُ منهم بعدُ، أي: وما كان اللهُ مُعذِّبَهم وفيهم مَن سَبَقَ له منَ اللهِ تعالى العنايةُ أنه يؤمنُ ويَستغفِرُ، كصَفْوانَ بن أُميّةَ وعِكرِمةَ بن أبي جَهْل وسُهَيْل بن عَمْرٍو وأضرابِهم، وعندَ مجاهدٍ

أنّ المرادَ به: استغفارُ مَن في أصلابِهم ممَّن عَلِم اللهُ تعالى أنه يؤْمن، أي: ما كان اللهُ معذِّبَهم وفي أصلابِهم مَن يستغفر»[1].

«قال ابنُ عبّاسٍ: كان فيهم أمانانِ: نبيُّ الله والاستغفارُ، أمّا النّبيُّ فقد مضَى، وأمّا الاستغفارُ فهو باقٍ إلى يوم القيامة»[2].

ويُعلَمُ من هذا أنه حيثُما وُجِد الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلام أو المستغفِرونَ المتَّقونَ من أهل الإيمان، فلن يأتيَ عذابٌ جماعيٌّ من الله تعالى يُهلِكُ الأُمَم هلاكًا تامًّا.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ ﴾

٢٧ـ المرادُ بالمسجدِ: ذلك المكانُ الذي يُسجَدُ فيه لله تعالى، ولهذا فإنّ القائمينَ على أمرِ المسجد هم أولئك الذين يَحمِلونَ في قلوبِهم خوفَ الله تعالى، ولكنْ في مكّةَ المكرَّمة كانت المياهُ تسيرُ عكسَ مجاريها كما يقالُ[3]، فالذين يُنكِرونَ وجودَ الله تعالى هم أنفسُهم القائمونَ على أمرِ المسجدِ الحرام، ومَنَعوا دخولَ المتَّقينَ إلى المسجد، حتى أنّ النبيَّ ﷺ حين ذهبَ لأداءِ العُمرةِ في السَّنةِ السادسةِ للهجرة معَ ألفٍ وأربعِمائةٍ من الصَّحابةِ الكرام مَنَعَه كفّارُ مكّةَ من دخولِ المسجد، لهذا فإنّ هؤلاءِ الظالمينَ كانوا يستحِقُّونَ العذابَ بالفعل، ولكنّ العذابَ الذي يَستأصِلُ قومًا بأكمَلِه لن يَنزِلَ ببركةِ وجودِ النبيِّ ﷺ والمستغفِرينَ، ولهذا فقدِ ابتلاهم اللهُ تعالى بعذابٍ جُزْئيّ، أي: أهلَكَ كبارَ سادةِ قُريشٍ في غزوةِ بدرٍ أولًا، ثم في السَّنةِ الثامنة للهجرة قضَى تمامًا على أصنام أهل مكّةَ وعقائدِهم ونظريّاتِهم بفَتْح مكّةَ.

---

(١) تفسير روح المعاني، ٧٢٦.

(٢) التفسير الكبير.

(٣) في الأصل مثل بالأردية: «گنگا الثى بهه رهى تهى» بمعنى: أن نهر الجنجا يسير عكس مجراه.

وينقُل العلّامةُ الأَلوسيُّ في هذا الخصوصِ قولًا هو: **«أنّ المَنْفيَّ فيما مرَّ عذابُ الدنيا، وهذا العذابُ عذابُ الآخِرة، أي: أنه يُعذِّبُهم في الآخِرة لا مَحالةَ»**[1].

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾

٢٨ـ «قال ابنُ عبّاس: كانت قُريشٌ يطُوفونَ بالبيتِ عُراةً يُصفِّرونَ ويُصَفِّقون»[2]، كما أنّهم كانوا أثناءَ الطَّوافِ يُصفِّرون بأفواهِهم، ويُصفِّقونَ بأكُفِّهم، ويعتقدونَ أنّ هذه صلاةٌ، معَ أنّ هذه ليست صلاةً، وإنّما إهانةٌ لبيتِ الله! لكنّ عذابَهم الأصليَّ على عقائدِهم وأعمالِهم الكُفْريّةِ سيَلقَوْنَه يومَ القيامة، ومعَ ذلك، فقد أراهمُ اللهُ طَرَفًا من هذا العذابِ في معركة بدرٍ التي هَلَك فيها سبعونَ من سادتِـهم وأُسِر مِثلُهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

٢٩ـ تَوجَّه جيشُ الكفَّارِ من مكّةَ يضُمُّ ألفَ رجُل لمحاربةِ المسلمين، وقد تحمَّل تكاليفَ هذا الجيشِ من طعام وشرابٍ بشكلٍ كامل اثنا عَشَر من سادةِ مكّةَ، ومنهم: سيّدُنا العبّاسُ، و أبوجَهْل وعُتبةُ وشَيْبةُ وغيرُهم، وكان كلُّ واحدٍ من هؤلاءِ يَذبَحُ يوميًّا عشَرةَ جِمال لطعام الجيش[3]، وبعدَ الهزيمةِ في معركةِ بدرٍ ورجوع أبي سُفيانَ ببقيَّةِ الجيشِ وبعِيرِه إلى مكّةَ **«مشَى عبدُ الله بنُ أبي رَبيعةَ، وعِكرِمةُ بن**

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) التفسير الكبير.

(٣) «نزلت في المطعمين يوم بدر ـ وكانوا اثني عشر رجلاً: أبوجهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونُبيه ومنبِّه ابنا الحجاج و أبوالبَختري بن هشام والنضر بن الحارث وحكيم بن حزام وأبيُّ بن خلف وزَمْعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش ـ فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشر جزر». تفسير الخازن.

أبي جَهْلٍ وصَفْوانُ بن أُمَيَّةَ، في رجالٍ من قُرَيشٍ أصيبَ آباؤهم وأبناؤهم وإخوانُهم ببدر، فكلَّموا أبا سُفيانَ بنَ حَرْب ومَن كان له في تلك العِيرِ من قُرَيشٍ تجارةٌ، فقالوا: يا مَعْشَرَ قُرَيش، إنّ محمَّدًا قد وَتِرَكم وقَتَل خيارَكم، فأعينونا بهذا المالِ على حَرْبِه، لعلَّنا أن نُدركَ منه ثأرًا بمن أُصيبَ منا! ففَعَلوا»[1]، وقد استعدَّ الكفّارُ بمالِ التجارةِ هذا لمعركةِ أُحُد، وبالرَّغْم من ذلك لم يحقِّقوا النَّجاحَ المطلوب.

وفي هذه الآيةِ الكريمة أَطْلَع اللهُ تعالى رسولَه الكريمَ على الغَيْبِ قبلَ أن يقَعَ، حيث أخبَرَه أنّ كفّارَ مكّةَ يُنفِقونَ أموالَهم حتّى يمنَعوا الناسَ من صراطِ الله، أي: من الإسلام، ولكنْ لا تغتمَّ يا رسولَ الله، فهم الذين سيُغلَبون، وسيَندَمونَ كذلك بأنّ أموالَهم قد ضاعت، وفي نفسِ الوقت لم ينتصِروا، وبالفعل، واجَهوا الفشلَ أولًا في معركةِ بدر، ثم واجَهوهُ ثانيةً في معركةِ أُحُد، وقد وَقَعت هذه المعاركُ بيْنَ الحقِّ والباطل لكي يتبيَّنَ الفرقُ بيْنَ الطيِّبين والخبيثينَ من الناس ويتَّضحَ، ومَن كانت فِطرتُه سليمةً سيَدخُلُ الإسلامَ، ويكونُ بذلك مستحِقًّا للجنّة، ومَن مات على الكُفرِ النَّجِس سيُجمَعونَ يومَ القيامة ويُلقَوْنَ في جهنَّم وبئسَ المصير.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾

٣٠ـ أحدُ تفسيراتِ هذه الآيةِ هو كأنّ النبيَّ ﷺ قد قال للكفَّارِ: إنّكم إنْ رجَعتُم عن عداوتِكم للإسـلام، وتخلَّيتُم عن إيذاءِ المسلميـن، فسوف نعفو عن ظُلمِكم السّابق، ولن ننتقمَ منكم، ولكنْ إن أصرَرْتُم على مخالفةِ الإسلام، فإنّنا سنظلُّ نحاربُكم مثلَما ظلَّ أهلُ الإيمان يجاهدونَ الأُممَ الكافرةَ في السَّابق، وذلك إلى أن تنتهيَ فتنتُكم، وينتصرَ الإسلامُ، وليس المرادَ بغَلَبةِ الإسلام هو أنَّنا سنُجبِرُ كلَّ واحدٍ منكم على قَبولِ الإسلام، وإنّما المقصودُ به هو: أن تكونَ لكلِّ واحدٍ الحرِّيةُ الدِّينيّةُ، ولا يتدخَّلَ أحدٌ في دين الآخَر.

والتفسيرُ الثاني لهذه الآية هو: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ﴾ لحربك ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: مَن قُتِل منهم يومَ بَدْرٍ»[١]، وسوف يُعاقَبونَ بمِثل هذا في المستقبَل، وذلك إلى أن تتحطَّمَ قوّةُ الكفَّار، ويصبحَ المسلمونَ في أمانٍ من ظُلمِهم.

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

٣١ـ المالُ الذي يَستولي عليه المسلمونَ في حالةِ الحرب معَ الأعداء يقالُ له في الاصطلاح الإسلاميِّ: «الأنفالُ» أو «الغنائمُ»، أي: مالُ الغنيمة، ولا يُسمَحُ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

لأيِّ مجاهدٍ أن يحتفظَ بشيءٍ من هذا المال لنفسِه، وإنّما يُجمَعُ المالُ كلُّه، ويوضَعُ أمامَ قائدِ الجيشِ الإسلاميِّ، ثم يقومُ هو بتقسيمِه طِبقًا للضوابطِ الخاصَّة بذلك.

يُقسَّمُ مالُ الغنيمة خمسةَ أقسام متساوية، منها: أربعةُ أقسام لأولئك الذين شارَكوا في المعارك، ثم يقسَّمُ القسمُ الخامس إلى خمسةِ أقسام أيضًا، قسمٌ منها لرسولِ الله ﷺ يُنفَقُ من بعدِه على مصالح المسلمين، والقسمُ الثاني: لأقاربِ رسولِ الله ﷺ؛ لأنّ الصَّدقةَ محرَّمةٌ عليهم، والمرادُ بأقاربِ النبيِّ ﷺ: بنو هاشم وبنو عبدِ المطَّلب مثلَما قال رسولُ الله ﷺ «**أنا وبنو المطَّلبِ لا نَفترقُ في جاهليّةٍ ولا إسلامٍ، وإنّما نحن وهم شيءٌ واحد**»، وشبَّك بينَ أصابعِه[١]، كما أنه حينَ قاطَعَت قُريشٌ بني هاشم اجتماعيًّا، وحاصَروهم في شِعبِ أبي طالب، فإنه بالرَّغْم من أنّ قُريشًا لم تُدخِلْ بني المطَّلبِ في المقاطعة، إلا أنّ هؤلاءِ تضامنًا مع بني هاشم دَخَلوا بأنفسِهم في المقاطعة. «**وفي هذا الحديثِ إشارةٌ إلى شأنِ الصَّحيفة القاطعةِ التي كتبتها قُريشٌ على أنْ لا تُجالسوا بني هاشم ولا تُبايعوهم ولا تناكِحوهم، وبَقُوا على ذلك سنةً، ولم يَدخُل في بيعتِهم بنو المطَّلبِ، بل خَرَجوا مع بني هاشم إلى شِعبِ أبي طالب**»[٢].

وبعدَ أقاربِ رسولِ الله ﷺ يكونُ القسمُ الثالثُ: لليتامى، والرابعُ: للمساكين، والخامسُ: لأبناءِ السَّبيل، وعلى الذين يؤْمنونَ بالله تعالى، وبتأييدِ الله ونُصرتِه، الالتزامُ بهذه الأحكام، وهو التأييدُ الذي جَعَل النَّصرَ من نصيبِ أهل الإيمانِ في بدر.

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾

٣٢ـ هنا بيانٌ لخريطةِ مَيْدانِ المعركة، أي: أنّ معسكراتِ المسلمينَ في مَيْدان

---

(١) أبوداوود، كتاب الخراج، باب ٢٠، برقم ٢٩٨٠.

(٢) التفسير المظهري.

بَدْر كانت في تلك النّاحيةِ القريبة من المدينة، ومعسكراتُ الكفّارِ كانت في النّاحيةِ الأخرى من مَيْدانِ بَدْرٍ البعيدةِ عن المدينة، بينَما كانت قافلةُ أبي سُفيانَ التّجاريةُ إلى أسفلَ تمُرُّ من ناحيةِ ساحل البحر، وكانت تلك القافلةُ قريبةً من جيش الكفَّارِ أيضًا.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾

٣٣ـ لو أنّكم أنتُمُ الذين حدَّدتُم وقتَ المعركة معَ الكفّارِ لَكنتُم قد تخوَّفتُم من كثرةِ عددِهم، ولَما وصَلتُم إلى مَيْدانِ المعركة في الوقتِ المناسب، ولكنَّكم خَرَجتُم فقطْ لمجرَّدِ إيقافِ قافلةٍ تجاريّةٍ لا أكثرَ، واللهُ تعالى هو الذي هيَّأَ أسبابَ الحربِ فجأةً، حتى تشاهدَ الدُّنيا كلُّها وَعْدَ الله بالنَّصرِ العظيم في ميدانِ بدرٍ يتحقَّق، ومن ظَلَّ ثابتًا على الإسلام بعدَ ذلك سيزدادُ بعدَها يقينًا أنه على الحقِّ فعلًا، ومن ظَلَّ على كُفرِه وقرَّر إهلاكَ نفسِه، يزدادُ يقينًا أنه يُعرِضُ عن الحقِّ بسببِ تعصُّبِه ليس إلّا.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾

٣٤ـ كان عددُ المسلمينَ في بدر **٣١٣**، وعددُ الكفارِ يقتربُ من الألف، وقد أرى اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ الكفّارَ في المنام قليلينَ، أي: أراهُ تلك المجموعةَ القليلةَ من الكفّارِ التي ستَثبُتُ في المعركة، أمّا الباقونَ فأكثرُهم جُبناءُ يَفِرُّونَ من الميدان، وبالتالي لم تكنْ هناك ضرورةٌ لأن يراهُم ﷺ في المنام؛ لأنّ وجودَهم في الجيش كعَدَمِه، أو «**القِلّةُ معبِّرةٌ بالمغلوبيّة**»[1]، ولو أحصَيْنا الملائكةَ الذين شاركوا في المعركة معَ جيشِ المسلمينَ فإنّ جيشَ الكفّارِ يكونُ قليلًا بالنِّسبةِ لهم حقيقةً، ولهذا فإنّ النبيَّ ﷺ قد بشَّر المجاهدينَ بأنّ الذين سيحاربونكم قلةٌ قليلة،

---

(١) تفسير روح المعاني.

والباقونَ سيَفِرُّونَ، مثلَما يَهجُمُ أسدٌ على قَطيع من الغَنَم، فإنّ الغَنَمَ ستَلوذُ بالفرارِ لضَعْفِها وجُبنِها، وبنفسِ الطريقة حين يَهجُم المسلمونَ الشُّجعانُ متوكّلينَ على الله تعالى فإنّ الكفّارَ يَفِرُّونَ لجُبنِهم، وهكذا ارتَفَعت معنويّاتُ المجاهدينَ، ولو أنّ اللهَ تعالى أراهم كثرتَهم العدَديَّة في الظاهر، لَانخَفَضت معنويّاتُ المسلمين، واختَلَفوا فيما بينَهم لقلةِ عددِهم، ولقال البعضُ: يجبُ الحربُ، وقال البعضُ: لا ينبغي أن نُحارب، لكنّ اللهَ تعالى أراهم جُبنَ الكفّارِ، ولم يُرِ المسلمينَ ضعفَهم هم، كما أنّ عددَ الكفّارِ الذين ماتوا على كُفرِهم في بدرٍ كان قليلًا فعلًا؛ لأنّ كثيرًا من الكفَّارِ قد أسلَمَ بعدَ ذلك[1].

ملحوظة

(كتبتُ تفسيرَ بقيّةِ آيات هذه السُّورة، من آية رقم ٤٣ إلى نهايةِ السُّورة، في الفترة من ٢٠ إلى ٢٣ فبراير ٢٠٠٦م في مقام العالية بمنطقة «منگاني الشَّريفة» مركز «جهنگ» بباكستان).

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

٣٥ـ في معركةِ بدرٍ رأى المسلمونَ جيشَ الكفّارِ قليلًا للغاية، وهو ما جَعَل عزيمةَ المسلمينَ تَقْوى وتشتدُّ، وفي نفسِ الوقت رأى الكفّارُ المسلمينَ قليلينَ أيضًا، وهكذا ارتَفَعت معنويّاتُهم أيضًا، واشتَبَك الجيشانِ، وكان هذا لكي يُنجزَ اللهُ تعالى وَعْدَه للمسلمينَ بالفَتْح والنُّصرة، ويَجعلَ الجميعَ يشاهدونَ ما قرَّره اللهُ تعالى من هزيمةِ المشركين، أي: أن يَهزِمَ ٣١٣ فردًا ألفَ شخصٍ كاملين، وهو ما ميَّز الحقَّ

---

(١) تفسير خزائن العرفان.

من الباطل، ورأى الجميعُ أنّ الحقَّ مع المسلمين، والآنَ إذا أعرَضَ أحدٌ عن الحقِّ عامدًا متعمِّدًا، فلن يكونَ لديه أيُّ عُذرٍ يُنْجيه من عذابِ جهنَّم في مَيْدانِ الحَشْر.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾

٣٦ـ هنا إرشادٌ لأهل الإيمانِ أنْ لا تتمنَّوا الحربَ، واطلُبوا العافيةَ من الله تعالى، وإذا ما اضْطُررتُم إلى الحربِ ذاتَ مرةٍ فاثبُتوا، واذكُروا اللهَ في ميدانِ المعركةِ أيضًا؛ لأنّ الهدفَ الأصليَّ من الحربِ ليس مجرَّدَ تحقيقِ النَّصر، ولكنّ الهدفَ الحقيقيَّ هو حصُولُ فلاح الدّارَيْنِ، وذِكرُ الله على أيِّ حال ضروريٌّ من أَجْل ذلك، وأيضًا عليكم طاعةُ الله ورسولِه، واصبِروا على المصاعب، ولا تختلفوا فيما بينَكم، وإلّا تَراجَعتْ همَّتُكم، وانتَهى الرُّعبُ في قلوبِ الأعداءِ منكم.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

٣٧ـ حينَ تَوجَّه أهلُ مكّةَ إلى بدر، وبغَرَضِ مَنْع المسلمينَ من صِراطِ الله المستقيم، وإدخال الرُّعبِ إلى قلوبِ العربِ منهم، كانوا يتفاخرونَ قائلين: إنّنا سنحاربُ المسلمينَ يقينًا، وسنحتفلُ بالنَّصرِ عليهم بعَقْدِ مجالسِ الرَّقص والغناءِ

وشُرب الخمور، وسوف تَعرِفُ العربُ جميعًا بهذا النَّصر، وسيَخشَوْنَنا جميعًا أيضًا[1]، ولكنْ ما كانوا يَعرِفونَ أنّ الخُططَ التي يرسُمونَها أمرُها بيدِ الله تعالى فقط، إذا أراد قَلَبَ تخطيطَهم رأسًا على عَقِب، وهو ما حَدَث بالفعل، فقد شَربوا كأسَ الموتِ بدلًا من كأسِ الخمر، وانعَقَدت المَآتمُ في بيوتِهم بدلًا من مجالسِ الرَّقص والغناء.

في هذه الآيةِ عَلَّم اللهُ تعالى المسلمينَ درسًا في إخلاصِ النِّية والتواضُع والخشوع، ومَنْعِهم من التكبُّر والغُرور والرِّياءِ ممّا كان عليه الكفّار؛ لأنّ الغرورَ مآلُه الذُّل، ورأسُ المغرورِ في التُّراب، وهو ما حَدَث معَ كفّارِ مكةَ بهزيمتِهم المنكَرة من المسلمين.

﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾

٣٨ـ لمّا توجَّه أهلُ مكّةَ إلى معركةِ بدر، جاءهُم الشّيطانُ في شكل سُراقةَ بنِ مالكٍ سيّدِ بني كِنانةَ، وأخَذ يُحمِّسُهم قائلًا: «**لا غالبَ لكمُ اليومَ، وإنّي جارٌ لكم من بني كِنانةَ، وحافِظُكم، ومانعٌ عنكم، فلا يَصِلُ إليكم مكروهٌ منهم، فلمّا التقَى الجَمْعانِ، ورأى إبليسُ الملائكةَ تَنزِلُ من السَّماء، نَكَص على عَقِبَيْه وقال: إنّي بريءٌ منكم، وكانت يدُه في يدِ الحارثِ بن هشام فقال له: إلى أين؟ أتخذُلُنا في هذه الحالة؟ فقال له: إنّي أرى ما لا ترَوْنَ، إنّي أخافُ الله، واللهُ شديدُ العقاب، فانطلَقَ وانهَزَم الناسُ، فلمَّا قَدِموا مكّةَ قالوا: هَزَم الناسَ سُراقةُ، فبَلَغَه الخبرُ فقال: والله**

(١) «فقال أبوجهلٍ: إن كنّا نقاتل النّاس فوالله إنّ بنا على النّاس لقوّةً، والله لا نرجع عن قتال محمّدٍ حتّى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإنّ بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتّى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد». (القرطبي)

ما شعرتُ بمسيرِكم حتى بلغَتْني هزيمتُكم، فلمَّا أسلَموا عَلِموا أنه الشيطان»[1]، فالشّيطانُ دائمًا يرغِّبُ الناسَ أولًا في فعلِ الشرِّ، وحين يتورَّطُونَ فيه يتخلَّى عنهم.

ويُعلَمُ من هذا أنّ من يَمدَحُ عيوبَنا، أو يُرغِّبُنا في الذَّنب، ما هو إلّا شيطانٌ، حتى ولو كان في شكلِ إنسان، وندعو الله تعالى أن يَحفظَنـا جميعًا من خِداع الشيطان.

هذا، ولم يشارِكِ الشّيطانُ في معركةٍ إلّا غزوةَ بدرٍ فقطْ، وربَّما لهذا أَنْزلَ اللهُ الملائكةَ في بدر.

إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

٣٩ـ في غزوة بَدْرٍ حيـنَ رأى مـنافقو المديـنةِ وكفّارُ مكّةَ أنّ المسلميـنَ قد عَزَموا على مُواجَهةِ جيشِ الكفّار، قالوا: لقد أصابَ المسلمينَ دينُهم بالجنون، وإلّا

---

(١) تفسير الخازن والبيضاوي وروح المعاني وغيرها من كتب التفاسير.

فكيف يواجهُ المسلمونَ بثلاثِمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ رجلًا جيشًا من الكفّارِ قِوامُه ألفُ رجُل؟ إنّ هؤلاءِ يسيرونَ إلى موتِهم ودمارِهم منتَشِينَ بدينِهم! ولكنّهم لم يكونوا يَعرِفونَ أنّ هذا ليس غفلةً وخِداعًا، وإنّما هو التوكُّلُ على الله، فالذين يؤمنونَ بقُدرةِ الله المطلَقة إيمانًا كاملًا، لا يعتمدونَ على الوسائل الظاهريَّةِ فقطْ، وإنّما يَرفَعُ توكُّلُهم على الله من معنويّاتِهم وعزيمتِهم:

• **الكافرُ يعتمِدُ على السَّيف، بينَما يحاربُ المؤمنُ حتى بغيرِ سيف.**

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾

٤٠- يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ بعضًا من أمورِ الثّوابِ والعقابِ تبدَأُ فوْرَ انتهاءِ هذه الحياة الدُّنيويّة، ولأنّ هذه الأمورَ تتعلَّقُ بالملائكة وعالَم البَرْزَخ، ومشاهدتُها فوقَ مقدرةِ أنظارِنا وإدراكِنا، لهذا لا نستطيعُ أن نُدركَ كُنْهَها في هذه الحياة الدنيا، فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، لكنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلامُ والملائكةَ يُدركونَ ثوابَ وعقابَ البَرْزَخ، **عن ابن عبّاس، قال: مرَّ النّبيُّ ﷺ بحائطٍ من حيطانِ المدينة أو مكّة، فسمعَ صوتَ إنسانَيْنِ يُعذَّبانِ في قبورِهما، فقال النّبيُّ ﷺ: «يُعذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبير»، ثمّ قال: «بلى، كان أحدُهما لا يَستترُ من بولِه، وكان الآخرُ يمشي بالنَّميمة». ثمّ دعا بجريدةٍ فكَسَرَها كِسْرتَيْنِ، فوَضَع على كلِّ قبرٍ منهما كِسْرةً. فقيل له: يا رسولَ الله، لمَ فعلتَ هذا؟ قال: «لعلّه أن يُخفَّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا أو إلى أن يَيْبَسا»**[1].

ولم يكنِ الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ الله عنهم يَعرِفونَ عن عذابِ البَرْزَخ هذا شيئًا، لكنّ النبيَّ ﷺ كان على عِلم بما يجري في عالَم البَرْزَخ تحتَ التراب.

---

(١) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٥٥.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾

٤١ـ حينَ يُنعِمُ اللهُ تعالى بنعمةٍ على قوم، فإنّه لا يَستردُّ هذه النِّعمةَ بدون سبب، لكنْ لو لم يُقدِّرْ هؤلاءِ القومُ نعمةَ الله، وأشاعوا الظُّلمَ والجَوْرَ بدلًا من العَدْل والإنصاف، فإنّ أفعالَهم هذه هي التي تقودُهم إلى الدَّمار، ويَرجعُ السببُ ـ في حالةِ التراجُع التي يعيشُها المسلمونَ في أيامِنا هذه ـ إلى قانونِ الفِطرةِ هذا.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾

٤٢ـ لمَّا هاجَر النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرة، عَقَد معاهدةَ سَلام وصَداقةٍ معَ القبائل اليهوديَّةِ هناك، ولكنّ بني قُريْظةَ وبني النَّضِير «**نَقَضوا العهدَ فأعانوا مشركي مكّةَ بالسّلاح، ثمّ اعتَذَروا فقالوا: نَسِينا، فعاهَدَهم عليه السّلامُ ثانيةً فنَقَضوا يومَ الخَنْدق**»[1]، وعلى هذا أمَرَ اللهُ تعالى أنْ إذا واجهتُموهم في أيِّ حربٍ فعاقِبوهم عقابًا يكونُ عبرةً للقبائل العربيَّةِ الأخرى ولأجيالِهم القادمة، فلا يتجرَّأونَ على نَقْض عهدٍ معَ أحد.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾

٤٣ـ يقولُ العلّامةُ القُرطُبيّ: «**إذا ظَهَرت آثارُ الخيانة وثَبَتت دلائلُها، وَجَب نَبْذُ العهدِ لئلّا يوقَع التّمادي عليه في الهَلَكة، وجازَ إسقاطُ اليقين هنا ضرورةً. وأمّا إذا عُلِم اليقينُ فيُستغنَى عن نَبْذِ العهدِ إليهم**»[2].

في هذه الآيةِ أعلَنَ اللهُ تعالى بوضوح أنه لا يحبُّ الذين يَنقُضون العهدَ، ولهذا لا يليقُ بأيِّ مسلم أن يبدأَ أحدًا بنَقْضِ عهدِه معَه، لكنْ إنْ ظَهَر من الطَّرفِ الآخَر ما

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

يدُلُّ على نَقْضِه للعهد، عندَئذٍ ينبغي إعلانُه بأنّ تصرُّفاتِكم مثيرةٌ للرِّيبة، ولهذا فنحن مستقبَلًا لسنا ملتزمينَ بهذه المعاهدة، وذلك حتى لا يتَّهمَ أحدٌ المسلمينَ بأنّهم هم الذين بدَأُوا بنَقْضِ العهد، وهذه هي عظَمةُ التعاليم الإسلاميَّة، بأنه غيرُ مسموح بالخيانة معَ مَن خان، وإنّما أمَرَ الإسلامُ بأنْ نُعلنَ الطَّرفَ الخائنَ وبوضوح بفَسْخ المعاهدة معَه، ثم نتَّخذَ بعدَ ذلك الخُطُواتِ العمليَّةَ الضَّروريةَ ضدَّه.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

٤٤- الذين نَجَوا من القتلِ من كفّارِ مكّةَ يومَ بَدْر، لا ينبغي أن يظُنُّوا أنّهم سيبقَوْنَ دائمًا في حالةِ تآمُرٍ ضدَّ المسلمين؛ لأنّهم إمّا أن يصبحوا هم مسلمين، أو أن يُقضَى عليهم في الحروبِ والمعاركِ القادمة.

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

٤٥- المرادُ بالقوَّة: الأسلحةُ التي يَحصُل بها النَّصرُ في الحربِ والغَلَبةُ على العدوِّ[1].

---

(١) «ولم ينف به أن يكون غيره من القوّة، بل عموم اللّفظ الشامل لجميع ما يستعان به على العدو ومن سائر أنواع السّلاح وآلات الحرب» - احكام القرآن للجصاص.

وفي هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى المسلمينَ أن يَستخدِموا كلَّ طاقاتِهم ووسائِلِهم من أَجْلِ إخافةِ العدوِّ، ويجبُ أن تكونَ أسلحتُكم حديثةً ومتطوِّرة، وأن تكونَ جيوشُكم على أعلى درجاتِ التدريبِ والإجادة، حتى يخافكم العدوُّ الظاهرُ (كفّارُ مكّةَ) والعدوُّ الخَفِيُّ (يهودُ المدينة ومنافقوها)، ولا يتجرَّأوا على الهجوم عليكم.

كما أنّ كلَّ ما تبذُلونَ في سَبيل اللهِ تعالى (الجهاد) من نفسٍ ومال، سوف يُثيبُكم عليه ثوابًا عظيمًا؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يُضِيعُ حقَّ أحد، مثلَما قال النبيُّ ﷺ «**إنّ الله لَيُدخِلُ بالسَّهم الواحدِ الثّلاثةَ الجنّةَ:**

١ ـ صانعَه يَحتسبُ في صَنْعتِه الخير،

٢ ـ والرّاميَ به،

٣ ـ والمُمِدَّ به»[1].

وكان السَّهمُ هو أكثرَ الأسلحةِ دمارًا في ذلك الوقت، ولهذا شارَكَ النبيُّ ﷺ بنفسِه في تدريباتِ الرُّماة، ورَغَّب المسلمينَ الآخَرينَ في ذلك[2].

وفي ضوءِ الشواهدِ القرآنيَّةِ والأحاديثِ النَّبويّةِ السَّابقة توصَّلتُ إلى نتيجةٍ مُفادُها أنّ صناعةَ الأسلحة بغَرَضِ حمايةِ البلاد والأُمّة، والتدريبَ عليها، والمساهمةَ في كلِّ ما يَلزَمُ ذلك، سواءٌ بشكل عمَليٍّ أم بالمال، إنّما هو سببُ لدخولِ الجنّة وفَرْضُ كفايةٍ على المسلمين، هذا في الأحوالِ العاديَّة، أمّا في وقتِ الضَّرورةِ فيصبحُ فَرْضَ عَيْن أيضًا.

---

(١) ابن ماجه، أبواب الجهاد، باب ١٩.

(٢) عن سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ قال: مرّ النّبيّ ﷺ على نفرٍ من أسلم ينتضلون، فقال النّبيّ ﷺ: «ارموا بني إسماعيل، فإنّ أباكم كان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان». قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «ما لكم لا ترمون؟». قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ قال النّبيّ ﷺ: «ارموا فأنا معكم كلّكم». البخاري، كتاب الجهاد، باب ٧٨ برقم ٢٨٩٩.

لكنْ معَ الأسفِ الشَّديد، لا نزالُ حتى اليومَ نقولُ للنّاس في وَعْظِنا: على مَن يملِكُ القُدرةَ أن يحُجَّ؛ لأنه «**رُويَ أنّ الكعبةَ تقول: ايذَنْ لي يا ربِّ في زيارةِ قبرِ رسـولِ الله ﷺ. قال: فيؤذَنُ لها، فاذا جاءت إلى قبرِ رسـولِ الله ﷺ تقولُ لرسولِ الله ﷺ: لا تهتمَّ لثلاثةٍ فإنّي أشفَعُ لهم: مَن طاف بي، ومَن خَرَج من البيت ولم يصلْ إليَّ، والثالث: من اشتهى أن يَقصِدَني فلم يَجِدْ سبيلًا إلى ذلك**»[1]، لكنَّنا لم نُكلِّفْ أنفسَنا أن نقولَ لأُولي الأمر: إنّ تصنيعَ الأسلحةِ الحديثةِ المتطوِّرة لإخافةِ العدوِّ هي أيضًا أمرٌ من الله تعالى ورسولِه ﷺ، ويستحِقُّ ثلاثةُ أشخاص دخولَ الجنّة أيضًا بتصنيعِهمُ الأسلحةَ، وكانت نتيجةَ هذه الغفلةِ والإهمال أنْ تَفوَّق علينا العدوُّ في سباقِ تصنيع الأسلحةِ إلى درجةِ أنّنا لا نَملِكُ إمكانيَّةَ الردِّ عليهم.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

٤٦- إنْ مَدَّ الكفّارُ يدَ الصُّلح إليكم، يجوزُ لكم مصالحتُهم، وإن شَعرتُم أنّهم يريدونَ خِداعَكم لبعض الوقتِ بموضوع الصُّلح هذا، فصالحوهم معَ ذلك، ولا تخشَوْا شيئًا، وتوكَّلوا على الله، فقد أعانكم من قبلُ، وهو أيضًا حاميكم وناصرُكم في المستقبَل.

ويُعلَمُ من هاتَيْنِ الآيتَيْنِ أنّ الإسلامَ دينُ الصُّلح والسَّلام والأمن، وأنه يَسمَحُ للمسلمينَ بالحربِ حينَ يلحَقُ بأمن الإنسانيَّة وسَلامِها خَطَرٌ فقطْ، وبحيث لا يكونُ هناك مفَرٌّ من الحرب، وقد جاء الحُكمُ في الآيةِ رقم ٥٨ بأنه إنْ خِفتُم من العدوِّ خيانَة فافسَخوا معاهداتِكم معَه، بمعنى: أنه حين تكونُ هناك قرائنُ وشواهدُ قويّةٌ على ذلك، وتعكسُ تصرُّفاتِهم أيضًا أنهم يُخالفونَ المعاهداتِ، فأعلِنُوهم

---

(١) نزهة المجالس، ١: ١٥٣.

بفَسْخ المعاهدةِ حينَئذٍ، والمرادُ بهذه الآية: أنه إن كانت إرادةُ الخيانة بالقلبِ متوفِّرةً لدَيْهم، ولكنّ تصرُّفاتِهم لا تعكسُ هذه الخيانةَ، فصالِحوهم، أمّا إذا تجرَّأوا على الخيانةِ عمليًّا، فعليكم إذًا أن تتوكَّلوا على الله وتفسَخوا معاهدتكم معَهم.

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾

٤٧ـ كانت القبائلُ العربيّةُ مشهورةً بخلافاتِها وصراعاتِها وتعصُّبِها وضِيقِ أُفُقِها، وكانت الحروبُ تنشَبُ بينَها لأَتْفهِ الأسباب، ثم تستمرُّ هذه الحروبُ والمعاركُ والكراهيَةُ لقرون، لكنّ السُّعداءَ الذين آمَنوا بسيّدِنا محمّدٍ ﷺ زَرَع اللهُ في قلوبِهم المحبَّةَ بعضهم لبعض، وهذه نعمةٌ كبرى لا يمكنُ الحصُولُ عليها بمال الدنيا ومتاعِها كلِّه.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الحبَّ والاتِّحادَ بينَ بعضِنا لا يمكنُ أن يُشترى بمال، ولا يُفرَضَ بالقوَّة، وإنّما هو كرَمٌ من اللهِ تعالى وفَضْلٌ على المخلِصينَ من النّاس، ولهذا ينبغي للمسلمينَ في أيامِنا هذه أن يسألوا اللهَ تعالى الحبَّ والاتِّحادَ فيما بينَهم بنيّةٍ مخلِصةٍ صادقة، ويحاولوا قَدْرَ جُهدِهم أن يزرَعوا الحبَّ والتحمُّلَ في قلوبِهم. إلهي، أنت الكريم، فتكرَّمْ على المسلمينَ، وامنَحْهم نعمةَ الحبِّ فيما بينَهم، آمين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ ﴾

٤٨- في البدايةِ كان المسلمونَ مأمورينَ أن يثبُتوا في مُواجهةِ جيشٍ يَفُوقُهم بعشَرةِ أضعاف، وألّا يُحاولوا الفِرارَ والهروبَ من مَيْدانِ المعركة، ثم خفَّف اللهُ تعالى في العددِ طبقًا للظروف، أي: اثبُتوا في مُواجهَةِ جيشٍ يَفُوقُكم بضِعفَيْن، وسوف يُنعِمُ اللهُ تعالى عليكم بالنَّصر والفَتْح، إن شاء اللهُ تعالى.

إنّ الكفَّارَ يحاربونَ من أَجْل الانتصارِ الظاهريِّ فقطْ، وحريصونَ على حياتِهم، وحينَ لا تلُوحُ لهم في الظاهرِ علاماتُ النَّصر فإنَّهم يَجبُنُونَ ويَفِرُّونَ من المَيْدان، بينَما لا يحاربُ المسلمونَ من أَجْل النَّصر الدُّنيويِّ فقطْ، وإنّما يحاربونَ لأَجْل رضا الله تعالى، ويأمُلونَ في الأَجْر العظيم في الآخِرة، ولهذا فهم يحاربونَ بثباتٍ وشجاعةٍ ونشاطٍ وخفّة، والكفّارُ يعتمدونَ على الأسبابِ الظاهريَّةِ فقطْ، في حينَ يعتمِدُ المسلمونَ على الأسبابِ الظاهريَّة، ومن قَبْلِها على توكُّلِهم على الله تعالى:

• **الكافرُ يعتمدُ على السَّيف، بينَما يحاربُ المؤمنُ ولو بلا سيف.**

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

٤٩- حينَ انهزَم الكفّارُ في معركةِ بَدْر وأخَذوا في الفِرار أسرعَ المسلمونَ إلى جَمْع مالِ الغنائم وأَسْر الكفار، في تلك الأثناءِ نَجَح بعضُ الكفّارِ في الهروبِ والإفلاتِ من الأَسْر، وظلُّوا لسنواتٍ عديدةٍ يسبِّبونَ الأذى للمسلمين، ولو أنّ المسلمينَ في ذلك اليوم ركَّزوا جهودَهم في تعقُّبِ الكفّارِ والقضاءِ عليهم بدلًا من جَمْع مالِ الغنائم، لَقُضيَ على قوّةِ الكُفرِ إلى الأبد.

وفي هذه الآية ذِكرٌ للنبيِّ ﷺ، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ فيها عتابًا على الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم بأنه كان يجبُ عليهم تعقُّبُ الكفّارِ أولًا، ثم بعدَ ذلك يَجمَعونَ

الغنائمَ، ولكنْ لأنّ الله تعالى كان قد كَتَب في اللَّوح المحفوظِ مسَبقًا المغفرةَ لمجاهدي بَدْر، وتحليلَ مالِ الغنائم عليهم، لهذا لم يؤاخِذْهم على هذه الهفوةِ التي بَدَرتْ منهم.

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

٥٠ـ أي: يا أيُّها المسلمون، إنّ أموالَ الغنائم حلالٌ عليكم خالصةٌ لكم، ولكنْ تعَلَّموا أنْ تتعقَّبوا الأعداءَ وتقضُوا عليهم أولًا، ثم بعدَ ذلك تهتَمُّوا بأمرِ الغنائم، فلربَّما لَمَّ العدوُّ شَمْلَه، واجتَمعَ عليكم ثانيةً وهاجَمَكم من جديد، وحوَّل نصرَكم في الحربِ إلى هزيمة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

٥١ـ حينَ أُطلِقَ سَراحُ أسرى بَدْرٍ بعدَ أَخْذِ الفِدية منهم أَسْلَم بعضُهم،

ووَعَدوا بأنْ لا يُحاربوا ضدَّ المسلمينَ أبدًا، فقال رسولُ الله ﷺ أنْ لو أنّكم أقمتُم على إسلامِكم فإنّ اللهَ تعالى سيُعطيكم أكثرَ ممّا أُخِذ منكم فِديةً، وسيغفرُ لكم ذنوبَكم، ولو أنكم نَقَضتُم عهدَكم بعدَ عودتِكم إلى مكّةَ، فقد نقضتُم عهدَكم معَ الله من قبلُ، بمعنى: أنّهم يَعدِونَ اللهَ عندَ المصائب، وحينَ يزولُ عنهم البلاءُ ينصرفونَ إلى عبادةِ الأصنام، ولهذا لا عليكَ من هذا كلِّه يا رسولَ الله، فكما أنّ اللهَ تعالى قد مكَّنَك من الكفّارِ في معركةِ بَدْر، سيمُكِّنُك من الكفّارِ في المستقبَل أيضًا.

وفي تفسيرِ هذه الآية ينقُلُ أكثرُ المفسِّرينَ هذه الواقعةَ عن سيّدِنا ابنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهما:

«عن ابن عبّاسٍ، قال: كان الّذي أَسَر العبّاسَ بنَ عبدِ المطَّلبِ أبواليَسَر بنُ عَمْرٍو، وهو كعبُ بنُ عَمْرٍو، أحدُ بني سَلِمةَ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «كيف أَسرتَه يا أبا اليَسَر؟» قال: لقد أعانَني عليه رجلٌ ما رأيتُه بعدُ ولا قبلُ، هيئتُه كذا، هيئتُه كذا، قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «لقد أعانَكَ عليه مَلَكٌ كريم»، وقال للعبّاس: «يا عبّاس، افْدِ نفسَكَ، وابنَ أخيك عَقِيلَ بنَ أبي طالبٍ، ونَوْفَل بنَ الحارث، وحليفَك عُتبةَ بن جَحْدَم» أحدَ بني الحارثِ بن فِهْر، قال: فأبَى، وقال: إنّي كنتُ مسلمًا قبلَ ذلك، وإنّما استَكْرَهوني، قال: «اللهُ أعلمُ بشأنِك، إن يكُ ما تَدَّعي حقًّا، فاللهُ يَجْزيكَ بذلك، وأمّا ظاهرُ أمرِك، فقد كان علينا، فافْدِ نفسَك»، وكان رسولُ الله ﷺ قد أَخَذ منه عشرينَ أَوقيّةَ ذَهَبٍ، فقال: يا رسولَ الله، احسُبْها لي من فِداي، قال: «لا، ذاك شيءٌ أعطاناهُ اللهُ منك» قال: فإنّه ليس لي مال، قال: «فأينَ المالُ الّذي وَضَعتَه بمكّةَ، حيث خَرَجْتَ، عندَ أُمّ الفَضْل، وليس معَكما أحدٌ غيرُكما، فقلتَ: إنْ أُصِبْتُ في سَفَري هذا، فللفَضْل كذا، ولقُثَمَ كذا، ولعبدِ الله

كذا؟» قال: فوالّذي بَعَثَك بالحقّ، ما عَلِم بهذا أحدٌ من النّاس غيري وغيرُها، وإنّي لَأعلَمُ أنّك رسولُ الله(١).

«عن ابن عبّاسٍ: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ حتّى بَلَغ: ﴿أُخِذَ مِنكُمۡ﴾، قال: كان العبّاسُ يقولُ: فيَّ ـ والله ـ أُنزِلت حينَ أَخْبرتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم عن إسلامي، وسألتُه أن يُحاسبَني بالعشرينَ أوقيّةً الّتي وَجَد معي فأبَى أن يُحاسبَني بها فأعطاني اللهُ بالعشرينَ أوقيّةً عشرينَ عبدًا كلُّهم تاجَرَ بمالي في يدِه معَ ما أرجو من مغفرةِ الله»(٢).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ ﴾

٥٢ـ في هذه الآيةِ ألقَى اللهُ تعالى الضَّوءَ على سياسةِ المسلمينَ: الداخليَّةِ والخارجية، يعني: أنّ المسلمينَ الذين يعيشونَ في بلدٍ إسلاميٍّ ستكونُ بينَهم أُخوّةٌ كاملة، ويَلزَمُ كلًّا منهم مساعدةُ الآخَر وحمايتُه، لكنّ المسلمينَ الذين يعيشونَ بمَحْضِ رغبتِهم ورِضاهم في بلدٍ حكومتُه كافرة، ويَحدُثُ لهم أذًى من الناحيةِ الدِّينيّة، ويطلُبونَ المساعدةَ من الحكوماتِ المسلمة ضدَّ هذه الحكومةِ الكافرة، فلذلك صورتانِ:

١ـ إن لم تكنْ لهذه الحكومةِ الكافرةِ معاهداتٌ معَ الحكومةِ المسلمة، فإنّ من الفَرْضِ حينَئذٍ على الحكومةِ المسلمةِ أن تُساعدَ المسلمينَ المظلومينَ قَدْرَ استطاعتِها، حتى وإن اضْطُرَّت إلى استخدام القوَّةِ في ذلك.

٢ـ أمّا إن كان لهذه الحكومةِ الكافرةِ معاهَداتُ أمنٍ وسَلام معَ الحكومةِ

---

(١) مسند أحمد، ١: ٣٥٣.

(٢) المعجم الكبير، ١: ١٧١: برقم ١١٣٩٨.

المسلمة، فمن الضَّروريِّ عندئذٍ احترامُ المعاهداتِ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وكما قال النبيُّ ﷺ: **«مَن قَتَل معاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنّة»**[١]، وقال أيضًا: **«لا دينَ لمَن لا عهدَ له»**[٢]، ولهذا لم يساعدِ النبيُّ ﷺ أبا جَنْدلٍ وقتَ الحُدَيْبِيَة: **«عن البراءِ بن عازبٍ - رضى اللهُ عنهما - قال: صالَحَ النّبيُّ ﷺ المشركينَ يومَ الحُدَيْبِيَة على ثلاثةِ أشياءَ؛ على أنّ مَن أتاه مِنَ المشركينَ رَدَّه إليهم، ومَن أتاهم من المسلمينَ لم يَرُدُّوه، وعلى أن يَدخُلَها من قابِلٍ ويقيمَ بها ثلاثةَ أيّامٍ، ولا يَدخُلَها إلّا بجُلُبّانِ** السّلاح: السَّيفِ والقَوْسِ **ونحوِه. فجاء أبوجَنْدلٍ يحجلُ في قيودِه فردَّه إليهم»**[٣]، **«فبَيْنا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يَكتُبُ الكتابَ هو وسُهَيلُ بنُ عَمْرو، إذْ جاء أبوجَنْدلٍ بنُ سُهَيْل بن عَمْرٍو يَرسُفُ في الحديد، ... فلمّا رأى سُهَيْلٌ أبا جَنْدلٍ قام إليه فضربَ وجهَه، وأخَذ بتلبيبِه، ثمّ قال: يا محمّد، قد لَجَّت القضيّةُ بيني وبينَك قبلَ أن يأتيَك هذا، قال: صَدَقتَ، فجَعَل يَنْتُرُهُ بتلبيبِه، ويَجُرُّه ليرُدَّه إلى قُريشٍ، وجَعَل أبوجَنْدلٍ يَصرُخُ بأعلى صوتِه: يا معشرَ المسلمين، أأُرَدُّ إلى المشركينَ يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك النّاسَ إلى ما بهم، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: يا أبا جَنْدلٍ، اصبرْ واحتسِبْ، فإنّ اللهَ جاعلٌ لكَ ولمَن معَك من المستضعَفِينَ فرجًا ومَخْرجًا، إنّا قد عَقَدنا بينَنا وبينَ القوم صُلحًا، وأعطَيْناهم على ذلك، وأعطَوْنا عهدَ الله، وإنّا لا نَغدِرُ بهم»**[٤].

٣- يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ بنُ اليَمَان: ما مَنَعَني أن أشهَدَ بدرًا إلّا أنّي خَرجتُ أنا وأبي حُسَيْلٌ - قال: فأَخَذَنا كفّارُ قُريشٍ، قالوا: إنّكم تريدونَ محمّدًا، فقلنا: ما نريدُه، ما نريدُ إلّا المدينةَ. فأَخَذوا منّا عهدَ الله وميثاقَه لَنَنْصرِفَنّ إلى المدينةِ ولا

---

(١) البخاري، كتاب الجزية، باب ٥.

(٢) مسند أحمد، ٣: ١٣٥.

(٣) البخاري، كتاب الصلح، باب ٧.

(٤) سيرة ابن هشام، ٣: ٢٠٤.

نقاتلُ معَه، فأَتيْنا رسولَ الله ﷺ فأخبَرْناهُ الخبرَ، فقال: «انصَرِفا، نَفِي لهم بعهدِهم ونستعينُ اللهَ عليهم»[(١)].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ ﴾

٥٣ـ الذين يَرفُضونَ الإسلامَ يقالُ لهم: كفّار، يعني: غيرَ مسلمين.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ غيرَ المسلمينَ جميعًا مِلّةٌ واحدةٌ وأصدقاءُ بعضُهم لبعض.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

٥٤ـ آخَى النبيُّ ﷺ بينَ المهاجِرينَ والأنصارِ في المدينةِ المنوَّرة بعدَ الهجرةِ إليها، وقد لاقَت هذه الأُخـوّةُ استحسانًا كبيرًا بحيثُ أعطَى الأنصارُ لإخوانِهم المهاجرينَ نصفَ ما يملِكونَ من المالِ والمتاع، وكانوا يُعطونَهم نصيبًا من التَّرِكةِ حالَ الوفاةِ أيضًا.

وفي هذه الآيةِ الكريمة قال اللهُ تعالى: إنّ مساعدةَ أحدِكم الآخَرَ بهذه الأُخوّةِ بينَكم أمرٌ ضروريٌّ، وعليه الأَجْرُ والثواب، لكنّ الميراثَ من حقِّ الأقاربِ الأَصْليِّينَ فقطْ.

والحمدُ لله ربِّ العالَمين

بدأتُ تفسيرَ سُورة الأنفال يومَ الثلاثاء ٢٤ يناير ٢٠٠٦م بجامعة الكَرم بإيتن هال بإنجلترا، وانتهيتُ منها في ٢٣ فبراير ٢٠٠٦م بمقام العالية بمنطقة منگانى الشَّريفة مركز جهنگ بباكستان.

❊ ❊ ❊

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب ٣٥ برقم ١٧٨٧.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٩) سُورَةُ التَّوۡبَةِ

الاسم: هذه السُّورةُ مدَنيّة، وأشهَرُ اسمَيْنِ لها هما: (١) التَّوبة؛ لأنّ فيها ذِكْرًا لقَبولِ توبةِ بعضِ أهل الإيمان. (٢) براءةٌ؛ لأنّها بَدَأتْ بإعلانِ البراءةِ من المشركين.

سببُ عَدَم كتابةِ البسمَلة في أولِ السُّورة: لا تُكتَبُ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قبلَ بدايةِ هذه السُّورة، وقد ذَكَر المفسِّرونَ أسبابًا عديدةً لهذا، لكنّ الصَّحيحَ هو ما ذَكَره الإمامُ الرازي: «**بل الصّحيحُ أنّه عليه السّلامُ أمَرَ بوَضْع هذه السُّورةِ بعدَ سُورةِ الأنفال وَحْيًا، وأنّه عليه السّلامُ حَذَف ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ من أوّلِ هذه السُّورة وَحْيًا**»[١].

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما: «**سألتُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ لمَ لم يُكتَبْ في «براءةٌ» بسم الله الرّحمن الرّحيم؟ قال: لأنّ بسم الله الرّحمن الرحيم أمانٌ؛ وبراءةٌ نَزَلتْ بالسَّيف ليس فيها أمان**»[٢]، بمعنى: أنّ في البسمَلة رحمةً، وتوجبُ الأمانَ، بينَما في هذه السُّورة إعلانٌ لقَطْع العلاقة معَ المشركين والغَضَبِ عليهم، ولهذا لم يكنْ من المناسبِ أن تأتيَ البسمَلةُ في أوّلِها، ومثالُ ذلك: أنّنا حين نَذبَحُ حيَوانًا فإنّنا نَذكُرُ اسمَ الله عليه، ولكنْ لا نقولُ: الرَّحمن الرَّحيم؛ لأنّ هذا ليس وقتَ رحمةٍ وأمان للحَيوان، وإنّما وقتٌ صعبٌ عليه.

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) تفسير القرطبي.

سورة التّوبة والإرهاب

في البداية كان أهـلُ مكّةَ فقطْ هم أعداءُ المسلميـن، ولـكنْ حيـنَ انتشَر الإسلامُ من المدينةِ المنوَّرة إلى كلِّ أرجاءِ الدُّنيا، أصبح هناك العديدُ من القبائل والدُّوَل التي نَشِطت في القضاءِ على المسلمينَ قضاءً مبرَمًا، ومَحْوِ اسمِهم من صفحةِ الوجود، وهكذا مضَت السَّنواتُ الثماني الأخيرةُ من حياةِ النبيِّ ﷺ في حروبٍ ومعاركَ، ونزولُ سُورةِ التَّوبة حلَقةٌ من حَلَقاتِ هذه السِّلسلة، حيث ذُكِرَت فيها غزوةُ تَبُوك وقَتْلُ المشركين، ولهذا فإنّ الأحكامَ التي نَزَلت في تلك الفترة يجبُ النظَرُ إليها في ضوءِ الواقع الذي كان موجودًا آنذاك، لأنّنا إنْ نظَرْنا إلى تلك الأحكام بنظرةٍ أخرى مختلفةٍ فسيكونُ ذلك ظُلمًا للقرآنِ الكريم وقتلًا للأمانة.

وهنا أمرٌ لطيفٌ نَذكُرُه، وهو يتعلَّقُ بالآية رقم **٤٣** من سُورة النِّساء، وهي الآيةُ التي تقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾، فإذا أَخْرج أحدٌ من الذين لا يُصلُّونَ الجزءَ الأولَ من الآيةِ عن سياقِها قائلًا: إنه لا يُصلِّي لأنّ القرآنَ المَجِيدَ أَمَرنا ألّا نقرَبَ الصّلاةَ، فهل يمكنُ أن يكونَ ادِّعاءُ تاركِ الصّلاةِ هذا صحيحًا بأيِّ شكل من الأشكال؟ بالطبع لا، فإنّ هذا ظلمٌ كبيرٌ للقرآنِ المَجِيد. ولمزيدٍ من إيضاح هذه الحقيقةِ لاحِظ الاقتباسَيْنِ التالِيَيْنِ من الإنْجِيل وتاريخ بريطانيا:

١ـ قال سيّدُنا عيسى عليه السّلام: «لا تتصوَّروا أنّني جئتُ لكي أُقيمَ السّلامَ على الأرض، كلّا، بل (لِأُعملَ) السَّيفَ، لقد جئتُ لكي أجعلَ الرجلَ يخالفُ أباه، والابنةَ تخالفُ أُمَّها، وزوجةَ الابن تُخالفُ حماتَها»[١].

---

(١) "Don't imagine that I came to bring the peace to the earth! No, rather, a sword. I have come to set a man against his father, and a daughter against her mother, and a daughter-in-law against her mother-in-law". (Matthew: **10**: **34-35**: The Living Bible, British Edition **1975**).

٢- حين قَدَّم رئيسُ الوزراءِ البريطانيُّ نيفل تشمبرليونُ استقالتَه في العاشر من مايو ١٩٤٠م، قال رئيسُ الحكومةِ المتَّحدة في ذلك الوقت وِنستون تشِرشِل في دار العموم البريطانيَّة في الثالثَ عشَرَ من مايو ١٩٤٠م: ليس عندي اقتراحٌ أُقدِّمُه سوى الدَّم والمشَقَّةِ الشّديدة والدُّموع والعَرَق، ولئن سألتُموني: ما هي سياستُنا؟ سأقولُ لكم: علينا أن نُحاربَ بكلِّ قوّتِنا في البحرِ والجوِّ وعلى الأرض، ولئن سألتُموني: ما هدفُنا من ذلك؟ فإنّي أستطيعُ أن أجيبَكم في لفظٍ واحد: (النَّصر)، يجبُ أن ننتصرَ بأيِّ ثمن، مهما كان الطريقُ صعبًا وطويلا[١].

من هذَيْنِ الاقتباسَيْنِ يبدو في الظاهرِ أنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ، ووِنستون تشِرشِل إرهابيّانِ وظالمانِ كلاهما، لكنّ هذا غيرُ حقيقي؛ لأنّنا إذا نظَرْنا إلى الأمرِ في سياقِهِ لَوجَدْنا أنّ هذا كان مطابقًا تمامًا لمقتَضَياتِ عصرِه؛ لأنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلام كان يُحذِّرُ قومَه من أنّهم إذا لم يترُكوا النظَريّاتِ الباطلةَ، فسوف يكونُ عليهم الانفصالُ عن أقارِبهم الذين يَقبَلونَ الحقَّ، بينَما كان تشِرشِل يعلنُ الحربَ ضدَّ ألمانيا.

وبنفسِ الطريقة، فإنّ سُورة التَّوبة والآياتِ الأخرى المشابهةَ تتعلَّقُ بحالةِ الحرب، ويجبُ النظرُ إلى تلك الآياتِ في سياقِها.

إنّ أكثرَ ما ذُكِر في هذه السُّورةِ يتعلَّقُ بالحربِ ومقتَضَياتِها، ولهذا نَرى أنّ من المناسب أن نتحدَّثَ قليلًا عن الجهادِ والقتالِ قبلَ أن نبدأَ بتفسيرِ السُّورة.

---

(١) "I have nothing to offer but blood, toil, tears and sweat. You ask, what is our policy? I will say: it is to wage war, by sea, land and air, with all our might. You ask, what is our aim? I can answer in one word: Victory- Victory at all cost, victory, however long and hard the road may be". (Winston Churchill speaking in the House of Commons, 13 May 1940. Modem World History, Page 123).

الجهاد والقتال

تعريف الجهاد:

الجهادُ لغةً **«عبارةٌ عن بَذْلِ الجُهد»**[١]، ـ بمعنى: استعمالِ كلِّ إمكانيّاتِ: القلبِ والعقلِ والعلومِ والفنون، وكلِّ قُوى النَّفسِ والمالِ واللُّغةِ واليدِ من أَجْل تحقيقِ هدفٍ أو عملٍ ما.

هذا الجُهدُ يمكنُ بَذْلُه في طريقِ الخير، مثلَما سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ: **أُجاهدُ؟** **قال: «ألكَ أبوَانِ؟»، قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهِدْ»**[٢]، كما يمكنُ بذْلُ هذا الجُهدِ في طريق الشرِّ أيضًا، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]، بمعنى: أنّ الوالدَيْنِ وإن كانا يستحِقّانِ الاحترامَ، لكنْ إنْ حاولا التحريضَ على الشِّركِ أو المعصية، فلا ينبغي أن نُطيعَهما، ولهذا أضاف القرآنُ الكريمُ تعبيرَ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الجهادَ الإسلاميَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، حتى لا تَدخُلَ الرغَباتُ الشَّخصيةُ والطَّمعُ الدُّنيويُّ وجنونُ السُّلطة والعداوةُ والمعصيةُ في هذا الجهاد، ويكونَ المرادُ بالجهادِ هو ذلك الذي يكونُ لرضا الله تعالى فقطْ.

يقولُ العلّامةُ الراغبُ الأصفَهانيُّ، شارحًا معنى الجهاد: **«الجهادُ والمجاهدةُ: استفراغُ الوُسْع في مُدافعةِ العدوّ، والجهادُ ثلاثةُ أضرُبٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهر، ومجاهدةُ الشّيطان، ومُجاهدةُ النَّفْس»**[٣].

---

(١) بدائع الصنائع، ٩: ٣٧٩.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٥٩٧٢.

(٣) المفردات.

الجهاد في سبيل الله:

الجهادُ في الشَّريعة «**يُستعمَلُ في بَذْل الوُسْع والطاقةِ بالقتالِ في سَبيل الله عزَّ وجلَّ: بالنَّفس، والمالِ، واللِّسان، أو غيرِ ذلك**»[١]، والجهادُ اصطلاحًا هو: بذْلُ الجُهدِ والمشَقّةِ من أَجْل اللهِ تعالى وفي سَبيل الله، ومن أَجْل الإسلام، ونظام الأُمّة، وتقويةِ كلِّ هذا، سواءٌ كان بالمالِ أم بالنَّفْس أم بأيِّ طريقةٍ أخرى.

ويَظهَرُ من هذا أنّ الجهادَ لا يُطلَقُ على القتالِ فقطْ، وإنّما يطلَقُ على كلِّ جُهدٍ يُبذَلُ في سبيل استحكام الأُمّة، كبَذْلِ الجُهدِ من أَجْل العلم، وبَذْلِ الجُهدِ من أَجْل تقويةِ الإسلام، بل إنّ قولَ الحقِّ عندَ سُلطانٍ ظالم جهادٌ أيضًا، فالجهادُ إذًا يشمَلُ القتالَ، والقتالُ هو الصُّورةُ الأخيرةُ والنهائيّةُ للجهاد[٢].

وباختصار: فإنّ الجهادَ هو بَذْلُ الجُهدِ المتواصِل في الدَّعوة إلى الخَيْر والقضاءِ على السُّوء، وحين تفشَلُ كلُّ المحاولاتِ السِّلميّة في تحقيقِ هذا الغَرَض، ويصبحُ الظُّلمُ أمرًا لا يُطاق، عندَئذٍ يصبحُ الجهادُ المسلَّحُ فرضًا، وهو ما يقالُ له في الاصطلاح الإسلاميِّ: قتالٌ، فمكانةُ القتالِ في الإسلام هي - بالضَّبط - مكانةُ الجِراحة في عِلم الطبِّ، بمعنى: أنّ العمليّةَ الجِراحيّةَ تُجرَى للمريضِ بعدَ أن تفشَلَ كلُّ الأدوية الأخرى في العلاج.

الجهاد في سبيل الله قسمان:

قسمٌ يقالُ له: الجهادُ الأصغَر، وهو: الذي يكونُ ضدَّ العدوِّ الظاهر، أي: الكفّارِ «**الجهادُ في سَبيل الله على قِسمَيْنِ: أصغَر، وهو: الجهادُ معَ الكفّار، وأكبرَ،**

---

(١) بدائع الصنائع، ٩: ٣٧٩.

(٢) الموسوعة الإسلامية، ١: ٧٤٤، ودائرة المعارف الإسلامية، جامعة البنجاب: باكستان.

وهو: الجهادُ معَ النَّفْس، وإنّما كان هذا الجهادُ أكبرَ لأنّ غايةَ الأولِ إصلاحُ الظاهرِ، وغايةُ الثاني إصلاحُ الباطن، وهو أصعبُ وأقوى»[١].

١ـ الجهادُ الأصغَر: ويقالُ للقتال المنظَّم ضدَّ الكفَّار، وهو فَرْضُ كفايةٍ في الظُّروفِ العاديَّة، ولكنْ حينَ يهجُمُ العدوُّ، أو يُعلنُ رئيسُ الحكومةِ الإسلاميّةِ الجهادَ، عندَئذٍ يصبحُ هذا الجهادُ أهمَّ من الصَّلاةِ والصِّيام والحجِّ وكلِّ الأعمالِ بما فيها الجهادُ الأكبرُ أيضًا، ويصبحُ فَرْضَ عَيْن على كلِّ مسلم مكلَّف.

٢ـ الجهادُ الأكبر: عن أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الجهادِ أفضل؟ قال: «أن يُجاهدَ الرجُلُ نفسَه وهواه»[٢]، وفي عودتِه ﷺ من إحدى الغَزَواتِ قال للمجاهدين: **«قَدِمتُم خيرَ مَقْدَم، قَدِمتُم من الجهادِ الأصغَر إلى الجهادِ الأكبر». قالوا: وما الجهادُ الأكبرُ يا رسولَ الله؟ قال: «مجاهدةُ العبدِ هواه»**[٣]، ولأنه في بعضِ الأحيان يكونُ الجهادُ بالمالِ والنَّفْس، لكنّ جهادَ النَّفْس عمَلٌ مستمرٌّ ومتواصِل، ولهذا قيلَ له: الجهادُ الأكبر، وفي مناسبةٍ أُخرى قال ﷺ: **«إنّ من أعظم الجهادِ كلمةَ عدلٍ عندَ سُلطانٍ جائر»**[٤].

هدف الجهاد:

قال اللهُ تعالى:

١ـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) تفسير روح البيان، ١: ٣٣٧.

(٢) كنز العمال، ٤: ٦١٦.

(٣) الخطيب البغدادي في تاريخه، ١٣: ٥٢٣، وكنز العمال، ٤: ٦١٦.

(٤) مسند أحمد، ٣: ١٩، والترمذي، أبواب الفتن، باب ١٣.

٢- ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

٣- ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٤- ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

وبتدبُّرِ الآياتِ القرآنيّةِ السّابقة نَعلَمُ أنّ المرادَ بالجهاد: ذلك الجُهدُ الذي يُبذَلُ من أَجْلِ نُصرةِ دينِ الله تعالى في الأرض، والقضاءِ على الفتنةِ والظُّلم والفساد، وعقابِ الخائنين، وتقويةِ الدِّفاع عن البلادِ والأُمّة، وقد بيَّن صاحبُ كتابِ «الهِداية» هذا التفصيلَ مختصَرًا بقوله: «**إنّما فُرِض لإعزازِ دينِ الله ودفْعِ الشرِّ عن العباد**»[1].

بداية الجهاد:

كانت بدايةُ القتال بعدَ الهجرةِ إلى المدينةِ المنوَّرة، لكنّ بدايةَ رحلةِ الجهادِ كانت معَ نزولِ القرآنِ الكريم، ومُجاهدُ الإسلام الأوّلُ هو: سيّدُنا محمَّدٌ ﷺ، فقد بَدأ جهادَه ﷺ بتبليغ رسالةِ الله تعالى علانيَةً إلى أهلِه وأقاربِه ثم إلى الناسِ جميعًا، ويمكنُ تأمُّلُ هذه الآياتِ المكيَّةِ الثلاثة فيما يلي والتي جاء فيها ذِكرُ الجهاد:

١- ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

٢- ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

٣- ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

---

(١) الهداية، كتاب السير.

نَزَلتْ هذه الآياتُ الثلاثُ في مكّةَ المكرَّمةِ وقبلَ الهجرة، ولهذا فإنّ المرادَ بالجهادِ فيها ليس الجهادَ بالسَّيف، وإنّما الجهادُ بتبليغ التعاليم القرآنيَّةِ بطريقةٍ سِلْميّةٍ، وهو الذي تحمَّلَ المسلمونَ من أَجْلِه ثلاثةَ عشَرَ عامًا من ظُلم الكفّارِ لهم في مكّةَ بكلِّ صبرٍ وثَبات، وقد أطلَقَ القرآنُ الكريمُ على هذا الجهادِ السِّلميِّ «جِهَادًا كَبِيرًا»، وزادَه اللهُ تعالى توضيحًا بقوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقد نَزَلتْ هذه الآيةُ الكريمةُ في مكّةَ قبلَ الهجرة، ولم يأتِ فيها ولو مجرد إشارةٍ إلى استعمالِ السَّيف.

بداية القتال:

ظلَّ كفّارُ مكّةَ يُهيلونَ جبالَ الظُّلم فوقَ رؤوسِ المسلمينَ ثلاثةَ عشَرَ عامًا في مكّةَ، ولكنّ المسلمينَ استحالوا جبالًا من الصَّبرِ يتحمَّلونَ ويصبِرونَ، إلى أنْ هاجَروا من مكّةَ إلى المدينةِ المنوَّرة، ومعَ ذلك لم يتراجعْ معدَّلُ ظُلم الكفّارِ لهم، وعليه أَذِن اللهُ تعالى للمسلمين بالقتالِ (الجهادِ المسلَّح)، حتى يُمكنُهم الردُّ بالقوَّةِ على ظُلم الكفَّارِ لهم، والإذْنُ بالقتال من العقائدِ الأساسيَّةِ في الإسلام، وإنكارُه كُفر.

ولو تأمَّلْنا الأماكنَ التي وَقَعت فيها المعاركُ الثلاثُ الأُولى بينَ الإسلام والكُفر، ونظَرْنا إلى تَعدادِ المسلميـنَ إذْ ذاك، لَتبيَّن لنا أنّ الكفَّارَ وحُلفاءهم هم الذين بدَأوا المسلمينَ بالهجوم للقضاءِ عليهم، بينَما حَمَل المسلمونَ سيوفَهم للدِّفاع عن أنفُسِهم ليس إلّا، على سبيل المثال: حَدَثت غزوةُ بَدْرٍ في السنةِ الثانيةِ للهجرة على بُعدِ تسعينَ ميلًا من المدينةِ المنوَّرة، وكان عددُ الكفَّار فيها ألفًا، بينَما كان عددُ المسلمينَ ثلاثَمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ فقطْ، وحَدَثت غزوةُ أُحُدٍ في السَّنَة الثالثةِ للهجرة على بُعدِ عدةِ أميالٍ من المدينةِ المنوَّرة، وكان عددُ الكفَّارِ فيها ثلاثةَ آلاف، بينَما كان عددُ المسلمينَ سبَعمائةٍ فقطْ.

وحَدَثت غزوةُ الأحزابِ في السَّنَة الخامسةِ للهجرة على أبوابِ المدينة، وكان عددُ الكفّارِ فيها عشَرةَ آلاف، بينَما كان عددُ المسلمينَ ثلاثةَ آلاف. وأمامَ هذا التعدِّي السّافر من الكفّارِ أَذِن اللهُ تعالى للمسلمينَ في استعمالِ السِّلاح، فقال: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩]، بمعنى: أنه لو حَدَث القتالُ فقاتِلوا أولئك الذين شارَكوا في القتالِ ضدكم فقط، وفيما عدا ذلك غيرُ مسموح لكم بقَتْل النِّساءِ والأطفال والشُّيوخ والرُّهبان، ولا بالتمثيل بجُثَثِ القتلى، بل وغيرُ مسموح لكم بقَتْل الحَيواناتِ ولا بإتلافِ الحقولِ والأشجارِ المثمِرة بغيرِ ضرورة[١]، أي: أنه في وقتٍ يكونُ القتالُ فيه على أشُدِّه، ويَصعُبُ فيه التحكُّمُ في الحماسِ والثَّورة، وتشتعلُ فيه نِيرُ الانتقام، يُلزِمُ الإسلامُ فيه المجاهدينَ باتِّباع الأصُولِ والمبادئ والتزام الإنصافِ والعدل، حتى لا يحدُثَ ظُلمٌ لأحدٍ أو جَوْرٌ عليه؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الظالمين.

فهل هناك أُمّةٌ كهذه في عالمِنا المتقدِّم اليومَ راعَتْ في حالة الحربِ القانونَ والعدلَ والإنصافَ بهذا الشكل؟ على العكس من ذلك، فإنّه ما إن تبدأَ الحربُ في أيامِنا هذه حتى تُقصَفَ المدُنُ والمدَنيُّونَ بالقنابل، ولا تراعَى حُرمةُ النِّساءِ ولا الأطفال الصِّغارِ ولا الشُّيوخ الكبار، بل وأكثرُ من ذلك، تُهْدَمُ حتى المستشفيات! ودُورُ العبادة وأماكنُ العِلم، ولم يَنَلْ أحدٌ شرفَ عدَم السَّماح لأحدٍ حتى خلالَ المعاركِ الطاحنة وما يَصحَبُها من ثورةِ العواطفِ والمشاعرِ أن يَظلِمَ بريئًا سوى الإسلام، ولم لو يَسمَحْ للمسلمينَ في ذلك الوقتِ بالقتالِ دفاعًا عن أنفُسِهم ورفعًا لرايةِ الحقِّ، لَما كان لهم في عالَمِنا اليومَ أثرٌ يُذكَر.

---

(١) «أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعث جيوشًا إلى الشّام وقال: لاتقتلنّ امرأة، ولا صبيًّا، ولا كبيرًا هرمًا، (ولا تمثلوا) ولا تقطعنّ شجرًا مثمرًا، ولا تخرّبنّ عامرًا، ولا تعقرنّ شاة، ولا بعيرًا إلّا لمأكلةٍ» - الموطا للإمام مالك، كتاب الجهاد، باب ٣.

الفرق بين الجهاد والقتال:

بينَ الجهادِ والقتالِ علاقةٌ جُزْئيَّة وأُخرى كُلِّيّة.

فالجهادُ كلٌّ، والقتالُ جُزءٌ منه، وكلُّ جُهدٍ يُبذَلُ من أَجْل القضاءِ على الظُّلم والفساد، وتقويةِ أركانِ الدَّولة والأُمّة هو جهادٌ.

والقتالُ هو الصُّورةُ الأخيرةُ للجهاد، وكأنّ الجهودَ السِّلميّةَ هي الدَّرجةُ الأُولى من سُلَّم الجهاد، أما الدّرجةُ الأخيرةُ فهي القتالُ، في حينَ أنّ القتالَ قتالٌ في أوّلِه وآخِرِه.

وقد جاء لفظُ الجهادِ في القرآنِ الكريم بمعنى: القتالِ أيضًا، ولكنْ لا ينبغي أن يساءَ فَهْمُ هذا الأمرِ على أنّ الجهادَ والقتالَ بمعنىً واحدٍ، أو أنّ الجهادَ هو القتالُ فقطْ؛ لأنّ استعمالَ الكلِّ في معنى الجُزءِ أمرٌ واردٌ في كلِّ اللُّغاتِ والمعاجِم، ولوِ اختصَصْنا الجهادَ بالقتالِ فقطْ فستخلو الثلاثةَ عشَرَ عامًا التي قضاها المسلمونَ في مكّةَ المكرَّمةِ من الجهاد، إذْ لم يكنْ هناك إذْنٌ بالقتال، معَ أنّ هذه الأعوامَ الثلاثةَ عشَرَ كانت نموذَجًا يُحتذَى في الجهادِ الأكبر والجهادِ الأعظم، وهو الجهادُ الذي واجَهَ النبيَّ ﷺ والمسلمونَ في سبيلِه أشدَّ أنواع المصاعبِ والمشكلات، بل واستُشهدَ في هذا الجهادِ العديدُ من المسلمين أيضًا.

أهميّة القتال:

الإسلامُ لا يطالبُ بأنّ كلَّ مَن يَدخُلُ في الإسلام عليه أن يبدأَ بقتالِ كافرٍ ما، وإنّما الحقيقةُ هي أنه أحيانًا يقعُ القتالُ حيثُما يكونُ هناك جهودٌ أخرى كثيرةٌ تُبذَلُ من أَجْل إعلاءِ كلمةِ الحقِّ وحمايةِ البلاد والأُمّة، وذلك لأنه حينَما يُغلقُ الباطلُ كلَّ أبوابِ التَّعقُّل، يكونُ على الحقِّ عندَئذٍ رفعُ سلاحِه، فهذه حقيقةٌ عالميَّةٌ

معروفةٌ تعترفُ بها كلُّ شعوبِ العالَم، فكلُّ أُمّةٍ تَعتبِرُ القتالَ هو الحَرْبةَ الأخيرةَ التي تستخدمُها من أَجْلِ الدِّفاع عن نفسِها والحصُول على حقوقِها، وغيرُ المسلمين يريدونَ فقطْ أن يتخلَّى المسلمونَ عن القتال؛ لأنّ المسلمينَ حين يقاتلونَ فإنّهم يقاتلونَ بشجاعةٍ بالغةٍ طمَعًا في الشَّهادة، بينَما لا تستطيعُ الأُممُ الأُخرى ذلك، ولو كان القتالُ أمرًا سيّئًا في ذاتِه فعلى غيرِ المسلمين إذًا أن يتركوه.

إعلان القتال:

إعلانُ القتـالِ موقوفٌ على اجتهادِ الحاكم المسلم، ويَلزَمُ الرَّعيّةَ إطاعةُ إعلانِه[١]، و«**الجهادُ فَرْضُ كفاية، ومعناه: أنه يُفترَضُ على جميع مَن هو أهلٌ للجهاد، لكنْ إذا قام به البعضُ سَقَط عن الباقِينَ ـ لكنْ إذا هَجَم العدوُّ على بلدٍ إسلاميٍّ فالجهادُ فرضُ عَيْنٍ على كلِّ قادرٍ من المسلمين**»[٢]، في مِثلِ هذه الحالةِ يصبحُ من الفَرْض على كلِّ مؤمنٍ أن يوظِّفَ كلَّ إمكانيّاتِه لحماية بلدِه ودينِه، أمّا الذين لا يستطيعونَ قتالًا فعليهم مساعدةُ إخوانِهم المجاهدينَ بالمالِ والنَّفسِ واليدِ واللِّسان، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**جاهِدوا المشركينَ بألسنتِكم وأنفُسِكم وأموالِكم وأيديكم**»[٣].

حكم الجهاد والقتال مستمرّ:

قال رسولُ الله ﷺ: «**والجهادُ ماضٍ منذُ بَعَثني الله إلى أن يُقاتِلَ آخِرُ أُمّتي الدّجّالَ**»[٤]، ولهذا فإنه حيثُما تتوفَّرُ المقتَضَياتُ الإسلاميّةُ للجهادِ والقتال يصبحُ

---

(١) «أمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعيـة طـاعته فيمـا يراه من ذلك». الفـقه الإسلامي وأدلته، ٦: ٤١٦.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، ٦: ٤١٦.

(٣) مسند أحمد، ٣: ١٥٣.

(٤) أبوداود، كتاب الجهاد، باب ٣٥.

من الفَرْض المشاركةُ فيه، تمامًا مثلَما كان الأمرُ قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام.

هل كانت الحروب الإسلاميّة هجومًا أم دفاعًا؟

في العهدِ النَّبويِّ كانت بعضُ الحروبِ دفاعًا طِبقًا للظُّروف، مثلَ: غزوةِ بَدْر وغزوةِ أُحُد وغَزْوة الخَنْدقِ وغيرِها، وهي التي بدَأَ الكفّارُ فيها بالهجوم.

والبعضُ الآخَرُ كان هجومًا مثلَ: فَتْح مكّةَ، حيث بدَأَ المسلمونَ الهجومَ، وذلك لأنّ المشركينَ هم الذين نَقَضوا المعاهدةَ، وفي غَزْوةِ تبوكَ أيضًا بدَأَ المسلمونَ بالهجوم؛ لأنّ الجيشَ الرُّوميَّ كان يستعدُّ للهجوم على المسلمين، ولسنا في حاجةٍ إلى أن نتحدَّثَ عن الحروبِ الهجوميّةِ هنا بتردُّدٍ أو خَجَل واعتذار، لأنّ الهجومَ يكونُ في بعضِ الأحيان ضروريًّا لتأديبِ الباطل، ويتمُّ إفشالُ خُطَطِه الوضيعة، ولا تستطيعُ فتنةٌ أن تُطلَّ برأسِها.

الإسلام يرجّح الصّلح على الحرب:

الإسلامُ دينُ الأَمْن والسَّلام، ويأذَنُ للمسلمينَ بالحربِ عندَما يَحِيقُ الخطرُ بأَمْن الإنسانيّةِ وسلامِها فقطْ، وحيث لا يكونُ هناك مفَرٌّ من القتال، أمّا إذا تخلَّى العدوُّ عن إرادةِ الحرب وطلَبَ الصُّلحَ ولو في ميدانِ الحرب، فإنّ حُكمَ الإسلام في هذه الحالة هو: أن يوقفَ المسلمونَ أيضًا الحربَ ويَقبَلوا الصُّلحَ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٠]، وقال تعالى في موضع آخَر: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وقد حاولَ النبيُّ ﷺ تجنُّبَ الحربِ والقتالِ قَدْرَ الإمكان، ففي الحُدَيْبِيَة بايَعَ ألفٌ وأربعُمائةِ صحابيٍّ النبيَّ ﷺ على الفداءِ والموت، لكنّ النبيَّ ﷺ رَجَّح الصُّلحَ،

برغْم أنّ أكثرَ الصّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم لم يكونوا مؤيِّدينَ للصُّلح، وذاتَ مرّة وأثناءَ السَّفَر للجهاد قال النبيُّ ﷺ **«أيُّها النّاس، لا تمَنَّوْا لقاءَ العدوّ وسَلُوا الله العافيةَ، فإذا لقِيتُموهم فاصبِروا واعلَموا أنّ الجنّةَ تحتَ ظلالِ السُّيوف»**[1].

هل انتشر الإسلام بالسّيف؟

يَعمَدُ بعضُ النّاسِ إلى الإساءةِ إلى فريضةٍ مقدَّسة مثلَ الجهادِ والقتالِ بتوجيهِ اتِّهام فحواهُ أنّ الإسلامَ انتشَر بقوّةِ السَّيف، وأمثالُ هؤلاءِ إمّا أنّهم يجهَلونَ تاريخَ الإسلام خلالَ الثلاثةَ عشَرَ عامًا في مكّةَ، أو أنّهم يرتكبونَ جريمةَ إخفاءِ الحقائق بشكل متعمَّد؛ لأنّ الرِّجالَ والنِّساءَ الذين كانوا يَدخُلونَ الإسلام في مكّةَ، كان الكفّارُ يُنزِلونَ بهم من الظُّلم جبالًا، هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ لم يكنْ مسموحًا لهؤلاءِ المسلمينَ بحَمْلِ السِّلاح، وكانت نتيجةَ كلِّ هذا - في نهاية الأمر - هو أنّ المسلمينَ اضْطُرُّوا إلى الهجرةِ من مكّةَ، فهل يُخبِرُنا المعترضونَ: أيُّ سيفٍ ذلك الذي أخافَ تلك المئاتِ من المسلمينَ الذين دَخَلوا الإسلامَ في مكّةَ، وهاجَروا منها إلى المدينةِ حالَ كونِهم يعانونَ أشدَّ أنواع الظُّلم؟ لقد كان السَّيفُ في ذلك الوقتِ في يدِ الكفّارِ فقطْ. الحقيقةُ أنّ السَّيفَ الذي جَعَل أولئك يَدخُلونَ الإسلامَ لم يكنْ ذلك السَّيفَ الحديديَّ الذي نَعرِفُه، وإنّما كان سَيفَ حُسنِ أخلاقِ النبيِّ ﷺ، والذي جَعَل العربَ جميعًا يشرُفُونَ بالدُّخول في الإسلام خلال سنواتٍ قلائل:

- **أكان ذلك صوتَ هَزِيم الرَّعد أم صوتَ الهادي، ذلك الذي هزَّ بلادَ العربِ كلَّها هزًّا.**

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والإسلامُ يحترمُ الحرِّيةَ الدِّينية، ولو كان الإكراهُ والإجبارُ مسموحًا بهما في الإسلام لَما بقيَ في أسبانيا في العصورِ

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ١٥٦.

الوسطى شخصٌ واحدٌ غيرَ مسلم، ولَما بقي في الهندِ في عهدِ الدَّولة المَغُوليّة فردٌ واحدٌ غيرَ مسلم أيضًا، إذ كان الجميعُ سيَدخُلونَ في الإسلام إكراهًا وإجبارًا، معَ أنّ هذا لم يحدُثْ.

والإسلامُ اليومَ ينتشرُ في الدُّولِ المتقدِّمة، وسُكّانُ هذه البلادِ الأَصْليُّون يَدخُلونَ الإسلامَ، ولو أنّ الإسلامَ انتشَر بالسَّيف فعلًا، فإنّ السَّيفَ اليومَ من الناحيةِ الفعليَّة في يدِ أمريكا وأوروبا، والمسلمونَ في هذه البلاد جاءوا إليها في شكل عُمّالٍ ومحكومين، فأيُّ سيفٍ إذًا أَجْبرَ السُّكانَ الأَصْليِّينَ فيها على الدُّخول في الإسلام؟ من الواضح أنه ليس السّيفَ الحديديَّ الذي نَعرِفُه، وإنّما هو سيفُ التعاليم الفِطريَّة، وهو الذي يستميلُ إليه العقلُ السَّليم.

إنّ الحروبَ والمعاركَ التي وَقَعت في حياةِ النبيِّ ﷺ لم يكنْ من بينِها حربٌ واحدةٌ حَدَثت بقَصْدِ تغييرِ دينِ قبيلةٍ ما أو شعبٍ ما، كما أنه لا يوجَدُ شعبٌ يغيِّرُ دينَه خوفًا من قوّةٍ أو طمعًا في ثروة، وبالرَّغْم من كلِّ هذا لو أنّ أحدًا لا يزالُ في شكٍّ من الأمرِ فعليه أن يُرينَا هذا، ويُجرّبَ إغراءَ شعبٍ بالثروةِ أو تخويفِه بالسَّيف، فلن يترُكُ أيُّ شعبٍ دينَه؟ واليومَ يوجَدُ مسلمونَ في كلِّ بلادِ الدّنيا، بالإضافةِ إلى ستٍّ وخمسينَ دولةً إسلاميّةً، ولكنْ لم يدَّع أحدٌ حتى يومِنا هذا أنه تمّ إجبارُه على الدُّخول في الإسلام أو إغراؤه بذلك.

* * *

سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩)،

مدنيّة: (١١٣)، آياتها (١٢٩)، وركوعاتها (١٦)

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

١- حينَ توجَّه النبيُّ ﷺ إلى تبوكَ في شهرِ رَجبٍ من السَّنةِ التاسعةِ للهجرة لمواجهةِ الجيشِ الرُّومي، كان المشركونَ على يقينٍ من أنّ هذا بدايةُ الزَّوال للمسلمين، وأنّ الجيشَ الرُّوميَّ سيَمْحُو المسلمينَ من الوجود، لكنْ خابت كلُّ ظنونهم، فقد أقام المسلمونَ في تبوكَ عشرينَ يومًا، ولم يتجرَّأِ الجيشُ الرُّوميُّ على المواجهة، وعادَ الجيشُ الإسلاميُّ سالمًا معافىً، وأمام نَقْضِ المعاهداتِ

المتكرِّرِ من المشركينَ، أَمَرَ اللهُ تعالى المسلمينَ بتطهيرِ الجزيرةِ العربيَّةِ من هذه الثّعابينِ الكامنةِ الرابضةِ، أولئك الذين كانوا يبادرونَ فورًا إلى مخالفةِ المسلمين كلَّما دَعَت الحاجةُ إلى مواجهةِ عدوٍّ خارجيٍّ، وهكذا كما يقولُ المثَل «**الضَّغط يولِّد الانفجار**»(١) تمَّ إلغاءُ كلِّ المعاهداتِ معَ المشركينَ لتجنُّبِ الأخطارِ المُحدِقة المستمرَّة من جانبِهم، وتمّ الإعلانُ عن ذلك على الملأِ في مناسبةِ الحجِّ الأكبر، حتى لا يبقَى لدى أحدٍ فهْمٌ خاطئ.

كان سيّدنا أبوبكرٍ الصِّدّيقُ رضي اللهُ عنه أميرَ الحجِّ في ذلك العام، ولكنّ النبيَّ ﷺ أمَرَ سيّدَنا عليًّا رضي اللهُ عنه بإعلانِ هذه البراءة؛ لأنّ «**عادةَ العرب جرَت أن لا يتولَّى تقريرَ العهد ونَقْضَه إلّا سيّدُ القبيلة وكبيرُها أو رجلٌ من أقاربِه، وكان عليُّ بنُ أبي طالبٍ أقربَ إلى النبيِّ ﷺ من أبي بكر، لأنه ابنُ عمِّه ومن رَهْطِه، فبَعَثَه النبيُّ ﷺ ليؤْذِنَ عنه ببراءةٍ إزاحةٍ لهذه العِلّة، لئلا يقولوا: هذا على خلافِ ما نَعرِفُه من عادتِنا في عَقْد العهودِ ونَقْضِها**»(٢).

«**وقد ذَكَر بعضُ أهلِ السُّنة نُكتةً في نَصْبِ أبي بكرٍ أميرًا للنّاس في حجِّهم، ونَصْبِ الأمير كرَّم اللهُ تعالى وجهَه مبلِّغًا نَقْضَ العهدِ في ذلك المحفِل، وهي: أنّ الصِّدِّيقَ رضي اللهُ تعالى عنه لمّا كان مُظهِرًا لصفةِ الرّحمةِ والجمال، ولمّا كان عليٌّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه الذي هو أسَدُ الله مُظهِرَ جلالِه، فوَّض إليه نَقْضَ عهدِ الكافرينَ الذي هو من آثارِ الجلالِ وصفاتِ القَهْر**»(٣).

---

(١) المثل في الأصل بالأردية هو: «تنگ آمد بجنگ آمد»، ويعني: زاد الضيق فوقعت الحرب، أي: كلما زادت مضايقتك لأحد زادت فرص الشجار معه، وهو أقرب إلى ما ذكرناه مما هو معروف لدى أهل العربية «الضغط يولد الانفجار».

(٢) تفسير الخازن.

(٣) تفسير روح البيان.

ثم تلا سيّدُنا عليٌّ رضيَ اللهُ عنه الآياتِ الأُولى من هذه السُّورة، والتي جاء الإعلانُ فيها بأنّ المشركينَ الذين عاهدتُموهم لأكثرَ من أربعةِ أشهر، ولم يَنقُضوا هذه المعاهداتِ، فأتِمُّوا هذه المعاهداتِ وأكمِلوها، ولا تشتَبِكوا معَهم في معاركَ حتى نهايةِ مدّةِ المعاهدات، مثلَما سيأتي ذِكرُه في الآيةِ الرابعة، أمّا القبائلُ المُشرِكةُ التي ظَلَّت تخالفُ المعاهداتِ، فقد فُسِخت معاهداتُكم معَهم اليومَ، ولكنْ لا تهاجِموهم فجأةً، وإنّما أعطُوهم مُهلةَ أربعةِ أشهر، فإنْ دَخَلوا في الإسلام خلالَها، وأصبحوا جُزءًا من الحكومةِ الإسلاميَّة، وعاشوا حياةً كريمةً في هذا البلد فبِها ونعِمَت، وإلّا فإنّ عليهم أن يَرحَلوا عن شِبه الجزيرةِ العربيَّة إلى أيِّ مكانٍ آخَر، وليعيشوا حياتَهم هناك في سلام، فإذا لم يكنْ هذا ولا ذاك فعليهم أن يَستعِدُّوا للحربِ والنِّزال، حتى تَطهُرَ شبهُ الجزيرةِ العربيّة من الشِّرك[1]، وبعدَ هذا الإعلانِ قال المشركون: «**يا عليُّ، أبلغ ابنَ عمِّك أنّا قد نَبَذْنا العهدَ وراءَ ظهورِنا، وأنه ليس بينَنا وبينَه عهدٌ إلّا طعنٌ بالرِّماح وضربٌ بالسُّيوف**»[2].

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ ﴾

٢- المرادُ بالأشهُرِ الحُرُم المعروفةِ ذاتِ الحُرمةِ في الحجِّ والعُمرةِ هي: ذو القَعْدة وذو الحِجّة والمحرَّمُ ورَجَب، وهي التي سيأتي ذِكرُها فيما بعدُ في الآية رقم ٣٦، لكنّ المرادَ بالأشهُرِ الحُرُم في هذه الآية: تلك الشُّهورُ الأربعةُ التي أُعطِيَتْ مُهلةً للمشركين بعدَ إعلانِ البراءة، وهذه الأشهُرُ الأربعةُ تبدأُ من العاشرِ من ذي القَعْدة وتنتهي في العاشرِ من ربيعِ الأول؛ لأنّ الحجَّ في العام التاسع من الهجرة كان في ذي القَعْدة، وكان الكفّارُ قد أَطْلقوا اسمَ ذي الحِجّة على شهرِ ذي القَعْدة

(١) الترجمة والتفسير الأردي: برعاية الملك فهد بن عبد العزيز: المملكة العربية السعودية.
(٢) التفسير الكبير.

من باب النّسيء[١]، ولأنه لم يكنْ مسموحًا للمسلمينَ في هذه الأشهُرِ الأربعةِ أن يهجُموا على الكفَّار، لهذا أُطلِق عليها الأشهُرُ الحُرُم[٢]، وسيأتي شرحُ النَّسيء بالتفصيل فيما بعدُ في الآية رقم ٣٧.

﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾

٣ـ هذه هي أقسى آيةٍ نَزَلت في القرآنِ الكريم ضدَّ المشركينَ العرب، وهي لهذا يقالُ لها: آيةُ السَّيف[٣]، وبعضُ الناسِ حين يقرأونَ هذه الآيةَ منفصِلةً عن سياقِها يَخرُجونَ بنتيجةٍ مفادُها أنّ الإسلامَ دينٌ صعبٌ وقاسٍ، إذْ يأمُرُ بقَتْل الكفّارِ جميعًا، معَ أنّ هذا التأويلَ يخالفُ النصَّ القرآنيَّ تمامًا، ولو كان الحُكمُ بقتلِ كلِّ كافرٍ فعلًا لَكان كلُّ الكفّارِ الذين عاشوا في عهدِ الخلافة الراشدة تحتَ الحُكم الإسلاميِّ قد قُتِلوا! وهذا لم يحدُثْ، ولهذا علينا ـ لكي نفهَمَ هذه الآيةَ فهمًا صحيحًا ـ أن نتدبَّر النقاطَ التالية:

١ـ كان أكثرُ مشركي العربِ يقطُنونَ في مكّةَ وضواحيها، وهم الذين أَخرجوا المسلمينَ من ديارِهم، وصادَروا ممتلكاتِهم، وهجَموا على المسلمينَ أينما ذهبوا، بل إنّ المشركينَ الذين لم يُسلِموا بعدَ فَتْح مكّةَ كانوا يطُوفونَ ببيتِ الله عَرايا، ولا يألُونَ جُهدًا في إيذاءِ المسلمين، وينتظرونَ يومًا يُحلُّ فيه على المسلمينَ خطبٌ جَلَلٌ حتى يَفسَخوا المعاهدات، ويَقْضُوا على المسلمينَ بالتعاونِ معَ القُوى الأخرى المُعادِيةِ للإسلام مثلَما وَرَد في الآياتِ من ٧ إلى ١٠، وكانت هذه هي أولَ حكومةٍ للإسلام في الجزيرةِ العربيَّة، وكان من الضَّروريِّ لتقويتِها أن يتمَّ طردُ

---

(١) «ابتداء تلك المدة يوم النحر لعشر من ذي القعدة إلى انقضاء عشر من شهر ربيع الاول؛ لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت بسبب النسيء الذي كان فيهم». روح المعاني

(٢) «قيل لها حرم لأن الله حرّم على المؤمنين فيها دماء المشركين». تفسير البحر المحيط والقرطبي.

(٣) «هذه هي آية السّيف». تفسير المنير.

هؤلاء الأعداءِ الأزَليِّين والثعابينِ الكامنة ـ أي: المشركين ـ من الجزيرةِ العربيَّة، ومن لا يَخرُجُ يتِمُّ قتلُه.

٢ـ جاء التحذيرُ للمشركينَ في الآياتِ السابقة بأنْ يدخُلوا الإسلامَ خلالَ الشهورِ الأربعة، أو أن يَرحَلوا عن الجزيرةِ العربيَّة إلى أيِّ بلدٍ آخَر، وإلّا سيُقتَلون، ولهذا فإنّ هذا الحُكمَ بالقتل خاصٌ بأولئك المشركينَ الذين لم يَقبَلوا الإسلامَ ولم يَرحَلوا عن الجزيرةِ العربيَّة، وإنّما أعلَنوا فَسْخَهم للمعاهداتِ معَ رسولِ الله ﷺ، وراجعْ تفصيلَ ذلك في الحاشية رقم ١.

٣ـ ليس في هذه الآيةِ حُكمٌ بقَتْل كلِّ المشركينَ في العالَم، وإنّما الحُكمُ خاصٌّ بمشركي العربِ فقطْ، ولا يَدخُلُ مشركو الدُّولِ الأخرى تحتَ طائلةِ هذا الحُكم[1].

٤ـ هذا الحُكمُ خاصٌّ بمشركي العربِ فقطْ، ولا يَدخُلُ تحتَ طائلتِه كذلك أهلُ الكتاب ولا الكفّارُ الآخَرونَ من العرب؛ لأنّهم كانوا يدفَعون الجِزيةَ ويحصُلونَ على الأمانِ مثلَما سيأتي في هذه السُّورة فيما بعدُ في الآية رقم ٢٩.

٥ـ هذا الحُكمُ ليس دائمًا أو أبديًّا، وإنّما كان مؤقَّتًا، وظلَّ يُنفَّذُ طيلةَ حياةِ النبيِّ ﷺ، وهذه المدّةُ كلُّها عبارةٌ عن عام واحدٍ تقريبًا، والواقعُ هو أنه لم يُقتَلْ مشركٌ واحدٌ على أرضِ العربِ خلالَ هذا العام، وإنّما أسلَمَ أكثرُهم، ورَحَل الباقونَ عن الجزيرةِ العربيَّة، ولمّا لم يَبْقَ في الجزيرةِ العربيَّة مشركٌ واحدٌ لم تَعُدْ هناك ضرورةٌ لهذا الحُكم.

٦ـ أولئك المشركونَ الذين أعلَن عن قتلِهم، لو أنّ أحدًا منهم رَحَل عن الجزيرةِ العربيَّة، وانتَهت مُهلةُ الشهورِ الأربعة، ولم تكنْ له أيةُ معاهدةٍ معَ المسلمين، ثم أراد أن يعودَ ليحصُلَ على معلوماتٍ عن الإسلام، فإنه كان يُجار، ولم

(١) «خاصًّا في مشركي العرب دون غيرهم» ـ أحكام القرآن للجصاص.

يكنْ يتمُّ إجبارُه على الدُّخولِ في الإسلام بعدَ حصولِه على معلوماتٍ عنه، ولم يكنْ يُقتَلُ كذلك، وإنّما كان يعادُ إلى بيتِه في سَلام وأمانٍ[1] مثلما سيأتي في الآية رقم٦.

ويُعلَمُ منَ النِّقاطِ المذكورة سابقًا أنّ هذا الحُكمَ كان خاصًّا بمشركي العربِ فقطْ، حتى يتِمَّ تطهيرُ مركزِ الإسلام من المشركين، ولم يكنْ هذا حُكمًا جديدًا بالنِّسبةِ للأديانِ السَّماويّة، فقد جاء الحُكمُ قبلَ ذلك في التَّوراةِ بتطهيرِ إسرائيلَ من المشركين، على سَبيل المثال:

• لو أنّ أحدًا ـ رجُلًا كان أم امرأةً ـ في قريةٍ من قُرى بلدِكم (إسرائيل) خالَفَ عهدَكم معَ الله، أي: يعبُدُ الشّمسَ أو القمرَ أو النُّجومَ، وهي التي مُنِعَت عبادتُها منعًا باتًّا، عليكم أولًا أن تتحقَّقوا من صحّةِ هذه الشائعاتِ، فإذا ثَبَت صِدقُها فاطْرُدوا ذلك الرجُلَ أو تلك المرأةَ من البلاد، واقتُلوه رميًا بالحجارة، لكنْ على أيّةِ حال لا تقتُلوا أحدًا بشهادةِ فردٍ واحد، ولكنْ لا بدَّ من وجودِ شاهدَيْنِ أو ثلاثةِ شهودٍ على الأقل[2]، وإنْ رَفَض المدَّعَى عليه حُكمَ القاضي أو القِسِّيس الذي عيَّنه اللهُ فعقابُهُ القَتْلُ؛ لأنّ تطهيرَ إسرائيلَ من أمثالِ هؤلاء المذنِبينَ ضروريٌّ[3].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾

٤ـ أولئك المشركونَ الذين جاء الحُكمُ بقَتْلِهم لو أنّ أحدًا منهم أراد بعدَ

---

(١) «إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر، لا عهد بينك وبينه، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطّلع على حقيقة الأمر. أقول: هذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق؛ لأن المراد ليس النيل من الكافرين؛ بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق فيتبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الضلال ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: ثم إن لم يسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة». صفوة التفاسير وتفسير القرطبي.

(٢) الكتاب المقدس الحي، الاستثناء، ١٧ : ٦-٢.

(٣) الاستثناء، ١٧ : ١٢.

مرورِ أربعةِ أشهُرٍ أن يأتيَ إلى الحكومةِ الإسلاميَّة، حتى يسمعَ كلامَ الله، ويحصُلَ على معلوماتٍ عن الإسلام، باعتبارِ أنهم قومٌ جُهَلاءُ، فعليكَ أن تَجُرَّه[١]، وقدِّمْ له التعاليمَ الإسلاميّةَ، فإن قَبِلَ الإسلامَ فبها ونَعِمَت، وإلّا فلا تُجبِرْه على الدُّخول فيه، وإنّما أوصِلْه إلى مَأْمنِه، أي: إلى بلدِه في أمانٍ حتى لا يَقتُلَه مسلمٌ، لأنه كان قد أُعلِن عن قَتلِه في الجزيرةِ العربيّة.

وهذه الآيةُ بمثابةِ لَمْحةٍ فكْريّةٍ لأولئك المسلمينَ الذين نَراهم على شاشاتِ التلفزيون، يحمِلونَ مصحفًا في يد، وفي اليدِ الأخرى بُندقيّةً يلوِّحونَ بها، ليُعطُوا تصوُّرًا بالعُنفِ إلى العالَم غيرِ المسلم، كما أنّ هذه الآيةَ أيضًا تدعو غيرَ المسلمينَ الذين يتَّهمونَ الإسلامَ بالتطرُّفِ والإرهابِ إلى التدبُّر والتفكُّر، ففي هذه الآية ذِكرٌ لذلك المشركِ الذي ثَبَت جُرمُه، وتمَّ الإعلانُ عن قتلِه، وبالرَّغْم من ذلك أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أنه لو أن هذا الشّخصَ جاء إليك صُدفةً، وطلَبَ أن تُجيرَه ليسمعَ كلامَ الله، فعليكَ أن تُجِيرَه، وأن تدعوَه إلى الإسلام، وإذا لم يَقبَل الإسلامَ فلا تقتُلْه، بل أعِدْه بأمانٍ إلى بيتِه.

والآنَ، أيُّها القارئ، عليك أن تتمعَّنَ في هذا الأمرِ ثم تُصدِر حُكمَك، هل هناك دينٌ أكثرُ سِلْميّةً من هذا؟

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ

---

(١) «أي: سأل أمانك وذمامك، فأعطه اِيّاه ليسمع القرآن، فإن قبل أمرًا فحسن، وإن أبى فردّه إلى مأمنه». تفسير القرطبي.

إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾

٥ـ المشركونَ الذين جاء الإعلانُ عن قَطْع العلاقاتِ معَهم في الآيةِ الأُولى من هذه السُّورة، جاء بيانُ أسبابِ هذا في الآياتِ الأربعةِ التالية (من الآية ٧ إلى الآية ١٠)[1]، بمعنى: أنّهم حينَ كانوا يعاهَدون، فإنّهم كانوا يُرضُونَ الآخرينَ بمجرَّدِ الكلام فقطْ، ولم تكن في قلوبِهم إرادةُ إتمام هذه المعاهَدة، وإنّما كان المخالفةُ هي التي تَدورُ في أذهانِهم، وكلَّما واتَتْهم الفرصةُ لم يُراعوا في إيذاءِ المسلمينَ أيَّ قرابةٍ أو أيَّ معاهَدة، كما أنّهم يُعرِضُونَ عن آياتِ الله تعالى من أَجْل رَغباتِهم وشَهواتِهم، ويَنقُضُونَ المعاهَداتِ طَمعًا في المالِ والثروةِ الدُّنيويّة، ويعمَلونَ على إبعاد الآخَرين

(١) «بعد أن ذكر الله تعالى براءة الله ورسوله من عهود المشركين، وإعلان الحرب عليهم بعد أربعة أشهر إلا من يستجير أو يستأمن لسماع كلام الله أو للرسالة أو للتجارة، أبان سبب البراءة من المشركين وإمهاله إياهم أربعة أشهر، ثم مناجزتهم بكل أنواع القتال، وهو/ نقضهم العهود ومعاملتهم بالمثل». التفسير المنير.

عن الطريقِ المستقيم، فالاعتمادُ عليهم وعَقْدُ المعاهَداتِ معَهم بعدَ كلِّ هذه المشاهدات، إنّما هو خِداعٌ كبيرٌ للنَّفْس وعصيانٌ لله تعالى أيضًا، وإذًا «**كيف يكونُ للمشركينَ عهدٌ معَ إضمارِ الغَدْرِ فيما وَقَع من العهد، إلّا الذين عاهَدتُّم عندَ المسجدِ الحرام، لأَجْلِ أنّهم ما نكَثوا أو ما نَقَضُوا. قيل: إنّهم كِنانةُ وبنو ضَمْرةَ، فتربَّصوا أمرَهم ولا تقتُلوهم، فما استقاموا لكم على العهدِ فاستقيموا لهم على مِثلِه**»[1].

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾

٦ـ أي: لو أنّ هؤلاءِ المشركينَ تابوا، وقَدَّموا الدَّليلَ العمَليَّ على توبتِهم بالالتزام بالصَّلاة والزَّكاة، فهم مِثلُكم، جزءٌ من المجتمع الإسلاميِّ، ولهم نفسُ الحقوقِ التي للمسلمينَ الآخَرين.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾

٧ـ لو أنّ شخصًا تعهَّد بالدُّخولِ في الإسلام، ثم حَنِثَ في قَسَمِه، أي: ارتَدَّ بعدَ ذلك، وفوقَ هذا يَعيبُ على دينِكم ويَسخَرُ منه، فإنّ أمثالَ هؤلاء هم أئمةُ الكُفر، لأنّهم اختاروا الكُفرَ بعدَ فَهْم الإسلام والدُّخولِ فيه، مثلَ: مُسَيْلِمةَ، والأسودِ، ومُنكِري الزَّكاةِ وغيرِهم، لهذا عليكم أن تُحاربوا أئمةَ الكُفرِ هؤلاء، ولا تلتفتوا إلى أَيْمانِهم، لكنّ قرارَ الحربِ هذا تتَّخذُه الحكومةُ الإسلاميَّةُ فقطْ، وغيرُ مسموحٍ لأحدٍ أن يأخُذَ القانونَ في يدَيْه، ويُصدرَ الأمرَ بشكلٍ فَرْديّ، وقد جاء في الإنْجِيل عن الذين يُهينونَ الدِّين، أو رموزَه المقدَّسَة أنّ هؤلاءِ يُقتَلون:

١ـ «مَن يُهِنِ اللهَ سيُقتَل، وستَرجُمُه الجماعةُ كلُّها، وسيُطبَّقُ هذا القانونُ على كلِّ من يُهينُ اللهَ، سواءٌ كان إسرائيليًّا أم غيرَ إسرائيليٍّ»[2].

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) الكتاب المقدس الحي، الأحبار، ٢٤: ١٦.

٢ـ «لو رَفَض المدَّعَى عليه الانصياعَ لقرارِ القاضي أو الزَّعيم الدِّينيِّ الذي عَيَّنه اللهُ تعالى، فإنّ عقابَه عندَئذٍ هو الموتُ، ومن الضَّروريِّ تطهيرُ إسرائيلَ من أمثالِ هؤلاء المذنبين، حتى يَعلَمَ الجميعُ أنّ من لا يخضَعُ لحُكم الله يُقتَل، وبهذا لا يتجرَّأُ الناسُ مستقبَلًا على رَفْض قرارِ القاضي»[١].

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

٨ـ بناءً على معاهدةِ صُلح الحُدَيْبِيَة، كانت كلُّ قبيلةٍ حرّةً في صداقاتِها وتحالفاتِها، وهكذا عَقَدت بنو كِنانةَ معاهدةَ صَداقةٍ معَ قُريش، وعَقَدت بنو خُزاعةَ معاهدةَ صَداقةٍ معَ النبيِّ ﷺ، فقامت قُريشٌ بالتعاونِ معَ بني كِنانةَ بنَقْضِ العهدِ وهَجَمت فجأةً على حليفةِ المسلمين بني خُزاعةَ في ظلام اللّيل، فقام هؤلاءِ باللُّجوءِ إلى حدودِ الحَرَم إنقاذًا لأرواحِهم، لكنّ المهاجمينَ لم يُراعوا حُرمةَ الحَرَم أيضًا، وقَتَلوهم بدمٍ بارد[٢].

توجَّه وفدٌ من بني خُزاعةَ إلى رسولِ الله ﷺ، واشتكَوْا إليه نَقْضَ قُريشٍ للعهد وظُلمَها لهم وتعدِّيَها عليهم، وعندَئذٍ أرسَلَ النبيُّ ﷺ أحدَ صحابتِه وهو ضَمرةُ إلى أهل مكّةَ، حتى يُقدِّمَ إليهم ثلاثةَ اقتراحات:

١ـ أن يؤدُّوا دِيَةَ المقتولينَ من بني خُزاعة.

٢ـ أو أن يُعلِنوا إلغاءَ معاهدةَ تحالُفِهم معَ بني بكر.

٣ـ أو أن يُعلِنوا فَسْخَ معاهدةِ صُلح الحُدَيْبِيَة.

---

(١) الكتاب المقدس الحي، الاستثناء، ١٧: ١٣-١٢.

(٢) «نزلت في كفار مكة الذين نكثوا أيمانهم بعد عهد الحديبية، وأعانوا بني بكر على خزاعة» ـ التفسير المنير.

ولمَّا وَصَل ضمرةُ إلى مكّةَ وقدَّم إليهم الاقتراحاتِ الثلاثةَ قالت قُريشٌ: لا نقبَلُ مطلقًا بالاقتراحَيْنِ: الأولِ والثاني، لكنَّنا نوافقُ على الاقتراح الثالث، ونحن نعلنُ على الملأِ فَسْخَ معاهدةِ صُلح الحُدَيْبِيَة، وبعدَ هذا الإعلان أصبحت هناك خطورةٌ من إمكانيَّةِ أن يقومَ أهلُ مكّةَ بالهجوم على المدينةِ مثلَما فَعَلوا من قبلُ في بَدْرٍ وأُحُد، ولهذا بدأَ النبيُّ ﷺ بالاستعدادِ للهجوم على مكّةَ من بابِ الردِّ على ما حَدَث معَ حلفائه من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى تجنُّبًا للأخطارِ المستقبَليّة، وأخفَى النبيُّ ﷺ أمرَ هذه الاستعداداتِ عن عامّةِ الناس وبعضِ المسلمين بعَيْنِهم أيضًا، ولكن لأنّ قُريشًا كانت هي التي تقومُ على أمرِ الكعبة، ولها في قلوبِ أهل الجزيرةِ العربيّة تقاليدُ من الاحترام والخوفِ والتوقير، ولهذا شَعَر بعضُ المسلمينَ بالضَّعفِ والخوفِ في أمرِ الهجوم على قُرَيش، فنَزَلت عندَئذٍ تلك الآياتُ التي ذَكَر اللهُ تعالى فيها ثلاثَ جرائمَ لقُريْش قائلًا: هل تتردَّدونَ في قتالِ أولئك القُرَشيِّينَ الذين فَسَخوا معاهدةَ صُلح الحُدَيْبِيَة، وأجبَروا النبيَّ ﷺ على الهجرةِ من مكّةَ، وهَجمُوا عليكم لأولِ مرةٍ في بَدْر[١]؟ وكلُّ جريمةٍ من هذه الجرائم الثلاثة تستحِقُّ أن تَهجُموا على قُريْشٍ انتقامًا مما فَعَلوا، فهل تخشَوْنَ من ناقضي العهدِ هؤلاء، بينما لا ينبغي أن يخشَى أهلُ الإيمانِ سوى الله تعالى؟ ولهذا، عليكم أن تتوكَّلوا على الله تعالى وتهجُموا عليهم، واللهُ تعالى سينصُرُكم عليهم، ويفتَحُ عليكم مكّةَ، وسيُذِلُّ أهلَ مكّةَ على أيديكم، وهكذا ستطمئنُّ قلوبُ أولئك المسلمينَ الذين كانوا ـ إلى وقتٍ قريب ـ يتحمَّلونَ الظُّلمَ في مكّةَ، وسيهدَأُ غَضَبُ تلك القبائل الحليفةِ للمسلمين والذين ظَلَمهم ناقضو العهدِ من أهلِ مكّة، وهكذا صَدَق اللهُ وَعْدَه، وواجَهت قُريْشُ مكةَ فشَلًا ذريعًا وهزيمةً منكَرةً بغيرِ قتال.

---

(١) التفسير المنير.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾

٩ـ الذين أسلَموا قبلَ وقتٍ قريب، ويخشَوْنَ من المشاركةِ في الجهاد، تُنبِّهُهم هذه الآيةُ إلى أنّ الإسلامَ في هذا الوقتِ في حالةِ حربٍ معَ الكفر، وعليكم المشاركةُ في الجهادِ لتقدِّموا الدّليلَ العمَليَّ على إخلاصِكم، وحتى يَعلَمَ الآخَرونَ أنكم قد حَسُن إسلامُكم، وأنّ أوامرَ الله تعالى ورسولِه ﷺ ومصالحَ أهل الإيمان أعزُّ عليكم من أيِّ شيءٍ آخَرَ، كما تُخبِرُهم الآيةُ أيضًا بأنّ عقْدَ صداقةٍ معَ الأعداءِ (غيرِ المسلمين) في مِثلِ هذه الظُّروفِ يُعَدُّ جريمةً كبرى، وعالَمُنا المتحضِّرُ اليومَ أيضًا لا يتحمَّلُ ـ بأيِّ حالٍ من الأحوال ـ مَن يبيعونَ أسرارَ الوطنِ والأُمّة، ويتآمَرونَ معَ الأعداء.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾

١٠ـ المسجدُ يُطلَقُ على: دارِ العبادة التي يُعبَدُ فيها إلهٌ واحد، أي: اللهُ تعالى، أمّا الذين يشركونَ معَ الله في العبادة، أو يعبُدونَ الأصنامَ مقدِّمينَ بذلك دليلًا على كُفرِهم، فهؤلاءِ لا حقَّ لهم في أن يتولَّوْا أمرَ المساجد، ورَغْمَ أنّ هذا حُكمٌ عامّ، لكنّ المرادَ هنا هم مشركو مكّةَ الذين كانوا يقومونَ على أمرِ بيتِ الله.

والآنَ، حان الوقتُ لإنهاءِ استيلاءِ المشركينَ على بيتِ الله، وأن يتولَّى المسلمونَ أمرَهُ بأنفسِهم؛ لأنّ الذين يؤْمنونَ بالله تعالى وباليوم الآخِر هم فقطْ الذين يُمكنُهم تعميرُ مساجدِ الله، وكان المشركونَ يفخَرونَ بقيامِهم بخدمةِ الكعبةِ وحُجّاجِها، وفي هذه الآيةِ أوضَحَ اللهُ تعالى أنّ الذين يقومونَ بالأعمالِ الصَّالحة، حتى ولو كانت خدمةَ بيتِ الله وحُجّاجِه، ستضيعُ أعمالُهم سُدًى إنْ لم يؤمنوا بالله وباليوم الآخِر، ولن تُفيدَهم أعمالُهم شيئًا يومَ القيامة؛ لأنّ أولَ شرطٍ لقَبولِ الأعمال هو الإيمان.

بعضُ الأحاديثِ المتعلِّقةِ بتعميرِ المساجدِ وتطويرِها ورعايتِها:

١ـ رُويَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم [أنّه] قال: «مَن بنَى لله مسجدًا صغيرًا كان أو كبيرًا بَنى اللهُ له بيتًا في الجنّة»[١].

٢ـ عن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما: أنّ امرأةً كانت تَلقُطُ القَذَى من المسجد، فتوفِّيتْ فلم يؤْذَنِ النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بدَفْنِها، فقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إذا مات لكم ميّتٌ فآذِنوني»، وصَلّى عليها، وقال: «إنّي رأيتُها في الجنّةِ تَلقُطُ القذَى من المسجد»[٢].

---

(١) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ٢٣٧.

(٢) الترغيب والترهيب، تنظيف المساجد، برقم ٣.

٣ـ قال رسولُ الله ﷺ: «إذا رأيتُم الرَّجلَ يعتادُ المسجدَ فاشهَدوا له بالإيمان، قال الله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾»(١).

٤ـ عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا مَررتُم برياضِ الجنّةِ فارتَعوا». قلت: يا رسولَ الله، وما رياضُ الجنّة؟ قال: «المساجد». قلت: وما الرَّتْعُ يا رسولَ الله؟ قال: «سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلهَ إلّا الله واللهُ أكبر»(٢).

٥ـ حديثٌ قُدُسيّ: عنِ أنسٍ ـ مرفوعًا ـ: «يقولُ الله: وعزَّتي وجَلالي، إنّي لأَهُمُّ بأهل الأرض عذابًا، فإذا نظَرتُ إلى عُمّارِ بيوتي وإلى المتحابّينَ فيَّ، وإلى المستغفرينَ بالأسحار، صَرفتُ ذلك عنهم»(٣).

٦ـ قال رسولُ الله ﷺ: «إذا دَخَل أحدُكمُ المسجدَ فلْيقُل: اللّهمَّ افتَحْ لي أبوابَ رحمتِك، وإذا خَرَج فلْيقُل: اللّهمُّ إنّي أسألُك من فَضْلِك»(٤).

٧ـ عن النّبيِّ ﷺ، قال: «من توضَّأَ في بيتِه ثمّ أتَى المسجدَ فهو زائرُ الله، وحقٌّ على المَزُورِ أن يُكرمَ الزائرَ»(٥).

٨ ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «مَن أَلِفَ المسجدَ أَلِفَه الله»(٦).

٩ـ عن ابن عبّاسٍ رضي اللهُ عنهما، قال: «المساجدُ بيوتُ الله في الأرض تضيءُ لأهلِ السّماءِ كما تضيءُ نجومُ السّماءِ لأهل الأرض»(٧).

---

(١) تفسير الدر المنثور.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٨٣.

(٣) تفسير ابن كثير.

(٤) النسائي، كتاب المساجد، باب ٣٦.

(٥) تفسير الدر المنثور.

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

١٠ـ عن النّبيِّ ﷺ، قال: «مَن عَلَّق قِنْديلًا في مسجدٍ صلَّى عليه سبعونَ ألفَ مَلَك واستغفَرَ له ما دام ذلك القنديلُ يَقِدُ»[1].

١١ـ قال رسولُ الله ﷺ: «صلاةُ الرّجُلِ في بيتِه بصلاةٍ، وصلاتُه في مسجدِ القبائل بخمسٍ وعشرينَ صلاةً، وصلاتُه في المسجدِ الّذي يُجمَّعُ فيه بخمسِمائةِ صلاةٍ، وصلاةٌ في المسجدِ الأقصى بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصلاةٌ في مسجدي بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرام بمائةِ ألفِ صلاة»[2].

١٢ـعن جابرِ بن عبد الله، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن بنَى مسجدًا لله كمَفحَصِ قَطَاةٍ أو أصغرَ، بنَى اللهُ له بيتًا في الجنّة»[3].

وعشُّ الحمامة ـ على أكثرِ تقديرٍ ـ يكونُ في حجم نصفِ قالَبٍ من الطُّوب، وهو ما لا يستوعِبُ حتى قدَمًا واحدة، فأين يضَعُ المصلِّي قدَمَه الثانيةَ، وأين يسجد؟ معنى هذا: أنّ من أنفَقَ على مسجدٍ ولو ما يَعدِلُ نصفَ قالَبٍ من الطُّوب، فإنّ اللهَ تعالى يبني له بيتًا كاملًا في الجنة، وبيوتُ الجنة تكونُ من العَظَمة والفخامةِ بمكانٍ، بحيث إذا جُمع الحُسنُ الذي في بيوتِ الدُّنيا كلِّها، فإنه لا يَعدِلُ جمالَ بيتٍ واحدٍ من بيوتِ الجنّة؛ لأنّ ميزةَ كلِّ شيءٍ في الجنةِ تفوقُ تصوُّرَنا وظَنَّنا.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾

١١ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ الحقَّ في القيام على أمرِ المساجدِ وإدارتِها هو لأولئك الذين تتوافَرُ فيهم الصِّفاتُ الثلاثةُ التالية:

---

(١) تفسير الدر المنثور.

(٢) ابن ماجه، كتاب الصلاة، باب ١٩٨.

(٣) ابن ماجه، أبواب المساجد، باب ١.

١ـ أن يكونوا مؤمنينَ إيمانًا راسخًا بالله تعالى وباليوم الآخِر، أي: بجُملةِ العقائد الإسلامية.

٢ـ أن يكونَ ملتزِمًا بالصَّلاةِ والزّكاة، أي: بجُملةِ الفرائضِ الإسلاميَّة.

٣ـ يجبُ أن تكونَ شخصيَّتُه قويّةً بحيثُ لا يخشَى إلّا اللهَ تعالى، ولا يخشَى غيرَه.

ولهذا علينا في أيامِنا هذه أيضًا أن نُراعيَ ـ عندَ تعيينِ إدارةِ المساجدِ ـ هذه الصِّفاتِ بشكلٍ خاصّ، والتي تؤكِّدُ على قوّةِ العمَلِ والشخصيَّة، أمّا إذا كان مَن يتولَّى إدارةَ المسجدِ ذا عملٍ قليلٍ وشخصيّةٍ ضعيفةٍ، فإنه لن يستطيعَ أداءَ حقِّ تعميرِ المسجد كما ينبغي.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

١٢ـ كان مشركو مكّةَ يفخَرونَ أنّهم وحدَهم لهم شرَفُ خِدمةِ المسجدِ الحرام والحُجَّاج، ولهذا فهُم ليسوا أقلَّ من المسلمينَ بأيِّ حالٍ من الأحوال، وهذه الآيةُ تزيلُ لديهِم سُوءَ الفَهْم هذا، بمعنى: أنه بسببِ شركِكم فإنّ عملَكم هذا لا يمكنُ أن يجعلَكم متساوِينَ معَ أولئك الذين آمَنوا وجاهَدوا بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله، فهؤلاء لهم عندَ الله درجاتٌ عظيمةٌ وجنّاتُ النَّعيم، بينَما تضيعُ أعمالُكم سُدًى بسببِ شِركِكم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾

١٣ـ الكفّارُ الذين يَكِيدونَ للإسلام، لا ينبغي أن تقيموا معَهم علاقاتِ صداقةٍ قلبيَّة، أو تجعَلوا منهم أُمناءَ على أسرارِكم، حتى وإن كانوا آباءَكم أو

إخوانكم، فمِثلُ هذه العلاقة يمكنُ أن تكونَ سببًا لإيذاءِ المسلمينَ في أيِّ وقتٍ من الأوقات، ومن هنا فإنّ اتّخاذَ أمثالِ هؤلاءِ الكفّارِ أصدقاءَ مقرَّبينَ إنّما هو ظُلمٌ للمسلمين، أمّا العلاقاتُ الطيِّبةُ معَ الكفّارِ المسالِمينَ معتدِلي المِزاج فهو أمرٌ طيِّب.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾

١٤ـ حبُّ الوالدَيْنِ والأولادِ والإخوةِ والزَّوجةِ والأقاربِ فِطرةٌ إنسانيَّة، والأموالُ والأعمالُ والبيوتُ أمورٌ ضروريّةٌ للغايةِ من أَجْلِ الحياةِ المطمَئِنّة، ولهذا فإنّ الإسلامَ يُرغِّبُ في أن يُحبَّ الإنسانُ أهلَه وأقاربَه، وأن يجتهدَ في كسبِ الرِّزقِ الحلال، ولكنْ إذا وَقَف أيُّ شيءٍ من هذا كلِّه عَقَبةً في طريقِ حبِّ اللهِ تعالى ورسولِه الكريم ﷺ، أو في طريقِ الجهادِ في سَبيل الله، فعلى المؤمِن عندَئذٍ أن يرجِّحَ حُبَّ الله تعالى وحبَّ رسولِه ﷺ على أيِّ حبٍّ آخَر، وأن يعمَلَ جاهدًا على تنفيذِ الأحكام الإلهيَّة، ولكنْ إذا كان هناك ـ لا قدَّر اللهُ ـ شخصٌ تَعِسٌ يفضِّلُ حبَّ المالِ والثَّروة والأهلِ والأقاربِ على حبِّ الله تعالى وحبِّ رسولِه ﷺ، فعلى هذا العاصي أن ينتظرَ عذابَ الله تعالى يَنزِلُ عليه في أيِّ لحظة.

حبُّ اللهِ تعالى:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقد قالتِ السّيدةُ رابعةُ العَدَوية:

• **أُحبُّكَ حُبَّيْنِ؛ حبَّ الهوى   وحبًّا لأنّكَ أهلٌ لذاكا**[١]

---

(١) تفسير المنار، سورة التوبة (٩): الآية ٢٤.

وقالت رحمَها اللهُ في موضعٍ آخَرَ: «**ما عبَدتُ اللهَ خوفًا من الله، ولا حبًّا للجنّة، ولكنّي عبَدتُه حبًّا له وشوقًا إليه**»[١].

«**أوحى اللهُ تعالى إلى داودَ عليه السَّلام: إنّ أودَّ الأوِدّاءِ إليَّ مَن عَبَدني بغيرِ نَوال، لكنْ ليُعطيَ الرُّبوبيّةَ حقَّها. وفي الزَّبور: مَن أظلَمُ ممَّن عبَدَني لجنّةٍ أو نار، لو لم أخلُقْ جنةً ولا نارًا، ألم أكنْ أهلًا أن أُطاع؟ ومرَّ عيسى عليه السَّلامُ على طائفةٍ من العُبّاد قد نَحُلوا فقالوا: نخافُ النارَ ونرجو الجنّةَ، فقال لهم: مخلوقًا خِفتُم ومخلوقًا رجَوتُم. ومرَّ بقوم آخَرينَ كذالك فقالوا: نعبُدُه حبًّا له وتعظيمًا لجلالِه، فقال: أنتم أولياءُ الله حقًّا، معَكم أُمِرتُ أن أُقيمَ**»[٢]، و«**قال أبوحازم رحمةُ الله عليه: إنّي لأستحيي أن أعبُدَه للثّوابِ والعقابِ فأكونَ كالعبدِ السُّوءِ إنْ لم يخَفْ فلم يعمَلْ، وكالأجيرِ السُّوء إن لم يُعطَ لم يَعمَلْ، وفي الخبر: لا يكونَنَّ أحدُكم كالأجيرِ السُّوء إن لم يُعطَ أجرًا لم يعمَلْ، ولا كالعبدِ السُّوءِ إن لم يَخَفْ لم يعمَلْ**»[٣]

- **لئنْ سَكَنتْ حُورُ الجِنانِ في القلب، فعبادتُكَ ليست عبادةً، وإنّما تجارة.**

حبُّ رسولِ الله ﷺ:

قال رسولُ الله ﷺ فيما رواه سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من والدِه ووَلَدِه والنّاسِ أجمعين**»[٤].

---

(١) قوت القلوب، ٢: ١٠٦٧، ذكر أحكام المحبة.

(٢) إحياء علوم الدين، كتاب المحبة والشوق، ١٧٥٧.

(٣) إحياء علوم الدين، كتاب المحبة والشوق، ١٧٥٧، وقوت القلوب، ٢: ١٠٦٤: ذكر أحكام المحبة.

(٤) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٨ برقم ١٥.

عن عبد الله بن هشام، قال: كنّا معَ النّبيِّ ﷺ وهو آخِذٌ بيدِ عُمرَ بن الخطّاب، فقال له عُمر: يا رسولَ الله، لَأنت أحبُّ إليّ من كلِّ شيءٍ إلّا من نفسي. فقال النّبيُّ ﷺ: «لا والّذي نفسي بيدِه (لا يُمكنُ أن تكونَ مؤمنًا كاملَ الإيمان) حتّى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسِك». فقال له عُمرُ: فإنّه الآنَ - والله - لَأنت أحبُّ إليّ من نفسي. فقال النّبيُّ ﷺ: «الآنَ يا عُمر»[1]، أي: صِرتَ مؤمنًا كاملًا.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾

١٥- تولَّدتْ بعضُ المخاوفِ في أذهانِ البعضِ بعدَ إعلانِ البراءةِ من أنه ربَّما تشتعلُ نارُ الحربِ الأهليَّة في الجزيرةِ العربيَّةِ كلِّها، وعندَئذٍ سيكونُ من الصَّعبِ مواجهتُها، وقد أَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآياتِ للقضاءِ على هذه المخاوف، بمعنى: أنه لا داعيَ لأنْ تتخوَّفوا من شيءٍ، فقد حدَث قبلَ هذا أصعبُ منه، وأعانكم اللهُ

---

(١) البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب ٣.

تعالى ونَصَركم، ومن بيْنِ هذه الحروبِ: معركةُ حُنَيْنٍ التي وَقَعت العامَ الماضيَ فقطْ، حيث فَرَرتُم خوفًا من سهام العدوِّ، ثم نَصَركم اللهُ تعالى، وبَدَّل هزيمتَكم نصرًا، ولهذا يجبُ أن لا تغترُّوا بكثرتِكم العدَديَّة، وإنّما توكَّلوا على اللهِ تعالى، وهو حاميكم وناصِرُكم في المستقبَلِ كذلك.

نبذة عن غزوة حنين:

فتحَ اللهُ على المسلمينَ مكّةَ في السنةِ الثامنةِ للهجرة، وأقام المسلمونُ في مكّةَ خمسةَ عشَرَ يومًا، وحقَّقوا أُمنيَتَهم بالطَّوافِ حولَ الكعبة، وفي تلك الأثناءِ أُخبرَ النبيُّ ﷺ بأنّ قبيلتَيْ هَوازنَ وثقيفٍ تستعِدّانِ للهجوم على المسلمين، وهكذا «**خَرَج يومَئذٍ معَ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم اثنا عشَرَ ألفًا، عشَرةُ آلافٍ من المهاجِرين والأنصار، وألفانِ من الطُّلَقَاء**»[1]، وكان هذا هو أكبرَ جيشٍ للمسلمين قياسًا بما مضَى، ولهذا تسَلَّل الغرورُ إلى أذهانِ بعضِ النّاسِ من أنه لا توجَدُ اليومَ قوّةٌ يمكنُ أن تَهزِمَ المسلمينَ، وكانت نتيجةَ هذا الغرور أنّ كثرتَهم العدَديّةَ لم تُفِدْهم بشيءٍ، وحين باغَتَهم العدوُّ وأمطَرَهم بسِهامِه، ضاقَ عليهم مَيْدانُ حُنَيْنٍ على سَعتِه، وارتَبَكوا إلى درجةِ أنّهم تَرَكوا الميدانَ وفَرُّوا هاربينَ، لكنّ النبيَّ ﷺ ومعَه ما يَقرُبُ من مائةٍ من رفاقِه ظلَّ ثابتًا في الميدان، وأخَذَ يُعلن:

- **أنا النبيُّ لا كذبْ، أنا ابنُ عبدِ المطَّلبْ**

وطَفِقَ يركُضُ ببغلتِه نحوَ الكفَّارِ لا يبالي، وأخَذَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بيدِه كفًّا من الحصَى فرَماهم بها وقال: «شاهتِ الوجوهُ»، ولم يَبْقَ منهم يومَئذٍ أحدٌ إلّا وقدِ امتلأتْ عيناه[2]**، ثُم أَنْزلَ عليهم ما يُسكِّنُهم ويُذهِبُ خوفَهم،**

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) التفسير الكبير.

حتى اجتَرأوا على قتالِ المشركينَ بعدَ أنْ ولَّوْا ... وأنْزلَ جنودَ الملائكة؛ يُقوّونَ المؤمنينَ بما يُلقُونَ في قلوبِهم من الخواطرِ والتثبيت، ويُضعِفونَ الكافرين»[1].

وبعدَ ذلك ما أنْ نادى سيّدُنا العبّاسُ رضيَ اللهُ عنه بصوتٍ عالٍ على المهاجرينَ والأنصار، حتى عادوا من فَوْرِهم وبكلِّ حماسٍ إلى مَيْدانِ المعركة، وهاجَموا الكفّارَ هجومًا شديدًا غَيَّر خريطةَ المعركة، وحاقَ بالكفّارِ ما كانوا يستحِقُّونَه من العذاب، أي: هَلَك منهم سبعونَ (٧٠) كافرًا، وأُسِر منهم ألوفٌ، بينَما فرَّ الباقونَ تاركينَ وراءهم أهلِيهم وأولادَهم وأموالَهم ومواشيَهم وأسلحَتهم.

وبعدَ هذا النَّصر وفَّق اللهُ تعالى بعضًا من قبيلةِ هَوازنَ إلى التَّوبةِ فأَسْلَموا، وحين أطلَقَ النبيُّ ﷺ سراحَ أَسْراهم بغيرِ فِديةٍ تأثَّر الباقونَ بهذه الأخلاقِ العظيمة للنبيِّ ﷺ، وهذه السَّعةِ في صدرِه، فأَسْلموا هم أيضًا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾

١٦ـ النَّجاسةُ قسمان، الأولُ: نجاسةٌ حقيقيةٌ، مِثلَ: البولِ والبُراز وغيرِهما، والثاني: نجاسةٌ حُكْميَّة، مِثلَ: أن تكونَ جُنُبًا أو على غيرِ وضوء، والمرادُ هنا هو نجاسةُ المشركينَ نجاسةً حُكْميَّة، أي: أنّ أجسادَهم طاهرة، لكنّ عقيدةَ الشِّركِ بداخِلهم ليست كذلك، ولهذا قيلَ لهم: نَجَسٌ، من النّاحيةِ الدِّينية[2]، أي: أنّ عقائدَ المشركينَ نَجِسة؛ لأنّهم يشركونَ آخرينَ معَ اللهِ تعالى، كما أنّ أعمالَهم نَجِسةٌ أيضًا؛ لأنهم يطُوفونَ بالبيتِ عَرايا.

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) «أراد بهذه النجاسة: نجاسة الحكم لا نجاسة العين، وسموا نجسًا على الذم؛ لأن الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم» ـ تفسير الخازن.

لقد تمَّ إخراجُ الأصنام كلِّها من المسجدِ الحرام بعدَ فَتْح مكّةَ، ولكنْ ـ معَ ذلك ـ كان مسموحًا للمشركينَ بممارسةِ عباداتِهم والطَّوافِ حولَ الكعبةِ طِبقًا لطريقتِهم الخاصَّة في ذلك، كما أنّ المشركينَ قد حَجُّوا أيضًا في السَّنةِ التاسعةِ للهجرة معَ المسلمينَ طِبقًا لطريقتِهم، لكنّ اجتماعَ عبادتَيْنِ مختلفتَيْنِ لدينَيْنِ مختلفَيْنِ كان أمرًا صعبًا على الطَّرفَيْنِ، ولهذا تمَّ مَنْعُ المشركينَ من الحجِّ منذُ العام التالي، وذلك حتى يتِمَّ تطهيرُ بيتِ الله تعالى من الشِّركِ وعبادةِ الأصنام أيضًا، مثلَما تمَّ تطهيرُه يومَ فَتْح مكّةَ من الأصنام نفسِها، وحتى لا يُعبَدَ هناك سوى اللهِ تعالى.

هل يجوزُ لغيرِ المسلمينَ دخولُ المساجد؟

عندَ فقهاءِ المالكيّة: لا يجوزُ لأيِّ مُشرِك دخولُ المسجدِ الحرام ولا أيِّ مسجدٍ آخَرَ، ولكنْ يجوزُ ذلك في وقتِ الضَّرورةِ فقطْ، كأنْ يُسمَحَ لذمّيٍّ بالدُّخولِ إلى المسجدِ لكي يَعرِضَ قضيَّته أمامَ القاضي[1]. وعندَ الشافعيَّة كما قال الإمامُ الشافعيُّ: «**الآيةُ عامّةٌ في سائرِ المشركينَ، وبخاصّةٍ في المسجدِ الحرام، ولا يُمنَعونَ من دخولِ غيرِه**»[2]. أمّا فقهاءُ الحنَفيّةِ فيرَوْنَ جوازَ دخولِ المشركينَ المسجدَ الحرامَ وغيرَه من المساجد: «**والحاصلُ أنّ الإمامَ الأعظَم يقولُ بالمَنْع عن الحجِّ والعُمرة، ويَحمِلُ النَّهيَ عليه، ولا يُمنَعونَ من دخولِ المسجدِ الحرام وسائرِ المساجدِ عندَه**»[3]، وهذا هو القولُ الأقوى؛ لأنّ النبيَّ ﷺ والخُلفاءَ الراشدينَ كانوا يقيمونَ العدالةَ في المساجد، وكان غيرُ المسلمينَ يحضُرونَ فيها: «**عن عثمانَ بن أبي العاص، أنّ وَفْدَ**

---

(١) «وقال المالكية: الآية عامة في سائر المشركين وسائر المساجد، إلا في حالة العذر، كدخول الذمي المسجد للتقاضي أمام الحاكم المسلم». التفسير المنير.

(٢) التفسير المنير.

(٣) تفسير روح المعاني.

ثقيفٍ لَمّا قَدِموا على رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ضَرَبَ لهم قُبّةً في المسجد، فقالوا: يا رسولَ الله، قومٌ أنجاس! فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنه ليس على الأرض من أنجاسِ الناسِ شيءٌ، إنّما أنجاسُ النّاسِ على أنفُسِهم ... وفي ذلك دَلالةٌ على أنّ نجاسةَ الكُفرِ لا تَمنَعُ الكافرَ من دخولِ المسجد»[1].

وقد قال رسولُ الله ﷺ «**لا يَقرَبُ المسجدَ مشرِكٌ إلّا أن يكونَ عبدًا أو أَمَةً فيَدخُلَه لحاجة**»[2].

ويُعلَمُ منه أنّ المشركينَ لم يُمنَعوا من دخولِ المسجدِ بسببِ الشِّركِ فقطْ، وإلّا لَما كان سُمح للعَبْدِ المشرِكِ والأَمَةِ المشرِكة بدخولِه، والحقيقةُ أنّ الهدفَ هو أن لا يدخُلوا المساجدَ لأداءِ عباداتِهم وطقوسِهم الشِّركيَّة، وقد سُمِح للعبدِ والأَمَة بدخولِ المسجدِ لأنّهم ما كانوا يتجرَّأونَ على أداءِ هذه الطقوسِ الشِّركيّةِ فيه.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾

١٧ـ كان كثيرٌ من الناسِ يأتونَ إلى مكّةَ في مناسبةِ الحجِّ من كلِّ أرجاءِ الجزيرةِ العربيّة، حاملينَ معَهم البضائعَ التّجاريّةَ من مناطِقهم المختلفة، وهكذا كان أهلُ مكّةَ يستفيدونَ كثيرًا من البيع والشِّراءِ في هذا الموسم، ولكنْ بعدَ نزولِ هذه الآيةِ الكريمة تولَّدتِ المخاوفُ في أذهانِ البعضِ من أنه إذا كان المشركونَ جميعًا لن يأتوا للحجِّ من العام القادم، فهذا يعني خسارةً فادحةً لتجارتِنا، وأنّ الفقرَ سيُصيبُنا، وعليه قال اللهُ تعالى: أنْ لا تغتمُّوا ولا تحزَنوا، ولو أرادَ اللهُ تعالى فسيُغنيكم، يعني: أن يأتيَ عددٌ كبيرٌ من المسلمينَ إلى مكّةَ للحجِّ بدَلًا من المشركينَ، وهو ما سيُطوِّرُ تجارتَكم أكثرَ من ذي قَبلُ، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فعددُ الحُجّاج منذُ ذلك اليوم

---

(١) أحكام القرآن للجصاص.

(٢) تفسير القرطبي.

وحتى يومِنا هذا في زيادةٍ مستمرَّة، وأصبحتْ مكّةُ واحدةً من أهمِّ الأسواقِ التّجاريّةِ في العالَم كلِّه.

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾

١٨ـ حينَ رَفْرفَت رايةُ الإسلام على معظَم أنحاءِ شِبه الجزيرةِ العربيّة، شَعَر قيصَرُ الرُّوم بالخَطَر على مُلكِه من قوّةِ الإسلام المتزايدة، فأخَذ يستعدُّ للقضاءِ عليه، وبما أنّ الجيوشَ الرُّوميّةَ من خارج الجزيرةِ العربيّة قد أخَذت تستعدُّ للحربِ ضدَّ المسلمين، فكان لا بدَّ من أن يـتِمَّ التعاملُ معَ القُوى المُعاديةِ للإسلام من داخلِ الجزيرةِ العربيّة نفسِها أولًا، فلربَّما حَدَث تمرُّدٌ من الداخل حالَ هجوم الجيوشِ الرُّوميّة من الخارج، فيُقضَى بذلك على المسلمين.

وهكذا تمَّ إعلانُ البراءةِ من مُشركي العربِ أولًا بأنّ عليكم الرحيلَ من الجزيرةِ العربيّة خلالَ أربعةِ أشهرٍ وإلّا قُتِلتُم، ولن تُقبَلَ منكم جِزيةٌ؛ لأنّنا لا نثقُ فيكم بسببِ نَقْضِكم المستمرِّ للعهود، وكان أهلُ الكتابِ كذلك يعمَلونَ على إطفاءِ نورِ الإسلام: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وفي هذه الآيةِ أَمَرَ اللهُ تعالى المسلمينَ بأنّ أهلَ الكتاب لا يعترفونَ بعقائدِكم وأعمالِكم ودينِكم، ولهذا عليكم أن تُعلِنوا أهلَ الكتابِ أيضًا بأنّ عليكم أن تَرجِعوا عن مخالفةِ الإسلام، وأن تَقْبَلوا بسيادتِه، وأن تؤدُّوا الجِزيةَ، وفي هذه الحالةِ فقطْ يمكنُكم أن تبقَوْا هنا بحُرِّيةٍ كاملةٍ في العبادة، ونحن مكلَّفونَ بحمايةِ أرواحِكم وأموالِكم، أمّا إذا لم توافقوا على شرطِ الجِزيةِ هذا فعليكم أن تستعدُّوا أنتم أيضًا للقتال.

كان هذا الحُكمُ مقصورًا في البدايةِ على اليهودِ والنَّصارى، ثم بعدَ ذلك أصبح عامًّا على غيرِ المسلمينَ كافةً، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا لقِيتُم المشركينَ فادعُوهم إلى الإسلام، فإنْ أَبَوا فادعُوهم إلى أداءِ الجِزية، فإن فَعَلوا فخُذوا منهم وكُفُّوا عنهم**»[١].

وقد جاء الحُكمُ بقَتْلِ المشركينَ في الآيةِ رقم ٥ من هذه السُّورة، لكنّ الحُكمَ هنا بقتالِ غيرِ المسلمينَ كافةً، ويُطلَقُ لفظُ القتالِ لأنّ كلا الفريقَيْنِ يعمَلُ على استعمال القوّةِ ضدَّ الطَّرَفِ الآخَر، ولهذا إذا رَفَض غيرُ مسلم يعيشُ تحتَ الحكومةِ الإسلاميّة دَفْعَ الجِزية، فإنّ معنى هذا أنه يخالفُ قانونَ البلاد، ويدعو إلى حربٍ أهليَّة، وبالتالي يصبحُ من الضَّروريِّ استعمالُ القوّةِ ضدَّ هذا المتمرِّد لإلزامِه بالقانون، واليومَ أيضًا إذا تحدَّى أحدٌ قانونَ الدَّولة، فإنّ من واجبِ الحكومةِ أن تُلزِمَه بالقانونِ ولو بالقوّة.

ما الجزية؟

لكي يتمكَّنَ أحدٌ من العيشِ في بلدٍ ما عليه أن يستوفيَ شروطَ دخولِها، وفي أيامِنا هذه[٢] يتمُّ تحصيلُ رسوم قَدْرُها خمُسمائةِ جُنَيْه إسترلينيٍّ لمجرَّدِ تقديم الطلبِ للإقامةِ في بريطانيا، كما يتِمُّ دفْعُ ضريبةٍ سَنَويّةٍ على الدَّخل وطِبقًا له، وبنفسِ الطريقةِ في تلك الأيام، إذا أراد غيرُ مسلمٍ أن يُقيمَ في بلدٍ مسلم كان عليه أن يدفعَ الجِزيةَ.

والمرادُ بالجِزْية: تلك الضَّريبةُ التي يؤدِّيها غيرُ المسلم للحكومةِ الإسلاميَّة، على أن تتحمَّلَ الحكومةُ الإسلاميَّةُ مسئوليَّةَ حمايةِ نفسِه ومالِه وعِرضِه، وكأنه

(١) التفسير المنير، سورة التوبة (٩): الآية ٦.

(٢) وقت كتابة التفسير، وليس وقت الترجمة.

يتمُّ إصدارُ بطاقةِ هويّةٍ وإقامةٍ (Green Card) له، ويقالُ لغير المسلم: هذا «ذِمّيّ».

وكلُّ حكومةٍ تقومُ بتحصيل بعضِ الرُّسوم من رعاياها تستطيعُ من خلالِها حمايةَ البلادِ والأُمّة وتنميتَهما وتقديمَ الخَدَماتِ للشَّعب، وفي هذا الخصُوص يؤدِّي المسلمونَ زكاةَ أموالِهم، وزكاةَ مواشيهم، وزكاةَ العُشْرِ على محاصيلِهم الزِّراعيّة، والصَّدَقاتِ وغيرَها، وفي حالةِ الحربِ يُضَحُّونَ بأموالِهم وأرواحِهم أيضًا، ويقومونَ بأداءِ الخِدمةِ العسكريّةِ كذلك، في حينَ أنّ الذِّمِّيَّ ليس مُلتزِمًا بأيِّ شيءٍ من هذا كلِّه، وإنّما يَدفعُ مبلغًا بسيطًا من المالِ جِزْيةً، وفي مقابلِه يتمتَّعُ بالحماية وبكلِّ التسهيلاتِ التي يَحصُلُ عليها المواطنونَ المسلمون، وإذا ما زالت الحكومةُ الإسلاميَّة، ولم تَعُدْ تستطيعُ حمايةَ أموالِ الذِّمِّيِّينَ وأرواحِهم، فإنّها تعيدُ إليهم مبلغَ الجِزْية.

هذا ولم يحدِّدِ القرآنُ الكريمُ مقدارًا معيَّنًا للجِزْية، ولهذا اختَلفَ العلماءُ فيها، وأقلُّها دينارٌ، ولا حدَّ لأكثرِها[1]، ونُقل عن الإمام أحمدَ رحمَه الله «**أنّها تُزادُ وتَنقُصُ على قَدْرِ طاقتِهم، فظاهرُ هذا: أنّها على اجتهادِ الإمام ورأيه**»[2]. وقد أرسَلَ النبيُّ ﷺ سيّدَنا عبدَ الله بنَ أرقمَ رضيَ اللهُ عنه لتحصيل الجِزْيةِ من الذِّمِّيِّينَ وقال له: «**ألَا من ظَلَم معاهَدًا وكلَّفه فوقَ طاقتِه أو يَنقُصُه أو أَخَذ منه شيئًا بغيرِ طِيبةِ نفسِه فأنا حَجِيجُه يومَ القيامة**»[3].

والجِزْيةُ «**إنّما توضَعُ على جماجم الرّجالِ الأحرارِ البالغين، وهمُ الّذين يقاتِلونَ، دونَ: النّساءِ والذُّرّيّة والعبيدِ والمجانينِ المغلوبينَ على عقولِهم والشّيخِ**

---

(١) «لم يذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه مقدار الجزية المأخوذة منهم ـ وقد اختلف العلماء في مقدار الجزية المأخوذة منهم؛ وقال الطبري: أقله دينار وأكثره لا حد له» ـ القرطبي.

(٢) تفسير زاد المسير.

(٣) التفسير المظهري.

الفاني وفقيرٍ غيرِ معتمِلٍ والراهبينَ الذين لا يخالطونَ الناس»[١].

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ غيرَ المسلم إذا تعهَّد بدَفْع الجِزْيةِ لا يُحارَبُ، لكنّ النبيَّ ﷺ قال فيما رواه سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي اللهُ عنه: «**أُمِرتُ أن أُقاتلَ النّاسَ حتّى يشهَدوا أنْ لا إلَه إلّا الله وأنّ محمّدًا رسولُ الله**»[٢]، ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنه لا مكانَ للجِزْيةِ هنا، بمعنى: إمّا الإسلامُ وإمّا الحرب، وقد وَفَّق العلماءُ بيْنَ الآيةِ والحديثِ هكذا بأنّ المشركينَ العرَب «**خُصُّوا بالذِّكْر، فتوجَّه الحُكمُ إليهم دونَ سواهم لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]**»[٣]، بمعنى: أنه بسببِ نَقْضِهم المستمرِّ للعهدِ، وعَدَم التزامِهم بالرَّحيل في غضونِ الأربعةِ أشهُرِ المحدَّدة، فإنه لم يبقَ هناكَ خِيارٌ ثالثٌ سوى الإسلام أو الحرب، وكان هذا الحُكمُ مؤقَّتًا، فقدِ اعتَنقَ أكثرُ المشركينَ الإسلامَ أثناءَ الشُّهورِ الأربعة، بينَما رَحَل بقيَّةُ المشركينَ عن الجزيرةِ العربيَّة، وبالتالي انتهَت الحاجةُ إلى هذا الحُكم.

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ

---

(١) تفسير القرطبي وروح المعاني.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب ١٧.

(٣) التفسير المنير.

بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

١٩ـ بعضُ اليهودِ يعتقِدونَ أنّ عُزَيْرًا ابنُ الله(١)، وأكثرُ النَّصارى يقولونَ: إنّ عيسى عليه السَّلامُ ابنُ الله، معَ أنّ هذه لم تكنْ عقيدتَهم الأَصْليّة، ولكنْ بمرورِ الزَّمن أثَّر عليهم شِركُ الكفَّار، فحاوَلَ هؤلاءِ ـ تقليدًا لهم وبغيرِ دليل ـ إثباتَ أنّ للهِ وَلَدًا، مثلَما كان بعضُ كفّارِ العربِ يقولونَ: إنّ الملائكةَ بناتُ الله، فوا أسَفاهُ على أهل الكتاب! إذْ علَّمَهم الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ درْسَ التوحيد، ودعاهُم النبيُّ ﷺ إلى هذا التوحيدِ ذاتِه، وبرَغْم ذلك فإنّهم مستغرِقونَ في ضلالِهم إلى الشِّرك.

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

٢٠ـ في هذه الآية قيلَ لعلماءِ اليهودِ ورُهبانِ النَّصارى: أربابٌ، لأنّ أهلَ

---

(١) التفسير المنير.

الكتابِ كانوا يُطيعونَهم طاعةً كطاعةِ الله تعالى، فيلتزمونَ بما يُحلِّلونَه أو يُحرِّمونه، حتى وإنْ كان حُكمُهم هذا يخالفُ حُكمَ الله تعالى، بل وقالوا للمسيح ابن مَرْيمَ: ابنُ الله، تنفيذًا لأوامرِهم.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

٢١- حاول المشركونَ منذُ مجيءِ الإسلام، ولا يزالونَ يحاولونَ حتّى يومِنا هذا، أنْ يُطفئوا نورَ الإسلام، لكنّ اللهَ تعالى تعهَّدَ بأنْ يبقى نورُ الإسلام مضيئًا متوهِّجًا دائمًا[1]، والآنَ إذا حاولَ أحدٌ أن يُطفئَ هذا النُّورَ المرسَلَ من اللهِ تعالى، فسيكونُ مَثَلُه كمَثَل مَن يريدُ أن يُطفئَ الشّمسَ التي خَلَقَها اللهُ تعالى، والنتيجةُ أنه هو الذي سينطفئُ، ولكنْ لن يستطيعَ إطفاءَ نورِ الشّمس:

- **نورُ الله يضحَكُ على حَركاتِ الكُفْر، فهذا المِصباحُ لن يُطفئَهُ نَفْخُ الهواء.**

وهكذا يشهدُ التاريخُ أنّ أولَ المخالفينَ للإسلام كانوا العربَ، ولكنْ خلالَ ثلاثة وعشرينَ عامًا أَسْلم معظَمُهم، والشُّعوبُ التي تُخالفُ الإسلامَ في يومِنا هذا أيضًا ينتشرُ الإسلامُ بسُرعةٍ بينَ أبنائها أكثرَ من غيرِه.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

٢٢- أرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا محمَّدًا ﷺ بدينِ الإسلام، وفي هذا الدِّين الصِّدقُ والهداية، وحينَ يدرُسُ أحدٌ أديانَ العالَم بغَرَضِ البحثِ عن الحقِّ، فإنه سيرى أنّ أكثرَ دينٍ صِدقًا هو: الإسلام.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم.

وقد ظلَّ الإسلامُ دائمًا متفوِّقًا على الأديانِ الأُخرى باعتبارِ الدَّلائلِ والبراهين، وقدِ اعترفَ العديدُ من المؤلِّفينَ غيرِ المسلمينَ بعظَمةِ التعاليم الإسلاميَّة، ففي المبادئِ الإسلاميَّةِ جاذبيّةٌ تتسلَّلُ بسببِها إلى قلوبِ متَّبعيها وتَسكُنُها، واليومَ أيضًا لا تزالُ قبضةُ الإسلام قويّةً على قلوبِ المسلمين، رَغْمَ ضعفِ الحكوماتِ الإسلاميَّةِ من الناحيةِ الماديَّة.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

٢٣ـ كانت هناك فئةٌ من أحبارِ بني إسرائيلَ صالحةً ومحبّةً للحقِّ[١]، لكنّ أكثرَهم كانوا يأكلونَ أموالَ الناسِ بطريقةٍ غيرِ مشروعة، حيث يُخبرونَهم بأحكام خاطئةٍ نُزولًا على رَغَباتِهم، وبالتالي كان هؤلاءِ الأحبارُ يمثِّلونَ عقَبةً في طريقِ العمَل بالأحكام الإلهيَّةِ الأَصليّة، ورَغْمَ أنّ ظاهرَ الآية يدُلُّ على أنّها تتعلَّقُ بأحبارِ بني إسرائيلَ، لكنّها في الحقيقةِ تشمَلُ أولئك العلماءَ من المسلمينَ أيضًا، والذين يَجمَعونَ الثَّرواتِ بطريقةٍ غيرِ مشروعة عن طريقِ إصدارِ فتاوى مضلِّلةٍ وغيرِ صحيحة، وبالتالي يمنَعونَ الناسَ من طريقِ اللهِ تعالى[٢]. «**قال سُفيانُ الثَّوريُّ رحمةُ الله عليه: العالِمُ طبيبُ الدِّين، والدِّرهمُ داءُ الدِّين، فاذا جَرَّه الطَّبيبُ إليه، فكيف يداوي غيرَه؟**»[٣].

عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: لو أنّ أهلَ العِلم صانوا العِلمَ ووَضَعوهُ عندَ أهلِه

---

(١) «يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، اعلموا أنّ كثيرًا من الأحبار والرّهبان ليأخذون أموال الناس بالباطل، لا بحق شرعي، ونسب ذلك لكثير منهم لا لكلهم إحقاقًا للحق، وإنصافًا للقلة الصالحة منهم». التفسير المنير.

(٢) «هذا الوعيد كما هو موجه للأحبار يشمل المسلمين أيضًا». تفسير المنار.

(٣) الكواكب الدرية، ١: ٣٠٤.

لَسادوا بهِ أهلَ زمانِهم، ولكنّهم بَذَلوهُ لأهل الدّنيا لِينالوا به من دُنياهم، فهانُوا عليهم، سمِعتُ نَبيّكم - ﷺ - يقول: «مَن جَعَل الهمومَ همًّا واحدًا همَّ آخِرتِه، كفاهُ اللهُ همَّ دُنياه، ومن تشعَّبتْ به الهمومُ في أحوالِ الدّنيا لم يُبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِها هَلَك»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾

٢٤- الذين يَجمَعونَ الأموالَ والثّروات، ويَكنِزونَ الذّهبَ والفضّةَ، ولا يؤدُّونَ زكاتَها، ولا يُنفِقونَ منها في سَبيل اللهِ تعالى[2]، يُحذِّرُهم اللهُ هنا من العذابِ الأليم، أي: أنّ هذا الذَّهبَ والفضّةَ التي يَكنِزونَها سيُحمَى عليها في نارِ جهنَّم يومَ القيامة، ثم تُكوَى بها جِباهُهم وجُنوبُهم وظهورُهم، ويقالُ لهم: هذا هو الذَّهبُ والفضَّةُ الذي جمعتُموه لأنفُسِكم، فذوقوا الآنَ ما جَمعتُم، أمّا الذين يؤدُّونَ زكاةَ الأموال، فلا حَرَجَ عليهم في أن يجمَعوها؛ لأنّ المالَ إن لم يُجمَعْ فلا معنى لنظام الزَّكاة أو الميراث، بل إنّ الحجَّ أيضًا سيصبحُ صعبًا.

حكم الزّكاة:

أركانُ الإسلام خمسةٌ، والزكاةُ ركنٌ منها، وهي فَرْضُ عَيْن على كلِّ مسلم ومسلمة، على: أنْ يكونَ بالغًا وعاقلًا وحرًّا، وأنْ يمتلكَ نصابَ الزَّكاة، وأن يَمضيَ على ما يمتلكُ عامٌ قَمريٌّ.

وحينَ تجبُ الزَّكاةُ على أحدٍ فعليه أن يؤدِّيَها فورًا، إذ إنّ تأخيرَ أداءِ الزَّكاة

---

(١) ابن ماجه، كتاب السنة، باب ٢٣ برقم ٢٥٧.

(٢) «والذين يجمعون المال ويدخرونه في بيوتهم ولا يخرجون منه الحقوق الواجبة شرعًا كالزكاة، ولا ينفقون منه في سبيل الله». تفسير ابن أبي حاتم.

بغيرِ عُذرٍ ذَنْبٌ، ولا تُقبَلُ شهادةُ من يؤخِّرُ الزَّكاةَ بغيرِ عُذرٍ؛ لأنّ الفقيرَ الذي تُدفَعُ إليه الزّكاةُ قد يكونُ في حاجةٍ ماسّةٍ وفَوْريّة لعلاجِ مرضٍ أو لطعام، وهذا الذي يؤخِّرُ الزَّكاةَ بلا عُذرٍ إنما يَظلِمُه بمَنْعِه حقَّه بغيرِ سبب.

فوائدُ الزَّكاة وحِكمتُها:

١ـ إعطاءُ الزّكاةِ بمثابةِ تنفيذِ حُكم الله تعالى، وبهذه الطريقةِ يطمئنُّ قلبُ الإنسان، وترتقي بداخلِه عاطفةُ إطاعةِ الله تعالى.

٢ـ أداءُ الزَّكاةُ ينمِّي بداخِل الإنسانِ صفاتٍ راقيةً مِثلَ: السَّخاءِ والتعاطُف، بينَما عَدمُ أدائها يصيبُه بعاداتٍ دنيئةٍ مثلَ البُخل والأنانيَّة.

٣ـ بالزَّكاة نساعدُ الفقراءَ، ونُلبِّي احتياجاتِ المحتاجينَ والمعاقينَ واليتامَى والأرامل.

٤ـ تتحقَّقُ بالزَّكاة مشاريعُ التّنميةِ في البلاد، وهي التي تعتمدُ عليها الحياةُ الكريمةُ للشُّعوب.

٥ـ الزَّكاةُ تَمنَعُ من أن تتركَّزَ الثَّروةُ في يدِ بعضِ التُّجّارِ والأثرِياء، حتّى لا تصبحَ وسائلُ الحياة موقوفةً على طبقةٍ بعَيْنِها.

٦ـ يَحظَى دافعُ الزَّكاة بالدُّعاءِ له، وقد قال الإمامُ الشافعيُّ رحمَه اللهُ: «**السُّنةُ للإمام ـ إذا أَخَذ الصَّدقةَ ـ أن يدعوَ للمتصدِّق، ويقول: آجَرَك اللهُ فيما أعطَيْتَ، وبارَكَ لكَ فيما أبقَيْتَ**»[١]، مثلَما قال النبيُّ ﷺ حين جاءه رجُلٌ بناقةٍ حسناءَ: «**اللّهُمَّ بارِكْ فيه وفي إبِلِه**»[٢].

---

(١) فقه السنة، ١: ٢٨٦.

(٢) النسائي، كتاب الزكاة، باب ١٢.

٧ـ بأداءِ الزَّكاة يَطهُرُ باقي المالِ وتَحُلُّ فيه البرَكةُ، بينَما يصيرُ غيرَ طاهر، وتُنزَعُ منه البرَكةُ بعدَم أدائها.

٨ ـ المقدارُ الضَّئيلُ للزَّكاة يكونُ سببًا في الحصولِ على أَجْرٍ وثوابٍ عظيمَيْنِ يومَ القيامة مثلَما قال النبيُّ ﷺ: **«مَن تصدَّقَ بعِدْل تمرةٍ من كَسْبٍ طيِّبٍ ـ ولا يَقبَلُ اللهُ إلّا الطَّيِّبَ ـ وإنّ اللهَ يتقبَّلُها بيمينِه، ثمّ يُربِّيها لصاحبِه كما يُربِّي أحدُكم فُلُوَّه حتّى تكونَ مثلَ الجَبَل»**[١].

وقد رُويَ عن النبيِّ ﷺ فيما يتعلَّقُ بعَدَم أداءِ الزَّكاة:

١ـ عن جابرِ بن عبد الله، عن النّبيِّ ﷺ، قال: «ولا مِن صاحبِ مالٍ لا يؤدّي زكاتَه إلّا تحوَّلَ يومَ القيامةِ شُجاعًا أقرعَ يَتْبعُ صاحبَه حيثُما ذَهَب وهو يَفِرُّ منه ويقالُ: هذا مالُك الّذي كنتَ تبخَلُ به، فإذا رأى أنّه لا بدَّ منه أدخَلَ يدَه في فيه فجَعَل يقضِمُها كما يقضِمُ الفَحْلُ»[٢].

٢ـ أتتِ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم امرأتانِ في أيديهما أساوُر من ذَهَب، فقال لهما رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «أتُحِبّانِ أن يُسوِّرَكما اللهُ يومَ القيامة أساورَ من نارٍ؟»، قالتا: لا، قال: «فأَدِّيا حقّ هذا الذي في أيديكُما»[٣].

٣ـ عن ثَوْبانَ، قال: لمّا نَزَلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ قال: كنّا معَ النّبيِّ ﷺ في بعضِ أسفارِه فقال بعضُ أصحابه: أُنزِل في الذَّهَبِ والفضّةِ ما أُنزِل، لو عَلِمنا أيُّ المالِ خيرٌ فنتَّخِذَه، فقال: «أفضَلُه لسانٌ ذاكِرٌ وقلبٌ شاكرٌ وزوجةٌ مؤمنةٌ تُعينُه على إيمانِه»[٤].

---

(١) البخاري، كتاب الزكاة، باب ٨ برقم ١٤١٠.

(٢) مسلم، كتاب الزكاة، باب ٦.

(٣) مسند أحمد، ٢: ١٧٨.

(٤) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ١٠.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾

٢٥ـ عدَدُ الشّهورِ عندَ الله تعالى منذُ بدايةِ الخليقة هو اثنا عَشَر شهرًا، من بيـنِها أربعةُ أشهُرٍ حُرُم، وهناك قاعدةٌ كانت مطبَّقةً بينَ العربِ منذُ عهدِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وهي أنّهم خَصَّصوا أشهُرَ ذي القَعْدة وذي الحِجّة والمحرَّم للحجِّ، واختَصُّوا شهرَ رجَبٍ بالعُمرة، وكانت الحربُ والقتالُ والسَّرقةُ والنَّهبُ والقتلُ كلُّها ممنوعةً في هذه الأشهر، وذلك حتى يستطيعَ زُوّارُ الكعبةِ الوصُولَ إلى بيتِ الله بأمنٍ وأمان، وتأديةَ الحجِّ والعُمرةِ ثم العَوْدَة إلى بيوتِهم، ولهذا السببِ قيلَ لها: الأشهُرُ الحُرُم، وكان حُكمُ دينِ الله تعالى هو احترامَ هذه الأشهُر، وعَدَمَ ظُلم النفسِ بالقتالِ فيها، لكنْ إن لم يَحترم المشركونَ هذه الأشهُرَ، وبَدَأوكم بالقتال، فإنّكم حينَئذٍ تستطيعونَ محاربتَهم دفاعًا عن أنفسِكم.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾

٢٦ـ كان العربُ يقدِّمونَ ويؤخِّرونَ في ترتيبِ الأشهُرِ الحُرُم طِبقًا لأهوائهم، فإذا أرادتْ قبيلةٌ قويَّةٌ وكبيرةٌ ـ على سَبيل المثال ـ الحربَ في شهرٍ من الأشهُر الحُرُم، ولْنَقُل: المحرَّم مثلًا، فإنّها كانت تُعلنُ أنّ شهرَ صَفَرٍ هذا العامَ سيحُلُّ محلَّ شهرِ المحرَّم، ولهذا مسموحٌ بالحربِ في شهرِ المحرَّم، وهكذا كانوا يحافظونَ على عَددِ الشُّهور، لكنّهم كانوا يظلِمونَ أنفُسَهم بالتغييرِ والتبديل في الأوقاتِ التي حدَّدها اللهُ تعالى، وبنفسِ الطريقة كان موسمُ الحجِّ من أهمِّ المواسم لهم باعتبارِ التِّجارةِ والعمَل، ولهذا فإنّه عندما كان يَحُلُّ موعدُ الحجِّ في شهورِ الصَّيفِ الحارِّ، فإنّهم كانوا يُبدِّلونَ شهرَ الحجِّ بآخَرَ حرصًا على مصالحِهم الماديَّة، حتّى يأتيَ إلى الحجِّ أكبرُ عددٍ من الناسِ فتربحَ تجارتُهم، ولكنْ «**حجَّ رسولُ الله صلى اللهُ عليه**

وآلِه وسلَّم سنةَ عشْرٍ في ذي الحِجّة حقيقةً»[١]، مثلَما قال النبيُّ ﷺ في حجةِ الوداع: **«إنّ الزّمانَ قدِ استدارَ كهيئتِه يومَ خَلقَ اللهُ السّمواتِ والأرضَ، السّنةُ اثنا عَشَر شهرًا منها أربعةٌ حُرُم، ثلاثٌ متَواليات: ذو القَعْدةِ وذو الحِجّة والمحرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ الّذي بينَ جُمادى وشعبانَ»[٢]**.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

٢٧- عَلِم النبيُّ ﷺ أن قَيْصَر الرُّوم قد أعَدَّ جيشًا جرّارًا في الشام، ويستعدُّ للهجوم على المدينةِ المنوَّرة، وكانت الشامُ في ذلك الوقتِ ولايةً رُومانيَّة،

---

(١) تفسير البحر المحيط.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة التوبة (٩): باب ٨.

وهكذا أَمَر النبيُّ ﷺ بالاستعدادِ للحرب، وكان الهدفَ أن نَخرُجَ لنواجِهَ الرُّومَ قبلَ أن يأتوا إلى المدينةِ مهاجِمين، وكان الوقتُ صيفًا شديدَ الحرارة، وموسمَ نضُوج التَّمر، والجزيرةُ العربيّة تمُرُّ بعامٍ من القَحْط، والسَّفَرُ طويلٌ لا يقِلُّ عن سبعِمائةِ كيلومتر، وبعدَها مواجهةُ جيشِ الرُّوم المسَلَّح، وبسببِ هذه المصاعبِ احتال المنافقونَ أولًا معتذِرينَ عن المشاركةِ في الحرب، كما أنّ بعضَ المسلمينَ أيضًا بدا لهم هذا السَّفَرُ غايةً في الصُّعوبة، وحينَئذٍ هزَّ اللهُ تعالى ضمائرَ المسلمين هزًّا قائلًا: ماذا حَدَث لكم، أتخشَوْنَ الجهادَ، وتفضِّلونَ الحياةَ الدُّنيا وأموالَ الحياةِ الدُّنيا وثرواتِها على الآخرة؟ فتذكَّروا إنْ لم تَخرُجوا إلى الجهادِ فإنّ حياتكم هذه، وأموالَكم ومتاعَكم هذا لن يُفيدَكم شيئًا في الآخِرة، بل إنه سيكونُ وسيلةَ العذاب الأليم لكم. والمستحِقُّ الأصليُّ لهذا العذابِ هم المنافقونَ؛ لأنّهم في الظاهرِ يُحسَبونَ على أهل الإسلام، وبسببِ تحايُلِهم ومعذِرتِهم عن الاشتراكِ في الحربِ تكاسَلَ بعضُ المسلمينَ أيضًا، كما أنّكم إنْ لم تَخرجوا لمواجهةِ الرُّوم، فإنّهم سينتصِرونَ عليكم، وعندَئذٍ سيَستبدِلُكمُ اللهُ تعالى بقوم آخَرين، يُسلِمونَ ويرفَعونَ رايةَ الإسلام عاليةً خَفّاقة، بينَما تُحرَمون أنتم من هذه السَّعادة. ألا تَذكُرونَ هذه الواقعةَ التي حَدَثت في الماضي القريبِ حين خالَفَ أهلُ مكّةَ الإسلامَ وعادَوْه، فجَعَل اللهُ من أهل المدينةِ حُرّاسًا له؟ إنه القادرُ المطلَق، ولا تستطيعونَ أن تَضُرُّوه بشيء، بل على العكس، ستندَمونَ على جُبنِكم هذا.

هذا، وتتحدَّثُ هذه السُّورةُ الكريمةُ من هذه الآية وحتى آخِرِ السُّورةِ عن غَزْوةِ تبوكَ وما يتعلَّقُ بها، وذلك حينَ اصْطحبَ النبيُّ ﷺ في السَّنة التاسعةِ من الهجرة جيشًا قِوامُه ثلاثونَ ألفَ مجاهدٍ متَّجِهًا إلى الشام، وحين عَلِم الرُّوميُّونَ بخبرِ هذا الجيش خافوا، إذ إن هؤلاءِ قادمونَ بجيشِهم من بعيدٍ لمهاجمتِنا، وهذا يعني ـ بطبيعة الحال ـ أنّهم واثقونَ تمامًا في جيشِهم، فأقام النبيُّ ﷺ في أرضِ تَبُوكَ عشرينَ يومًا،

ولم يجرُؤِ الرُّوميُّونَ على المواجهة، وهكذا رَغْم أنه لم تَحدُثْ معاركُ في تَبُوك، إلّا أنّ قوةَ المسلمينَ أصبح يُحسَبُ لها ألفُ حسابٍ في الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها.

جمع التبرّعات لغزوة تبوك:

يقالُ لجيشِ تَبُوكَ: جيشُ العُسْرة، أي: الذي تمَّ إعدادُه في زمنِ الضِّيق المادي؛ لأنّ الجزيرةَ العربيّةَ كلَّها كانت تمُرُّ بعام من القَحْطِ شديد، ولهذا أعلَنَ النبيُّ ﷺ على الملأِ فتحَ بابِ التبرُّعات، حتى يُمكنَ تجهيزُ الجيش وإمدادُ المجاهدينَ بالطّعام والشّرابِ والسّلاح وما يركَبون، وفَوْرَ هذا الإعلان ضَرب عُشّاقُ الرِّسالةِ النَّبويّة أمثلةً تُحتذَى في التّضحيةِ والإيثار، نُقدِّم فيما يلي بعضًا منها:

سيّدُنا أبوبكرٍ الصِّدِّيقُ وسيّدنا عُمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهما:

• عن زيدِ بن أسلَمَ، عن أبيه، قال: سمعتُ عُمرَ بنَ الخطّاب يقولُ: أَمَرنا رسولُ الله ﷺ أن نتصدّقَ، فوافقَ ذلك عندي مالًا، فقلتُ: اليومَ أسبِقُ أبا بكرٍ إنْ سبقتُه يومًا، قال: فجئتُ بنصفِ مالي، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أبقَيْتَ لأهلِك؟»، قلت: مِثلَه، وأتَى أبوبكرٍ بكلِّ ما عندَه، فقال: «يا أبا بكرٍ، ما أبقَيْتَ لأهلِك؟»، قال: أبقَيْتُ لهمُ اللهَ ورسولَه، قلتُ: والله لا أسبِقُه إلى شيءٍ أبدًا»[1].

• عن ابنِ عُمر، قال: كنتُ عندَ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم وعندَه أبوبكرٍ وعليه عباءةٌ قد خلّلها في صدرِه بخِلالٍ، فنزَل جِبريلُ فقال: يا نبيَّ الله، ما لي أرى أبا بكرٍ عليه عباءةٌ قد خلَّلها في صدرِه بخِلالٍ؟ فقال: «قد أنفقَ علَيّ مالَه قبلَ الفتح»، قال: فإنّ الله يقولُ لك: اقرَأْ على أبي بكرٍ السّلامَ وقلْ له: أراضٍ أنت في فقرِك هذا أم ساخط؟ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا أبا بكرٍ، إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرَأُ عليك السّلامَ ويقول: أراضٍ أنت في فقرِك هذا أم ساخط؟»، فقال أبوبكرٍ:

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٦ برقم ٣٦٧٥: مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

أأسخَطُ على ربّي؟ إنّي عن ربّي لراضٍ! إنّي عن ربّي لَراضٍ! إنّي عن ربّي لَراضٍ! قال: «فإنّ اللهَ يقولُ لك: قد رَضِيتُ عنك كما أنت عنّي راضٍ»، فبكى أبوبكرٍ، فقال جِبريلُ عليه السّلام: والّذي بَعَثَك يا محمّدُ بالحقّ، لقد تخَلّلتْ حَمَلةُ العرشِ بالعبيِّ منذُ تخلَّل صاحبُك هذا بالعباءة»[١].

سيّدُنا عثمانُ بنُ عفّانَ رضي اللهُ عنه:

• **عن عبدِ الرّحمن بن خَبّابٍ، قال: شهِدتُ النّبيَّ ﷺ وهو يحُثُّ على جيشِ العُسْرة، فقام عثمانُ بنُ عفّانَ فقال: يا رسولَ الله، عليَّ مائةُ بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها في سبيل الله . ثمّ حضَّ على الجيشِ، فقام عثمانُ بن عفّانَ فقال: يا رسولَ الله، عليّ مائتا بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها في سبيل الله. ثمّ حَضَّ على الجيشِ، فقام عثمانُ بن عفّانَ فقال: يا رسولَ الله، لله علَيّ ثلاثُمائةِ بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها في سبيل الله . فأنا رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَنزِلُ عن المِنبَر وهو يقول: «ما على عثمانَ ما عَمِل بعدَ هذه، ما على عثمانَ ما عَمِل بعدَ هذه»**[٢]، بمعنى: أنّ اللهَ تعالى سيحفَظُ سيّدَنا عثمانَ رضيَ اللهُ عنه من كلِّ سُوء.

سيّدُنا أبوعُقِيل الأنصاريُّ:

• حين سَمِع سيّدُنا أبوعَقِيل الأنصاريُّ رسولَ الله ﷺ وهو يؤكِّدُ على التعاونِ المالي، ألقَى نظرةً على بيتِهِ فلم يجِدْ فيه شيئًا يمكنُ تقديمُه والتبرُّعُ به، فذَهَب إلى أحدِ اليهودِ واتّفق معَه على أن يَسقيَ حديقتَه من ماءِ البئر يُخرِجُه بدَلْوِه، على أن يُعطيَه صاعَيْن من التّمر، وظلَّ سيّدُنا أبوعَقِيل الأنصاريُّ طيلةَ اللّيل يستخرجُ الماءَ بالدَّلو من البئرِ ويسقى الحديقةَ، حتى انتهَى من ذلك عندَ الصَّباح، وأعطاه اليهوديُّ

---

(١) التفسير المنير وتفسير القرطبي، سورة الحديد (٥٧): الآية ١٠.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٨ برقم ٣٧٠٠: مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه.

صاعَيْنِ من التَّمر، فتَركَ سيِّدُنا أبوعَقِيل الأنصاريُّ رضيَ الله عنه صاعًا من التَّمر في بيتِه لأهلِه وأولادِه، وقدَّم الصّاعَ الآخَرَ لجيشِ تَبُوك، فأمَرَ النبيُّ ﷺ أحدَ الصحابةِ على سبيل التكريم والتقدير لسيّدِنا أبي عَقِيل رضيَ اللهُ عنه ـ أنِ انثُرِ التَّمرَ الذي أتَى به أبوعَقِيل فوقَ أكوام الأطعمةِ والأشربةِ التي قُدِّمت لنا، وسيَقبَلُ اللهُ تعالى صَدَقاتِ الناس جميعًا ببركةِ إخلاصِ وإيثارِ أبي عَقِيل رضي اللهُ عنه[١].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾

٢٨ـ أي: إنْ لم تتعاونوا معَ رسولِ الله ﷺ في إعدادِ جيشِ تَبُوكَ، فإنّ اللهَ ليس بحاجةٍ إلى مَعُونتِكم، وكما نَصَر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ ليلةَ الهجرة، هو أيضًا الآنَ حاميهِ وناصرُه.

واقعة الهجرة:

بالرَّغْم من عداءِ أهل مكّةَ الشديدِ للإسلام، فإنّه حينَ وَصَل نُورُه إلى المدينةِ المنوَّرة قرَّر أهلُ مكّةَ قتْلَ النبيِّ ﷺ، وذاتَ ليلةٍ خَرَج شبابُ قُريشٍ حاملينَ سيوفَهم إلى بيتِ رسولِ الله ﷺ ووقَفوا على بابِه، وجاءهم الأمرُ أنِ اقْتلوا النبيَّ ﷺ بسيوفِكم حين يَخرُجُ من بيتِه في الصَّباح الباكر، وهكذا جاء الأمرُ إلى النبيِّ ﷺ بالهجرة، وخَرَج النبيُّ ﷺ مارًّا من بينِ هؤلاءِ الشّبابِ وهو يقرأُ سورةَ يٓس، واتَّجه إلى بيتِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه، ثم اصْطَحَبه بعدَ ذلك إلى غارِ ثَوْر على ما هو معروفٌ. ولمزيدٍ من التفصيل يمكنُك الرجوعُ إلى الحاشية رقم **٢٤** للآية رقم **٣٠** من سُورة الأنفال لمعرفةِ كيف كان الخروجُ من بيتِ النبيِّ ﷺ.

---

(١) ضياء النبي، ٤: ٥٩٥.

أحداث غار ثور:

اصْطَحَب رسولُ الله ﷺ سيّدَنا أبا بكرِ الصدِّيقَ رضيَ الله عنه إلى غارِ ثَوْر، وكان سيّدُنا أبوبكرٍ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه ينظُر يَمْنةً ويَسْرةً وإلى الأمام والخلفِ وبكلِّ تركيز، خشيةً أن يكونَ العدوُّ في تعقُّبِهم، فلمّا وَصَلا إلى بابِ الغار قال سيّدُنا أبوبكرٍ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه: «**والله لا تَدخُلُه حتى أدخُلَه قبلَك، فإنْ كان فيه شيءٌ أصابَني دونَك، فدَخَله فكنَسَه، ووَجَد في جانبِه ثُقَبًا، فشقَّ إزارَه وسدَّها به، وبقيَ منهما ثُقبانِ فألقَمَهما رِجلَيْه، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخُلْ، فدَخَل رسولُ الله ﷺ، ووَضَع رأسَه في حِجْرِه ونام، فلُدِغ أبوبكرٍ في رجلِه من الجُحْر، ولم يتحرَّكْ مخافةَ أن ينتبهَ رسولُ الله ﷺ، فسَقَطت دموعُه على وجهِ رسول الله ﷺ، فقال: «ما لك يا أبا بكرٍ»، فقال: لُدِغتُ فداك أبي وأُمّي، فتَفَل عليه رسولُ الله ﷺ فذَهَب ما يجِدُه**»[1].

وعلى الجانبِ الآخَر، وعندَما نشَرَ الصَّباحُ ضياءه، وبدَلًا من أن يخرُجَ النبيُّ ﷺ من فراشِه، خَرَج سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه، فلمَّا رأى المحاصِرونَ للبيتِ هذا الأمرَ أُسقِط في أيديهم، وانتشَر الخبرُ في مكّةَ انتشارَ النارِ في الهَشِيم بأنّ محمّدًا ﷺ خرَج من مكّةَ ليلًا، فأعلَنَ كفّارُ مكّةَ أنّ من يقبِضُ على رسولِ الله ﷺ ويأتي به حيًّا أو ميِّتًا سنُعطيه مائةَ ناقةٍ مكافأةً له. وخَرَجت جماعةٌ من المشركينَ في تعقُّبِ النبيِّ ﷺ يبحثونَ عنه في كلِّ اتجاه، ووَصَلت جماعةٌ منهم حتى بابِ غارِ ثَوْر حيث يوجَدُ سيّدُنا محمّدٌ ﷺ وسيّدُنا أبوبكرٍ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه، لكنّ اللهَ تعالى أظهَرَ علائمَ قُدرتِه بأنْ جَعَل العنكبوتَ ينسُجُ شِباكَه على بابِ الغار، وحمامةً صحراويّةً تَبْني عُشًّا على البابِ أيضًا، ثم تَبِيضُ فيه، وتحتضنُ بَيْضَها وترقُدُ عليه[2]!

---

(١) تفسير الخازن.

(٢) «فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار من ساعته وأيقنوا أن لا أحد فيه، وباضت الحمامة على نسج العنكبوت وجعلت ترقد على بيضها». التفسير المنير وتفسير القرطبي.

وحين رأى سيّدُنا أبوبكرِ المشركينَ على بابِ الغارِ قال للنبيِّ ﷺ **لو أنّ أحدَهم نَظَر تحتَ قدمَيْهِ لَأبصَرَنا. فقال: «ما ظنُّك يا أبا بكرٍ باثنَيْنِ اللهُ ثالثُهما؟»**[1]، فلا تغتمَّ ولا تحزَنْ فإنّ اللهَ معَنا، سبحانَ الله! مِثلُ هذا الإعلانِ الرائع عن التوكُّل على الله لا يمكنُ أن يكونَ إلّا من نبيِّ الله، وحينَئذٍ أَنْزلَ اللهُ تعالى سَكِينتَه على النبيِّ ﷺ، وهو ما وَصَل فَيْضُه إلى سيّدِنا أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه أيضًا، فانتَهى خوفُه وقَلقُه، وقد أرسَلَ اللهُ تعالى ملائكتَه للمدَدِ أيضًا، إذ إنّ من غيرِ الممكنِ أن تبنيَ الحمامةُ عشَّها في هذه الفترةِ الوجيزة، كما أنّ اللهَ تعالى قد نَصَر رسولَه ﷺ بعدَ ذلك أيضًا في غزوةِ بَدْرٍ عن طريقِ الملائكة. وهكذا حينَ رأى الكفّارُ شِبَاكَ العنكبوتِ وعشَّ الحمامة عادوا من حيثُ جاءوا. سبحانَ الله! شِباكُ العنكبوتِ التي لا تستطيعُ الثباتَ أمامَ تيّارِ الهواء الضَّعيف، عندَما أراد اللهُ جَعَل منها بوَّابةً حديديَّةً على الغار، يَراها الأعداءُ فيعودون، وكانت محاولةُ الكفّارِ تهدفُ إلى قَتْل النبيِّ ﷺ وتنكيسِ رايةِ الإسلام، لكنّ اللهَ تعالى أذَلَّ الكفّارَ وأخفَضَهم، ورَفَع رايةَ الإسلام وأعلاها؛ لأنّ اللهَ غالبٌ على الجميع، ولا يمكنُ أن يَغلِبَه أحد.

أقام سيّدُنا محمّدٌ ﷺ وسيّدُنا أبوبكرٍ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه ثلاثةَ أيام في غارِ ثَوْر، وفي تلك الأثناءِ «**كانت أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ تأتيهما بالطّعام، ويأتيهما عبدُ الله بنُ أبي بكرٍ بالأخبار، ثم يتلُوهما عامرُ بن فُهَيْرةَ بالغَنَم**»[2]، أمّا إخلاصُ سيّدِنا أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه فلا يستطيعُ خيالُنا أن يُحلِّقَ بالقُربِ من مداه، ولكنْ حتّى إخلاصُ أهلِه، بل وغلامِه كذلك، كان عظيمًا، فلم يُفشِ أحدٌ السرَّ، ولم يستطع الإغراءُ بمائةِ ناقةٍ أن يحرِّكَ ساكنًا في قلبِ غلام سيّدِنا أبي بكرٍ رضي الله عنه، اللهمَّ أَنْزِلْ سَيْلَ رحَماتِك على هذه الأُسرةِ كلِّها، آمين، وما أحسنَ قولَ مَن قال:

- **عُشّاقُه أكثرُ من الحِسانِ، جمالًا وزينةً وحبًّا.**

---

(١) البخاري، كتاب فضائل الأصحاب، باب ٢.

(٢) التفسير المنير وسيرة ابن هشام.

فضيلة سيّدنا أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه:

عقيدةُ جُمهورِ المسلمينَ أنّ أفضَلَ الخَلْق من بني الإنسانِ بعدَ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام هو: سيّدُنا أبوبكرٍ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه، وإليك بعضَ الإحالاتِ في هذا الخصوص:

١ـ جَعَل الإمامُ البخاريُّ عُنوانَ البابِ الرابع من كتابِ فضائل الأصحاب في «صحيحِه» هو «**بابُ فَضْل أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه بعدَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم**»، وفيه ينقُل هذه الروايةَ «**عن ابنِ عُمَر ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ قال: كنّا نُخيِّرُ بينَ النّاس في زمنِ النّبيّ ﷺ فنُخيِّرُ أبا بكرٍ، ثمّ عُمرَ بنَ الخطّاب، ثمّ عثمانَ بنَ عفّان رضي اللهُ عنهم**»[1].

ويقولُ العلاّمةُ بَدْرُ الدِّين عَيْني في شَرْح هذا الحديث: «**وعلى هذا أهلُ السُّنة والجماعة**»[2].

وقد نَقَل الإمامُ ابنُ حجر العَسْقَلانيُّ قولَ الإمام الشافعيِّ رحمةُ الله عليه: «**أجمَعَ الصّحابةُ وأتْباعُهم على أفضَليّةِ أبي بكر، ثم عُمرَ، ثم عثمانَ، ثم عليٍّ رضي اللهُ عنهم أجمعين**»[3].

٢ـعن عبدِ الله بن سَلَمةَ، قال: سمعتُ عليًا يقولُ: خيرُ النّاس بعدَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ أبوبكرٍ، وخيرُ النّاس بعدَ أبي بكرٍ عُمر[4].

---

(١) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٤ برقم **٣٦٥٥**.

(٢) عمدة القاري، ١٦: ١٧٧.

(٣) فتح الباري، ٧: ١٧.

(٤) ابن ماجه، المقدمة، برقم ١٠٦.

٣ـ عن محمّد ابن الحَنفيّة (يعني: محمّدَ بن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه)، قال: قلتُ لأبي: أيُّ النّاسِ خيرٌ بعدَ رسولِ الله ﷺ؟ قال: أبوبكرٍ. قال: قلتُ: ثمّ مَن؟ قال: ثمّ عُمر. قال: ثمّ خَشِيتُ أن أقولَ: ثمّ مَن فيقولَ: عثمان، فقلت: ثمّ أنت يا أبةِ؟ قال: ما أنا إلّا رجلٌ من المسلمين[١].

٤ـ قال سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: «كنّا نقولُ ورسولُ الله ﷺ حيٌّ: أفضَلُ أُمّةِ النّبيِّ ﷺ بعدَه أبوبكرٍ ثمّ عُمرُ ثمّ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهم أجمعين[٢].

٥ـ نَقَل الطَّبرانيُّ الحديثَ السابقَ معَ بعضِ الإضافة كالتالي: «كنا نقولُ ورسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم حيٌّ: أفضَلُ هذه الأُمّةِ أبوبكر وعُمرُ وعثمانُ رضيَ اللهُ عنهم أجمعين، يَسمَعُ ذلك رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فلا يُنكِرُه[٣].

٦ـ عن أنسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ وعُمر: «هذانِ سيّدا كهولِ أهلِ الجنّة من الأوّلينَ والآخِرين، إلّا النّبيِّينَ والمرسَلين»[٤].

٧ـ عن عائشةَ رضي اللهُ عنها، قالت: بَيْنا رأسُ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في حِجْري في ليلةٍ ضاحيةٍ إذْ قلتُ: يا رسولَ الله! هل يكونُ لأحدٍ من الحسَناتِ عددَ نجوم السَّماء؟ قال: «نعَمْ، عُمر»، قلت: فأين حسَناتُ أبي بكر؟ قال: «إنّما جميعُ حسَناتِ عُمر كحسَنةٍ واحدةٍ من حسَناتِ أبي بكر»[٥].

٨ ـ رُويَ عن عُمرَ بن الخطابِ أنه ذُكِر عندَه أبوبكرٍ فقال: وَدِدتُ أنّ عمَلي كلَّه مِثلُ عمَلِه يومًا واحدًا من أيامِه وليلةً واحدةً من لياليه، أمّا فلَيلتُه لَيلةَ سار معَ

---

(١) أبوداود، كتاب السنة، باب ٨، برقم ٤٦٢٩.

(٢) أبوداود، كتاب السنة، برقم ٤٦٢٨.

(٣) عمدة القاري، ١٦: ١٧٧.

(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٦ برقم ٣٦٦٤.

(٥) المشكاة، مناقب أبي بكر وعمر، الفصل الثالث برقم ٦٠٦٨.

رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم إلى الغار، وأمّا يومُه فلمّا قُبِض رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ارتَدَّت العربُ وقالوا: لا نؤدِّي الزّكاة، فقال: لو مَنَعوني عِقالًا لَجاهدتُهم عليه[١].

٩ـ عن عُمرَ بن الخطّاب، قال: أبوبكرٍ سيّدُنا وخَيْرُنا وأحبُّنا إلى رسولِ الله ﷺ[٢].

١٠ـ عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «... أما إنّكَ يا أبا بكرٍ أوّلُ من يَدخُلُ الجنّةَ من أُمّتي»[٣].

١١ـ عن أبي هريرةَ، قال قال رسول الله ﷺ «ما لأحدٍ عندَنا يدٌ إلّا وقد كافَيْناه، ما خَلا أبا بكرٍ، فإنّ له عندَنا يدًا يكافيهِ اللهُ بها يومَ القيامة، وما نَفَعَني مالُ أحدٍ قطُّ ما نَفَعَني مالُ أبي بكرٍ، ولو كنتُ متَّخِذًا خليلًا لَاتّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ألا وإنّ صاحبَكم خليلُ الله»[٤].

١٢ـ قال سيّدُنا أبوهريرةَ رضيَ اللهُ عنه: **سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «... فمَن كان من أهلِ الصّلاةِ دُعيَ من بابِ الصّلاة، ومَن كان من أهلِ الجهادِ دُعيَ من بابِ الجهاد، ومَن كان من أهلِ الصَّدقةِ دُعيَ من بابِ الصَّدَقة، ومن كان من أهلِ الصِّيام دُعيَ من بابِ الصّيام، وباب الرَّيَّان». فقال أبوبكرٍ: ... هل يُدعَى منها كلِّها أحدٌ يا رسولَ الله؟ قال: «نعَمْ، وأرجو أن تكونَ منهم يا أبا بكر»[٥].**

١٣ـ قال ﷺ: «إنّ لله ثلاثَمائةٍ وستّينَ خُلُقًا مَن لَقِيَه بخُلُقٍ منها معَ التّوحيد

---

(١) تفسير الخازن.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٤ برقم ٣٦٥٦.

(٣) أبوداود، كتاب السنة، باب ٨ برقم ٤٦٥٢.

(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٥ برقم ٣٦٦١.

(٥) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٥ برقم ٣٦٦٦.

دَخَل الجنَّة»، قال أبوبكر رضيَ اللهُ عنه: هل فيَّ منها يا رسولَ الله؟ قال: «كلُّها فيكَ يا أبا بكرٍ، وأحَبُّها إلى الله السّخاء»[1].

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

٢٩ـ حينَ يُعلنُ رئيسُ دولةٍ إسلاميّة الجهادَ فإنه يصبحُ فرضًا على المسلمينَ جميعًا، وفي هذه الآيةِ جاء الحُكمُ بهذا الجهاد، والمرادُ بـ ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أنه سيكونُ عليكمُ الخروجُ للجهادِ في كلِّ حال، سواءٌ رَضِيَتْ قلوبُكم بذلك أم لا، وسواءٌ كانت أحوالُكم الظاهريّةُ تسمحُ بذلك أم لا، إلّا أنْ يكونَ هناك عُذرٌ معقول، فإنْ كان لديكُم وَفْرةٌ ماليّةٌ فأَنْفِقوا، وإن لم يكنْ كذلك فابذُلوا من طاقتِكم الجسَديّةِ من أَجْل إعلاءِ رايةِ الإسلام، وهذا هو الأفضَلُ لكم إن كنتُم تعلمون.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾

٣٠ـ أيُّها النبيُّ الحبيب، لو كان مالُ الغنيمة مضمونًا، وكان السَّفَرُ قصيرًا، لَخَرج معَكم المنافقونَ طمعًا في تحقيقِ المصالح الدُّنيويّة، لكنّ **«تبُوكَ تبعُدُ عن المدينة ٦٩٠ كم»**[2]، ثم إنّ العامَ عامُ قَحْط، والجيشُ الرُّوميُّ كثيرُ العدَد، ولهذا فإنّ هؤلاءِ المنافقينَ لن يذهَبوا هناك، وإنّما سيأتونَك قريبًا يُقسِمونَ ويختَلقُونَ الحِيَلَ والأعذارَ ليتركوك ويرحَلوا، ولذا لا تنخدعْ بأَيْمانِهم، فهم كذّابون، ويَخلُقونَ لك المشاكل؛ لأنّ المسلمينَ جميعًا سيَعرِفونَ أنّ هؤلاء منافقونَ فعلًا، إذ لم يَخرجوا إلى الحرب.

---

(١) تفسير روح البيان، سورة ن والقلم (٦٨): الآية ٤، ١٠: ١٠٧.

(٢) التفسير المنير.

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾

٣١- حين بدأَ الجيشُ في التوجُّه إلى تَبُوكَ جاء المنافقونَ إلى رسول اللهِ ﷺ، وأخَذوا يختلقونَ الأعذارَ لعَدَم المشاركةِ في الجهاد، ومعَ أنّ النبيَّ ﷺ بناءً على التجارِب السّابقة في أُحُدٍ وغيرِها يَعلَمُ تمامًا أنّ المنافقينَ يختلقونَ الأعذارَ الكاذبة، ولم يكنْ هناك حُكمٌ إلهيٌّ مُسبَقٌ يسمحُ بمعاقبةِ مختلقي الأعذارِ الكاذبة، كما أنّ النبيَّ ﷺ - بدافِعٍ من حيائه الفِطريِّ ورحمتِه وكرَمِه الذي جَبَلَه اللهُ عليه - لم يكنْ يُجبرُ أحدًا على شيء، لهذا سَمَح النبيُّ ﷺ للمنافقينَ أن يتخلَّفوا عن الجهاد، ولم يكنْ هذا ذنبًا.

والمرادُ باستفسارِ الله تعالى في هذه الآية أنْ أيُّها النبيُّ الحبيبُ، لو لم تُعطِهم الإذْنَ بالتخلُّف، فإنّك معَ ذلك تَعلَمُ أنّهم لن يذهبوا إلى تَـبُوك، فإذا لم يذهبوا برَغْم عَدَم سماحِك لهم بالتخلُّف، لَانكشَف كذبُهم من صِدقِهم أمامَك، وعَلِم الجميعُ بنفاقِهم، ولكنْ حتى هـذه الشَّكوى البسيطة من قِبَلِ الله تعالى أمرٌ يَثقُلُ على تقوى النبيِّ ﷺ، ويُشعِرُه بالقلق، ولهذا، ومن بابِ الطَّمْأنةِ مسبَقًا، أعلَن اللهُ تعالى العفوَ عنه ﷺ من بابِ تكريمِه والتَّسريةِ عنه، بمعنى: أنك لو لم تسمحْ لهم لَكان ذلك أفضلَ، أما وإنّك قد أَذِنتَ لهم فلن نؤاخذَك.

﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

٣٢- الذين يختلقونَ الأعذارَ لكي لا يشاركوا في جيشِ تَبُوكَ هم أولئك الذين لا يؤمنونَ بالله واليوم الآخِر؛ لأنّ مرضَ النِّفاقِ يَسكُنُ قلوبَهم، فلا هم يؤمنونَ من قلوبِهم، ولا هم يُظهِرونَ كُفرَهم بألسنتِهم، ولهذا فهم مبتَلوْنَ بحالةٍ من الصِّراع العجيب بينَ القلبِ واللِّسان.

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾

٣٣ـ قال المنافقونَ: لقد كنّا على أتمِّ استعدادٍ للذهابِ إلى تَبُوك، ولكنْ حَدَثَتْ لنا ظروفٌ مفاجئةٌ كذا وكذا، ولذا نرجو أن تأذَنَ لنا بالبقاءِ هنا، وعليه قال اللهُ تعالى: هذه أعذارٌ كاذبةٌ يختلقونَها، فلم تكنْ لديهم نيّةٌ من اليوم الأول للذهاب، ولم يستعِدُّوا أصلًا لذلك، ولو كانت لديهِم النِّيةُ للمشاركة في الجهاد، لَكانوا قد أعَدُّوا بعضَ المتاع لذلك، بينَما الحقيقةُ هي أنّهم لم يُعِدُّوا شيئًا لذلك، والحقيقةُ أيضًا هي أنّ اللهَ لا يحبُّ ذهابَهم في هذا السَّفَر الطويل معَك بسببِ نفاقِهم؛ لأنّهم لو ذهبوا معَك لَأضرُّوكَ بدلًا من أن ينفَعوك مثلَما جاء في الآيةِ التالية، ولهذا جَعَلَهم اللهُ أصحابَ هِمَم مثبَّطةٍ، وأَذِن لهم النبيُّ ﷺ بالبقاءِ في بيوتِهم.

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

٣٤ـ يُعلَمُ من الآياتِ السابقة أنّ النبيَّ ﷺ أَذِنَ للمنافقينَ أن يبقَوْا في بيوتِهم، وأنّ اللهَ تعالى أيضًا لم يُحبَّ خروجَهم للحرب، والسببُ في هذا الإذْنِ وعَدَم الحبِّ من الله تعالى هو أنّهم لو شاركوا معَ الجيشِ لَحاولوا نَشْرَ الفسادِ والفتنة، تمامًا مثلَما يحاولُ جواسيسُهم في أيامِنا هذه أن يُثبِّطوا مِن هِمَم المسلمينَ بنَشْر الشائعاتِ المُغْرِضة، ولكنْ لا داعيَ لأنْ تحزَنَ أيُّها النبيُّ الحبيب، فلقد حاولوا نَشْرَ الفتنةِ من قبلُ، ولكنْ باءت كلُّ مؤامراتِهم بالفشَل، وانتصَر الحقُّ رغمًا عنهم، وسوف يَفشَلُ هؤلاءِ الظالمونَ في المستقبَل أيضًا ودائمًا إن شاء اللهُ تعالى.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾

٣٥ـ كانت أعذارُ المنافقينَ عجيبةً، فبعضُهم يقول: لو أنّك أمَرْتَني، فلن أذهبَ إلى تَبُوك، ولذا فلا تأمُرْني بذلك حتى أنجوَ من فتنةِ العصيان، والبعضُ الآخَرُ يقول:

إنّ محصُولَ التَّمرِ عندي قد نَضِج، ولو ذهبتُ إلى تَبُوكَ لَتَلِف هذا المحصولُ، ولهذا ائْذَنْ لي ولا تَضَعْني في ابتلاءٍ بالخسارةِ الماليَّة، بل إنّ أحدَ المنافقينَ - وكان يُدعَى جَدَّ بَن قيس - قال: **أَوَ تأذَنُ لي يا رسولَ الله؟ فإنّي رجلٌ أحبُّ النساءَ، وإنّي أخشى إن أنا رأيتُ نساءَ بني الأصفرِ أن أُفتنَ، فقال رسولُ الله - وهو مُعرِضٌ عنه -: «قد أَذِنتُ لك»**[1]، وعليه قال اللهُ تعالى: أيُّها المسلمون، اسمَعوا جيِّدًا، رَغْمَ أنه يبدو في الظاهرِ أنّ هؤلاءِ يتحدَّثونَ عن النَّجاةِ من الفِتَن، لكنّ الحقيقةَ أنّهم مُحاطونَ منذُ البدايةِ بفِتَنٍ مثلَ الكُفرِ والنِّفاق والفِرار من الجهادِ والطَّمع في المالِ والكذبِ وغيرِها، وهو السببُ في أنّهم لن يستطيعوا الإفلاتَ من جهنَّم.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾

٣٦- أكثرُ المنافقينَ لم يكونوا يشاركونَ في المعارِكِ والحروب، ولهذا فإنّه عندَما كان المسلمونَ ينتصِرونَ، ويحصُلونَ على الغنائم، كان هذا يَثقُلُ على هؤلاء، وكانوا يحترقونَ غيظًا وحسَدًا، أمّا إذا تعرَّض المسلمونَ في الظاهرِ لهزيمةٍ، واستُشهدَ بعضُ المجاهدينَ، فإنّ المنافقينَ كانوا يحتفلونَ فرحًا وسرورًا، ويقولونَ متفاخِرينَ ببُعدِ نظرِهم: لقد كنّا نَعلَمُ مسبَقًا أنّ هؤلاءِ سيخسَرون، ولذا لم نشارِكْ نحن في الحرب.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

٣٧- قل لهؤلاءِ المنافقينَ يا رسولَ الله ﷺ: إنه لا فَرْقَ لدينا بينَ أن تُشاركوا في الجهادِ أو أن لا تشاركوا فيه؛ لأنّ مدبِّرَ أمورِنا هو اللهُ تعالى، وعليه نتوكَّل، كما

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم والتفاسير الأخرى.

أنّنا لن تُصيبَنا سوى تلك المصيبةِ التي كتَبَها اللهُ علينا، ونحن نصبِرُ عليها؛ لأنّها إمّا أن تكونَ بُشرى بنجاح قادم، أو إشارةً إلى ضعفٍ وَقَع منا، حتى نحتاطَ لذلك مستقبلًا.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

٣٨ـ حينَ كان المسلمونَ يَخرُجونَ للجهادِ كان المنافقونَ ينتظرونَ على أحرَّ من الجَمْر معرفةَ خبَرِ انتصارِ المسلمينَ أو هزيمتِهم، فقال اللهُ تعالى: أيُّها النبيُّ الحَبيب، قُلْ لهم: إنّ أيَّ أمرٍ من الأمرَيْنِ مما تنتظرونَ معرفتَه يَحدُثُ لنا خيرٌ كلُّه، بمعنى: أنه لو أنّنا انتصَرنا فنحن مجاهدونَ منتصِرون، وإنْ هُزمنا واستُشهِدنا فنحن شُهداءُ، وفي الحالتَيْنِ نأمُلُ في الأَجْرِ العظيم من الله، ولكنْ أيُّها المنافقونَ، إنّ أيَّ أمرٍ من الأمرَيْنِ ممّا تنتظرونَ يَحدُثُ لنا بالنِّسبة لكم شرٌّ كلُّه، بمعنى: أنه بسببِ نفاقِكم إمّا أن يَبتَليكمُ اللهُ بعذابٍ من عندِه، أو أن يَهزِمَكم على أيدينا، والنتيجةُ في كلتا الحالتَيْنِ سيِّئةٌ لكم، وبالتالي فأنتم تنتظرونَ سُوءًا لكم، ونحن ننتظرُ خيرًا لنا.

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾

٣٩ـ لم يكنْ هناك منافقٌ واحدٌ مستعِدًّا للمشاركةِ في غزوةِ تَبُوك، إلّا أنّ بعضَ المنافقينَ قدَّم تعاونًا ماليًّا في هذا الخصُوص، ومن هؤلاء: جَدُّ بنُ قَيْس أيضًا، فنَزَلتْ هذه الآيةُ[1]، بمعنى: أنه حتى لو أنفَقْتُم برِضاكم فلن يُقبَلَ منكم؛ لأنّ شرطَ القَبُول الأولَ عندَ الله تعالى هو الإيمانُ، وأنتم فاقدونَ لهذا الشَّرطِ مثلَما وَرَد في الآيةِ التالية، وأمّا إذا أنفَقتُم بغيرِ رضاكم، فهو أيضًا مردودٌ عليكم؛ لأنّ أساسَ الأعمالِ هو النيّات، ونيَّتُكم هنا مفقودةٌ أيضًا.

---

(١) «فهذه الآية نزلت في الجدّ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: هذا مالي أعينك به، فاتركني». التفسيرالمنير.

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾

٤٠ـ جاء في هذه الآية بيانُ ثلاثةِ أسبابٍ لعَدَم قَبُول صَدَقاتِ المنافقينَ، وهي: (١) كُفرُهم؛ يعني: أنهم منكِرونَ لله تعالى ولرسولِه الكريم ﷺ. (٢) تكاسُلُهم عن الصَّلاة؛ بمعنى: أنّهم لا أملَ لهم في ثوابٍ على الصلاة، وإنّما كانوا يذهبونَ للمسجدِ بقَصْدِ خِداع المسلمين. (٣) لكي لا ينكشفَ نفاقُهم فإنّهم يُنفقونَ في سبيل الله ولكنْ عن غيرِ طِيبِ خاطرٍ وعلى مَضَضٍ، وكلُّ سببٍ من هذه الأسبابِ الثلاثة يكفي في ذاتِه لعَدَم قَبُولِ العمل، أمّا إذا اجتَمَعتِ الأسبابُ الثلاثةُ، فلا يكون هناك أدنى شكٍّ في عَدَم قَبُولِ العمل.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

٤١ـ لا تجعَلوا رفاهيَةَ المنافقينَ الدُّنيويّةَ سببًا في أن تعتقدوا أنّ اللهَ راضٍ عنهم، ولهذا يرزُقُهم وفرةً في الأموالِ والأولاد، والحقيقةُ أنّ هذه الأموالَ والأولادَ بمثابةِ العذابِ لهم، فلكي يُظهِروا للناسِ أنّهم مسلمونَ يُضْطَرُّونَ إلى إنفاقِ المال في شكلِ الزَّكاة والصَّدَقات، معَ أنّهم يَعتبِرونَ هذا الإنفاقَ عذابًا، وكثيرٌ من أولادِهم أسلَموا وحَسُن إسلامُهم، مثلَ: عبدِ الله بن عبدِ الله بن أُبيٍّ، فقد كان مسلمًا مخلِصًا، وقد أظهرَ هذا الشابُّ بُطولاتٍ كبيرةً في الحروبِ من أَجْل رفعةِ الإسلام، فهل هناك عذابٌ أكثرُ من هذا بالنِّسبة لهم؟ إذ إنّ الإسلامَ الذي يريدونَ مَحْوه من الوجود، يُضحِّي أولادُهم في سبيلِه بأرواحِهم، ومعَ ذلك فإنّ هؤلاءِ المنافقينَ سيظلُّونَ دائمًا مستغرِقينَ في حبِّ المالِ والأولاد، بحيث لا تُواتيهم الفرصةُ للدُّخول في الإسلام، وسيموتونَ على هذا الكُفْر؛ لأنّ المالَ والأولادَ

الذين يؤدُّونَ إلى الغَفْلةِ عن الخالقِ الحقيقيِّ، إن لم يكونوا بمَثابةِ العذابِ من الله تعالى فماذا يكونونَ إذًا؟ كما أنّ عذابًا كهذا ليس عذابًا بسيطًا، أي: أن يقضيَ الشّخصُ حياتَه كلَّها على عكسِ ما يعتقدُ ويحبُّ، ولمزيدٍ من التفصيلِ عن العظَمةِ الدُّنيويّة راجع الحاشيةَ رقم **١٤٠** للآية رقم **١٩٦** من سُورة آل عِمران **(٣)**.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾

٤٢ـ يَحلِفُ المنافقونَ ليؤكِّدوا للمسلمينَ أنّهم أيضًا مسلمون، لكنّ هذه الآيةَ أوضَحتْ أنّهم ليسوا مسلمين، وهم ـ في الحقيقة ـ جُبَناءُ يفتقدونَ الشّجاعةَ، ولا يجرُؤونَ على إظهارِ ما في قلوبِهم والتعبيرِ عنه، ولو أنّهمُ اليومَ وجَدوا ملجأً آخَرَ لَتركوا المسلمينَ وفرُّوا إليه.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

٤٣ـ حين كانتِ الزّكاةُ والصَّدَقاتُ تتجمَّعُ عندَ رسولِ الله ﷺ، كان النبيُّ ﷺ يقومُ بتوزيعِها على المستحِقِّينَ طِبقًا لحُكم الله تعالى، لكنْ كان هناك بعضُ المنافقينَ الذين إن حَصَلوا على المالِ الذي يرغَبونَ فَرِحوا، وإنْ لم يكنْ ما حَصَلوا عليه طبقًا لتوقُّعاتِهم غَضِبوا واعتَرَضوا على توزيع النبيِّ ﷺ، معَ أنّهم يحصُلونَ على النَّصيبِ المحدَّد لهم، وفي نفسِ الوقت فإنّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ يأخُذُ شيئًا لنفسِه؛ لأنه لا يجوزُ له ﷺ ولا لآلِه وأُسرتِه أَخْذُ الزّكاةِ أو الصَّدقات.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾

٤٤ـ لو أنّ المنافقينَ كانوا يقنَعونَ بالمالِ الذي أعطاهم إيّاه النبيُّ ﷺ للمنافقين بحُكم الله تعالى ويفرَحونَ به، ويأمُلونَ في المزيدِ في مناسباتٍ أخرى،

لَكان هذا خيرًا لهم، لكنّهم كانوا يعترضونَ فينكشفُ نِفاقُهم.

وفي هذه الآية يُعلِّمُ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ أن يكونوا شاكرينَ صابرينَ على كلِّ ما يُعطيه لهم اللهُ ورسولُه، سواءٌ كان هذا مالًا وثرواتٍ ظاهريّةً، أو تقْوى واطمئنانًا روحيًّا، وأن يَطلُبوا المزيدَ من فَضْل الله وكرَمِه متوكِّلينَ عليه؛ لأنّ من يتوكّلْ على الله فهو حَسْبُه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

٤٥ـ جاء في الآياتِ السَّابقةِ أنّ بعضَ المنافقينَ اعترَضَ على تقسيم النبيِّ ﷺ للزّكاة، وفي هذه الآيةِ جاء الردُّ على هذا الاعتراضِ، من أنّ النبيَّ ﷺ يُعطي أولئك الذين عيَّنَهم اللهُ تعالى بأنّهم مستحِقُّون، وهم ثمانيةُ أقسام فقطْ، ولا يجوزُ إعطاءُ الزّكاةِ

لغيرِهم، حتى إنها لا تجوزُ للنبيِّ ﷺ ولا لآلِه وأُسرتِه[١]، والمرادُ بالصَّدَقاتِ في هذه الآية: الزّكاةُ[٢].

المستحقّون للزّكاة:

١ـ الفقير: و«**الفقيرُ، وهو: مَن له أدنى شيءٍ وهو ما دونَ النِّصابِ ... والتصَدُّقُ على الفقيرِ العالِم أفضَلُ من التصَدُّقِ على الجاهل**»[٣]؛ لأنّ العالِمَ حين يتحرَّرُ من أمورِ كسبِ المعيشة، فإنه سيحُثُّ الآخَرينَ على مساعدةِ الفقراء، وبالتالي يصبحُ وسيلةً لمساعدةِ فقراءَ آخَرينَ عديدين.

٢ ـ المِسكين: «**وهو: من لا شيءَ له، فيحتاجُ إلى المسألةِ لقوتِه أو ما يُواري بَدَنه ويَحِلُّ له ذلك**»[٤].

٣ـ أعضاءُ لجنةِ الزَّكاة ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾: المرادُ بعُمّالِ الزَّكاة: هم أولئك الذين تعيُّنُهم الحكومةُ لجَمْع الزّكاة، وحمايـتِها، وتوزيعِها، وحسابِها وتدوينِ مصارفِها، ويتمُّ دفعُ مرتَّباتِ هؤلاء العاملينَ (الموظَّفين) من أموالِ الزكاة، حتى وإن كانوا أغنياءَ؛ لأنّهم وَقَفوا أنفسَهم على هذا العمَلِ ويجبُ التكفُّلُ بهم[٥].

٤ـ من يُرادُ تأليفُ قلوبِهم ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: وهؤلاء ثلاثةُ أقسام:

أـ أولئك الكفّارُ الذين كانوا يرغَبونَ في الدُّخول في الإسلام، كان النبيُّ ﷺ يُهديهم من مالِ الزَّكاةِ لمزيدٍ من التشجيع على الدُّخول في الإسلام.

---

(١) «وإنّها لا تحلّ لمحمّدٍ ولا لآل محمّدٍ». مسلم، كتاب الزكاة، باب ٥١.

(٢) «والآية تقتضي حصر الصدقات وهي الزكاة». صفوة التفاسير.

(٣) الفتاوى العالمكيرية، مصارف الزكاة، باب ٧.

(٤) الفتاوى العالمكيرية، باب مصارف الزكاة.

(٥) «وإنما حلت للغني مع حرمة الصدقة عليه لأنه فرغ نفسه لهذا العمل فيحتاج إلى الكفاية». تفسير روح المعاني.

ب ـ أولئك الذين أسلَموا حديثًا، لكنّ إيمانَهم لا يزالُ ضعيفًا، وكان النبيُّ ﷺ يُعطيهم من الزَّكاةِ لترسيخ الإيمانِ في قلوبِهم.

ج ـ أولئك الكفّارُ الذين كانوا يعادُونَ الإسلامَ بشدّة، وكان النبيُّ ﷺ يُهديهم من أموالِ الزَّكاة حتى يَقِلَّ عِداؤهم، ويبقَى المسلمونَ محفوظينَ من شرورِهم، وبعدَ استحكام الإسلام تمَّ وَقْفُ سَهْم أولئك الناسِ، وأَجْمعَ الصّحابةُ رضوانُ الله عليهم على هذا الأمرِ في عهدِ سيّدِنا أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي اللهُ عنه[1].

وقال القاضي ابنُ العربيِّ: «**الذي عندي أنّه إن قَوِيَ الإسلامُ زالوا، وإن احتيجَ إليهم أُعطوا سَهْمَهم، كما كان رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم يُعطيهم؛ فإنّ في الصحيح: بَدَأَ الإسلامُ غريبًا وسيعودُ كما بَدَأ**»[2].

٥ـ عِتقُ الرِّقاب ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: والمرادُ بعِتقِ الرِّقاب: أن يُشتَرى العبدُ من مالِ الزّكاة ويُحرَّر، وقد قال بعضُ العلماء: إنّ المرادَ به العبدُ المكاتَبُ فقطْ، وهو الذي اتُّفق معَ مالكِه على مبلغ معيَّن يدفعُه لتحريرِه، ولكنْ عندَ الإمام الشَّوكانيِّ: الأفضَلُ أن لا نَحُدَّه بالعبدِ المكاتَب؛ لأنّ الآيةَ الكريمةَ ذَكَرت تحريرَ الرِّقابِ على الإطلاق، وإنّما يُفهَمُ منه تحريرُ أيِّ عبد[3]. وهذا الأمرُ كان بمثابةِ خُطوةٍ هامةٍ من

---

(١) «وهم كانوا ثلاثة أصناف: صنف كان يؤلفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليسلموا وصنف أسلموا لكن على ضعف، فكان عليه الصلاة والسلام يعطيهم لتقوى نيتهم في الإسلام ـ وصنف كانوا يعطون لدفع شرهم عن المؤمنين ـ وفي (الهداية) أن هذا الصنف من الاصناف الثمانية قد سقط وانعقد إجماع الصحابة على ذلك في خلافة الصديق رضي الله عنه». تفسير روح المعاني.

(٢) «قال جماعة من العلماء: لم يسقط سهم هذا الصنف، يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك». تفسير روح المعاني وتفسير روح القدير.

(٣) «وفي الرقاب: أي في فك الرقاب بأن يشتري رقابًا ثم يعتقها ـ وقال بعض: إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة ـ والأولى حمل ما في الآية على القولين جميعًا لصدق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه» ـ تفسير فتح القدير.

الخُطُواتِ التي اتَّخَذها الإسلامُ في سَبيل القضاءِ على الرِّقِّ تدريجيًّا، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٧ للآية رقم ٢ من سُورة النساء (٤).

٦ـ المَدِين ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾: المرادُ بالمَدِين هو: «**الذي لا يَملِكُ نِصابًا، ولا قيمتَه، فاضلًا عن دَيْنِه**»[١].

٧ـ ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: والمرادُ به: ذلك المجاهدُ الذي يَعجِزُ عن مشاركةِ جيشِ الإسلام في الجهادِ بسببِ عَدَم وجودِ أدواتِ الحربِ لدَيْه، ولا يَملِكُ كذلك ما يركَبُه، أو أنّ المرادَ به ذلك الشَّخصُ الذي وَجَب عليه الحجُّ، ولكنّه لم يَحُجَّ وقتَ أنْ كان مستطيعًا، ثم لم تَعُدْ لديه الاستطاعةُ بعدَ ذلك، فهذا يمكنُ إعطاؤه من الزَّكاةِ بالقَدْر الذي يمكِّنُه من أداءِ فريضةِ الحجِّ.

وعندَ البعض أنّ «**المرادَ: طلَبةُ العلم، واقتَصَر عليه في «الفتاوى الظَّهيريَّة»، وفسَّره في «البدائع» بجميع القُرَب، فيَدخُلُ فيه كلُّ مَن سعَى في طاعةِ الله تعالى**»[٢].

قال الإمامُ الحَصْكَفي: «**إنّ طالبَ العِلم يجوزُ له أَخْذُ الزّكاةِ ولو غنيًّا إذا فرَّغ نفسَه لإفادةِ العِلم واستفادتِه، لعَجْزِه عن الكَسْب**». وقال العلّامة الشاميُّ في شرحِه: «**والمعنى: أنّ الإنسانَ يحتاجُ إلى أشياءَ لا غنًى عنها، فحينَئذٍ إذا لم يَجُزْ له قَبولٌ للزّكاة معَ عَدَم اكتسابِه أنفَقَ ما عندَه ومَكَث محتاجًا فينقطعُ عن الإفادةِ والاستفادة فيضعُفُ الدِّينُ لعُدْم من يتحمَّلُه**»[٣].

٨ ـ ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: والمرادُ به: ذلك المسافرُ الذي يسافرُ ملتزمًا بحدودِ الشَّريعة الإسلاميَّة، فإذا انتَهى زادُ طريقِه يمكنُ مساعدتُه من أموالِ الزَّكاة، حتى وإن كان غنيًّا في وطنِه.

---

(١) مراقي الفلاح، باب مصارف الزكاة.

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) حاشية رد المحتار، باب مصرف الزكاة، الباب الثاني، ٣٤٠.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

٤٦ـ كان المنافقونَ يتحدَّثونَ عن النبيِّ ﷺ بالسُّوءِ في مجالسِهم الخاصَّة، فإذا قال أحدُهم: لو عَلِم رسولُ الله ﷺ بما تقولونَ عنه سوف تواجِهونَ المشاكل، فيقولونَ: إنّ النبيَّ ﷺ يسمَعُ كلَّ ما يقولُه الجميع، فإذا اشتكانا أحدٌ إليه فليست هناك مشكلةٌ؛ لأنّنا سنُؤوِّلُ ما نقولُ تأويلًا كاذبًا بأنّنا لم نَقصِدْ هذا، وعندَئذٍ سيقتنعُ بما نقول، فنَزَلت هذه الآيةُ بأنّ: سَماعَ النبيِّ ﷺ لِما تقولون، وصَمتَه على ذلك، إنّما هو خيرٌ لكم، حتى لا يُفتضَحَ أمرُكم، وينكشفَ سرُّكم، ولكنّ هذا لا يعني أنه يُصدِّقُ ما تقولون، وأنه لا يَعلَمُ بنفاقِكم، والحقيقةُ أنه لِكرَم أخلاقِه يستمعُ فعلًا لكلِّ ما يقولُه الجميع، ولكنّه لا يُصدِّقُ إلّا المؤمنينَ الصادقين.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

٤٧ـ كلَّما ظَهَر نفاقُ المنافقينَ كانوا يَحلِفونَ للمسلمينَ مُحاولينَ إرضاءَهم ومؤكِّدينَ لهم على أنّهم مسلمون، معَ أنه لو تابَ هؤلاءِ المنافقونَ من نفاقِهم توبةً صادقة، وحاولوا إرضاءَ الله تعالى، فإنّ المسلمينَ سيرضَوْنَ عنهم بالتَّبَعية، أمّا إذا استمرُّوا في عدائهم لله ورسولِه ﷺ، فإنّ مصيرَهم سيكونُ جهنَّم، وهو أمرٌ أكثرُ إذلالًا من ذُلِّ الدنيا.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

٤٨ـ كان المنافقونَ في كثيرٍ من الأحيان يخشَوْنَ أنْ تنزِلَ على المسلمينَ سورةٌ تفضَحُ نفاقَهم، فقال لهم النبيُّ ﷺ: استمِرُّوا في سُخرِيَتِكم إن أردتُم، ولكنّ اللهَ تعالى سيُظهِرُ نفاقَكم يومًا ما، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فقد «عرَّف

نبيَّه عليه السلام أحوالَهم وأسماءَهم»[١]، وأمَرَ النبيَّ ﷺ بهَدْم المسجدِ الذي بنَوْه، وهو ما سيأتي ذكرُه في الآية رقم ١٠٧.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾

٤٩ـ كان المنافقونَ يسخَرونَ من الله تعالى ورسولِه ﷺ في مجالِسِهمُ الخاصَّة، وحين كان أحدٌ يسألُهم عما يفعَلونَ فإنّهم كانوا يحتالونَ قائلين: إنّنا نمزَحُ فيما بينَنا لا أكثرَ، وعليه قال اللهُ تعالى: ألم يَبْقَ لديكم ما تضحَكونَ منه وتَسخَرونَ سوى اللهِ تعالى ونبيِّه ﷺ؟! لهذا لا تختلقوا الأعذارَ، فأنتُم منذُ البداية وبسببِ نفاقِكم مسلمونَ بالاسم فقطْ، والآنَ كأنّكمُ ارتكبتُم الكُفرَ الصَّريحَ بسُخريتِكم من اللهِ تعالى ورسولِه ﷺ بعدَما أَسْلمتُم ظاهريًّا فقطْ، ومن هنا فإنّ الذين يتوبونَ منكم من النِّفاق إلى اللهِ تعالى ويُسلِمُ بحقٍّ، سنَعفُو عنهم، أمّا الذين يُصِرُّونَ على نفاقِهم وكُفرِهم فسنَبْتليهِم بعذابٍ أليم لأنّهم مجرمون.

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

---

(١) تفسير القرطبي.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

٥٠- طبيعةُ المنافِقِ وما يقومُ به لا يختلفُ من رجُلٍ أو امرأة، فهو يحبُّ المنكَر، ومن عاداتِه الفِرارُ من الإنفاقِ في سبيل الله، وكأنَّه نسِيَ اللهَ تعالى ونسِيَ حسابَه تمامًا، وكما أنه نسِيَ أحكامَ الله تعالى في هذه الدنيا، فسيحرِمُه اللهُ تعالىٰ يومَ القيامة من رحمتِه وكرَمِه على سبيل العقابِ له، وسوف يُخلَّدُ في نارِ جهنَّمَ يحترقُ بها.

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾

٥١- أيُّها المنافقون، إنّكم مِثلُ الكفّارِ في الأزمِنة السابقة، فقد كانوا يترُكونَ تعاليمَ أنبيائهم الكرام عليهمُ السَّلام، ويستغرِقونَ في مَلذَّاتِهم الدُّنيويّة، ولهذا ضاعَتْ أعمالُهم سُدًى، وأنتم كذلك تركتُم الهدايةَ واستغرقتُم في ملَذّاتِ الدُّنيا، ولهذا فإنّ أعمالَكم أيضًا ستضيعُ سُدًى بسببِ عَدَم إيمانِكم، ولقد كان الكفّارُ

من قَبْلِكم أكثرَ منكم قوّةً ومالًا وثروةً، ومعَ ذلك لم يستطيعوا الإفلاتَ من اللهِ تعالى، أمّا أنتم فأكثرُ ضعفًا مقارنةً بهم، فكيف تُفلِتُونَ من قَبْضةِ الله تعالى؟ ولا يزالُ لديْكُم وقتٌ حتّى اليوم، فتُوبوا إلى الله توبةً نَصُوحًا وأَسْلموا لله، وإلّا فإنّ صلاتكم الظاهريّةَ هذه وحسَناتِكم ستضيعُ سُدًى.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

٥٢ـ الأُممُ التي عادت أنبياءها الكرامَ عليهم السَّلام قبلَ نبيِّنا ﷺ وظَلَمت أنفُسَها بذلك، جاء ذِكرُ ستّةٍ منهم في هذه الآية:

١ـ قومُ نوحٍ عليه السَّلام: كانوا يقطُنونَ العراق، وقد أَغْرقَهم اللهُ تعالى في الماء: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

٢ـ قومُ عاد: وهم الذين أُرسِلَ إليهم سيّدُنا هودٌ عليه السّلام، وكانوا يعيشونَ في اليمن، وأهلَكَهم اللهُ بالعاصفة: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢].

٣ـ قومُ ثَمُود: وهم الذين أُرسِل إليهم سيّدُنا صالحٌ عليه السّلام، وكانوا يقطُنونَ ما بينَ الحجازِ والشام، وقد دمَّرهم اللهُ بالزِّلزالِ: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

٤ـ قومُ إبراهيمَ عليه السَّلام: وكانوا يقطُنونَ مدينةَ بابِلَ بالعراق، وسَلَّط اللهُ تعالى البعوضَ على مخِّه، وأهلَكَ قومَه بحِرمانِهم من النِّعم(١).

---

(١) «قوم إبراهيم أهلكهم الله بسبب سلب النّعمة عنهم، وممّا روي في الأخبار أنّه تعالى سلّط البعوضة على دماغ نمروذ». التفسير الكبير.

٥ـ أصحابُ مَدْيَن: وهم قومُ سيّدِنا شُعَيْبٍ عليه السَّلام، وكانوا يعيشونَ في الجنوبِ الشرقيِّ لجَبَلِ الطُّور بمحاذاةِ البحرِ الأحمر، وقد أهلَكَهم زِلزالٌ شديد: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢].

٦ـ قومُ لوطٍ عليه السَّلام: وكانوا يعيشونَ في جنوبِ الشام، وأمطَرَهم اللهُ تعالى بالحجارةِ فانقَلَبت بهم الأرضُ وأهلَكَهم اللهُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

هؤلاء الأقوامُ جاءهم أنبياؤهم عليهم السَّلامُ بالمُعجِزاتِ الواضحة، لكنَّهم رَفَضوا الإيمانَ حتى بعدَ أن رأَوا المعجِزات، فأَنْزلَ اللهُ عليهم العذابَ عقابًا لهم في الدنيا، ويومَ القيامة لهم عذابٌ عظيم.

وكانت هذه الأقوامُ تعيشُ بالقُرب من الجزيرةِ العربيَّة، وكان العربُ من أهل الجزيرةِ العربيَّة يمُرُّونَ في طريقِهم للتِّجارةِ بمُدُنِهم وقُراهمُ المدمَّرة، ويَروْنَ مساكنَهم المهجورةَ، كما أنّ قَصَصَ وحكاياتِ هلاكِ هؤلاء الأقوام ومُدنِهم كانت مشهورةً لدى العربِ أيضًا.

وفي هذه الآية نبَّه اللهُ تعالى منافقي العربِ بأنّ عليهم أن يَعتبِروا من تلك الأحداث، وألّا يَظلِموا أنفُسَهم باستدعاءِ عذابِ الله تعالى، وإنِ استمرُّوا في عدائهم لرسولِ الله ﷺ، فإنّ مصيرَهم سيكونُ جهنَّمَ، مِثلَ الأُمم السابقة.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

٥٣ـ رضا اللهِ تعالى أكبرُ نعمةٍ منه، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواهُ سيِّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي اللهُ عنه: «**إنّ اللهَ يقولُ لأهل الجنّة: يا أهلَ الجنّة، فيقولونَ: لَبّيْكَ**

ربَّنا وسَعْدَيْك والخيرُ في يَدْيك، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نَرضَى يا ربِّ وقد أعطَيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلْقِك. فيقولُ: ألا أُعطيكم أفضَلَ من ذلك؟ فيقولون: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضَلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخَطُ عليكم بعدَه أبدًا»[1]. وقال سيّدُنا الحَسَنُ البصريُّ رضي اللهُ عنه: «**وَصَل إلى قلوبِهم برضوانِ الله من اللَّذّةِ والسُّرور ما هو ألذُّ عندَهم وأقرُّ لأَعيُنِهم من كلِّ شيءٍ أصابوه من لذّةِ الجنّة**»[2]. ورَغْمَ أنّ كلَّ سعادةٍ وفلاح، سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، إنما هو مَظهَرٌ من مظاهرِ رضا الله تعالى، ولكنّ مَظهرَهُ الكاملَ هو رؤيةُ جمالِ الأزل، مثلَما جاء في هذا الحديثِ الشّريف: **عن جريرٍ، قال: كنّا عندَ النّبيّ ﷺ فنظَر إلى القمرِ ليلةً ـ يعني: البدرَ ـ فقال: «إنّكم ستَرَوْنَ ربَّكم (أي: في الجنّة) كما تَرَوْنَ هذا القمرَ لا تُضامُّونَ في رؤيتِه»**[3]. ـ كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**فيُكشَفُ الحِجابُ، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَر إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ**»[4].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٨.

(٢) تفسير البحر المحيط.

(٣) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ١٦.

(٤) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٠.

سِرَّهُمْ وَنَجْوَنهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾

٥٤- كان النبيُّ ﷺ يتسامحُ معَ المنافقينَ كثيرًا برَغْم تآمُرِهم المستمرِّ ضدَّه، ولم يؤاخِذْهم حتى على عَدَم مشاركتِهم في الغَزَواتِ والحروب، بل كان يَقبَلُ أعذارَهم؛ لأنّ قوةَ المسلمينَ حتى ذلك الوقتِ لم تكنْ بالصُّورةِ التي تمكِّنُهم من مواجهةِ الأعداءِ الخارجيِّينَ والداخليِّينَ في وقتٍ واحد، ولكنْ في السَّنةِ التاسعة من الهجرة، حين رَفْرَفَتْ رايةُ الإسلام على شبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ كلِّها، وبدَأتْ سلسلةٌ من الصِّراع والحروبِ معَ القُوى الخارجيَّة، كان لا بدَّ من سَحْق رؤوسِ هؤلاءِ الثَّعابينِ الكامنة المترصِّدة، وذلك حتّى لا يتمكّنَ هؤلاءِ من التآمُرِ معَ القُوى الخارجيَّةِ ويُشعِلوا نيرانَ فتنةٍ جديدةٍ في الدَّولةِ الإسلاميَّة، ولهذا قال اللهُ تعالى: أنْ يا أيُّها النبيُّ الحبيب، إنّ مصيرَ المنافقينَ في الآخِرة هو جهنَّمُ، ولكنّ عليكَ أن تُجاهدَهم في الدّنيا أيضًا، وأن تشُدَّ عليهم، والمرادُ بجهادِ المنافقينَ هنا ليس القتالَ، وإنّما: أمرٌ منَ الله تعالى باتِّخاذِ موقفٍ حازم من مؤامَراتِهم[1]؛ لأن المنافقينَ لم يُقدِّروا تسعَ سنواتٍ من اللِّين والتسامُح، ولهذا بعدَ أن عاد النبيُّ ﷺ من غزوةِ تَبُوكَ أمَرَ بهَدْم مسجدٍ ضِرارٍ للمنافقين، حتّى لا ينشُروا الفُرقةَ بينَ المسلمين.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾

٥٥- نَقَل المفسِّرونَ واقعاتٍ عديدةً في تفسيرِ هذه الآية، والتي أساء فيها

(١) «وقال ابن عبّاسٍ: أمر بالجهاد مع الكفّار بالسّيف، ومع المنافقين باللّسان وشدّة الزّجر والتّغليظ».

المنافقونَ إلى رسولِ الله ﷺ بالقول، ولكنْ حين استفسَرَ النبيُّ ﷺ عن ذلك أنكَروا أنّهم قالوا شيئًا، بل وأَقْسَموا باللهِ أنّهم لم يتفوَّهوا بمِثلِ هذه الكلماتِ المُسيئة، وعليه أَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيَةَ تصديقًا على أنّ المنافقينَ حقيقةً قالوا الكلماتِ المُسيئة، وهم منذُ البداية بسببِ نفاقِهم مسلمونَ بالاسم فقطْ، لكنَّهم في الحقيقةِ كفّارٌ، والآنَ ظَهرَ كُفرُهم بإساءتِهمُ القولَ في حقِّ النبيِّ ﷺ.

ويُعلَمُ من هذا أنّ إهانةَ النبيِّ ﷺ والإساءةَ إليه كُفرٌ، ويَكفُرُ من يُسيءُ إليه ﷺ ولا يبقَى مسلمًا. قال الإمامُ أبويوسُف: «**وأيُّما رجُل مسلم سبَّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم أو كذَّبه أو عابَه أو تنقَّصَه فقد كَفَر بالله**»[1].

﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾

٥٦ـ عند عودةِ النبيِّ ﷺ من تَـبُوكَ خَطَّط خمسةَ عشَرَ رجُلًا من المنافقينَ لقتلِه ﷺ وكَمَنوا له، ولكنّ سيّدَنا حُذيفةَ وسيّدَنا عمّارًا رضيَ اللهُ عنهما ـ وكانا مكلَّفَيْنِ بحراسةِ النبيِّ ﷺ ـ رَأَيا هؤلاءِ الملثَّمينَ وهم قادمون، فهدَّدوهم ممّا جَعَلَهم يعودونَ من حيثُ جاءوا هارِبينَ[2]، ولم يَنجَحوا في تنفيذِ نواياهُم الخبيثة.

في الآيةِ السّابقة قال اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ أنِ اشْدُدْ على المنافقينَ واغلُظْ عليهم، وفي هذه الآيةِ قال له: إنّ المنافقينَ بإساءتِهمُ القولَ لكَ أصبحوا كافرينَ في الظاهرِ أيضًا، كما أنّهم تآمَروا على قَتْل النبيِّ ﷺ كذلك، وفَشِلوا فيما خَطَّطوا.

وهاتانِ الآيتانِ بمثابةِ اللَّمحةِ الفِكْريّة لأولئك الذين يتَّهمونَ سيّدَنا أبا بكرٍ

---

(١) كتاب الخراج، الإمام أبويوسف، ١٩٩.

(٢) «نزلت في خمسة عشر همّوا بقتله وتوافقوا على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذ تسنّم العقبة، فأخذ عمّار بن ياسرٍ بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقعة السّلاح، فالتفت فإذا قوم متلثّمون فقال: إليكم يا أعداء الله فهربوا». تفسير البحر المحيط.

وسيّدَنا عُمرَ رضي اللهُ عنهما بالنِّفاق والعياذُ بالله، ولو كان فيهما نفاقٌ لَأغلَظَ النبيُّ ﷺ عليهما وأعلَن كُفرَهما، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ هذَيْنِ السيِّدَيْنِ كانا أقربَ الناسِ إلى رسولِ الله ﷺ ووزيرَيْه ومُشيرَيْهِ الموثوقِ بهما، وتقديرًا لخدماتِهما المخلصةِ لقَّبَ النبيُّ ﷺ أحدَهما بالصِّدِّيق، والآخَرَ بالفاروق، وقد حقَّق هذانِ الصحابيّانِ الكريمانِ رضي اللهُ عنهما نجاحاتٍ عظيمةً في نَشْر الإسلام بعدَ انتقالِ النبيِّ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى، أمّا المنافقون فقد فَشِلوا في القضاءِ على الإسلام.

قال رسولُ الله ﷺ: «**ما من نبيٍّ إلّا وله وزيرانِ من أهلِ السَّماء ووزيرانِ من أهلِ الأرض، فأمّا وزيرايَ من أهلِ السَّماء فجِبريلُ وميكائيل، وأمّا وزيرايَ من أهلِ الأرض فأبو بكرٍ وعُمر**»[1].

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾

٥٧- كان منافقو المدينةِ فقراءَ أيضًا مِثلَ الأنصار، وبعدَ هجرةِ النبيِّ ﷺ أصبحتِ المدينةُ مركَزًا هامًّا، وبدَأَ الناسُ يَفِدونَ إليها من كلِّ الأرجاءِ بأعدادٍ كبيرة، وهو ما رَفَع مستوى التِّجارة لدى أهل المدينة، وفي نفسِ الوقت بسببِ أموالِ الغنائم أصبحَ المنافقونَ أيضًا أغنياءَ مِثلَ المسلمين، وطبعًا كانوا يحصُلونَ على نصيبٍ من أموالِ الغنائم باعتبارِ أنّهم مسلمون، فكان يجبُ على المنافقينَ أن يكونوا ممتَنّينَ لقدومِ النبيِّ ﷺ إلى المدينةِ ويشكروهُ على ذلك، لكنَّهم جاحِدون، واتَّخَذوا موقفَ العِداءِ من رسولِ الله ﷺ. والآنَ إنْ أَسْلموا بعدَ كلِّ هذا فسوف يتفضَّلُ اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ عليهم بقَبولِ توبتِهم، أمّا إن لم يتوبوا فلن يُفلِتوا من العذابِ الأليم.

---

(١) كنز العمال، ١١: ٥٦٠ برقم ٣٢٦٤.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

٥٨- جاء بعضُ المنافقينَ الفقراءُ إلى النبيِّ ﷺ وطَلَبوا منه أن يدعوَ اللهَ لهم بأن يُنعِمَ عليهم بالمالِ والثَّروة، وعاهَدوهُ أنّهم حينَئذٍ سيتصدَّقونَ من هذا المالِ كثيرًا، ولكنْ حينَ أَنْعم اللهُ عليهم بالمالِ والثَّروة بَخِلوا، وخالَفوا ما قَطَعوه على أنفسِهم من وعودٍ وعهود.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾

٥٩- قال رسولُ الله ﷺ فيما رَواه سيّدُنا أبوهريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «**إنّ العبدَ إذا أخطأَ خطيئةً نَكَتت في قلبِه نُكتةٌ سوداءُ، فإذا هو نَزَع واستغفرَ وتابَ سُقِل قلبُه، وإن عادَ زِيدَ فيها حتّى تَعلُوَ قلبَه**»[1]، ثم تنتهي من هذا القلبِ إمكانيةُ قَبولِ الهداية، وهكذا عوَّدَ المنافقونَ قلوبَهم على النِّفاقِ بكثرةِ نَقْضِهم للعهودِ وكذبِهم على الله إلى درجةِ أنّهم لم يَستطيعوا التخلُّصَ من النِّفاق حتى موتِهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

٦٠- ذاتَ مرّة دَعَا النبيُّ ﷺ في إحدى خُطَبِه إلى التبرُّع، فتسابَقَ الصَّحابةُ الكرامُ إلى ذلك، وحين تبرَّع أغنياءُ الصّحابةِ بأموالٍ كثيرةٍ «**قال المنافقونَ على وَجْهِ الطَّعن: ما جاءوا بصَدَقاتِهم إلّا رياءً وسُمعةً. وأمّا أبوعَقيل فإنّما جاء بصاعِه ليُذكَرَ معَ سائرِ الأكابر، واللهُ غنيٌّ عن صاعِه، فأَنْزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ**»[2].

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، باب ٨٣ برقم ٣٣٣٤.

(٢) التفسير المنير.

وباختصار: سواءٌ تبرَّع أحدٌ بالقليل أم بالكثير، فإنّ المنافقينَ يلُومُونَ الاثنَيْنِ، وسوف يُصْليهم اللهُ تعالى في الآخِرة نارَ جهنَّم عقابًا لهم على هذا اللَّوم والافتراء، معَ أنّهم في هذهِ الدُّنيا أيضًا يعيشونَ في حالةٍ من القلقِ المستمرِّ خوفًا من أن ينكشفَ سرُّ نفاقِهم.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

٦١- يعني: أنّ المنافقَ الذي يتوبُ ويصبحُ مسلمًا صالحًا سيغفرُ اللهُ له، ولكنّ المنافقَ الذي يُصِرُّ على كُفرِه وإنكارِ وجودِ الله تعالى ورسولِه ﷺ حتى نهايةِ عُمرِه، فإنّ اللهَ تعالى لن يغفرَ له، حتى وإن ظَلَلْتَ تدعو له بالمغفرة، ولم يكنِ الدُّعاءُ بالمغفرةِ للمنافقينَ حتى ذلك الوقتِ ممنوعًا، ثم مُنِعت صلاةُ الجَنازةِ عليهم وزيارةُ قبورِهم في الآية رقم ٨٤.

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴾

٦٢ـ كرِهَ المنافقونَ الجهادَ في سَبيلِ الله، واختَلَقوا أعذارًا كاذبةً، واستَأْذَنوا في عَدَم الذَّهابِ معَ جيشِ تَبُوك، واعتَبروا ذلك نَجاحًا حقَّقوه، وفَرِحوا كثيرًا بأنّهم خَدَعوا رسولَ الله ﷺ وأفْلَتوا من الحربِ ومصاعبِ حرارةِ الطَّقس، كما أنَّهم كانوا يُحرِّضونَ الآخَرينَ على عَدَم الذّهابِ إلى تَبُوكَ قائلينَ لهم: إنّ الحرَّ شديدٌ، والسَّفَرَ طويلٌ، وسوف يُصيبُكم التعبُ الشَّديد، وعليه أعلَنَ النبيُّ ﷺ بأمرِ الله تعالى أنّ المنافقينَ غايةٌ في الجَهْل؛ لأنّ نارَ جهنَّم التي استحَقُّوها بسببِ رفضِهم الجهادَ أكثرُ حرًّا منَ الدّنيا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيّدُنا أبوهريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «نارُكم جزءٌ من سبعينَ جُزءًا من نارِ جهنّم»، قيل: يا رسولَ الله، إنْ كانت لَكافيةً. قال: «فُضّلت عليهِنَّ بتسعةٍ وستّينَ جُزءًا، كلُّهنّ مثلُ حرِّها»[1].

﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾

٦٣ـ قال رسولُ الله ﷺ فيما رواهُ سيّدُنا أبوهريرةَ رضي اللهُ عنه: «لو تعلَمونَ ما أعلَمُ لَضحِكتُم قليلًا ولَبكَيْتُم كثيرًا»[2].

فَرِح المنافقونَ كثيرًا لعَدَم مشاركتِهم في جيشِ تَبُوك، لكنّ أيامَ سعادتِهم هذه كانت قليلةً للغاية، وبعدَ الموتِ سيبكونُ كثيرًا؛ لأنّ مصيرَهم جهنَّمُ بسببِ رَفْضِهم الجهادَ، وقد قال سيّدُنا ابنُ عبّاسٍ رضي اللهُ عنه في تفسيرِ هذه الآية: ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا ﴾ قال: الدّنيا قليلٌ، فلْيضحكوا فيها ما شاءوا ولْيبكوا كثيرًا، فإذا

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ١٠.

(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٩، برقم ٢٣١٣.

انقَطَعتِ الدُّنيا وصاروا إلى الله، استَأْنفوا بكاءً لا ينقطعُ أبدًا»[١]، كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**يا أيّها النّاس، ابكوا، فإنْ لم تبكُوا فتباكَوْا، فإنّ أهلَ النّارِ يبكُونَ في النّارِ حتّى تسيلَ دموعُهم في خدودِهم كأنّها جداولُ حتّى تنقطعَ الدُّموعُ فيسيلُ، يعني: الدَّم، فتفرج العيون**»[٢].

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾

٦٤ـ أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، حين تعودُ من تَبُوكَ إلى المدينةِ المنوَّرة، ويأتيكَ المنافقونَ الذين اعتَذَروا عن عَدَم المشاركةِ في جيشِ تَبُوك لِيستأذنُوكَ في المشاركةِ في أيِّ غزوةٍ مستقبَلًا، فأعلِنْ لهم بوضوح أنّكم لن تشاركوا معي في أيِّ حربٍ أو غزوةٍ قادمة؛ لأنّكم أظهَرْتُم نفاقَكم بعَدَم مشاركتِكم في جيشِ تَبُوك، ولهذا اجلِسوا في بيوتِكم مثلَ النِّساء والمعاقِين، والحقيقةُ أنّ مشاركةَ المنافقينَ في الحروبِ لن تخلوَ من مخاطرة.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾

٦٥ـ نَقَل العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي روايةَ سيّدِنا ابن عبّاس رضي اللهُ عنه هذه: **عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، أنّه لمَّا اشتكَى عبدُ الله بنُ أُبيٍّ بن سَلُول عادَه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، فطَلَبَ منه أن يُصلّيَ عليه إذا مات ويقومَ على قبرِه، ثمّ إنّه أرسَل إلى الرّسولِ عليه الصّلاةُ والسّلامُ يطلُبُ منه قميصَه لُيكفَّنَ فيه، فأرسَلَ إليه القميصَ الفَوْقانيَّ فرَدَّه وطلَبَ الّذي يلي جِلدَه ليُكفَّنَ فيه، فقال عُمرُ رضي الله عنه: لمَ تُعطي قميصَك الرّجسَ النّجِس؟ فقال عليه الصّلاةُ والسّلام:**

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم.

(٢) مجمع الزوائد، ١٠: ٣٩١.

«إنّ قميصي لا يُغني عنه من الله شيئًا فلعلّ الله أن يُدخِلَ به ألفًا في الإسلام»، وكان المنافقونَ لا يفارقونَ عبدَ الله، فلمّا رأَوْه يطلُبُ هذا القميصَ ويَرجو أن ينفَعَه، أَسْلم منهم يومَئذٍ ألفٌ[١].

وحينَ حضَرتِ الوفاةُ عبدَ الله بن أُبَيٍّ أعطاهُ النبيُّ ﷺ قميصَه ليُكفَّنَ فيه، ثم صَلّى النبيُّ ﷺ صلاةَ الجَنازةِ عليه، ومشَى في جَنازته، وذَهبَ حتى قبره، وما أنْ عاد من عندِ القبرِ **«حتّى نَزَلت هاتانِ الآيتانِ:** ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾، **فما صَلّى رسولُ الله ﷺ بعدَه على منافق، ولا قام على قبرِه حتى قَبَضَه الله»**[٢].

ويُعلَمُ من الآية ٨٠ أنّ اللهَ تعالى لن يغفرَ للمنافقينَ حتّى وإن دعا النبيُّ ﷺ لهم بالمغفرة، وإذًا لماذا صَلّى النبيُّ ﷺ صلاةَ الجَنازةِ على سيِّدِهم عبدِ الله بن أُبَيٍّ، معَ أنّ صلاةَ الجَنازةِ بها دعاءٌ للمغفرة؟ وقد أجابَ أهل العلم عن ذلك بأنّ الهدفَ من صلاةِ الجَنازةِ لم يكن الحُصولَ له على المغفرة؛ لأنّ الشَّفاعةَ لا تُفيدُ المنافقينَ بشيء، وإنّما كان الهدفُ إسلامَ ألفٍ من المنافقينَ مثلَما وضَّح النبيُّ ﷺ ذلك بنفسِه، فقال: **«إنّ قميصي لا يُغني عنه من اللهِ شيئًا فلعلّ الله أن يُدخِلَ به ألفًا في الإسلام، وكان المنافقونَ لا يفارقونَ عبدَ الله، فلمّا رأَوْه يطلُبُ هذا القميصَ ويرجو أن يَنفَعَه، أَسْلم منهم يومَئذٍ ألفٌ»**[٣]، كما أنّ الحُكمَ بعَدَم صلاةِ الجَنازةِ على المنافقينَ لم يكنْ قد نَزَل حتى ذلك الوقت.

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

٦٦ـ راجع في تفسيرِ هذه الآية الحاشيةَ رقم ٤١ للآية رقم ٥٥ من هذه السُّورة.

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري.

(٣) التفسير الكبير.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾

٦٧ـ كلَّما نَزَلت آيةٌ بها حُكمٌ من الله تعالى بأنْ آمِنوا إيمانًا خالصًا به، وجاهِدوا معَ رسولِه ﷺ، فإنّ بعضَ المنافقينَ ممَّن يتمتَّعونَ بصحةٍ جيِّدة، ولديهِم أموالٌ وثَرواتٌ، كانوا يختلقونَ الأعذارَ الواهيةَ لكي لا يُشاركوا في الجهاد، ويفضِّلونَ عليه الجلوسَ في البيوتِ كالنِّساءِ والمعاقين! ولأنّهم فَضَّلوا مخالفةَ أمرِ الجهاد، لهذا ـ عقابًا لهم على هذا ـ طَبَع اللهُ على قلوبِهم بحيث لا يَميزونَ بينَ ما فيه نَفْعٌ لهم وما فيه خسارتُهم.

وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ

ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٌ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾

٦٨ـ مثلَما كان هناك مسلمونَ مخلِصونَ من أهلِ المدينة، كان هناك مؤمنونَ صادقونَ أيضًا في القُرى المحيطةِ بالمدينة، وهم الذين سيأتي ذِكرُهم في الآيةِ رقم ٩٩، لكنْ كان هناك منافقونَ يعيشونَ في هذه القُرى أيضًا، ومن بيْنِ هؤلاءِ بعضُ المنافقينَ الذين كانوا يختلقونَ الأعذارَ الكاذبةَ حتى يؤْذَنَ لهم في التخلُّفِ عن الجهاد، وبعضُ المنافقينَ لم يهتمَّ باختلاقِ الأعذار، ولم يشاركْ في الجهاد، وهؤلاءِ هم الذين ادَّعَوا ـ كذبًا ـ أنّهم آمَنوا بالله تعالى وبرسولِه ﷺ، والحقيقةُ أنّ هؤلاء كانوا كفّارًا، ومن سيبقى من المنافقينَ على كُفرِه حتى آخِرِ عمُرِه سيكونُ لهم في الآخِرة عذابٌ عظيم، أمّا الذين يتوبونَ صادقينَ فلا يشمَلُهم هذا الوعيدُ.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾

٦٩ـ يعني: أنّ الضُّعفاءَ والمرضَى أو الذين لا يملِكونَ نفَقاتِ الجهاد، لكنّهم مخلِصونَ معَ الله تعالى ورسولِه ﷺ، ليس على هؤلاءِ الطيِّبينَ ذنبٌ إن لم يتمكّنوا من المشاركةِ في الجهاد.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾

٧٠ـ كما أنه ليس هناك ذنبٌ على أولئك الذين لم يستطيعوا المشاركةَ في الجهادِ بسببِ عَدَم وجودِ ما يركَبون، لأنّ تَبُوكَ بعيدةٌ جدًّا، والسَّفرُ بغير مركَبٍ كان طويلًا للغاية.

ويُعلَمُ من هذا أنّ من يَنوي المشاركةَ في عمَلٍ صالح، ولكنّه لا يستطيعُ لعُذرٍ

حقيقيٍّ، وبالفعلِ يحزَنُ كثيرًا على عدَم استطاعتِه المشاركةَ، فإنّ أمثالَ هذا الصالح يجدُ ثوابَ المشاركة في هذا العمَل الصّالح وهو جالسٌ في بيتِه، مثلَما قال النبيُّ ﷺ عند عودتِه من تَبُوكَ فيما رَواه سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: «**إنّ بالمدينةِ لَقومًا ما سِرتُم من مَسِيرٍ ولا قطعتُم واديًا إلّا كانوا معَكم فيه**»، **قالوا: يا رسولَ الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبَسَهمُ العُذرُ»**[1].

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٧١- راجع في تفسير هذه الآية الحاشيةَ رقم ٦٧.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾

٧٢- عندَ العودةِ من تَبُوكَ أخبَرَ اللهُ تعالى المسلمينَ عن طريقِ الوَحْي، أنه حين تَصِلُونَ إلى المدينةِ المنوَّرة سيأتيكمُ المنافقونَ مختَلِقينَ الأعذارَ عن عَدَم مشاركتِهم في جيشِ تَبُوك، ولكنّ عليكم أن تقولوا لهم بشكلٍ واضح: إنه لا حاجةَ إلى اختلاقِ الأعذارِ الآنَ، فقد أخبَرَنا اللهُ تعالى عن حقيقةِ أمرِكم ونواياكم الخَفيّة، ولذا فإنّنا لا نُصدِّقُ ما تقولون، ومستقبَلًا أيضًا فإنّ اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ يرَوْنَ أحوالَكم، فإن تُبتُم توبةً صادقةً وأسلَمتُم بحقٍّ، فستُغفَرُ ذنوبُكم، وإلّا فإنّ أعذارَكم الكاذبةَ هذه لن تُفيدَكم بشيءٍ، وحين ترجِعونَ إلى اللهِ تعالى يومَ القيامة سيُطلِعُكم على كلِّ ما ارتكبتُم من أعمالٍ سيِّئة.

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

٧٣- عندَ عودتِكم من تَبُوكَ سيأتيكم المنافقونَ في المدينة، وسيُقسِمونَ بالله

(١) ابن ماجه، أبواب الجهاد، باب ٦.

مختلِقينَ الأعذارَ الكاذبةَ حتى تعفُوا عنهم، ولكنْ لا يجبُ أن تهتمُّوا بما يقولونَ وتجنَّبُوهم؛ لأنّهم رِجسٌ ونَجَس، وسيكونُ مصيرُهم جهنَّمَ بسببِ عقائدِهم وأعمالِهم النَّجِسةِ أيضًا.

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

٧٤ـ سيَحلِفُ منافقو المدينةِ بالله لكم محاولينَ إرضاءكم، ولكنْ حتّى وإن صَدَّقتُم هذا الخِداعَ ورضِيتُم بما يقولونَ كذلك، فإنّهم لا يستطيعونَ خِداعَ الله تعالى، ولهذا لن يرضَى اللهُ تعالى عنهم ما لم يتوبوا توبةً صادقةً من الفِسق والنِّفاق.

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾

٧٥ـ كان البدوُ المُقِيمونَ في ضواحي المدينةِ المنوَّرةِ أكثرَ حدّةً في النِّفاق والكُفرِ من أهل المدينة، وأحدُ أسبابِ هذا هو أنّهم لم تُتَحْ لهم الفُرصُ الكافيةُ للذَّهابِ إلى المدينةِ والاستماع إلى القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريفِ بسببِ استقرارِهم في الرِّيف، ولهذا فإنّ عَدَم معرفتِهم بالأحكام الإسلاميَّةِ أمرٌ طبيعيٌّ، والسببُ الثاني في ذلك: أنّ قلوبَهم وطبائعَهم تكونُ قاسيةً نظرًا لبيئة الرِّيفِ القاسيةِ التي يعيشونَ فيها، ولهذا لم يكنْ من السَّهل استمالتُهم نحوَ الدَّعوةِ الجديدة مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**من سَكَن الباديَة جَفَا**»[1]، وتَروي أُمُّ المؤمنينَ السيّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها أنه ذاتَ مرَّةٍ جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ، وقَبَّل النبيُّ ﷺ سيّدَنا الحُسينَ بنَ عليٍّ رضيَ الله عنه أمامَه، فقال الأعرابيُّ: **تُقبِّلونَ الصِّبيانَ؟ فما نُقبِّلُهم. فقال النّبيُّ ﷺ: «أوَ أملِكُ لك أنْ نَزَع اللهُ من قلبِك الرَّحمةَ؟»**[2].

---

(١) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٦٩.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ١٨.

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾

٧٦- بعضُ الأعرابِ كانوا يُنفِقونَ في سبيلِ الله بغَرَض إخفاءِ حقيقةِ نفاقِهم، لكنَّهم كانوا يعتبرونَها مَغْرَمًا (ضريبةً)، ويظَلُّونَ في انتظارِ اليوم الذي يحيطُ البلاءُ بالمسلمينَ فيضعُفونَ ويصبحونَ أذِلّاءَ، وعندَئذٍ يتخلَّصونَ من هذا المَغْرَم، ولكنْ أنَّى لهم أن يَعرِفوا أنّ المصيبةَ قادمةٌ فعلًا ولكنْ عليهم هم؛ لأنّ الإسلامَ منتصرٌ والمنافقون أذِلّاء.

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾

٧٧- يعني: أنّ الأعرابَ ليسوا على حالٍ واحدة، فمنهم السُّعداءُ الذين يؤمنونَ باللهِ واليوم الآخِرِ إيمانًا صادقًا، ولا ينظُرونَ إلى ما يُنفِقونَ في سَبيل الله على أنه مَغْرَم، وإنّما وسيلةٌ للقُربِ من الله تعالى والفَوْز بدُعاءِ النبيِّ ﷺ لهم؛ لأنّ النبيَّ ﷺ كان يدعو بالخيرِ والبركةِ لمَن يتصَدَّقُ في سَبيل الله، ودعاءُ النبيِّ ﷺ وسيلةٌ للقُربِ من الله تعالى مثلَما يقولُ العلّامةُ الألُوسيُّ: «**لأنّها الغايةُ القُصوى، وصلواتُ الرُّسول صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم من ذرائعِها**»[1].

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ

---

(١) تفسير روح المعاني.

لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾

٧٨ـ في هذه الآيةِ الكريمة بشَّر اللهُ تعالى طائفتَيْنِ من المسلمينَ بالجنّةِ وبرضاه:

١ـ الصَّحابةُ الكرامُ رضي اللهُ عنهم: إذْ «إنه تعالى أوجَبَ لجميع أصحابِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم الجنّةَ والرِّضوان»[1]، **والله تعالى راضٍ عن الصَّحابة**، ليس هذا فقطْ، وإنّما جَعَل إيمانَهم وأعمالَهم الصّالحةَ مِقياسًا ومعيارًا للمسلمينَ من بعدِهم.

٢ـ المسلمونَ الآخِرون: بشَّر اللهُ تعالى المسلمينَ من بعدِ الصَّحابة بالجنّة وبرضاهُ أيضًا، «وشَرَطَ على التابِعينَ شرطًا، قلت: وما ذلك الشَّرطُ؟ قال: شَرَطَ عليهم أن يتَّبِعوهم بإحسانٍ، وهو: أن يقتدُوا بهم في أعمالِهم الحسَنة، وأنْ لا

(١) تفسير روح المعاني.

يقولوا فيهم سُوءًا، وأن لا يوجِّهوا الطَّعنَ فيما أَقْدَموا عليه»[١]؟

تعريف الصّحابيّ:

الصَّحابيُّ يقالُ لذلك: الإنسانِ السَّعيدِ الذي نَعُم بفَيْض صُحبةِ نبيٍّ آخِرِ الزّمان سيّدِنا محمَّدٍ ﷺ وزيارتِـه وهو على الإيمان، ثم ظَلَّ مستقيمًا على إيمانِه، وواتَتْه منيَّتُه وهو على الإيمانِ أيضًا.

وأفضَلُ الناسِ في أُمّةِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ ـ كما قال الإمامُ الشافعيُّ رحمَه الله ـ: **«أجمَعَ الصّحابةُ وأتباعُهم على أفضَليّةِ أبي بكرٍ ثم عُمرَ ثم عُثمانَ ثم عليٍّ رضيَ اللهُ عنهم أجمعين»[٢].**

فضلُ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم:

قال النبيُّ ﷺ:

١ـ «أكرِموا أصحابي فإنّهم خِيارُكم»[٣].

٢ـ «لا تمَسُّ النّارُ مسلمًا رآني أو رأى مَن رآني»[٤].

٣ـ «إذا رأيتُم الّذين يسُبُّونَ أصحابي فقولوا: لعنةُ الله على شرِّكم»[٥].

٤ـ «لا تسُبُّوا أصحابي، فلو أنّ أحَدكم أنفقَ مِثلَ أحُدٍ ذهبًا ما بَلَغَ مدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»[٦].

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) فتح الباري، ٧: ١٧.

(٣) المشكاة، باب مناقب الصحابة، الفصل الثاني.

(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٧ برقم ٣٨٥٨.

(٥) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦٠ برقم ٣٨٦٦.

(٦) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٥.

٥ـ «أصحابي كالنُّجوم، فبأيِّهمُ اقتَدَيتُم اهتَدَيتُم»[(١)].

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾

٧٩ـ في الآياتِ السّابقة جاء ذِكرُ أولئك المنافقينَ الذين ظَهَر نِفاقُهم من أقوالِهم وأفعالِهم، وفي هذه الآية ذِكرٌ لأولئك المنافقينَ المحترِفينَ! الذين لم يكنِ النبيُّ ﷺ يَعلَمُ بنفاقِهم بعدُ، لكنّ اللهَ تعالى أَطْلع نبيَّه ﷺ على نفاقِهم بعدَ ذلك، وسوف يُواجهُ هؤلاءِ المنافقونَ المخادِعونَ نوعَيْنِ من العذابِ قبلَ العذابِ الشَّديد يومَ القيامة، وأحدُ هذَيْنِ العذابَيْنِ هو: محاولتُهم المستمرَّةُ في هذه الدُّنيا من أَجْلِ إخفاءِ نفاقِهم، والعملُ بالإسلام رَغْم بُغضِهم الشَّديدِ له، وهو عذابٌ ليس بالسَّهل ولا القليل، فقد أعلَن النبيُّ ﷺ أسماءَ هؤلاءِ في خُطبةٍ من خُطَبِ الجمُعة، وطَرَدهم من المسجد. أمّا العذابُ الثاني فهو عذابُ القبرِ الذي سيُصيبُهم قبلَ العذابِ العظيم يومَ القيامة، وقد نَقَل معظَمُ المفسِّرين الحديثَ التاليَ في تفسيرِ هذه الآية:

عن ابن عبّاس، قال: قام رسولُ الله ﷺ خطيبًا يومَ الجُمعة، فقال: «اخرُجْ يا فلان، فإنّك منافق. اخرُجْ، يا فلان، فإنّك منافق». فأَخرَجَ من المسجدِ ناسًا منهم، فَضَحَهم. فلقِيَهم عُمرُ وهم يَخرُجونَ من المسجد، فاختَبأ منهم حياءً، أنه لم يشهَد الجمُعةَ، وظنّ أنّ الناسَ قدِ انصَرفوا، واختَبأوا هم من عُمر، وظنُّوا أنه قد عَلِم بأمرِهم. فجاء عُمرُ فدَخَل المسجدَ، فإذا الناسُ لم يُصَلُّوا، فقال له رجلٌ من المسلمين: أبشِرْ يا عُمر، فقد فَضَح اللهُ المنافقينَ اليوم[(٢)]! وقد أعلَن النبيُّ ﷺ في ذلك اليوم أسماءَ ستّةٍ وثلاثينَ منافقًا وطَرَدَهم من المسجد[(٣)].

---

(١) المشكاة، مناقب الصحابة، الفصل الثالث.

(٢) تفسير ابن جرير.

(٣) «أنه صلى الله عليه وآله وسلم أقام في ذلك اليوم وهو على المنبر ستة وثلاثين رجلاً». تفسير روح المعاني.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾

٨٠ - لم يشتركِ المنافقونَ في جيشِ تَـبُوكَ عن عَمْد، واختَلقوا الأعذارَ الكاذبةَ لذلك، ولكنْ كان هناك عشَرةٌ من المسلمينَ لم يُشاركوا في جيشِ تَبُوكَ تكاسُلًا وتهاونًا ليس إلّا، معَ أنّهم شارَكوا فيما سَبَق من الجهاد، وساهَموا في الأعمالِ الخَيْريّة، ولكنْ في هذه المرَّةِ ارتكَبوا أمرًا سيِّئًا بعَدَم مشاركتِهم في جيشِ تَبُوك، وحينَ وَصَل النبيُّ ﷺ عائدًا إلى المدينةِ المنوَّرة من تَـبُوكَ نَدِم سبعةٌ منهم غايةَ النَّدم على ما فَعَلوا، وهم: أبو لُبابةَ وستةٌ آخَرون، واعتَرفوا بذَنْبِهم صادقين، ورَبَطوا أنفُسَهم بسَواري المسجد، وأَقْسَموا أن يظَلُّوا هكذا، وألّا يفُكُّوا رِباطَهم ما لم يَعْفُ عنهم رسولُ الله ﷺ ويَفُكَّهم بنفسِه، وهنا قال النبيُّ ﷺ: «**وأنا أُقسمُ بالله لا أُطلِقُهم ولا أَعذِرُهم حتّى أُوْمَرَ بإطلاقِهم، رَغِبوا عنّي وتخَلّفوا عن الغَزْوِ معَ المسلمين**»، «**فأَنْزل الله هذه الآيةَ، فلمّا نَزَلت أرسَلَ إليهم النّبيُّ ﷺ فأطلَقَهم وعَذَرَهم**»[١]. «**وهذه الآيةُ وإن نَزَلت في ناسٍ مخصوصينَ، فهي عامّةٌ في الأُمّةِ إلى يوم القيامة**»[٢].

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾

٨١ - قَبِل اللهُ تعالى توبةَ أبي لُبابَة والستّةِ الآخَرينَ معَه، وحينَ فكَّ رِباطَهم من سَواري المسجد رَجَعوا إلى بيوتِـهم، ثم عادوا بكلِّ ما يملِكونَ من مالٍ ومتاع إلى رسولِ الله ﷺ قائلين: «**هذه أموالُنا التي خَلَّفَتْنا عنك، خُذْها فتصَدَّقْ بها، وطهِّرنا واستغفِرْ لنا**»[٣]، فقال النبيُّ ﷺ: لم أومرْ بقَبولِ أموالِكم. وفي النِّهاية حين نَزَلت هذه الآيةُ قَبِلَ النبيُّ ﷺ ثُلثَ أموالِهم صَدَقةً، وأعاد إليهم الثُّلُثَيْنِ، وربَّما ثَقُلَ عليهم لو لم تُقبَلْ صَدَقاتُهم.

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير البحر المحيط.

(٣) حاشية الصاوي.

وهنا يتبادَرُ إلى الذِّهن سؤالٌ: أنّهم قد تطهَّروا من الذُّنوبِ بقَبُولِ توبتِهم، فما المرادُ بتطهيرِهم بأَخْذِ الصّدَقاتِ منهم؟ وجوابُه هو: أنّ ذنبَهم قد غُفِر بالتَّوبة فعلًا، بمعنى: أنه لن تكونَ هناك مؤاخَذةٌ لهم عليه، ولكنّ هناك بعضَ الطبائع التي تُشعِرُ بثِقْلٍ رُوحيٍّ، وهو أثَرٌ طبيعيٌّ للذَّنب، بمعنى: أنه في بعض الأحيانِ يقولُ المرءُ لنفسِه: ليتَني لم أرتكبْ هذا الذَّنبَ، ولكنْ حين يُقدِّمُ الصَّدقَة يَعتبِرُ أنه أدَّى كفّارةَ الذنبِ أيضًا معَ توبتِه منه، وهكذا تكونُ الصَّدَقةُ سببًا في مزيدٍ من السَّكينةِ لقلبه، وهي تُطهِّرُه كذلك من أثَرِ الذَّنب، ولهذا الغَرَضِ أحضَر سيِّدُنا أبولُبابةَ والستّةُ الآخَرونَ أموالَهم ليقدِّموها صَدَقةً.

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾

٨٢ ـ في هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه الكريمَ ﷺ أن يَدعوَ لمَن يتصَدَّقُ، وهكذا كانت سُنّتُه ﷺ أن يَدعوَ بالخَيْر والبرَكة لِمَن يتصدَّقُ مثلَما قال ابنُ سيِّدِنا أبي أَوْفى رضي الله عنه: **كان إذا أتَى رجلٌ النّبيَّ ﷺ بصَدَقتِه قال: «اللّهُمَّ صلِّ عليه»، فأتاه أبي بصَدَقتِه فقال: «اللّهُمَّ صلِّ على آلِ أبي أَوْفَى»**[١].

ويُعلَمُ منه أنّ النبيَّ ﷺ حتى اليومَ يدعو بالخيرِ والبَركةِ لمَن يتَصدَّقُ إرضاءً لله تعالى.

ودعاءُ النبيِّ ﷺ وسيلةٌ للقُربِ من اللهِ تعالى، مثلَما قال العلّامةُ الألُوسيُّ: «**لأنّها الغايةُ القُصوى، وصَلَواتُ الرَّسولِ عليه الصّلاةُ والسّلام من ذرائِعها**»[٢]، ـ كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنّ لله ملائكةً سَيّاحينَ يُبلِّغونَ عن أُمّتيَ السّلامَ**». قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «**حياتي خيرٌ لكم تُحدّثوني وأتحدَّثُ لكم، ووفاتي خيرٌ لكم**

---

(١) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٣٣.

(٢) تفسير روح المعاني، سورة التوبة (٩): الآية ٩٩.

تُعرَضُ علَيَّ أعمالُكم، فما رأيتُ من خيرٍ حَمِدتُ اللهَ عليه، وما رأيتُ من شرٍّ استَغفَرْتُ اللهَ لكم»[١].

ويقولُ أهلُ العِلم بخصُوص هذه الآية: إنّ من المُستحَبِّ لآخِذ الصَّدَقة أن يدعوَ لمَن تَصدَّق عليه، **«عن ابنِ عبّاس رضيَ اللهُ تعالى عنهما: ولذا استُدِلَّ بالآيةِ على استحبابِ الدُّعاءِ لمَن يتَصدَّقُ، واستَحبَّ الشافعيُّ في صفتِه أن يقولَ للمتصدِّقِ: آجَرَك اللهُ فيما أعطَيْتَ وجَعَله لكَ طَهورًا وبارَكَ لكَ فيما أبقَيْتَ»**[٢].

فضيلة الصّدقة:

قال رسولُ الله ﷺ:

١ـ «مَن تصَدَّق بعَدلِ تمرةٍ من كَسْبٍ طيّبٍ ـ ولا يَقبَلُ اللهُ إلّا الطّيّبَ ـ وإنّ اللهَ يتقبَّلُها بيمينِه، ثمّ يُربّيها لصاحبِه كما يُربّي أحدُكم فُلُوَّه حتّى تكونَ مِثلَ الجَبَل»[٣].

٢ـ «إنّ الصّدَقَة لَـتُطفئُ غَضَبَ الرّبِّ وتَدفَعُ مِيتةَ السُّوء»[٤].

٣ـ «تَصدَّقوا وداوُوا مرضاكم بالصَّدَقة، فإنّ الصَّدقَة تدفَعُ عن الأعراض والأمراض، وهي زيادةٌ في أعمارِكم وحسَناتِكم»[٥].

٤ـ «باكِروا بالصَّدَقة، فإنّ البلاءَ لا يَتخطَّى الصَّدَقةَ»[٦].

---

(١) مجمع الزوائد، ٩: ٢٤، البداية والنهاية، المجلد ٥: ٢٧٥، الجامع الصغير، المجلد الأول: ٥٨٢.

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) البخاري، كتاب الزكاة، باب ٨ برقم ١٤١٠.

(٤) الترمذي، أبواب الزكاة، باب ٢٨.

(٥) كنز العمال، ٦: ٣٧١ برقم ١٦١١٣.

(٦) كنز العمال، ٦: ٣٩٩ برقم ١٦٢٤٣.

٥ـ «مَن أراد أن تُستجابَ دعوتُه وأن تُكشَفَ كُربتُه فلْيُفرِّجْ عن مُعسِرٍ»(١).

٦ـ جاء رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أيُّ الصَّدَقةِ أعظمُ أجرًا؟ قال: «أنْ تصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيح، تخشَى الفقرَ وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِلْ حتّى إذا بَلغَتِ الحُلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلانٍ»(٢).

وقت إخراج الصّدقات:

أفضَلُ وقتٍ لإخراج الصَّدَقات: قَبْلَ الموت، ولأنّ الموتَ يمكنُ أن يأتيَ في أيِّ وقت، لهذا يجبُ الإسراعُ في إخراج الصَّدَقاتِ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠-١١]، ولهذا أيضًا يقولُ العلماءُ والمشايخُ: إذا خَطَر لكَ القيامُ بعملٍ صالح فنفِّذْه فورًا، ولا تَستشِرْ أحدًا فيه، فقد يُقدِّمُ لك مَشُورةً خاطئةً فيَحرمُك من الحسَنة، ولكنْ إذا خَطَر لك عَملٌ سيِّئٌ فاستَشِرْ أصدقاءك، فربَّما قَدَّم لكَ أحدُهم مَشُورةً جيِّدةً فتنجو من السيِّئة.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾

٨٣ ـ السُّعَداءُ الذين قَبِلَ اللهُ تعالى توبتَهم وصَدَقاتِهم قال لهمُ النبيُّ ﷺ أنْ واصِلوا القيامَ بالأعمالِ الصّالحة؛ لأنّكم ـ في نهايةِ الأمر ـ ستَمثُلونَ في حضرةِ الله تعالى الذي يَعلَمُ سرَّكم وجهرَكم.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

٨٤ ـ المسلمونَ العشَرةُ الذين لم يشاركوا في جيشِ تَبُوكَ ولم يكنْ لهم عُذر،

---

(١) مسند أحمد، ٢: ٢٣.

(٢) البخاري، كتاب الزكاة، باب ١١.

اعترَفَ سبعةٌ منهم بذَنْبِهم، ورَبَطُوا أنفسَهم في سَواري المسجد، وأبدَوْا نَدَمَهم الكاملَ على ما فَعَلوا، وبالتالي قَبِلَ اللهُ تعالى توبتَهم مثلَما مرَّ في الآية رقم ١٠٢ من السورة.

أمّا الثلاثةُ الباقونَ (كعبُ بنُ مالك، وبلالُ بنُ أُميَّة، ومَرارةُ بن رَبيع رضيَ اللهُ عنهم) فقد أقَرُّوا بذَنْبِهم أيضًا، ولكنّهم لم يفعَلوا مثلَما فَعَل أبولُبابَة رضي اللهُ عنه ورفاقُه، فلم يَربِطوا أنفُسَهم إلى سَواري المسجد، وقد أمَرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه رضي اللهُ عنهم أن يُقاطعوهم، فلا يُسلِّمُ عليهم أحدٌ ولا يُكلِّمُهم، ولْيَنتظِرِ الجميعُ حُكمَ الله تعالى، وبعدَ خمسينَ يومًا من الانتظار المُرّ قَبِلَ اللهُ تعالى توبتَهم، وهو ما سيأتي في الآية رقم[1] ١١٨، ومن هنا استَنْبطَ العلماءُ أنّ ترْكَ السّلام على مَن أَجْرم دينيًّا صحيحٌ تمامًا، وما وَرَد في الحديثِ الشَّريف من أنه لا يجوزُ أن يَهجُرَ أحدُكم أخاه أكثرَ من ثلاثةِ أيام، إنّما يكونُ عندَما يتعلَّقُ الموضوعُ بالأمورِ الدُّنيويّة[2].

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

٨٥ - في هذه الآية ذِكرٌ لأولئك المنافقينَ الذين بنَوْا مسجدًا ضِرارًا، ونحن فيما يلي نقدِّمُ خُلاصةَ ما نَقَله أكثرُ المفسِّرين من واقعاتٍ في هذا الخُصوص:

اعتَنقَ رجلٌ من قبيلةِ الخَزرج يُدعى أبا عامرٍ النَّصرانيّةَ، وكان ذلك قبْلَ الهجرة، ثم زَهِد في الدُّنيا وترهَّبَ، وكان الناسُ في المدينة وما حولَها من المعتقِدينَ تمامًا في أبي عامر، ولكنْ حين وَصَل نُورُ الإسلام إلى المدينةِ المنوَّرة بعدَ الهجرة،

(١) «وهؤلاء الثلاثة المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] وقد وقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد». صفوة التفاسير.
(٢) تفسير الماجدي.

وقلَّ احترامُ الناسِ وتعظيمُهم لأبي عامر، أخَذ يتآمَرُ ضدَّ الإسلام، وبعدَ غزوةِ بَدْر تحالَفَ معَ الكفّار، وشارَكَهم في كلِّ المعاركِ التي حَدَثت ضدَّ الإسلام، وبعدَ غَزْوةِ حُنَيْن تأكَّد أبوعامرٍ أنه لا يمكنُ لأيِّ قوةٍ في الجزيرةِ العربيّة أن تقضيَ على الإسلام، وحينَئذٍ رَحَل إلى الشام، وأخَذ يُحرِّضُ قَيْصرَ الرُّوم على الهجوم على المسلمين، وهو ما جَعَل النبيَّ ﷺ يتوجَّهُ بالجيشِ إلى تَبُوك لتَدارُكِ هذا الأمر، فكتَبَ أبوعامرٍ من الشام خِطابًا إلى المنافقينَ في المدينة قائلًا: إنّني أُحرِّضُ قَيْصرَ الرُّوم على الهجوم على المدينة، ولكنّ عليكم أن تُواصلوا تنظيمَ أنفسِكم وتعمَلوا على إضعافِ المسلمين، ولهذا الغَرَض عليكم أن تَبْنُوا مسجدًا يتَّخِذُ منه قَيْصرُ الرُّوم مقامًا حين يَهجُمُ على المدينة، وهكذا بنَى منافقو المدينة مسجدًا بالقُربِ من مسجدِ قُباء، وقالوا للنبيِّ ﷺ: لقد بنَيْنا مسجدًا في قُباءَ تسهيلًا على الضُّعفاءِ والمرضَى في فَصْل البرودةِ والمطر، ونأمُلُ أن تُشرِّفَنا في هذا المسجد وتؤدِّيَ فيه صلاةً، وعليه أَطْلع اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ على نفاقِهم، فقام النبيُّ ﷺ بأمرٍ من اللهِ تعالى بإشعالِ النار في هذا المسجد وإحراقِه[1]، وقد أقسَم المنافقونَ كثيرًا على أنّهم بنَوْا هذا المسجدَ بنيّةِ الخير، ولكنّ اللهَ تعالى أعلَنَ بوضوحٍ أنّ هؤلاءِ المنافقينَ كذّابون.

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾

٨٦ ـ يعني: أنّ المسجدَ الذي بُني بغَرَض الإساءةِ إلى الإسلام، ونَشْر الكُفر، والتفريق بينَ المسلمين، ويكونُ كَمِينًا يَكمُنُ فيه أعداءُ رسولِ الله ﷺ، لا تُصَلِّ فيه أبدًا، وإنّما يَليقُ بصَلاتِك ذلك المسجدُ الذي وُضِع أساسُه على التَّقوى منذُ اليوم الأول، سواءٌ كان المسجدَ النَّبويَّ أم مسجدَ قُباء؛ لأنّ هذَيْنِ المسجدَيْنِ أُسِّسا على التقوى، وبناهُما الأطهارُ جسمًا وعمَلًا، كما أنّ قلوبَهم وأعمالَهم أيضًا طاهرة، واللهُ تعالى يحبُّ أمثالَ هؤلاءِ الأطهارِ ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) معظم كتب التفاسير.

فضل المدينة المنوّرة:

١- قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الإيمانَ لَيأرِزُ إلى المدينة كما تَأرِزُ الحيّـةُ إلى جُحرِها»[١].

٢- قال رسولُ الله ﷺ: «منِ استطاعَ أن يموتَ بالمدينة فلْيَمُتْ بها، فإنّي أشفَعُ لمن يموتُ بها»[٢].

٣- «عن عُمَر - رضي الله عنه - قال: اللّهُمَّ ارزُقْني شهادةً في سبيلِك، واجعَلْ موتي في بلدِ رسولِك ﷺ»[٣].

فضل مسجد قباء:

١- عن ابنِ عُمر، قال: كان رسولُ الله ﷺ يأتي مسجدَ قُباءَ (كل سبتٍ) راكبًا وماشيًا فيُصلّي فيه ركعتَيْن، وكان ابنُ عُمر يفعَلُه[٤].

٢- قال النبيُّ ﷺ «الصّلاةُ في مسجدِ قُباءَ كعُمرةٍ»[٥].

فضل المسجد النّبويّ:

١- قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه «صلاةُ الرّجُل في بيتِه بصلاةٍ، وصلاتُه في مسجدِ القبائل بخمسٍ وعشرينَ صلاةً، وصلاتُه في

---

(١) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب ٦ برقم ١٨٧٦.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦٧ برقم ٣٩١٧.

(٣) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب ١٢ برقم ١٨٩٠.

(٤) مسلم، كتاب الحج، باب ٩٧ برقم ١٣٩٩.

(٥) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ٢٤٢ برقم ٣٢٤.

المسجدِ الّذي يُجمَّعُ فيه بخمسِمائةِ صلاةٍ، وصلاةٌ في المسجدِ الأقصى بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصلاةٌ في مسجدي بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرام بمائةِ ألفِ صلاة»[١].

٢ـ عن أنسِ بن مالكٍ، عن النّبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلّم، أنّه قال: «مَن صلَّى في مسجدي أربعينَ صلاةً، لا يفوتُه صلاةٌ، كُتِبت له براءةٌ من النّار، ونجاةٌ من العذاب، وبَرِئَ من النّفاق»[٢].

٣ـ عن أبي هريرةَ ـ رضي اللهُ عنه ـ عن النّبيِّ ﷺ قال: «ما بينَ بيتي ومِنبَري روضةٌ من رياضِ الجنّة، ومِنبَري على حَوْضي»[٣].

فضل روضة الرّسول ﷺ:

١ـ عن ابنِ عُمر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن زارَ قَبْري وَجَبت له شفاعتي»[٤].

٢ـ عن ابن عُمر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن حَجّ فَزارَ قَبْري بعدَ وفاتي فكأنّما زارَني في حياتي»[٥].

٣ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «مَن حجَّ البيتَ ولم يَزُرْني فقد جَفاني»[٦].

---

(١) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ١٩٨ برقم ١٤١٣.

(٢) مسند أحمد، ٣: ١٥٥.

(٣) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب ١٢ برقم ١٨٨٨.

(٤) الدارقطني، ٢: ٢٧٨.

(٥) الدارقطني، ٢: ٢٧٨.

(٦) الأحكام الفقهية في المذاهب الأربعة، أحمد محمد عساف، ٤٠٧، زيارة قبر الرسول ﷺ.

والعلماءُ جميعًا متَّفقونَ على أنّ أفضلَ الأماكن على وَجْهِ الأرضِ: مكّةُ المكرَّمةُ والمدينةُ المنوَّرة، إلّا أنّ هناك اختلافًا في أيُّهما أفضَلُ من الأخرى؛ المدينةُ المنوَّرة أم مكّةُ المكرَّمة؟ فيقولُ البعضُ: إنّ المدينةَ المنوَّرة أفضَل، **«ومكّةُ أفضَلُ منها (أي: المدينة) على الراجح إلّا ما ضَمَّ أعضاءه عليه الصَّلاةُ والسلام، فإنّه أفضَلُ مطلَقًا حتّى من الكعبةِ والعرشِ والكُرسيِّ»**[١]، و**«زيارةُ قبرِ النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم من أفضَل المندوباتِ، وإنها قريبةٌ من الوجوبِ لمَن له سَعةٌ»**[٢].

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾

٨٧ ـ هنا، في هذه الآية، بيانٌ لتشبيهٍ يتعلَّقُ بإخلاصِ أهل الإيمانِ وخِداع أهل النفاق عن طريق مسجدِ قُباءَ ومسجدٍ ضِرَار، يعني: أنّ الشخصَ الذي يؤسِّسُ دينَه على تقوى الله تعالى ورضاهُ أفضَلُ من ذلك الذي يؤسِّسُه على عَدَم تقوى الله ولامبالاةٍ برضاه، ومَثَلُه كشخصٍ يبني بناءً على شاطئ مهترئ لأحدِ الأنهار، وحينَ يَسقُطُ هذا المبنَى في النَّهرِ يَغرَقُ معَه هو وأموالُه ومتاعُه أيضًا، وبنفسِ الطريقة فإنّ الذي لا يُبالي بتقوى الله تعالى ورضاهُ في هذه الدُّنيا حينَ يقومُ بأعمالِه، هو في الحقيقة يَبْني مَبْناهُ على حافَةِ جهنَّم، ويومَ القيامة سيَسقُطُ هو وأعمالُه السيِّئةُ في نار جهنَّم.

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾

٨٨ ـ بنَى منافقو المدينةِ مسجدَ الضِّرار لخَلْق الفُرقة بيْنَ المسلمينَ، لكنّ النبيَّ ﷺ هدَم هذا المسجدَ بأمرٍ منَ الله عزَّ وجلَّ، وهو ما أغاظَ المنافقينَ كثيرًا، وظَلُّوا طيلةَ حياتِهم في غمٍّ واضْطرابٍ بسببِ فشَلِهم هذا حتى طَواهُم الموت.

---

(١) رد المحتار، باب الهدى، ٢: ٦٢٦.

(٢) الفتاوى العالمكيرية، كتاب المناسك، باب ١٧، ١: ٢٦٥.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾

٨٩ ـ الذي يؤمنُ بالله تعالى هو ـ في الحقيقة ـ يُعلنُ بيْعه مالَه ونفسَه لله تعالى، بمعنى: أنه كلَّما سَنحت الفُرصةُ لكي يُضحِّي بمالِه ونفسِه في سبيل الله تعالى فإنّه لا يتوانَى فيها، ولهذا يقولُ سيّدُنا الحَسَنُ البصريُّ رضي الله عنه: «**لا والله ما على ظَهْر الأرضِ مؤمنٌ إلّا قد دَخَل في هذه البَيْعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآيَةَ**»(١). وقد وَعَد اللهُ تعالى المؤمنينَ بالجَنّة في مقابل هذا البَيْع والفِداء،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم.

واللهُ تعالى يقينًا يوفِي بوَعْدِه، وهذا الوَعْدُ في القرآنِ المَجيد ليس مقصورًا على الأُمّة المسلمةِ فقطْ، وإنّما وَعَد اللهُ الأُممَ السابقةَ أيضًا بمثلِ هذا الوَعْدِ في التَّوراةِ والإنْجيل، والإشاراتُ إلى هذا الأمرِ موجودةٌ في الكتابِ المقدَّس حتى يومِنا هذا:

١ـ «مَن تَرَكَ بيتَه وإخوانَه وأخَواتِه وأباه وأُمَّه وزوجَه وأولادَه وما يملِكُ في سبيل طاعتي فإنّي أُعطيه في مقابلِ هذا مائةَ ضِعف، وسيرِثُ الحياةَ الأَبديّةَ»[1].

٢ـ «لو أنفَقْتَ حياتَك هنا فستفقدُ تلك الحياة، أمّا إن ضحَّيتَ بحياتِك هنا في سبيلي فستنقذُ تلك الحياةَ»[2].

٣ـ «مباركونَ أولئك الذين ظُلِموا بسببِ صِدقِهم (استقاموا على الصِّدق)؛ لأنّ مُلكَ السماءِ لهم»[3].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

٩٠ـ أهلُ الإيمانِ الذين بُشِّروا بالجنَّة في الآيةِ السابقة، تَذكُرُ لهم هذه الآيةُ تسعَ صفاتٍ هي مظْهَرُ تضحياتِهم بأرواحِهم ومقياسُه.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾

٩١ـ في هذه الآية جاء المَنْعُ منَ الاستغفارِ لأولئك المشركينَ الذين يتبيَّنُ أنّهم من أهلِ النار، أي: الذين وافَتْهم منيَّتُهم وهم على الكُفرِ والشِّرك. يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ **وكانوا يستغفرونَ لهم حتّى نَزَلت هذه الآيةُ، فلمّا نَزَلت أَمْسَكوا**

(١) الكتاب المقدس الحي، متى: ١٩: ٣٩.

(٢) الكتاب المقدس الحي، متى: ١٠: ٣٩.

(٣) الكتاب المقدس الحي، متى: ٥: ١٠.

عن الاستغفار، ولم ينتَهوا أن يستغفروا للأحياءِ حتّى يموتوا»[١]، على أملِ أن يهدَيهم اللهُ تعالى للإسلام.

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾

٩٢ـ كان دعاءُ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام لآزَرَ لأنه وَعَدَه أن يَطلُبَ المغفرةَ له من الله تعالى، وكان يستغفرُ له أملًا أن يعفوَ اللهُ عن كُفرِه ويهديَه إلى الإسلام، ولكنْ حين اتَّضح لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنّ آزَرَ مات على الكُفرِ وعداءِ اللهِ تعالى أعلَن تبرُّؤَهُ منه وتوقَّف عن الاستغفارِ له.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنه يجوزُ الاستغفارُ والدُّعاءُ بالهدايةِ لأيِّ مشركٍ أو كافرٍ على قَيْد الحياة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ يومَ أُحُدٍ وهو يمسَحُ الدِّماءَ من على وجهِه الطاهر: «**اللّهُمَّ اغفِرْ لقومي فإنّهم لا يَعلَمون**»[٢].

هل كان آزَرُ أبا سيّدِنا إبراهيمَ عليه السّلامُ أم عمَّه؟ وهل كان مسلمًا أم كافرًا؟ وهل يمكنُ أن يكونَ والدُ أيِّ نبيٍّ كافرًا أم لا؟ وهل كان والدا النبيِّ الكريم ﷺ مؤمنَيْنِ أم لا؟ للإجابة عن كلِّ هذه الأسئلة راجع الحاشيةَ رقم **٦٩**، والآيةَ رقم **٧٤** من سُورة الأنعام (**٦**).

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾

٩٣ـ في البداية كان المسلمونَ يستغفرونَ لآبائهم وأقاربِهم الذين ماتوا مشركين، ولكنْ حينَ جاء المَنْعُ من هذا الاستغفارِ في الآيتينِ: **١١٣ - ١١٤**

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم.

(٢) البخاري، كتاب الأنبياء، باب **٥٤** برقم **٣٤٧٧**.

استَشْعروا الخوفَ من أن يؤاخِذَهم اللهُ تعالى على ما قاموا به منَ استغفارٍ لهم فيما سَبَق قبلَ المَنْع، وقد نَزَلت هذه الآيةُ لتُزيلَ هذا الخوفَ من نفوسِهم بأنَّ اللهَ تعالى لا يقرِّرُ أنّ عَملًا ما ضلالٌ إلّا بعدَ أن يُبيِّنَ كيفيّةَ تجنُّبِه والخلاصِ منه، أي: أنّ اللهَ تعالى يعلنُ بوضوح أولًا: أنِ اجْتَنِبوا هذه الأعمالَ، ثم بعدَ هذا المَنْع: من يرتكبُها يُعَدُّ ضالًّا ومُجرمًا، أمّا الذين اقترفوا هذه الأعمالَ قبلَ مَنْعِها فلا حَرَجَ عليهم؛ لأنّ المَنْعَ منها لم يكن قد نَزَل بعدُ.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾

٩٤ـ المرادُ بوقتِ العُسرةِ هنا: زمَنُ غزوةِ تَـبُوك، حيث تجمَّعت مصاعبُ كثيرةٌ إذْ ذاك، أي: حرارةُ الطَّقس والسَّفرُ الطويلُ والقلةُ الشَّديدةُ في الوسائل، «**كانوا في عُسرةٍ من الركائبِ والزاد، حتى قيلَ: إنّ الرَّجُلَيْنِ كانا يقتسمانِ تمرةً، والعشَرةُ تعتقِبُ على بعيرٍ واحد**»[1]، وبالرَّغْم من هذه الظُّروفِ الصَّعبة إلاّ أنّ المهاجرينَ والأنصارَ لَبَّوْا دعوةَ النبيِّ ﷺ إلى الجهاد، وتوجَّهوا معَه إلى تَبُوك، وقد تردَّد بعضُ المسلمينَ وخافوا، لكنّهم - في نهايةِ الأمر - شاركوا - بتوفيقٍ من الله تعالى - في الجهاد، وقَبِلَ اللهُ توبتَهم، ومن هؤلاء: سيِّدُنا أبوخَيْثمةَ الأنصاريُّ الذي لم يتمكَّنْ من الذهابِ معَ رسولِ الله ﷺ، وحينَ «**بَلَغ بستانَه، وكانت له امرأةٌ حسناءُ فَرَشتْ له في الظلِّ، وبَسَطت له الحَصِير، وقرَّبت إليه الرُّطَبَ والماءَ البارِدَ، فنظَر فقال: ظلٌّ ظليل، ورُطَبٌ يانع، وماءٌ بارد، وامرأةٌ حسناء، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلّم في الحرِّ والرِّيح! ما هذا بخير، فقام فرَحَّل ناقتَه، وأخَذ سيفَه ورُمحَه، ومرَّ كالريح، فمدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم طَرْفَه إلى الطَّريق، فإذا**

---

(١) التفسير المنير.

براكبٍ يزهاهُ السَّراب، فقال: كن أبا خَيْثَمَةَ! فكان، ففَرِح به رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم، واستغفَرَ له»[١].

والمعنى الحَرْفيُّ للألفاظِ الأُولى في هذه الآية هو: «لا شكَّ أنّ اللهَ تعالى قد قَبِلَ توبةَ النبيِّ ﷺ وأولئك المهاجرينَ والأنصارِ الذين تَبِعوا النبيَّ ﷺ في وقتِ العُسرة»، ولا ينبغي أن يَفهَمَ أحدٌ من هذا أنّ النبيَّ ﷺ والمهاجرينَ والأنصارَ قد أذنَبوا فيما يتعلَّقُ بجيشِ تَبُوك، وهو الذَّنبُ الذي قَبِلَ اللهُ تعالى توبتَهم منه، وإنّما كان شَرَفًا عظيمًا أنّهم شاركوا في جيشِ تَبُوكَ منذ اللَّحظةِ الأُولى التي دعاهم فيها النبيُّ ﷺ للمشاركة، والحقيقةُ أنّ التوبةَ لا تكونُ منَ ارتكابِ ذنبٍ فقطْ، وإنّما تكونُ التوبةُ لرَفْع الدَّرجاتِ والقُرْب من الله أيضًا، لأنّ النبيَّ ﷺ كان يتوبُ إلى الله في اليوم مائةَ مرة، وهو المعصومُ، مثلَما قال ﷺ: **«يا أيُّها النّاس، توبوا إلى الله، فإنّي أتوبُ في اليوم إليه مائةَ مرّةٍ»**[٢].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾

٩٥ـ المرادُ بالثلاثة: كعبُ بنُ مالك وبلالُ بنُ أُميَّةَ ومَرارةُ بن الرَّبيع رضي اللهُ عنهم، وكـان هـؤلاءِ الثلاثةُ مسلمينَ مخلِصيـن، ولم يشـاركوا في جيـشِ تَبُوكَ تكاسُلًا لا أكثرَ، وحينَ عاد النبيُّ ﷺ من تـبُوك أقَرُّوا بتقصيرِهم بشكل واضح، وأمَرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه بمقاطعتِهم اجتماعيًّا، فلا يُسلِّمُ عليهم أحدٌ ولا يُكلِّمُهم، ولْينتظرِ الجميعُ حُكمَ الله تعالى فيما يتَعلَّقُ بتوبتِهم، وقد أحال إحساسُهم بالذّنبِ من جانب، ومقاطعةُ المسلمينَ لهم من جانبٍ آخَرَ حياةَ هؤلاءِ الثلاثةِ إلى جحيم، جَعَلَهم يشعُرونَ بأنّهم غُرَباءُ عن المدينة وأرضِها ومسلميها، ويعيشونَ في قلقٍ

---

(١) التفسير المنير.

(٢) مسلم، كتاب الذكر، باب ١٢ برقم ٢٧٠٢.

دائم ليلَ نهارَ، وبعدَ خمسينَ يومًا من الانتظارِ الصَّعب نَزَلت هذه الآياتُ، وبشَّرهم النبيُّ ﷺ بأنّ اللهَ تعالى قَبِلَ توبتَهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

٩٦- في هذه الآية أمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ أنْ يتَّقوا اللهَ وأن يكونوا معَ الصّادقين. يقولُ العلّامةُ الصّابوني: «**أيْ: راقِبوا اللهَ في جميع أقوالِكم وأفعالِكم، وكونوا معَ أهل الصِّدقِ واليقين، الذين صَدَقوا في الدِّين نيّةً وقولًا وعمَلًا**»[١]، لأنّ الذي يَصدُقُ فيما يقولُ دونَ أن يَصدُقَ في نيّتِه، بمعنى: أنه يُقِرُّ بلسانِه بالإسلام، ويُضمرُ الكُفرَ في قلبِه، فهو منافقُ العقيدة، ومن يَصدُقُ في قولِه، ولا يَصدُقُ في عمَلِه، بمعنى: أنه يقولُ: إنّ الصلاةَ فرضٌ، ولكنّه لا يُصلِّي، فهو منافقُ العمل، ومَن يَصدُقُ في عمَلِه، ولكنّه لا يَصدُقُ في كلامِه، بمعنى: أنه يُصلِّي، ولكنه يكذبُ طيلةَ اليوم، فهو منافقُ القول، والقَصْدُ في هذه الآية أنه ينبغي تجنُّبُ المنافق، سواءٌ كان

---

(١) صفوة التفاسير.

منافقَ العقيدة، أم منافقَ القول والعمَل، ومن كانت عقيدتُه صادقةً، وقولُه وعمَلُه صادقًا أيضًا، عليكم أن تختاروا صُحبتَه.

بعضُ الأحاديثِ النَّبويّة عن الصِّدقِ والكذب:

١ ـ **قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصِّدق، فإنّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرّ، وإنّ البِرَّ يهدي إلى الجنّة، وما يزالُ الرّجُلُ يَصدُقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتّى يُكتَبَ عندَ الله صِدّيقًا، وإيّاكم والكذب، فإنّ الكذبَ يَهدي إلى الفُجور، وإنّ الفُجورَ يَهدي إلى النّار، وما يزالُ الرّجُلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتّى يُكتَبَ عندَ الله كذّابًا»**[١].

٢ـ قال النبي: ﷺ: **«أربعٌ من كُنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خَصْلةٌ منهُنَّ كانت فيه خَصْلةٌ من النّفاقِ حتّى يَدَعَها: إذا اؤتُمنَ خان، وإذا حَدَّث كذَب، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خاصَم فَجَر»**[٢].

في هذه الآية لم يقُل اللهُ تعالى: كونوا صادقينَ، وإنّما قال: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، والحقيقةُ أنّ هذه هي مشيئةُ الله تعالى أن يكونَ كلُّ الناسِ صادقينَ، ولكنّ أسهلَ طريقٍ لكي تكونَ صادقًا هو أن تختارَ صُحبةَ الصّادقينَ أولًا، وبعدَ مشاهدةِ الصِّدق بشكل عمَليٍّ عندَهم يصبحُ اختيارُ طريقِ الصِّدق سهلًا لك، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **«الوِحدةُ خيرٌ من جليسِ السُّوء، والجليسُ الصّالحُ خيرٌ من الوِحدة، وإملاءُ الخيرِ خيرٌ من السُّكوت، والسّكوتُ خيرٌ من إملاءِ الشَّر»**[٣]، ويقولُ بعضُ الناسِ: أين الصّادقونَ في أيامنا هذه؟ صحيحٌ أنّ الصّادقينَ المَزَيّفينَ كُثرٌ، لكنّ الصّادقينَ الحقيقيِّينَ أيضًا موجودونَ في كلِّ زمانٍ ومكان، وهو ما قالهُ العلّامةُ فخرُ

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ٢٩ برقم ٦٦٣٩.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٢٤.

(٣) شعب الإيمان، البيهقي، ٤: ٢٥٦ برقم ٤٩٩٣.

الدِّين الرازي في تفسيرِ هذه الآية من «**أنّه تعالى أمَرَ المؤمنينَ بالكَوْنِ معَ الصّادقين، ومتى وَجَب الكونُ معَ الصّادقينَ فلا بدَّ من وجودِ الصّادقينَ في كلِّ وقتٍ، وذلك يمنَعُ من إطباقِ الكلّ على الباطل، ومتى امتَنع إطباقُ الكلِّ على الباطل، وَجَب إذا أطبَقوا على شيءٍ أن يكونوا محقِّينَ. فهذا يدُلُّ على أنّ إجماعَ الأُمّةِ حُجّة**»[1].

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾

٩٧ـ أعلنَ النبيُّ ﷺ على الملأِ طَلَب المشاركة في جيشِ تَبُوك، ولهذا كانتِ المشاركةُ واجبةً على الجميع فيما عدا أصحابَ الأعذارِ الشَّرعية، ومعَ ذلك فهناك من أهلِ المدينة وما حولَها مَن لم يشاركْ في الجيش، وفَضَّلوا راحتَهم على ذلك، وهؤلاءِ يُوبِّخُهم اللهُ تعالى ويَزجُرُهم في هذه الآيةِ، بأنه كان عليهم أن يذهَبوا معَ رسولِ الله ﷺ ويتدبَّروا أمرَ راحتِه وحمايتِه أكثرَ من أنفسِهم، كما أنه ما كان ينبغي أن يتَخلَّفوا بسببِ العطش والتعبِ والجُوع وغيرِها؛ لأنّ كلَّ أمرٍ من هذه الأمورِ في سبيل الله هو لهم حسَنةٌ، واللهُ تعالى لا يُضيعُ أَجْرَ المحسنِين.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾

٩٨ـ الجهادُ قسمان:

١ـ فرضُ عَيْن: وذلك إذا أعلَن رئيسُ الحكومةِ الإسلاميّة إعلانًا عامًّا بالجهادِ بالسَّيف «**أو إذا هَجَم العدوُّ على بلدٍ إسلاميٍّ: فالجهادُ فَرْضُ عَيْن على كلِّ قادرٍ من المسلمين**»[2]، في مثلِ هذه الحالة يصبحُ فرضًا على كلِّ مسلم أن

(١) التفسير الكبير.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، ٦: ٤١٧.

يَهُبَّ لحمايةِ بلادِه ودينِه بكلِّ ما يَملِكُ من إمكانيّات، ومَن لا يستطيعُ الحربَ بنفسِه يستطيعُ أن يساعدَ المجاهدينَ بمالِه ونفسِه ويدِه ولسانِه مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**جاهِدوا المشركينَ بألسنتِكم وأنفسِكم وأموالِكم وأيديكم**»[1].

٢ـ فَرْضُ كفاية: إذا لم يكنْ هناك إعلانٌ عامٌّ بالجهاد بالسَّيف فالجهادُ حينَئذٍ فَرْضُ كفاية «ومعناه: **أنه يُفترَضُ على جميع مَن هو أهلٌ للجهاد، لكنْ إذا قام به البعضُ سَقَط عن الباقينَ**»[2]؛ لأنه إنْ خَرَج المسلمونَ جميعًا للجهاد «**لَتعطَّلت مصالحُ الأُمّة، وتضرَّرتِ الأُسَرُ والأولاد، فلْيخرُجْ فريقٌ من المسلمينَ للجهاد، وليَقُمْ فريقٌ يتفقَّهوا في الدِّين، ويحفَظوا الحَريمَ، ويَصُونُوا مصلحةَ البلاد**»[3].

وقد أعلَن النبيُّ ﷺ الجهادَ في غَزْوة تَـبُوكَ إعلانًا عامًّا، ولهذا كان من الفَرْض على كلِّ مسلم المشاركةُ في جيشِ تَـبُوك، وحين وبَّخ اللهُ تعالى المتخلِّفينَ عن الجهاد وزَجَرهم بعدَ عودةِ النبيِّ ﷺ من تَبُوك «**قال المؤمنون: واللهِ لا نتخلَّفُ عن شيءٍ من الغَزَواتِ معَ الرّسول عليه السّلامُ ولا عن سَرِيّةٍ. فلمّا قَدِم الرّسولُ عليه السّلامُ المدينةَ، وأرسَلَ السَّرايا إلى الكُفّار، نَفَر المسلمونَ جميعًا إلى الغَزْوِ وتَرَكوه وحدَه بالمدينة، فنَزَلت هذه الآيةُ**»[4]، يعني: حين تُعلَنُ التعبئةُ العامّةُ للجهادِ يكونُ الجهادُ فَرْضًا على الجميع مثلَما كان الحالُ في غَزْوة تَبُوك، لكنْ في الظّروفِ العاديّة، أو في المناوشاتِ الحُدوديّةِ البسيطة، يكونُ الجهادُ فَرْضَ كفاية، ويكفي حينَئذٍ المجاهدونَ المقرَّرون لهذا، وليس من الضَّروريِّ أن يَخرُجَ

---

(١) مسند أحمد، ٣: ١٥٣.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، ٦: ٤١٦.

(٣) التفسير المنير.

(٤) التفسير الكبير.

الجميعُ، ولهذا فإنّه في الأحوالِ العاديّة تخرُج مجموعةٌ للجهاد، وأخرى تطلُبُ العِلمَ، وثالثةٌ تبقى لحراسة البيوتِ وحمايةِ المُدنِ والأطفال.

﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾

٩٩ ـ وتحصيلُ علوم الدِّين قسمان:

١ـ فَرْضُ عَيْن: أي أنّ تحصيلَ العِلم بالعقائدِ الصَّحيحة والأعمال الضَّروريّةِ مثلَ: الطَّهارةِ والصَّلاة والصِّيام والحلالِ والحرام وغيرِها فَرْضُ عَيْن على كلِّ مسلم مكلَّف، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**طلَبُ العِلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ** (رجلًا أو امرأةً) **وواضعُ العِلم عندَ غيرِ أهلِه كمقلِّدِ الخنازيرِ الجَوْهرَ واللُّؤلؤَ والذّهبَ**»[1].

٢ـ فَرْضُ كفاية: مثلَ صلاةِ الجَنازة على الميِّت ودَفْنِه، وتعميرِ المساجد والإشرافِ عليها، وحمايةِ الحدودِ للدُّول الإسلاميّة وغيرِها، كلُّها فَرْضُ كفايةٍ، وبنفسِ الطريقة فإنّ تحصيلَ العِلم بكلِّ تفاصيلِ الأعمال والعقائدِ في الإسلام فَرْضُ كفايةٍ، بمعنى: أنه فَرْضٌ على بعضِ المسلمينَ تحصيلُ هذا العِلم، حتى إذا ما واجَهَ العامةُ أيةَ مشكلةٍ فيما يتَعلَّقُ بالعمَل أو الاعتقاد يُمكنُهم تقديمُ الحلول لهم بالأدِلّةِ والبراهين، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ولهذا فإنّ وجودَ عالِم دِين متمكِّن على الأقلِّ في كلِّ مدينة: فَرْضُ كفاية، وليس من الضَّروريِّ أن يصبحَ كلُّ فردٍ عالِمَ دين متمكِّنًا؛ لأنه لوِ انصَرف أهلُ المدينة كلُّهم لتحصيل علوم الدِّين تفصيلًا لَتعطَّلت أعمالُ الزراعةِ والتِّجارة والصِّناعة والحِرَفُ والأعمالُ اليوميَّةُ الأُخرى.

و«**هذه الآيةُ أصلٌ في وجوبِ طلَبِ العِلم**»[2]، والمرادُ به: تحصيلُ العِلم

---

(١) ابن ماجه، كتاب السنة، باب ١٧ برقم ٢٢٤.

(٢) تفسير القرطبي.

التفصيليِّ بالأعمالِ والعقائدِ الإسلاميّة، وهو فَرْضُ كفاية؛ لأنّ الله تعالى لم يأمُر المسلمينَ جميعًا بالخروج من أَجْلِه، وإنّما فَرْضٌ أن تخرُجَ جماعةٌ منهم لتحصيل العِلم التفصيليِّ للدِّين وفَهْمِه، وتحذير الناسِ من عذابِ الله تعالى، وهكذا قال الله تعالى في سورة آل عِمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، والذين يحصِّلونَ العِلمَ التفصيليَّ للدِّين، ثم لا يقومونَ بتدريسِه وتعليمِه، ولا يدعونَ الناسَ إلى الخيرِ كتابةً أو شَفاهةً، لم يؤدُّوا حقَّ نعمةِ تحصيل العِلم، ومن أسلوبِ هذه الآية تستطيعُ التعرُّفَ على مدى أهميّةِ تحصيل علوم الدِّين، بمعنى: أنه حتى في حالةِ كونِ المسلمينَ مشتبِكينَ معَ الكُفّار في إطارِ فريضةٍ مقدَّسة مثلَ: الجهاد، لا يجوزُ تعطيلُ تحصيل علوم الدِّين ولا التوقُّفُ عنه، وإنّما حين تَخرُجُ طائفةٌ لمواجهةِ العدوِّ، تَخرُجُ طائفةٌ أخرى لتحصيل علوم الدِّين أيضًا، بل إنه ـ في بعض الأحوال ـ يكونُ تحصيلُ علوم الدِّين أفضَلَ من الجهادِ كما قال النبيُّ ﷺ: «**طالبُ العِلم أفضَلُ عندَ الله تعالى من المجاهِدِ في سبيل الله**»[1]؛ «**لأنّ الجهادَ بالحُجّة أعظَمُ أمرًا من الجهادِ بالسَّيف**»[2]، كما أنّ تحصيلَ العِلم التفصيليِّ للدِّين «**هو الجهادُ الأكبر؛ لأنّ الجدالَ بالحُجّة هو الأصلُ والمقصودُ من البَعْث**»[3].

نفقات دارسي علوم الدّين ومدرّسيها:

في هذه الآية جاء الأمرُ بالخروج لتحصيل علوم الدِّين، ومن يُوقِفُ حياتَه على تعلُّم العِلم وتعليمِه لا يكونُ عندَه من الوقتِ ما يكفي لكَسْبِ القُوت، ولذا تقَعُ

---

(١) كنز العمال، ١٠: ١٤٣ برقم ٢٨٧٢٧.

(٢) البحر المحيط.

(٣) تفسير البيضاوي.

مسئوليّةُ الإنفاقِ عليه على المسلمين الآخَرينَ، مثلَما كان أهلُ المدينة والمُحسِنونَ في أيام النّبيِّ ﷺ يتحمَّلونَ نفَقاتِ المئاتِ من أهل الصُّفّة، ويمكنُ لكَ في هذا الخصوص مراجعةُ تفسير الآية رقم **٢٧٣** من سُورة البقرة (٢).

عن عبدِ الرّحمن بن أبي بكرٍ، أنّ أصحابَ الصُّفّة، كانوا أُناسًا فُقراءَ، وأنّ النّبيَّ ﷺ قال: «مَن كان عندَه طعامُ اثنَيْنِ فلْيذهَبْ بثالثٍ (طالبِ علم)، وإنْ أربع فخامسٌ أو سادس». وأنّ أبا بكرٍ جاء بثلاثةٍ (طلابِ عِلم) فانطَلَق النّبيُّ ﷺ بعشَرةٍ (من طلابِ العِلم)»[١].

بعضُ الأحاديثِ الشّريفةِ عن فَضْل العِلم:

١- سُئِل رسولُ الله ﷺ عن رجُلَيْنِ كانا في بني إسرائيلَ، أحدُهما: كان عالمًا يُصلّي المكتوبةَ ثمّ يجلسُ فيُعلِّمُ النّاسَ الخيرَ. والآخَر: يصومُ النّهارَ ويقومُ اللّيلَ، أيُّهما أفضَل؟ قال رسولُ الله ﷺ: «فَضْلُ هذا العالِم الّذي يُصلّي المكتوبةَ ثمّ يجلسُ فيُعلِّمُ النّاسَ الخيرَ على العابدِ الّذي يصُومُ النّهارَ ويقومُ اللّيل كفَضْلي على أدناكُم»[٢].

٢- قال رسولُ الله ﷺ: «فقيهٌ أشدُّ على الشّيطانِ من ألفِ عابدٍ»[٣]، وتدبَّرْ هنا ما قاله سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما في شرح هذا الحديث: **إنّ الشّياطينَ قالوا لإبليس: يا سيّدَنا، ما لنا نراكَ تفرَحُ بموتِ العالِم ما لا تفرَحُ بموتِ العابد؟ فقال: انطلِقوا، فانطلَقوا إلى عابدٍ قائمٍ يُصلّي فقالوا له: إنّا نريدُ أن نسألك، فانصَرَف، فقال له إبليسُ: هل يَقدِرُ ربُّك أن يجعَلَ الدّنيا في جَوْفِ بيضةٍ؟ فقال:**

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٤١ برقم ٢٠٦.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨١.

لا، فقال: أترَوْنَه؟ كَفَر في ساعةٍ، ثمّ جاء إلى عالِمٍ في حلَقةٍ يضاحكُ أصحابَه ويحدِّثُهم، فقال: إنّا نريدُ أن نسألكَ، فقال: سَلْ، فقال: هل يَقدِرُ ربُّكَ أن يجعَلَ الدُّنيا في جَوْفِ بيضةٍ؟ قال: نعم، قال: وكيف؟ قال: يقولُ لذلك إذا أراد: كنْ فيكون، قال إبليسُ: أترَوْنَ ذلك؟ لا يَعْدو نفسَه وهذا يُفسِدُ عليَّ عالَمًا كثيرًا[١].

٣ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «ساعةٌ من عالمٍ متّكىءٍ على فراشِه ينظُرُ في علمِهِ خيرٌ من عبادةِ العابدِ سبعينَ عامًا»[٢].

٤ـ قال عليه الصّلاةُ والسّلام: «منِ اغبَرَّت قَدَماه في طلبِ العِلم، حرَّم اللهُ جسَدَه على النّار، واستغفَر له مَلَكاه، وإن مات في طلَبِه مات شهيدًا، وكان قبرُه روضةً من رياضِ الجنّة، ويوسَّعُ له في قبرِه مَدَّ بصَرِه، ويُنوَّرُ على جيرانِه أربعينَ قبرًا عن يمينِه، وأربعينَ قبرًا عن يسارِه، وأربعينَ عن خَلْفِه، وأربعينَ أمامَه، ونومُ العالِم عبادة، ومُذاكَرتُه تسبيح، ونَفَسُه صَدَقة، وكلُّ قطرةٍ نَزَلت من عينَيْه تطفئُ بحرًا من جهنَّم، فمَن أهان العالِمَ فقد أهان العِلمَ، ومن أهان العِلمَ فقد أهانَ النّبيَّ، ومن أهان النّبيَّ فقد أهانَ جِبريلَ، ومَن أهانَ جِبريلَ فقد أهانَ الله، ومَن أهانَ اللهَ أهانَه اللهُ يومَ القيامة»[٣].

٥ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «يا أبا هريرة، عَلِّم النّاسَ القرآنَ وتعلَّمْه، فإنّك إن مِتَّ وأنت كذلك زارَتِ الملائكةُ قبرَك كما يُزارُ البيتُ العتيق»[٤].

٦ـ قال رسولُ الله ﷺ: «إنّما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعلِّمُكم»[٥].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ٤٢، برقم ١١٦.

(٢) كنز العمال، ١٠: ١٥٤ برقم ٢٨٧٨٩.

(٣) التفسير الكبير، سورة البقرة، الآية ٣١.

(٤) كنز العمال، ١٠: ٢٥٩ برقم ٢٩٣٧٧.

(٥) أبوداود، كتاب الطهارة، باب ٤ برقم ٨.

٧- قال رسولُ الله ﷺ «عُلماءُ أُمّتي كأنبياءِ بني إسرائيل» - أي: في صِدق طلبِ الحقِّ بالإعراض عن الكونَيْنِ والتوجُّه إلى الله تعالى[١]، ولم تَثبُتْ ألفاظُ هذا الحديثِ عن النبيِّ ﷺ، لكنّ أهلَ العِلم يُسلِّمونَ به من حيث صحةُ المعنى؛ لأنّ العلماءَ هم وَرَثةُ الأنبياء.

٨ - قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «من جاءه الموتُ وهو يطلبُ العِلمَ ليُحييَ به الإسلامَ فبينَه وبينَ النّبيِّينَ درجةٌ واحدةٌ في الجنّة»[٢].

٩- عن أنسٍ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «هل تَدرُونَ مَن أجوَدُ جُودًا؟»، قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «اللهُ أجوَدُ جُودًا، ثمّ أنا أجوَدُ بني آدم، وأجوَدُ من بَعدي رجلٌ عَلَّم عِلمًا فنشَره يأتي يومَ القيامةِ أميرًا وحدَه، قال: أُمّةً وحدَه»[٣].

العلماءُ الكرامُ هم حُرّاسُ عِلْمِ القرآن: إنّ المحافظَ الحقيقيَّ على ألفاظِ القرآن الكريم هو اللهُ تعالى، مثلَما قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقد أنعَم اللهُ تعالى بعِلم القرآنِ الكريم على نبيِّه الحبيبِ ﷺ، والمحافظونَ على هذا العِلم وحُرّاسُه هم العلماءُ الكرامُ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ **«إنّ العلماءَ وَرَثةُ الأنبياء، إنّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنّما وَرَّثوا العِلمَ، فمَن أخَذ به أَخَذ بحظٍّ وافرٍ»**[٤]، ولهذا ليس هناك اختلافٌ في ألفاظِ القرآنِ الكريم؛ لأنّ المحافظَ عليه هو اللهُ تعالى، وهناك اختلافٌ في عِلم القرآنِ الكريم؛ لأنّ

---

(١) تفسير روح البيان، سورة الأنبياء، الآية ٢٤.

(٢) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٣٢.

(٣) شعب الإيمان، البيهقي، ٢: ٢٨١.

(٤) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩.

المحافظينَ عليه هم العلماءُ، لكنّ اختلافَ أهل العِلم رحمةٌ مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**اختلافُ أُمّتي رحمةٌ**»(١)، ولهذا فإنّ الفَضْلَ في وجودِ علوم القرآنِ والحديث والشَّريعةِ حتى اليومَ يعودُ إلى العلماءِ الكرام، ويجبُ أن يكونَ المسلمونَ جميعًا ممتنِّينَ للعلماءِ الكرام معترِفينَ بفَضْلِهم، وعلى سَبيل المثال: لو تصوَّر أحدٌ أنه تعلَّم الإسلامَ من «البخاريِّ» وليس من العلماءِ الكرام، فإن «البخاريَّ» نفسَه ما هو إلا نِتاجُ جهودِ واحدٍ من علماءِ الدِّين، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**يوزَنُ يومَ القيامة مِدادُ العلماءِ ودمُ الشُّهداء، فيرجَحُ عليهم مِدادُ العلماءِ على دم الشُّهداء**»(٢)، والحقيقةُ أنّ الشهداءَ أيضًا ممتَنُّونَ للعلماءِ الكرام؛ لأنّهم سَمِعوا عن فَضْل الشهادةِ من العلماء، ثم شربوا كأسَ الشّهادةِ إرضاءً لله تعالى، مثلَما جاء في الحديثِ الشّريف: «**يأتي يومَ القيامة أربعةٌ على باب الجنّة بغيرِ حسابٍ؛ الحاجُّ الذي حجَّ البيتَ بغير إفسادٍ، والشّهيدُ الذي قُتِل في المعركة، والسَّخيُّ الذي لم يلتمسْ بسخاوتِه رياءً، والعالِمُ الذي عَمِل بعِلمِه، فيتنازَعونَ في دخولِ الجنّة أوّلًا، فيُرسلُ اللهُ جِبرائيلَ ليحكُمَ بينَهم بالعَدْل، فيقولُ للشّهيد: ما فعلتَ في الدُّنيا حتّى تريدَ أن تدخُلَ الجنّةَ أوّلًا؟ فيقول: قُتِلت في المعركة لرضَى الله تعالى، فيقولُ: ممّن سَمِعتَ أنّ من قُتِل في سبيل الله يدخُلُ الجنّةَ؟ فيقول: من العلماء، فيقولُ: احفَظِ الأدبَ ولا تتقدَّمْ على معلِّمِك، ثمّ يسألُ الحُجّاجَ والسّخيَّ كذلك، ثمّ يقولُ لهما: احفظا الأدبَ ولا تَقدَّما على معلِّمِكما، ثمّ يقولُ العالِم: إلهي، أنت تعلَمُ أنّي ما حصَّلتُ العِلمَ إلّا بسخاوةِ السَّخيّ وأنت لا تُضيعُ أَجْرَ المحسِنين، فيقولُ اللهُ: صَدَق العالِمُ، يا رضوانُ، افتَح البابَ وأدخِل السّخيَّ أوّلًا**»(٣).

كما أنه لا يَعلَمُ إلّا اللهُ كم من الناسِ قد شربوا كأسَ الشهادةِ إرضاءً لله تعالى

---

(١) كنز العمال، ١٠: ١٣٦.

(٢) كنز العمال، ١٠: ١٤١.

(٣) تفسير روح البيان، ٣: ٣١٤.

في عهدِ سيّدِنا الإمام البخاريِّ رحمةُ الله عليه، فهم قدِ استَحقُّوا الجنّةَ بطبيعةِ الحال، لكنَّنا لا نَعلَمُ اليومَ حتى أسماءهم، بينَما سيّدُنا الإمامُ البخاريُّ رحمةُ الله عليه حيٌّ حتّى اليوم في قلوبِ أهل الإيمانِ بِمِدادِ قلمِه، والأحاديثُ الشّريفةُ التي دوَّنَها في «صحيحِه» تقومُ بإرشادِ الناس منذُ مئاتِ السِّنين، وستبقَى كذلك حتى قيام السّاعة، بل إنّ العِلمَ ثروةٌ خالدةٌ لا مثيلَ لها بحيثُ سيَحتاجُ أهلُ الجنَّة في جنَّتِهم أيضًا إلى العلماء؛ لأنّ أهلَ الجنَّة سيَشرُفُونَ بزيارةِ الله تعالى كلَّ يوم جمُعة. **عن جابرٍ رضي الله عنه: «إنّ أهلَ الجنّةِ لَيحتاجونَ إلى العلماءِ في الجنّة، وذلك أنّهم يَزُورونَ اللهَ تعالى في كلِّ جمُعةٍ، فيقولُ لهم: تمنَّوْا علَيّ ما شئتُم، فيلتفتونَ إلى العلماء، فيقولون: ماذا نتمنَّى؟ فيقولونَ: تمنَّوْا عليه كذا وكذا، فهم يحتاجونَ إليهم في الجنَّةِ كما يحتاجونَ إليهم في الدُّنيا»**[1].

لمحات فكريّة لأهل العلم:

١ـ عن ابن عَبّاس رضيَ اللهُ عنهما: «العالِمُ عالِمان: عالِمٌ طلَبَ بعِلمِه اللهَ لم يأخُذْ عليه طمعًا ولم يشترِ به ثمنًا، وعالِمٌ طلَبَ بعِلمِه الدُّنيا اشتَرى به ثمنًا وأخَذ عليه طمعًا بَخِل به على عبادِ الله يُلجِمُه اللهُ يومَ القيامة بلِجامٍ من نارٍ فيُنادي عليه مَلَكٌ من الملائكة: ألا إنّ هذا فلانٌ ابنُ فلانٍ آتاه اللهُ تعالى في دارِ دُنيا عِلمًا فاشتَرى به ثمنًا وأخَذ عليه طمعًا»[2].

٢ـ «عَلَّم اللهُ تعالى آدمَ ألفَ حِرفةٍ من الحِرَف، وقال له: قُلْ لوَلَدِك وذُرّيّتك: إنْ لم تصبِروا فاطلُبوا الدّنيا بهذه الحِرَف ولا تَطلُبوها بالدِّين، فانّ الدِّينَ لي وحدي خالصًا، وَيْلٌ لمَن طَلَبَ الدُّنيا بالدِّين وَيْلٌ له»[3].

---

(١) كنز العمال، ١٠: ١٥٠ برقم ٢٨٧٦٧.

(٢) كنز العمال، ١٠: ٢٠٤ برقم ٢٩٠٨٢.

(٣) البدر المنير، ٢٨٩، كنز العمال، ، ١٠: ٢٠٦ برقم ٢٩٠٩١.

٣ـ عن الوليد بن عُقبةَ رضي اللهُ عنه: «إنّ أُناسًا من أهل الجنّة يطَّلِعونَ إلى أُناسٍ من أهلِ النار فيقولونَ: بمَ دخلتُم النارَ؟ فوالله ما دخَلْنا الجنةَ إلّا بما تعلَّمنا منكم، فيقولون: إنّا كنا نقولُ ولا نعمَل»[١].

٤ـ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه: «إنّ اللهَ لا يَقبِضُ العِلمَ (قربَ يوم القيامة) **انتزاعًا ينتزِعُه من الناس، ولكنْ يَقبِضُ العلماءَ، فإذا ذَهَب العلماءُ اتَّخذَ الناسُ رؤساءَ جُهّالًا، فسُئلوا فأفتَوْا بغيرِ عِلمٍ فضَلُّوا وأضَلُّوا عن سواءِ السَّبيل»**[٢].

٥ـ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «طلَبُ العِلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ، وواضعُ العِلم عندَ غيرِ أهلِه كمقلِّدِ الخنازيرِ الجَوْهرَ واللّؤلؤَ والذّهبَ»[٣].

٦ـ عن أبي كَبْشة، قال: سمعتُ أبا الدَّرداءِ يقولُ: «إنّ من أشرِّ الناسِ عندَ الله منزلةً يومَ القيامة عالِمًا لا يُنتفَعُ بعِلمِه»[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ

---

(١) كنز العمال، ١٠: ١٨٩ برقم ٢٨٩٩١.

(٢) كنز العمال، ١٠: ٢٠٧ برقم ٢٩٠٩٥.

(٣) ابن ماجه، المقدمة، باب ١٧ برقم ٢٢٤.

(٤) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٢٧.

عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾

١٠٠ـ التفسيرُ الظاهريُّ لهذه الآيةِ هو: حارِبوا أولًا العدوَّ الذي يقتربُ منكم؛ لأنّكم إن حارَبتُم العدوَّ البعيدَ أولًا، فإنّ العدوَّ القريبَ قد يهجمُ عليكم من الخَلْفِ ويؤْذيكم. على أيةِ حال إذا واجهتُم العدوَّ فتوكَّلوا على الله وواجِهوهُ بكلِّ قوةٍ وشجاعةٍ وغِلظة حتى يَرهَبَ جانبَكم، أمّا إن أظهرتُم ضعفًا أو لينًا فإنه سيتجرَّأُ عليكم وقد يهزِمُكم، ولو نَظَرْنا إلى هذه الآية في ضوءِ الآية التي تليها فيكونُ المرادُ بالكفّارِ هنا: المنافقينَ الذين يعيشونَ بينَكم، ولهذا عليكم أولًا أن تقضُوا على هذه الثَّعابين الكامِنة في أكمامِكم مثلَما أمَرَ اللهُ تعالى بالجهادِ ضدَّهم والغِلظةِ عليهم، ولمزيدٍ من التفصيل في ذلك راجع الحاشيةَ رقم ٥٤ والآيةَ رقم ٧٣ من هذه السُّورة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾

١٠١ـ حين كانت تنزِلُ سُورةٌ جديدةٌ كان المنافقونَ يسألونَ المسلمينَ البُسَطاءَ على سبيل السُّخْرِيَة قائلين: من مِنكم زادَتْه هذه السُّورةُ إيمانًا؟ وقد جاء الردُّ على هذا الكلام في هذه الآية بأنه كلَّما نَزَلت سورةٌ جديدة، وسَمِع أهلُ الإيمان كلامَ الله الذي يَنزل، فإنّ إيمانَهم يزدادُ يقينًا، ويسعَدونَ بذلك كثيرًا، أمّا الذين في قلوبِهم نفاقٌ وكفرٌ فإنّهم ينكرِونَها مثلَما أنكَروا ما نَزَل قبلَها من السُّور، فيترسَّخُ نفاقُهم بشكلٍ أكبر، بحيث لا يوفَّقونَ إلى التَّوبة، ويموتونَ على الكُفر، مثلَما يصيبُ المرضُ معِدةَ شخص ما ويتمكَّنُ منها، فإنّ الغذاءَ الذي يمنَحُ الصِّحةَ والقوةَ للآخَرين يكونُ سببًا في زيادةِ مرضِه، وقد يكونُ سببًا في موتِه.

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

١٠٢ـ كان المنافقونَ يُبتلَوْنَ في العام الواحدِ مرةً أو مرَّتَيْنِ على الأقلِّ بما يُشيرُ إلىٰ خطأِهم بنفاقِهم، على سَبيل المثال: كانوا يختلقونَ الأعذارَ الكاذبةَ ليتخلَّفوا عن الجهاد، فيَظهَرُ من ذلك نفاقُهم، وتَنزِلُ الآياتُ القرآنيَّةُ ضدَّهم، فتكشِفُهم وتفضَحُ سرَّهم، وكانوا يتمنَّونَ الهزيمةَ للمسلمينَ في الحروب، لكنّ اللهَ كان ينصُرُ المسلمينَ، وكانوا يشاهدونَ معجِزاتِ النبيِّ ﷺ التي كانت تؤيِّدُ صِدقَه وصِدقَ رسالتِه، ومعَ ذلك كانوا يعمَلون على القضاءِ على الإسلام، لكنّ الإسلامَ كان ينتشرُ بسرعة، كلُّ هذه الأمورِ كانت كافيةً لأنْ تُفتَحَ عيونُهم على الحقِّ، لكنّهم كانوا قد توغَّلوا في النِّفاقِ والعِناد إلى درجةٍ جعَلَتْهم لا يوفَّقونَ إلى التوبة.

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾

١٠٣ـ حين كانَ الوحيُ ينزِلُ على النبيِّ ﷺ، وكان المنافقونَ موجودينَ في نفس المجلس، فإنّ سَماعَ كلام الله تعالى كان يُشقُّ عليهم كثيرًا، وخاصّةً تلك الآياتِ التي تفضَحُ سرَّ نفاقِهم، فكانوا يَهرُبونَ من المكان، ويَغمِزونَ بأعيُنِهم بعضُهم لبعضٍ، وحين كانوا يرَوْنَ أنّ الصّحابةَ الكرامَ رضي اللهُ عنهم يسمَعونَ كلامَ الله بكلِّ تمعُّنٍ وتدبُّرٍ، كانوا ينسحِبونَ من المجلسِ في صَمْت دونَ أن يَراهم أحدٌ، حتى لا يَعلَمَ المسلمونَ بمغادرتِهم، ويظلُّ نفاقُهم خافيًا لا يَعلَمُ به أحد. على أيّةِ حال حين أعرَضَ المنافقونَ عَمْدًا عن سَماع كلام الله تعالى، عاقَبَهم اللهُ تعالى بأنْ حَرَم قلوبَهم من قَبولِ الحقِّ.

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

١٠٤ـ لقد جاءكم نبيٌّ عظيمُ الشّأنِ في صورةِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ، وكلُّ عملٍ

يؤْذيكم، أو يكونُ سببًا في دخولِكم جهنَّمَ في الآخِرة، كان يشُقُّ على النبيِّ ﷺ، ويريدُ منكم أن تتجنَّبوا مِثلَ هذه الأعمالِ الخاطئة، وكلُّ عملٍ ينفَعُكم في الدّنيا، ويكونُ سببًا في دخولِكم الجنةَ في الآخِرة كان النبيُّ ﷺ يَحرِصُ عليه تمامَ الحرص، ويريدُ منكم أن تتسابقوا إلى مِثل هذه الأعمالِ الطيِّبة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: **«إنّما مَثَلي ومَثَلُ النّاسِ كمَثَل رجُلٍ استَوقَدَ نارًا، فلمّا أضاءت ما حولَه جَعَل الفَراشُ وهذه الدّوابُّ الّتي تَقعُ في النّارِ يقَعْنَ فيها، فجَعَل يَنزِعُهنَّ ويَغلِبْنَه فيَقتحِمْنَ فيها، فأنا آخِذٌ بحُجزِكم عن النّار، وأنتم تقتحمونَ فيها»**[1].

﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ ﴾

١٠٥- وفي النِّهاية سَرَّى اللهُ تعالى عن نفسِ رسولِه ﷺ بأنّك يا رسولَ الله تريدُ أن تُنقذَهم من المصاعبِ ومن عذابِ جهنّم وتأخُذَهم إلى الراحةِ وإلى الجنّة، وبعدَ كلِّ هذا إنْ أعرَضوا عنك فلا تبالِ بهم، واللهُ كافيك وحَسِيبُك، فتوكَّلْ عليه هو. وقد قال النبيُّ ﷺ فيما يتعلَّقُ بالجزءِ الأخيرِ من الآية، فيما رواه سيّدُنا أبوالدَّرداءِ رضي الله عنه: **«مَن قال إذا أصبح وإذا أمسَى: حَسْبيَ اللهُ لا إلهَ إلّا هُو عليه توكَّلتُ وهو ربُّ العَرْش العظيم، سبعَ مرّاتٍ، كفاه اللهُ ما أَهمَّه»**[2].

الاثنين الموافق السابع من أغسطس عام ٢٠٠٦م،	العبدُ الفقير إلى الرحمن الرحيم
جامعة الكرم، إيتن هال، إنجلترا.	محمَّد إمداد حُسَين بِيرْزَاده



(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٢٦ برقم ٦٤٨٣.

(٢) أبوداود، كتاب الأدب، باب ١١٠ برقم ٥٠٨١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠) سُورَةُ يُونُسَ

هذه السُّورة مكِّية؛ لأنّها نَزَلت قبلَ الهجرة، واسمُها «يونُسُ»، لأنه في الآيةِ رقم (٩٨) منها جاء ذِكرُ نجاةِ قوم يونُس.

كان كفّارُ العربِ يعبُدونَ مئاتِ الآلهة من زمنٍ بعيد، ولم يكنْ من السَّهل عليهم الاعتقادُ في إلهٍ واحد، أو الإيمانُ بأنّ إنسانًا ما هو رسولُ الله، ولهذا تمادَوْا في عِدائهم للنبيِّ ﷺ، ومن كان يَدخُلُ الإسلامَ أهالوا فوقَ رأسِه جبالًا من الظلم.

في هذه السُّورة جاء تلقينُ المسلمينَ الصَّبرَ على المصاعبِ والمصائبِ من جانب، ومن جانبٍ آخَر جاءتِ الآيةُ للكفّارِ بالأدِلّة والبراهينِ على التوحيدِ والنُّبوةِ والقرآنِ والآخِرة، كما أورَدَت السُّورةُ واقعاتِ المصير السيِّئ الذي آلتْ إليه الأُممُ السّابقةُ التي كذَّبت رُسُلَها وأنبياءها الكرامَ عليهم السَّلام قبلَ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ، حتى يَرجعَ الكفّارُ عن كُفرِهم، مُخبِرةً إيّاهم بأنْ لا يفرَحوا بهذه الحياةِ الدُّنيا فقطْ، وإنّما عليهم أن يتدبَّروا ويتفكَّروا أيضًا في الحياةِ الأَصْليّة وهي الآخِرة.

بعدَ صلاة فجرِ يوم الاثنين ١٢ من سبتمبر عام ٢٠٠٦م.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمداد حُسَين بِيرْزادَه، جامعة الكرَم

* * *

سُورَةُ يُونُسَ (١٠)،

مكّيّة (٥١)، آياتها (١٠٩)، ركوعاتها (١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

﴿الٓر﴾

١ـ هذه حروفٌ مقطَّعة، ويُمكنُك مراجعةُ تفسيرِها في الحاشية رقم ١ من سُورة البقرة (٢).

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾

٢ـ القرآنُ الكريمُ كتابٌ كلُّه حِكمة، فلا يَخْلو أيُّ لفظٍ منه من الحِكمة، بمعنى: أنّ كلَّ كلامِه مطابِقٌ للحقِّ والعِلم والحِكمة.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾

٣ـ ليس أمرًا عجيبًا أنْ أرسَلْنا نبيًّا من بني الإنسانِ لهداية بني الإنسان، بل إنّ هذا هو الحِكمةُ بعينِها؛ لأنّـنا لو أرسَلْنا ملاكًا أو جنًّا إلى البشَر رسولًا فلن تَرَوْهُ، ولن تستطيعوا الاستفادةَ منه، ولكنّ كفّارَ مكّةَ حينَ لم يستطيعوا الردَّ على دلائلِ القرآنِ الكريم اتَّهموا النبيَّ ﷺ بالسِّحر، وهو أمرٌ في غاية العجَب في ذاتِه، إذ كيف يصبحُ هذا الشّخصُ الذي ظلُّوا يَدْعونَه الصّادقَ الأمينَ طيلةَ العمُرِ ساحرًا هكذا فجأةً؟

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

٤ـ ارجِعْ في تفسيرِ هذه الآية إلى الحاشية رقم ٣٩ من سُورة الأعراف (٧).

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾

٥ـ يعني: أنّ اللهَ تعالى بعدَ أنْ خَلَق السماواتِ والأرضَ لم يقطَعْ علاقتَه بهما، وإنّما كلُّ نُظُم الكائناتِ وتسييرِها في يدِ قُدرتِه هو، وكلُّ ما يحدُثُ، صغيرًا كان أم كبيرًا، إنما يحدُثُ بأمرِه وإذْنِه هو، ولا أحدَ غيرُه.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾

٦ـ كان المشركونَ يعتقدونَ أنّ هذه الأصنامَ ستشفَعُ لهم يومَ القيامة، وسوف تُنجيهم من عذابِ الله تعالى، وفي هذه الآيةِ جاء إبطالُ هذا الادِّعاءِ والردُّ عليه بأنّ من سيشفَعُ يومَ القيامة هم أؤلئك المختارونَ الذين يأذَنُ اللهُ تعالى لهم بالشَّفاعة، وقد ردَّ بهذه الآية «**على مَن زَعَم أنّ آلهتَهم تشفَعُ لهم عندَ الله، وفيه إثباتُ الشَّفاعة لمن أذِنَ له**»[1].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾

٧ـ يعني: أنّ اللهَ تعالى هو خالقُ الكائناتِ كلِّها ومالكُها، وهو ربُّكم، وهو المستحِقُّ للعبادةِ لا غيرُه، لهذا عليكم أن تتعقَّلوا وتتفكَّروا، ولا تعبُدوا إلا اللهَ فقط.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾

٨ ـ كان المشركونَ يتصوَّرونَ أنّ الإنسانَ لا يمكنُ أن يحيا بعدَ موتِه مرّةً أخرى يومَ القيامة، فجاء الدّليلُ في هذه الآية على البَعْثِ بعدَ الموتِ من خلال الخَلْق الأوّل، بمعنى: أنّ الذاتَ التي خَلَقتِ الإنسانَ الأولَ بغيرِ مادة، ودونَ وجودِ شكلٍ أو صُورةٍ سابقة له، هل يصعُبُ عليها أن تُفنيَ هذا الإنسانَ ثم تُحييَه من جديدٍ على نفسِ الشكل والصُّورة، حتى يلقَى المحسنونَ أَجْرَ إحسانِهم، والمسيئونَ جزاءَ إساءتِهم! ويقال لذلك اليوم: «يومُ القيامة»، وفيما يلي تعريفٌ مختَصرٌ به:

الإيمان بيوم القيامة

ذاتَ يوم جاء جِبريلُ عليه السَّلامُ في صُورةِ بشَرٍ كما جاء في روايةِ سيّدِنا عُمَر بن الخطّاب رضيَ الله عنه: «**بينَما نحن عندَ رسولِ الله ﷺ ذاتَ يومٍ، إذْ طَلَع علينا رجلٌ**

---

(١) تفسير البيضاوي.

شديدُ بياضِ الثّياب، شديدُ سَوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفَر، ولا يَعرِفُه منّا أحد، حتّى جلَسَ إلى النّبيِّ ﷺ، فأسنَدَ رُكبتَيْه إلى رُكبتَيْه، ووَضَع كفَّيْه على فَخِذَيْه، وقال: ... فأخبِرْني عن الإيمان، قال: أن تؤمنَ بالله، وملائكتِه، وكتُبِه، ورسُلِه، واليوم الآخِر، وتؤمنَ بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه»[1]. ذَكَر هذا الحديثُ ستةَ أركانٍ للإيمان، ومن بينِها الإيمانُ بيوم القيامة.

يوم القيامة:

المرادُ بالقيامة: أنه سيأتي يومٌ على وَجْهِ اليقين تَفنَى فيه هذه الكائناتُ كلُّها ومَن فيها وما فيها، ولن يبقَى سوى اللهِ الباقي الأزَليِّ الأَبديِّ، وهو الذي سيُحيي البَشَر بعدَ موتِهم، وستُنصَبُ عدالةُ هذا الإلهِ القادرِ المطلَق، وسيُقدَّم سِجِلٌّ كاملٌ لحياة كلِّ بشَر، وسيكونُ الحُكمُ بدخولِه الجنّةَ أو النارَ طِبقًا لنتيجةِ أعمالِه.

والإيمانُ بيوم القيامة من العقائدِ الأساسيّة في الإسلام، ولا يمكنُ أن يكونَ الإنسانُ مسلمًا دونَ أن يؤمنَ بيوم القيامة.

دار الجزاء:

تشتملُ حياتُنا على جُزأَيْن؛ الأول: دُنيَويّ، والثاني: أُخْرَويّ، فالحياةُ الدُّنيا هي دارُ العمل، وهي التي نعمَلُ نحن فيها، بينَما الحياةُ الأُخرى هي دارُ الحسابِ والجزاء، وهي التي نُجازَى فيها على أعمالِنا مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**الدُّنيا مزرعةُ الآخِرة**»[2]، بمعنى: أنّ الحياةَ الدنيا مِثلُ الحَقْلِ الذي نزرَعُه برغبتِنا، وبالتالي يتوقَّفُ الأمرُ على اختيارِنا نحن: أيَّ شيءٍ نزرَع؟ وفي كلِّ حال النتيجةُ واضحةٌ،

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ١ برقم ٩٣.

(٢) المقاصد الحسنة، ٢٢٧.

فإنْ زرَعْنا أعمالًا حسَنةً، فسوف نسعَدُ بثمارِها الطيِّبة يومَ القيامة، وإنْ زرَعْنا أعمالا سيِّئة، فسوف نُبتَلى بثمارِها المُرّةِ يومَ القيامة، وقد قال النبيُّ ﷺ: **«نعمَتِ الدّارُ الدُّنيا لمن تَزوَّد منها لآخِرتِه»**[١].

فائدة الإقرار بيوم القيامة:

هذه العقيدةُ تنبِّهُ الإنسانَ بصفةٍ مستمرَّة بأنّ كلَّ حركةٍ من حركاتِه مُراقبةٌ ومسجَّلةٌ عليه، وسوف يُسألُ عنها يومَ القيامة، وكأنّ معنى الإقرارِ بيوم القيامة هو: أنّ الإنسانَ يُسلِّمُ نفسَه إلى «لجنةِ تحقيقاتٍ» تراقبُ حركاتِه كلَّ لحظة، ولا تقتصرُ مراقبتُها على العلانيَة وعلى الملأِ فقطْ، وإنّما تمتدُّ لتشمَلَ الخفاءَ والخلاءَ أيضًا، والمُدهشُ أنّ هذهِ اللَّجنةَ لا تراقبُ أفعالَه فقطْ، وإنّما تراقبُ كلَّ أفكارِه في أعماقِ قلبِه! وفوقَ هذا فإنّ كلَّ قراراتِها وأحكامِها صحيحةٌ تمامًا، ومطابِقةٌ للعدلِ والإنصافِ المَحْض، وليس هناك أيُّ مجالٍ لتضييع حقِّ أحدٍ أو ظُلمِه، ولذا فإنّ الذي على الحقِّ سيكونُ غيرَ خائف ولا خَطَرَ عليه، بينَما لن يُفلتَ الذي يكونُ على الباطل من العقاب.

بالله عليك، هل يتَصوَّرُ أحدٌ في وجودِ مثلِ هذه العقيدةِ أن يُتجاوَزَ حقوقُه؟ بالطَّبع لا، فالمؤمنونَ بيوم القيامة سواءٌ كانوا تحتَ مراقبةِ جنودِ الحكومة أم لا، تمنَعُهم عقيدةُ الإيمانِ بيوم القيامة منَ ارتكابِ السُّوء، فإذا صَدَر منه أيُّ فعلٍ خاطئ بضغطِ الضَّعف البشَريِّ، فلن تجدَ الحكومةُ صعوبةً في البحثِ عن المجرم، بل إنّ إيمانَه بيوم القيامة هو الذي سيأتي به إلى ساحةِ القضاءِ ليقدِّم نفسَه إليه، ولا يوجَدُ مثلُ هذا التصوُّر في محاسبةِ النفْس في أيِّ نظام من نُظُم الدُّنيا، وإنّما هذا الشَرفُ نالتْه الأُمّةُ المسلمةُ فقطْ، وأَنْعَم به عليها ربُّ العزَّة خالقُ الكائناتِ سبحانَه وتعالى.

---

(١) المقاصد الحسنة، ٢٢٧.

مثالب إنكار القيامة:

لو افترَضْنا أنّ المحطةَ الأخيرةَ لحياةِ الإنسان هي الموتُ، وأنه ليس بعدَه شيءٌ، ولن تكونَ هناك مرحلةٌ تاليةٌ يتِمُّ فيها الحسابُ والعقابُ والإثابة، فإنّ كلَّ إنسانٍ سيرغَبُ عندَئذٍ في أن يجعَلَ هذه الحياةَ القصيرةَ مُمتعةً بأكبرِ قَدْرٍ ممكن، وأنْ لا يُضيّعَ لحظةً واحدةً دونَ أنْ يستمتعَ بالمَلذّات، وعندَئذٍ لن يكونَ هناك تمييزٌ بينَ الحقِّ والباطل في غَمْرةِ الحِرص على تحقيقِ هذه الرَّغَبات، وباختصار: سيتِمُّ توظيفُ كلِّ إمكانياتِ الجِسم والعقل في تحقيقِ المصالح العاجِلة، دونَ النَّظرِ إلى ما يجوزُ وما لا يجوز، ولئنْ فكَّرتَ قليلًا لاعترفتَ بحقيقةِ أنّ هذا التصوُّرَ هو نفسُ التصوُّر الذي أنتجَ فِرعَوْنَ والنَّمرودَ، وظَهَر قارونُ وشَدّادٌ تِبْعًا لهذه النظَّريّة، وهمُ الذين جَعَلوا للظُّلم سُوقًا رائجةً دونَ النظرِ بعَيْنِ الاعتبار إلى المصيرِ المحتوم، وهكذا ألقَوْا بالإنسانيَّةِ في قعرِ المَذَلّة.

الحاجة إلى القيامة

(١) طائلةُ القانون

كلُّ دولةٍ تَسُنُّ القوانينَ للقضاءِ على الجرائم، وتستخدمُ كلَّ قوةٍ ممكِنة من أَجْل إصلاح المجرم، وبالرَّغْم من هذا فلا نَملِكُ إلّا أن نعترفَ بأنه حتى الدُّولُ التي تُنفِّذُ القانونَ تزيدُ فيها الجرائمُ أيضًا، وليس ذلك لأنّ القائمينَ على تنفيذِ القانون ضِعَافٌ أو مُهمِلون، ولكنْ لأنّ طائلةَ القانون محدودةٌ، فالقانونُ الإنسانيُّ يستطيعُ أن يراقبَ ظاهرَ الإنسانِ وعلانيَتَه، لكنّه لا يمكنُ أن يراقبَ باطنَه وخَلْوتَه، والمجرمُ دائمًا يَتوارَى عن أنظارِ القانون ثم يرتكبُ جريمتَه، وبالتالي فهذه هي القضيَّةُ التي لا حَلَّ لها إلّا الإيمانُ بيوم القيامة؛ لأنّ عقيدةَ الإيمانِ بيوم القيامةِ هذه بمثابةِ القانونِ الشّامل الذي لا تتوقَّفُ طائلتُه عندَ الظاهرِ فقطْ، وإنّما تحيطُ بالخَلْوة بل وبأعماقِ القلوبِ أيضًا.

(٢) الجرائمُ الخَفِيَّة:

لو تيقَّن المجرمُ أنه لن يستطيعَ الإفلاتَ من العقاب، فإنّي أظُنُّ أنّ الغالبيَّةَ العُظمى لن تتجرَّأَ على ارتكابِ الجُرم، ونسبةُ ٩٩٪ من مجرمي العالَم يرتكبونَ جرائمَهم على أملِ أن لا يكتشفَها أحدٌ، وعلى افتراضِ أنّهم قُبِضَ عليهم، ففي هذه الحالةِ يُفلتونَ من العقابِ بالرِّشوة أو بالخِداع، وللقضاءِ على هذا الزَّعْم الباطل يصبحُ الإيمانُ بيوم القيامةِ ضروريًّا، حيث لا رِشوةَ تنفَع، ولا جريمةَ يمكنُ إخفاؤها.

إنّنا اليومَ نُخفي تقصيرَنا عن أصدقائنا حتّى لا يكونَ هناك ما نَخْجَلُ منه، ولكنْ ماذا سنفعَلُ في ذلك اليوم حيث تنكشفُ سيِّئاتُنا على الملأِ؟ ليتَنا اليومَ نتذكَّرُ ذلك اليومَ قبلَ أن نُقْدِمَ على ارتكابِ سيِّئة، حيث لن يمكنَنا إخفاءُ ولو مجرَّدِ أصغرِ هفوةٍ نرتكبُها.

(٣) الحقُّ والباطل:

في هذه الدُّنيا الفانية يدَّعي كلُّ إنسانٍ وكلُّ جماعةٍ أنها هي - فقطْ - على الحقِّ، حتّى أنّ المشركينَ أيضًا مبتلَوْنَ بسُوءِ الفَهْم هذا، ولا يبدو أنه يمكنُ القضاءُ على هذا الأمرِ في هذه الحياةِ القصيرة، ولذا ينبغي أن يأتيَ يومٌ يتَّضحُ فيه الحقُّ من الباطل، وعندها سيعترفُ عَبَدةُ الباطل أيضًا أنّ الحقَّ هو ذلك الذي جاء به نبيُّنا ﷺ، واتَّبعَه مُحِبُّوه المؤمنونَ به.

(٤) أَجْرُ الشَّهيد:

الفِطرةُ الإنسانيَّةُ تقتضي أن ينالَ الإنسانُ أَجْرَ جُهدِه وعمَلِه وكفاحِه، ولكنْ هناك العديدُ من الأعمالِ لا يمكنُ أن يحصُلَ الإنسانُ على أَجْرٍ لها في هذه الدُّنيا، وعلى سبيل المثال: ذلك المجاهدُ الذي بَذَل رُوحَه ودمَه من أَجْلِ رِفعةِ الحقِّ

وإعلاءِ كلمتِه، أو من أَجْل حمايةِ وطنِه وأُمّتِه، وعلى رأسِ هؤلاء أعظمُ الشُّهداءِ سيّدُنا الإمامُ الحُسَينُ رضيَ اللهُ عنه، فإذا لم تكنْ هناك حياةٌ أخرى فكيف إذًا يُوفَّى شُهداءُ الوفاءِ هؤلاء حقَّهم؟

وفي اعتقادي البسيطِ إنه لن يكفيَ أن نقولَ: إنّ أمثالَ هؤلاءِ الشُّهداءِ سيُخلَّدُ ذِكرُهم، وستَذكُرُهم الأجيالُ القادمةُ بكلِّ احترام وتكريم، فهذا بمثابةِ الظُّلم لهم، ولا يوجَدُ عقلٌ سَليمٌ يعتقدُ أنّ أَجْرَ التّضحية بأعزِّ شيءٍ في الحياة ـ وهو الرُّوحُ ـ تستوفيه الشُّهرةُ التاريخيَّةُ وحسبُ، ومن هنا يصبحُ من الضَّروريِّ أن تكونَ هناك حياةٌ خالدةٌ بعدَ هذه الحياة الفانية، حيث يَحصُلُ شهداءُ الأُمّةِ على الأَجْرِ العظيم الذي يَليقُ بما بَذَلوه من تضحيات.

رأي ضياء الأمّة
سيّدنا الشّيخ محمد كرم شاه الأزهريّ رحمة الله عليه القيّم:

بيَّن شيخي وسيِّدي الشّيخُ محمَّد كَرَم شاهِ الأَزْهريُّ رحمةُ الله عليه في عدّةِ مواضعَ من تفسيرِه ذائع الصِّيت «ضياءِ القرآن» الحِكمةَ من يوم القيامة، وفيما يلي هذا التحليلُ الرائعُ لحِكمةِ القيامة بنصِّ ألفاظِه التي تفوقُ الذَّهبَ قيمةً ومقامًا:

«رجُلٌ يحمِلُ عَلَمَ الحقِّ، وتنزِلُ به آفاتُ الدُّنيا ومصائبُها، ويُطرَدُ من بيتِه لمجرَّدِ أنه قال عن الحقِّ: إنه حقٌّ، ويُحرَمُ من مالِه ومتاعِه، ثم يُعلَّقُ على حَبْل المِشْنقة، وبعدَ ذلك لا يأتي يومٌ يؤجَرُ فيه على فدائه للحقِّ وشجاعتِه وثباتِه، وعلى الجانبِ الآخَر: شخصٌ ينشُرُ في الأرضِ الدَّمارَ والخرابَ كصاعقةٍ من الظُّلم والقَهْر، ويَعِيثُ فيها فسادًا وانحلالًا، وحينَ يرحَلُ هذا المتمرِّدُ عن الدُّنيا، هل يتِمُّ نسيانُ ما فَعَل، ولا يُعاقَبُ على ما ارتكبَ من فاحشةٍ طيلَ حياتِه، ولا على

إيذائه للخَلْق في دنياه؟ إنّ مِثلَ هذا يتنافَى تمامًا معَ حِكمةِ الله تعالى، ولا يَقبَلُه عقلٌ سليمٌ أبدًا»[١].

القرآن المجيد والقيامة:

لقد شَرَح القرآنُ الكريمُ عقيدةَ يوم القيامةِ هذه بألفاظٍ غايةٍ في القوّةِ لدرجةٍ لم يبقَ معَها مجالٌ لأيِّ شكٍّ أو شُبهةٍ، وربَّما لا توجَدُ صفحةٌ من صفَحاتِ القرآن تَخْلو من ذِكرِ هذه العقيدة بطريقةٍ أو بأُخرى، وفيما يلي نُقدِّمُ بعضَ الآياتِ القرآنيَّةِ هديةً للناظِرينَ على سبيلِ المثال:

١- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

٢- ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

٣- ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحجر: ٧].

٤- ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا * ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا * أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١].

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾

٩- هذا النِّظامُ الرائعُ للسَّماءِ والأرضِ فاللهُ تعالى «خَلَق الشّمسَ نيِّرةً في ذاتِها، والقمرَ نيِّرًا بالاكتسابِ من الشّمس»[٢].

(١) ضياء القرآن، سورة الرعد (١٣) برقم ٥.

(٢) التفسير المنير.

لقد حدَّد اللهُ تعالى منازلَ بعينِها للقمر، وهو كلَّ يوم يَطْوي مسافةَ منزِلٍ من هذه المنازل، فيبدو لنا في المنازلِ الأولى صغيرًا ودقيقًا، ثم يزدادُ حجمُه تدريجيًّا حتى يكتملَ في ليلةِ الرابعَ عشَرَ من الشَّهر، ثم بعدَ ذلك يأخُذ في التناقُص، يختفي لليلةٍ في آخرِ الشّهر إن كان هذا الشهرُ تسعةً وعشرينَ يومًا، أو يختفي لليلتَيْنِ في آخرِ الشّهرِ إن كان الشّهرُ ثلاثينَ يومًا، ثم يَطلُعُ ثانيةً هلالًا.

وفائدةُ هذه المنازلِ أنكم من خلالِها تستطيعونَ حسابَ السِّنينَ والشُّهور، وكلُّ هذه الأشياءِ خَلَقَها اللهُ بالحقّ، ولا يوجَدُ من بينِها شيءٌ لا فائدةَ منه، وقد بيَّن اللهُ تعالى آياتِه بوضوح لأهل العِلم، حتى يتدبَّروها وينتفِعوا بها، وقد قال سيّدُنا العلّامةُ السُّيوطيُّ رحمةُ الله عليه: «**هذه الآيةُ أصلٌ في عِلم المواقيت، والحسابِ، والتاريخ، ومنازلِ القمَر**»[1].

﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

١٠ـ تعاقُبُ اللّيل والنهار، وأشياءُ أخرى لا حَصْرَ لها في السّماءِ والأرض، كلُّها تدُلُّ على قدرةِ الله تعالى وتوحيدِه، لكنّ هذه الأشياءَ لا يراها إلا المتَّقونَ الذين يجتهدونَ في البُعدِ عن السُّلوكِ الخاطئ، لكنْ عندَما يتأمَّلُ العلماءُ غيرُ المسلمينَ هذه الأمورَ تبقَى قلوبُهم بالرَّغْم من ذلك محرومةً من معرفةِ الخالقِ الحقيقيِّ ومن فَيْضِ رحمتِه، وذلك لأنّ قلوبَهم تخلو من عاطفةِ البحثِ عن الحقّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

(١) التفسير المنير.

١١- الذين لا يؤمنونَ بلقاءِ الله تعالى يومَ القيامة يَعتبِرونَ هذه الدُّنيا هي كلَّ شيء، وهي نهايةَ المطاف، ويَظلُّونَ غافلينَ عن أحكام الله تعالى، أمثالُ هؤلاءِ مصيرُهمُ النارُ؛ لأنّهم غافلونَ عن أحكام الله من جانبٍ، ومُنكِرونَ لعقيدةِ الإيمان بالآخِرة من جانبٍ آخر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

١٢- يقولُ العلّامةُ البَغَوي: «**يفتَحونَ كلامَهم بالتسبيح ويختِمونَه بالتحميد، ويتكلَّمونَ بينَهما بما أرادوا**»(١).

وَضَع اللهُ تعالى في الصّلاةِ أيضًا بعضَ الأمور من بيئةِ الجنّة حتى يستمتعَ قلبُ المؤمنِ بها في هذه الدُّنيا، على سَبيل المثال: بدايةُ كلِّ صلاة بـ«سبحانَك اللهُمَّ»، ثم تلاوةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في كلِّ ركعة، ثم إنهاءُ الصّلاةِ بالتسليم على الجانبَيْنِ، هذه كلُّها من عاداتِ أهل الجنّة، ولهذا فإنّ جنّةَ المؤمن تبدَأُ من هذه الدُّنيا.

﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ

(١) التفسير المظهري.

تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ ﴾

١٣ـ لو أنّ الله تعالى يُعاقبُ الناسَ على جرائِمهم بنفسِ السُّرعةِ التي يَطلُبُ بها الناسُ أَجْرَ ما يفعلونَه من خير، لَكانوا قد هَلَكوا منذُ أمدٍ بعيد، لكنّ اللهَ تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمة، فهو يُمهِلُ حتّى أولئك الذين لا يؤمنونَ بالآخِرة حتى يتدبَّروا ويعودوا عن كُفرِهم، وإنْ لم يَرجِعوا عنه يتمادَوْنَ في العِصيان، حتّى لا يُمكنُهم إنكارُ عصيانِهم عندَ عقابِهم يومَ القيامة.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ ﴾

١٤ـ هناك نقطةُ ضعفٍ موجودةٌ في غالبيَّةِ البشَر، وهي أنّهم إذا أصابَهم مكروهٌ يَذكُرونَ اللهَ تعالى قائمينَ وقاعدينَ وعلى جنوبِهم وفي كلِّ حال، ويتعهَّدونَ لله

بتعهُّداتٍ راسخةٍ قائلين: يا ربِّ، لئن أزَحْتَ عنا هذا المكروهَ فسنكونُ لك دائمًا من الشّاكرين، ولن نعصيَك أبدًا، ولكنْ ما أن يُنجيَهم اللهُ تعالى ممّا كَرِهوا حتى ينسُوهُ وكأنّهم لم يَدْعوهُ أبدًا، ثم تبدو لهم سيِّئاتُهم السّابقةُ وما ارتكَبوه من ظُلم من قبلُ أمورًا طيِّبةً جميلة.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

١٥ـ هنا يُخبرُ اللهُ تعالى أهلَ مكَّة بأنّ الأُممَ التي كانت من قَبْلِكم، وارتكَبتِ الظُّلمَ، ولم يؤمنوا بالأنبياءِ الكرام الذين أُرسِلوا إليهم، أهلَكَهم اللهُ تعالى بسببِ ظُلمِهم، ثم جَعَلكم اللهُ تعالى وارثينَ لهم من بعدِهم، ولذا عليكم أن تتعلَّموا الدَّرسَ من تاريخ الأُمم السّابقةِ هذه، ولا تُكرِّروا ما ارتكَبوهُ من أخطاءٍ كانت سببًا في هلاكِهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

١٦ـ قال مشركو مكّةَ للنبيِّ ﷺ: إنّنا مستعِدُّونَ للإيمانِ بك، ولكنْ بشَرْطِ أن تأتيَ لنا بقرآنٍ غيرِ هذا القرآن لا يكونُ مخالفًا لأصنامِنا، ولا لعاداتِنا وتقاليدِنا، أو تُبدِّلَ في هذا القرآنِ وتغيِّرَ فيه بما يحقِّقُ رغبتَنا ورضانا، وردًّا على هذا أعلَن النبيُّ ﷺ ـ بأمرٍ من الله تعالى ـ أنّ القرآنَ المَجِيدَ كلامُ الله تعالى، وليس لي الحقُّ في إجراءِ أيِّ تغييرٍ فيه، وإنّما أنا متّبِعٌ لله تعالى فقطْ، ولئن عصَيْتُ اللهَ فإنّي أخافُ عذابَ يوم القيامة.

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

١٧ـ يعني: أنّ اللهَ تعالى يُطلِعُكم على القرآنِ الكريم عن طريقي، وأنا أتلو

عليكُم ما يريدُه هو، ولكنّ مشركي مكّةَ كانوا يعتقدونَ أنه ﷺ يأتي بهذا الكلام من عندِ نفسه، وينسُبُه إلى الله تعالى، وردًّا على هذا قال لهمُ النبيُّ ﷺ ما معناه: لقد قضَيْتُ من عمُري أربعينَ سنةً بيْنَكم قبلَ القرآنِ الكريم، وأنتم تشهَدونَ على أمانتي وصِدقي طَوالَ هذه الفترة الطويلة، كما أنّكم تعلَمونَ جيِّدًا أني أُمِّيٌّ، ولم أتعلَّمْ على يدِ أستاذٍ أو معلِّم ظاهريٍّ، فتفكَّروا أنتم؛ كيف يمكنُ لشخصٍ أُمِّيٍّ لم يقرَأْ كتابًا لأربعينَ عامًا كاملة، ولم يكتُبْ بيدِه شيئًا أبدًا، ثم يأتي فجأةً بهذا الكلام المعجِز الذي لا مثيلَ له في الفصاحةِ والبلاغةِ والحِكمة والفِراسة؟ والنّتيجةُ الحَتْميَّةُ لهذا أنّ هذا القرآنَ هو كلامُ الله تعالى وليس من كلام البشَر، كما أنّ الشَّخصَ الذي لم يقُلْ كذبًا أبدًا عن أيِّ إنسانٍ طيلةَ الأربعينَ عامًا، كيف يمكنُ له أن ينسُبَ كلامًا كاذبًا ـ والعياذُ بالله ـ إلى الله تعالى كلَّ يوم؟ ومن هنا فإنّ حياةَ النبيِّ ﷺ بمثابةِ الدّليل البيِّن على أنّ القرآنَ الكريمَ هو كلامُ الله تعالى، ويشهدُ على هذا الدليلِ المشركونَ أنفسُهم.

يقولُ العلّامةُ المَقْريزي: «**إنّ الأخْنسَ خَلا بأبي جهلٍ وقال: أترى محمّدًا يكذب؟ فقال أبوجهل: كيف يكذبُ على الله وقد كنّا نُسمِّيه الأمينَ؛ لأنه ما كذب قطُّ! ولكنْ إذا كانت في عبدِ مَنافٍ السِّقايةُ والرِّفادةُ والمَشُورةُ، ثم تكونُ فيهم النبوّةُ، فأيُّ شيءٍ بقيَ لنا؟**»[١].

لقد قَدَّم القرآنُ الكريمُ دليلًا على صِدقِه ﷺ طيلةَ الأربعينَ سنةً من حياتِه قبلَ النُّبوّة، بمعنى: أنّ النبيَّ ﷺ لم يأتِكم من خارِجكم، وإنّما وُلِد بيْنَكم، وأمضَى طفولَته وشبابَه وتزوَّج وعمِل بينَكم، وباختصار: فإنّ كلَّ صفحةٍ من كتابِ حياتِه ﷺ واضحةٌ أمامَكم، وليس هناك أيُّ جانبٍ يمكنُكم أن تُشيروا إلى عَيْبٍ فيه، وبألفاظٍ أخرى فإنّ القرآنَ يُعلنُ أنّ النبيَّ ﷺ كان قرآنًا عمَليًّا خلالَ الأربعينَ سنةً الأُولى من عمُرِه، ثم قَرأَ القرآنَ الكريمَ في الثلاثةِ وعشرينَ عامًا الباقيةِ وتلاه عليكم.

---

(١) إمتاع الأسماع، تقي الدين المقريزي، ١: ٩١.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

١٨- لمعرفة تفسيرِ هذه الآية راجع الحاشيةَ رقم ٢٢ من سُورة الأنعام (٦).

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

١٩- كان مشركو مكّةَ يعبُدونَ الأصنامَ، ويعتقدونَ أنها ستشفَعُ لهم عندَ الله تعالى، في حينَ أنّ هـذَيْنِ الاعتقادَيْنِ خاطئانِ ولا أصلَ لهما، بل إنّهما بمثابةِ إخبارِ الله تعالى بما لا يَعلَم، ولا يعني هذا أبدًا أنّ اللهَ تعالى لا يَعرِفُ بعبادتِهم للأصنام، بل إنّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أنه لم يُنزِلْ أيَّ حُكم بعبادةِ الأصنام ولا بكونِها تشفَعُ لأحدٍ، ولهذا فإنّه لا توجَدُ عندَ الله تعالى مثلُ هذه العقيدةِ ولا يَعرِفُها اللهُ تعالى، وإنّما هي منَ اختراع عقولِ هؤلاءِ المشركينَ فقطْ، واللهُ تعالى منزَّهٌ عنها متعالٍ فوقَها.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

٢٠- كان النّاسُ في بدايةِ الأمرِ على دينٍ واحد هو الذي دَعا إليه سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام، ثم حينَ ازدادَ عددُ بني الإنسانِ حدَثتْ بينَهُم الاختلافاتُ، وللفَصْل النِّهائيِّ في هذه الاختلافاتِ حدَّد اللهُ تعالى يومَ القيامة مسبَقًا، وهو الذي سيكونُ فيه الثّوابُ والعقابُ والحُكمُ بدخولِ الجنّةِ أو النار.

ولو لم يكنْ يومُ القيامة محدَّدًا سَلَفًا لَكان قد تقرَّر الحُكمُ في اختلافاتِ هؤلاء المختلفينَ منذُ أمدٍ بعيد، ولَرأَوُا الجنَّة والنارَ في دُنياهم هذه.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

٢١ـ أظهَرَ اللهُ تعالى عددًا من المعجِزات تأييدًا لصِدقِ النبيِّ الكريم ﷺ، وعلى رأس هذه المعـجـزات نزولُ القرآنِ المَجِيد المـمتلئ فـصاحةً وبـلاغةً عليه ﷺ، رَغْمَ كونِه أُمِّيًّا، كما أمانتُه وصِدقُه ﷺ خلالَ الأربعينَ سنةً الأُولى ليسا بأقلَّ من المعجِزة أيضًا، مثلَما قال العلّامةُ الأَلُوسيُّ: «**ولعَمْري، لو أَنْصَفوا لَاستغنَوْا عن كلِّ آيةٍ غيرِه عليه الصّلاةُ والسّلام، فإنه الآيةُ الكبرى، ومَن رآه وسَبَر أحوالَه لم يكَدْ يشكُّ في أنه رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم**»[١]:

• **أعطَى سبحانَه وتعالى الأنبياءَ المعجِزات، وجَعَل نبيَّنا ﷺ معجزةً في ذاتِه.**

لكنّ كفّارَ مكّةَ كانوا يتجاهلونَ هذه المعجِزات، ويُطالبونَه بتحويل الجبالِ إلى ذهب، وإحياءِ أحدٍ من مَوْتاهم[٢]، والحقيقةُ أنّهم لم يَقصِدوا أنْ يؤمنوا، وإنّما قَصَدوا إلى إظهارِ عِنادِهم وتعصُّبِهم من خلالِ المطالبة بمعجِزاتٍ جديدة، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: لقد أبلَغْتُكم الوَحيَ الذي أُنزِلَ علَيّ، وما لم يُوحَ إليّ فهو غيبٌ لا يَعلَمُه إلّا الله، فإذا لم تؤمنوا بالوحيِ الذي أَنْزلَه اللهُ تعالى من قبلُ، وظَلَلْتُم مصرِّينَ على مطالباتِكم الجديدة، فانتظروا وأنا معَكم من المنتظِرين، لنرى متى وأيَّ عقابٍ سيُعاقبُكم به اللهُ تعالى على عِنادِكم وإنكارِكم هذا.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) «فيجعل لنا الجبال ذهبًا ويحيي لنا من مات من آبائنا». تفسير القرطبي.

أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾

٢٢- ذاتَ مرّة حلَّ قَحْطٌ شديدٌ بمكّةَ، إلى درجةِ أنّ المطرَ لم ينزِلْ لسبع سنواتٍ متّصلة، واختفَت الأطعِمةُ والأشرِبةُ من الأسواق، وحينَ وَصَل الناسُ إلى حالةٍ يصعُبُ تحمُّلُها، طلَبوا من النبيِّ ﷺ أن يدعوَ اللهَ لهم، ووَعَدوه لئن رَفَع عنا القَحْطَ لنُؤمِنُنَّ بكَ، ولمّا نـزَلَ المطرُ ببركةِ دعاءِ النبيِّ ﷺ وانتهى القحطُ، كان ينبغي لهم أن يؤمنوا كما وَعَدوا سابقًا، لكنّهم على العكسِ من ذلك لم يرجِعوا عن كُفرِهم، وأخَذوا يمكُرونَ بآياتِ الله كما كانوا يفعَلونَ من قبلُ[1]، وعليه قال

(١) «روي أن الله سلّط على كفار مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون، فطلبوا منه ﷺ =

النبيُّ ﷺ: إنّ اللهَ تعالى أقوى وأعظَمُ في التدبيرِ الخَفِيّ، ولو شاء لَعاقَبَكم فورًا على مكرِكم وخِداعِكم، ولكنّه يعطيكُم مُهلةً أخرى لتتفكَّروا وتتدبَّروا وتتوبوا إليه، وإلّا فاعلَموا أنّ الملائكةَ تكتُبُ كلَّ ما تمكُرون، ولن تُفلِتوا يومَ القيامة من العقاب.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾

٢٣ـ بيَّنت هذه الآيةُ بعضَ الأمثلةِ للذين يَمكُرونَ معَ الله تعالى، وفي الآيةِ السّابقة جاء مثالُ القَحْط، وفي هذه الآيةِ جاء مثالُ أولئك كانوا يركَبونَ السَّفينةَ في البحر، وكانت الرِّياحُ مناسبةً ومُنعِشة، والمسافرونَ جميعًا ـ على مَتْنِها ـ يستمتعونَ فَرِحينَ بجمالِ الجوِّ الهادئ من حولِهم، وفجأةً هبَّت رياحٌ قويّة، وحاصَرَهم الموجُ من كلِّ مكان، وحين أيقَنوا أنّهم غارِقونَ لا محالةَ، ولم يبقَ لهم أملٌ في الحياة، تخَلَّوا عن عبادةِ الأصنام، وأخَذوا يدعُونَ اللهَ تعالى بكلِّ إخلاص، ويَستغيثونَ به، ويَعِدونَه وعدًا راسخًا أنْ إذا أَنْجانا اللهُ تعالى من هذا الطُّوفانِ لكُنّا له عبادًا شاكرين، ولكنْ حينَ نَجّاهُم اللهُ تعالى من الطُّوفان، ووَصَلوا إلى الشاطئ بسَلام، نَسُوا ما وَعَدوا به، وعادوا إلى عصيانِهم وعنادِهم من جديدٍ، ولكنِ اسمَعوا وعُوْا، هؤلاءِ قد يستفيدون في هذه الدُّنيا بعضَ الفائدةِ القليلة، ولكنّهم في نهايةِ الأمر سيعودونَ إلينا، وسنُعاقبُهم على عصيانِهم لا مَحالةَ.

وقد نَقَل العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي في تفسيرِ هذه الآيةِ الواقعةَ التالية:

= أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان، فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد» صفوة التفاسير.

«يُحكَى أنّ واحدًا قال لجعفرٍ الصّادق: اذكُرْ لي دليلًا على إثباتِ الصّانع، فقال: أخبِرْني عن حِرفتِك، فقال: أنا رجلٌ أتَّجرُ في البحر، فقال: صِفْ لي كيفيّةَ حالِك؟ فقال: رَكِبتُ البحرَ فانكسَرتِ السّفينةُ وبقِيتُ على لوحٍ واحدٍ من ألواحِها، وجاءت الرّياحُ العاصفة، فقال جعفرٌ: هل وجدتَ في قلبِك تضرُّعًا ودعاءً؟ فقال: نعَمْ، فقال جعفرٌ: فإلهُك هو الّذي تضرَّعتَ إليه في ذلك الوقت»[1]، وللتعرُّفِ على مزيدٍ من الأدِلّة على التوحيد راجِعْ كتابي «العقائدُ الإسلامية».

ويقولُ العلّامةُ القُرطُبيُّ رحمةُ الله عليه: **«وفي هذا دليلٌ على أنّ الخَلْقَ جُبِلوا على الرُّجوع إلى اللهِ في الشّدائد، وأنّ المُضْطَرَّ يجابُ دعاؤه، وإنْ كان كافرًا، لانقطاع الأسبابِ ورجوعِه إلى الواحدِ ربِّ الأرباب»**[2]، ويوجَد في اللَّاوَعْي «العقلِ الباطن» عندَ كلِّ إنسان وفي فِطرتِـه تصوُّرٌ لذاتٍ عظيمةٍ فوقَ الفطرة؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يولَدُ على فطرةِ الإسلام[3]، والإنسانُ يتأثَّرُ بالبيئةِ المحيطة، فيضغَطُ هذه الفطرةَ، ولكنْ عندَ المصائبِ تظهَرُ هذه الفطرةُ مرّةً أخرى، ولهذا فإنّ المشركينَ عندما كانوا يُبتَلَوْنَ بالمصائب كانوا يستغيثونَ بالله تعالى لا بالأصنام.

يُروَى عن عِكرِمةَ بن أبي جَهْل، أنه عندَما فُتِحت مكّةُ هَرَب من هناك، ورَكِب سفينةً متَّجهةً إلى بلدٍ آخر، **«فأصابَتْهم عاصفٌ، فقال أصحابُ السّفينة: أَخْلِصوا فإنّ آلهتَكم لا تُغني عنكم شيئًا ها هنا. فقال عِكرِمة: واللهِ لئن لم يُنجِّني من البحرِ إلّا الإخلاصُ لا يُنجّيني في البرِّ غيرُه، اللّهُمَّ إنّ لك عليّ عهدًا إن أنت عافيتَني ممّا أنا فيه أنْ آتيَ محمّدًا ﷺ حتّى أضَعَ يدي في يدِه فلَأجِدنّه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلَم»**[4].

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) «ما من مولودٍ إلاّ يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه». البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٠.

(٤) سنن النسائي، كتاب تحرير الدم، باب ١٤.

وقد رَوى ابنُ سعدٍ هذه الواقعةَ كما يلي: «**أنّ عِكرِمةَ لمّا رَكِب السفينةَ أخذَتْهم الرِّيحُ، فجَعَلوا يدعونَ اللهَ تعالى ويوحِّدونَه، قال: ما هذا؟ فقالوا: هذا مكانٌ لا ينفَعُ فيه إلّا اللهُ تعالى، قال: فهذا إله محمَّد الذي يدعونا إليه، فارجِعوا بنا، فرجَعَ وأسْلَم**»[1].

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

٢٤ـ الذين ينسَوْنَ الآخرةَ من أَجْل رغباتِهم الدُّنيويّة ومَلَذّاتِهم، مَثَلُهم كمَثَل أولئك الزُّرّاع الذين أنبتَتْ أرضُهم زرعًا كثيرًا، وفَرِح هؤلاءِ الزُّرّاعُ عندَما رأَوْا حقولَهم يانعةً خضراءَ، فسوف يَجْنُونَ قريبًا المنافعَ والفوائدَ من محاصيل هذه الأرض، وفجأةً ينزلُ عليها البَرَد، أو يهجُمُ عليها الجَرادُ، أو تَهُبُّ عليها العواصف أو تَغمُرُها السُّيول، بحيث أَتْلَفتِ المحاصيلَ كلَّها، فبقي الزُّرّاعُ يضربونَ كفًّا بكفٍّ حُزنًا وكَمَدًا وأَسَفًا على ما أصابَهم، وهكذا فإنّ المالَ والمتاعَ الدُّنيويَّ غيرُ دائم كمِثْلِ تلك الحقولِ الخَضْراءِ اليانعة، والذين يغفُلونَ عن الآخِرة ـ مستغرقينَ في جَمْع أموالِ الدنيا ومتاعِها وثَرواتِها، ويفرَحونَ بأنّهمُ الآنَ يستطيعونَ تحقيقَ كلِّ رغَباتِهم الدُّنيويّة كما يَحْلو لهم، ثم يأتيهمُ الموتُ فجأةً ـ فهؤلاء سيُحرَمونَ من مالِ الدُّنيا ومتاعِها من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ سيُحرَمونَ من الأَجْر والثوابِ في الآخِرة، وسيَضربونَ أكُفَّ الأسفِ والنَّدم عندَ ذلك، ولهذا ينبغي للناسِ أن يتدبَّروا في الكائناتِ ويتفكَّروا فيها، ويؤمنوا بالله تعالى، ويعمَلوا على الفَوْز بنِعَم الآخِرة، وهي التي لا تفنَى أبدًا.

---

(١) تفسير روح المعاني.

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾

٢٥ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «**الجِنانُ سبعٌ: دارُ الجَلال، ودارُ السّلام، وجنّةُ عَدْنٍ، وجنّةُ المَأْوى، وجنّةُ الخُلد، وجنّةُ الفِردَوْس، وجنّةُ النَّعيم**»[1]، وهذه الجِنانُ هي أعلى الدَّرجاتِ والمقامات، وهي كلُّها سَلام، وقد دعَا اللهُ تعالى الناسَ في هذه الآيةِ إلى دارِ السلام، وهي دعوةٌ عامّةٌ لبني الإنسانِ جميعًا، لكنْ عمليًّا يدخُلُ دارَ السلام أولئك الذين كانوا في هذه الدنيا يتّبِعونَ الصِّراطَ المستقيمَ، أي: الإسلامَ.

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

٢٦ـ سيَجزي اللهُ تعالى الصّالحينَ من النّاس خيرَ الجزاء، وسيتفضَّلُ عليهم ويُحسنُ إليهم بالمزيد، بمعنى: أنه سيَجزيهم على الحسَنة الواحدة بعَشْرِ أمثالِها إلى سبعِمائة ضعفٍ وأكثرَ، ولن تعتريَ وجوهَهم يومَ القيامة مِسحةُ اليأسِ والذّل، وإنّما ستظهَرُ عليها الفرحةُ والسُّرورُ والنُّورانيّةُ من رحمةِ الله تعالى بهم.

والمرادُ بالحُسنى هنا: الجنَّة، وبالزيادةِ: رؤيةُ الله تعالى؛ لأنّ اللهَ تعالى سيُنعِمُ عليهم برؤيتِه، ورؤيةُ الله تعالى عندَ أهل الجنّة أحبُّ الأمورِ إليهم، مثلَما قال النبيُّ ﷺ في تفسير هذه الآية: «**إذا دَخَل أهلُ الجنّة الجنّةَ ـ قال ـ يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تريدونَ شيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا؟ ألم تُدخِلْنا الجنّةَ وتُنجِّنا من النّار؟ قال: فيُكشَفُ الحِجابُ، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ**»[2].

---

(١) تفسير القرطبي:.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٠ برقم ٢٩٧.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

٢٧ـ سيَجزي اللهُ تعالى الأشرارَ من الناس بقَدْرِ ما ارتكَبوا من الأعمالِ السيِّئة، ولن يَظلِمَهم، ولكنْ لن يكونَ هناك من يُنقذُهم من هذا العقاب، وسوف تغشَى وجوهَهم يومَ القيامة ظُلمةٌ مِثلُ ظُلُماتِ اللّيل، وذلُّ اليأسِ بسببِ كُفرِهم وعصيانِهم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾

٢٨ـ كان مشركو مكّةَ يعبُدونَ الأصنامَ، ويعتقدونَ فيهم شركاءَ لله تعالى، وسيُنطِقُ اللهُ تعالى الأصنامَ يومَ القيامة ويوقِفُهم أمامَ المشركين[1]، وعندَئذٍ سيقولُ المشركونَ للأصنام: لقد عبَدْناكم طيلةَ العمُر، فاشفَعوا لنا عندَ الله تعالى، وستقولُ الأصنام: لا علاقةَ لنا بكم، إنّنا لا نَعرِفُكم، وأنتم تكذبونَ حين تقولون: إنّنا كنّا نَعبُدُكم؛ لأنّنا لا نستحقُّ العبادةَ، فإذا كنتُم عبدتُّمونا بالرَّغْم من ذلك فاللهُ تعالى شهيدٌ بينَنا وبينَكم، وهو يَعلَمُ تمامَ العِلم أنّنا حجارةٌ لا نَنطِقُ ولا روحَ فينا، كما أنَّنا لم نأمُرْكم بعبادتِنا، ولا ندري شيئًا عن عبادتِكم هذه لنا.

والمرادُ بشركاءِ الله تعالى في هذه الآية ليسوا الأنبياءَ ولا الملائكةَ؛ لأنّ هؤلاءِ الأطهارَ كانوا على عِلم بعبادةِ المشركين، فكيف يُنكِرونَ عبادتَهم لهم إذًا؟ كما أنّ هذه الآيةَ مكّية، والخطابُ فيها للمشركين، ولم يكنْ مشركو مكّةَ يؤمنونَ بالأنبياءِ عليهم السَّلام، فكيف يعبُدونَ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ إذًا؟

---

(١) «اتّخذوا مع الله شريكًا ... ينطق الله الأوثان فتقول: ما كنّا نشعر بأنّكم إيّانا تعبدون، وما أمرناكم بعبادتنا». تفسير القرطبي.

هاتان الآيتانِ بمثابةِ اللُّمحةُ الفِكريّةُ لأولئك الذين يَعتبرونَ الأصنامَ شُفَعاءَ لهم عندَ الله تعالى، وينبغي لهم أن يترُكوا الأصنامَ ويتَّبعوا أهلَ الله، أي: الأنبياءَ والعلماءَ والشُّهداءَ والحُفّاظَ، والذين كانوا يَهْدُونَ الناسَ في هذه الدُّنيا إلى الصِّراطِ المستقيم، وسيَشفَعونَ لأهل الإيمان في الآخِرة.

ولمزيدٍ من التفصيل عن شفاعةِ أهل الإيمان راجع الحاشيةَ رقم ١٤١ والحاشيةَ رقم ٢١٧ من سُورة البقرة (٢)، وكذا الحاشيةُ رقم ٦ من سورة يونُس (١٠).

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾

٢٩ـ حين يجتمعُ البشَرُ جميعًا يومَ الحَشْر في حَضْرةِ مالِكهم الحقيقيِّ الله تعالى، يبدأُ كلُّ إنسانٍ بتمحيصِ أعمالِه، ويتعرَّفُ من خلالِها بشكلٍ صحيح كم من الأعمالِ الصّالحة قام بها، وكم من الأعمالِ السِّيئة ارتكَبَها، وسيندَمُ عندَما يرى عقابَ أعمالِه السِّيئة، لكنّ النَّدمَ في ذلك الوقتِ لن يُفيدَ بشيء، ولذا ينبغي لكلِّ إنسانٍ اليومَ أن يُفكِّرَ أولًا في المصيرِ قبلَ أن يُقْدِمَ على أيِّ خُطوةٍ يخطوها، مثلَما قال سيّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضيَ اللهُ عنه: «**زِنُوا أنفسَكم** (أي: في هذه الدنيا) **قبلَ أن توزَنوا، وحاسِبوها قبلَ أن تُحاسَبوا** (أي: يومَ القيامة)»[1]، ولاحِظْ هنا بعضَ الوقائع التي تُبرِزُ إحساسَ سيّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضي اللهُ عنه بالمسئوليَّة:

١ـ عن عُمرَ رضيَ اللهُ عنه، قال: «لو هَلَكَ حِمْلٌ من وَلَدِ الضّأنِ ضياعًا بشاطىءِ الفراتِ خَشِيتُ أن يسألَني اللهُ عنه»[2].

٢ـ ذاتَ ليلةٍ حَطَّت قافلةٌ تجاريّةٌ رحالَها بالقربِ من المسجدِ النَّبوي، فقال سيّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضي اللهُ عنه لسيّدِنا عبدِ الرَّحمن بن عَوْف رضي اللهُ عنه: «**هل**

---

(١) حلية الأولياء، ١: ٨٨.

(٢) كنز العمال، ٥: ٧٥٦ برقم ١٤٢٩٤، وحلية الأولياء، ١: ٨٩.

لكَ أن نَحرُسَهم اللّيلةَ من السَّرِق؟ فباتا يَحرُسانِهم ويُصلِّيانِ ما كَتَب اللهُ لهما. فسمع عُمرُ بكاءَ صبيٍّ فتوجَّه نحوَه فقال لأُمِّه: اتّقي الله وأحسِني إلى صبيِّك. ثمّ عاد إلى مكانِه. فسَمعَ بكاءه فعادَ إلى أُمِّه فقال لها مثلَ ذلك، ثمّ عاد إلى مكانِه. فلمّا كان في آخِرِ اللّيلِ سَمعَ بكاءَه فأتَى أُمَّه فقال: وَيْحَكِ! إنّي لَأراكِ أُمَّ سوءٍ. ما لي أرى ابنَكِ لا يَقرُّ منذُ اللّيلة؟ قالت: يا عبدَ الله، قد أبرَمْتَني منذُ اللّيلة. إنّي أُريغُه عن الفِطام فأبَى. قال: ولم؟ قالت: لأنّ عُمرَ لا يَفرضُ إلّا للفَطْم. قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا. قال: وَيْحَكِ لا تُعجِليه! فصَلَّى الفجرَ وما يستبينُ النّاس قراءتَه من غَلَبةِ البكاء. فلمّا سَلَّم قال: يا بؤسًا لعُمرَ كم قَتَل من أولادِ المسلمين! ثمّ أمَرَ مُناديًا فنادى: ألا لا تُعجِلوا صبيانكم عن الفِطام فإنّا نَفرِضُ لكلِّ مولودٍ في الإسلام. وكتَبَ بذلك إلى الآفاق: إنّا نَفرِضُ لكلِّ مولودٍ في الإسلام»[1].

٣ـ يقولُ أَسْلمُ (وكان عبدًا لسيّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضيَ اللهُ عنه): إنّ **«عُمرَ بنَ الخطّاب رضي اللهُ عنه طاف ليلةً، فإذا هو بامرأةٍ في جَوْفِ دارٍ لها، وحولَها صِبيانٌ يَبْكُونَ، وإذا قِدْرٌ على النّار قد ملأَتْها ماءً، فدَنا عُمرُ بن الخطّاب من الباب، فقال لها: يا أَمَةَ الله! أيشٍ بكاءُ هؤلاء الصِّبيان؟ فقالت: بكاؤهم من الجوع. قال: فما هذه القِدرُ الّتي على النّار؟ فقالت: قد جَعَلتُ فيها ماءً هو ذا أُعلِّلُهم به حتّى يناموا، وأُوهمُهم أنّ فيها شيئًا. فجَلَس عُمرُ رضي الله عنه، فبكَى، قال: ثمّ جاء إلى دارِ الصَّدَقة، وأخَذ غَرارةً، وجَعَل فيها شيئًا من دقيقٍ وسَمْنٍ وشحمٍ وتمرٍ وثيابٍ ودراهمَ حتّى ملأَ الغَرارة، ثمّ قال: يا أَسْلَم! احمِلْ علَيّ. قال: فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين! أنا أحمِلُه عنك. فقال لي: لا أُمَّ لكَ يا أَسْلَم، بل أنا أحمِلُه لأنّي أنا المسئولُ عنه في الآخِرة. قال: فحَمَله على عُنُقِه حتّى أتَى به منزلَ المرأة، قال: وأخَذ القِدْرَ فجَعَل فيها دقيقًا وشيئًا من شحمٍ وتمر، وجَعَل يُحرِّكُه بيدَيْه، وينفُخُ تحتَ القِدر، قال**

---

(١) الطبقات لابن سعد، ٣: ٢٨٠.

أَسْلَم: وكانت لحيتُه عظيمةً، فرأيتُ الدُّخانَ يخرُجُ من خَلَل لحيتِه، حتّى طَبَخَ لهم، ثمّ جَعَل يغرِفُ بيدِه ويُطعِمُهم حتّى شَبِعوا، ثمّ خرَجَ ورَبَض بحذائهم كأنّه سَبُعٌ، وخِفتُ منه أن أُكلِّمَه، فلم يزَلْ كذلك حتّى لَعِبوا وضَحِكوا الصّبيان.. ثمّ قام، فقال: يا أَسْلَم! تدري لمَ رَبَضتُ بحِذاهُم؟ قلت: لا يا أميرَ المؤمنين. قال: رأيتُهم يبكُون؛ فكرِهتُ أن أذهبَ وأدَعَهم حتّى أراهم يضحَكون، فلمّا ضَحِكوا؛ طابتْ نفسي، فقالت المرأةُ: جزاكُمُ اللهُ خيرَ الجزاء، حقًّا يا عُمر، إنك تستحِقُّ أن تكونَ أميرَ المؤمنين»[1].

٤ـ ذاتَ مرّة، كان سيّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضي اللهُ عنه يتمشَّى ليلًا، فوجَدَ أعرابيًّا يجلسُ على الأرضِ خارجَ خيمتِه، فذهبَ إليه سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه وجلَس، وفجأةً جاءه صوتُ بكاءٍ من داخِل الخيمة، فسأل سيّدُنا الفاروقُ عُمرُ رضي الله عنه: مَن يبكي؟ فقال الأعرابيُّ: إنّ امرأتي تُعاني مخاضَ الولادة، فعاد سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه إلى البيتِ واصْطَحَب زوجَته السيّدةَ أُمَّ كلثومٍ رضي اللهُ عنها إلى خيمةِ الأعرابيِّ، واستَأْذنَ منه وأرسَلَ زوجتَه داخلَ الخيمة، وبعدَ بُرهةٍ وُلِد الطِّفلُ، فنادتِ السيّدةُ أُمُّ كلثومٍ رضي اللهُ عنها سيّدَنا عُمرَ رضي اللهُ عنه قائلةً أنْ بارِكْ لصديقِك يا أميرَ المؤمنين. وما أنْ سمعَ الأعرابيُّ لفظَ أميرِ المؤمنين حتى اعتدلَ في جِلستِه، فقال سيّدُنا الفاروقُ عُمرُ رضي الله عنه: لا تحزَنْ، تعالَ عندي في الغد، وسأفرِضُ للطِّفلِ فرضًا[2].

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

٣٠ـ كلُّ ما يُعبَدُ في هذه الدنيا من دونِ الله تعالى سيُعلِنُ يومَ القيامة تبرُّأَه من

---

(١) الفاروق، شبلي النعماني، ٣٣٠، وكنز العمال، ١٢: ٦٤٨ برقم ٣٥٩٧٨.

(٢) الفاروق، شبلي النعماني، ٣٣١.

كلِّ مَن عبَدوه قائلًا بأنّني لم أدَّع أبدًا أنّي معبودٌ، ولئن جَعَلني هؤلاءِ المشركونَ إلهًا فذاك كذبٌ اختَلَقوهُ من عندِ أنفُسِهم.

وتجربةُ هذه الحياة أيضًا هي أنّ الإنسانَ الذي يصادقُ أهلَ الإجرام، ثم يرتكبُ جُرمًا، فهو الذي يَلقَى جزاءَ جُرمِه، وفي مِثل هذا الوقتِ يتخلَّى عنه أهلُ الإجرام قائلينَ: إنّنا لا علاقةَ لنا به، وهو الذي ارتكبَ الجُرمَ ويتَّهمُنا كذبًا وافتراءً.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

٣١ـ في هذه الآيةِ الكريمة، وبغَرَض لَفْتِ النظَر إلى توحيدِ الله عزَّ وجلّ، يَجري سؤالُ المشركين: منِ الذي يُنزِلُ المطرَ من السماء، ويُخرجُ الحرارةَ من الشَّمس؟

ومن الذي يُنبِتُ الزَّرعَ والأشجارَ من الأرض؟ وهي التي توفِّرُ لكم الغذاءَ. مَن الذي أَوْدع الآذانَ قوةَ السَّمع والأعيُنَ قوةَ الإبصار؟ ومن الذي خَلَق من النُّطفةِ التي لا رُوحَ فيها إنسانًا وخَلَق من الإنسانِ النُّطفة؟ ومن الذي يَخلُقُ من البيضةِ التي لا رُوحَ فيها طائرًا ويَخلُقُ من الطائرِ بيضةً؟ ومن هو ذلك الذي يُدبِّرُ كلَّ أمورِ الكائنات؟

وإجابةً عن كلِّ هذه الأسئلة سيقولُ المشركون: إنّ كلَّ هذه الأعمالِ العظيمة لا يمكنُ أن يقومَ بها سوى الله تعالى، وهنا يتمُّ تحذيرُهم بأنّكم إذا كنتُم تعترفونَ بأنّ الذي يرزُقُكم من السَّماء، والذي خَلَق الموتَ والحياةَ، والذي يُسيّرُ كلَّ أمورِ الكائنات هو اللهُ تعالى، فينبغي لكم أن تخشَوْا عذابَه ولا تُشركوا معَه شيئًا.

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

٣٢ـ الصِّفاتُ العظيمةُ التي جاء ذِكرُها في الآيةِ السابقة ليست إلّا للهِ تعالى فقطْ، ولهذا فهو ربُّكم الحقيقيُّ، وهو ـ وحدَه ـ الذي يستحِقُّ العبادةَ، والآنَ، وبعدَ أنِ اتَّضحَ الحقُّ، إن لم تؤمنوا بالحقِّ فلن يكونَ مصيرُكم سوى الضَّلال، ولهذا عليكم أن تتعقَّلوا، وتتجنَّبوا خِداعَ المضِلِّين.

ونُقدِّمُ للقُرّاءِ الأعزّاء فيما يلي ـ ضمنَ تفسير هذه الآية ـ ما قاله القاضي أبو بكرٍ ابنُ العربيِّ فيما يتَعلَّقُ بالغناء:

«وأمّا الغناءُ فإنّه من اللَّهو المُهيِّج للقلوبِ عندَ أكثرِ العلماء، منهم: مالكُ بن أنسٍ، وليس في القرآنِ ولا في السُّنّة دليلٌ على تحريمِه.أمّا أنّ في الحديثِ الصّحيح [دليلًا على] إباحتِه، وهو الحديثُ الصّحيحُ «أنّ أبا بكرٍ دَخَل على عائشةَ وعندَها جاريتانِ حادِيتَانِ من حادِياتِ الأنصار، تُغنّيانِ بما تقاوَلَتِ الأنصارُ به يومَ بُعاثٍ، فقال أبوبكرٍ: أَمِزمارُ الشّيطانِ في بيتِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ؟ فقال رسولُ الله: دَعْهُما يا أبا بكرٍ، فإنّه يومُ عيدٍ»، فلو كان الغناءُ حرامًا ما كان في بيتِ

رسول الله. وقد أنكَرَه أبوبكرٍ بظاهرِ الحال، فأقرَّه النّبيُّ ـ ﷺ ـ بفَضْل الرُّخصة والرِّفق بالخليقةِ في إجمام القلوب؛ إذْ ليس جميعُها يحمِلُ الجِدَّ دائمًا. وتعليلُ النّبيّ ـ ﷺ ـ بأنّه يومُ عيدٍ يدُلُّ على كراهيَةِ دوامِه، ورُخصتِه في الأسبابِ كالعيد، والعُرس، وقدوم الغائب، ونحو ذلك من المجتمَعاتِ الّتي تؤلِّفُ بينَ المفترِقينَ والمفترِقاتِ عادةً. وكلُّ حديثٍ يُروَى في التّحريم أو آيةٍ تُتلَى فيه فإنّه باطلٌ سندًا، باطلٌ معتقَدًا، خبرًا وتأويلًا، وقد ثَبَت أنّ النّبيَّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ رَخَّص في الغِناء في العيدَيْنِ»(١).

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

٣٣ـ الذين يَصِلُونَ في عصيانِهم إلى درجةِ أنّهم لا يعترفونَ بالحقِّ بعدَ فَهْمِه بسببِ تعصُّبِهم المَقِيت، يُعلنُ اللهُ تعالى فيما يتعلَّقُ بهؤلاء أنّهم لن يؤمنوا أبدًا، وهذا الكلامُ يَصدُقُ تمامًا على أبي جَهْل وأبي لَهب. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الموضوع راجعْ تفسيرَ الآية رقم ٦ ورقم ٧ من سُورة البقرة (٢).

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾

٣٤ـ كان المشركونَ يعترفونَ أنّ اللهَ تعالى وحدَه هو خالقُ كلِّ المخلوقات، لأنّهم قد صَنَعوا هذه الأصنامَ من قِطَع الأحجارِ في وقتِهم، بينَما خَلَق اللهُ تعالى المخلوقاتِ قبلَ الآنَ بكثير، لكنَّهم كانوا يَرَوْنَ يومَ القيامة، وبَعْثَ الناسِ وإحياءَهم مرةً ثانيةً أمرًا صعبًا، وفي هذه الآية يُخبِرُهم اللهُ تعالى أنّ اللهَ الذي خَلَق هذه المخلوقاتِ أولَ مرةٍ، قادرٌ على أن يُحييَهم من جديدٍ بعدَ الفَناء، فلماذا إذًا تتركونَ عبادةَ هذا الخالقِ الحقيقيِّ وتعبُدونَ غيرَه؟

---

(١) تفسير أحكام القرآن، القاضي أبوبكر ابن العربي.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

٣٥- أرسَلَ اللهُ تعالى الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ إلى الناس ليُرشِدوهم إلى الحقِّ، ولهذا ينبغي للناسِ أن يتَّبِعوا اللهَ تعالى فقطْ، أمّا الأصنامُ فهي مجبورةٌ مُسَيَّرة، وهي محتاجةٌ إليكم في حركتِها، ولا تَملِكُ أيَّ قوةٍ تتحرَّكُ بها من مكانِها ما لم تُحرِّكوها أنتم من مكانٍ إلى آخَر، فكيف يمكنُ لهذه الأصنام أن تُرشِدَكم إذًا؟ فتعقَّلوا، واعرِفوا الفرقَ بيْنَ الله تعالى الخالقِ وبيْنَ المخلوقِ، ولا تُدمِّروا آخرتَكم بقراراتِكم الخاطئة.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾

٣٦- ليس لدى المشركينَ أيُّ دليلٍ يقينيٍّ على شِركِهم، بمعنى: أنّهم ليسوا على يقينٍ كامل من عقيدتِهم، وإنّما يتَّبِعونَ الوَهْمَ والظنَّ وما وَجَدوا عليه آباءهم وأجدادَهم ليس إلّا، وحين تَنزلُ بهم المصائبُ في وقتٍ من الأوقات يتَخلَّوْنَ عن وَهْمِهم وظنِّهم وشِركِهم، ويدعونَ اللهَ عزَّ وجلَّ وحدَه.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الظنَّ لا يمكنُ أن يهديَ إنسانًا، وأنّ اليقينَ المُحكَمَ والعمَلَ الدائمَ ضروريٌّ للغاية من أَجْل الوصولِ إلى الحقِّ، والذين يَتْركونَ اليقينَ ويتَّبِعونَ الظنَّ يعلَمُ اللهُ تمامَ العِلم ما يفعَلون، وسيُعاقبُهم على عَدَم اتِّباعِهمُ اليقينَ.

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

٣٧- التعاليمُ التي وَرَدت في القرآنِ الكريم، والأحكامُ التي جاء بيانُها فيه ليس بمقدورِ إنسانٍ أن يخترعَها من عندِ نفسِه؛ لأنّها تُصدِّقُ الكُتُبَ السَّماويةَ

السّابقة، أي: التَّوراةَ والإنْجيلَ، وتُبيِّنُ الحلالَ والحرامَ تفصيلًا، ولهذا فليس هناك شكٌّ أنّها نَزَلتْ من اللهِ تعالى ربِّ الكائنات، ولكنْ إنْ أصرَرْتُم معَ ذلك على قولِكم: إنّ النبيَّ ﷺ قدِ اخترَعَ القرآنَ من عندِ نفسِه، فأنتم أيضًا أهلُ اللُّغة العربيّة، وهو ﷺ فردٌ واحدٌ فقطْ، فاجمَعوا كلَّ أهلِ اللُّغة العربيّة في هذه الدُّنيا، واختَرِعوا ولو سُورةً واحدةً من مِثل سُوَر القرآنِ، فإذا لم تستطيعوا جميعًا الإتيانَ بسُورةٍ واحدةٍ، فكيف يأتي النبيُّ ﷺ ـ وهو الفردُ الواحدُ ـ بهذا القرآنِ كلِّه؟ على أيّةِ حال، كما أنّ الدنيا كلَّها مُجتمِعةً لا تستطيعُ أن تَخلُقَ شمسًا أو قمرًا، في مقابلِ ما خَلَق اللهُ تعالى من الشُّموسِ والأقمار، كذلك لا تستطيعُ الدُّنيا كلُّها مجتمِعةً أن تأتيَ بقرآنٍ مثلِ ما أنزَلَ اللهُ من القرآن.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٣٨ـ لم يُكلِّفِ المشركونَ أنفُسَهم عناءَ محاولةِ فَهْم القرآنِ الكريم والتدبُّرِ فيه، وإنّما كذَّبوه على الفَوْر بدافع من تعصُّبِهم وعنادِهم، ولم يَروْا إلى الآنَ عاقبةَ تكذيبِهم للقرآنِ هذا، ولكنّ مِثلَ هذا الأمرِ ليس جديدًا، فقد كذَّبت بعضُ الأُمم السّابقة الكتُبَ السَّماويةَ، ونَزَل عليهم عذابٌ مَحَا كلَّ أثرٍ لهم في الحياة، ولهذا ينبغي لهؤلاءِ المشركينَ أن يَعتبِروا من المصيرِ الذي لقِيَه الظالمونَ من قَبْلِهم، وأن يؤمنوا بالقرآنِ الكريم، ويُنقِذوا أنفسَهم من عذابِ الآخِرة.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ

يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

٣٩ـ في هذه الآية يُسَرِّي اللهُ تعالى عن النبيِّ ﷺ قائلًا بأنك ـ يا رسولَ الله ﷺ ـ قد أدَّيتَ حقَّ التبليغ، ولكنْ إن لم يؤمنِ المشركونَ برَغْم ذلك فلا تغتمَّ ولا تحزَنْ، وسوف تُثابُ أنت على تبليغِك، وسوف يُعاقَبونَ هم على عَدَم قَبولِهم الإسلامَ؛ لأنّ كلَّ شخص مسئولٌ بذاتِه عن أفعالِه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾

٤٠ـ بعضُ هؤلاءِ المشركينَ يُبدُونَ ـ في الظاهر ـ أنّهم يسمَعونَ دعوتَك بكلِّ تمعُّن، ولكنّهم وَضَعوا على آذانِ قلوبِهم حجابًا من التعصُّب، ولذا يستوي استماعُهم مع عَدَمِه، معَ أنّ هناك بعضَ الصُّمِّ الذين يَملِكونَ قلوبًا تُدرِك، ويفهَمونَ الحقَّ بناءً على مشاهداتِهم، ولكنّ حالَ هؤلاءِ المشركين مِثلَ أولئكَ الصُّمِّ الذين أُصيبوا بالصَّمَم في عقولِهم جنبًا إلى جنبٍ معَ صَمَم آذانِهم، فلا يستطيعونَ سماعَ قولِ الحقِّ بآذانِهم، ولا يستطيعونَ إدراكَه بقلوبِهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾

٤١ـ وبنفسِ الطريقة، هناك منَ المشركين مَن يَبدو في الظاهرِ وكأنّه ينظُرُ بكلِّ تمعُّنٍ إلى معجِزاتِك وفضائِلك، ولكنّهم وَضَعوا على أبصارِ قلوبِهم غِشاوةً وحجابًا، ولهذا يستوي نَظَرُهم معَ عدَمِه، معَ أنّ بعضَ العُمْيِ يملِكونَ قلوبًا تُدرِك، ويفهَمونَ الحقَّ بالتفكُّرِ والتدبُّر في الأدِلّة والبراهين، لكنّ حالَ هؤلاءِ المشركين مثلُ أولئك العُمْيِ الذين عَمِيت قلوبُهم أيضًا، فلا تستطيعُ عيونُهم رؤيةَ الحقّ، ولا تستطيعُ قلوبُهم إدراكَه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

٤٢ـ أعطَى اللهُ تعالى الآذانَ للبشَرِ ليسمَعوا بها، وأعطاهم الأعيُنَ ليُبصِروا بها، وأعطاهمُ العقولَ والأذهانَ ليفهَموا بها، وبالتالي يستطيعونَ التميـيزَ بينَ الحقِّ والباطل مستعينينَ بكلِّ هذه النِّعَم، لكنّ أولئك الذين لا يستطيعونَ استعمالَ هذه الإمكانياتِ الموهوبةِ لهم، فإنّهم يَظلِمونَ أنفُسَهم، واللهُ تعالى لا يَظلِمُ أحدًا.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

٤٣ـ سينسَى الكُفّارُ كلَّ ملَذّاتِ الدنيا عندَما يرَوْنَ صعوباتِ يوم الحَشْر، وسيَبدو لهم قيامُهم في الدُّنيا مجرَّدَ ساعاتٍ قليلة، قياسًا بعذابِ الآخرة الدائم، وحين يقومونَ من قبورِهم يتعرَّفُ كلٌّ منهم على صاحبِه، وحين يتَراءَى لهم ضرَرُ عَدَم إيمانِهم بالآخِرة وعذابُه، يتَّهمُ كلٌّ منهم الآخَرَ بأنّه هو الذي أضَلَّه، لكنّ الذين يؤمنونَ بالآخِرة ويعمَلونَ الصالحاتِ، ما أن يبشَّروا بالجنّة حتى يُثْني كلٌّ منهم على الآخَر ويشفَعُ له.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾

٤٤ـ قال اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ: إنّ ما وعَدْناكَ إياه من تعذيبِ المشركينَ ونُصرةِ الإسلام سنُنجِزُه يقينًا، سواءٌ تحقَّق بعضُ ذلك في وجودِك مثلَ انتصارِ بَدْر وفَتْح مكّةَ وغيرِهما، أم تحقَّق بعدَ انتقالِك إلى الرَّفيقِ الأعلى، مثلَ: تلك النُّصرةِ التي حَظِي بها الإسلامُ في عهدِ الخلافةِ الراشدة، وإذا لم نُعاقبْهم في الدُّنيا العقابَ الكاملَ لحِكمةٍ ما، فسوف نُعاقبُهم يقينًا في الآخِرة؛ لأنَّ الجميعَ سيَرجِعونَ إلى الله تعالى، وهو يَعلَمُ ما قاموا به تمامَ العِلم، وسيُعاقبُهم طبقًا لِما ارتكَبوه من جرْمٍ.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

٤٥ـ أرسَلَ اللهُ تعالى رسولًا إلى كلِّ أُمّة، وَضَّح لها الحقَّ من الباطل، حتى تتِمَّ عليهم الحُجّة، ولا يعتذرُ أحدٌ من عُبّادِ الباطل بأنه لم يَعلَمْ عن الحقِّ شيئًا، وحين يأتي كلُّ رسولٍ إلى أُمّتِه يومَ القيامة، يحاسبُ اللهُ تعالى هذه الأُمةَ أمامَ الرَّسول وفي وجودِه، وسيكونُ الحُكمُ طِبقًا للعدلِ والإنصاف، ولن يَظلِمَ اللهُ أحدًا.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾

٤٦ـ قال مشركو مكّةَ للنبيِّ ﷺ: إن كنتَ حقًّا نبيًّا فلمَ لا تأتينا بالعذابِ الذي تهدِّدُنا به، فمتى يتحقَّقُ ذلك؟ وردًّا على هذا قال النبيُّ ﷺ: إنّ مجيءَ العذاب أمرٌ يتعلّق بالله تعالى، وأنا أملِكُ النَّفعَ والضُرَّ لنفسي بالقَدْرِ الذي أراده اللهُ تعالى. لمزيدٍ من التفصيل راجعِ الحاشيةَ رقم ١٠٥ للآية رقم ١٨٨ من سُورة الأعراف (٧).

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾

٤٧ـ اللهُ تعالى يُمهِلُ كلَّ أُمّةٍ ويُعطيها الوقتَ الكافيَ لكي تتفكَّر وتتدبَّر، والأُمّةُ التي لا تستفيدُ من هذه المهلة، ولا تُصلحُ نفسَها، فإنّها تنتظرُ الوقتَ الذي حدَّدَه اللهُ تعالى لهلاكِها، وعندما يحينُ هذا الوقتُ لا يمكنُ التقديمُ أو التأخيرُ فيه.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

٤٨ـ يعني: إنْ جاءكمُ العذابُ بَغْتةً باللّيل أو بالنَّهار، فلن تستطيعوا إيقافَه، وسوف يُدمِّرُكم ويقضي عليكم، فلمَ تطالبونَ أنتم أيُّها المجرمونَ بالإسراع في مجيءِ العذاب؟ ربّما تكونونَ غيرَ متيقِّنينَ من مسألةِ نزولِ العذاب هذه، وتريدونَ تجرِبةَ الأمرِ بأنفُسِكم، بأنْ تؤمنوا حين يأتي العذابُ، ولكنْ عندَما يأتي العذابُ سيقالُ للمجرمينَ: لقد كنتُم تسخَرونَ من هذا الوعد، وتُطالبونَ بالإسراع في مجيءِ العذاب، وتريدونَ الإيمانَ بعدَ مشاهدةِ العذاب، معَ أنّ الإيمانَ لا يَقبَلُ إذا كان عندَ مجيءِ الموتِ أو عند رؤيةِ العذابِ في الآخِرة، ولهذا ذوقوا العذابَ الدائم، وهذا هو عقابُ تكذيبِكم.

﴿ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾

٤٩ـ يسألُك هؤلاءِ الظالمون: هل سيبُعَثُونَ من جديدٍ بعدَ موتِهم، وسيذوقونَ العذابَ الدائم؟ فقُلْ يا أيُّها النبيُّ الحبيب ﷺ: نعَمْ، قَسَمًا بربِّي إنّ هذا لَصِدقٌ، واللهُ تعالى سيَبعَثُكم جميعًا يومَ القيامة أحياءً ثانيةً، وسيُدخلُ الصَّالحينَ الجنّةَ، وسيَبتلي الظالمينَ بالعذابِ في جهنَّم، وإنْ لم تَرجِعوا عن ظُلمِكم، فلن تُفلتوا أنتم أيضًا من عذابِ الله تعالى.

وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ

إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

٥٠ـ حين يَرى الظالمونَ عذابَهم يومَ القيامة سيَندَمون، ولو كانوا يَملِكونَ كل ثرواتِ الدنيا فسيُقدِّمونَها فِديةً لهم للنَّجاة من هذا العذاب، ولكنْ لن تكونَ ثرواتُ الدنيا حينَذاك لأحدٍ في ذلك اليوم، والمرادُ أنه لن يكونَ لدى هؤلاءِ الظالمينَ يومَ القيامة أيُّ وسيلة للنَّجاةِ من العذاب، والظالمونَ في هذه الدُّنيا قد يُفْلتونَ من العقابِ على ظُلمِهم بسببِ الأحكام غيرِ العادلة، ولكنّ الأحكامَ كلَّها يومَ القيامة ستكونُ طِبقًا للحقِّ والعدلِ والإنصاف، ولن يُفْلتَ ظالمٌ من العقابِ مهما كان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

٥١ـ في هذه الآيةِ جاء ذِكرُ أربعِ صفاتٍ للقرآنِ الكريم، بمعنى: أنّ في القرآنِ الكريمَ النَّصيحةَ، والشِّفاءَ، والهِدايةَ، والرَّحمةَ، والمسلمُ الذي يجتهدُ بنيَّةٍ خالصة للحصولِ على الهدايةِ من القرآنِ الكريم، يختصُّه اللهُ تعالى برحمةٍ من عندِه، تَطهُرُ بها أفكارُه وعقائدُه في باطنِه، وتَصدُقُ بها أقوالُه وأفعالُه في ظاهرِه، وتَزولُ عنه أمراضُ الجِسم والقلبِ والرُّوح.

إنّ القرآنَ المَجيدَ كتابٌ مباركٌ لا تحمِلُ تعاليمُه فقطِ الشِّفاءَ بداخلِها، وإنما تحمِلُ ألفاظُه أيضًا هذا الشّفاءَ بداخلِها، ولهذا يَرى أهلُ العِلم أنّ الرُّقيةَ بألفاظِ القرآن الكريم، وعَمَل التعاويذِ والأَحْجِبة بها جائزٌ. يقولُ المفتي محمَّد شَفيع الدّيوبَنْدي: إنّ الأحاديثَ وتجارِبَ الأُمّةِ التي لا حصرَ لها تشهدُ على أنّ القرآنَ الكريمَ هو الإكسيرَ الأعظَمُ للأمراضِ القلبيَّة، وكذلك آياتُه المختلفةُ تشفي الأمراضَ الجسَديّةَ بأنواعِها المختلفة، وكتابُ «خواصُّ القرآن» للإمام الغزاليِّ معروفٌ ومشهورٌ في هذا الخصوص، وهو الكتابُ الذي قدَّم حَكيمُ الأُمّة مولانا أشرَفُ علي تهانَوي تلخيصًا له في كتابٍ بعنوانُ «أعمالُ القرآن»[١].

جواز التعويذ والرّقية

١ـ تقولُ أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضي اللهُ عنها: **كان رسولُ الله ﷺ إذا اشتكَى منّا إنسانٌ مَسَحَه بيمينِه ثمّ قال: «أذهِبِ الباس ربَّ النّاس واشْفِ أنت الشّافي لا شفاءَ إلّا شفاؤك شفاءً لا يغادرُ سُقْمًا»**[٢].

٢ـ تقولُ أُمُّ المؤمنينَ السيّدةُ عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضـي اللهُ عنها: **كان رسولُ الله ﷺ إذا مَرِض أحدٌ من أهله نَفَث عليه بالمعوِّذات**[٣].

٣ـ عن واثلَة بن الأسقَع، أنّ رجُلًا شكا إلى رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وَجَعَ حَلْقِه، قال: «عليك بقراءةِ القرآن»[٤].

---

(١) تفسير معارف القرآن.

(٢) مسلم، كتاب السلامِ، باب ١٩ برقم ٥٧٠٧.

(٣) مسلم، كتاب السلام، باب ٢٠ برقم ٥٧١٤.

(٤) شعب الإيمان، البيهقي، برقم ٢٥٨٠.

٤ـ عن عَوْفِ بن مالكٍ الأشجَعيّ رضي اللهُ عنه، قال: كنّا نَرْقي في الجاهليّةِ، فقلنا: يا رسولَ الله، كيف تَرى في ذلك؟ فقال: «اعرِضوا عليَّ رُقاكم، لا بأسَ بالرُّقَى ما لم يكنْ فيه شِرك»(١).

٥ـ عن عَمْرِو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جدِّه، أنّ رسولَ الله ﷺ، قال: «إذا فَزِع أحدُكم في النَّوم فلْيقُلْ: أعوذُ بكلماتِ الله التّامّةِ من غَضَبِه وعقابِه وشرِّ عبادِه ومن هَمَزاتِ الشّياطين وأن يَحضُرون. فإنّها لن تضُرَّه». قال: وكان عبدُ الله بنُ عَمْرٍو يُلقِّنُها مَن بَلَغ من وَلَدِه ومَن لم يَبلُغْ منهم، كَتَبها في صَكٍّ ثمّ عَلَّقها في عُنُقِه(٢).

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

٥٢ـ تستحِقُّ رحمةُ الله تعالى وفَضْلُه أن يُحتفَى بهما، وهما أفضَلُ من كلِّ الأشياءِ الماديَّة التي يجمَعُها الناسُ؛ لأنّ مالَ الدُّنيا ومتاعَها قليلٌ وفانٍ، في حينَ أنّ فضْلَ الله تعالى ورحمتَه دائمانِ ولا حدَّ لهما.

وقد نَقَل الإمامُ ابنُ الجَوْزيِّ في تفسيرِ هذه الآية عدّةَ أقوال، منها: أنّ المرادَ بفَضْلِ اللهِ تعالى هو: القرآنُ المَجِيد، والمرادُ بالرَّحمة هو: النبيُّ الكريم ﷺ(٣)، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، كما نَقَل الإمامُ السُّيوطيُّ أيضًا عدّةَ أقوالٍ منها: «ورحمتُه: القرآن، وفَضْلُه: **النبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلم**»(٤)، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

وفي هذه الآيةِ جاء الأمرُ بالاحتفالِ بفَضْل الله ورحمتِه.

---

(١) مسلم، كتاب السلام، باب ٢٢ برقم ٥٧٣٢.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩٤ برقم ٣٥٢٨.

(٣) «أن فضل الله: القرآن، ورحمته محمد صلى الله عليه وآله وسلم». تفسير زاد المسير.

(٤) تفسير الدر المنثور.

ويُعلَمُ من الأقوالِ السّابقة أنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ أيضًا من فَضْلِ اللهِ تعالى ورحمتِه، ولهذا كما نحتفلُ بنزولِ القرآنِ الكريم في شهرِ رمضانَ المبارك، نحتفلُ كذلك بمولِد النبيِّ ﷺ في شهرِ ربيعِ الأول، وهذا كلُّه وسيلةٌ لأداءِ الشُّكر لله تعالى على رحمتِه وفَضْلِه، وتنفيذًا لحُكمِه عزَّ وجلَّ في هذا الخُصوص.

مقاصد الاحتفال بعيد ميلاد النبيّ ﷺ ومحافل الميلاد

يقالُ لوقتِ الميلادِ أو مكانِ الميلاد في العربيّة: «مولِد»، وفي الاصطلاح يقالُ لمناسبةِ الذِّكرى العَطِرة لمولِدِ النبيِّ الكريم ﷺ، فيقال: «مولِدُ النبيِّ» أو «المولِدُ» فقطْ، ويَذكرُه مسلمو جنوبِ آسيا باسم «ميلادِ النبيِّ ﷺ».

بيانُ المولِد:

• نَقَل الإمامُ أحمدُ في «مسنَدِه» والإمامُ البيهَقيُّ في «دلائلِ النُّبوّة» هذا الحديثَ الشَّريف: **عن عِرْباضِ بن ساريةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّي عبد الله لَخاتَمُ النّبيّين، وسأُنبّئُكم بأوّلِ ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبِشارةُ عيسى بي، ورؤيا أُمّي الّتي رَأَتْ، وكذلك أُمّهاتُ النّبيّينَ تَرَيْنَ»**[1].

• **عن أبي أُمامةَ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «ورأَتْ أُمّي أنه يَخرُج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشام»**[2].

• **عن أُمِّ سَلَمةَ، عن آمنةَ، قالت: «لقد رأيتُ ليلةَ وضَعتُه نورًا أضاءت له قصورُ الشام حتى رأيتُها»**[3].

---

(١) مسند أحمد، ٤: ١٢٧.

(٢) مسند أحمد، ٥: ٢٦٢.

(٣) المواهب اللدنية، ١: ١٢٨.

الاحتفالُ بالمولِد:

كان النبيُّ ﷺ يحتفلُ بمولِده بصيام كلِّ يومِ اثنين، ويَنقُل الإمامُ مسلمٌ أنه عندَما سُئل النبيُّ ﷺ عن صيامِه يومَ الاثنينِ قال: «**فيه وُلِدتُ وفيه أُنزِل عَليَّ**»[1].

محافلُ الميلاد:

كانت ولادةُ النبيِّ ﷺ يومَ الثانيَ عشَرَ من ربيعِ الأول، ولهذا يَحرصُ المسلمونَ في ربيعِ الأول خاصّةً، وفي الشهورِ الأخرى بعامّة، على عَقْدِ محافلِ الميلاد، ويكونُ في هذه المحافلِ بيانٌ لأحداثِ ولادتِه ﷺ وفضائلِه وخِصالِه، وهذا ليس بالأمرِ الجديد، وإنّما هو سُنّةُ الله تعالى وسُنّةُ نبيِّ آخِرِ الزّمان ﷺ، إذ نجدُ في القرآنِ الكريم والأحاديثِ النَّبويّةِ المباركة بيانٌ لوقائع ولادةِ النبيِّ ﷺ والأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، وكذا بيانٌ لفضائِلهم وخِصالِهم وبكثرةٍ.

مقاصدُ محافلِ الميلاد:

١ـ السَّكِينةُ للقلوب: حيث تطمئنُّ قلوبُ أهل الإيمانِ وتَشعُر بالسَّكِينة حينَ يشاركونَ في تلك المحافل؛ لأنّ وقائعَ ميلادِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام تَبعَثُ الطُّمَأْنينةَ والسَّكِينةَ في القلوبِ مثلما قال اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

٢ـ الكمالُ للإيمان: وقد قال النبيُّ ﷺ فيما رواهُ سيّدُنا أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أَحبَّ إليه من والدِه ووَلَدِه والنّاسِ أجمعين**»[2].

---

(١) مسلم، كتاب الصيام، باب رقم ٣٦ برقم ١١٦٢.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٨.

ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ محبَّةَ النبيِّ ﷺ هي روحُ الإيمان، ولا يمكنُ أن يكتملَ الإيمانُ بغيرِ حُبِّ النبيِّ ﷺ، وفي محافلِ الميلادِ تُذكَرُ الوقائعُ الخارقةُ لمولدِه ﷺ، ويَجري الحديثُ عن طفولتِه الطيِّبة، وكذا عن فضائلِه ﷺ وكمالاتِه، وعندَئذٍ تنهَضُ المحبّةُ الكامنةُ، وتصبح سببًا في تجديدِ الإيمانِ وتنشيطِه.

٣ـ تربيةٌ للأولاد: قال النبيُّ ﷺ فيما رواهُ سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالب رضيَ اللهُ عنه: «**أدِّبوا أولادَكم على ثلاثِ خِصال: حُبِّ نبيِّكم وحُبِّ أهلِ بيتِه وقراءةِ القرآن**»[١].

وطِبقًا لهذا الحديثِ ينبغي للوالدَيْنِ أن يَزْرعا في قلوبِ أولادِهما محبّةَ النبيِّ ﷺ، ومحافلُ الميلادِ طريقةٌ مؤثِّرةٌ وفعّالةٌ في تحقيقِ هذا الواجب، وينبغي أن نُرغِّبَهم في محافلِ الميلاد بمجرَّدِ أنْ يَشِبُّوا عن الطَّوق، تلك المحافلُ التي تتحدَّثُ عن السِّيرةِ العَطِرة، وتُلقَى فيها المدائحُ النَّبويّة، وتُعقَدُ فيها مسابقاتُ الخَطابة، وبهذه الطريقة نَخلُقُ بداخلِ أولادِنا علاقةً فِكريّةً وعاطفيّةً، ويزدادُ التعلُّقُ القلبيُّ لهم بالنبيِّ ﷺ.

٤ـ إيصالٌ للثَّواب: ففي هذه المحافلِ يتمُّ إيصالُ الثّوابِ إلى النبيِّ ﷺ بالصَّلاةِ والسَّلام عليه، وكذا بالنوافلِ المختلفة، والصّلاةُ والسّلامُ على النبيِّ ﷺ عبادةٌ أمَرَ بها اللهُ تعالى بنفسِه حين قال: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥].

٥ـ بيانٌ للنِّعم: قال اللهُ تعالى في القرآنِ المَجيد: ﴿**وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ**﴾ [الضحى: ١١]، وقال سيّدُنا ابنُ عبّاس رضيَ اللهُ عنه: «**ومحمّدٌ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم نعمةُ الله**»[٢]، ولهذا فإنّ ذِكرَ النبيِّ ﷺ بمثابةِ وسيلةٍ لبيانِ نِعَم الله تعالى، فاللهُ

(١) كنز العمال، برقم ٤٥٤٠٩.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب ٨.

تعالى قد أَنْعم على الإنسانِ بنِعَمٍ لا حصرَ لها، مثلَ: نِعمةِ البصَر والسَّمع والصِّحة وغيرِها، ولم يُمنَّ اللهُ تعالى على أحد، ولكنْ حين أرسَلَ سيّدَنا محمَّدًا ﷺ أعلَن في القرآنِ المَجيد: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ويقولُ الإمامُ فخرُ الدِّين الرازي في تفسيرِ هذه الآية: «**أنّ وجودَه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فيكم من أعظم نعمتي عليكم، فإنه يُزكِّيكم عن الطريقِ الباطلةِ ويُعلِّمُكم العلومَ النافعةَ لكم في دُنياكم وفي دينِكم**»[1].

٦- **التجديدُ للذِّكر**: كما أنّ مناسكَ الحجِّ والعُمرة، والسَّعيَ بينَ الصَّفا والمَرْوةِ والطَّوافَ وغيرَها تُذكّرُنا بالصّالحينَ، كذلك تُجدِّدُ محافلُ الميلادِ ذِكرى النبيِّ ﷺ أيضًا.

٧- **تعليمٌ للفضائل النَّبويّة**: إنّ وقائعَ ولادةِ النبيِّ ﷺ وفضائلَه وخِصالَه مذكورةٌ في مواضعَ مختلفةٍ من القرآنِ الكريم والأحاديثِ النَّبويّة، والمتعلِّمونَ يتعرَّفونَ على هذه الفضائل في ثنايا دراستِهم، أمّا غيرُ المتعلِّمينَ فإنّ محافلَ الميلادِ بالنِّسبة لهم بمثابةِ الفُرصة الذَّهبيَّة، حيث يتعرَّفونَ من خلالِها على وقائع ولادةِ النبيِّ ﷺ وفضائلِه وخِصالِه.

٨ - **تعظيمٌ للنُّبوة**: من مقاصدِ محافلِ الميلاد النَّبويّة: تعظيمُ النبيِّ ﷺ وإجلالُه؛ لأنّ تعظيمَ الأنبياءِ الكرام دليلُ الإيمان، والإساءةُ إليهم سببٌ للكُفر والعياذُ بالله، مثلَما سَجَدتِ الملائكةُ جميعًا تعظيمًا وإجلالًا لسيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، بينَما كَفَر الشّيطانُ بإنكارِه التعظيمَ.

٩- **الحصولُ على البَركة**: لقد توفِّي والدُه ﷺ وكان في بطنِ أُمِّه «**فقالتِ**

---

(١) التفسير الكبير، تفسير سورة آل عمران (٣): الآية ١٦٤.

الملائكةُ: إلهنا وسيّدَنا، بقيَ نبيُّك هذا يتيمًا، فقال الله: أنا له وليٌّ وحافظٌ ونَصِير، وتبرَّكوا بمولدِه، فمولدُه ميمونٌ مبارك، وفَتَح اللهُ لمولدِه أبوابَ السّماءِ وجِنانَه»(١).

١٠ـ **التخفيفُ في العذاب**: عندَ مولدِ النبيِّ ﷺ أعتَقَ أبولهبٍ أَمَتَه ثُوَيْبَة، لأنّها بشَّرتْه بمولدِ طفلٍ في بيتِ أخيه الرَّاحلِ عبدِ الله، وما أنْ سَمِع أبولهبٍ الخبرَ حتى أشار بأُصبعِه إلى ثُوَيْبَةَ قائلًا: اذهَبي فأنتِ من اليوم حرّةٌ «**فلمّا مات أبولهبٍ أُرِيَه بعضُ أهلِه بشرِّ خَيْبَةٍ، قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبولهبٍ: لم ألقَ بعدَكم خيرًا، غير أنّي سُقِيت في هذه بعَتاقتي ثُوَيْبَةَ**»(٢).

وقد كَتَب العلّامةُ ابنُ حجَر العَسْقلانيُّ، نَقْلًا عن ابن مُنيِّر: «**هنا قضيَّتان، إحداهُما مُحالٌ وهي: اعتبارُ طاعةِ الكافرِ معَ كُفرِه؛ لأنّ شرطَ الطاعة أن تقعَ بقَصْدٍ صحيح، وهذا مفقودٌ من الكافر. الثانيةُ: إثابةُ الكافرِ على بعضِ الأعمال تفضُّلًا من الله تعالى، وهذا لا يُحيلُه العقلُ، فإذا تقرَّر ذلك لم يكنْ عِتقُ أبي لهبٍ لثُوَيْبَةَ قُربةً معتبَرةً، ويجوزُ أن يتفضَّلَ اللهُ عليه بما شاء كما تفضَّلَ على أبي طالب**»(٣).

ويقولُ العلّامةُ القَسْطَلّاني: «**وقد رُئيَ أبولهبٍ بعدَ موتِه في النَّوم، فقيل له: ما حالُك؟ فقال: في النار، إلّا أنه خُفِّف عني كلَّ ليلةِ اثنين، وأمصُّ من بينِ أُصبعَيَّ هاتَيْنِ ماءً، وأشار برأسِ أُصبُعَيْه، وإن ذلك بإعتاقي لثُوَيْبَةَ عندما بشَّرتْني بولادةِ النبيِّ ﷺ ... وبإرضاعِها له.**

قال ابنُ الجَزَري: فإذا كان هذا أبولهبٍ الكافرُ، الذي نَزَل القرآنُ بذمِّه جُوزِيَ في النارِ بفرَحِه ليلةَ مولدِ النبيِّ ـ ﷺ ـ به، فما حالُ المسلم الموحِّد من أُمّتِه ـ عليه

---

(١) الخصائص الكبرى، ١: ٤٧.

(٢) البخاري، كتاب النكاح، باب ٢٠ برقم ٥١٠١.

(٣) فتح الباري، ٩: ١٤٦.

السّلام - الذي يُسَرُّ بمولدِه، ويَبذُلُ ما تَصِلُ إليه قدرتُه في محبّتِه ﷺ؟ لعَمْري، إنّما يكونُ جزاؤه من الله الكريم أن يُدخلَه - بفَضْلِه العميم - جنّاتِ النَّعيم»[1].

عيدُ الميلاد:

أهلُ الإيمان يحتفلونَ بمولدِه ﷺ، ويُسَمُّونَه «عيدَ ميلادِ النبيِّ» ﷺ.

المعنى اللُّغويُّ للعيد:

«سُمِّي العيدُ عيدًا لانّه يعودُ كلَّ سنةٍ بفرحٍ مجدَّدٍ»[2]، «والعيدُ: كلُّ يومٍ فيه جَمْع»[3]، «والعيدُ: ما يُعاوِدُ مرّةً بعدَ أخرى»[4]، و«صار يُستعمَلُ العيدُ في كلِّ يومٍ فيه مَسرّة»[5]، و«كلُّ يوم فيه جَمْع أو تَذكارٌ لذي فضلٍ أو حادثةٌ مهمّة»[6].

احتفال النّصارى بعيد نزول المائدة:

جاء في القرآنِ المَجيد أنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ قال: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤]، بمعنى: أنّ اليومَ الذي نَزَلت فيه المائدةُ سيكونُ عيدًا لنا ولمَن يأتي بعدَنا من النَّصارى جميعًا، و**«رُوِيَ أنه نَزَلت يومَ الأحد، فلذلك اتّخذَه النَّصارى عيدًا»[7].**

---

(١) المواهب اللدنية، ١: ١٤٧.

(٢) لسان العرب.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المفردات.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المنجد.

(٧) تفسير الخازن وروح المعاني.

فإذا كان اليومُ الذي نَزَلتْ فيه المائدةُ من السَّماء يمكنُ أن يكونَ عيدًا للنَّصارى، فإنّ اليومَ الذي وُلِد فيه رحمةً للعالَمين سيّدُنا محمّدٌ ﷺ هو يومُ عيدٍ للمسلمينَ جميعًا على وَجْهِ اليقين.

احتفال اليهود بعيد النّجاة من الفرعون:

يقولُ سيّدُنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: **قَدِم النّبيُّ ﷺ المدينةَ، فرأى اليهودَ تصومُ يومَ عاشوراء، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يومٌ نَجَّى اللهُ بني إسرائيلَ من عدوِّهم، فصامَهُ موسى عليه السَّلام** (ولهذا نحن أيضًا نصومُ هذا اليومَ شكرًا لله)، **قال: «فأنا أحقُّ بموسى منكم»، فصامَه وأمَرَ بصيامِه**[1].

وقال سيّدُنا أبوموسى رضي اللهُ عنه: **«كان يومُ عاشُوراءَ تعُدُّه اليهودُ عيدًا، قال النّبيُّ ﷺ: فصوموهُ أنتم»**[2].

ويُعلَمُ من هذا أنّ احتفالَ أيِّ أُمّةٍ باليوم الذي أَنْزلَ اللهُ فيه عليها نعمةً من نِعَمِه، وشُكرَ الله تعالى على هذه النِّعمة، إنّما هو سُنّةُ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، كما أنّ الحِكمةَ من الاحتفالِ بيوم العاشِر من محرَّم هي أنّ بني إسرائيلَ قد نَجّاهم اللهُ تعالى في ذلك اليوم من ظُلم فرعَوْن، والحِكمةُ من الاحتفالِ بيوم الثانيَ عشَرَ من شهرِ ربيعِ الأول لأنه في هذا اليوم وُلِدت تلك الذّاتُ العظيمةُ المباركةُ التي كانت سببًا في نجاةِ البشَريّة كلِّها من الظُّلم العظيم، أي: الشِّرك، ولهذا فإنّ الثانيَ عشَرَ من ربيع الأول ـ في ضوءِ هذه الخَلْفيّة ـ يستحقُّ أن يُسمَّى عيدًا أكثرَ ممّا يستحقُّه يومُ عاشُوراءَ.

---

(١) البخاري، كتاب الصوم، باب ٦٩ برقم ٢٠٠٤.

(٢) البخاري، كتاب الصوم، باب ٦٩ برقم ٢٠٠٥.

الاحتفال بيوم مولد سيّدنا آدم عليه السّلام:

قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «**إنّ هذا يومُ عيدٍ** (أي: يومُ الجمُعة) **جَعَلَه اللهُ** (عيدًا) **للمسلمين**»[١]، وقال ﷺ: «**إنّ يومَ الجمُعة يومُ عيدٍ**»[٢]، وقال ﷺ: «**من أفضَل أيّامِكم يومُ الجمُعة، فيه خُلِق آدمُ وفيه قُبِض**»[٣].

ويُعلَمُ من الأحاديثِ المذكورةِ سابقًا أنّ هناك سببًا آخَر في الاحتفالِ بيوم الجمُعة، وهو: أنّ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلام وُلِد في هذا اليوم وتوفّي فيه أيضًا، وقد وُلِد سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام مرّةً واحدة، لكنَّنا نحتفلُ بمولدِه كلَّ جمُعة، وطِبقًا للشَّريعة فإنه يكونُ الحِدادُ على الوفاةِ لثلاثةِ أيام، بمعنى: أنْ يجلسَ وَرَثةُ الميِّت في بيوتِهم لثلاثةِ أيام يحاولونَ فيها التغلُّبَ على أحزانِهم والصَّبرَ عليها، ويأتي الأقاربُ الآخَرونَ والأصدقاءُ للعزاء، لكنْ إن أقاموا الحِدادَ دائمًا فمنَ المؤكَّد أنّ اليأسَ سيُصيبُهم، ويتراجَعونَ في أعمالِهم ولا يُقبِلونَ عليها، على العكسِ من ذلك جُعِل الاحتفالُ بالولادةِ دائمًا؛ لأنّ الاحتفالَ بحَدَثٍ سعيدٍ كهذا يرفَعُ من معنويّاتِهم، ويَجعَلُهم يُقبِلونَ على الحياةِ والعمَل فيها.

فإذا كنا نحتفلُ بميلادِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام كلَّ جمُعة، فنغتسلُ في ذلك اليوم، ونلبَسُ الملابسَ الجيِّدة، بل ونتعطَّرُ أيضًا، ونُطلِقُ على يوم مولدِه عيدًا، فإنّ إطلاقَ لفظِ العيدِ على اليوم الذي وُلِد فيه إمامُ الأنبياءِ والرُّسُل عليهمُ السَّلام جميعًا ونبيُّ آخِرِ الزّمان سيّدُنا محمّدٌ ﷺ أَوْلى بمراحلَ.

---

(١) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ٨٣ برقم ١٠٩٨.

(٢) مسند أحمد، ٢: ٣٠٣.

(٣) مسند أحمد، ٤: ٨.

الفرح بمولد النبيّ ﷺ والحزن على وفاته:

رَغْمَ أنّ هناك اختلافًا في تاريخ وفاةِ النبيِّ ﷺ، لكنّ الأكثريّةَ على أنّ ولادتَه ﷺ ووفاتَه كانتا بتاريخ الثانيَ عشَرَ من ربيع الأول. يقولُ العلّامةُ جلالُ الدِّين السُّيوطيُّ: **«إنّ ولادتَه صلّى الله عليه وسلّم أعظمُ النِّعم علينا، ووفاته أعظمُ المصائبِ لنا، والشّريعةُ حثَّت على إظهارِ شُكر النِّعَم والصّبرِ والسُّكون والكَتْم عندَ المصائب، وقد أمَرَ الشَّرعُ بالعقيقة عندَ الولادة، وهي: إظهارُ شُكرٍ وفَرَحٍ بالمولود، ولم يَأمُرْ عندَ الموتِ بذَبْحٍ ولا بغيرِه، بل نَهى عن النِّياحة وإظهارِ الجَزَع، فدَلَّت قواعدُ الشّريعة على أنّه يَحسُن في هذا الشّهرِ إظهارُ الفَرَح بولادته صلّى الله عليه وسلّم دونَ إظهارِ الحُزن فيه بوفاتِه»**[1].

مولد النبيّ ﷺ أعظم نعمة:

١ـ «إنّ ولادتَه صلّى الله عليه وسلّم أعظمُ النِّعَم علينا»[2].

٢ـ النبيُّ ﷺ رحمةٌ مجسَّدة **«أيُّ نعمةٍ أعظمُ منَ النِّعمةِ بِبُروزِ هذا النبيِّ نبيِّ الرَّحمة في ذلك اليوم»**[3]، أي: أنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ أعظَمُ نعمةٍ من الله تعالى، ولهذا يجبُ الاحتفالُ بمولدِه ﷺ وشُكرُ الله على ذلك.

الاحتفالُ بالمولدِ في صورتِـه الحاليّةِ بِدعةٌ حسَنة

قال الإمامُ الشافعيُّ رحمةُ الله عليه فيما رَواه البيهَقيُّ بإسنادِه: **«المُحدَثاتُ من الأمور ضَرْبان، أحدُهما: ما أُحدِثَ ممّا يُخالفُ كتابًا أو سُنّةً أو أثرًا أو إجماعًا، فهذه البِدعةُ الضّلالةُ، والثّاني: ما أُحدِثَ من الخيرِ لا خلافَ فيه لواحدٍ من هذا،**

(١) الحاوي للفتاوي، الإمام جلال الدين السيوطي، ١: ١٨٥.

(٢) الحاوي للفتاوي، ١: ١٨٠.

(٣) الحاوي للفتاوي، الإمام جلال الدين السيوطي، ١: ١٨٨.

وهذه محدَثةٌ غيرُ مذمومةٍ، وقد قال عُمرُ رضي الله عنه في قيام شهرِ رمضان: نِعمَتِ البِدعةُ هذه»[(١)].

فإذا لم يكنْ في محافلِ الميلادِ ما يُخالفُ الكتابَ والسُّنّةَ والإجماعَ وأقوالَ الصَّحابة، فإنّ هذا يكونُ بدعةً حسَنةً مثلَما قال الإمامُ جلالُ الدِّين السُّيوطيُّ: **«أنّ أصلَ عمَل المولدِ الذي هو: اجتماعُ الناسِ وقراءةُ ما تيسَّر من القرآنِ وروايةُ الأخبارِ الواردة في مبدَأِ أمرِ النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم وما وَقَع في مولدِه من الآيات، ثم يُمَدُّ لهم سِماطٌ يأكلونَه وينصرفونَ من غيرِ زيادة على ذلك، هو منَ البِدَع الحسَنة التي يُثابُ عليها صاحبُها لِما فيه من تعظيم قَدْرِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وإظهارِ الفَرَح والاستبشارِ بمولدِه الشَّريف»**[(٢)]، وقد قال النبيُّ ﷺ فيما يتعلَّقُ بالبِدعةِ الحَسنة: **«مَن سَنَّ في الإسلام سُنّةً حسَنةً فعُمِلَ بها بعدَه كُتِب له مثلُ أَجْرِ من عَمِل بها ولا ينقُصُ من أجورِهم شيءٌ»**[(٣)].

والحقيقةُ أنّ محافلَ ميلادِ النبيِّ بصورتِها الحاليّة إنما هي بِدعةٌ من حيثُ هيئتُها الاجتماعيّةُ فقطْ، ولكنّها ليست بِدعةً باعتبارِ الأفرادِ فيها؛ لأنّ أفرادَها موجودونَ في العهدِ النَّبويِّ، بمعنى: أنّ كلَّ الأعمالِ في محفِل الميلادِ كانت موجودةً بشكلٍ فرديٍّ في العهدِ النَّبويِّ، حتى أنه خَرَجت مسيرةٌ عظيمةٌ لاستقبالِ النبيِّ ﷺ حين شرَّفَ المدينةَ بالقدوم إليها، وفي هذه المسيرة كان هناك استعراضٌ حَرْبيٌّ وضربٌ بالدُّفِّ من البناتِ الصِّغار، وترديدُ المدائح النَّبويّة أيضًا، وكلُّه محفوظٌ في كُتبِ التاريخ والحديثِ الشّريف.

---

(١) الحاوي للفتاوي، ١: ١٨٥.

(٢) الحاوي للفتاوي، ١: ١٨١.

(٣) مسلم، كتاب العلم، باب ٦.

يقولُ الإمامُ أحمدُ القَسْطَلّاني: «**وما زال أهلُ الإسلام يحتفلونَ بشهرِ مولدِه عليه السَّلام، ويعمَلونَ الولائمَ، ويتصدَّقونَ في لياليه بأنواع الصَّدَقات، ويُظهِرونَ السرورَ، ويزيدونَ في المبَرّات، ويَعتنُونَ بقراءةِ مولدِه الكريم، ويَظهَرُ عليهم من برَكاتِه كلُّ فضلٍ عميم**»[1].

ولو أنّنا اعتبَرْنا العملَ الذي لم يكنْ في عهدِ النبيِّ ﷺ بدعةً وحرامًا، فماذا نقولُ لجَمْع القرآنِ الكريم في كتابٍ واحد، وإعرابه، وأداءِ صلاةِ التراويح في جماعة، وإنشاءِ المدارسِ والمستشفيات، وتأليفِ كتُبِ الحديثِ والفقه، وعمَلِ مآذنَ ومحاريبَ للمساجد؟ سيكونُ كلُّ هذا ـ بالتَّبَعيّةِ ـ حرامًا، وسنُضْطَرُّ إلى الحربِ بالسَّيفِ والسَّهم في مواجهةِ المدافع والصّواريخ، وفي مقابلِ الدَّبابات والطائراتِ الحربيَّة سنُضْطَرُّ للسيرِ على الأقدام وركوبِ الجِمال، ثم سنترُكُ المساجدَ المبنيَّةَ بالطُّوبِ الأحمر والمكيَّفةَ والمفروشةَ بالسَّجاجيد، لنُصلِّيَ في المساجدِ المبنيَّةِ بالطُّوبِ اللَّبِن، ذاتِ الأسقُفِ من جريدِ النَّخل، والتي سيتساقَطُ المطرُ من خلالها، ويَجعَلُ الأرضَ داخلَ المسجدِ وَحْلًا وطِينًا! وسنترُكُ السَّفَرَ في السّياراتِ والطائرات، لنسافرَ على النُّوقِ والجِمال، فهل في لندنَ أو كراتشي ـ مثلًا ـ من الدُّعاةِ من رَكِبَ الناقةَ وسافَرَ عليها ولو لأميالٍ قليلةٍ حتى يعمَلَ بهذه السُّنةِ النَّبويّة ولو لساعةٍ واحدةٍ في حياته؟ فإذا كان المقصِدُ الأصليُّ يتحقَّقُ بطريقةٍ أفضَلَ من خلال هذه الأشياءِ البِدْعيَّةِ المتطوِّرة، فإنّ محافلَ الميلادِ المتطوِّرةَ والاجتماعيّةَ في أيامِنا هذه هي أفضَلُ وسيلةٍ لإبرازِ المحبّة للنبيِّ ﷺ وتعظيمِه.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

٥٣ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيب ﷺ، سَلْ هؤلاءِ المشركين: الرِّزقُ الذي أعطاكمُ اللهُ

---

(١) المواهب اللدنية، ١: ١٤٨.

إياه، تنسُبونَ بعضًا منه إلى الأصنام محرِّمينَ إياه، وتُحِلُّونَ البعضَ الآخَر، فإذا كان اللهُ تعالى أعطاكم الحقَّ في هذا التحليل والتحريم، فأيُّ كتابٍ سَماويٍّ ذُكِر فيه هذا الحقُّ؟ إنكم ـ بطبيعةِ الحال ـ لا تملِكونَ أيَّ دليلٍ على هذا، وتفترونَ على اللهِ الكذِبَ، ومن يفتري على الله الكذبَ عليه أن يَعلَمَ جيِّدًا أنّ الساعةَ قادمةٌ على وَجْه اليقين، وسوف يُعاقَبُونَ في ذلك اليوم عقابًا شديدًا على هذا الكذب. إنّ اللهَ تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمة، ولهذا لا يُعجِّلُ العذابَ والعقابَ في هذه الدنيا، وإنّما يُمهلُ البَشَر ربّما أصْلَحوا أنفسَهم، ومعَ ذلك فإنّ أكثرَ الناسِ لا يَستغِلُّونَ هذه المُهلةَ ولا يستفيدونَ منها.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

٥٤ـ جاء الخطابُ في هذه الآيةِ إلى النبيِّ ﷺ أولًا بأنّنا نَرى المصاعبَ التي تواجهُك في تلاوةِ القرآن وتبليغ الإسلام، فاستمرَّ في دعوتِك وجهودِك، والنَّصرُ في نهايةِ الأمر لكَ.

ثم جاء الخطابُ بعدَ ذلك لكلِّ بني الإنسان بأنّه لا يوجَدُ شيءٌ في السّماءِ ولا في الأرضِ يَخفَى علينا، مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، وكلُّ صغيرةٍ أو كبيرةٍ تفعَلونَها من الأعمالِ الصّالحة أو السيِّئة، تشهدُ على وجودِنا، وكلُّ شيءٍ مكتوبٌ ومُدوَّنٌ في اللَّوح المحفوظ، وسوف تُثابُونَ أو تعاقَبونَ طبقًا له.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

٥٥ـ مَقصِدُ جهودِ أولياءِ الله هو الحصُولُ على رضا الله تعالى، ولهذا إذا حُرِموا من نعمةٍ ماديّةٍ من نِعَم الحياةِ الدُّنيا، ثم رأَوْا فَضْلَ الله عليهم في الآخِرة، فإنّهم لا يحزَنونَ لحِرمانِهم من هذه النِّعمةِ الدُّنيويّةِ الماديّة، ولا يخشَوْنَ من ظلمٍ في ميزانِ العدل، وإنّما يكونُ جلالُ الله والخوفُ منه فقطْ في قلوبِهم، وهذا الخوفُ علامةٌ على عظَمةِ الإنسان وكرامتِه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولهذا قال النبيُّ ﷺ «**إنّ أتقاكم وأعلَمَكم بالله: أنا**»[1].

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب ١٣ برقم ٢٠.

تعريف الوليّ في اللّغة:

معنى الوَليِّ في القاموسِ: القريبُ والمُحِبُّ والصَّديقُ والمُعين[١]، واللهُ تعالى باعتبارِ العِلم والمشاهدة هو الأقرَبُ لكلِّ إنسان، بل لكلِّ ذَرّةٍ في الكائنات، ولكن باعتبارِ المحبَّةِ والرَّحمة يكونُ قريبًا من أولئك العبادِ المخصُوصينَ الصّالحينَ المتَّقين، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ولهذا القُربِ دَرجاتٌ لا حَصْرَ لها، وكلّما ارتقَى المؤمنُ في عملِ الصّالحاتِ، ارتَفعتْ درَجاتُه، حتى يَصِلَ - في يوم من الأيام - إلى ذلك المقامِ الخاصِّ من القُرب، حيث تشتملُ أقوالُه وأفعالُه على برَكةٍ خاصّةٍ من الله تعالى، مثلَما جاء في الحديثِ القُدُسيِّ الذي قال اللهُ تعالى فيه: «**مَن عادَى لي وَليًّا فقد آذَنْتُه بالحرب، وما تقرَّبَ إليّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممّا افترَضْتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليّ بالنّوافل حتّى أُحبَّه، فإذا أحبَبتُه كنتُ سَمْعَه الّذي يَسمَعُ به، وبصَرَه الّذي يُبصرُ به، ويدَه الّتي يبطِشُ بها، ورِجلَه الّتي يمشي بها، وإنْ سألَني لَأُعطينَّه، ولئنِ استعاذَني لَأُعيذَنَّه**»[٢].

تعريف الوليّ في القرآن الكريم:

قال اللهُ تعالى:

١- ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٢- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

٣- ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٤- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) تفسير ضياء القرآن.

(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣٨.

ويُعلَمُ من هذه الآياتِ الأربعة مجتمعةً أنّ الدرجةَ الأُولى من درجاتِ الوليِّ تشمَلُ كلَّ مسلم آمَنَ بإخلاص، ثم بعدَ ذلك تكونُ درجةُ أولئك الذين يخشَوْنَ اللهَ تعالى ويتَّقونَه معَ إيمانِهم، ثم تأتي بعدَ ذلك درجةُ الذين يكونونَ علماءَ معَ إيمانِهم وتقواهم أيضًا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**فَضْلُ العالِم على العابِد كفَضْلي على أدناكُم**»[1]، وفي النِّهايةِ تأتي الدَّرجةُ العُليا، وهي لتلك الذَّواتِ المقدَّسةِ التي اختصَّها اللهُ تعالى بالنُّبوة، وأعظمُ درجةٍ فيها هي لنبيِّ آخِرِ الزّمان سيّدِنا محمّدٍ ﷺ.

تعريف الوليّ في الحديث الشّريف:

عنِ ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، من أولياءُ الله؟ قال: «**الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله عزَّ وجلَّ**»[2]، بمعنى: أنّ آثارَ التوحيد تبدو عليه في شكلِه وصورتِه وسلوكِه وكلامِه وتصرُّفاتِه إلى درجةٍ تُجدِّدُ ذِكرَ الله تعالى في عَقْل وضميرِ من يَرَوْنَه.

فضل الوليّ:

١ـ قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه عن ربِّه من الحديثِ القُدُسي: «**إنّ أوليائي من عبادي وأحِبّائي من خَلْقي الذين يُذكَرونَ بذِكري وأُذْكَرُ بذِكرِهم**»[3].

٢ـ قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ اللهَ تبارك وتَعالى إذا أحبَّ عبدًا نادى جِبريلَ إنّ اللهَ قد أحبَّ فلانًا فأحبَّه، فيُحبُّه جِبريلُ، ثمّ يُنادي جِبريلُ في السّماء: إنّ اللهَ قد أحبَّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السّماءِ ويوضَعُ له القَبولُ في أهلِ الأرض**»[4].

---

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٥.

(٢) ابن أبي حاتم، برقم ١٠٤٥٥.

(٣) مسند أحمد، ٣: ٤٣٠.

(٤) البخاري، برقم ٧٤٨٥، ومسلم، برقم ٢٦٣٧.

٣ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ بن الخطّاب رضي اللهُ عنه: **قال النّبيُّ ﷺ: «إنّ من عبادِ الله لَأُناسًا ما هم بأنبياءَ ولا شُهداءَ يَغبطُهم الأنبياءُ والشّهداءُ يومَ القيامةِ بمكانِهم من الله تعالى». قالوا: يا رسولَ الله! تُخبرُنا من هم ؟ قال: «هم قومٌ تحابُّوا برُوح الله على غيرِ أرحامٍ بينَهم ولا أموالٍ يتعاطَوْنَها، فوالله إنّ وجوهَهم لَنورٌ، وإنّهم على نورٍ، لا يخافونَ إذا خاف النّاس، ولا يحزَنونَ إذا حَزِن النّاس»** . وقَرأَ هذه الآيةَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(١) .

المعجزة والكرامة:

لو حَدَث أمرٌ خارقٌ للعادةِ على يدِ نبيٍّ فهو معجِزة، مثلَما وَصَلت قبْضةُ التّرابِ التي ألقَى بها النبيُّ ﷺ على جيشٍ من الكفّار قِوامُه ألفُ رجُل في غزوةِ بَدْر إلى عيونِ هؤلاءِ جميعًا. ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ١١، والآيةَ رقم ١٧ من سُورة الأنفال (٨).

أمّا إذا حَدَث هذا الأمرُ الخارقُ للعادة على يدِ وليٍّ لله، أي: على يدِ مؤمنٍ ولكن ليس نبيًّا، فهذا هو ما يُطلَقُ عليه في العُرفِ العامِّ «كرامةٌ»، مثلَما أحضَر أحدُ أصحابُ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام ـ وهو سيّدُنا آصَفُ رحمةُ الله عليه ـ عرشَ بَلقيسَ في طَرْفةِ عَيْن: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٤٠]، وكذلك الفاكهة التي وجدت في حجرة السيدة مريم عليها السلام في غير موسمها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٣٧].

---

(١) أبوداود، كتاب البيوع، باب ٧٨ برقم ٣٥٢٧.

والمعجِزةُ تحدُثُ تأييدًا لصِدق نبيٍّ، بينَما تُظهرُ الكرامةُ رِفعةَ قَدْر وليِّ الله وشَرفِه، وعندَ أهل السُّنةِ والجماعة فإنّ صدورَ الكرامةِ عن أولياءِ الله تعالى حقٌّ، لكنّ الكرامةَ ليست معيارَ الولاية، بمعنى: أنه لا ينبغي أن نَفْهَمَ أنّ الوليَّ هو مَن تَصدُرُ عنه الكرامةُ، ومن لا تَصدُرُ عنه الكرامةُ ليس وليًّا، فمعيارُ الولاية هو الإيمانُ والتقوى، فكلما زادتْ تقوى أحدٍ، زادَتْ درجةُ ولايتِه.

يقولُ القاضي ثناءُ الله رحمةُ الله عليه: «**ليستْ علامةَ الأولياءِ ما زَعَمتِ العوامُّ من خَرْقِ العاداتِ ولا العِلمِ بالمغيَّبات ـ فإنّها لا توجَدُ في كثيرٍ من أولياءِ الله ـ وقد يوجَدُ في غيرِهم على سبيل الاستدراج**»[1]، ولهذا يقولُ أهلُ العِلم: لو جاءك رجلٌ يطيرُ في السَّماء، ولكنَّه تاركٌ لسُنّةِ النبيِّ ﷺ، فقد يكونُ ساحرًا، ولكنْ لا يمكنُ أن يكون وليًّا.

٥٦ـ عن أبي الدّرداءِ رضي اللهُ عنه، قال: سُئل عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]؟ فقال: لقد سألتَ عن شيءٍ ما سمعتُ أحدًا سألَ عنه بعدَ رجُلٍ سألَ عنه رسولَ الله ﷺ، فقال: «هي الرُّؤيا الصّالحةُ يراها الرّجلُ المسلم، أو تُرى له، بُشْراه في الحياةِ الدّنيا، وبُشراهُ في الآخِرة الجنّة»[2].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

٥٧ـ لم يُنكِرْ مشركو مكّةَ نبوّةَ النبيِّ ﷺ فقطْ، وإنّما بَدَأوا حمْلةً سافرةً مُعاديةً للإسلام، وعليه قال اللهُ تعالى مُسَرِّيًا عن النبيِّ ﷺ: لا تحزَنْ من كلامِهم الجارح للقلوب، وإنّما عليكَ أن تواصلَ دعوتَك، فهؤلاءِ لن يستطيعوا أن يَضُرُّوا الإسلامَ

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) مسند أحمد، ٦: ٤٥٢.

بشيء؛ لأنّ اللهَ تعالى هو المالكُ الحقيقيُّ للعِزّةِ والشَّرف، وسوف يَنصُرُك، وسوف يتتصرُ الإسلامُ في نهايةِ المَطاف.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾

٥٨- اللهُ تعالى خالقُ كلِّ ما بيْنَ السّماءِ والأرض ومالكُه، وهو - وحدَه - الذي تليقُ به العبادةُ، والذين يَدْعُونَ شُركاءَ لله من عندِ أنفسِهم ليس لديهِم دليلٌ عقليٌّ أو نَقْليٌّ على شِركِهم هذا، وإنّما هم يتَّبِعونَ ظنونَهم وأوهامَهم ليس إلّا.

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

٥٩- «نَسَب اليهودُ والنَّصارى لله وَلَدًا، فقالوا: عُزَيْرُ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، كما قال كُفّارُ مكّةَ: الملائكةُ بناتُ الله»[١]، وجاء في هذه الآيةِ الكريمة إبطالٌ لزَعْمِهم هذا بأنه كما أنّ اللهَ تعالى مُنزَّهٌ عن أن يكونَ له والدٌ أو والدةٌ، فهو أيضًا مُنزَّهٌ عن أن يكونَ له وَلَد، فوجودُ الأولادِ للحفاظِ على النَّسْل وتَقدُّم البلاد إنّما هو ضرورةٌ بشَريّة، فإذا انقَطَعت سِلسلةُ الأولادِ خَلَت الأرضُ كلُّها من بني الإنسان، لكنّ اللهَ تعالى مالكُ كلِّ شيءٍ في الأرضِ والسَّماء منذُ الأزَل وإلى الأبد، وكلُّ شيءٍ في الكائناتِ محتاجٌ إلى الله تعالى في وجودِه، بينَما لا يَحتاجُ اللهُ تعالى إلى أحد، ولهذا لا يَحتاجُ إلى أولادٍ أيضًا، والمشركونَ الذين يَدَّعُونَ أنّ لله ولدًا، لا دليلَ لديهِم على هذه العقيدة سواءٌ نَقْليٌّ أم عَقْليّ، وهم يقولونَ على الله ما لا يعلَمون.

---

(١) صفوة التفاسير.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾

٦٠ـ الذين يَدَّعُونَ كذِبًا أنّ للهِ تعالى وَلَدًا: كُفّارٌ، ولن يُفْلتوا من العذابِ في الآخِرة، وقد يستطيعُ هؤلاءِ تحقيقَ بعض النَّجاح بجهودٍ متواصِلة في هذه الحياةِ الفانيةِ القصيرة، ولكنّهم ـ في نهايةِ الأمر ـ سيَرجِعونَ إلى الله تعالى، وسوف يُعاقبُهم أشدَّ العقابِ على كُفرِهم هذا.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾

٦١ـ أي: اقصُصْ على مشركي مكّةَ قصّةَ سيّدِنا نوحٍ عليه السَّلام، حين قال لقومِه: إنْ كان مُكوثي هنا وتبليغي للأحكام الإلهيَّةِ يُثقِلُ عليكم، وتريدونَ قَتْلي،

فإنّي لا أُبالي بذلك، بلِ اجتمِعوا معَ كلِّ شُركائكم وتناقَشوا وتشاوَروا فيما بينَكم على أقصى ما يمكنُ أن تفعَلوه ضدِّي، وافعَلوه، فإنّني سأُؤدِّي واجبي في كلِّ حال؛ لأنّني أثِقُ تمامًا في صِدقِ رسالتي ونُصرةِ الله تعالى لي.

وبألفاظٍ أخرى، كان النبيُّ ﷺ يتحدَّى المشركينَ قائلًا: أنِ افعَلوا في معاداتي ما يمكنُكم فعلَه، فأنا نبيٌّ مِثلُ نُوح عليه السَّلام، ولن أتخلَّى عن دعوةِ التوحيدِ بأيِّ صورةٍ من الصُّوَر.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

٦٢- لئنْ أعرَضتُم عن الحقِّ بعدَ تبليغي إيّاكم به، فلا يَضُرُّني ذلك شيئًا، فأنا لم أطلبْ منكم أجرًا على تبليغي إياكم، فأنا أدعُوكم طلبًا لرِضا اللهِ تعالى فقطْ، واللهُ تعالى قد تعهَّد بأَجْري، وأمَرَني أن أبقَى من المسلمين، ولهذا فأنا لا أخافُكم، ولا أطمَعُ في شيءٍ منكم، على أيِّ حال سواءٌ آمنتُم أم لا، فإنّي مُلتزمٌ بأحكام الله تعالى دائمًا إن شاء الله.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ الإسلامَ كان دينَ الأنبياءِ جميعًا عليهمُ السَّلام، لكنّ بعضَ الأحكام الشَّرعيّة كانت مختلفةً طبقًا للظروف، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾

٦٣- ظلَّ سيِّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ يدعو قومَه ويُحذِّرُهم من عذابِ الله تعالى لمئاتٍ من السِّنين، لكنّهم ظَلُّوا متمسِّكينَ بكُفرِهم، ورَفَضوا دعوةَ سيِّدِنا نُوح عليه السلام، فجاءهم عذابُ الله تعالى في شكلِ سُيولٍ غَرِق فيها كلُّ المُنكِرين،

ونَجَا أولئك الذين آمَنوا بسيّدِنا نُوح عليه السَّلامُ فقطْ، ورَكِبوا معَه في السَّفينة، وخَلَف هؤلاءِ الذين نَجَوْا أولئك الذين غَرِقوا جميعًا، ثم انحَدر النَّسلُ الإنسانيُّ بعدَ ذلك من هؤلاءِ الناس، أي: أبناءِ سيّدِنا نُوح عليه السَّلام الثلاثةِ، ولهذا يقالُ لسيّدِنا نُوح عليه السَّلام: «آدمُ الثاني».

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾

٦٤ـ بعدَ انتقالِ سيّدِنا نُوحٍ عليه السّلامُ إلى الرَّفيقِ الأعلى أضَلَّ الشّيطانُ الناسَ ثانيةً، فأرسَلَ اللهُ تعالى إليهم رسُلًا أتَوْهم بالمعجِزات، وأخبَروهم أنّهم أُرسِلوا لهدايتِهم وإرشادِهم، ولكنّ هؤلاءِ الأقوامَ لم يَقبَلوا تبليغَ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام ولا دعوتَهم، وظَلُّوا على إنكارِهم هذا بكلِّ عنادٍ وجهلٍ وصَلَف، لدرجةِ أنّهم استمرُّوا في إنكارِ نبوّةِ كلِّ نبيٍّ يأتيهم بعدَ ذلك، ولم يكونوا مستعِدّينَ بأيِّ حالٍ من الأحوال للإيمانِ بأيِّ نبيّ، كما أنّ الذين يظَلُّونَ مُصِرِّينَ على عصيانِهم وعنادِهم بشكلٍ مستمرٍّ، فإنّ نهايةَ أمرِهم أن تتلاشَى من قلوبِهم كلُّ إمكانيّةٍ لقَبُولِ الحقِّ، ويصبحونَ وكأنّ قلوبَهم قد خُتِم عليها ولم تعُدْ سليمةً.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

٦٥ـ حين دَعا سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ آلَ فِرعَونَ للتوحيد، وأتاهم بالمعجِزاتِ تصديقًا لدعوتِه (للتفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٦٥ والآيةَ رقم ١٣٣ من سورة الأعراف (٧))، استكْبَروا، وقالوا عن المعجِزات: إنّها سِحر! معَ أنّ من غيرِ الممكِن أن يُفلحَ السَّحَرةُ، ولكنّ المُنكِرينَ لا يكونُ لديهم دليلٌ معقولٌ على صحة إنكارِهم أصلًا، ولهذا فإنهم يتهمونَ الأنبياءَ بالسِّحرِ محاولينَ إقناعَ رفاقِهِمْ بكلامٍ طفوليٍّ غيرِ مُقنِع.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾

٦٦- حينَ لم يستطع الفِرعَوْنُ ورجالُه أن يُقدِّموا جوابًا معقولًا على أدِلّةِ سيّدِنا موسى وسيّدِنا هارونَ عليهما السَّلام، أخَذوا يوجِّهونَ إليهما التُّهَمَ بأنّكما تريدانِ إبعادَنا عن طريقِ آبائنا وأجدادِنا، والاستيلاءِ على حُكمِ مصرَ، ولهذا فإنّنا لن نؤمن بكما أبدًا.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾

٦٧- أمَرَ فِرعَونُ أنْ أحضِروا السَّحَرةَ من كلِّ أرجاءِ البلاد لمواجَهة سيّدِنا موسى عليه السّلام، وحينَ حَضَر السَّحَرةُ جميعًا قال لهم سيّدُنا موسى عليه السَّلام: اعرِضُوا ما عندَكم أولًا. فألقَى السَّحَرةُ بآلافٍ من العِصيِّ والحِبال التي كانت في أيديهم، وسَحَروا أعيُنَ النّاس فرأَوْا هذه العِصيَّ وهذه الحِبالَ كأنّها ثَعابينَ، وهنا قال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: لم يكنْ ما أرَيْتُكم إيّاه من قبلُ سِحرًا، بل إنّ السِّحرَ في الواقع هو الذي أرَيْتُمونا الآنَ، وسوف يُبطِلُ اللهُ هذا السِّحرَ ويُثبِّتُ الحقَّ. وهكذا ألقَى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ عَصاهُ بأمرِ الله، فابتَلَعت الحِبالَ كلَّها، وقَضَت على كلِّ أثرٍ للباطل.

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ

بُيُوتًا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾

٦٨ـ في البدايةِ آمَنَ بعضُ شبابِ بني إسرائيلَ فقطْ بسيِّدِنا موسى عليه السَّلام، ولم يؤمنْ أكثرُ النّاسِ بسببِ فِرعَوْن؛ لأنّ فِرعونَ كان مَلِكًا ظالمًا جبّارًا، وبَلَغ الحدَّ في إيذاءِ كلِّ مَن يعارضُه. ويُعلَمُ من مطالعةِ التاريخ أنّ دورَ الشّبابِ في أيِّ ثورةٍ هو الأبرزُ دائمًا، على سبيل المثال: الانقلابُ الذي أحدثَه سيّدُ المرسَلين سيّدُنا محمّدٌ ﷺ قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام في أرضِ العرب، كان الشّبابُ من الفِتْيانِ والفَتياتِ هم المجاهدينَ الأوائل فيه، وكان عُمُرُ مَن دَخَل في الإسلام من هؤلاءِ الشبابِ ـ أمثالَ سيِّدِنا جعفرِ بن أبي طالب وسيّدِنا سعدِ بن أبي وَقّاص وسيّدِنا مُصعَبِ بن عُمَيْر وسيّدِنا عبدِ الله بن مَسْعود وسيّدِنا الزُّبَيْر وسيّدِنا طلحةَ والسيّدةِ أسماءَ بنتِ سيّدنا أبي بكرٍ رضي اللهُ عنهم جميعًا ـ أقلَّ من عشرينَ عامًا، وكان عُمُرُ كلٍّ من سيّدِنا عبدِ الرَّحمن بن عَوْف وسيّدِنا بلالٍ الحبَشيِّ وسيّدِنا صُهَيْبٍ الرُّوميِّ وسيّدِنا سعيدِ بن زَيْد زَوْج أُختِ سيّدِنا عُمرَ الفاروقِ والسيّدةِ فاطمةَ أُختِ سيّدِنا عُمَرَ الفاروق وسيّدِنا عُمرَ الفاروقِ نفسِه رضي اللهُ عنهم جميعًا ما بيْنَ العشرينَ

والثلاثينَ سنةً، وكان سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ والسيّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها لا يزالا طِفلَيْنِ حينَ دَخَلا في الإسلام، وكان عُمُرُ سيّدِنا أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي اللهُ عنه ثمانيًا وثلاثينَ سنةً، ولم يكنْ هناك ممَّن دَخَلوا في الإسلام مَن هم أكبرُ من رسولِ الله ﷺ في العمُرِ إلّا شخصيَّتانِ فقطْ، وهما: زَوْجُه أُمُّ المؤمنينَ السيّدةُ خديجةُ الكبرى رضيَ اللهُ عنها، وسيّدُنا عُبَيدةُ بن الحارثِ رضي اللهُ عنه، بمعنى: أنّ ثمانينَ بالمائة ممَّن دَخَلوا في الإسلام في بدايةِ أمرِه كانت أعمارُهم تتراوَحُ ما بيْنَ خمسةَ عشَرَ وثلاثينَ عامًا.

والشبابُ هم شُعاعُ الأمل في التخلُّص من المصائبِ التي تُحيطُ بالأُمّةِ المسلمةِ اليومَ، والتي جَعَلت حاضرَها ومستقبَلَها يُخيِّمُ عليه الظّلام، وعليهم فَرْضٌ قوميٌّ ينبغي أن يقوموا به، وهو أن يتقدَّموا في العِلم والتكنولوجيا عاملينَ بأحكام الإسلام، لكيْ يُنقِذوا الأُمّةَ المسلمة من هذا التراجع، ويَضَعُوها على طريقِ التقدُّم والتطوُّر.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

٦٩ـ حينَ أعلَن سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ نُبوَّتَه زاد الفِرعَونُ من ظُلمِه لبني إسرائيل، وهَدَم معابدَهم، وأصبحت مشاركةُ بني إسرائيلَ في الأنشِطةِ الدِّينيّة ـ بشكلٍ علنيٍّ ـ أمرًا غايةً في الصُّعوبة، في مِثل هذه الظُّروفِ أَذِنَ اللهُ تعالى لبني إسرائيلَ أن يجعَلوا من بيوتِهم معابدَ، وأن يُصَلُّوا فيها، ويتوكَّلوا على الله، وهو مُعينُهم.

وقد نال المسلمونَ شرَفَ أن يُصَلُّوا في البيتِ وفي المسجدِ وفي الصَّحراءِ وحيثما شاءوا يستطيعونَ أداءَ الصَّلاةِ في أيِّ مكانٍ طاهر، بينَما كانت الأُممُ السّابقةُ تؤدِّي صلاتَها في أماكنِ العبادةِ فقطْ، إلّا أنّ اللهَ تعالى أَذِن لبني إسرائيلَ ـ بشكلٍ عارِضٍ ومؤقَّت ـ أن يُؤدُّوا صلاتَهم في بيوتِهم خُفْية.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

٧٠ـ حين لم يؤمنْ فِرعونُ وقومُه حتّى بعدَ أنْ رأَوْا معجزاتِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، قال سيّدُنا موسى لله تعالى إنّ هؤلاءِ أخَذوا يُضِلُّونَ الناسَ بدَلًا من أن يؤدُّوا الشُّكرَ لكَ على ما أعطَيْتَهم من عزٍّ وجاهٍ دُنيويٍّ ومالٍ وثَروات، ولذا يا ربِّ دمِّرْ متاعَهم، واجعَلِ الكُفرَ راسخًا في قلوبِهم، حتى يَذوقوا العذابَ الأليمَ الذي هو عقابٌ محتومٌ لهذا الجُحود، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فلم يوفِّقْهم اللهُ تعالى طيلةَ حياتِهم إلى الإيمان، وحينَ رأَوا العذابَ الأليمَ وقتَ غرَقِهم، أظهَروا أنّهم آمَنوا! لكنّ إيمانَ اللَّحظاتِ الأخيرةِ هذا لا يَقبَلُه اللهُ تعالى.

ورَغْم أنّ النبيَّ بصفةٍ عامّة يدعو بالهدايةِ وليس بالهلاك، ولكنْ حينَ تبلُغُ أُمّةٌ في عصيانِها المدى، ولا يبقَى هناك أيُّ إمكانيّةٍ لأن تهتديَ، فإنّه لا يبقَى سوى أمرٍ واحد، وهو تفويضُ أمرِهم لله تعالى، ولهذا وكأنَّ مشيئةَ الله تعالى في عقابِهم هو ما جَرى على لسانِ النبيِّ بلا تكلُّف، مثلَما دَعا سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلام على أُمّتِه بعدَ أن ظلَّ يدعوهم لمئاتِ السِّنين ولم يهتَدوا: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٧١ـ قال اللهُ تعالى: «﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، أي: قال تعالى: قدِ استَجَبْتُ دعوتكما على فِرعَونَ وأشرافِ قومِه، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: اثبُتا على ما أنتُم عليه من الدَّعوةِ إلى الله وإلزام الحُجّة ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تَسلُكا سبيلَ الجَهَلةِ في الاستعجالِ أو عَدَم الاطمئنان بوَعْدِ الله تعالى، قال الطَّبري: رُويَ أنه مَكَث بعدَ هذه الدَّعوةِ أربعينَ سنةً ثم أَغْرقَ اللهُ فِرعَونَ»[1].

---

(١) صفوة التفاسير.

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

٧٢- حينَ بَلَغ أَتْباعُ فِرعونَ المدَى في ظُلم بني إسرائيلَ، اصْطَحبَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ قومَه في ظلامِ اللّيل وهاجَرَ من مِصرَ، وحين وَصَلت قافلةُ المهـاجِرينَ هذه إلى شاطئِ بـحرِ الـقُلزُم (البحرِ الأحمر)، لَحِقَ بهم جيشُ فِرعَونَ متعقِّبًا إيّاهم، فضَربَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ البحرَ بعَصاهُ، فتوقَّفت مياهُ البحرِ بشكلٍ مُعجِزٍ، وأصبح هناك طريقٌ في وَسَطِ الماءِ سارَ عليه بنو إسرائيلَ وعبَروا إلى الشاطئِ الآخَر، وحينَئذٍ أسرعَ أَتْباعُ فرعَوْنَ بتعقُّبِ بني إسرائيلَ بخيولِهم سالكيـنَ نفسَ الطريـقِ حتـى يعتقِلوهم ويستعبِدوهم من جديدٍ ويُواصلوا إيقاعَ الظُّلم بهم كما كانوا يفعَلونَ من قبلُ، ولكنْ حينَ وَصَل كلُّ أَتْباع الفِرعَونِ إلى وَسَطِ البحر، عادتِ المياهُ المتوقِّفةُ إلى سيرتِـها الأُولى وأخَذت تَنْساب، وحين أَوْشكَ فِرعونُ على الغرَق، وتيقَّن من موتِـه أعلَن إسلامَه قائلًا: إنَّني أُعلنُ إيماني بربِّ بني إسرائيلَ، وكان يَهدِفُ بذلك إلى حِيلةٍ يَنْجو بها من الغَرَق، لكنّ الجوابَ جاء من الله تعالى: أنه لا فائدةَ من الإيمانِ في حالةِ الاضْطِرار واللَّحظاتِ الأخيرة؛ لأنه حينَ كان هناك وقتٌ للإيمانِ أصرَرْتَ على عِصيانِك وفسادِك، ولذا لا يستطيعُ أحدٌ أن يُنقذَك من الغَرَقِ الآنَ، وبالفعل غَرِق فرعونُ وجيشُه.

وقد نَقَل العلّامةُ إسماعيلُ حقّي هذه الرِّوايةَ في تفسيرِ هذه الآية بأنّ فِرعونَ **«عَرَض له جِبريلُ يومًا فقال: أيُّها المَلِك، إنّ عبدًا مَلَّكتُه على عبيدي وأعطَيْتُه مفاتيحَ خزائني، وعاداني، وأحبَّ من عادَيتُه، وعادَى من أحببتُه. فقال له فِرعونُ: لو كان لي ذلك العبدُ لغَرَّقتُه في بحرِ القُلزُم. فقال جِبريل: أيُّها الملِك، اكتُبْ لي بذلك كتابًا. قال: فدَعا بدَواةٍ وقلم وقِرطاسٍ، فكَتَب فِرعونُ فيه. يقولُ أبوالعبّاس الوليدُ بن**

مُصعَب: جزاءُ العبدِ الخارج على سيّدِهِ الكافِرِ نعماءَه أن يَغرَقَ في البحر، فلمَّا أَلْجَمَه الغَرَقُ ناوَلَه جِبريلُ خَطَّه فعَرَفه، فقال جِبريلُ: هذا ما حَكَمتَ به على نفسِك»[1].

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾

٧٣ـ بأمرِ الله تعالى أَلْقَتْ أمواجُ البحرِ بجُثّةِ فِرعَوْنَ على تلٍّ من الأرض، فتيقَّن بنو إسرائيلَ ـ الذين نَجَوْا من مظالِم فرعَوْنَ حين رأَوْها ـ أنّ فِرعَوْنَ قد مات بالفعل، هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَر أصبحتْ جُثّةُ فِرعَوْنَ آيةً تَعتبرُ منها الأجيالُ القادمةُ من بعدِه، بأنّ ذلك الذي كان يَدَّعي الأُلوهيّةَ أصبح الآنَ ميّتًا هالكًا، وهناك المئاتُ من هذه الأمثلةِ في التاريخ، لكنّ أكثرَ الناسِ لا يتعلَّمونَ منها الدّروسَ، ولا يأخُذونَ منها العِبَر.

يقول شيخي الجَليلُ وأُستاذي الفاضِل سيّدُنا ضياءُ الأُمّة رحمةُ الله عليه: «كانوا قدِ اكتشَفوا في مِصرَ مادةً يمكنُ باستعمالِها الحفاظُ على جُثّةِ الميِّتِ من التعفُّنِ والتآكُل، وكانت جُثَثُ الملوكِ والأمراءِ في ذلك الوقتِ يتمُّ تحنيطُها، وهكذا استَخرجَ علماءُ الآثارِ جُثَثًا «مُمْياواتٍ» عديدةً من مقابرِ مِصرَ الملَكيَّة لا تزالُ محفوظةً، وهناك مُومياءَ في المتحَف القوميِّ المِصريِّ يَعتقِدُ علماءُ الآثارِ أنها لفرعَوْنِ موسى»[2].

ولا يوجَدُ ذِكرٌ لموضوعِ إلقاءِ البحرِ لجُثّةِ فرعَوْنَ خارجَه هذا في الإنْجِيل ولا في أيِّ كتابٍ آخَرَ في الدُّنيا، والقرآنُ المَجِيدُ هو أولُ كتابٍ يَذكُرُ هذا الأمرَ الذي لم يكنْ أحدٌ يعلَمُه في ذلك الوقتِ، وقد أثبتَتِ الأحداثُ اليومَ صحَّتَه، وهو

---

(١) تفسير روح البيان.

(٢) تفسير ضياء القرآن.

ما يُعتبَرُ دليلًا واضحًا على صِدقِ القرآنِ المَجيد، وصِدقِ نبوّةِ النبيِّ الكريم ﷺ.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

٧٤ـ وبعدَ أن أَنْجى اللهُ تعالى بني إسرائيلَ منَ استعبادِ الفِرعَونِ أَنْعَم عليهم بحُكم بلادٍ عريقةٍ هي مِصرُ وفِلَسطينُ ليَسكُنوا فيها، وهيَّأَ لهم الغذاءَ الطاهرَ الذي تُنتجُه الأرضُ الخِصْبة في تلك البلاد، ولكنْ بَدلًا من أن يشكُرَ بنو إسرائيلَ اللهَ تعالى اختَلَفوا فيما بينَهم، ولم يكنْ هذا الاختلافُ بسببِ جهلٍ أو غَفْلة، وإنّما كان بسببِ العِناد والتكبُّرِ لا أكثر، وسيَفصِلُ اللهُ تعالى بينَهم ـ عمَليًّا ـ يومَ القيامة، حين يَدخُل الذين اتَّبعوا التَّوراةَ الجنَّة، ويَدخُلُ الذين حَرَّفوا فيها النارَ وبئسَ المصير.

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

٧٥ـ الآيةُ رقم ١٠٤ من سورة يونُسَ هذه واضحةٌ تمامًا في تفسيرِ هذه الآية وفَهْمِها: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، بمعنى: أنّ الشكَّ متعلِّقٌ بالناس، وليس بالنبيِّ ﷺ، وهذه حقيقةٌ بأنّه لا يمكنُ أن يَعتريَ الشكُّ نبيًّا فيما يتعلَّقُ بالوحي، مثلَما قال سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي اللهُ عنهما: «**لم يشُكَّ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ولم يَسألْ**»[١]، وقال سيّدُنا قَتادةُ رضيَ اللهُ عنه: «**ذُكِر لنا أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: لا أشُكُّ ولا أَسْأل**»[٢]، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى قد خَلَق مَلَكةً في داخلِ النبيِّ تجعَلُه لا يشُكُّ في التعرُّفِ على كلام الله تعالى ولا على المَلَكِ الذي يَنزِلُ به عليه، مثلَما قال الإمامُ القَسْطلّانيُّ رحمةُ الله عليه: «**إنّ اللهَ تعالى خَلَق في محمّدٍ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم عِلمًا ضروريًّا بأنّ جِبريلَ من عند الله مَلَكٌ لا جِنِّيٌّ ولا شيطانٌ، كما أنّ اللهَ تعالى خَلَق في جِبريلَ عِلمًا ضروريًّا بأنّ المتكلِّم معَه هو اللهُ تعالى، وأنّ المُرسِلَ له ربُّه تعالى لا غيرُ**»[٣].

ويتَّضِحُ من الآياتِ والأحاديثِ والنُّصوصِ السّابقة، أنّ الخطابَ في هذه الآية ليس للنبيِّ ﷺ، وإنّما للإنسانِ العاديِّ، بأنه لو كان لدَيْكَ شكٌّ في كلام الله هذا الذي أَنْزلناهُ على النبيِّ الكريم ﷺ، فيُمكنُك أن تتأكَّد من أولئك الذين يقرأونَ الكتُبَ السَّماويةَ التي نَزَلت قبْلَ القرآن؛ لأنّ وَصْفَ القرآنِ الكريم والنبيِّ الكريم ﷺ قد جاءا في تلك الكتب، وقَبِلَ العديدُ من علماءِ أهل الكتابِ الإسلام بعدَ أنْ رأَوْا

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، برقم ١٠٥٨٣.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري.

(٣) المواهب اللدنية، ١: ٩٩.

بأنفُسِهم هذه الصِّفاتِ فيها، في حينَ ظلَّ العديدُ من أهل الكتابِ الآخَرينَ على تعصُّبهم. على أيِّ حال أيُّها السامع، القرآنُ حقٌّ من ربِّك، فلا تحاولْ أبدًا أن تشكَّ فيه أو أن تكذِّبَه، وإلّا أصابَك الخُسرانُ المُبين.

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

٧٦ـ أولئك التُّعَساءُ الذين شَوَّهوا ما أَنْعم اللهُ به عليهم من مواهبَ وقُدُراتٍ بسببِ عِصيانِهم المستمرِّ، وثَبَت وتأكَّد موتُهم على الكُفر، هؤلاء مهما قدَّمتَ لهم من الدَّلائل، لن يؤمنوا أبدًا حتى يرَوْا بأعيُنِهم العذابَ الأليم، ولا تبدو لهم أيةُ صورةٍ للإفلاتِ منه، وحينَئذٍ سيُقبلون على الإسلام مضْطَرِّين، ولكنّ إيمانَهم في ذلك الوقتِ لن يكونَ مقبولًا، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٥].

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

٧٧ـ تغتَرُّ الأُممُ العاصيةُ بوسائِلها الماديّةِ لدرجةٍ تَجعَلُهم لا يرغَبونَ في الإيمانِ حتى بعدَ رؤيتِهم آثارَ قُربِ نزولِ العذاب، وحينَ يحيطُ بهمُ العذابُ من كلِّ مكان، فإنّهم حينَئذٍ يُقبِلونَ على الإيمان، معَ أنّ إيمانَ اللَّحظاتِ الأخيرةِ هذا لا جدوَى منه، وقد وقَع مِثلُ هذا الأمرِ في الغالبِ من الأُمم العاصيةِ المتمرِّدة، وهو ما كان نتيجتُه هلاكَهم، وتدميرَ مساكنِهم أيضًا.

ولكنّ من حُسنِ طالع قوم يونُسَ عليه السّلامُ أنّهم تابوا لَمّا رأَوْا آثارَ قُربِ نزولِ العذاب، وهو ما كان سببًا في أنْ أَبْعدَ اللهُ العذابَ عنهم وعن مساكنِهم، وأعطاهم مزيدًا من الوقتِ يستمتعونَ فيه بالحياة، وكان هؤلاءِ القومُ يسكُنونَ في «نِينَوَى» التي كانت تقَعُ في المَوصِل من العراق.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

٧٨ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، ولو شاء لَجعَلَ الناسَ كلَّهم مؤمنين، ولكنِ اقتَضَتْ حِكمتُه أن تدعوَهم أيُّها النبيُّ ﷺ إلى الإيمان، ثم يؤمنونَ هم برِضاهم، وإذا لم يؤمنْ شخصٌ رَغْمَ دعوتِك إياه فلا تحزَنْ؛ لأنّك لم تُرسَلْ لتُجبِرَ الناسَ على أن يكونوا مسلمين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

٧٩ـ كلُّ ما يَحدُثُ في الدُّنيا إنّما يَحدُثُ بإذْنِ الله تعالى، ولكنّ إذْنَه هذا مرتبطٌ بنظام عادلٍ وحكيم، بمعنى: أنّ الذين يتدبَّرونَ في آياتِ الله تعالى، ويجتهدونَ في البحثِ عن الحقِّ، فإنّ اللهَ تعالى يوفِّقُهم إلى الإيمان، أمّا الذين لا يستعمِلونَ العقلَ والفهمَ، فإنّ اللهَ تعالى يترُكُهم في نجاسةِ كُفرِهم.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

٨٠ ـ في الأرضِ والسّماءِ آياتٌ لا حَصْرَ لها تدُلُّ على توحيدِ الله عزَّ وجلَّ، لكنّ أولئك الذين قرَّروا ـ عَمْدًا ـ أن لا يؤمنوا، لا يمكنُ أن يؤثِّرَ فيهم أيُّ دليل أو تحذيرٍ من نبيّ، ويدُلُّ حالُهم على أنّهم ربّما ينتظرونَ العذابَ الذي نَزَل على الأقوام العاصِية من قَبْلِهم، فإن كانوا يرغَبونَ في هذا سواءٌ بشكلٍ إراديٍّ أو غيرِ إراديٍّ فلا بأسَ، ولْينتظروا الوقتَ الذي حدَّده اللهُ تعالى لعقابِهم في الدنيا أو في الآخِرة، وأنا أيضًا أنتظرُ، وفي النِّهاية سيتَّضحُ الحقُّ من الباطل.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

٨١ ـ حينَ كان العذابُ يأتي على الأقوامِ السّابقة، كان اللهُ تعالى يُنجِّي رسُلَه والمؤمنينَ من هذا العذاب، مثلَما نَجَّى سيِّدَنا نوحًا عليه السَّلام ومَن معَه بالسَّفينة،

ونجّى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ وقومَه بإيقافِ ماءِ البحر؛ لأنّ اللهَ تعالى تعهَّد بأن يُنجِّيَ أهلَ الإيمان، وبنفسِ الطريقة حينَ يأتي العذابُ على أولئك الكُفّارِ في الدنيا أو الآخِرة، فإنّ اللهَ سيحفَظُ أهلَ الإيمان منه.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

٨٢ - أي: أنه لو كان لديْكَ شكٌّ في ديني بعدَ كلِّ الدَّلائل البيِّنةِ والشواهدِ الواضحة فلْيكُنْ، أمّا أنا فليس لديَّ على أيِّ حال أدنى شكٍّ في خطأِ شركِكم، فأنتم تعبُدونَ غيرَ الله تعالى، ولا يمكنُ أن أعبُدَ ما تعبُدون، وإنّما أعبُدُ اللهَ مالكَ حياتِكم وموتِكم، وهو الذي أمَرَني أن أبقَى معَ أولئك الذين يؤمنونَ بالله تعالى بصِدقٍ من قلوبِهم، وأن أُركِّزَ جُهدي مطمئنًّا على الإسلام، وأن أبقَى بعيدًا عن الشِّرك، كما أنّه أمَرَني أنْ لا أعبُدَ الأصنامَ التي لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، كما أنّ عبادتَها شِركٌ بالله، والمشركونَ بالله ظالمون.

وفي هذه الآياتِ الثلاثة جاءَ الخطابُ إلى الأمةِ عن طريقِ النبيِّ ﷺ، لأنّ النبيَّ ﷺ مؤمنٌ منذ البدايةِ، ومعصومٌ من الشركِ والظلم.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

٨٣ ـ اللهُ قادرٌ مطلَق، وهو يَملِكُ النَّفعَ والضُرَّ، ولهذا هو ـ وحدَه ـ الذي تليقُ به العبادة، وأن يتَّقيَه البشَر.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

٨٤ ـ أي: يا أيُّها الناسُ، لقد جاءتْكم رسالةُ الله تعالى في صورةِ القرآنِ الكريم الذي ميَّزَ الحقَّ من الباطل، والآنَ لستُ مسئولًا عن أعمالِكم، فقرِّروا أنتم مستقبَلَكم بأنفُسِكم، ولكنْ تذَكَّروا أنّ من يؤمنُ بالقرآن ويَحصُلُ على الهداية، فإنّ فائدةَ ذلك تعودُ عليه هو، ومن يُنكرُه ويختارُ طريقَ الكُفر، فإنّ ضَرَرَ ذلك يعودُ عليه هو، إذ سيحترقُ بنارِ جهنَّمَ وبئسَ المصير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

٨٥ ـ في هذه الآية تسليةٌ للنبيِّ صلى اللهُ عليه بأنْ لا تحزَنْ من مخالفةِ الكُفّار لك، واستمِرَّ في تبليغ دعوتِك بصبرٍ وتحمُّل، فقدِ اقترَبت ساعةُ الفَصْل والحُكم، واللهُ تعالى خيرُ الحاكمين.

بعدَ صلاة مغربِ يوم الأربعاء الثامن من نوفمبر ٢٠٠٦م
جامعة الكرَم، إيتن هال، المملكة المتحدة.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزَاده

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١) سُورَةُ هُودٍ

هذه السُّورةُ مكِّيّةٌ؛ لأنّها نَزَلت قبلَ الهجرة، واسمُها «هُودٌ» لأنّ فيه

هُودٍ عليه السّلام.

وقتُ نزولِ هذه السُّورة قريبٌ من وقتِ نزولِ السُّورةِ السَّابقة «يونُس».

مامينَ السُّورتَيْنِ أيضًا متقارِبةٌ، على سَبيل المثال: قال اللهُ تعالى في

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ

﴾ [يونس: ٣٨]، وقال في سُورة هُودٍ التي معنا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُ

وَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هو

ولأنّ أهلَ مكّةَ لم يكونوا مستعِدّينَ للاعترافِ بكلام الله تعالى، لهذ

بذِكرِ القرآنِ المَجِيد: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَ

جاء في بدايةِ هذه السُّورة بيانٌ للعقائدِ الأساسيّةِ للإسلام، يعني: ا

يِ والنُّبوةَ والقيامةَ والثّوابَ والعقاب، وذلك بأسلوبٍ مؤثِّرٍ للغاية؛

نْ لكلِّ هذا أَثَرٌ مطلَقًا على كُفّارِ مكّةَ، بل على العكسِ، كانوا ي

ةً للإسلام وعداوةً له، ثم بيّنَ اللهُ تعالى أحوالَ الأنبياءِ السّابقين

النبيِّ ﷺ بأنّ الأنبياءَ السّابقينَ عليهم السَّلامُ قد واجَهوا مِثلَ هذه المشكِلاتِ أيضًا، وحتى يشعُرَ الكُفّارُ ـ كذلك ـ أنّهم إنْ لم يَرجِعوا عن عصيانِهم وعنادِهم فسوف يُصيبُهم من العذابِ ما أصابَ الأُممَ السّابقةَ أيضًا.

وحين ابيَضَّ شَعَرُ النبيِّ ﷺ قال له سيّدُنا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: **يا رسولَ الله، قد شِبْتَ، قال: «شَيَّبَتْني هودٌ والواقعةُ والمُرسَلاتُ وعمَّ يتساءلونَ وإذا الشّمسُ كُوِّرتْ»**[1]، بمعنى: أنّي قد هَرِمتُ وابيَضَّ شَعَري بسببِ الخَشْيةِ في قلبي من معرفةِ قَصَص الأُمم السّابقةِ وأحوالِ يوم القيامة في هذه السُّوَر. ونحن اليومَ في حاجةٍ إلى تلاوةِ الآياتِ القرآنيَّة في ضَوْءِ هذا الحديثِ النَّبويِّ المبارك.

بعدَ صلاة فجرِ يوم الخميس التاسع من نوفمبر عام ٢٠٠٦م.
جامعة الكَرم، إيتن هال.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَينِ بيرْزادَه

* * *

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٧ برقم ٣٢٩٧.

سُورَةُ هُودٍ (١١)،

مكّيّة (٥٢)، وآياتها (١٢٣)، وركوعاتها (١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

﴿الٓر﴾

١- هذه حروفٌ مقطَّعة، ويُمكنُك التعرُّفُ على تفسيرِها بمراجعةِ الحاشيةِ رقم (١) من سُورةِ البقرة.

﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

٢ـ أَحْكَمَ اللهُ تعالى آياتِ القرآن المَجِيد بشكلٍ كامل، وبيَّن تعاليمَه بتفصيل تامّ، ولذا لا يوجَدُ فيه مجالٌ لعَيْبٍ أو شكٍّ، مثلَما يقول الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحمةُ الله عليه: «**هي مُحكَمةٌ في لفظِها مفصَّلةٌ في معناها، فهو كاملٌ صورةً ومعنى**»[1].

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

٣ـ أي: يا أيُّها الناسُ، اطلُبوا المغفرةَ لذنوبِكم السَّابقة، واعزِموا على ألّا تقترِفوها ثانيةً مستقبَلًا، ولو أنّكم تركتُم الذُّنوبَ فعلًا، واتَّجهتُم إلى الله تعالى، فإنه سيعودُ عليكم بالنَّفع إلى الوقتِ المحدَّد، بمعنى: أنّ البقيَّةَ الباقيةَ من حياتِكم ستمضي طيِّبةً طاهرة، وسوف يوفِّقُكم اللهُ تعالى إلى مزيدٍ من العمَل الصالح، وبقَدْرِ ما يقومُ الإنسانُ في الدُّنيا بعملِ الصالحات، بقَدْرِ ما يَفِيضُ اللهُ عليه في الآخِرة من فضلِه وإحسانِه، ويا أيُّها الناسُ، لئنْ أعرَضتُم عن الأحكام الإلهيَّة ولم تَتوبوا إلى الله، فاستعِدُّوا لعذابِ اليوم العظيم، أي: يومَ القيامة؛ لأنّكم على كلِّ حال ستَرجِعونَ إلى الله تعالى في نهايةِ المطاف، وهو القادرُ على كلِّ شيء.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

٤ـ يقولُ الإمامُ فخرُ الدِّين الرازي: «**رُويَ أنّ طائفةً من المشركينَ قالوا: إذا أغلَقْنا أبوابَنا وأسدَلْنا ستورَنا واستَغْشَينا ثيابَنا وثَنَيْنا صُدورَنا على عداوةِ محمّدٍ (صلى الله عليه وآلِه وسلم)، فكيف يَعلَمُ بنا؟**»[2]، وجاء تحذيرُهم في هذه الآيةِ

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) التفسير الكبير.

بأنّ المؤامراتِ التي تَحِيكونَها ضدَّ النبيِّ ﷺ يَعلَمُها اللهُ تمامَ العِلم؛ لأنه يَعلَمُ تلك الأسرارَ الخافيةَ في الصُّدورِ أيضًا، ويَعلَمُ ظاهرَكم وباطنَكم أيضًا حين تَلتحِفُونَ جيّدًا بأَغْطيتِكم ليلًا وأنتم تنامونَ في الغُرُفاتِ المغلَقةِ المُظلمة، فكيف يُمكنُكم إذًا أن تُخفوا أمرَ مؤامراتِكم عنه.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾

٥- كلُّ الأحياءِ في هذه الأرض صغارًا وكبارًا يَرزُقُهم اللهُ تعالى جميعًا، فقد هيَّأ لكلِّ مخلوقٍ أسبابَ الرِّزق طِبقًا لمزاجِه وطبيعتِه، كما أنه يَعلَمُ أيضًا مكانَ استقرارِ كلِّ الأحياءِ في الأرضِ ومكانَ موتِهم أيضًا[1]، وكلُّ هذا موجودٌ في اللَّوح المحفوظ.

وفي هذه الآيةِ تحذيرٌ للكُفّارِ بأنّ عِلمَ الله واسعٌ لدرجةٍ يَعلَمُ معَها مكانَ حياةِ كلِّ مخلوقٍ ومكانَ موتِه كذلك، فكيف يُمكنُكم أن تَثْنُوا صدورَكم وتَستَخْفوا في ثيابِكم عنه، وهو الذي يَعلَمُ جيّدًا أنكم تُعرِضونَ عن دعوةِ النبيِّ ﷺ الصّادقةِ بغير دليلٍ أو سبب؟

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

٦- خَلَق اللهُ السّمواتِ والأرضَ في ستّةِ أيام، وهنا تَثُورُ في الأذهانِ بعضُ الأسئلة؛ على سَبيل المثال: ما الوقتُ المرادُ بستةِ أيام؟ لأنه لم تكنْ هناك في ذلك الوقتِ وسيلةٌ لتحديدِ الوقت، فلم تكنِ الشمسُ قد خُلِقَت بعدُ ولا القمرُ، ولم

(١) «يعلم مستقرها في الأرض والمكان الذي يموت فيه». تفسير ابن أبي حاتم.

يكنْ هناك ليلٌ أو نهار، فلماذا خَلَقَها اللهُ في ستة أيام؟ في حينَ أنه تعالى يستطيعُ أن يَخلُقَ الكائناتِ كلَّها بقولِه: «كن» وفي لمْحةٍ واحدة. كما أنّ عرشَه قبلَ خَلْقِ السّماواتِ والأرضِ كان على الماء، فلماذا هو الآنَ فوقَ السماوات؟ كلُّ هذه الأسئلةِ لا يَعلَمُ الجوابَ عنها تمامَ العِلم إلّا اللهُ تعالى، أمّا ما يستحقُّ الاهتمامَ بالنِّسبة لنا في هذه الآية فهو أنّ اللهَ تعالى أقام هذا النِّظامَ كلَّه للسماواتِ والأرض حتى يبتليَ الإنسَ والجنَّ، وحينَ يَعرِفُ الكُفّارُ حقيقةَ أنّ هذه الدنيا دارُ العمل، وأنكم ستُبعَثُون من جديدٍ بعدَ الموت، حيث ستُسألونَ عن أعمالِكم، فإنّهم يقولون: إنّ عقيدةَ البعثِ بعدَ الموتِ هذه ما هي إلّا سِحرٌ صريح، أدخَلَ الرُّعبَ في قلوبِ كثيرٍ من الناس، أمّا نحن فلن تؤثِّرَ فينا هذه العقيدةُ المليئةُ بالسِّحر.

وهنا نَقَل المفتي محمّد شَفيع نُكتةً لطيفةً عن «التفسيرِ المُظَهريِّ»، يعني: أنّ «المقصودَ بخَلْق السّماواتِ والأرضِ هو الإنسانُ، بل وأهلُ الإيمان من بيْنِ بني الإنسان، بل ومن بَيْنِهم من هو أحسَنُهم عملًا، وظاهرٌ أنّ الأحسَنَ عملًا بيْنَ بني الإنسانِ على الإطلاق هو سيّدُنا محمّدٌ ﷺ، ولذلك صَحَّ أنْ نقولَ: إنّ المَقصِدَ الأصليَّ لخَلْقِ الكائناتِ هو وجودُ النبيِّ الكريم ﷺ»[1].

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

٧ـ حينَ يتِمُّ تحذيرُ المُنكِرينَ للإسلام ألّا يتمرَّدوا كما تمرَّدت الأقوامُ التي سَبَقتْهم، وإلّا فإنّهم سيُصيبُهم عذابٌ أليم. وبعدَ ذلك إنْ لم ينزِلِ العذابُ عليهم من ساعتِهم قالوا على سَبيل السُّخْرِيَة: أين هذا العذابُ؟ وجاء الردُّ عليهم في هذه الآيةِ أنّ اللهَ عندَه الوقتُ المحدَّدُ لعذابِكم، وعندَما يَحِينُ هذا الوقتُ فسيأتيكم العذابُ ويحيطُ بكم بحيثُ لا يمكنُ لأحدٍ أن يُبعدَه عنكم. فإنْ كان

---

(١) تفسير معارف القرآن.

المرادَ بهذا العذابِ العذابُ الدُّنيويُّ، فقد ظَهر في صورةِ غزوةِ بَدْر وفَتْح مكّةَ، وإن كان المرادَ به عذابُ الآخِرة فسوف يُسلِّطُه اللهُ عليهم بعدَ يوم القيامة.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

٨ ـ في الآيَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ إشارةٌ إلى نقطةِ ضعفٍ في بنِي الإنسانِ عمومًا، يعني: أنه حين يَستعيدُ اللهُ تعالى رحمتَه من أيِّ إنسان، فإنه يَيْأَسُ إلى درجةٍ أنه يَجْحَدُ نِعَمَ الله السّابقةَ عليه أيضًا، ولا يقولُ لنفسِه: إنّ اللهَ الذي أعطاني النِّعمةَ من قبلُ يستطيعُ أن يُنعِمَ علَيّ ثانيةً. وبنفسِ الطريقة حين يُنعِمُ اللهُ تعالى على عبدٍ بعدَ أن يبتليَه، فإنه يَفرَحُ إلى درجةٍ يَخرُجُ فيها عن أطوارِه، وينسَى الابتلاءاتِ السّابقةَ ويَغترُّ بنفسِه، ولا يقولُ لنفسِه: إنه يمكنُ أن يُبتلَى ثانيةً.

أمّا الآيةُ الثالثةُ ففيها ذِكرٌ لأولئك المُبرَّأونَ من نقاطِ الضَّعفِ السابقة، بمعنى: أنهم يَصبِرونَ حين يُبتلَوْن، وإذا ما أَنْعم اللهُ عليهم أَدَّوْا شُكرَه بمزيدٍ من الأعمال الصالحة، وهؤلاء هم الذين لهم عندَ الله المغفرةُ والأَجْرُ العظيم، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**عَجبًا لأمرِ المؤمن، إنّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلّا للمؤمن، إن أصابَتْه سَرّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإنْ أصابَتْه ضَرّاءُ صَبَر فكان خيرًا له**»[1]. ويقولُ أهلُ العِلم: من يُوفِّقُه اللهُ تعالى إلى الشُّكرِ بعدَ النِّعمة، والصَّبرِ بعدَ المصيبة، فإنّ هذه النِّعمةَ وهذه المصيبةَ بمثابةِ الإحسانِ من الله تعالى، أمّا النِّعمةُ التي يكونُ بعدَها التكبُّر، والمصيبةُ التي يكونُ بعدَها عدَمُ الصَّبرِ واليأسُ، فإنّ هذه النِّعمةَ وهذه المصيبةَ في هذه الحالِ بمثابةِ العذابِ من الله تعالى.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾

٩ـ يقول أبو حَيّانَ الأندَلسيُّ عليه رحمةُ الله في تفسيرِ هذه الآية: «سببُ

---

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٣ برقم ٢٩٩٩.

نزولِ هذه الآية أنّ كُفّارَ قُريشٍ قالوا: يا محمّد، لو تَركتَ سبَّ آلهتِنا وتسفيهَ آبائنا لَجالَسْناكَ واتَّبعناك»(١)، بمعنى: أن يَترُكَ النبيُّ ﷺ من الوَحْي الذي ينزِلُ عليه تلك الآياتِ التي تَذُمُّ الأصنامَ، وكان المشركونَ يتوقَّعونَ بزَعْمِهم أنه ربّما يَترُكُ النبيُّ ﷺ ذمَّ الأصنام طمعًا في أن يؤمنوا، ولكنّ هذا كان تصوُّرًا غيرَ صحيح لدى المشركين؛ لأنّ الانتقاصَ في الأحكام الإلهيّةِ خيانة، ولا يمكنُ أن يرتكبَ نبيٌّ خيانةً(٢).

﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾

١٠- منَ الاعتراضاتِ التي كان المشركونَ يثيرونَها: أنه لو كان النبيُّ ﷺ صادقًا، لَنَزلتْ معَه خزائنُ الذَّهبِ والفضَّة، وهو يُقسِّم كلَّ هذا بيْنَ الناس، أو أنْ تَنزِلَ الملائكةُ عليه ﷺ، وتبقَى معَه طيلةَ الوقتِ لتأييدِه، في حينَ أنّ اللهَ تعالى لا يحبُّ ذلك الإيمانَ الذي يكونُ طمعًا في ثروةٍ أو مال، أو خوفًا من الملائكة.

وفي هذه الآيةِ طَمْأَن اللهُ تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ بأنْ لا يَضِيقَ صدرُكَ أيُّها النبيُّ الحبيبُ بعَدَم إيمانِ المشركين، ولا بمطالبِهم التي لا معنى لها، ولكنْ حذِّرْهم من عذابِ الله تعالى، فإنْ لم يؤمنوا بالرَّغْم من ذلك، فإنّ اللهَ تعالى هو الذي سيُعاقبُهم.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

١١- كثيرًا ما كان المشركونَ يعترِضونَ بأنّ القرآنَ المَجيد ليس كلامَ الله تعالى، وإنّما هو كلامٌ من عندِ النبيِّ ﷺ، وعليه جاء التحدِّي لهم؛ إن كان هذا

---

(١) تفسير البحر المحيط.

(٢) «وهو عصمة الرسول عن الخيانة في الوحي». التفسير المظهري.

كلامَ بشَرٍ فأنتم أيضًا بشَرٌ، فأْتوا بعشْرِ سُوَرٍ من مِثْله، واستعينوا في هذا الخصوص بكلِّ مَن يساعدُكم، فإذا لم تستطيعوا أنتم ومن يساعدُكم مجتمِعينَ الإتيانَ بمِثْله، فعليكم عندَئذٍ الاعترافُ بأنّ هذا كلامُ الله تعالى، وفي هذه الحالة، هل ستُسْلِمونَ عندَما تَروْنَ هذا الدّليلَ الواضح، أم أنكم ستستمرُّونَ على طُغيانِكم؟

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾

١٢ـ جاء التحدِّي في خمسِ مواضعَ من القرآنِ الكريم بالإتْيانِ بمِثْله:

١ـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

٣ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

٤ـ ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤].

٥ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقد تكرَّر هذا التحدِّي في المرّاتِ الأربعةِ الأُولى في مكّةَ، والمرّةِ الخامسةِ في المدينة، ولكنْ دونَ تصريح بأنْ يأتُوا بمِثلِ ماذا؟ هل في الأسلوبِ الظاهريِّ المبنيِّ على الفصاحةِ والبلاغة؟ أم في التعاليم الجامعةِ الموقوفةِ على الحقِّ والصِّدق؟ وتستحِقُّ هذه الآيةُ التمعُّنَ بغَرَضِ البحثِ عن إجابةِ هذا السؤال، بمعنى: أنه لو لم يستطع المشركونَ ومَن معَهم الإتيانَ بعَشْرِ سُوَرٍ من مِثل القرآنِ

الكريم: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، يعني: أنّ في القرآنِ المَجِيد أمورًا من عِلم الله تعالى لا يمكنُ أن يَعلَمَها بشَرٌ دونَ أن يُخبِرَه اللهُ تعالى بها، على سَبيل المثال: تفاصيلُ أركانِ الإيمانِ والجنّةِ والنارِ ويومِ الحَشْرِ وغيرِها.

ومما لا شكَّ فيه أنّ الفصاحةَ والبلاغةَ اللَّفظيَّةَ للقرآنِ الكريم، وأسلوبَ بيانِه المميّزِ لا نظيرَ له، ولكنّ المطالبةَ الأَصْليّةَ لم تكنْ فيما يتَعلَّقُ بالألفاظِ الظاهريَّة، بل أن تأتُوا بسُوَرٍ وكلامٍ يَبرُزُ فيه العِلمُ الإلهيُّ، ومن الواضح أنّ هذا ليس في مقدورِ أيِّ بشَر؛ لأنّ عِلمَ اللهِ تعالى محيطٌ بكلِّ شيء، صغيرًا كان أو كبيرًا، وهو يَعلَمُ مستقبَلَ وحالَ وماضيَ كلِّ شيءٍ في الكائنات، ويَعرِفُ ظاهرَ كلِّ شيءٍ وباطنَه وفائدتَه وضرَره، ولهذا فإنّ عِلمَه منزَّهٌ عن أيِّ خطأٍ، والقرآنُ الكريم كلُّه نَزَل بعِلم الله تعالى، وبالتالي فإنّ القرآنَ الكريمَ أيضًا منزَّهٌ عن أيِّ خطأٍ هو الآخَر، وهو معجِزٌ كذلك في جامعيَّتِه وتأثيرِه الثَّوريِّ وعِلمِه وحِكمتِه وعلومِه الغَيْبيَّة ودلائِله القَطْعيَّة وتنبُّؤاتِه وعَدَم تناقضِه وتصديقِه للكتُبِ الإلهيَّة وقَصَص الأنبياءِ وغيرِ ذلك.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

١٣ـ الذين يفعلونَ الخيرَ في هذه الدُّنيا، وهَدَفُهم من ذلك ليس رضا الله تعالى ولا الثوابَ في الآخِرة، وإنّما التظاهرُ والرِّياءُ، أي: المنفَعةُ الدُّنيَويّةُ والجاهُ والشُّهرة، فإنّ اللهَ تعالى يُعطيهم الأَجْرَ الحَسَنَ على أعمالِهم الصّالحةِ هذه في الدُّنيا، ولا يَنقُصُ منهم شيئًا، ولكنَّهم لا أَجْرَ لهم في الآخِرة؛ لأنّهم سيكونونَ قد أخَذوا أَجْرَ أعمالِهم في الدُّنيا طِبقًا لنيَّتِهم ورغبتِهم، وبالتالي لا أثَرَ لأعمالِهم في الآخِرة، لكنّ اللهَ تعالى يقينًا سيُعاقبُهم على أعمالِهم السيِّئة وعصيانِهم له، وسيكونُ هذا العذابُ طِبقًا لسيّئاتِهم.

والحديثُ التالي يستحِقُّ التمعُّنَ من المُرائين، حيثُ قال رسولُ الله ﷺ: **«إنّ أوّلَ النّاسِ يُقضَى يومَ القيامة عليه رجلٌ استُشهِد فأُتيَ به فعَرّفَه نِعَمَه فعرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتّى استُشهِدتُ. قال: كذَبْتَ، ولكنّك قاتَلتَ لأنْ يقالَ: جريءٌ. فقد قيل. ثمّ أُمِر به فسُحِب على وَجْهِه حتّى أُلقيَ في النّار، ورجلٌ تَعلَّم العِلمَ وعلَّمَه وقرأَ القرآنَ فأُتي به فعرَّفَه نِعَمَه فعَرَفَها قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلمَ وعلَّمتُه وقرأْتُ فيك القرآنَ، قال: كذبتَ، ولكنّك تعلَّمتَ العِلمَ ليُقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ: هو قارئٌ، فقد قيل: ثمّ أُمِر به فسُحِبَ على وَجْهِه حتّى أُلقيَ في النّار. ورجلٌ وَسَّع اللهُ عليه وأعطاه من أصنافِ المالِ كلِّه، فأُتيَ به فعرَّفَه نِعَمَه فعَرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنفَقَ فيها إلّا أنفَقْتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنّك فَعلتَ ليُقالَ: هو جَوادٌ، فقد قيل. ثُمّ أُمِر به فسُحِبَ على وجهِه ثمّ أُلقيَ في النّار»**[1].

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

١٤ـ الذي يكونُ على بيِّنةٍ من ربِّه، أي: مَن أضاءَ مِصباحُ التوحيدِ في قلبِه بمشاهدةِ الكائنات، ثم تَصِلُه كذلك دعوةُ النبيِّ ﷺ لمزيدٍ من الشَّهادةِ على التوحيد، ويكونُ قد سَمع مِن قبلُ تعاليمَ كتابِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام المُمتلئ رحمةً، هل يمكنُ لهذا الشّخصِ الذي تتوافَرُ فيه هذه الصِّفاتُ الثلاثةُ أن يُنكرَ القرآنَ الكريم؟ بالتأكيد لا، بل إنّ أمثالَ هؤلاءِ النّاس همُ الذين يؤمنونَ يقينًا بالقرآنِ الكريم، وأيُّ فرقةٍ من الفِرَقِ أنكَرتِ القرآنَ فسيكونُ مصيرُها جهنَّم؛ لأنّ القرآنَ الكريمَ كتابُ حقٍّ نَزَل من عندِ الله تعالى، ولا ينبغي أن يكونَ فيه أدنى شكّ.

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة، باب ٤٣ برقم ١٩٠٥.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

١٥ـ في الآيةِ السّابقةِ قال اللهُ تعالى عن القرآنِ الكريم: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وبالتالي فإنّ الذين لا يعترفونَ بأنّه كلامُ الله تعالى يَفْترونَ على اللهِ الكذِبَ، ولذا فهُم أكثرُ النّاسِ ظُلمًا، وحين يُعرَضُ هؤلاءِ على الله تعالى يومَ القيامة، وتَشهَدُ عليهمُ الملائكةُ بأنّهم ـ بالفعل ـ كذَبوا على الله تعالى، وكانوا يمنَعونَ الآخَرينَ من سلوكِ طريقِ الله تعالى، وكانوا لا يبحثونَ بصِدقٍ عن طريقِ الحقِّ، وكانوا يُنكرون يومَ القيامة أيضًا، فإنّهم سيُلقَى بهم في جهنَّمَ بعدَ هذه الشَّهادة، وسيُنادي منادٍ أنّ عليهم لعنةَ الله؛ لأنّهم كانوا ظالمين.

يومَ القيامة سيكونُ هناك شهودٌ عديدونَ، على سَبيل المثـال: الملائكةُ والأنبياءُ وأعضاءُ جِسم الإنسان (اليدُ والرّجلُ وغيرُهما)، والمواضعُ، فمنَ الأرض حيثُ تمَّ ارتكابُ الذَّنب، حتّى أنّ اللّيلَ والنَّهارَ أيضًا سيَشهدانِ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيّدُنا مَعْقِلُ بن يَسارٍ رضيَ اللهُ عنه: «**ليس من يومٍ يأتي على ابنِ آدمَ إلّا ينادي: يا ابنَ آدم، أنا خَلْقٌ جديد، وأنا عليكَ غدًا شهيد، فاعمَلْ خيرًا فيَّ أشهَدُ لكَ غدًا، وإنّي لو قد مَضيْتُ لن تَراني أبدًا، ويقولُ اللّيلُ مِثلَ ذلك**»[1]. ولمزيدٍ من التفصيل عن موضوع الشَّهادةِ هذا راجعِ الحاشيةَ رقم **٢٣** للآية رقم **١٧** من سُورة النساء (**٤**).

وسـوف يَستُرُ اللهُ تعـالى أهلَ الإيمانِ في ميدانِ الحَشْر، بينَمـا سيَـفضَحُ مُنكري الإسلام على الملأِ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**إنّ اللهَ يُدني المؤمنَ فيَضَعُ عليه كنَفَه، ويَستُرُهُ، فيقولُ: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أيْ ربِّ. حتّى إذا قرَّره بذنوبِه ورأى في نفسِه أنّه هَلَك قال: ستَرتُها عليكَ في الدّنيا، وأنا**

---

(١) كنز العمال، ١٥: ٧٩٦ برقم ٤٣١٦١.

أغفرُها لكَ اليومَ. فيُعطَى كتابَ حسَناتِه، وأمّا الكفارُ والمنافقونَ فيقولُ الأشهادُ: هؤلاءِ الّذين كَذَبوا على ربِّهِمْ، ألَا لعنةُ اللهِ على الظّالِمين»[1].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾

١٦ـ الذين لا يسمَعونَ إلى قولِ الحقِّ بسببِ تعصُّبِهم وعنادِهم، ولا يحاولونَ التدبُّرَ في آياتِ الله تعالى، لو أنّ اللهَ تعالى يريدُ أن يُعذِّبَهم في هذه الأرضِ فإنّ هؤلاءِ لا يُعجِزونَه، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يُساعدَهم في مقابلِ الله تعالى، وإذا لم يعذِّبْهمُ اللهُ تعالى في هذه الدُّنيا لحِكمةٍ عندَه، فإنّه سيُعذِّبُهم يقينًا في الدارِ الآخرة، وسيكونُ هذا العذابُ ضِعْفَينِ؛ أحدُهما: لأنّهم كانوا ضالِّين، والثاني: لأنّهم كانوا يُضِلُّونَ الآخَرين، وحين يُلقَى بهم في نارِ جهنَّم يقولون: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

١٧ـ الذين يعبُدونَ غيرَ الله تعالى، ويأمُلونَ أن يشفَعوا لهم يومَ القيامة، إنّما يُضِرُّونَ بأنُفسِهم، وسيكونونَ في الآخِرة من أكبرِ الناس خسارةً؛ لأنّ هذه الآلهةَ الباطلةَ التي يعبُدونَها ستَختفي يومَ القيامة، وسيكونُ المُلكُ يومَئذٍ لله تعالى فقطْ، هو وحدَه لا شريكَ له.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

١٨ـ في الآياتِ السّابقة ذَكَر اللهُ تعالى أعمالَ أهل الإيمان والمُنكرينَ ومصيرَهما، ثم وَضَّح الأمرَ بمثالٍ لهذَيْنِ الفريقَيْن، بمعنى: أنّ الكافرَ في الدُّنيا لا

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة هود، (١١) وكتاب المظالم، باب ٢.

يُبالي بسَماع دليلِ الحق، أو رُؤيةِ آيةِ الحقِّ، ولهذا فهو كالأعمى والأصمِّ الذي يَهيمُ على وجهِه ضَلالًا في ضوءِ النَّهار، لكنّ المؤمنَ يسمعُ دلائلَ الحقِّ، ويتدبَّرُ في آياتِ الحقِّ أيضًا، ولهذا فهو مِثلُ أولئك الذين يسمعونَ ويُبصرونَ، ويبحثونَ عن المنزلِ في ظُلُماتِ اللّيل، وظاهرٌ أنّ هذَيْنِ لا يمكنُ أن يكونا سواءً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾

١٩ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «بُعِث نُوحٌ بعدَ أربعينَ سنةً، ولبِثَ يدعو قومَه تسعَمائةٍ وخمسينَ سنةً، وعاش بعدَ الطُّوفانِ ستينَ سنةً، فكان

عُمُره ألفًا وخمسينَ سنةً»[(١)]، بينَما كانت دعوتُه لألفٍ وعشَرةِ أعوام.

وبعدَ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ بنحوِ ألفَيْ عام وُلد سيّدُنا نُوحٌ عليه السّلام، وخلالَ هذا العهدِ الطويل ابتُليَ الناسُ بالشِّرك، فقال سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلام لقومِه: لقد أرسَلَني اللهُ إليكم نبيًّا، ولذا فإنّي أُحذِّرُكم ألّا تعبُدوا إلّا اللهَ، وإنْ لم ترجِعوا عن شركِكم، فستَلقَوْنَ عذابًا أليمًا. فقال سادةُ قومِه: إنك بشَرٌ مِثلُنا، ولو كان اللهُ سيجعَلُ من بشَرٍ نبيًّا لَاختارَ سيّدًا من بينِنا وجَعَله نبيًّا؛ لأنّنا أفضَلُ منك مالًا وثروةً وعِلمًا ومكانةً، فلمَ جَعَلَك اللهُ أنت نبيًّا؟ إنّنا نعتقدُ أنك كاذبٌ، ولهذا لم يَقبَلْ أحدٌ من سادتِنا دعوتَك، ولم يتَّبِعْك منّا سوى بعضِ التافهينَ والحَمْقى!

في هذه الآيةِ تَسْرِيةٌ عن النبيِّ ﷺ وعن أهلِ الإيمانِ أيضًا، بأنّ المصاعبَ والمشكلاتِ التي تواجهُكم في طريقِ الحقِّ ليست بالأمرِ الجديد، فقد واجَهَ دعاةُ الحقِّ من قَبْلِكم مِثلَ هذه المصاعبِ والعَقباتِ أيضًا.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾

٢٠ـ يا قومي، لقد أَنْعم اللهُ تعالى علَيَّ بالإيمانِ من فَضْلِه، وأَنْعم علَيَّ بالنُّبوةِ كذلك، ولكنَّكم أنكرتُم نُبوَّتي دونَ تفكيرٍ وتدبُّر، وإنّما بدافع من تعصُّبِكم وتكبُّرِكم ليس إلّا، وهو ما عَاقبَكم اللهُ تعالى عليه بأنْ سَلَب البصيرةَ من قلوبِكم، وغابت حقيقتي من أمـام أعيُنِكم، والآنَ إنْ لم تـكنْ دعوتي تُعجِبُـكم، فأنا لا أَفرِضُها عليكم، وإنّما عمَلي هو إظهارُ الحقِّ فقطْ، وقد قُمتُ به، والآنَ أنتم وشأنَكم، فليس من مسئوليَّتي أن أجعَلَكم مؤمنينَ عَنْوةً.

يقولُ الشّيخُ المَوْدوديُّ في تفسير هذه الآية: «يُعلَمُ منه أيضًا أنّ الأنبياءَ جميعًا يكونونَ قد آمَنوا بالغَيْبِ بتدبُّرِهم وتفكُّرِهم قبلَ النُّبوة، ثم يُنعِمُ اللهُ عليهم

---

(١) تفسير الخازن.

بالإيمانِ بالشَّهادة حين يُعطيهم منصِبَ النُّبوة»[١].

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾

٢١ـ يا قومي، إنَّني أجتهدُ ليلَ نهارَ من أَجْل هدايتِكم، ولا أُطالبُكم بأَجْرٍ على ذلك، وسواءٌ قَبِلتُم دعوتي أم لم تَقبَلوها، فإنّني مستمرٌّ في دعوتي من أَجْل رضا الله تعالى، وأَجْري أيضًا على الله تعالى.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾

٢٢ـ يروي الإمامُ ابنُ جَريرٍ الطَّبري أنّ سادةَ قوم سيّدِنا نُوح عليه السَّلام قالوا: «**يا نُوح، إنْ أحبَبْتَ أن نتَّبِعَك فاطْرُدْهم، وإلّا فلن نَرضى أن نكونَ نحن وهم في الأمرِ سواءً، فقال: ما أنا بطاردِ الذين آمَنوا**»[٢]، كما أنّ مُطالبَتكم هذه تدُلُّ على جهلِكم؛ لأنّكم تعتبرونَهم أقلَّ منكم، معَ أنّهم أفضَلُ منكم، وهم سائرونَ على طريقِ القُربِ من الله تعالى ولقائه بفَضْل إيمانِهم، واليومَ إنْ طرَدتُّهم من مجلسي فمَن يُنقذُني من غَضَبِ اللهِ تعالى حين يشكوني هؤلاءِ عندَ الله تعالى فيما بعدُ؟ ولهذا فإنّ أهلَ الإيمانِ الفقراءَ هؤلاءِ يستحِقُّونَ أن يَجلسَ الناسُ في مجالسِهم ليحصُلوا على القُرْبِ من الله تعالى، لا أن يُطرَدوا من مجلسي، ولو فعلتُ فكأنّي بذلك أدعو غَضَبَ الله تعالى أن يَنزِلَ عليّ.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾

٢٣ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية يمكنُكَ مراجعةُ الحاشيةِ رقم ٤٣، والحاشيةِ رقم ٤٤ للآية رقم ٥٠ من سُورة الأنعام (٦).

---

(١) تفهيم القرآن.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

٢٤ـ أهلُ الإيمانِ هؤلاءِ الذين تحتَقِرونَهم، لا يمكنُ لي أن أقولَ عنهم مِثلَ ما تقولونَ من أنّ اللهَ تعالى لن يُنعِمَ عليهم بخيرٍ؛ لأنّ اللهَ تعالى فقطْ هو الذي يَعلَمُ سرَّ القلوبِ، فإن كان الإخلاصُ في قلوبِهم فإنَّ اللهَ تعالى سيُنعِمُ عليهم بخيرٍ كثيرٍ بصَرْفِ النَّظر عن فقرِهم الظاهريِّ، ثم قال: لو أنّي كذَّبتُهم في إيمانِهم الظاهريِّ، واتَّهمتُهم في باطنِهم، وأخَذتُ أحتقرُهم، فإنّي عندَئذٍ أكونُ من الظالمينَ فعلًا.

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

٢٥ـ ظلَّ سيِّدُنا نُوحٌ عليه السَّلام يدعو قومَه إلى التوحيدِ والنُّبوةِ لمئاتِ السِّنينَ، لكنَّهم لم يؤمنوا، بل قالوا: لقد مَلِلْنا من النِّقاشِ والجَدَل معَك كلَّ يوم، ولذا ائْتِنا بالعذابِ الذي تُحذِّرُنا منه، وعليه قال سيِّدُنا نُوحٌ عليه السَّلام: إنّ عمَلي هو الدعوةُ فقطْ، أمّا إنزالُ العذابِ فهو من عمَلِ الله تعالى، وهو القادرُ المطلَق، يُنزِلُ العذابَ حين يشاء، ولن تستطيعوا مَنْعَ نزولِ العذابِ ولا الإفلاتَ منه.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

٢٦ـ حينَ يصلُ طُغيانُ أحدٍ وضلالُه إلى درجةٍ يستحيلُ معَها رجوعُه عمَّا هو فيه، فإنّ عقابَه في مِثل هذه الحالةِ منَ الله تعالى هو أن يَطبَعَ على قلبِه، أو أن يُضِلَّه ضلالًا لا يبقَى معَه أملٌ في الهداية، بمعنى: أنّكم أيضًا قد بَلغتُمُ المدى في طُغيانِكم، وبالتالي فإنَّني إن تمنَّيتُ الخيرَ لكم، فلن يُجديَكم هذا التمنِّي للخيرِ شيئًا؛ لأنّ مرَضَ ضلالِكم قد وَصَل إلى الحدِّ الذي ليس معَه شفاء.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

٢٧- يمكنُ أن يكونَ هذا الخِطابُ للنبيِّ ﷺ أو لسيّدِنا نُوح عليه السَّلام، وفي الحالتَيْنِ معناه: أنه إنْ لم يكنْ هذا الكلامُ من الله تعالى، وأنا الذي ألّفتُه ونَسَبتُه إليه، فإنّ هذا يكونُ جُرمي أنا، ولن تُعاقَبوا أنتُم على هذا الجُرم، ولكنِ اسمَعوا جيِّدًا، إنكم ـ لا محالةَ ـ ستُعاقَبونَ على الجُرم الذي ترتكبونَه بإنكارِكم كلامَ الله تعالى.

وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

٢٨ـ لم يؤمنْ بسيّدِنا نُوح عليه السَّلامُ سوى عددٍ قليل من الناس، برَغْم أنّه ظلَّ يدعُوهم لمئاتِ السِّنين، أمّا باقي قومِه فقدِ استمرُّوا في تكذيبِه وإيذائه بكلِّ ما يملِكونَ، فأوحَى اللهُ تعالى إلى سيّدِنا نُوح بأنّ الذين كانوا سيؤمنونَ قد آمَنوا، ولن يؤمنَ أحدٌ بعدَ ذلك؛ لأنّ الله تعالى قد طَبعَ على قلوبِهم بسببِ كثرةِ طُغيانِهم المستمرِّ، ولذا لا تحزَنْ على عدَم إيمانِهم، كما أنّ هؤلاءِ الظالمينَ سيتمُّ إغراقُهم قريبًا جدًّا، ولذا عليك أن تقومَ طِبقًا لِما أُوحيهِ إليك، بإعدادِ سفينةٍ لتركَبَها أنت وأهلُ الإيمانِ معَك، وحين يَغرَقُ هؤلاءِ الظالمونَ، لا تشفَعْ لنجاتِهم؛ لأنّ هؤلاءِ قدِ استَحقُّوا الغرَقَ بسببِ طُغيانِهم.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

٢٩ـ أَخذ سيّدُنا نُوحٌ عليه السَّلامُ في إعدادِ السَّفينة بهدايةٍ من الله تعالى، وحين كان سادةُ قومِه يسألونَه: ماذا تفعَل؟ كان يُجيبُهم: إنّ الطُّوفانَ آتٍ، وأنا أصنَعُ سفينةً من أَجْلِه، فيسخَرُ منه سادةُ قومِه قائلين: إنّنا نحصُلُ على مياهِ الشربِ هنا بصعوبة، وهذا الشّيخُ مشغولٌ بسفينةٍ يُسيِّرُها على البرّ! فقال سيّدُنا نوحٌ عليه السلام: إنكم تَسخَرونَ منّا اليومَ، ولكنِ اسمَعوا جيِّدًا، سيأتي السَّيلُ قريبًا، وستَغرَقونَ فيه، وعندَئذٍ سنقولُ لكم: إنّ هذه هي عاقبةُ سُخرِيتِكم، بمعنى: أنّكم ستُغرَقونَ في هذه الدنيا أذِلّاءَ، وفي الآخِرة ستَلقَوْنَ عذابًا مستمرًّا لا ينتهي.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

٣٠ـ عندَما حانَ وقتُ العذابِ بدَأَتِ الأمطارُ تنهمِرُ من السَّماءِ من جانب،

ومن جانبٍ آخَرَ تفجَّرتِ الأرضُ بالماءِ كالعيون، حتى بدَأَ الماءُ يَخرُج من تنُّورِ النار أيضًا[1]، وهكذا قال الله تعالى لسيِّدِنا نُوح عليه السَّلام: أنْ خُذْ معَك في السفَّينةِ من كلِّ جِنسٍ زَوْجَيْنِ، وخُذْ معَك أهلَ بيتِك، والقليلينَ الذين آمَنوا معَك، أمّا الباقونَ الذين لم يؤمنوا بك فلا تأخُذْهم معَك في السَّفينة؛ لأنه قد تقرَّر إغراقُهم.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

٣١ـ قال سيّدُنا نُوحٌ عليه السَّلام لرفاقِه: اركَبوا هذه السَّفينةَ، فقد صُنِعت بأمرٍ من الله تعالى، ومسيرُها وتوقُّفُها أيضًا ببرَكةِ اسمِه تعالى، واللهُ تعالى هو الذي يغفرُ تقصيرَ أهلِ الإيمان على وَجْهِ اليقين، وهو الذي يرحَمُهم، وهو الذي سيُنزِلُنا ـ بفَضْلِه وكرَمِه ـ إلى مكانِ الأمنِ والسَّلام.

في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أنّ تهيئةَ الأسبابِ الظاهريَّةِ واستعمالَها من سُنَنِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، لكنّ الاعتمادَ الحقيقيَّ ينبغي أن يكونَ على اللهِ تعالى وحدَه الذي وَفَّق إلى تهيئةِ الأسباب. أمّا الإشارةُ الثانيةُ فهي: أنّ على الإنسانِ أن يَذكُرَ اسمَ الله تعالى كلَّما بدَأَ عمَلًا أو رَكِبَ مركَبًا، حتى يَسهُلَ ذلك العمَلُ ويَصِلَ الإنسانُ إلى منزلِه المقصودِ بـبَركةِ اسمِه تعالى، مثلَما يَروي سيّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «كلُّ عملٍ لا يُبدَأُ باسم الله فهو أبتَر»[2].

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

٣٢ـ كانت أمواجُ السُّيولِ هذه عظيمةً وهائجةً تسيرُ هادرةً كأنّها الجبالُ، تَجرِفُ كلَّ شيءٍ في طريقِها وتُغرقُه، ولكنّ هذه السَّفينةَ كانت تَجري فوقَ الماء ببركةِ

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) كنز العمال، ١: ٥٥٥ برقم ٢٤٩١.

اسم الله تعالى، وفي هذه الأثناءِ لَمَح سيّدُنا نُوحٌ عليه السَّلام ابنَه الذي لم يؤمنْ به، فناداه سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ قائلًا: اركَبْ معَنا في السَّفينة فتنجوَ من الغَرَق، ولم تكنْ مياهُ السُّيول قد وَصَلت بعدُ إلى قِمَم الجبال، فقال الابنُ: لستُ في حاجةٍ إلى أنْ ألجأَ إلى سفينتِك، وسوف ألجأُ إلى قمّةٍ من قِمَم هذه الجبال، وهي ستَحميني من الماء. فقال سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلام: اليومَ لن يستطيعَ أحدٌ أن يُنقِذَ أحدًا من عذابِ الله، ولكنْ يمكنُكَ أن تنجوَ في حالةٍ واحدة فقطْ، وهي أن يَرحَمك اللهُ تعالى ويُنقذَك.

كان الحوارُ لا يزالُ يَجري بينَ الأبِ وابنِه، عندَما جاءت موجةٌ عاتيةٌ أَغْرقتِ ابنَ سيّدِنا نُوح عليه السَّلامُ إلى الأبد.

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

٣٣ـ حينَ غَرِقَ كلُّ كُفّارِ قوم سيّدِنا نُوح عليه السَّلام، أُعلِن أنّ الظالمينَ هكذا يُبتَلَوْنَ بعذابٍ أليم منَ الله تعالى بسببِ بُعدِهم عن رحمةِ الله، ثم توقَّف المطرُ بعدَ ذلك بأمرِ الله تعالى، وابتَلَعتِ الأرضُ المياهَ، ورَسَت السَّفينةُ فوقَ جَبَل الجُودِيّ، وهكذا نَجا أهلُ الإيمانِ سالمينَ مُعافَيْن، ويقال: إنّ جبلَ الجُودِيِّ يقَعُ في المَوصِل، ويُطلَقُ على جُزءٍ في هذا الجَبل اسمُ «أراراطَ»، وطِبقًا للتَّوراةِ رَسَتِ السَّفينةُ فوقَ جَبل أراراطَ، ولهذا لا يوجَدُ فرقٌ يُذكَرُ بيْنَ هاتَيْنِ الرِّوايتَيْن.

إعجاز القرآن:

كان هناك أديبٌ مشهورٌ في العصرِ العباسيِّ يُدعى ابنَ المُقفَّع، ولم يكنِ ابنُ المقفَّع هذا يؤمِنُ بأيِّ دين، لكنّه كان يُعَدُّ أفصحَ أهل زمانِه، ويُروَى أنه «**رام أن يُعارِضَ القرآنَ فنَظَم كلامًا وجَعَله مفصَّلًا وسمَّاه سُوَرًا، فاجتازَ يومًا بصبيٍّ يقرأُها**

في مكتبٍ، فرَجَع ومحا ما عَمِل، وقال: أشهدُ أنّ هذا لا يُعارَضُ أبدًا، وما هو من كلام البشَر»[١].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

٣٤ـ كان ابنُ سيّدِنا نُوحٍ عليه السَّلامُ منافقًا، وكان يُخْفي كُفرَه أمامَ والدِه ويُظهِرُ الإيمانَ، وكان سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ يظُنُّ أنّ ابنَه مؤمنٌ، ولهذا سألَ اللهَ أن يُنجِّيَه، ولهذا السببِ أيضًا دعاه للرُّكوبِ في السفينة، ولو كان سيّدُنا نوحٌ عليه السّلامُ يَعلَمُ بكُفرِ ابنِه لَما سألَ اللهَ أن يُنجِّيَه؛ لأنّ سيّدَنا نُوحًا نفسَه كان قد دَعا اللهَ تعالى أن يُهلِكَ الكافرينَ، ومن جانبٍ آخرَ مَنَعه اللهُ تعالى من أن يشفَعَ للظالمين، فكيف له أن يُخالفَ حُكمَ الله تعالى وكذا الدعاءَ الذي دعا به؟[٢].

قال سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ لله تعالى بناءً على ظَنِّه بإيمانِ ابنِه الظّاهريِّ: يا إلهي، أنت الذي وَعَدتَ بأنْ تُنجِّيَ أهلي، وهذا ابني من أهلي، وعليه قال اللهُ تعالى: إنّ ابنَك هذا قد خَرَج من زُمرةِ أهلِك؛ لأنّ عمَلَه غيرُ صالح، بمعنى: أنّ عقيدتَه قد فَسَدت، ولهذا، لكي تتجنَّبَ مِثلَ هذه المواقفِ مستقبلًا عليك أن تتذكَّرَ نصيحتي جيّدًا، وهي أنّ عليك أن تتحرَّى الحقيقةَ أولًا، ثم اسأَلْني بعدَ ذلك، ولأنّ سيّدَنا نوحًا عليه السّلامُ لم يكنْ يَعلَمُ بكُفرِ ابنِه قبلَ أن يُخبرَه اللهُ تعالى به،

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) «لأنّه كان عنده مؤمنًا في ظنّه، ولم يك نوح يقول لربّه: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ إلاّ وذلك عنده كذلك، إذ محال أن يسأل هلاك الكفّار ثمّ يسأل في إنجاء بعضهم، وكان ابنه يسرّ الكفر ويظهر الإيمان». تفسير القرطبي وتفسير النسفي.

ولهذا فإنّ الدعاءَ لله تعالى دونَ تحقُّقٍ خلافُ الأَوْلى، أو أنه خطأٌ في الاجتهاد، وكان إظهارًا لكمالِ تَقْواه أنه استَغفَر اللهَ تعالى فورًا من خطأٍ في الاجتهاد قائلًا: يا إلهي، إنّي أعوذُ بك من أن أسأَلَك ما لا عِلَم لي به.

وفي هذا عبرةٌ لنا أيضًا بأنه يجبُ على الإنسانِ قبْلَ أن يدعوَ اللهَ تعالى، أو أن يطلُبَ من أحدٍ التوسُّطَ له، أن يتحقَّق أولًا؛ إن كان هذا الذي يطلُبُ الدعاءَ أو الشَّفاعةَ يطلُبُها في أمرٍ يُغضِبُ اللهَ تعالى أم لا.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ فَضْلَ النَّسبِ ملحَقٌ بالإيمانِ والتقوى ومرتبطٌ بهما، والشيءُ الأَصْليُّ هو الإيمانُ والتقوى، أمّا فَضْلُ النَّسبِ فهو أمرٌ ثانويّ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد قال النبيُّ ﷺ في خُطبةِ الوداع فيما رَواه سيّدُنا جابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنه: «**يا أيّها النّاس، إنّ ربَّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فَضْلَ لعربيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لعَجَميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمر، إلّا بالتّقوى، إنّ أكرَمَكم عندَ الله أتقاكم، ألا هل بلَّغتُ؟**»، قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «**فلْيُبلِّغ الشّاهدُ الغائبَ**»[1].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٣٥ـ حين يَبستِ الأرضُ من مياهِ الطُّوفان، قال اللهُ تعالى لسيّدِنا نُوح عليه السَّلام: أنِ انْزِل أنت ومَن معَك من فوقِ الجَبل إلى الأرض، وعيشوا حياةً سعيدةً آمِنةً هناك، واستفيدوا من برَكاتي ونِعَمي، فلم يبقَ على الأرض الآنَ ولو كافرٌ واحد،

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ٤: ٢٨٩ برقم ٥١٣٧.

لكنْ ستظهَرُ فيما بعدُ جماعاتٌ يختارونَ الكُفرَ لأنفُسِهم، وستظلُّ تستفيدُ من نِعَم الأرض في هذه الحياةِ الدُّنيا، لكنّهم سيَلقَوْنَ العذابَ الأليمَ في الآخِرة بسبب كُفرِهم.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

٣٦- في هذه الآيةِ وَجَّه اللهُ تعالى الخطابَ إلى سيّدِنا محمّدٍ ﷺ قائلًا: إنّ هذه الأحداثَ كلَّها بالنِّسبةِ لك ولقومِك من أخبارِ الغَيْب، رَغْمَ أنك تَعرِفُ أحوالَ سيّدِنا نُوح عليه السَّلام بشكلٍ مُجمَلٍ، لكنَّك لم تكنْ تعرِفُ هذه التفاصيلَ، ولهذا فإنّ هذه الأحداثَ تُعتبَرُ دليلًا على نبوَّتِك من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ فيها تَسْريةٌ عن نفسِك، إذ إنه مثلَما صَبَر سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ لمئاتِ السِّنين على إيذاءِ قومِه له وتحمُّلِه، عليك أنت أيضًا أن تصبِرَ وتتحمَّلَ، والنِّهايةُ السَّعيدةُ تكونُ من نصيبِ المتَّقي.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ

وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾

٣٧ـ راجعْ فيما يتعلَّقُ بقوم عادٍ الحاشيةَ رقم ٤٥ للآية رقم ٦٥ من سُورة الأعراف (٧).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾

٣٨ـ قال سيّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ لقومِه: اعبُدوا اللهَ وحدَه؛ لأنه هو وحدَه المستحِقُّ للعبادة، أمّا الأصنامُ التي تعبُدونَها من دونِ الله فهي كذبٌ مَحْض اختَلقْتُموهُ من عندِ أنفُسِكم، وليس لدَيْكم دليلٌ عَقْليٌّ أو نَقْليٌّ عليه.

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

٣٩ـ كلُّ نبيٍّ يقولُ لقومِه هذا الكلامَ نفسَه، أي: أنَّني لا أطلُبُ منكم أجرًا على دعوتي، ألَا تفهَمونَ هذا الكلامَ البسيطَ الواضحَ بأنّ الشَّخصَ الذي يُحدِّثُكم بما فيه خيرُكم، ودونَ طَمَع في أَجْرٍ منكم، لا يمكنُ أن يكونَ عدوًّا لكم، بل إنه في الحقيقة هو المُحبُّ الصّادقُ لكم، وهو الذي يريدُ أن يُنقذَكم من عذابِ جهنَّم، ويُريحَكم بالجنَّة.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾

٤٠ـ أي: اطلُبوا المغفرةَ لذنوبِكم السّابقة، واعزِموا على عَدَم العِصيانِ مستقبَلًا، وعيشوا حياتَكم على أرضِ الله بأمنٍ وسلام، ولا تظلِموا أحدًا، وحينَئذٍ سيرضَى اللهُ عنكم، وسيُنزلُ المطرَ من السَّماءِ فيُنبِتُ لكم زرعًا ومحاصيلَ تضيفُ إلى قوّتِكم

الماليّةِ قوّةً، وتضيفُ كذلك إلى قوّتِكم الجسَديّة وقوّتِكم العدَديّة، ولذا لا تُعرِضوا عن أحكام الله تعالى، وإلا ستُبتَلَوْنَ بسُوءِ الحال والمصائبِ مَثَلُكم مَثَلُ المجرمين.

﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

٤١- الذين يُنكرونَ الحقَّ بناءً على تعصُّبِهم، دائمًا يُغلِقونَ أعيُنَهم عن الأدِلّةِ والبراهين قائلينَ: إنه ليس لدَيْكَ أيُّ دليل واضح على ما تقولُ، ولهذا لا نستطيعُ أن نترُكَ آلهَتنا بناءً على ما تقولُ فقطْ، ولا أن نؤمنَ بك.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾

٤٢- قالوا لسيّدِنا هُودٍ عليه السَّلام: إنّ ما تقولُه عن آلهتِنا إساءةٌ لهم، نعتقدُ أنّ واحدًا من هذه الآلهةِ غَضِب عليك، وأحدَثَ خَلَلًا في عقلِك، وهو ما جَعَلَك تَهذي بكلام غيرِ مفهوم، وأصبح القومُ جميعًا يُعارضونَك ويُخالفونَك، بعدَ أن كانوا من قبلُ يُجِلُّونَك، وعليه قال سيّدُنا هودٌ عليه السّلام: قولوا ما تشاءون، لكنِ اسمَعوا ما أقولُه بشكلٍ واضحٍ وقاطع، ويَشهَدُ اللهُ على ما أقول، واشهَدوا أنتم عليه، إنّني بريءٌ من تلك الآلهةِ التي تشركونَها معَ اللهِ تعالى.

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

٤٣- لو كنتُم صادقينَ فيما تَدَّعونَ من أنّ آلهَتكم يمكنُ أن تُصيبَني بسوءٍ، فافعَلوا أنتم وهم مجتمِعينَ ما بوُسعِكم في ذلك، ولن أطلبَ منكم مُهلةً من الوقت، وإنّي أتحدّاكُم هذا التّحدّيَ الكبيرَ؛ لأنّ اعتمادي على الله تعالى الذي هو

ربُّ الجميع، وكلُّ ذي رُوح في هذه الدُّنيا في قَبْضةِ قُدرتِه، كما أنّ كلَّ أحكامِه مبنيّةٌ على الحقِّ والعدل، والذي يَعمَلُ بأحكام الله تعالى هو فقطْ الذي يمكنُ أن يكونَ على الطريقِ المستقيم.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾

٤٤ـ لقد أرسَلَني اللهُ تعالى إليكم برسالةٍ أبلغتُكم إيّاها، فإنْ أَعرَضْتُم عن هذه الرسالةِ فسيُهلِكُكم ويأتي بقوم غيرِكم يسكُنونَ في أماكِنِكم، ولن تستطيعوا أن تَضُرُّوه بشيء؛ لأنه سبحانَه وتعالى هو الغالبُ على كلِّ شيء، ولا يَخرُجُ شيءٌ في الوجودِ عن مراقبتِه ورعايتِه.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

٤٥ـ عندَما حانَ وقتُ نزولِ العذابِ على قوم عادٍ هبَّت ريحٌ عاصفةٌ استمرَّت ثمانيةَ أيام، اقْتَلَعت كلَّ شيءٍ من جذورِه ودمَّرتْه، وتناثَرتْ جُثَثُ هؤلاءِ القوم الأقوياءِ في الأرض كأنّها جذوعُ نَخْل مقطَّعة، أمّا الذين كانوا قد آمَنوا بسيّدِنا هُودٍ عليه السّلام، فقد رَحِمَهم اللهُ تعالى ونَجّاهم من هذا العذابِ الدُّنيَوي، كما أنّه سيُنْجِيهم من العذابِ الشديد يومَ القيامة.

﴿ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

٤٦ـ أنكَر قومُ عادٍ آياتِ الله تعالى، وعصَوْا رسُلَه، وظَلُّوا يتَّبِعونَ الطُّغاةَ والعُصاةَ، وهو ما عاقَبَهم اللهُ تعالى عليه في هذه الدُّنيا بإنزالِ لعنتِه عليهم، ودمَّرتْهم الأعاصير، وهمُ الآنَ ينتظرونَ العذابَ والهلاكَ يومَ القيامة.

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾

٤٧ـ خَلَق اللهُ تعالى سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ من الطِّين، وخَلَق بني الإنسان جميعًا من سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، كما أنّه تعالى خَلَق الغذاءَ من الطِّين أيضًا، وهو الذي يحفَظُ على الإنسانِ حياتَه، ويجعَلُ سِلسلةَ ذُرِّيّتِه مستمرّةً، وهكذا فإنّ لبني الإنسان جميعًا علاقةً خاصّةً بالأرض، فكأنّهم جميعًا قد خُلِقوا منها. ويُمكنُكَ الرجوعُ إلى الحاشية رقم ٤٧ والآيةِ رقم ٧٣ من سُورة الأعراف (٧) للتعرُّف على المزيدِ عن قوم ثَمُود.

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

٤٨ـ اللهُ تعالى قريبٌ، ويَقبَلُ الدعاءَ، ويُمكنُك الرجوعُ لتفسير هذه الآيةِ إلى الحاشية رقم ١٤١، ١٤٢، والآية رقم ١٨٦ من سورة البقرة (٢).

﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

٤٩ـ كان قومُ ثَمُودَ مشركينَ، وقد أمَرَهم سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلام أن يعبُدوا اللهَ الواحدَ، ومَنَعهم من الشِّرك، فقالوا له: لقد كنّا معجَبينَ للغاية بسلوكِك وشخصيَّتِك من قبلُ، وكانت لدينا آمالٌ كبيرةٌ فيك، بأنك ستقودُ قومَك إلى الأمام في طريق الرُّقيِّ، ولكنَّك قَضَيْتَ على كلِّ آمالِنا ودفنْتَها في التُّراب، والأكثرُ من ذلك أنك تريدُنا أن نترُكَ دين آبائنا وأجدادِنا ونتَّبعَ دينَك، فاسمَعْ منّا جيِّدًا، إنّنا لا نثقُ في دينِك على الإطلاق، ولهذا لن نترُكَ دينَ آبائنا وأجدادِنا ما حيينا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾

٥٠ـ لقد هداني اللهُ تعالى بفَضْلِه إلى حقيقةِ توحيدِه، كما أَنْعم اللهُ تعالى عليَّ بالنُّبوةِ أيضًا، والآنَ لو أنّي ـ لا قدَّر اللهُ ـ عصَيْتُه، وتركتُ توحيدَه كما تريدونَ منّي، فلن تستطيعوا إنقاذي من عذابِه تعالى، بل على العكس، ستزيدونَني ضَرَرًا وخسارة.

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

٥١ـ قالوا: يا صالح، لو أنّك نبيٌّ حقًّا فأَخْرِجْ لنا ناقةً حيّةً من هذه الصَّخرة الصَّمّاء، وهكذا دَعا سيّدُنا صالحٌ عليه السّلامُ ربَّه، واستجابَ له سبحانَه وتعالى فأَخْرَجَ لهم من الصَّخرة ناقةً، وقال لهم سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلام: هذه الناقةُ دليلُ نُبوَّتي، وآيةُ قُدرةِ الله تعالى، ولهذا اترُكوها حُرّةً، تأكُلْ حيثُما تشاء، ولا تضايقُوها، وإلّا أَخذَكم عذابٌ عظيم.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾

٥٢ـ كان ينبغي لهم أن يؤمنوا بعدَ أن رأَوْا هذه المعجزةَ العظيمةَ، لكنّ هؤلاءِ الظالمينَ عصَوا اللهَ تعالى وقَتَلوا هذه الناقةَ، فقال لهم سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلام: لقدِ ارتكبتُم ظُلمًا فاحشًا، ولهذا يُمكنُكمُ الآنَ البقاءُ في بيوتِكم لثلاثةِ أيام، وسيأتيكُم العذابُ بعدَها، وهذا ليس بالوعدِ الكاذب.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

٥٣ـ وعندَما حان وقتُ مجيءِ العذابِ بعدَ ثلاثةِ أيام، جاءَتْهم صيحةٌ عظيمةٌ أصابَتْهم جميعًا، فأصبحوا في ديارِهم موتَى، بمعنى: أنّ اللهَ تعالى قضَى عليهم قضاءً مُبرَمًا بحيثُ بَدَا وكأنّهم لم يكنْ لهم وجودٌ هنا من الأصل، وهكذا أنقَذَ اللهُ تعالى سيّدَنا صالحًا عليه السَّلامُ من السُّوء والحَرَج الشّديد، إذْ لو لم يأتِ قومَه العذابُ كما وَعَدَهم، لَكانوا سَخِروا منه، كما أنقَذَ اللهُ تعالى من هذا العذابِ سيّدَنا صالحًا عليه السّلام والذين آمَنوا معه.

جاء في الآيةِ رقم ٧٨ من سُورة الأعراف (٧) أنّ الزِّلزالَ أصابَهم، وهنا جاء أنّ الصَّيحةَ أصابَتْهم، ومن الممكنِ أن يكونَ الزِّلزالُ والصَّحيةُ قد حَدَثا معًا، أو أنّ الصَّيحةَ كانت شديدةً لدرجةِ أنها أحدَثتْ زِلزالًا، تمامًا مثلَما تهتزُّ المباني والأرضُ اهتزازًا منَ انفجارٍ ما في أيامِنا هذه.

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ

قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾

٥٤ـ كان سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ ابنَ عمِّ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وكان قومُ لوطٍ يسكُنونَ في جنوبِ الشام، بينَما كان سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام يسكنُ في فِلَسطين، وقد أمَرَ اللهُ تعالى الملائكةَ الذين أرسَلَهم لإنزالِ العذابِ بقوم سيّدِنا لوطٍ عليه السّلام أن يذهَبوا ـ أوّلًا ـ إلى سيّدِنا إبراهيمَ عليه السلام، ويُبشِّروه بمولِدِ ابنِه إسحاقَ وحفيدِه يعقوب.

وهكذا تجسَّدتِ الملائكةُ في صُورةِ البشَر، ووَصَلوا إلى سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، فدَعاهم سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى الطعام، وقدَّم لهم لحمًا مشويًّا، ولمّا لم يَمُدَّ الضُّيوفُ أيديَهم إلى الطّعام أصابَ القلقُ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وشكَّ في أمرِ الضُّيوف، فقالت له الملائكةُ: لا تُسِئْ بنا الظنَّ، إنّنا ملائكةٌ، وجئْنا لنُبشِّرَك بمولدِ ابنٍ لك، كما أنّنا أُرسِلنا إلى قومِ لوطٍ لنُنزِلَ بهمُ العذاب.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ إلقاءَ السّلام والردَّ عليه سُنّةُ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام وسُنّةُ الملائكةِ أيضًا، كما أنّ خِدمةَ الضُّيوفِ بتقديم أجوَدِ الطعام الموجودِ في البيتِ لهم من سُنّةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ أيضًا.

حكم الإسلام فيما يتعلّق بالضّيف والمضيف:

قال رسولُ الله ﷺ:

١ـ «مَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِر فلْيُكرِمْ جارَه، ومَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِر فلْيُكرمْ ضيفَه جائزتَه». قال: وما جائزتُه يا رسولَ الله؟ قال: «يومٌ وليلةٌ، والضّيافةُ ثلاثةُ أيّامٍ، فما كان وراءَ ذلك فهو صَدَقةٌ عليه»[١].

٢ـ «الضّيافةُ ثلاثةُ أيّامٍ، وجائزتُه يومٌ وليلة، ولا يَحِلُّ لرجلٍ مسلمٍ أن يُقيمَ عندَ أخيه حتّى يؤثِّمه»، قالوا: يا رسولَ الله، وكيف يؤثِّمُه؟ قال: «يقيمُ عندَه ولا شيءَ له يَقرِيه به»[٢].

كرم ضيافة سيّدنا إبراهيم عليه السّلام:

جاء في بعضِ الرِّواياتِ الإسرائيليّة **«أنّ إبراهيمَ كان لا يأكلُ وحدَه، فإذا**

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٢١ برقم ٦٠١٩.

(٢) مسلم، كتاب اللقطة، باب ٣ برقم ١٧٢٦.

حَضَر طعامُه أرسَلَ يطلُبُ مَن يأكلُ معَه، فلقيَ يومًا رجلًا، فلمّا جلسَ معَه على الطّعام، قال له إبراهيمُ: سمِّ اللهَ، قال الرّجلُ: لا أدري ما الله؟ فقال له: فاخرُجْ عن طعامي، فلمّا خَرَج نَزَل إليه جِبريلُ فقال له: يقولُ الله: إنّه يَرزُقُه على كُفرِه مدى عمُرِه، وأنت بَخِلتَ عليه بلقمةٍ، فخَرَج إبراهيمُ فَزِعًا يجُرُّ رداءه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجِعُ حتّى تُخبرَني لمَ تَرُدُّني لغيرِ معنًى؟ فأخبَرَه بالأمر، فقال: هذا ربٌّ كريم، آمَنْتُ، ودخَلَ وسَمَّى اللهَ وأكلَ مؤمنًا»[١].

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾

٥٥ـ حينَ عَلِمتِ السيّدةُ سارةُ ـ عليها السَّلامُ ـ أن ضيوفَهم من الملائكة، وَقَفت بالقُربِ منهم، وضَحِكت سعيدةً، ثم بَشَّرتِ الملائكةُ السيّدةَ سارةَ عليها السَّلامُ بمولِدِ ابنِها إسحاقَ وحفيدِها يعقوبَ عليهما السَّلام، وكان سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام قد وُلِد له قبلَ ذلك مِن بطنِ السيّدةِ هاجَرَ عليها السَّلام ولدٌ هو سيِّدُنا إسماعيلُ عليه السلام، لكنْ لم يكنْ له من السيّدةِ سارةَ عليها السَّلام أولادٌ، وكان يتمنَّى أن يَرزُقَها اللهُ بوَلَد، ولهذا بُشِّرتِ السيّدةُ سارةُ عليها السَّلامُ مباشرةً في هذه الآية.

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾

٥٦ـ كان عُمُرُ السيّدةِ سارةَ عليها السَّلام في ذلك الوقتِ تسعينَ عامًا، وعُمُرُ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ مائةَ عام[٢]، وكانتِ البُشرى بمولدِ ابنٍ في هذا العمُرِ عجيبةً ومحيِّرةً بالفعل، فقالتِ الملائكةُ: هذا حُكمُ الله تعالى، وهو رحيمٌ بك غايةَ الرَّحمة، ولذا لا داعيَ لأنْ تَتعبَ أو تحتار.

---

(١) تفسير القرطبي، وقد سبقت الحكاية.

(٢) «كانت بنت تسعين سنة وكان إبراهيم ابن مائة سنة» ـ تفسير القرطبي.

والمرادُ بآلِ بيتِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السّلامُ هنا هي: السيّدةُ سارةُ عليها السَّلام، وبالتالي فإنّ الآيةَ رقم ٣٣ من سُورة الأحزابِ (٣٣) التي ذَكَرت طهارةَ آلِ البيتِ تشمَلُ أزواجَ النبيِّ ﷺ الطاهراتِ رضي اللهُ عنهنَّ جميعًا[١].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾

٥٧ـ حينَ زالَ الخوفُ عن سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وجاءته البُشرى بمولِد ابنِه، أخَذ يتناقشُ في أمرِ قوم لوط، وكان يريدُ ـ بفِطرتِه الرَّحيمة ـ أن يَشفَعَ لهم، حتى يؤخِّرَ عنهم العذابَ، فلربَّما تابوا.

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

٥٨ـ قالتِ الملائكة: يا إبراهيمُ عليه السَّلام، لقد أُعطِيَتْ مُهلةٌ لقوم لوط، لكنَّهم لم يهتَمُّوا على الإطلاق بإصلاح أنفسِهم، ولهذا قرَّر اللهُ تعالى أن يُنزِلَ بهمُ العذابَ، وبالتالي دَعْكَ من التشفُّع لهم، فهم لا يستحِقُّونَ أيَّ تعاطُفٍ معهم، وسوف يَنزِلُ بهمُ العذابُ لا مَحالةَ، ولن يُمكنَ إبعادُه.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾

٥٩ـ حين نَزَلتِ الملائكةُ إلى سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلام في صورةِ فِتْيانٍ يتَّصفُونَ بالجمال، أصابَ القلقُ سيّدَنا لوطًا عليه السَّلام؛ لأنّ قومَه مُدمِنونَ على إشباع رغَباتِهم النَّفْسيّة وشهواتِهم معَ الفِتْيانِ وليس معَ زوجاتِهم، وتَخوَّف سيّدُنا

(١) «يدل على أن أزواج النبي عليه السلام من أهل بيته لأن الملائكة قد سمت امرأة إبراهيم من أهل بيته وكذلك قال الله تعالى في مخاطبة أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾». أحكام القرآن للجصاص.

لوطٌ عليه السّلام من أنّهم إذا عَلِموا بوجودِ هؤلاء الفِتْيانِ عندَه، فسيأتونَ إليه ويُحرجُونَه ويُهينونَه، وبالتالي كان ذلك اليومُ بمثابةِ يوم الابتلاءِ بالنِّسبة له.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾

٦٠ـ كانت زوجةُ سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلام كافرةً، وقد أَبْلغَتِ الناسَ بوجودِ الضُّيوفِ ذوي الجَمال، وما أنْ سَمِع الفُسّاقُ من قوم سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلامُ بخبَرِ الفِتْيان حتى هَرْوَلوا قادمينَ إليه، ووَصَلوا إلى بيتِ سيّدِنا لوطٍ عليه السلام، فقال لهم سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلام لِمـا استَـشفَّه من سُـوءِ نيَّتِهم: إنّ استمتـاعَكم بزوجاتِكم أمرٌ جيِّدٌ وجائزٌ لكم، فاتَّقوا اللهَ ولا تُخْزوني في ضيوفي، أليس من بينِكم رجلٌ عاقلٌ رشيدٌ يوقفُكم عندَ حدِّكم ويمنَعُكم من تنفيذِ نواياكمُ السِّيئة؟

في هذه الآية قال سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلام عن زوجاتِ هؤلاء: «بناتي» على سبيل الشفَقةِ والعطف، باعتبارِ أنّهن بناتُ القوم كلِّهم. كما أنّ النبيَّ بالنسبةِ لأُمّتِه يكون بمثابةِ الأبِ، وزوجاتُه بمثابةِ الأُمِّ.

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

٦١ـ قالوا: إنك تَعلَمُ يا لوطُ أنّنا لا رغبةَ لنا في زوجاتِنا مطلَقًا، وتَعلَمُ أيضًا لماذا أَتَيْنا إلى بيتِك في هذا الوقت، ولهذا لا تُجادِلْنا، وسلِّمْنا الفِتْيانَ.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾

٦٢ـ عندَما رأى سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ أنه لا أثَرَ لنصيحتِه على هؤلاءِ الفُسّاق، أَغْلق بابَ بيتِه حفاظًا على ضيوفِه، وصَرَخ فيهم في حالةٍ من الخوفِ والاضطرابِ الشَّديدِ قائلًا: ليتَ عندي قوةً أستطيعُ بها مواجهَتكم جميعًا، أو أنْ تَحميَني قبيلةٌ

من القبائل وتُجيرَني، لَما كنتُ واجهتُ اليومَ هذا الأمرَ المُخْزيَ، وحافظتُ على ضيوفي وحَمَيْتُهم.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ﴾

٦٣ـ حينَ بَلَغ القلقُ والخوفُ بسيِّدِنا لوطٍ عليه السَّلامُ مداهُ، وتعدَّى قومُ لوطٍ في طُغيانِهم كلَّ حدٍّ، قال ضيوفُه: يا لوطُ، أنّنا ملائكةٌ مرسَلونَ من ربِّك، وقد أُرسِلْنا لنُنزِلَ بهمُ العذابَ، فلا تخَفْ، فإنّهم لن يستطيعوا الوصُولَ إليك أبدًا، وافتَحْ بابَك، وسوف نتصرَّفُ نحن معهم.

وهكذا فَتَح سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ بابَ بيتِه، وضَرَب سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ بجناحِه، فذُعر الكُفّارُ وصاحوا قائلينَ بعضُهم لبعض: اهرُبوا من هنا، فإنّ ضيوفَ لوطٍ من السَّحَرةِ العُتَاة[1]. ثم قالتِ الملائكةُ لسيّدِنا لوطٍ عليه السّلام أنْ: أسرعْ بالخروج أنت وأهلُ بيتِك بعدَ مرورِ جزءٍ من اللّيل، ولا يلتفِتْ منكم أحدٌ وينظُرْ إلى الخلف؛ لأنّ وقتَ نزولِ العذابِ على هؤلاء هو الصُّبح، والصُّبح قريبٌ للغاية، لكنْ لا تَصطحِبْ معَك زوجتَك؛ لأنّها كافرةٌ، وسوف تَهلِكُ معَ هؤلاءِ الظالمين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾

٦٤ـ عندَما حان وقتُ نزولِ العذابِ عليهم، قَلَب اللهُ تعالى مساكنَهم وقُراهم

---

(١) «قال ابن عبّاسٍ وأهل التّفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدّار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار، فلمّا رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنّصب بسببهم، قالوا: يا لوط إنّ ركنك لشديد، وإنّهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنّا رسل ربّك، فافتح الباب، ودعنا وإيّاهم، ففتح الباب، فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعموا وانصرفوا على أعقابهم وجعلوا يقولون: النّجاء النّجاء! فإنّ في بيت لوطٍ قومًا هم أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا». تفسيرالقرطبي.

رأسًا على عَقِبٍ، ثم أمطَرهم بحجارةٍ أهلكتِ الكُفّارَ جميعًا.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾

٦٥ـ الأحجارُ التي أمطَرها اللهُ تعالى على قوم سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلام، كانت عليها علاماتٌ خاصّة، وكلُّ حجرٍ مكتوبٌ عليه اسمُ من سيُهلِكُه.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾

٦٦ـ هنا تحذيرٌ لأهل مكّةَ بأنِ انظُروا إلى مصيرِ أولئك الذين ظَلَموا أنفُسَهم من قبلِكم، ولم يَقبَلوا دعوةَ الأنبياءِ عليهم السَّلام، ومناطقُهم ليست بعيدةً عنكم، فإنّها بيْنَ الشّام والمدينةِ المنوَّرة، وكثيرًا ما يشاهدُ تُجّارُكم الذين يذهبونَ إلى الشام تلك الأطلالَ في طريقِهم، وإن لم تَرجِعوا أنتم أيضًا عن شِركِكم، فالعذابُ ليس بعيدًا عنكم، وسيكونُ مصيرُكم هو نفسَ مصيرِ الظالمينَ من قبلِكم.

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى

بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

٦٧ـ مرَّ ذِكرُ قصّةِ سيّدِنا شُعَيْبٍ وقومِه في الآياتِ من ٨٥ إلى ٩٣ من سُورة الأعراف (٧)، حيث قال سيّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لقومِه: لقد تفضَّل اللهُ تعالى عليكم، وأعطاكم وَفْرةً في المالِ والثروة، وبالرَّغْم من ذلك تَنقُصونَ المِكيالَ وتُطفِّفونَ في الميزان، وهو ما لا يَليقُ بكم، وإنْ لم تَرجِعوا عن هذا الخِداع، فإنّي أخشَى أنكم لن تُفلتوا يومَ القيامة من العذابِ الأليم.

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

٦٨ـ يعني: أنّ ما يتبقّى لكم من منافعَ بعدَ أن تُوفُوا الكَيْلَ حلالٌ لكم، وأفضلُ من ذلك المالُ غيرُ الجائزِ الذي تحصُلونَ عليه بإنقاصِكم المِكْيال. على أيِّ حالٍ عمَلي هو تقديمُ النُّصح لكم، وهو ما أفعَلُه الآنَ، ولكنْ ليس من واجبي أن أُجبِرَكم على العمل بما أقولُ، أو أن أُراقبَكم ليلَ نهارَ في بَيْعِكم وميزانِكم.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

٧٠ـ قال سيّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لقومِه: لقد أَنْعم اللهُ تعالى علَيَّ بالهدايةِ والنُّبوّة، كما أَنْعم علَيّ أيضًا بقَدْرٍ كبيرٍ من المالِ والثَّروةِ الدُّنيَوية، ولذا فلستُ

طامعًا في أموالِكم ولا حاسدًا لكم عليها، والأعمالُ السيِّئة التي أمنَعُكم منها لا أَقْرَبُها أنا أيضًا، وما أحبُّه لنفسي أحبُّه لكم كذلك، ولا هدفَ لي سوى أن تنصلحَ عقائدُكم وأعمالُكم، ومحاولاتي كلُّها والتوفيقُ فيها من اللهِ تعالى وبمدَدِه؛ لأنّي أتوكَّلُ على الله وحدَه، وإليه أرجعُ وأُنيب.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾

٧١ـ قال سيّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لقومِه: لا تُوغِلوا في مُخالفتي إلى هذا الحدِّ الذي يأتيكم بسببِه العذابُ الذي نَزَل على قوم نُوح عليه السَّلام، أو على قوم هودٍ عليه السَّلام، أو على قوم صالحٍ عليه السّلام، فإنّ هؤلاءِ جميعًا لم يُطيعوا أنبياءهم الكرامَ عليهمُ السَّلام، وكانت نهايتُهم أنِ ابتَلاهمُ اللهُ تعالى بعذابٍ شديد، ومنطقةُ قوم لوطٍ ليست بعيدةً عنكم، فقد دَمَّر اللهُ تعالى قُراهم، وواقعاتُ عذابِهم معروفةٌ مشهورةٌ، بل إنّ أكثَركم قد رأى ـ بالفعل ـ أطلالَهم، ولهذا لا يزالُ أمامَكم وقتٌ للتوبة، فتُوبوا إلى الله، واللهُ سيعفو عنكم، ولئنْ لم ترجِعوا عن عصيانِكم فالعذابُ ليس بعيدًا عنكم، وسيكونُ مصيرُكم هو مصيرَ الظالمينَ من قبلِكم.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾

٧٢ـ اللهُ تعالى رحيمٌ بمخلوقاتِه غايةَ الرَّحمة، ومحبٌّ لهم غايةَ الحُبّ، ويحبُّ ذلك الإنسانَ الذي يُحسنُ السُّلوكَ معَ مخلوقاتِه أكثرَ من غيرِه، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواهُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عنه: «**الخَلْقُ كلُّهم عِيالُ الله، فأحبُّ الخَلْقِ إلى الله أنفَعُهم لعِيالِه**»[1].

يصعُبُ أن نَجِدَ مثيلًا للحبِّ الذي يُكِنُّه الوالدانِ لأولادِهم، ولكنْ كم يَحمِلُ اللهُ

---

(١) شعب الإيمان، الإمام البيهقي، برقم ٧٤٤٦.

الذي زَرَع هذا الحبَّ في قلبِ الوالدَيْنِ بداخلِه حبًّا لمخلوقاتِه؟ هذا ما لا نستطيعُ تصوُّرَه، ولكنْ حين يتخطَّى الناسُ كلَّ حدٍّ في الظُّلم والطُّغيان، فإنّ اللهَ يُعاقبُهم بمقتَضى الإنصافِ والعدل، ومعَ ذلك يظَلُّ كريمًا معَهم، فحين يتوبُ إليه أيُّ شخصٍ من قلبِه يَعْفو عنه الله تعالى. ولمعرفةِ المزيدِ عن حبِّ الله تعالى لخَلْقِه ورحمتِه بهم راجعِ الحاشيةَ رقم ١٣ والآيةَ رقم ١٢ من سُورة الأنعام (٦).

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾

٧٣- لم تُعجِبْ نصائحُ سيّدِنا شُعَيبٍ عليه السَّلام الكُفّارَ، ولذا لم يكونوا يستمعونَ إلى ما يقولُ بتدبُّرٍ وتمعُّن، ويقولونَ له على سبيل الاحتقار: إنّنا لا نفهَمُ ما تقول، فلا تُزعِجْنا بسببٍ وبدونِ سبب، ولولا أننا نراعي أفرادَ عائلتِك لكُنّا قد أهلَكْناك منذُ زمن؛ لأنّك رجلٌ ضعيف، ولا تستطيعُ التغلُّبَ علينا.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

٧٤- أي: إنه لَمِنَ المؤسِفِ غايةَ الأسَف أنكم تقولون: إنكم لا تؤذونَني إكرامًا لعائلتي، وليس بسببِ أنّني أُرسِلتُ إليكم من اللهِ تعالى لهدايـتِكم، ومعنى هذا: أنّ عائلتي أكرمُ عليكم من اللهِ تعالى، وأنكم تَجاهَلْتُم اللهَ تعالى تمامًا، في حينَ أنه يجبُ عليكم أن تُجِلُّوا اللهَ تعالى أكثرَ من أيِّ أحدٍ آخر؛ لأنّ عملَكم كلَّه يقعُ في دائرةِ علمِه وقُدرتِه، وهو الذي سيُحاسبُكم.

﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾

٧٥ - حين رأى سيّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلام أنّ قومَه غيرُ مستعِدِّينَ للتخلِّي

عن الشِّركِ بأيِّ صورةٍ من الصُّور قال لهم: لو أنّكم مُصِرُّونَ على الشِّركِ فهذا شأنُكم أنتم، أمّا أنا فمستمرٌّ في كلِّ حالٍ على العمَل بالدَّعوةِ إلى التوحيد، وسأظَلُّ أمنَعُكم من الشِّرك، ومعَ ذلك إن لم تتركوهُ فانتظِروا، وستعرِفونَ قريبًا منِ الذي سيأتيه عذابٌ مُخْزٍ، ومن الكذّابُ؟

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾

٧٦ـ عندَما حان وقتُ العذابِ أَنْقذَ اللهُ تعالى برحمتِه سيّدَنا شُعَيبًا والذين آمَنوا معَه، وأهلَكَ باقيَ قومِه كما أهلَكَ قومَ ثمُودَ من قبلُ، بحيث بَدَا وكأنّهم لم يكونوا موجودينَ من الأَصْل.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾

٧٧ـ أرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ بتسع معجِزاتٍ بيِّنات، وأهمُّ هذه المعجِزاتِ معجِزةُ العصَا، وذلك حتى يدْعُوَ فِرعَونَ ورجالَه إلى الرُّشْدِ والهداية، ولكنّ هؤلاءِ أنكَروا دعوةَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، واستمرُّوا في اتِّباع أوامرِ فِرعَونَ، معَ أنّ أوامرَ فِرعونَ كانت تَخلو من الرُّشْدِ ومن الهداية؛ لأنه كان يَعتبِرُ نفسَه ربَّ الأرباب، وكان يوقعُ الظُّلمَ ببني إسرائيلَ، وقد تحدَّثتُ في الحاشية رقم ٦٥ من سُورة الأعرافِ (٧) عن المعجِزاتِ التِّسعة لسيّدِنا موسى عليه السّلام.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾

٧٨ـ سيكونُ فِرعونُ في المقدِّمةِ يومَ القيامة، ويكونُ المشركونَ من قومِه من خَلْفِه، وحينَ يَسقُطُ فِرعَونُ في جهنَّم، يَسقُطُ مِن خَلْفِه أيضًا قومُه، وهذه حُفرةٌ عظيمةٌ سيَسقُطونَ فيها، وحينَ غَرِق هؤلاءِ في الدُّنيا كان الفِرعونُ يتقدَّمُهم أيضًا، وسوف يتقدَّمُ فِرعونُ قومَه يومَ القيامة أيضًا وهم يدخُلونَ جهنَّم.

وبنفس الطريقةِ فإنّ الذين يتَّبِعونَ زعيمًا ضالًّا مُغمِضينَ أعيُنَهم، غيرَ مهتمِّينَ بنصيحةِ هادٍ أو مُرشِدٍ، فإنّهم سيَدخُلونَ جهنَّم يومَ القيامة يتقدَّمُهم هذا القائدُ الضالُّ أيضًا، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يُنقذَهم منها، ولهذا علينا اليومَ أن نستعملَ عقولَنا وأفهامَنا التي أَنْعم اللهُ بها علينا ونحن نتَّبِعُ أحدًا ما أو نُقلِّدُه، وعلينا أن لا نتَّبعَ سوى الذي يكونُ هدَفُه رضا الله تعالى ورضا رسولِه الكريم ﷺ.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾

٧٩ـ حَلَّت اللَّعنةُ على فِرعونَ وقومِه في هذه الدُّنيا بحيث نَزَل عليهم أنواعُ

العذابِ المختلفة، وفي النِّهاية أَغْرقَهمُ اللهُ تعالى في البحر، وسوف يُدخِلُهم جهنَّمَ يومَ القيامة بقيادةِ فِرعَوْنَ أيضًا، وهو عقابٌ قاسٍ وشديدٌ.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الذين يتَّبِعونَ الأشرارَ، حينَ يُضْطَرُّونَ إلى دخولِ جهنَّمَ بقيادةِ هؤلاءِ الأشرارِ يومَ القيامة، فإنّهم سوف يَسُبُّونَ قادتَهم هؤلاءِ ويَلعَنُونَهم، وهم يسيرونَ خلفَهم في عالَم من الذُّلِّ والخِزْي، وعلى العكس منهم فإنّ الذين يتَّبِعونَ الأخيارَ، حينَ يأتي الأمرُ بأنْ يَدخُلوا الجنّةَ بقيادةِ هؤلاءِ الأخيار، فإنّهم حينَئذٍ سيَدعُونَ لأئمَّتِهم ومشايخِهم، ويَنثُرونَ فوقَهم ورودَ المدح والثَّناء، ويَسِيرونَ خلفَهم في حالةٍ من الفَرَح والسُّرور.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾

٨٠ ـ هذه القُرى التي جاء بيانُ قصَّتِها، لا تزالُ أطلالُ بعضِها موجودةً حتى اليوم، يعني: أطلالَ عادٍ وثمُودَ، ومن خلالِ رؤيتِها يمكنُ تصوُّرُ مدى الدَّمارِ الذي أصابَهم، أمّا البعضُ الآخَرُ فقد مُحِي من الوجودِ تمامًا، مثلَ قُرى قوم سيّدِنا نُوح عليه السَّلام، التي لم يبقَ منها سوى قصّتِها، وانمَحَت كلُّ آثارِها.

﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴾

٨١ ـ اللهُ تعالى لم يُعاقِبْ هؤلاءِ بغيرِ سبب، وإنّما هم الذين جَعَلوا أنفسَهم مستحِقِّينَ للعقابِ بظُلمِهم لأنفُسِهم بسببِ طُغيانِهم المستمرِّ، وحينَئذٍ جاءهم العذابُ، وأمّا الآلهةُ التي عَقَدوا عليها الآمالَ بأنّهم سيقفُونَ معَهم عندَ الشّدائد، فلم يُفيدوهم بشيءٍ يومَ القيامة، بل على العكس، أصبحوا سببًا في زيادةِ دمارِهم؛ لأنّهمُ استَحقُّوا العذابَ بسببِ عبادتِهم لهذه الآلهة، ولو أنّهم لم يَعبُدوها لَما أصابَهم العذابُ أصلًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

٨٢ ـ اللهُ تعالى يُمهِلُ الظالمينَ لكي يتوبوا، لكنْ إذا لم يَرجِعوا عن ظُلمِهم فإنّ اللهَ يأخُذُهم بَغْتةً، وأَخْذُه قويٌّ وأليم، وقد قال النبيُّ ﷺ في تفسيرِ هذه الآيةِ «إنّ اللهَ لَيُمْلي للظّالِم حتّى إذا أَخَذه لم يُفْلِتْه»[١].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾

٨٣ ـ جاء بيانُ هلاكِ ودمارِ الأُمم السَّابقةِ حتى يَعتبِرَ منها الضالُّون، ويتدبَّروا قائلينَ لأنفُسِهم: إنّ الذَّنبَ الذي يكونُ عقابُه في الدّنيا، التي هي دارُ العَمل، قاسٍ إلى هذه الدَّرجة، كيف سيكونُ عقابُه في الآخِرة التي هي دارُ الحسابِ فقط؟ وبالرَّغْم من ذلك فإنّ أكثرَ الناسِ عن ذلك في غَفْلة، والسُّعداءُ فقطْ هم الذين يفكِّرونَ في إصلاح أنفُسِهم، وهؤلاءِ هم الذين يؤْمنونَ بيوم القيامة، ويخافونَ من عذابِها؛ لأنه يومٌ سيُحاسَبُ فيه الصّالحُ والطالح، وسيُجمَعُ فيه الأوّلونَ والآخِرون، ولن يغيبَ أحدٌ عنه.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾

٨٤ ـ سيأتي يومُ القيامة على وَجْهِ اليقين، والتأخيرُ فيه ليس إلّا لأنّ اللهَ تعالى حدَّد له وقتًا معيَّنًا، ولم يأتِ هذا الوقتُ بعدُ، ولكنْ عندَما يَحِينُ موعدُه، لن يتأخَّرَ ولو للمحةٍ واحدة، وستطرَأُ على كلِّ الموجودينَ في ميدانِ الحَشْر هَيْبةُ الله تعالى، بحيث لا يستطيعُ أحدٌ أن يتكلَّمَ في البداية، وستبدأُ سلسلةُ الكلام بعدَ أنْ يأذَنَ اللهُ بذلك.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾

٨٥ ـ العالَمُ اليومَ منقسمٌ إلى جماعاتٍ وطبقات، ففي مكانٍ ما تمييزٌ بيْنَ

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة هود (١١) برقم ٤٦٨٦.

الأغنياءِ والفقراء، وفي آخَرَ تمييزٌ بيْنَ البيضِ والسُّود، لكنّ هذا التمييزَ العُنصريَّ كلَّه سينتهي يومَ القيامة، ولن يكونَ هناكَ يومَ القيامةِ سوى فريقَيْنِ فقط؛ الفريقُ الأولُ هم: السُّعَداءُ الذين آمَنوا بربِّهم، وعَمِلوا صالحًا، والفريقُ الثاني هم: التُّعَساءُ الذين كَفَروا بربِّهم، وظَلُّوا في ضلالِهم يَعْمَهُون.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

٨٦ ـ سيَظلُّ التُّعَساءُ في جهنَّم يَصرُخونَ ويَستغيثون، وسيبقَوْنَ في جهنَّمَ طالما بقِيَتِ السماواتُ والأرضُ، بينَما ستكونُ سماواتٌ وأرضُ هذه الدنيا قد فَنِيت، وظهرت إلى الوجودِ سماءٌ وأرضٌ جديدةٌ خاصّةٌ بالآخِرة، وهي التي ستبقَى إلى الأبد، وبالتالي فإنّ هؤلاءِ التُّعَساءَ سَيَخلُدونَ في نارِ جهنَّم، لكنّ المُذنبينَ من أهلِ الإيمان سيُكمِلونَ عقابَهم، ثم يُخرِجُهمُ اللهُ من جهنَّم بعدَها ويُدخِلُهم الجنّةَ.

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

٨٧ ـ والسُّعَداءُ سيَخلُدونَ في الجنّةِ إلى الأبد، وتتواصَلُ سلسلةُ المغفرةِ والرَّحمة من اللهِ تعالى عليهم، أمّا كيف ستكونُ حياةُ أهلِ الجنّة؟ فيمكنُ التعرُّفُ عليها من حديثِ النبيِّ ﷺ الذي قال فيه: «**يُنادي منادٍ إنّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسقَموا أبدًا، وإنّ لكم أن تَحيَوْا فلا تموتوا أبدًا، وإنّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهرَموا أبدًا، وإنّ لكم أن تنعُموا فلا تبتئسوا أبدًا**»[1].

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾

٨٨ ـ أيُّها المسلمون، إنّ الأشياءَ التي يَعبُدُها هؤلاءِ المشركونَ لا تَستحِقُّ

---

(١) مسلم، كتاب الجنة، باب ٨ برقم ٧١٥٧.

العبادةَ على وجه اليقين، فلا تقَعوا في أيِّ شكٍّ فيما يتعلَّقُ بهم، فليس لديهم أيُّ دليل على عبادةِ هذه الأشياء، وإنّما هم يُقلِّدونَ آباءهم وأبناءهم تقليدًا أعمى ليس إلّا، ونحن سوف نُعاقبُ المشركينَ بما قرَّرناهُ لهم من عقابٍ، ولن ينقُصَ منه شيءٌ.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

٨٩ ـ عندَما نزلَ القرآنُ الكريمُ انقسم أهلُ مكّةَ إلى فريقَيْنِ، الفريقُ الأولُ هو القليلُ في عددِهِ، وهم الذين آمنوا به، والفريقُ الثاني وهم الأكثريّةُ الذين شَكَّكوا في القرآن، سواءٌ كان عن عَمْدٍ أم لا، ولم يؤمنوا به.

وفي هذه الآية يُسَرّي اللهُ تعالى عن نبيِّه ﷺ: أنْ لا تحزَنْ ولا تغتمَّ، فقد حَدَث مِثلُ هذا معَ الأنبياءِ السّابقينَ عليهم السَّلامُ مثلَ: سيّدِنا موسى عليه السَّلام، واللهُ تعالى يُمهِلُ كلَّ قوم إلى حدٍّ معيَّنٍ، حتى يُصلِحوا من أنفُسِهم، لكنّ الذين لا يَرجِعونَ عن طُغيانِهم بالرَّغْم من هذا، فإنّ اللهَ تعالى قد حدَّد مسبَقًا نوعَ العقابِ الذي يستحِقُّونَه طِبقًا لطُغيانِهم، وكذا وقتُ هذا العقاب، وأحيانًا يَنزِلُ جزءٌ من عقابِ أُمّةٍ ما عليها في الدنيا، وأحيانًا أخرى يؤخَّرُ العقابُ كُلَّه إلى يوم القيامة. على أيِّ حال، هذا قرارُ الله تعالى، ولو لم يكنْ هذا القرارُ محدَّدًا سَلَفًا لكان قد أَهْلكَ هؤلاءِ المنكِرينَ فورًا.

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

٩٠ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم كلَّ أعمالِ الذين آمَنـوا بالقرآنِ المَجيد، وأعمالِ الذين كَفَروا به، وسوف يَجْزي اللهُ كلًّا منهما بما يستحِقُّه تمامًا طِبقًا لأعمالِهما.

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

٩١ـ في هذه الآية أمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإسلام بالثَّباتِ على الأحكام الإلهيَّة، ومَنَعهم من الطُّغيان؛ لأنّ اللهَ تعالى يَرى أعمالَنا في كلِّ وقت، ولذا لا يليقُ بأيِّ مسلم أن ينحرفَ في أيِّ وقتٍ عن أحكام الله تعالى.

والمرادُ بالاستقامة هنا: أن يبتعِدَ بعقيدتِه وأعمالِه عن الإفراطِ والتفريط، وأن يستمرَّ في العمَل طِبقًا لها برَغْم كلِّ المصاعبِ التي تواجهُه، والاستقامةُ عند الصُّوفية أرفَعُ درجةٍ من الكرامة.

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

٩٢ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ لأهل الإسلام أنْ لا يَميلوا إلى الظّالمينَ ولا يتقرَّبُوا إليهم، ويتجنَّبوا تعظيمَهم وتكريمَهم ومجتمَعَهم وصداقتَهم، وإلّا سيعتقدُ هؤلاءِ الظالمونَ أنّكم راضُونَ بظُلمِهم، وسيحاولونَ إشراكَكم في الظُّلم، وفي النِّهايةِ

يمكنُ أن تَستحِقُّوا أنتم أيضًا نارَ جهنَّمَ التي سيَحترقُ فيها الظالمونَ أنفُسُهم، ولن تجدوا مُعِينًا لكم، تمامًا مثلَما لن يكونَ لهؤلاءِ الظالمينَ مُعِين.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾

٩٣- المرادُ بطَرَفَي النهار؛ صلاةُ الفجرِ وصلاةُ العصر[1]، واحدٌ قبلَ طلوع الشمس، والآخَرُ قبلَ غروبِها، والمرادُ بزُلَفي اللَّيل: صلاةُ المغربِ وصلاةُ العشاء[2]، وجاء ذِكرُ صلاةِ الظُّهر في الآية رقم ٧٨ من سُورة الإسراء (١٧).

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

٩٤- كم هو أسلوبٌ جميلٌ للترغيبِ في الحسَنات، وكم هي نصيحةٌ جامعةٌ لمَن يَقبَلونَ النَّصيحةَ، إذ إن الطبيعيَّ أنّ ثوابَ الحسَنة ينالُه الشّخصُ بفعلِ الحَسَنة، لكنّ هناك فائدةً إضافيّةً أخرى للحسَنة، وهي أنّ صغائرَ الذُّنوبِ يغفرُها اللهُ تعالى ببركتِها، لكنْ لا بدَّ من القِصَاص لحقوقِ العباد، حتى وإن كانت ضمنَ صغائرِ الذنوب.

ويُعلَمُ من هذا أنه كما أنّ اللهَ تعالى يغفرُ الذُّنوبَ ببَركةِ الحسَنات، فإنه يعفُو عن المُذنبينَ ببَركةِ شفاعةِ الصّالحين.

قال النبيُّ ﷺ:

١- «الصّلَواتُ الخمسُ والجمُعةُ إلى الجمُعة ورمضانُ إلى رمضانَ مكفِّراتٌ ما بينَهنَّ إذا اجتُنِبَ الكبائر»[3].

---

(١) «كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار، والأقرب أن الصلاة التي تقام في طرفي النهار هي الفجر والعصر». التفسير الكبير.

(٢) «هما زلفتان: صلاة المغرب وصلاة العشاء». تفسير ابن أبي حاتم.

(٣) مسلم، كتاب الطهارة، باب ٥.

٢ ـ «أرأيتم لو أنّ نَهرًا ببابِ أحدِكم، يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسًا، ما تقولُ ذلك يُبقِي من دَرَنه». قالوا: لا يُبقي من دَرَنِه شيئًا. قال: «فذلك مَثَلُ الصَّلَواتِ الخمس، يَمْحو اللهُ بها الخَطايا»(١).

٣ـ عن أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم خَرَج زمنَ الشّتاء والوَرَقُ يتَهافَتُ، فأخَذَ بغُصنَيْنِ من شجرةٍ، قال: فجَعَل ذلك الوَرَقُ يتهافَت، قال: فقال: «يا أبا ذَرّ»، قلت: لبَّيْكَ يا رسولَ الله. قال: «إنّ العبدَ المسلمَ ليُصلِّي الصّلاةَ يريدُ بها وَجْهَ الله، فتَهافَتُ عنه ذنوبُه كما يتَهافتُ هذا الوَرَقُ عن هذه الشّجرة»(٢).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

٩٥ـ يعني: لو أنه كان في الأُمم السّابقةِ كثيرٌ من الجادِّينَ والعُقَلاء، وكانوا يمنَعونَ الآخَرينَ من الفساد، لَما أصابَ العذابُ هؤلاءِ الأُمَم، لكنّهم كانوا مستغرِقينَ إلى أبعدِ حدٍّ في اللَّهوِ والعبَث، وظَلُّوا يرتكبونَ أعمالَ الشرِّ، ويَعِيثونَ في الأرضِ فسادًا، ممّا نَتَج عنه أنْ نَزَل العذابُ عليهم، ودُمِّروا عن آخِرِهم، ولم يَنجُ سوى أولئك الذين آمَنوا بالأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، وظَلُّوا يحاولونَ ـ جاهدينَ ـ لإصلاح الناس.

وفي هذه الآيةِ إرشادٌ للمسلمينَ أن يَعتبِروا من عذابِ الأُمم السّابقة، وأن يَحرِصَ المسلمونَ على وجودِ كثيرٍ من أولئك الذين يَمنَعونَ الناسَ من الظُّلم والفساد؛ لأنه طالما كانت الأكثريّةُ من الصّالحين، لن تَهلِكَ الأُممُ.

---

(١) البخاري، مواقيت الصلاة، باب ٦.

(٢) مسند أحمد، ٥: ١٧٩.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

٩٦ـ المناطقُ التي يوجَدُ بها الكثيرُ من الطيِّبينَ المُنصِفينَ، والذين يعمَلونَ جاهدينَ على إصلاح الآخَرين، لا يَنزِلُ على أهلِها العذابُ؛ لأنّ الله تعالى لا يَظلِمُ أحدًا.

يقولُ الإمامُ فخرُ الدِّين الرّازي: «**المرادُ من الظُّلم هاهنا: الشِّركُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] والمعنى: أنّه تعالى لا يُهلِكُ أهلَ القُرى بمجرَّدِ كونِهم مشركينَ إذا كانوا مُصلِحينَ في المعاملات فيما بينَهم، والحاصلُ: أنّ عذابَ الاستئصالِ لا يَنزِلُ لأَجْل كونِ القوم معتقِدينَ للشِّركِ والكُفر، بل إنّما يَنزِلُ ذلك العذابُ إذا أساءوا في المعاملات وسَعَوْا في الإيذاءِ والظُّلم. ولهذا قال الفقهاءُ: إنّ حقوقَ الله تعالى مَبْناها على المُسامحةِ والمساهَلة، وحقوقُ العباد مَبْناها على الضِّيقِ والشُّحّ. ويقالُ في الأثَر: المُلكُ يبقَى معَ الكُفر ولا يبقَى معَ الظُّلم، فمعنى الآية: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ أي: لا يُهلِكُهم بمجرَّدِ شركِهم إذا كانوا مُصلِحينَ يُعامِلُ بعضُهم بعضًا على الصّلاح والسَّداد. وهذا تأويلُ أهلِ السُّنّةِ لهذه الآية، قالوا: والدّليلُ عليه: أنّ قومَ نُوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولُوطٍ وشُعَيبٍ إنّما نَزَل عليهم عذابُ الاستئصالِ لمّا حَكَى اللهُ تعالى عنهُم من إيذاءِ النّاس وظُلم الخَلْق**»[1]، بمعنى: إمّا أنّهم فيما بينَهم كانوا يغتصِبونَ حقوقَ بعضِهم بعضًا، أو أنّهم كانوا يؤْذونَ الأنبياءَ الكرامَ عليهم السّلامُ وأهلَ الإيمانِ ويَظلِمونَهم، ولم يكنْ سببُ العذابِ في هذه الدُّنيا هو الشِّركَ فقطْ؛ لأنّ العذابَ الأَصْليَّ والكاملَ للشِّركِ هو نارُ جهنَّم، وهو ما سيتحقَّقُ في الآخِرة.

---

(١) التفسير الكبير.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

٩٧ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، إن شاء جَعَل الناسَ جميعًا أُمّةً واحدةً، وما اختَلَف أحدٌ أبدًا في المبادئِ والأصُولِ والعقائد، لكنْ كانت مشيئةُ اللهِ أن يُريَ الناسَ طريقَي الحقِّ والباطل، ويُعطيَهم الحُريّةَ في اختيارِ واحدٍ من الطريقَيْن، حتى يمكنَ ابتلاؤهم، ولهذا فهُم يختلفونَ بعضُهم عن بعضٍ طبقًا لاختياراتِهم، فالذين يستعملونَ العقلَ والفَهْم، ويختارونَ طريقَ الإيمانِ والسَّلام، يرحَمُهم اللهُ تعالى بسببِ حبِّهم للحقِّ، وكأنّ اللهَ تعالى خَلَق محبِّي الحقِّ وعُشّاقَه لكي يرحَمَهم، أمّا الذين لا يستعملونَ العقلَ والفَهْمَ بشكلٍ صحيح، ويختارونَ طريقَ الكُفرِ والظُّلم، سيملأُ اللهُ بهم جهنَّمَ.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

٩٨ـ أَطْلع اللهُ تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ على أخبارِ الأنبياءِ السَّابقين، حتّى يطمئنَّ قلبُه بأنّه ليس أهلُ مكّةَ فقطْ الذين يؤْذونَه نبيًّا، وإنّما ارتكَبتِ الأُممُ السّابقةُ هذا الجُرمَ منَ الإيذاءِ معَ أنبيائهم عليهم السَّلام، وقد جاء بيانُ وقائعِ الأنبياءِ الكرام السّابقينَ عليهمُ السَّلام إجمالًا واختصارًا في السُّوَرِ السابقة، لكنْ في هذه السُّورة جاءه الحقُّ بحيث جاء بيانُ تلك الوقائع بكثرةٍ وبتفصيل أيضًا في هذه السُّورة، وتهيَّأتْ فيها دروسٌ للنَّصيحةِ والتذكيرِ بالنِّسبة لأهلِ الإيمان، حتّى يتذكَّروا دائمًا أنّ عليهم البُعدَ عن الأعمالِ السيِّئة، والقيامَ بالأعمالِ الصّالحة.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

٩٩ـ يعني: إن ظلَلتُم على شِركِكم ولم تَقبلوا الإسلامَ، فهذا شأنُكم وقرارُكم، فافعَلوا ما تشاءون، وانتظِروا النتائجَ، أمّا نحن فسوف نبقَى عاملينَ بما

يُرضي اللهَ تعالى، وفي نهايةِ المطافِ سيَعلَمُ الجميعُ ما هي عاقبةُ كلٍّ واحد.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

١٠٠ـ كلُّ شيءٍ خَفِيٍّ في السّماءِ والأرضِ هو لله تعالى فقطْ، والقرارُ الأخيرُ لكـلِّ عمَلٍ له هو، ولذا ينبغي أن تعبُدوه هو، وأن تتوكَّلوا عليه هو؛ لأنه هو الذي يَعلَمُ تمامَ العِلم كلَّ أعمالِكم، وسيُحاسبُكم طِبقًا لأعمالِكم هذه.

جامعة الكَرم، إيتن هال، إنجلترا،
١٩/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزَادَه

* * *

فهرس المطالب التفصيلي
للمجلد الثاني
(من سورة الأنعام إلى سورة هود)

المطالب	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
عقيدة القيامة	٦	٣١	٢٨	٤١
لقاء الأعمال في ميدان الحشر	٦	٣١	٢٨	٤٢
ستُحاسب الحيوانات أيضًا يوم القيامة	٦	٣٨	٣٥	٤٥
سيكون حساب الجميع يوم القيامة في لحظات قليلة	٦	٦٢	٦٠	٦٧
أكبر اجتماع لتقسيم الجوائز	٦	٦٢	٦٠	٦٧
أكبر جائزة يوم القيامة	٦	٦٢	٦٠	٦٧
مثالٌ على البعث	٧	٥٧	٤٢	١٥٧
دليل على البعث	١٠	٤	٨	٤١٥
تعريف القيامة	١٠	٤	٨	٤١٥
دار الجزاء	١٠	٤	٨	٤١٥
فوائد الاعتراف بيوم القيامة	١٠	٤	٨	٤١٥
ضرر إنكار القيامة	١٠	٤	٨	٤١٥
عدة جوانب لضرورة يوم القيامة	١٠	٤	٨	٤١٥
حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبُوا	١٠	٣٠	٢٩	٤٣٥
سيشهد الليل والنهار أيضًا في يوم القيامة	١١	١٨	١٥	٤٩٥
الستر على أهل الإيمان يوم القيامة	١١	١٨	١٥	٤٩٥
الصدق والكذب				
نسبة الكذب إلى الله تعالى والرسول ﷺ	٦	٢١	٢٢	٣٣
تفصيل الأخلاق الحسنة	٧	١٩٩	١١١	٢٢٩
من هم الصادقون؟	٩	١١٩	٩٦	٣٩٥
الصدق طريق الجنة	٩	١١٩	٩٦	٣٩٥

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

أولًا: كتب التفاسير

(١) تفسير ضياء القرآن: الشيخ محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٩٩٥م (٥ مجلدات).
(٢) الدر المنثور: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م (٨ مجلدات).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٤) التفسير الكبير: الإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٦ مجلدًا).
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(٦) في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر (٦ مجلدات).
(٧) جامع البيان (تفسير الطبري/ تفسير ابن جرير): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٤م (١٥ مجلدًا).
(٨) تفسير روح البيان: الإمام إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٩) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان ١٩٨١م (٣ مجلدات).
(١٠) تفسير البيضاوي: الإمام ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (مجلدان).
(١١) تفسير فتح العزيز (تفسير عزيزي: أردو)، شاه عبد العزيز الدهلوي، مطبعة عليمي، دهلي، الهند.
(١٢) تفسير ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٣) التفسير المظهري: القاضي محمد ثناء الله باني بتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٤) تفسير نعيمي: المفتي أحمد يار خان نعيمي، المكتبة الإسلامية، الكجرات، باكستان.

(١٥) تفسير روح المعاني: الإمام شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٨م (١٠ مجلدات).

(١٦) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر ١٩٩١م (١٤ مجلدًا).

(١٧) تفسير الحسنات: العلامة أبو الحسنات القادري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان (٧ مجلدات).

(١٨) تفسير الخازن: الإمام علاء الدين البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٧ مجلدات).

(١٩) تنوير المقياس: عبد الله بن عباس، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر ١٩٧٢م.

(٢٠) البحر المحيط: محمد بن يوسف الغرناطي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).

(٢١) مدارك التنزيل (تفسير النسفي): الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٩٩٦م.

(٢٢) خزائن العرفان: سيد محمد نعيم الدين مرادآبادي، حفيظ بك دبو، الهند.

(٢٣) أحكام القرآن: الإمام أحمد بن علي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٤) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

(٢٥) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٢٦) تفسير الكشاف: محمود بن عمر الزمخشري: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.

(٢٧) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٨) تفسير القرآن العظيم، حافظ بن أبي حاتم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان (١٤ مجلدًا).

(٢٩) تفسير الجيلاني: محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، شركة التمام، بيروت، لبنان.

(٣٠) التفسير المنير: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام (١٧ مجلدًا).

(٣١) زاد المسير: عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٨ مجلدات).

(٣٢) تفسير الماجدي: عبد الماجد دريا آبادي، تاج كمپنى لميتد، لاهور، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٣) تفسير أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).

(٣٤) تفسير معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان (٨ مجلدات).

(٣٥) تفهيم القرآن: سيد أبو الأعلى المودودي، مركزى مكتبه إسلامى ببلشرز، نيو دلهي، الهند (٦ مجلدات).
(٣٦) تفسير عثماني: شبير أحمد عثماني، دار الإشاعت، أردو بازار، كراتشي، باكستان (مجلدان).
(٣٧) تفسير البغوي: الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، حاشية تفسير الخازن (٧ مجلدات).
(٣٨) تفسير تبيان القرآن: العلامة غلام رسول سعيدي، فريد بك ستال، اردو بازار، كراتشي، باكستان.
(٣٩) تفسير أبي السعود: القاضي محمد بن محمد، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٤٠) تفسير حقاني: العلامة عبد الحق حقاني، مير محمد كتب خانه، آرام باغ، كراتشي، باكستان.
(٤١) تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانيًا: كتب الأحاديث

(٤٢) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعاء، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٤) سنن الترمذي: محمد بن عيسى، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٦) سنن أبي داوود: سليمان بن الأشعث، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٧) سنن النسائي: أحمد بن شعيب، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٨) مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٩) الموطأ: الإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٥٠) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٥١) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، العراق ١٩٨٤م (٢٥ مجلدًا).
(٥٢) المستدرك: الإمام الحاكم النيشابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (٤ مجلدات).
(٥٣) الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (مجلدان).

(٥٤) رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي الشافعي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٧٠م.
(٥٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٩٣م (٤ مجلدات).
(٥٦) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
(٥٧) الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٦٨م.
(٥٨) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، نشر السنة، الملتان، باكستان (١٠ مجلدات).
(٥٩) المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية (١١ مجلدًا).
(٦٠) صحيح ابن حبان: دار الفكر، بيروت، لبنان (٦ مجلدات).
(٦١) سنن الدارمي: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الدعوة، استنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٦٢) مصنف عبد الرزاق: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٦٣) مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٤) المعجم الصغير: الإمام الطبراني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٥) جمع الجوامع: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٦٦) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مراجع أخرى:

(٦٧) معجزات الرسول: محمد متولي الشعراوي، المكتبة الإسلامية الشعراوية، القاهرة، مصر.
(٦٨) الخصائص الكبرى: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧٥م (مجلدان).
(٦٩) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(٧٠) البداية والنهاية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (٧ مجلدات).
(٧١) المفردات: الإمام راغب الأصفهاني، مكتبة مصطفى البابي، مصر ١٩٦١م.
(٧٢) لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر (٨ مجلدات).

(٧٣) المنجد: دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٧٥م.
(٧٤) شرح المواهب اللدنية: الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٧٥) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م (٧ مجلدات).
(٧٦) كتاب المبسوط: شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٠م (١٥ مجلدًا).
(٧٧) الفتاوى العالمگيرية: العلامة نظام الدين، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٨) فتاوى قاضي خان: حسن بن منصور الفرغاني الحنفي، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٩) رد المحتار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٨ مجلدات).
(٨٠) حاشية الطحطاوي: الإمام أحمد الطحطاوي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨١) مراقي الفلاح: حسن بن عمار الحنفي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨٢) فتاوى أفريقيه: الإمام أحمد رضا القادري، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٨٣) بهارِ شريعت: ربيع الشريعة: العلامة محمد أمجد علي، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، باكستان.
(٨٤) إمداد الفقه: محمد إمداد حسين بيرزاده، دار السلام، القاهرة، مصر ٢٠٠٣م.
(٨٥) اسلامى عقائد: العقائد الإسلامية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة ١٩٩٩م.
(٨٦) كنز العمال: العلامة علاء الدين البرهانبورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٨٥م (١٦ مجلدًا).
(٨٧) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (١٠ مجلدات).
(٨٨) نزهة المجالس: عبد الرحمن الصفوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٨٩) نور الإيضاح: الشيخ حسن بن علي، كتب خانه مجيديه، ملتان، باكستان.
(٩٠) قصيدة البردة: الإمام البوصيري، الترجمة الإنجليزية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم بپلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة.

(٩١) السيرة النبوية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٩٢) ضياء النبي: بير محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٤١٥هـ (٧ مجلدات).
(٩٣) الصراط المستقيم: شاه إسماعيل الدهلوي، اسلامي اكيدمي، لاهور، باكستان.
(٩٤) القول الجميل (أردو): شاه ولي الله، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٩٥) سبل الهدى والرشاد: الإمام محمد بن يوسف الشامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر (١٢ مجلدًا).
(٩٦) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم: الإمام عبد الرحمن الجوزي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(٩٧) تاريخ الإسلام: المؤرخ شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٥٢ مجلدًا).
(٩٨) إمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٥ مجلدًا).
(٩٩) حلية الأولياء: الإمام أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٢ مجلدًا).
(١٠٠) الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام ١٩٨٩م (٨ مجلدات).
(١٠١) الفقه الحنفي وأدلته: الشيخ صاغر جي، دار الكلم الطيب، دمشق، الشام ٢٠٠٠م (٣ مجلدات).
(١٠٢) الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الفكر، بيروت، لبنان (٥ مجلدات).
(١٠٣) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م، (١٠ مجلدات).
(١٠٤) الأدب المفرد: الإمام البخاري، مكتبة الآداب.
(١٠٥) السيرة الحلبية: نور الدين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٠٦) شرح الشفاء: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٠٧) طبقات ابن سعد: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ٢٠٠١م، (١١ مجلدًا).
(١٠٨) بدائع الصنائع: علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٣م (١٠ مجلدات).
(١٠٩) الموسوعة الإسلامية: الفيصل ناشران، اردو بازار، لاهور، باكستان (مجلدان).

(١١٠) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (١٠ مجلدات).
(١١١) الهداية: علي بن أبي بكر الفرغاني، مكتبة شركة علمية، خارج بوابة بوهر، الملتان، باكستان (مجلدان).
(١١٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (ثلاث مجلدات).
(١١٣) عمدة القاري، العلامة بدر الدين عيني، دار الفكر، بيروت، لبنان (٢٥ مجلدًا).
(١١٤) فتح الباري: الإمام ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(١١٥) الأحكام الفقهية: أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
(١١٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م.
(١١٧) المقاصد الحسنة: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(١١٨) الفاروق: العلامة شبلي النعماني، مشتاق بك كارنر، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١١٩) المواهب اللدنية: الإمام أحمد القسطلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٢٠) الحاوي للفتاوي: الإمام جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٢١) الكواكب السائرة: الشيخ نجم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٢٢) الفوائد المجموعة: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٣) حقوق الأولاد: محمد شريف الصواف، دار الفكر، دمشق، الشام.
(١٢٤) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (٤ مجلدات).
(١٢٥) سيرة النبي: سيد سليمان الندوي، ناشران قرآن لميتد، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١٢٦) الخطبة العصرية: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
(١٢٧) كتاب الخراج: الإمام أبو يوسف، مكتبة الأزهر للتراث، القاهرة، مصر.
(١٢٨) شرح شمائل الترمذي: سليمان بن عمر الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٩) البدر المنير: الإمام الشعراني، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، مصر.
(١٣٠) الكامل لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(١٣١) إرشاد العباد: عبد العزيز محمد سلمان، مطابع الخالد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
(١٣٢) نسيم الرياض: شهاب الدين خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٣٣) أسد الغابة: أبو الحسن الجزري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(١٣٤) الإصابة: الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٣٥) جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، مصر.
(١٣٦) سيرة عمر بن الخطاب: أبو الفرج بن الجوزي، دار الدعوة الإسلامية، القاهرة، مصر.
(١٣٧) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، مصر.
(١٣٨) فيوض القرآن: سيد حامد حسن بلكرامي، فيروز سنز لميتيد، لاهور، باكستان.
(١٣٩) نزهة القاري شرح البخاري: مفتي محمد شريف الحق أمجدي، دائرة البركات، كهوسي، اعظم كرهـ، يوبي، الهند.
(١٤٠) منهاج البخاري: محمد معراج الإسلام، عرفان القرآن، أعوان تاون، لاهور، باكستان.
(١٤١) إرشاد الساري شرح البخاري: شهاب الدين قسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٤٢) أيها الولد: الإمام الغزالي، Awakening Publications 200 UK Swansea.
(١٤٣) دلائل النبوة: أبو نعيم الأصبهاني، دار ابن كثير، بيروت.

ثالثًا: المراجع الإنجليزية

(144) Miracles of the Qur'an: Muhammad Mutawali ash-Sha'raawi, published by Daar-ul-Taqwa Ltd. London.

(145) Encyclopedia Britannica: peter B. Norton, Joseph Espsito, USA, 1995.

(146) Islam & the West: H.R.H. Charles Prince of Wales, printed by Uniskill Ltd. Eynsham, Oxford, UK.

(147) Muhammad at Madinah: Montgomery Watts. Oxford University Press, 2006.

(148) Oxford Encyclopedia Dictionary: published by Oxford University Press, USA, 1991.

(149) Shari'ah the Islamic Law: Abdur Rahman Doi (Zia-un-Nabi).

(150) The Holy Bible: published by Collins, London, 1954.

(151) The Living Bible: British Edition, 1975.

(152) The Hutchinson Encyclopedia: 1999 Edition.

(153) The New Universal Encyclopedia: Caxton publishing Co, Ltd, London.

(154) The English Pig: published by The Hambledon Press, London 1998.

(155) American Government: Lowi & Ginsberg. Published by W.W. Norton Publication 1998.

(156) Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd, London. 16th Edition 1983.

(157) Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4th Edition 1989.

(158) The Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic: Edited by J. M. Cowan, 3rd Edition.

(159) The 100: Michael H. Hart, Citadel Press, 1987, New Jersey, USA.

(160) The Bible, the Qur'an and Science: Maurice, 1979, North America, Trust Publication, USA.

